

تاريخ الأدب العربي

في

العصر العباسي

بغير الاندلس والمغرب



بقلم

أحمد بن محمد بن يحيى

مدرس أدب بدار العلوم

الطبعة الثانية

حق الطبع للمؤلف

١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م

مطبعة العلوم شارع الخليل بجدة لاظ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العصر العباسي

١٣٢ - ٦٥٦ هـ

تصوير عام

للحال السياسية في هذا العصر الطويل

دالت الدولة الأموية، وآلت إلى العباسيين والعرب فريقان: فريق يحن إلى الدولة الدائلة، ويود أن لو عاد الزمن بهاء على الأعقاب، وآخر يرى أن مافعله العباسيون من استئثارهم بالخلافة على أبناء عمهم العلويين ذوي الحق الأصيل افتراء وطغيان^(١)، فكان من الطبيعي حينئذ أن يولوا وجهة الدولة الجديدة عن العرب، إلى غيرهم في تثبيت قواعدها، وتصريف شئونها، ولم يك هناك غير سوى الفرس، وإن كانوا في عقيدتهم علويين،

(١) يزعم العباسيون أنهم أحق بالخلافة من أبناء علي، لأنهم فوق ورائهم للعباس «وإرث النبي في عمومته دون أبناء علي من فاطمة ومن غير فاطمة بالأولى» قد تنازل لهم عن حقهم في الخلافة هؤلاء الإبناء، ذلك أن أبا هاشم بن محمد بن علي بن أبي طالب نزل مقيما بقرية الحريمة بالشرارة من الشام لدى علي بن عبد الله ابن العباس، وحين دنت وفاته عنده تنازل له عن هذا الحق الذي آل بعد علي إلى ابنه محمد فأقام الدماء وجعل عليهم النقباء ومرحهم إلى خراسان، ولكن العلويين ينكرون هذا التنازل ومن اعتمد به منهم يجعله حجة على أبناء علي من محمد بن الحنفية دون أبنائه من فاطمة البتول.

ذلك لأنهم انساقوا في تيار السلطان الجديد، ولو إلى حين، وبهذا تبدلت الدولة من عربية محضة، إلى عربية يشوبها سلطان الفرس مع سلطان الخلفاء؛ ثم كان أن أسست عاصمتها الجديدة «بغداد» في أحضان الفرس، فكان ثم زيادة في التجاور واختلاط، ولكن سلطان الفرس على ماصار له من نفوذ، لم يقو أن يتغلب في القرن الأول على سلطان الخلفاء، لقوة شخصيتهم، وفتوة دواتهم؛ والتاريخ لا يزال يحدثنا بما كان من فتك المنصور بأبي مسلم، وفتك الرشيد بالبرامكة، احتفاظا للخلافة بالنفوذ؛ ولذا عرف هذا القرن الأول، بعصر سيادة الدولة، واكتمال السلطان. غير أنه حدث في آخره حيث آلت الخلافة إلى المعتصم أخى المأمون أن عمده بحكم فتوته، وقوة بدنه، وانسياقه لاشباع هذا النهم الجسمي، بأعمال الرياضة والفروسية، إلى عدد من الأتراك الخدم، جعلهم في هذا النوع من اللهو مخالطيه ومعاونيه، وانساق في سبيل الاستكثار منهم، حتى بلغوا كما قال المؤرخون: السبعين ألفاً، وصار لهم في بغداد شغب واعتداء جأر له أهلوها بالشكوى منهم والاشتمزاز. وكأنه قد وجد بغداد لما فيها من جد الأمر، ومهام الشئون ملهية له وهؤلاء، أن ينساقوا في هذه السبيل الرياضية، إلى حيث يريدون، فهجروا بهم إلى مدينة أسسها هذا الضرب من المجون، هي مدينة «سر من رأى» أو كما قد يقولون «سامراء» فابتعد بهذا أن يلي أمور الدولة عن كשב، كما ينبغي أن يكون، وبدأ نفوذ الخليفة يتراجع فيها إلى البراء، بقدر ما عظم نفوذ الفرس المرحبين بهذا الانصراف؛ ولكن الطبيعة قضت أن يستفيد أولئك الخدم الأتراك بحكم اقترابهم من الخليفة جاهاً ونفوذاً، وما هو إلا

أن عملوا على مشاركة الفرس في النفوذ، ثم ما هو إلا أن استلبوه منهم، واستبدوا به عليهم؛ ولقد زاد من نفوذ هؤلاء؛ بقدر ما أضعف من نفوذ الفرس، مجيء المتوكل على الله سنيا متشددا، وإيغاله في حرب الشيعة الذين كان المأمون على مذهبهم، وجاء من بعده غير معارض لهم؛ المعتصم، والواثق - والفرس كما علمت متشيعون مفرقون - نجات للمتوكل وان شئت فقل للخدم الأتراك السلاطة في بغداد، واعتبر هذا عصرا ثانيا هو عصر الخدم أو العصر التركي الأول، وجعل مبدؤه تولى المتوكل على الله سنة ٢٣٢ .

لم يقف هؤلاء الخدم طوال القرن الثاني من الدولة في الاستبداد بأمورها عند حد . فتناول طغيانهم أكثر مما تناول أشخاص الخلفاء، وأول ما حدث من فظائهم حدث للمتوكل على الله ، فانهم جردوه من كل سلطة، وكان قد فقد النصير من الفرس لاشتهاده في محاربة التشيع، وإذ حاول الأبقاء على شيء من هيبة الخلافة، فأمر وامن ابنه المنتصر على قتله وقتلوه ، فكان هذا فتحا لطريق جديدة في التخلص من الخلفاء، وتوالت بعد هذا الحداث أحداث في التعذيب والتقتيل، والمعدن بون المقتلون بمعزل عن المعين والنصير^(١) ، حتى فقدت بغداد مكاتمها وانصرف الناس عنها بعد انصرفهم إليها، وحدثت الأمراء والولاة نفوسهم أن يستبدوا على الخلافة بما في أيديهم من أرضين فأخذ النفوذ يتقلص عن بغداد إلى الأقاليم حتى أقفرت من كل خير وصلاح، وزخرت بكل مافي الطوق

(١) قتلوا المعتز بجره من رجليه خارج الدار وضربه الضرب المفضى إلى

الموت بعد إيقافه في الشمس يضع رجلا ويرفع أخرى من شدة الحر.

من شر وفساد، وحمل خوف الخلفاء من أولياء العمود، وخوف أولياء العمود من الخلفاء، أن يستكثر كل فريق من أولئك الخدم ليكونوا عليه حراساً، وله جواسيس، وفعلوا كل ما حتى هجرت بغداد بجيوشهم، وصار من استعان بهم العوبة في أيديهم^(١)، وامتد بهم الزمن على هذا السوء قرن ضعف للدولة، وفتور أعقب قرنهما السالف؛ قرن الفتوة والساطان، وما زالت الحال على هذا النسق من البوار، حتى طمعت إحدى الدويلات الناشئة من هذا الضعف بالأقاليم، وهي دولة آل بويه في تخلص بغداد منهم، فخلصتها أيام المستكفي بالله، سنة ٣٣٤ و بدأ بذلك عصر عباسي ثالث، هو عصر الأوطان السياسية أو الدويلات.

مهد العصر العباسي الثاني وهو عصر الضعف والاستسلام لتفكك أوصال الخلافة، واستبداد ذوى النفوذ في الأقاليم؛ فلم يكديت نصف قرنه حتى بدت بوادر الانسلاخ عن الدولة على أيدي عدد من الأسر المختلفة الأجناس، وإن بقي معظمها لا كلها يدين بالمظهر الديني لخلفاء بني العباس. فمن الأسر الفارسية :-

السامانيون فيما وراء النهر من سنة ٢٦١ - ٣٨٩ هـ

والبويهيون بفارس والعراق من سنة ٣٢٠ - ٤٤٧ هـ

ومن التركية :-

(١) يؤيد ذلك ما رواه الفخرى عنهم من أنه لما تولى المعتز، أحضروا المنجمين وقالوا لهم: - انظروا كم يبقى الخليفة في الخلافة وكم بعيش؟ وكان في المجلس أحد الظرفاء. فقال: أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته، قالوا فكم تقول؟ فقال: « ما أراد الاتراك » فلم يبق في المجلس إلا من ضحك.

الأخشيديون بمصر من سنة ٣٢٣ — ٣٥٧ هـ
والغزنويون بأفغانستان والهند من سنة ٣٥١ — ٥٨٢ هـ
ومن العربية :-

الجمدانيون بالشام من سنة ٣١٧ — ٣٩٤ هـ
والفاطميون بمصر من سنة ٣٥٧ — ٥٦٧ هـ

وقد شاء تغلب القوى على الضعيف، أن ينمحي معظم الدويلات
ما ذكرنا وما لم نذكر، على أيدي ثلاث منها تحولت إلى دولات، هن الغزنوية،
وقد تغلبت على السامانية وغيرها في تلك الأصقاع، والفاطمية، وقد
تغلبت على الجمدانية بعد أخذها مصر من الأخشيديين، ثم البويهية
وقد تغلبت على بغداد سنة ٣٣٤ فاعتبر هذا بدء العصر العباسي الثالث
كما ذكرنا^(١) وفيه خضع المسلمون لنفوذ الأتراك شرقا والغرب غربا،

(١) جد البويهين الأقرب بويه أبو شجاع ويرجع نسبهم إلى ملوك
الفرس القدماء ويعرفون بالديلم لسكنائهم البلاد المعروفة بهذا الاسم من قديم
وقد أنجب بويه هذا في ثلاثة أنجاد، هم علي وحسن وأحمد، نبغوا في الفروسية
وأعمال الجيوش وتقدموا إلى الدولة باقطاعهم الأرضين أيام الراضي بالله المتوفى
سنة ٣٢٩ فكان علي في فارس وحسن بخوارزم وأحمد بشيراز ثم اتفقوا ثلاثتهم
على تخليص بغداد من أيدي الأتراك فساروا إليها ودخلوها أيام المستكفي بالله
فرحب بهم ولقب عليا عماد الدولة وحسنا ركن الدولة وأحمد معز الدولة ثم كان
أن بقي معز الدولة ببغداد بلقب أمير الأمراء واستمر هذا اللقب للقائم منهم
بعده في بغداد إلى أن جاء عضد الدولة فأخذ لقب الملك وكذلك كان من بعده
نبا إلى أن أخذها السلاجقة الأتراك .

والفرس وسطاء، وبقي ذلك قرناً وبعض القرن حيث دخل السلاجقة الأتراك بغداد سنة ٤٤٧ فبدأ العصر العباسي الأخير.

لم تكند الدولة البويهية والفاطمية والغزنوية تم القرن الأول من حكمها، حتى تمخض التاريخ عن دولة عظيمة هي الدولة السلجوقية، التي أنشأها رجلها الأول سلجوق بن بكبك بالتركستان سنة ٤٢٩ ولما شاهد ضعف آل بويه في بغداد، طمع في اكتساح الممالك الإسلامية، وتقرب إلى المسلمين قبل هذا الاكتساح، بأن أسلم هو وأسرته ورجاله ثم تقدم إلى الغرب زاحفا حتى دخل بغداد سنة ٤٤٧ فكان هذا إيذان العصر العباسي الأخير، الذي مكث أكثر من قرنين، إذ بقوا بها إلى حيث أخذ التتار منهم وقتلوا المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين سنة ٦٥٦.

ومن جسام الأحداث التاريخية في هذا العصر: اختلاط الغربيين بالمشاركة لقيام الحروب الصليبية وانتهائها بتأسيس عدة إمارات بسورية وفلسطين مكثت نحو قرن من الزمان، ثم تدفق عرب الأندلس إلى المغرب والمشرق بما تتابع وقوعه عليهم من اضطهاد وتعذيب. تلك هي الحال السيامية العامة للعصر العباسي ومنها ترى أنه أربعة عصور لا يستحق هذه النسبة منها إلا العصر الأول، عصر نفوذ الخلفاء. وهذا هو الطابع العام لكل عصر في حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم وما إلى الآداب والعلوم.

طابع كل عصر وأثره العام

في حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم

لقد كان لتلون العصر العباسي بتلك الألوان السياسية التي حولته أربعة عصور، الأثر الظاهر في حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم.

« العصر الأول »

في العصر الأول عصر قوة الخلافة وسلطان بغداد، كان الخلفاء مصدر أدب وعلم، كما كانوا مصدر سياسة ونفوذ.

فهم أهل كفاح وجلاد في تثبيت سلطان الدولة الجديدة، تامحه في إشراع الرماح، وإشهار السيوف، وتسمعه في الخطب تقذف اللحم وتطير الشرر، وتقرؤه فيما يصدر من رسائل دامغة الحجية مفحمة البرهان، ولذا كان عصر خطابة وكتابة وكان رجاله كتابا وخطباء.

وهم أهل حذق للأدب ومعرفة بالغة بفنونهم وروون الشعر وينقدونه، ويستمعون للشعراء ويجزلون لهم العطاء، ويؤثرون بينهم نار التنافس والتسابق بما يبينون من فاضل ومفضول، ولهذا تراحمت على أبوابهم الشعراء من عامة الأقطار، فكانت للشعر نهضة كثر فيها القصيد ووجداد.

ثم هم أهل علم يخالطون العلماء مخالطة حوار ونقاش، عارفين لقيمتهم، حافظين لكاناتهم، حافزين لهم، مشجعين إياهم على مد الدولة الجديدة بما تتطلبه حضارتها من علوم وفنون منذ عهد خليفتهم الثاني أبي جعفر المنصور، ذلكم العبد الخضم، الذي لم يأل جهدا في وضع الأساس لنشأة العلوم المختلفة من شرعية ولسانية، وفلسفية وقفاه من بعده خلفاؤه الأقربون وناهيك بالرشيد والمأمون حتى عد هذا العصر عن جدارة

واستحقاق عصر النهضة العامة في متنوع العلوم والفنون، وإنه لعجب حاجب تمكن العرب فيه أن ينقوا إلى لغتهم جل علوم الفرس واليونان والهنود بفضل ما خلفائه من تنشيط حركة الترجمة وإغداق العطايا على النقلة والمترجمين^(١).

ومما يعد مظهرا جديدا في هذا العصر، ما صار للموالي فيه من رفعة شأن، ومعرفة قدر، بحكم ما لهم من فضل تأسيس الدولة، ومعاونة خلفائها في النهوض بها، بعد الذي كانوا يلاقونه على العهد الأموي من جفوة واحتقار، بل تعذيب واضطهاد^(٢)، فصاروا ينفسون عن أنفسهم

(١) كان المنصور من أحسن رواة الحديث وكان ذا ذوق في الشعر ينتقد الشعراء ويعرف المنحول والمسروق ثم كانت له دفا تر علم اشتد حرصه عليها حتى أوصى عند وفاته ابنه المهدي بها.

وكان الرشيد أكثر سادقيه رغبة في العلم كما كان حفاظا للشعر تقادا للشعراء. وكلاهما كان ذا فضل على الترجمة، الأول من حيث الابتداع والإيجاد والثاني من حيث التنشيط والتشجيع.

أما المأمون ففضله على الترجمة وإحياء العلوم قد غطى على فضل الجميع وإن كان في الناحية الأدبية أقل من أبيه

(٢) حوادث الأمويين في عدم التسوية بين الموالى والعرب بالرغم من تمتعهم بها في صدر الإسلام كثيرة: منها أنهم كانوا يمنعون زواج المسلم منهم بالعربية ويطلقونها عليه إن فعل ويجلدونه. روى الأغانى أن رجلا من الموالى خطب بنتا من أعراب سليم وتزوجها فركب محمد بشير إلى والى المدينة يومئذ إبراهيم بن هشام فشكا إليه فأرسل إلى المولى ففرق بينه وبين زوجته وضر به مائتي سوط وحاقي لحيته وحاجبيه وفي ذلك يقول ابن بشير:

ويجهرون إزاء العرب بما آثرهم، وقابل العرب ذلك منهم بالإنكار والبلحود؛ ثم طالت الملاحاة بين الفريقين حتى أعلن أمر الشعوبية، وعظم شأنها، كل ذلك والخلفاء يتواصلون بالموالي ويطلبون لهم من أبنائهم وذوي قرباهم مثل ما كان يطلب الخلفاء الراشدون للأنصار، فكان من ذلك أن استفادوا وأفادوا في نهضة هذا العصر والسير به قدما إلى الأمام .

نعم إن إطلاق حرية البحث لهم في التشيع منذ عهد المأمون الذي كان شيعيا، والذي أباح لنفسه عن غير تقزز أن يكون أحمد بن أبي دواد وزيره معتزليا، ويحيى بن أكرم وزيره أيضا سنيا، جعلهم يرسلون الفكر في البحث الديني من غير عنان، حتى تعددت البدع الدينية، وانتشرت الزندقة والالحاد، وغلبت الشهوات الجسمية على طائفة الماديين المستهترين، فأباحوا ما لم يكن مباحا ومدحوا ما كان قبل ذميا وشاع تسرى الجوارى ثم أعقبه تسرى الغلمان، فزينوا وحججوا كما كانت تزين وتحجب النساء، غير أن هذا الضرب من المجون والاهو، كان مغلوبا على أمره إزاء جد الدولة وعلو شأنها كما هو الشأن الآن في عواصم دول القوة والسلطان .

وفي المائتين للمولى نكال وفي سلب الحواجب والحدود

ومنها خطبة المولاة إلى مولاها دون أبيها الذي لا ينكر ذلك ولا يتأذى منه .
وحوادث الحجاج في إيذاء الموالي جاوزت كل حد وفاقته كل معقول فقد كان يسمهم بالوشم ويحصرهم في دوائر لا يتعدونها ويأمر ألا يؤم بالكوفة منهم أحد فلا يغير عليه الخليفة من ذلك شيئا .

العصر الثاني

وفي العصر العباسي الثاني، أخذ كل ما ذكرنا يتراجع إلى الوراء، لأن منشأ تقدمه كما رأيت، كان قوة الخلفاء، وأنهم علماء أدباء، وأن أولياء عهدهم وأعيان دولتهم، كانوا لهم في ذلك محاكين، وبهم مقتدين، أما إذا احتبس الخلفاء وأولياء العهد في القصور بعيدين عن مهام الدولة ومخالطة الشعب، وأصبح الخدم أعياننا لا عهد لهم بالعلم والأدب، وحتى عهدهم بمعرفة العربية اليسيرة جد قريب، فقد انغمس أولئك فيما تعج به القصور من أسباب اللهو ومتع الحياة، فكان لهم مع السراي المختلفة، والقيان المغنيات، مع ما يحف بهن من غلمان وخصيان، وما عدا جدهم مخالطة الخدم المذكورين، فغاب عيهم اللهو والترف، وانطلق هؤلاء المصرفون لأموال الدولة في تصريف أمورهم انطلاقاً بعد بهم بعامل تكوينهم عن الناحية الأدبية العلمية، وكان في الناحية السياسية طاجراً في الأقاليم، وفاسداً في بغداد، ومن أجل ذلك وقفت الدماء التي كانت جارية متدفقة في سرايين الدولة بكل أسباب الحياة، وتبدلت من حمرتها زرقاً سامة قاتلة أو صفرة ناحلة مضعفة، فأخذ العلم يهجر بغداد برحالة رجاله عنها بعد أن طال بهم انتظار الحيرة فيها، وأخذ الشعراء يبحثون لهم عن مرتزق غيرها، ولا يمكن أني تعود الحركة العلمية إلى دورتها، أو يجد الشعراء من يعطي - وإن طلبوا - قبل فترة من الزمن يظهر فيها الكساد والبوار وتستعد خلالها حواضر جديدة لحمل العلم الذي كان بأيدي بغداد، وإذن فليكن العصر الثاني، عصر الضعف والخمول والضعمة والانحطاط تموت فيه الخطابة، ويضعف الشعر، وتقف الحركة العلمية عن الدوران

ولا يبقى فيه من المظاهر السالفة إلا الكتابة بحكم حاجة الملك والسلطان، وقد منى فوق ذلك كله بما قيد الأفكار، واحتبس الأنفاس مما كانت قد سبحت فيه من بحث حرطايق، فقد جاء المتوكل أول ماجاء ضاغطا على الشيعة، محاربا للتفكير، بعكس ما كانت عاياه حالها منذ أيام المأمون من انطلاق بفعل النبوغ النفسى بقدر ما ضعفت آلة الكلام، ثم وقف تيار الفلسفة بقلة النبوغ وظهر بهذا الضعف الخروج بمعانى الألفاظ مما حددت اللغة من معان، وعز على رجال اللغة أن يقفوا إزاء ذلك جامدين، فأخذوا يضعون المقالات أو الكتب منتقدين ما حدث من خروج، ومحاولين إرجاعه إلى ما يريدون من اصلاح^(١)، وكذلك قام رجال الأدب إزاء الكتابة والشعر جميعا^(٢)؛ على أنه مما ينبغى أن يدون حسنة لهذا العصر قبل انتهاء الكلام فيه اطراد التقدم فى الخط العربى حتى استقر على القاعدة التى بين أيدينا الآن؛ ووضعها وضبطها ابن مقلة الخطاط الشهير المتوفى سنة ٨٣٢٨.

العصر الثالث

ظهرت النشأة الأولى للعلوم الإسلامية فى العهد الأموى بالبصرة والكوفة، ولكنها لم تكند تؤتى أكلها بالتأليف والتدوين، حتى سقطت الدولة الأموية وتأسست العباسية، متخذة بغداد عاصمتها بل عاصمة

-
- (١) من آيات ذلك فصيح ثعلب المتوفى سنة ٢٩١ فقد اختار فيه الفصيح من كلام العرب ليعتصم به الناس مما ساد كلامهم من أخطاء.
- (٢) من ذلك فى الكتابة أدب الكاتب لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦.
- ومنه فى الشعر نقد الشعر لقدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣١٠.

العالم الاسلامى كله، فاتجهت نحوها الأ نظار من مختلف الأقطار، وتحول إليها كل شيء من آداب وعلوم وفنون، حتى كانت فى العصر العباسى الأول، على ما قدمنا من ازدهار. ثم أصابها فتور وكساد فى العصر الثانى، خضوعاً لما ذكرنا من أسباب، غير أن ذلك الفتور لم يكده يقضى على ما كان من نبوغ فى العصر الأول، حتى تأسست الدويلات فى العصر الثالث الذى نحن بصدد الكلام فيه الآن، وهو إن قضى فيما قضى على بغداد نفسها، فقد خاق نفوذ الدويلات عدة حواضر وصلت ما كان قد انقطع، حتى أصبحت كل منها بغداداً يؤمها الأديباء والشعراء، ويقيم فيها العلماء والمؤلفون، على أن آل بويه إذ دخلوا بغداد أعادوا لها سابق مجدها وعزها، وسالف حضارتها وسلطانها، ولكن لا على أن تكون منفردة كما كانت، بل على أنها حاضرة من حاضرات؛ نعم إن مركز الخلافة بقى لها وحدها دون الدويلات ولكن بعضها رفض هذا الخضوع كآل مروان بالأندلس منذ عهد الناصر وكالفاطميين، منذ أن كان لهم وجود، ومن دان بهذا المركز لم يعد فى ذلك الناحية الدينية البحتة، أما الدنيوية فقد كان فيها تام النفوذ مطلق السلطان، ولعل هذا الانفصال بحاليه بين بغداد وحواضر الدويلات، كان عاملاً فعالاً فى اشتداد التنافس بين رجالها وفى حفز الهمم إلى أن تسود كل صواحباتها فيما كان لبغداد وحدها منذ القديم، فقويت الحركة العلمية بعامل التنافس والتشجيع، وعلا نجم الأديب، وراجت سوق الفنون، كما قويت بعامل آخر هو علم ملوك الدويلات وأمرائها، ومن اختلط بهم فى سياستها من ساداتها وعميونها، فهذان عاملان قويان فوق العامل الأساسى

الطبيعى عامل النشوء والارتقاء .

والى القارىء فى ذلك بضع شواهد وآيات، عن آل بويه والغزنويين والفاطميين الذين آل إليهم حكم العالم الاسلامى اذذاك .
كان آل بويه علماء أدباء، وكثير منهم شعراء. يحبون العلم والأدب، ويحتنون رجالها على التصنيف والتأليف، ويفتحون أبوابهم للشعراء ويفعرونهم بالعطايا والصلوات، وكانوا لذلك لا يستوزرون ولا يستكتبون، كما لا يولون ولا يستقضون، إلا خيرة العلماء ونوابغ الكتاب .
فعرز الدولة استوزر الحسن المهلبى الأديب الشاعر ، وركن الدولة استوزر ابن العميد الغنى عن التعريف ، ومؤيد الدولة ابنه استوزر الصاحب بن عباد، وكذلك استوزره نخر الدولة أخوه ؛ وكان عز الدولة بن معزها شعرا وكذلك تاج الدولة بن عضد الدولة كأبيه، وكذا أبو العباس بن ركن الدولة^(١)، ثم كان عضد الدولة المذكور على شاعريته نابغا فى عدة فنون

(١) من شعر عز الدولة وكان أكثره فى الشرب والشراب قوله :-

اشرب على قطر السماء القاطر فى صحن دجلة واعص زجر الزاجر
مشمولة أبدى المزاج بكأسها درا نثيرا بين نظم جواهر
من كف أغيد يستبيك إذا مشى بدلال معشوق ونخوة شاطر
والماء ما بين العصون مصفق مثل القيات رقصن حول الزامر
ومن شعر تاج الدولة وهو آدب آل بوية وقد نكب بالحبس من جهة أخيه
أبى القوارس قوله :-

هب الدهر أرضانى وأعتب صرفه وأعقب بالحسنى من الحبس والأمر
فن لى بأيام الشباب التى مضت ومن لى بما أنفقت فى الحبس من عمرى

يستحث العلماء على التأليف، ويغمرهم بالأموال، ويقصده فحول الشعراء^(١)، ولا يكاد مجلسه يخلو من مباحثات ومبامطات في العلم والأدب، كما كان شغوفاً بجيد الشعر يتعشقه ويحسن نقده، عارفاً لأساليب الكتابة، ذا افتنان في إنشائها^(٢) فهو في هذه النهضة

ومن شعر أبيه عضد الدولة قوله في خارج أرسل يطلب الامان بعد أن ضيق عليه
أأفاق حين وطئت ضيق خناقه يبغى الامان وكان يبغى صارما
فلأركب عزيمة عضدية تاجية تدع الأنوف رواغما
ومن شعر أبي العباس مبدأ:-

أدر الكأس علينا أيها الساقى لنطرب
من شمول مثل شمس في فم الندمان تغرب
فصنحت حين تجلت قرا يلثم كوكب
ورد خسيديه جنى لكن الناطور عقرب
فاذا مالدغت فالسريق درياق مجرب

(١) ألف له أبو علي الفارسي كتاب الايضاح والتكملة في النحو، وأبو اسحق الصابي كتاب التاجي في أخبار آل بويه، ورحل إليه المتنبى رحلات ملأت فم الزمان.

(٢) من شغفه بالشعر تمنيه أن يكون المصلوب بدل ابن بقية الوزبر لتقال فيه قصيدة الأنباري التي مطلعها:-

علو في الحياة وفي الممات لحق تلك إحدى المعجزات

ومن تفننه في الكتابة ما كتب به إلى أفتكين التركي صاحب دمشق وقد غره أخذه الشام من حكومة مصر وطلب منه المدد لمحاربتها نفسها فكتب إليه هذه الرسالة المتحددة الكلمات لولا النقط والشكل وهي « غرك عزك فصار قصار ذلك فاحش فاحش فملك فملك بهذا تهدا ».

أشهر ملوك آل بويه كما كان أشهر وزراءهم فيها الصاحب بن عباد المذكور، فقد كان عالما كاتباً شاعراً يقيم عنده العشرات من رجال العلم والأدب، ويقصده منهم ومن الشعراء المئات، فيكرم إقامة أولئك ويحسن وفادة هؤلاء.

ولم يأل الغزنويون جهداً في نصرة العلوم والآداب - وإن كانوا أحدث فيها عهداً من آل بويه - مع إشتغالهم شرقاً بالغزو والفتوح، فتد كان مجلس سلطانهم محمود أهلاً بالشعراء والأدباء والعلماء، وهو الذي اقترح على الفردوسي إتمام الشاهنامه التي بدأ نظمها الدقيقي باقتراح نوح بن منصور الساماني، وكان لا يسمع بشهرة أحد من هؤلاء إلا عمل على استدعائه إليه، يدل على ذلك كتابه إلى أمير خوارزم مأمون بن مأمون وفيه يقول « علمت أن في مجاسك جماعة من العلماء المبرزين فأرسلهم إلى ليتشرفوا بمجلسي ونستفيد من علمهم » وقد تلاه عليهم مأمون فقبل بعض وامتنع بعض. غير أن هذه النصرة لم تك ذات بال بجانب نصرة آل بويه لما قدمنا من حدائث عهد رجالها بأدب العربية وعلومها واشتغالهم عنها بما دأبوا فيه من غزو وجهاد.

وقد نشط الفاطميون العلم وأهله، ونافست قاهرتهم بغداد منافسة خلافة وملك لا منافسة ملك فحسب، ثم كانوا جديرين أن يفوزوا بالفوق والغلب لأنهم عرب أبناء عرب وذوو الغلب على بغداد في أيامهم سلاجقة أتراك، وبدا هذا التنشيط كثير الصور قوى العناصر أيام المعز والمعز والحاكم، فقام المعز بإنشاء الأزهر المعمور وأسس العزيز

دار كتب في قصره سماها خزانة الكتب أو خزانة العزيز، واستكثر فيها من المؤلفات، واقتدى به في إنشاء خزائن الكتب بالقصور جماعة من أهله، ثم جاء الحاكم فأنشأ دار الحكمة ونسحى دار العلم أيضا بجوار قصره الغربي وحمل إليها جميع أنواع الكتب وبالغ في فرشها وزخرفتها ووقف عليها أملاكا تنفق من غلتها، وأقام مشرفين ينظمون طريق الانتفاع بها، وأباح المناظرة بين المتردين عليها، وسهل للنقلة منها سبيل النقل بما أعد فيها من أقلام ومحابر وأوراق. ولم يكن اشتغال الفاطميين بالعلم وتشجيعهم على إنهاضه مقصورا على علوم الدين واللسان، فقد خدموا علوما كثيرة أخرى كالتاريخ والفلسفة والهندسة والنجامة، وبقى زعيم الحاكم على جبل المقطم عمدة الراصدين حتى بنى الطوسي مرصده بمراغة تركستان سنة ٦٥٧، ثم كانت مجالس الأدب ذات ازدهار في حضرات الخلفاء، وأمراء أسرتهم ورجالات دولتهم، وكانت كثرتهم أدباء شعراء تبصر جيد القول وتجزل بعايه العطاء.

ولم يعدم العلم والأدب نصيرا من الدويلات الكثيرة التي قامت ودحا مع هذه الدولات الثلاث، فاشتهر من أمراء السامانيين بذلك في بخارى كثير، منهم منصور بن نوح ثم ابنه نوح بن منصور، الذي كتب إلى الصاحب بن عباد يستدعيه إليه سرا حتى يفوض إليه وزراته، والذي جمع مكتبة حوت المؤلفات الكثيرة في كل فن. وآل حمدان بحلب والموصل أشهر من أن يخاض في نصرتهم للعلم والأدب وهم الأدباء الشعراء، وإن في أخبار سيف الدولة مع الأدباء والشعراء لغنية وبلافا فقد قيل إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء كما اجتمع ببابه

من شيوخ الأدب ورجال الشعر، يلقون منه حواراً ويشهدون تقداً، ثم ينقلبون راجعين بشتى الجوائز وعظيم الهبات، وهناك غيره وإن لم يبلغوا شأوه من آل حمدان كثير. ولو امتد الزمن بالأخشيديين أكثر من ثلث القرن الذي كان لهم لوجدناهم كتملكم الإمارات في تقريب رجال العلم ونصرة الآداب، على أن أبا المسك كافورا الذي نشأ مع هذه الإمارات عبداً لأول أمرائها ثم ارتقى بعقله وشجاعته حتى صار من كبار قوادها، ثم ارتقى فوق ذلك حتى ولى إمارتها، ولم يمت إلا قبيل سقوطها، قد ترك لنا في سيرته إكرامه العلم والعلماء، وامتداح المتنبي شاعر العربية إذ ذاك إياه، وفي هذين إثبات لما أردناه.

بهذا التشجيع المصحوب بالتنافس الشديد للعلماء والأدباء في المشرق والمغرب الاقتصيين، وبمثله في كل ما ذكرناه بالاندلس من الغرب، زخرت بحار التأليف واطرد تيارها حتى نمت العلوم وتم نضجها، فتكونت المعاجم اللغوية واستتوت الفلسفة واستقرت قواعد الطبيعيات والطب وانتهى الانشاء الكلامي إلى أسلوب أصبح قاعدة، وظهرت الروايات والقصص، واتسع خيال الشعراء وعمق فكرهم وتفرح التاريخ وانبسط تقويم البلدان واتسعت أبواب النقد الأدبي، وحسب هذه السعة العلمية بياناً أن زادت فروع العلوم إذ ذلك لدى محصياها على ثلثمائة كتاب نسبتها كتب الاحصاء، وكانت من بينها علوم لم يصل إليها التمدن الحديث لا في القرن الماضي أي بعد نحو ألف سنة من تاريخ كتابة العرب فيها علوم تدبير المنزل والسياسة والاقتصاد والعمران^(١)، فلا عجب أن

(١) فمن كتب تدبير المنزل كتب ذكرها ابن النديم لابراهيم بن المهدي

عرف هذا العصر بعصر نضج العلوم وقد أعقب هذا النضج وكثرة التأليف، إنشاء المكاتب العامة وانتشارها فعرف بعصر المكاتب أيضا، ولنا أن نسميه فوق ذلك عصر المذهب الشيعي لأن آل بويه شيعيون وأشد منهم تشييعا الفاطميون، أما الغزنويون فلم يكونوا فيه قد جاوزوا النظرة العامة للدين إلى نظرة تجعلهم شيعيين أو مسنيين، كما لنا أن نسميه أيضا عصر قوطن الآداب والعلوم، ومن ثم بدت فيه نسبة رجالها إلى مدنها كالبيخارى والنيسابورى والرازى وهكذا بعد أن كانت النسبة قبله إلى الأصول كالجيري والمازنى أو إلى الصنائع كالزجاج والنحاس .

العصر الرابع

جاء هذا العصر وقد تغير النظام السياسى فى أرجاء الممالك الإسلامية فحكمتها السلاجقة فى الشرق بعد البويهيين والغزنويين ، والأيوبيون فى مصر والشام والمغرب بعد الفاطميين، ثم انحلت دولة آل مروان بالأندلس إلى ملوك الطوائف المختلفين فكان أن حدث فى كل من

ولاراهيم بن العباس الصولى ولعلى بن يحيى المنجم وغيرهم ولكنها ضاعت . وقد ألفت فى السياسة على إجمالها أبو زيد البلخى ، وفى المدينة منها الفارابى ، وللطرطوشى فيها سراج الملوك . ومن كتب الاقتصاد كتاب الإشارة إلى محاسن التجارة لأبى الفضل بن على الدمشقى وكثير غيره ضاع .

ولم يخل علم العمران من كتب ظهرت فى هذا العصر ولكنها جاءت إما مجملة تناوله عن بعد أو مفصلة تقصر على بعض أبحاثه ثم كانت بعد هذا العصر مقدمة ابن خلدون أول كتاب ظهر فيه مستقلا مفصلا .

الدين واللسان أمر ذو بال نجم عنه ما وجه العصر توجيها خالف به
سابقه كثيرا أو قليلا في شتى الأمور .

فأما في الدين فبعد أن كان للمذهب الشيعي الغلبة على المذهب السني
بنفوذ البويهيين شرقا والفاطميين غربا، ذهبت ريجه بذهابهم وجاء
المذهب السني يكتسحه ويعنى عاياه بصو لجان السلاجقة شرقا والأيوبيين
غربا، والسلاجقة سانيون بحكم نشأة جنسهم أول ما اختلط بالمسلمين
مضادا للشيعة محاربا لها منذ عهد المتوكل على الله: وكذا الأيوبيون منذ جاءوا
على الدولة الفاطمية خالين ولها مديلين، حتى لقد حرم صلاح الدين
تدريس المذهب الشيعي بأزهر الفاطميين، وكم وقف هذا التبدل في
التأليف الشيعي من حركات وحارب من فكر وأبطل من عادات .

وأما في اللسان فقد كان الفاطميون بمصر عربا خالصا، والبويهيون
بفارس متعربين مبرزين، فكان للأدب من كليهما مدد منشؤه حذقهم
أسلوبه وتذوقهم جماله، فانقطع هذا المدد بتركية السلاجقة، وكردية
الأيوبيين، وإن ابتعد الأولون عن محاربتهم ومخاصمة رجاله وحاول
الآخرون تلمسه وتقريب ذويه . وبذلك نال صورتى الأدب كتابته
وشعره ضعف قلل من مقدارها، وذهب بكثير من محاسنها، وكان أنكى
بالشعراء منه بالكتاب لأن الشعر جمال يستغنى عنه فيما يستغنى إذا لم
يجد المتذوقين النصرء، في حين أن الكتابة من ضرورات الملك الحضري
يضطر إلى الإبقاء عليها ذووه وإن لم يفهموا ما لها من حسن وجمال .

أما الناحية العامية لحياة اللغة فقد كان هذا العصر عليها عصر
بركة ونماء، ذلك بأن العلماء استمروا فيه منطلقين بعد نضج العلوم

إلى حيث أخرجوا الموسوعات الضخمة والمعاجم الجامعة فحق أن يدعى لذلك عصر الموسوعات^(١) ثم كان شعور العلماء فيه باشتداد ضعف ملكة اللسان و حاجة النشء في تنشئته على الملكة الصحيحة واستيعاب ما استبحر من علوم، دافعا للقوم أن يهينوا للعالم أما كن دراسة يؤمها المتعلمون ويرتب لها العلماء المدرسون، فكان من ذلك إيجاد المدارس بالمعنى الذى نعرفه الآن ووسم هذا العصر بعصر المدارس^(٢)، كما وسم بعصر الموسوعات وهذان أثران له جايلان .

ولقد وفد على مزاج اللغة فى المغرب والمشرق أديها وعلمها فى هذا العصر وافدان غربيان ، أحدهما فرنجى جاءت به الحملات الصليبية بما أسست فى المشرق من إمارات ، وبما حدث بين رجالها ومنسيحي المشاركة من تصاهر وزواج ، على ما هنالك من خلاف فى الأصول

(١) لعل مما حملهم على تأليف هذه الموسوعات بعد الدافع الطبيعى لحركة التأليف ، مقاومة ما ذهب به الفتن من مؤلفات وأضاعت من جهود فكانوا يدونون الموسوعة إما جامعة لشقى العلوم مع حذف ما اعتادوا فى غيرها من أسانيد كما فعل ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ فى موسوعته المسماة «المدمش» فى القراءة والحديث واللغة والتاريخ والمواظف فى سياق المحاضرات ، ومنها نسخ بالمكتبة الملكية بمصر وإما جامعة لفروع علم واحد كما فعل ياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ فى معجميه للأدباء والبلدان .

(٢) أول من قام بإنشاء المدارس فى هذا العصر نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقى التركى فقد أسس المدرسة النظامية فى بغداد منسوبة إليه فكان لها شأن فى العالم الاسلامى كبير جعل غيره يقتدى به فى إنشاء مثلها حتى امتلأ العالم الاسلامى ومايئنة العصر بالمدارس المختلفة فى جميع الأنحاء .

واللغات والآداب والعادات، لا بد أن يؤثر تأثيره وبأخذ طريقه غالباً غير مغلوب . والثاني عربي هو نزوح الجماهير الأندلسية إلى المغرب والمشرق يحملون طابعاً لم يك للمشاركة في التفكير والتأليف وإنشاء الرسائل وقرض القريض حوكى فما حلوه من بيئات^(١) وبهذا ضعفت الفوارق بين أدب قرطبة وأدب القاهرة وبعثت وقويت المشابهات . تلك كلمات أرسلناها مجملات في ميزات العصر العباسية اللغوية بعضها عن بعض رابطتين بينهما وبين ما أنتجها من أحداث السياسة وأمور الاجتماع . وفيما يلي من دراسة موضوعات المنهج ، تفصيل لما أجملنا وإيضاح، والله ولينا وهو المستعان .

(١) من أظهر ما كانت لهذا الاختلاط في عالم الفكر اتصال الفلسفة

الأندلسية بفلسفة المشرق، وفي عالم الأدب انتشار الموشحات .

ما طرأ على العرب ولغتها

من جراء امتزاج الأعجم بها

خالطت العرب بعد تمام الفتح في العهد الأموي أشتنا من الأمم مختلفين في أجناسهم ودياناتهم وفي لغاتهم واجتماعياتهم، كما يحدث التاريخ العام عن طبقات الناس حين الفتح من أرض أندلس وشمال أفريقية ومصر والشام والعراق وفارس وما وراء فارس: فتأثروا بهم كما أثروا فيهم ولكن تأثرهم لم يبد واضحا جليا في ذلك العهد لقصر زمنه نسبيا ولترفع العرب فيه عن مخالطة الأعجم اقتداء بخلفائهم وذوي الأمر فيهم، فكانت الأمة العربية ملوكا وسوقة ذات عصبية لجنسها ونعرة لقوميتها^(١)، ولكن ذهب تلك العصبية وهذه النعرة بمجيء العهد العباسي كما أسلفنا جعل هذا الاختلاط يعمل عمله ويؤثر تأثيره في كثير من نواحي الحياة ذات التأثير البين في اللغة آدابها وعلومها.

ففي العهد الأموي بقي الجنس العربي متحصنا، فكان زواج العربي من غير العربية نادرا، وزواج العربية من غير العربي منكرًا، فلما جاء العصر العباسي رافعا شأن الموالى أقبل الناس على زواج الأعجميات

(١) تتضح هذه النعرة في شقيها بما روي من أن عبد الملك بن مروان حين خطب إلى عقيل بن علفة بنته قال له عقيل جنبني هجناء أولادك يقصد مسلمة ابنه على ما عرف به مسلمة من واسم عقل وكامل خلق، وبما كان من أن عبد الملك حين عقد ولاية العهد لابنائه تخطى مسلمة هذا «لأن أمه غير عربية» لا بغضا له ولكن تعصبا لتلك النعرة أو خوفا من الأمة المتعصبة لها.

مسرعين ، لما هُن من فرط جمال ووافر عقل ، ولما بدا على نساكن من
نجابة وذكاء^(١) ، وتسابقوا في هذا المضمار وقدموا فيه الخلفاء وأبناء
الخلفاء^(٢) وإذ وقف حد الدين للزوجات عند أربع انطلقوا في التسرى
غير المحدود حتى ضاقت القصور بالقيان والأماء^(٣) ، وما من شك في
أن هذا ينتج من التأثير الجسمي وبالتالى العقلي في النشء الناشء من
الأعجيبات الشيء الكثير ، فأما من الناحية الجسمية فلما هو مقرر
ثابت من أن الزوج من البعيدات له با مؤد إلى فرائحة الاجسام وقوة
البنى فما باننا بالبعيدات جنسا^(٤) ، وأما من الناحية العقلية فلأن الأمم

(١) بقى أهل المدينة زاهدين في التسرى حتى نشأ فيهم على بن الحسين
ومحمد بن القاسم وسالم بن عبدالله وقد فاقوهم علما وورعاً فرغبوا فيه ، وبما زاد
إقبال الناس على زواج الأماء حفة كلفته حتى قالوا في ذلك « الأمة تشتري بالعين
وترد بالعيب » وقالوا في مزيتة جملة « عجبت لمن عرف الأماء كيف يقدم على الحرار » .
(٢) لهذا كان خلفاء بنى العباس منذ الهادى أبناء سرارى ماعدا الأمين
ابن زبيدة بنت جعفر بن المنصور فالهادى وأخوه هرون أمهم رومية ، والمأمون
أمه فارسية ، والمعتصم أمة تركية ، والواثق أمه رومية ، والمتوكل أمه تركية ،
وهكذا .

(٣) بلغ عدد جوارى الرشيد ألفين وعدد جوارى المتوكل أربعة آلاف
وعلى ذلك يقاس ما كان لغيرها من الخلفاء وما كان لغير الخلفاء من الأمراء والأغنياء .
(٤) لهذا يقول الحديث « اغتربوا لا تضربوا » والضوى دقة العظم وقلة
الجسم خلقة وأضوت المرأة ولدت الولد كذلك وله يقول الراجز .
أنذر من كان بعيدا لهم تزويج أولاد بنات العم فليس ينجو من ضوى وسقم
ولهذا وجد في العصر العباسى من ضرب بهم المثل في الشجاعة حتى قال
الأصمعي « ما ضرب به وس الأبطال كابن الأعجمية » .

التي غلبتها العرب على ساطعائها كانت ذات حضارة تبدو في شتى الألوان،
وتختص كل واحدة بلون يكون فيها دون غيرها أكثر زهواً وأشد
لمعانا، وهذه الميزات جميعا كان الهجناء فيها ولها أقوى وأقبل من
الصرحاء بعامل الأثر المؤثر والعرق البساس. ولقد كان من هذا
أن عجزت المرأة العربية عن مجازاة الأجمية في الزواج فضوعف هذا
التأثير، ثم كان أن اندس العربي بين الأعجم زارعا وصانعا بعيدا عن
مهام الدولة وتصاريه الأمور يسوده من الموالي من كان قبل مسودا،
فذهبت من نفسه البقية الباقية للنصرة وسلم في بنائه ومن هن تحت
ولايته أن يكن لهذا الجنس الغالب زوجات فاقرشهن الأعجم ونسلوا
منهن نسلا مقر فاجاء أكثر من الهجناء عددا وأشد منهم بالعجمة
اتصالا، على أن من بقى من العرب صريح العروبة لم يقو بديار العجمة
على صد هذا التيار الأعجمي الشديد فكان فيه من المغرقين.

وفي العهد الأموي كانت للدين الإسلامي صواته وقوته، دخل
فيه من دخل مؤمنا إيمانا حقا غير ملتفت إلى دينه السابق ولا عاد إياه
بجوار الإسلام شيئا، وبقى على دينه من بقى ذميا مستأمنا يحسد نفسه
أن أبقاه المسلمون على دينه وبعد ذلك النعمة لا تعد لها نعمة،
فلم يتسرب إلى الدين الإسلامي من الديانات المختلفة - نصرانية ويهودية
ومجوسية، على افتراق كل ديانة من هذه الديانات طوائف وفرقا - شيء
يزعزع من عقائد أبنائه ويفتح لهم في ميادين التشكيك مجالا، ولكن
حين جاء العصر العباسي مستبدلا بصولة العرب صولة الفرس وكانوا
مجومسا قد ساد مجوسيتهم آخر سلطنتهم إلحاد وإباحية وزندقة، فتحت

في الأبحاث الدينية أبواب كانت مغاثة ، وجرت على السنة هؤلاء الجوس ولو أنهم أسلموا أقاويل لم تكن تجرى ، وتخطت الأبحاث الدينية بالرغم من مقاومة الخلفاء للزندقة والاحقاد ، السياج الذي كان مضروبا ، ومساعد على رواج هذه الأبحاث التمكين لرجال الفرس في السلطان . وإذ ساء للمجوسية أن يصطبغ بأبحاثها كثير من أبحاث الفلاسفة والدين فقد ساء لليهودية والنصرانية أن تجريا وراءها بغير عنان ، وأن ينشط اليهود والنصارى في أمثال هذه البحوث متسترين وراء حاجة الدولة إلى علمائهم وتقريب خلفائها وخاصتها لكثير من شخصياتهم ، فكان من وراء ذلك تأثير في الدين كبير ظهر أثره في اللغة من آداب وعلوم .

وفي العهد الأموي كان للغة العربية بحكم التوسع في الفتح وبسط السلطان ، طغيان على لغات الأمم المفتوحة أيما طغيان ، أزال منها ما أزال وبقى ما بقي الضعيف المقاومة مهيبض الجناح ، كل هم ذويه أن يبقوا أمام الفاتحين آمنين على نفوسهم وأموالهم وما يؤثرون البقاء عليه من دين . أما لغاتهم فلن يأخذ بيدها ما صاروا إليه من ضعف ولن تجد من رجال الدولة الجديدة إلا الرغبة الملحة في خضوعها للعربية أتم خضوع ، ثم كان تنزه العرب النازلين ديار العجمة عن مخالطة الأعجم ، وترفعهم أن يلوا مثل ما يلي أولئك من أعمال ، أو أن يقبلوهم معهم فيما خصوا به أنفسهم من مناصب الملك والسلطان ، حاجزا قويا وسدا محكما دون أن يتأثروا مرغمين بعامل المخالطة والجوار . أما إذ جاء العصر العباسي وزالت بمجيئه قوة الفتح وسطوة الغلب ، وتم للعرب مخالطة العجم

ومشاركتهم في الأعمال فقد نُحِلَّ عن عنق اللغات المغاوب أهلوهاما كان مضيقا عليها من خناق ، فتنفست الصعداء وأخذت تذكر ما كان لها من كيان وما ينبغي أن يكون عليه ذورها من حفاظ ، ومن ثم وقف غزو العربية لها حيناً وانقلبت هي بعد ذلك الحين غازية كأنها تريد الانتقام، حتى عقد لها لواء النصر في التغلب كما سيأتي على السنة السوداء ، وتسربت بما كان من التوسع في وضع العلوم وحركة النقل إلى التأليف والتصنيف فوجد فيها دخيل معرب ودخيل خلو من التعريب، ثم كان أن وجدت فوق هذين سبيلا تظهر فيه أحيانا على السنة الأدباء ناثرين وشاعرين هذا وكما كانت النزعة العربية في العهد الأموي غالبة فيما ذكرنا من نواحي الجنس والدين واللغة كانت كذلك غالبة في ناحية الاجتماع. فقد ظل أبناء العرب أيامه على بداوتهم محافظين على خشونة الجاهلية، عاملين بعاداتها محيين لأدبها، يقودهم في ذلك ويشجعهم عليه آل البيت المالك حتى الخليفة المقيم بدمشق . وما غيروا فيه من أمور الاجتماع كان نصراً للعربية وفتحاً على أبنائها إذ جعلوا الإسلام دولة عربية بعد أن كان ديناً، وأيدوا تلك الدولة العربية بنقل دواوين الحكومة إلى لغة رجالها، وسكوا النقود العربية مستعميين بها عن نقود الفرس والروم وكذلك فعلوا في نقل الطراز^(١) وما عدا الناس على عهدهم، طبقة العرب

(١) الطراز هو أن يرسم الملوك أو السلاطين صورهم أو علامات تختص بهم على الأثواب المعدة للباسهم أو لباس بعض الطوائف من أتباعهم، كما يرى الآن على ألبسة الجنود والشرطة مثلاً ، وأول من نقله إلى العربية عبد الملك بن مروان ولكنه استعاض عن الصور كتابة الأسماء وكلمات التفاؤل والدعاء لورود تحريم الصور في بعض الأحاديث .

السائدين عدنانيين، وقحطانيين، وطبقة الموالي السودين مسلمين وذميين، نعم خدم الدولة وتقرب إليها بعض العرب النصراني والموالي، مسلمين وغير مسلمين؛ ولكن عددهم جميعا كان جد قليل^(١) ثم جرت أمور لم تكن في صدر الاسلام كاتخاذ السرير والحجاب^(٢) ولكنهم تعدد أشخاص الخلفاء ومن حاكمهم من بعض الولاة في تبسيط واضح واكتفاء بالقليل أما أحوال الاجتماع في العصر العباسي حيث نضج التمدين الاسلامي متأثرا بما خلف عليه من مدينيات، فقد جاءت مغارة كل المغايرة لما كانت عليه في عهد الامويين.

ساق هذا التمدين الناس بعصاه إلى أن يكونوا طبقتين وتحت كل طبقات، الأولى طبقة الخاصة وهي الخليفة وأهله ورجال دولته وأرباب البيوتات، والثانية طبقة العامة وهي المزارعون أهل القرى وسكان المدن من الصناع والتجار، ثم حمل الخواص على أن يتخذوا لهم من العوام أتباعا هم الجند المحافظون والأعوان المرافقون والموالي المعتقون والخدم وهم الأرقاء والخصيان والجواري من السودان والبيضان، كما سماهم على أن يقربوا إليهم من العوام أيضا أهل الفنون

(١) من تقريب الخلافة الأموية لنصارى العرب، تعريبها الأخطل الشاعر وبخاصة في عهد عبد الملك . ومن خدم من الموالي غير المسلمين ، رجال الدواوين قبل تعريبها . ومنهم مسلمين ، سالم القائم على ديوان الرسائل هشام وختنه عبد الحميد صاحب ديوان مروان .

(٢) أول من اتخذ السرير والحجاب معاوية لما رأى منهما في بلاد الروم، ولما أنبأه به صها كان لجلس الحاكم في فارس ومصر عما له بتلك البلاد

الجميلة من المصورين والمغنين ، وأهل الادب والشعر من الأدباء والشعراء ، وذوى الخلق والنفاسة من نابغى الصناع وكبار التجار .
فبهذه الطوائف جميعا ما عدا الزراع كانت تعج المدن فى العصر العباسى وتفيض ، هذا إلى من يخالطهم فيها من ذوى المفاصد أعوان الشرأوانجسون .
وإذ كانت هذه الجموع فى خالبيتها أحلاطا من غير العرب جنسا ، وعلى غير ما نشأت عليه العرب استعدادا ، فأنت خبير بما تنتجه فى أبناء العربية المخالطين وفى العربية حيث لا يوجد هؤلاء الابناء من تأثير .
ولقد قضت هذه المدنية على كثير من مناقب العرب التى شبوا عليها فى بداوتهم وهذبها الاسلام فى صدر اسلامهم ، وحاطها الأمويون بالرعاية فى دواتهم ، كالأستقلال والشجاعة والنجدة والألفة والعفة وغيرها مما جبلوا على مدحه ، والتفانى فى نصرته ، وتجلت له فى أدبهم صور رائعة باهرة ، فأصبحنا بعد هذه من العصر العباسى نشاهد الضعف والخور ، والقعود والاسنسلام ، والغدر والخداع ، وذهاب الغيرة من نفوس الرجال وضعف الثقة بهم فى قلوب النساء ، حتى غاض معين طاهر صاف وفاض آخر كله رجس وأقدار^(١)

(١) لذلك تنوسيت المرأة العربية فى المدن فتنازلت عن عزتها فى سبيل إرضاء زوجها وصارت تهدى إليه الجوارى وتجبب إليه الاقتراب منهن حتى ذهبت غيرتها وضاعت كرامتها وعاد الرجل يظن بها الظنون فأقفل عليها الابواب والنوافذ وسد فى وجهها الطرق والممالك ومنعها الخروج والكلام وأصبح الطعن فى طباع المرأة شائعا على ألسنة الناس ، حتى ألفت له القصص والروايات وأرسلت فيه الحكم ونظمت الاشعار .

. كما نقلت هذه المدينة العرب من التبسط في معاشهم مطعما وملبسا
ومسكنا؛ فبعد أن أخذوا بطرف يسير من الحضارة مدة العصر الأموي
في هذه الأشياء انغمسوا فيها على العهد العباسي حتى الأذقان،
فابتنوا القصور المتنوعة تحف بها الحدائق وتجري من تحتها الأنهار^(١)
ولبسوا الحرير ونحوه مختلف الألوان، والأشكال، مفرقين بين الثياب في
الحياة الجادة العامة والحياة الوادعة اللاهية^(٢) ثم أكلوا كل مائد وطاب
من ألوان الأطعمة، وشربوا كل ماشف وراق من أنواع المشروبات^(٣)
فكان ذلك كله على ما صحبه من التغالي في اتخاذ الأثاث والرياش، واقتناء

(١) اختلفت أساليب البناء في الاسلام باختلاف البيئات فكانت في كل بلد
على نمط أهله، ولكنها لم تلبث أن اتجهت كلها بنزق العرب واستخدمهم الابتكار
إلى نمط خاص هو النمط العربي وإن بقي بين بعضه وبعض يسير اختلاف .

(٢) حاكت العرب الأمم المفتوحة في كثير من ملابسها وظهر التغالي في
ملابس الخاصة على العهد العباسي ظهورا بينا وبخاصة في العراق إذ كان من الخلفاء
منذ عهد المنصور حمل للناس على لباس خاص، له في كل طائفة طابع يميزها عن
غيرها، وكان لا بد من جبة سوداء تغطي حين الدخول على الخليفة جميع
الثياب تعرف بالسواد وهو شعار العباسيين بعد أن كان شعار الأمويين البياض
ثم كانت ثياب اللهو والدعة تميز بألوانها الزاهية وصقلها اللامع وتعرف
بثياب المنادمة .

(٣) قد اتسعت مطابخ الخلفاء والأمراء لتعدد ألوان الأطعمة والتوسع
عليها في الاتفاق حتى صار لكل لون خدام عليهم رئيس .
ومما ساعد على انتشار المسكرات أن تناولها كان شائعا قبل الفتح في جميع
البلاد وبخاصة بلاد فارس التي كان ملوكها مغرقين في اللذات والمسكرات .

الأحجار الكريمة والمجوهرات مجالا لحياة اللغة أى مجال^(١)
وتم تعدت هذه الزينات الدور الخاصة بخلفاء الدولة وعظماؤها،
فظهرت متجلية في مجالسهم التي كانت تبلغ من السعة المبلغ العظيم، فترفع
فوقها القباب وتزين جدرانها ومسقفها بصور الذهب والفضة لما في البر والبحر
وتفرش أرضها بالبساط الواحد من الديباج، وتسبل على نوافذها ستائر
الحرير المطرزة بشارات الدولة وما قد يضم إليها من مآثور الكلام.^(٢)
ثم كان للخلفاء في المواكب حين الخروج للاحتفال من الافتنان في
الزينة وإظهار العظمة ما يأخذ بالألباب ويخطف الأبصار^(٣).
وحيثما أخذت العرب في تشرب مدينت الأهم التي غلبتها على
أمرها وورثت حضارتها وسلطانها كانت هذه المدينت في أخريات

(١) أخذ البذخ في اقتناء المجوهرات مأخذه في بغداد، وقد احتذى
هم في ذلك بقرطبة آل مروان ثم فاق الاثنين الفاطميون في القاهرة
فماضت في المدن الثلاث المجوهرات حتى كانت تزين بها الخيل وسائر الحيوان
وإن نظرة إلى ما كانت تزين به النساء عند الزفاف ولا سيما بنات الخلفاء والخاصة
من الأمراء وذوى اليسار لتدل على ما بلغ إليه الترف في تلك الأنحاء.
(٢) كانت تتعدد أماكن هذه المجالس بتعدد ما يدور فيها، فبعضها التصريف
أمور الدولة وبعضها للادب والشعر، وبعضها للمناظرات والعلم، وبعضها للغناء
والانس، وهكذا.

(٣) وكذلك كانت تختلف أشكال المواكب باختلاف الداعي إليها من أمر ديني
كالأعياد، أو دنيوي كزفاف أو ختان، أو نصر أو مالى ذلك مما هو مفصل في الكلام
على أبحاث الخلفاء.

أيامها قد سارها الشر وعمها الفساد ، فكثير من أبناءها الأشرار
الفاسدون ، الذين نشروا الرذائل في مدينة الاسلام ، وكان العرب معرضين
لها بعدوى المعاشرة والاختلاط ، فلم يكادوا يخطون في مدينتهم حتى
كثرت الموبقات ، وتعددت المفاسد ، وغلبت الشهوات على الناس فصاروا
لها عبيدا ثم انطلقوا في تيارها بعد عن طواعية واختيار ، وكان أبناء
العرب وقد فتمدوا شخصياتهم ، وصاروا وأبناء الأمم المذكورة صرء
ثم أقل من السواء ، أصبحوا يحاكونهم محاكاة المغلوب للغالب
فانغمسوا في شرورهم غير مباليين ، وتعودوا من عاداتهم ما كانوا عنه
مبعدين^(١)

ولقد ولد هذا الارتفاع الشديد في تيار الحضارة تنديسا للمادة
في النفوس إشباطا لنهم الجشع ، وسدا للكمال الذي صار من الضرورات ،
فأحب الناس المال حبا جما ، وانطلقوا وراء الحصول عليه انطلاقا أعمى
لا يفرق بين حل وحرام ، فتنوعت طرق السلب والابتزاز ، وانتشرت
حيل الغش والخداع ، وأصبحت الرشوة عاملا فعلا من عوامل نيل
الغرض وابتناء الثروات^(٢)

(١) لذلك كانت عادات الجاليات العربية في كل قطر ، من عادات أهله
وناهيك بما كان قد استقر من عادات الشر في الاقطار الاسلامية قبيل الفتح
أثرا محتوما لمدينتين شاختا وأكل عليهما الدهر ، هما المدينة الفارسية شرقا
والمدينة الرومانية غربا .

(٢) وشا بانتشار الرشوة الأثراء السريع للوزراء ومن في حكمهم من الولاة
والعمال وتبع ذلك إقدام ذوي الأمر على استصفاء أموال هؤلاء لاعتقادهم
أنها جمعت من حرام كلما احتاجوا إلى سد عجز مالي أو حفزهم حافز الانتقام .

على أن العرب على ما آذنتهم به تلك المدينيات في نواحي الاجتماع،
قد استفادوا من وراثتها مغنم في العلم والأدب، عادت عليهم وعلى لغتهم
بالخير والصلاح، فقد جرى أبناء أممها سلائل العرب في مضمار الأدب
فكان منهم الكتاب والشعراء ثم بدوهم في مضمار العلم فكانوا أكثر
منهم عددا وإنتاجا في التأليف والتصنيف، هذا إلى أن أدباءهم كانوا
اللقاح الأدبي الجديد، كما كان علماءهم التراجمة الماهرين فيما نقل من
علم دخیل .

ذلك مجمل ما كان للأعاجم بجنسياتهم ودياناتهم ولغاتهم
واجتماعياتهم من تأثير في العرب ظهرت نتائجه في لغتها عرضا ومقصدا،
معنى وخيالا، لفظا وأسلوبا، على ما سنبينه في هذه النواحي الثلاث
عقب الكلام على غلبة الفرس فيه .

غلبة الفرس في هذا التأثير

وإلى أى درجة كان فى اللغة مداه

لقد كان للفرس دون غيرهم من سائر الأمم نصيب الأسد فى
هذا الموضوع

ذلك أنهم شعب آرى أسس دولة عتيده فى التاريخ القديم
ذات علوم وآداب^(١)، وهم أهل ذكاء وتعقل، وفيهم استعداد فطرى
يساعدهم على الأخذ بأسباب الحضارة، ولذلك أحرزوا منذ القديم،
قسطا وافرا من الطبيعيات والرياضيات ورثوا فيه الآشوريين
والبابليين، واحتكوا بالهنود واليونان المتصلين بهم لغة وجنسا،
فنقلوا إلى لغتهم ما نبغت فيه هاتان الأمتان من علوم وفنون^(٢)، ثم كان

«١» كانت السيادة قديما للفرس شرقا وللروم غربا ولكن سلطان فارس كان
أقدم عهدا، وأكثر جندا، امتلكوا مصر على فراعتها زمنا وحاربوا اليونان
قبل المسيح، فكانوا قبل بضعة وعشرين قرنا مجردون جيشا قد يصعب اليوم
على أعظم الدول حشده ونقله من أواسط آسيا إلى أفريقية وأوربة.

«٢» كان نقل الفرس لعلوم الهند جاريا منذ القديم يؤيد ذلك ما ذكر فى
فتح الاسكندر بلاد فارس من أنه عثر فى عاصمتهم إصطخر على خزائن كتب،
فيها ما جمعه الفرس من علوم الهند والصين إلى تلك الأيام.

وقد نشطت حركة النقل بفارس أيام سابور بن أردشير فقد بعث إلى
بلاد اليونان من استجلب كتب الفلسفة وأمر بنقلها إلى القارسية وخزنها فى
خزائنه وشجع الناس على نسخها ودرسها.

ولما كان ماكان من اضطهاد جوستينيان قيصر للفلاسفة الوثنيين بعد إقفاله
هياكلهم ومدارسهم، فروا من وجهه إلى فارس حامية الوثنية إذ ذاك، فاستقبلهم

أبين ما فضلوا غيرهم فيه النبوغ في الأدب الآري ، ذى المكر الغواص
والخيال المخصب البديع ؛ وما ظنك بقوم هذا شأنهم قد نزل العرب
بلادهم منذ الفتح الأول ، ثم أنشئوا أكبر دولة عرفها التاريخ في
أحضانهم وبمعونتهم ، ولما مضى على ذهاب سلطانهم من الزمن طويل ،
إلا أن يتشربوا مدنياتهم ، ويتحضروا بحضارتهم ، ويظهر أثر ذلك جليا
في كلامهم ، وإن تغلبوا عليهم في اللغة والدين

أما الأتراك الذين شاطروا الفرس النفوذ في العصر العباسي عهدا
بعهد . فلم يك لهم ما للفرس ولا شيء منه في هذا الميدان لما يلي من أسباب
اتصل الأتراك أول ما اتصلوا بالعباسيين خدما مجلوبين من أمة
لا عهد لها بعلم ولا سابقة عندها لحضارة ، إنما هم قوم من البدو الآميين
الذين لا يزالون يضربون في الأرض ابتغاء الرزق سابا ونهبيا ، ويذرعون
أواسط آسيا شرقا وغربا ، متقاتلين فيما بينهم ، ومقاتلين من يصادفهم من
غيرهم ، عمادهم قوة أبدانهم ، وما يتخذونه سلاحا بأيديهم دون أن يقيموا
دولة أو ينشئوا حضارة ، فبقى هذا شأنهم حين صار لهم النفوذ في
العصر العباسي الثاني على الخلفاء ، غاظة في غير رفق ، وقسوة لا تعرف
الرحمة ولا التعقل اليها سبيلا ، وتنافر بين أحزابهم ، أيهم أكثر قوة
وأشد في النكاية إيغالا ، فهم صورة من صور الخسف والاستبداد
والسخر والاستعباد ، تبقى ما تبقى بطشها وسلطانها ، فاذا ما زالت بالقوة

كسرى أنو شروان ورحب بهم وأقاموا عنده ينقلون الكتب اليونانية إلى
الفارسية حتى نقلوا منها الكثير ثم أخذوا يؤلفون في علوم الفلسفة وغيرها
حتى شاع العلم اليوناني بفارس كما شاعت قبل علوم الهند والصين .

وتعداها النفوذ، ذهبت غير مخلقة من الآثار، إلا اللعنة وسوء الدار .
أما حضارة تؤثر في حضارة، وأدب يؤثر في أدب، ولغة تتدخل في لغة،
فلا شيء من ذلك عندهم حتى يكون، ولا أثر له في وجودهم يبقى إذا
أفناهم الزمان .

وحيث مكن لهم الدهر في عهدهم الثاني عهد السلاجقة الذي كان
أطول العصور، كانوا من تلك الناحية كما كان أسلافهم في العهد السالف
مقفرين، فلم نجد العربية في لغتهم ما تتأثر به من علوم وآداب لأنها لم
تلك لغة علوم وآداب، وبقيت مصبوغة بالصبغة التي كانت لها من لغة
فارس، بل زادت الفارسية فيها تأثيرا عما كان لها قبل أن يكون للأتراك
سلطان^(١) وبهذا خلت العربية من كل أثر للتركية إلا بعض ألفاظ
منها سرت إلى لغة التخاطب بدافع الاختلاط^(٢) .

ومما وقف في طريق أن تتأثر العربية بالتركية في هذا العهد
الأخير على فرض أن يكون لها تأثير، أنه جاء وقد استوفت العربية

(١) كان أتراك المشرق إذا انتصروا لغير العربية جاء انتصارهم للفارسية
دون لغتهم العاجزة أن تكون لغة علم وأدب، يؤيد هذا ما سبق عن السلطان
محمود الغزنوي من تكليفه الفردوسي إتمام نظم الشاهنامه الفارسية .

(٢) من ذلك سنجق دار لحامل الراية خلف السلطان، ودوادار المتولى
الأحكام وتنفيذها، وسردار لرئيس الجيش، ونحوها من الكلمات المركبة من كلمتين
ركبتين إحداهما دار بمعنى ممسك والآخرى مأخوذة من المعنى المراد كسنجق
بمعنى الرميح وهكذا .

كل ما احتاجت اليه في ترجمة العلوم والآداب ، جله من لغة فارس ،
وقليله من اليونان ، والنادر من الهنود . ولعل من يقول وكيف تذكر
ما تذكر عن الهندية واليونانية ، وفيض الهنود على العرب في العلم
عظيم . وفيض اليونان أعظم وأوفر ، وهذا داع إلى أن يكون تأثير العربية
بلغتيمها على درجة لا تستقيم وقولك إنه نادر وقليل ، فنقول تفهما له
وتبيننا ، إن التأثير من الناحية العلمية المعنوية غير التأثير من ناحية
الالفاظ والاساليب ، وحقيقة كان فيض العلم اليوناني والهندي على
العربية كما ذكرت ، ولكن أغلب ما نقل اليها منهما كان عن الفارسية
التي نقلته قبل اليها ، فكان لها فيه الاستئثار بتأثير اللفظ والأسلوب ،
ثم الاشتراك مع هاتين اللغتين في التأثير العلمي ، إذ لا تخلو الترجمة من
أن يكون للمترجم في معناها نصيب .

على هذا الضعف كان شأن اللغة التركية التي شارك أهلها الفرس
في النفوذ . فاستقلت الفارسية بالتأثير البين في العربية في تلك الأوجاء
الشرقية المترامية الأطراف ، وبقي لها كيان شخصي أخذ يتزايد وينمو
كلما تقدم بالدولة الزمن ، حتى عم آخر العهد قاصية فارس ، فكانت الفارسية
فيها لغة أدب وتأليف ، ثم أخذ يزحف من الشرق إلى بغداد حتى رد
أمتة فارسية اللغة كما كانت أول الزمان ؛ أما وسط الدولة فكانت
العربية وهي لغة غالبية منذ القديم غلبة على ما وجدته من لغات أصبحت
في ذمة التاريخ ، وكذلك فعلت في لغات غربها ، وإن لم تكن
لغة أهل قبل الفتح ، فلم يبق شيء من تلك اللغات وجود ، وإذن كان
للغة الفارسية بذلك وبمن نبغ فيها من أبناء العرب ونبغ في العربية من

أبنائها، الاستئثار بتأثير اللفظ والأسلوب في ميدان الآداب والعلوم^(١) .
إلا ما كان من مشاركة اليونانية لها في الميدان العلمي، حينما ترجمت منها
مباشرة إلى العربية بعض العلوم، وهذا ما سيظهر جليا فيما نحن مجملوه
عما جد باللغة في تلك النواحي الثلاث، بعامل هذا التأثير مع العامل الطبيعي
للنشوء والارتقاء إلى أن يفصل بعد بتفصيل الموضوعات .

أولا - ناحية الأغراض والمقاصد

قد اتسعت مقاصد اللغة وأغراضها في العصر العباسي اتساعا
كبيرا ساعد عليه امتزاج المدنية الآرية بالسامية امتزاجا تاما، وكان من
وراء ذلك أن تناول التغيير أغراضا بالابجاد، وأخرى بالسمعة والازدياد،
كانت منها هذه الأغراض

١ - تدوين العلوم على اختلاف أنواعها من شرعية ولسانية
وعقلية .

(١) كان الدافع للفرس إلى تعلم لغة العرب أنهم وجدوا تعلمها وسيلة
ناجعة في الوصول إلى أعلى المناصب وآلة فعالة في جلب الغنى الواسع فحذقوها
وعملوا على نقل محاسن لغتهم إليها، وكانوا لا يحصون كثرة .

أما الدافع إلى تعلم كثير من العرب لغة الفرس فهو الاستمتاع بقراءة
آثارهم والتماس اللذة من الاطلاع على تاريخهم . ولما تغذوا بلبانها كانوا أداة
صديق في تغذية العربية بكثير من ثمارها .

ولقد جنى الأدب العربي على أيدي من حذقوا اللغتين معا ثمارا شبيهة
باضجة، كعبدالله بن المقفع، والبيدع الهمداني من الأدباء، والفخر الرازي من
الفلاسفة، وموسى بن سيار من رجال الوعظ والارشاد، وغير هؤلاء كثير .

٢ - الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية وبخاصة الفارسية ثم اليونانية .

٣ - إشاعة المذهب الشعبي والرد عليه .

٤ - نشر الزناقة والاحاد ومقاومتها .

٥ - تعبيد طرق البحث والجدل والمناظرة والمحاضرة .

٦ - التحريض على متع الحياة وتحسين المجاعة والخلاعة وامتداح الشراب والغناء .

٧ - الوعظ والارشاد عن طريق التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة .

٨ - ضبط أمور الدولة بتنوع الكتابة في مختلف الدواوين .

٩ - وضع القصة والرواية .

١٠ - وصف جمال الطبيعة ومحاسن الحضارة، كالرياض بما فيها من ثمار وأزهار ورياحين، والقصور وما حوت من أثاث ورياض وصور ورسوم، ومجالس المنادمة والشراب، ومصايد الوحوش والسمك والطيور، وأنواع اللعب بالكرة والصولجان، إلى غير ذلك من آيات الحضارة ومباهج الحياة .

١١ - النقد الأدبي على اختلاف مناحيه .

١٢ - تدريس العلوم المختلفة في المدارس وتربية الأحداث .

ثانياً - ناحية المعاني والأخيلة

لقد فتح التوسع في المقاصد وتعدد الأغراض أمام الناس أبواباً جديدة للمعاني والتخييلات، إذ كان تدوين العلوم وترجمتها عاملاً على

نضج العلوم وسعة الأفكار ، وكانت الملاحظة الجنسية والمذهبية باعثة على قوة المباحنة والمناظرة ، وخلق الحجج الجدلية إن أعوز البرهان ، وكذلك كان باعثا عليها ما كان بين زهاد هذه الحياة والمبيحين لأنفسهم الاستمتاع ، إلى غير حد بما فيها من لذة ونعيم ، ثم كان وضع القصة وخلق الرواية فاتحا أمام الخيال أودية بعيدة ما بين الأطراف ، كما كانت طبيعة البلاد الخصبية ومجالى الحضارة فيها مطلقة للتصوير الحسى كل عنان ، فعاد هذا وغيره على المعانى والأخيلة بأطيب الثمرات وهذا بعض ما كان ، مشفوا لدقته دون ما ماتكناه بالتمثيل (١)

١ - الاكثار من المعانى الدقيقة والجديدة ، التى تدل على حصافة عقل وغوص فكر وطول دراسة للعلوم العقلية وتفهم لمناحى الفلسفة من ذلك قول ابن المقفع فى الأذب الكبير :-

« إن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبك ذلك فانما هو أحد رجلين ، إن كان رجلا من إخوان الثقة فأنفع مواطنه لك ، أقربها من عدوك ، لشر يكفه عنك وعورة يسترها منك ، وغائبة يطلع عليها لك ، فأما صديقك فما أغناك أن يحضره ذو ثقته ، وإن كان رجلا من غير خاصة إخوانك فبأى حق تقطعه عن الناس . وتكافئه ألا يصاحب ولا يجالس إلا من تهوى »

(١) سنقصر التمثيل هنا على النثر وندع التمثيل من الشعر مع تفصيل القول إلى حيث الكلام على ناحية المعانى والأخيلة فى الشعر وهى غنية بالأمثلة والشواهد على كل ما نذكر هنا .

٢ - إرسال الحكمة المقررة وضرب المثل الموضح ، لما رسيخ في
أذهان القوم من فلسفة معينة، وتجارب مفهومة ساعدتهم أن يكثروا
من النوعين مجيدين

من ذلك قول ان المنفع في كتاب كفاية ودمنة من باب عرض الكتاب
« فالعلم لا يتم إلا بالعمل، وهو كالشجرة والعمل به كالثمرة ، وإنما
صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به ، وإن لم يستعمل ما يعلم لا يسمى
عالماً ، ولو أن رجلاً كان طالماً بطريقت مخوف، ثم سلكه على علم به سمي
جاهلاً ، ولعله إن حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواء هجمت بها فيما
هو أعرف بضررها فيه وأذاها من ذلك السالك في الطريق المخوف
الذي قد جهله . ومن ركب هواه ورفض ما ينبغي أن يعمل بما جربه
هو أو أعلمه به غيره ، كان كالمرضى العالم بردىء الطعام والشراب وجيده
وخفيفه وثقيله، ثم يحمله الشره على أكل رديئه، وترك ما هو أقرب إلى
النجاة والتخلص من علة ، وأقل الناس عذراً في اجتناب محمود الافعال
وارتكاب مذمومها، من أبصر ذلك وميزه وعرف فضل بعضه على
بعض كما أنه لو أن رجلاً أعمى بصيراً والآخر أعمى ساقماً الأجل
إلى حفرة فوقها فيها، كانا إذا صادرا في قاعها ، بمنزلة واحدة ، غير أن
البصير أقل عذراً عند الناس من الضير إذ كانت له عينان يبصر بهما،
وذلك بما صار إليه جاهل غير عارف »

٣ - استخدام الحجج العقلية والبراهين الفلسفية التي أصبحت
أذهانهم الناضجة لا ترضى بغيرها ولا تقنع بسواها
من ذلك ما كتبه أحمد بن يوسف على لسان طاهر بن الحسين

إلى المأمون بقتل الأمين وهو :

« أما بعد فإن كان المخلوع قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة، فقد فرق بينهما حكم الكتاب في الولاية والخدمة بمفارقتة عصمة الدين وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين، لقول الله فيما اقنص علينا من نوح وابنه « إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » ولا طاعة لأحد في معصية الله ولا قطيعة ما كانت القطيعة في ذات الله، وكتابي إلى أمير المؤمنين وقد أنجز الله له ما كان ينتظر من سابق وعده، والحمد لله الرجوع إلى أمير المؤمنين معاوم حقه، الكائد له فيمن ختر عهده ونقض عقده، حتى رد به الألفة بعد فرقتها وجمع به الأمة بعد مشتاتها وأضائه أعلام الدين بعد دروسها، وقد بعثت إلى أمير المؤمنين بالديار وهي رأس المخلوع وبالآخرة وهي البردة والقضيب والحمد لله الآخذلاً أمير المؤمنين حقه الرجوع إليه تراث آباءه الراشدين.

٤ - الأبداع في التصوير والأغراب في الخيال . وقد كثرت موادها وتعددت ألوانها في أدب القصة من المنتور، ومن خير ما تطالع فيه الأول أمثال كيلة ودمنة، ومن خير ما تطالع فيه الثاني، حكايات ألف ليلة وليلة، وإنك لمصيب الاثنيين مما فيما وضع بجانب هذه الكتب من مقامات، وبخاصة للبديع والحريري وسنختر مقامة لكل بعد :

٥ - الأقدام دون تهيب على المبالغة والتحويل جريا على ما كان للفرس

بهذا النوع من ولوع حملهم إليه التباعد بين طبقات الناس .

من ذلك ما كتب به أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف صاحب

ديوان الرسائل لعضد الدولة عن نفسه إلى مؤيد الدولة شكرا علي

شكر سماه تهنئة .

« وصل كتاب مولانا جوا بآ عما خدمت به حضرة المحروسة مهنثا ، فحسبتني وقد تأملت عنوانه ، مغلو طافي أو معنيا به غيري ، إعظاما لتلك الأيدي الغر والنعم الزهر التي أعدتها في الشرف مناسب وإلى الأيام والليالي ذرائع » إلى آخره

٦- وهذا كله إلى محص الأفكار وترتيب عناصرها ، حتى يأخذ بعضها بحجز بعض ويقل الشذوذ والاقتضاب .

ثالثا - ناحية الألفاظ والأساليب

لقد كان تأثير اللغة في هذه الناحية أظهر منه في الناحيتين السابقتين ، لأنها فضلا على تأثيرها بهما ، قد تأثرت من نواح غيرهما ، وهذي بعض مظاهر التأثير نسوقها عدا كما فعلنا في ناحية الأغراض .

١ - حدوث لغة تأليفية لتعليم العلوم وأخرى فنية لتعليم الصناعات روعى في كليهما مقياس المنطق والفلسفة ، لا مقياس الأدب والبلاغة ، ولم تك هناك مندوحة دون حدوثهما بعد نشاط التدوين في شتى العلوم وصنعا وترجمة وانتشار الصناعات .

٢ - نقل كلمات عربية إلى معان جديدة بطريق التجوز أو الاشتقاق أو القياس ، لمصطلحات العلوم والفنون والصناعات وما إلى ذلك من إدارات الحكومة ودواعي العرف العام .

٣ - دخول كثير من الكلمات الأجنبية في كل ما تقدم ، وبخاصة على أيدي المترجمين والمؤلفين فيما نقل من علوم ، وذلك بعد تغييرها إلى ما يجعلها متفقة مع العربية مخارج حروف وأبنية أوزان إن كانت في حاجة

إلى غير. وتسمى حينئذ بالكلمات المعربة، كما يـ حتى هذا التغيير بالتعريب.

٤ - الدقة في انتقاء الألفاظ السهلة الرشيقة الممثلة للمعنى كل التمثيل.

٥ - التأنيق في صوغ العبارات المحكمة الرائعة المفهومة للغرض في

شدة أسر وقوة أداء

٦ - التوسع في استخدام أنواع التشبيه والتمثيل والكناية والمجاز.

٧ - الاكثار من محسنات البديع لفظية ومعنوية مع الازدواج

المصحوب كثيرا بالسجع.

٨ - الشغف باستعمال ألفاظ القرآن ومحاكاة أساليبه واقتباس آياته

والاستبشاد بها.

٩ - الانحدار إلى استعمال كثير من ألفاظ الشغف والبذاء وعبارات

اخلاعة والمجون.

١٠ - التوسع في إدخال ألقاب التعظيم على الأسماء وبت عبارات

الماق والخنوع في ثنايا الكلام.

١١ - التغالى في كل من الاطناب والايجاز الى درجة قد نُسُو دمع

الاول عشرات الأوراق في بعض الرسائل والعهود والمنشورات. وتصل

بالتأني في قصار الرسائل إلى حد التوقيع.

١٢ - ظهور جديد في الوزن والقافية لم يكن معروفا من قبل كما

سيأتى بيانه في الشعر^(١).

(١) من ذلك في الوزن ما يسمى الممتد وهو عكس المديد كقول القائل

قد شجاني حبيبي واعتراي ادكار ليته إذ شجاني ماشجتنى الديار

ومنه في القافية ما يسمى المسط وهو أن يبتدىء الشاعر بأقسمة من قافية

ذاك أظهر ما كان من جديد في نواحي اللغة أدبها وعلمها ، وللفارسية تأثير فيه كبير ، من خير وشر في الاغراض وحسن وقبيح في المعاني والألفاظ ؛ ولقد كان بجانب الخير والحسن الغلبة في أوائل العصر ولكن لم يأت آخره حتى تغاب الشر والقبح باستكراه اللفظ والمعنى وضعف ملكة البيان .

وهناك ناحية للغة لم تك من حسابنا فيما أسلفنا من قول ، هي ناحية التخاطب العام الذي جنت عليه الأعجيبات أكبر جناية عرفت للعجبة على لغة الضاد حتى انتشرت العامية وكان حقا أن تنفرد في هذا العصر حيث الكلام عليها بعنوان .

واحدة يأتي بعدها بقسيم من قافية أخرى يلتزمها دون سابقتها كقول بعضهم
غزال هاج لي شجنا فبت مكابدا حزنا عميد القلب مرتها
بذكر اللهو والطرب
سبتني ظبية عطل كأن رضاها عمل ينوء بخصرها كفل
ثقل روادف الحقب

انتشار العامية

واختلافها باختلاف الاقاليم

عقدنا في كتابنا الثاني من تاريخ الأدب العربي حيث الكلام على العهد الأموي، فصلا لم نعقد مثله في عصرى الجاهلية وصدر الإسلام هو « لغة التخاطب » عللنا فيه تنزه العصرين المذكورين عن اللحن والتحرير والدخيل، وأبنا السبب في نشأة تخاطب جديد فى العصر الأموى مشوب بهذه الاشياء قلنا من وصف لغته إذ ذاك :-

« فهذه اللغة الجديدة كانت خايطا من العربى المشوه بعضه باللحن والتحرير، والأعجمى الذى يختلف باختلاف الأعجميات فى الامصار، من فارسية بالعراق ورومية بالشام وقبطية بمصر وهكذا ولكنها لم تتناول بلحنها وتحريفها ودخيلها جميع المتكلمين، فكانت بعيدة عن ذلك كله على السنة النازحين من العرب أنفسهم وكذلك تقريبا على السنة أبناء الخاصة من أمهات عربيات، أما أبناءهم من غير العربيات وأبناء عامتهم مطلقا فلم تخل لغتهم من شىء من هذا، وقد يكون مصحوبا بلكنة أعجمية أيضا، ولكن هؤلاء جميعا كانت محادثتهم عربية فى مجموعها بالنظر إلى محادثة الاماجم أهل البلاد الاصليين إلا من تعلموا العربية منهم ونبغوا فيها فقد كان مثلهم مثل العرب النازحين، ولذلك سابقوم فكانوا مثلهم فى ميادين الأدب والشعر، وأسبق منهم فى ميادين العلم والتأليف » إلى أن قلنا :-

« غير أن شيوع اللحن فى العصر الأموى لم يززع من عقيدة

الناس في لغتهم لأنها لغة القرآن وأساس الدين ، مع اصطباغ الدولة
بالصبغة العربية المحضة ، فاستمروا يتهيبون اللحن ويذمونه ويفنخرون
بالاعراب ويمدحونه .

نريد بهذا القول وذاك أن لغة التحدث العام كانت عربية لما
تتحول إلى عامية بعد

أما في العصر العباسي الذي نحن بصدد الكلام فيه ، فقد تحولت
إلى عامية انشرت بقوة العجمة على تتابع سنين الطوال فطاردت العربية
من هذه الوجهة بكافة الأقاليم ، وبلغت شدتها في بعضها القضاء عليها
والعود بالمحادثة إلى لغات سكانه الأصليين . نعم إن تلك المطاردة
اختلفت قوة وضعفا باختلاف الجهات ، ولكن التحدث لم يك بالعربية
الصحيحة في جهة ما حتى البادية فقد دخلتها العامية قبل انقضائه بزمن
طويل ، واليك في هذا كله البيان .

ورث العصر العباسي إذن عن العهد الأموي لغة التحدث عربية
صحيحة في مجموعها ، وبذل خلفاؤه الأولون على بقائها صحيحة بمحاربة
اللحن والتجريف أن يتسرب إلى ألسنة السواد وإن وقع من بعضهم ،
جهودا مشكورة حاكما فيها الولاة والامراء العرب محاكاة المخلص
المتعصب ، والموالي محاكاة المتزلف المتقرب . وبدأت هذه الجهود في
شقي الأتوان دفا عن لغة الدين والعلم والسلطان .

من ذلك أنهم بلغوا الذروة في تكريم اللغة بتكريم رجالها علماء
وأدباء ورواة وشعراء ، فكانوا يفسحون صدورهم لنقاش العلماء ،
ويوسعون مجالسهم لناظرة الأدباء ، ويهيبون بالرواة أن يجردوا في جمع

شوارد اللغة وضبط مآثورها، ثم يقيمون المحافل لاستماع الشعراء باذلين في كل ذلك عناية تحفز الهمم ، ومالا يستهوى النفوس ومنه أنهم كانوا القدوة الحسنة في فصاحة العبارة وبلاغة المعنى، والأسوة الطيبة في العناية بتنشئة أبنائهم على مثل ما هم عليه من بيان، فلم يفت واحدا منهم أن يستحضر لتأديب بنيه ، البرزين من شيوخ الأُدب وأكابر الرواة، كالشرفي القطامي مؤدب المهدي ، والأشعر النحوي والكسائي مؤدبي الأمين ، والزبيدي مؤدب المأمون ، والمفضل الضبي مؤدب الواثق ، ويعقوب بن السكيت مؤدب المعتز ، وثعلب والمبرد مؤدبي ابنه عبد الله بن المعتز ، إلى غير هؤلاء ممن كان الخلفاء يأملون من وراء ملازمتهم أبناءهم تنقيفا عربيا يعني عن الأرسال إلى البادية التي كان يحرص خلفاء الأمويين على تنقيف أبنائهم فيها .

ومنها قدرهم النبوغ العربي قدره بما يظهرون من تعظيم لأهله تنسى معه ضعة الأصول ولا يضمن عليه من أجلها بكبار المناصب ، ونظرة إلى من قلدوا أعمال الدولة إذ ذاك ترينا كيف كان النبوغ الأدبي أمام ذوى الهمم المتحفزة خير وسيلة للتقدم ، وإلى أية غاية اتخذوه معارج عليها يظهرون^(١)

(١) من الحوادث التي تؤيد هذا وهي كثيرة ما ذكر من أن المعتصم وكان أميا ورد إليه كتاب بعض العمال فقراه عليه وزيره أحمد بن عمار فاذا فيه ذكر الكلا فقال المعتصم للوزير ما الكلا؟ فلم يدر ما هو فقال المعتصم: خليفة أمي ووزير عامي ثم قال: انظروا من بالباب من الكتاب فوجدوا محمد بن عبد الملك الثيات

غير أن هذه الجهود وغيرها مما كانوا يبذلون لم تقو على صد تيار العجمة الزاحف بجيوشه من لحن وتحريف ودخيل ، والمتخذ طلائعه الغازية السنة من لا يترفع عنه من ضعفاء العرب ، ومن لا يتطالعون إلى رقى من الأعجام ، فكان بهؤلاء وهؤلاء شديد الوطأة. قوى الزحف، سريع الانتقال، أنبأ عن وجوده في العصر الأول على كره الخلفاء حتى على أسنتهم ، وأعلى مكانة نفسه في العصر الثاني فلم يكن من ظهوره على السنة الخاصة خجل ولا حياء .

فأما إعلانه عن وجوده في العصر الأول فقد ظهر على السنة الخلفاء وخاصتهم على تهيبهم له وتقززم منه . ذكروا أن أبا جعفر المنصور لحن في مجلس به أعرابي فصر الأعرابي أذنيه ، ثم لحن ثانية فقال الأعرابي أف لهذا ، ثم لحن الثالثة فقال أشهد لقد وليت هذا الأمر بقضاء وقدر . ودخل الفراء على الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه فقال الرشيد أتلحن يا فراء فقال يا أمير المؤمنين إن طباع أهل الحضر اللحن فاذا تحفظت لم أَلحن وإذا رجعت إلى الطباع لُحنت . وكان المأمون يقول أتكلم مع الناس كلهم على سجيته إلا مع ابن الهيثم فاني أتُحفظ إذا كلمته لأنه يعرف الأعراب . وسمع المأمون بعض ولده يلحن فقال « ما على أحدكم أن يتعلم العربية فيقيم بها أوده ويزين بها مشهده ويفل حجة خصمه بمسكتات حكمه ، ويملك مجلس سلطانه بظاهر بيانه ، أيسر أحدكم أن يكون لسانه كاسان عبده أو أمته فلا يزال الدهر أسير كلمته » إلى غير ذلك مما يدل

فأدخل عليه فسأله عن الكلاء فقال يا أمير المؤمنين هو العشب طامة فان كان رطباً فهو الخلا وإذا يابس فهو الحشيش فعرف المعتصم فضله واستوزره .

على أن اللحن في العصر الأول كان من طباع أهل الحضر لضعف ملكاتهم ، كما يدل على أنه كان شائعا على ألسنة السواد ، ولكنه يدل بأزاء هذين أنه كان إذا وقع من الخاصة استهجن وقوبل من السامعين با كبار أمره والتشدد في المراقبة به . وقد بلغ من تأذى الرشيد باستماعه وعنايته بأصلاحه أن حاول إصلاح غناء الملاحين بدجلة ، وكان إذا ركب بها أعجبه غناؤهم وآلمه لحنهم فقال جلسائه : قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعرا يغنون فيه ، فقبل له ليس أحد أقدر على هذا من أبي العتاهية . وكان في الحبس فوجه إليه يأمره بعمل الشعر دون أن يأمر باطلاقه : فغاضه ذلك وعمل له شعرا في الوعظ والتذكير بتقارب الأيام لينغص به على الرشيد سروره كلما سمعه . وكان الرشيد سريع التأثر يبكي للموعظة إذا مرت بأذنه فكان كلما سمعه تأثر ورج في بكائه حتى يأمر من معه الملاحين بالسكوت (١)

(١) كان سبب حبس الرشيد له أنه لما تنسك ولبس الصوف أمره الرشيد أن يقول شعرا في الغزل فامتنع فضربه وحلف ليجب من حتى يقول الشعر فقال أبو العتاهية « كل مملوك لي حر وامرأتي طالق إن تكلمت سنة إلا بالقرآن ، أو بلا إله إلا الله محمد رسول الله » فخرق الرشيد مما فعله وأمر أن يجلس في دار ويوسع عليه ولا يمنع من دخول من يريد إليه .

أما الشعر فهو كما رواه عن نفسه

خانك الطرف الطموح أيها القلب الجموح

لدواعي الخير والشر م دفو ونزوح

هل لمطلوب بذنب توبة منه نصوح

وأما إعلائه مكانة نفسه في العصر الثاني، فكان حيث فقد الأديب النصير من الخلفاء وأولياء العهود السابقين، وخلف من بعدهم خلف نشئوا بين الامهات والخواصن الأعجيبات لا يخالطون إذا خالطوا غيرهن، سوى الخدم الأعجم، بعيدين في كل ذلك عن الرواة والمؤدبين. ثم تولوا الخلافة على هذا الضعف الشأن المعيب ففقدت الفصحى بذلك معين التشجيع والتأييد، وتعدت العامية السنة السواد إلى السنة الخاصة فكان بها تمادهم وخطابهم ما لم يحتفلوا بقول يذاع، ومن هنا بدأت العامية تعمل عملها في السنة الخواص حتى أفسدت عليهم فصاحتهم،

كيف إصلاح قلوب إنما هن قروح
أحسن الله بنا أن الخطايا لا تقوح
فاذا المستور منا بين، ثوبيه نضوح
كم رأينا من عزيز طويت عنه الكشوح
صاح منه برحيل صائح الدهر الصدوح
موت بعض الناس في الأر ض على قوم فتوح
سيصير المرء يوما جسدا مافيه روح
بين عيني كل حي علم الموت يلوح
كلنا في غفلة والسموت يغدو وروح
لبنى الدنيا من الدنيا غبوق وصبوح
رحن في الوشى وأصبحت من عليهن المسوح
كل نطاح من الدهر له يوما نطوح
نح على نفسك يامسكين إن كنت تنوح
لتموتن وإن عم رت ماصم نوح

التي صادرت لاتسعفهم حين التهيؤ لمقال إلا بالعربية الوسط ما لم يكونوا كتابا أو شعراء وبقيت على هذه الحال إلى نهاية العصر المذكور .

فلما جاء العصر الثالث ، جاء وقد ظهرت العامية على السنة الخواص ، وبالرغم من بلوغ الكتابة والشعر فيه الذروة كما أسلفنا ، وجدت تلك اللغة في التحدث العام بصرة كبيرة من هؤلاء ، لأن غالبيتهم في الأصل أعجم لا يزال في رءوسهم وان هزموا أمام العربية لغة كما هزموا ديننا ، أن يفسحوا الطريق أمام لغاتهم الأولى على السنة السواد كي تشقه مكتسحة العربية لتحيب عدم موت وتقوى فيما هيء لها من حياة ، فبدأت العربية تنقلص من الأطراف مخلقة مكانها للغات السكان الأصليين كالبربرية في شمال أفريقية والفارسية في خراسان .

ولقد صحت هذا التقلص ظاهرة لم يك حدوثها في الحساب ، تلك أن من عنوا بالنطق الصحيح في حديثهم العام ، أصبحوا مضغنة في الأفواه يسخر منهم ويستهزأ بهم ويحلو للناس ترداد حديثهم في المجالس ترويحاً عن النفس وتفكهاً للسامعين ، ثم استمرت هذه الظاهرة تكسب أنصاراً ومؤيدين حتى كانت في العصر الرابع طلبة دعت العلماء إلى إجابتها بالتأليف والتصنيف^(١)

أقبل هذا العصر الأخير شاملة مجتمه جميع الأطراف وفاقدة حكمه ما كان لأمثالهم في سابقه من صلة بالآداب ، فقد ر على العربية

(١) كما فعل أبو الفرج النحوي المتوفى سنة ٤٩٩ حيث ألف كتاباً جمع

فيه أخبار المتقربين .

جزر منتقص بعد أن كان لها مذو ازدياد ، ولم تلبث أن ولت أمام
الأعجيبات الأديار ، مسرعة إلى باديتها عسى أن تجدها مقرا هادئا كما
كانت في خوالي الأيام ، ولكنها لم تكد تنعم بهذا الهدوء طويلا حتى
غزتها العجمة في عقر دارها ، فارتدت فصيححتها صامية قبل أن يبلغ ذلك
العصر منتهاه ، وكان من أفعال العوامل في هذه الغارة التي قضت على
البقية الباقية في البادية عاملان .

أحدهما ديني هو انطلاق الآلاف من عامة الأقطار الاسلامية
كل عام إلى مكة والبيت الحرام يهرعون إليه لتأدية فريضة الحج ثم
ينقلبون إلى المدينة لزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام ، وهم على
اختلاف ألسنتهم يخالطون العرب خلال ذلك مخالطة جوار طويل
وصحبة دائبة لا تنكأ تنقضى حتى تكون بوادر أمثالها من العام القابل
على وشك الحدوث ، ولا يظن ظان القلة فيمن كانوا يختلطون بهم
من القبائل ، فان هذا ظن كان يكون لو أن ذهاب العرب إلى الأماكن
المقدسة لم يكن إلا للحج ، أما موسم الحج هو الموسم التجاري للعرب
يقدمون إليه بماشيئهم وسلعهم مبكرين ، ثم لا ينصرفون إلا حيث
ينصرف الناس ، فان من شأنه أن يجعل جماهيرهم تزاحم كل غريب ،
واختلاطهم يطول زمنه إلى أبعد ما يكون ، فهذا الاختلاط الذي كان
يبدأ في القافلة منذ هبوط الأعجام بلاد الاعراب ولا ينتهي إلا حيث
يسلمهم أولئك الاعراب إلى الأحصار عائدين ، استمر يحمل إلى البادية
لغات من العجمة ذات ألوان لم تزل تغزو فصيححتها في جوفها حتى
خرت أمامها صرعى ما لها من مقيل ، قد أضر بكلماتها اللحن والتحرير ،

وصحبها ما صحبها من أعجمى دخیل . ولقد كان لهذا الا رط مدد مقیم من أولئکم الذین یجتمعون بین عامین فی هذه البلاد ، یحجون فی عام ویزورون فی عام ، وآخر أكثر اقامة ممن وهبوا أنفسهم لجوار الرسول حتی یوافقهم فی هذه الأماكن المقدسة أجلهم المحتوم ، فیفوزوا من الله بمغفرة ورضوان .

والآخر دنیوی هو انتشار الثورات فی الجزيرة وأطرافها لبعث مرکز الخلافة فی العصر العباسی عنها ، إما من قبائلها علی قوافل الحج فیضطر الخلفاء إلى تجنيز جيوش الاعجام لتأديبها واعادة الا من إلى نصابه فی ربوعها ، فتجوس تلك الجيوش ديار العربية الفصحى إذ غالبية هذه القبائل كانت من قيس عيلان وسكنهاها تيك الديار علی مقربة من مكة والمدینة وما إليهما من قرى الحجاز^(١) وإما من أعجام یقصدون إلى أطرافها لنشر مذهب أو التهيؤ لخروج فيوثرن فی لغتها بأقامتهم ويضعف هذا التأثير ما قد يكون من بعث الخلفاء بالجند الأعاجم اليهم ، كما كان من الزط فی بادية البصرة ، والزنج بشواطئ الفرات ، والقرامطة بسواد الكوفة والبحرين واليمامة والحجاز ، وغيرهم ممن كانوا منبع قلاقل واضطرابات لاتزال تدعو فی إخمادها إلى جوس

(١) من تلك الثورات ما كان من بنی سليم وبنی هلال وفزارة وبنی كلاب فی خلافة الواثق بالله سنة ٢٣٠ وقد وجه اليهم الواثق جيشا عظيما بقيادة بغا الكبير قضی قرابة السلتين فی حربهم حتى انتصر عليهم وطاد بكثير من ذوی الشغب فيهم الى سامراء .

الأعجام مضارب الأعراب^(١). فبهذين العاملين مع عامل الاختلاط العام، ردت لغة التخاطب الصحيحة بالبادية إلى عامية قبل انتهاء القرن

(١) فأما الزط فهم قوم من الهنود سكنوا شواطئ الخليج الفارسي قديماً وعاشوا على السلب والنهب طويلاً، حتى إذا كانت الفتنة بين الأمين والمأمون استولوا على طريق البصرة، وأخذوا يعيشون وينهبون، وقد استمروا على ذلك طوال خلافة المأمون. ولما ولي المعتصم كان شرهم قد استفحل وزاد، فجرد إليهم جيشاً هزمهم وعاد ببقاياهم وأسراهم إلى دار الخلافة سبعة وعشرين ألفاً فسرحتهم الدولة إلى شمالها ومنه نفذوا إلى أوربة حيث تعيش أنسابهم الآن ربوعها الوسطى تحت اسم «العجر والنور».

وأما الزنج فقد ظهروا في خلافة المعتصم على أنه بدعوة رجل فارسي ظهر أول مظهر بالبحرين سنة ٢٤٩ يدعو الأرقاء من العبيد إلى التحرير وقد أطاعه منهم خلق كثير خرجوا على سادتهم فتوجه بهم إلى البصرة وشواطئ الفرات فخرب الدولة وهدد بغداد وبقي كذلك مصدر شغب حتى قتلت جيوش الخلافة سنة ٢٧٠.

أما القرامطة فقد ظهروا أول مظهروا بسواد الكوفة على يد رجل من خوزستان في آخر خلافة المعتصم على الله سنة ٢٧٩ وكانت دعواه إلى جعل الخلافة في آل البيت فكثرت أتباعه وظهر لهم نفوذ بالشام وكافة أرجاء الجزيرة العربية فأصبحوا فيها قطاع طرق ينهبون الحجاج ويعتدون على الأماكن المقدسة وساكني مدنها بالسلب والتخريب دون أن تظفر عليهم الدولة بالغلب حتى إذا ماتوا منهم القائم على دعوة آل البيت فقدوا كثيراً من الأنصار فأمكنتم الدولة هزيمتهم وقد مضى على عبثهم هذا أكثر من ثلث قرن.

الرابع الهجري فذهب آخر مدد كان لها أمام الرواة^(١)
على هذا النسق الذي ذكرنا تملكته العامية السنة السواد في جميع
الأقطار، فلم ينطقوا بغيرها ونالت السنة الخواص في تحادثهم العام
فلم يحيدوا فيه عنها، ولكنها كانت مع اشتراكها بجميع الجهات في إفساد
العربية الصحيحة باللحن والتحريرف والدخيل، تختلف في إقليم عنها في
إقليم اختلافا يرجع إلى أثر العجمة قوة وضعفا، وإلى نوعها لفظا وأسلوبا.
فمن الأول قلة الجاليات العربية أو كثرتها وبعد الإقليم عن مواطن
العرب الأولى أو قربها منها، فحيث كانت الجالية قليلة والاقليم
بعيدا، يكثر الدخيل ولا يكاد اللحن والتحريرف يترك من الألفاظ العربية

(١) عن أهل البادية أخذ أبو عمرو بن العلاء طامة أخباره، وعليهم عول
الأصمعي في غريب اللغة، ومنهم استمد سيبويه والـكسائي مراجع أحكام
النحو، وما زالوا مستمد رواة الأدب وعلماء اللغة وأئمة النحويين إلى القرن
الرابع حيث بدأ لسانهم يفسد، فكان هؤلاء يأخذون من بعضهم دون بعض
كما كان يفعل ابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢. ومنذ القرن الخامس لم يبق منهم
أحد على الفصيحة إلا ما ذكره ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ عن أهل
« عكاد » فقد قال في لفظ عكوتين « هو اسم جبلين منيعين مشرفين على زبيد
باليمن » ثم عاد يقول بعد أن ذكر أن من مدن أحدهما الزرائب « وجبلا
عكاد فوق مدينة الزرائب، وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى
اليوم لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة في مناكحة وهم
أهل قرار لا يظعنون عنه ولا يخرجون منه » وأيد الفيروز آبادي المتوفى سنة ٨١٧
في مادة عكد بقاءهم إلى أيامه على تلك اللغة، كما أيد شارحه الزبيدي المتوفى
سنة ١٢٠٥ بقاءهم كذلك حتى أيامه أيضا.

صحيحاً، ولهذا كانت العامية في الأطراف القاصية - كخِـ اسان شرقاً وبلاد المغرب غرباً وأرمينية شمالاً والنوبة جنوباً - شديدة الوطأة على اللسان العربي، لفظاً وأسلوباً، ولولا شدته بقوة الدين وأنه لسان القرآن والحديث، ما شق له في هذه القاصيات طريقاً؛ أما حيث تكثر العرب ويقترب الأقاليم - كما في العراق ومصر والشام - فإن الدخيل يكون حينئذ قليلاً، واللحن والتعريف لا يضحى متغلغلاً، ومن ثم بقيت العامية عربية في هذه الأقطار وارتدت في تلك إلى لغات أهلها الأصليين، على أنه إذا تعارض هذان العاملان كان لحال الجالية كثرة وقلة، الغلبة على حال الأقاليم بعداً وقرباً ولهذا كانت عامية الأندلس على بعدها، خيراً من عامية بلاد المغرب وهي أقرب منها.

ومن الثاني التفاوت في نوع الكلمات الدخيلة إذا كانت في كل إقليم من لغة سكانه الأصليين. ففي اشرق كانت غالبيتها فارسية وقلتها تركية، وفي الشام ومصر كان الدخيل من اليونانية والرومانية والقبطية، وفي شمال أفريقيا كان بربرياً، أما في بلاد العرب فقد كان خليطاً من كل هذه اللغات وأكثر منها ولكنه كان قليلاً.

ومنه أيضاً التفاوت في نوع الأساليب الغازية إذ كان لكل أعجمية أسلوبها من حيث التقديم والتأخير، والنفي والاثبات، والتعريف والتنكير، وهكذا مما له أثر في تكوين الأسلوب.

وكما كانت العاميات تختلف بعضها عن بعض باختلاف الأقاليم ونازليها من العرب كما ذكرنا، كانت العامية الواحدة تختلف في الإقليم الواحد، فتراها في وقت غيرها في آخر، ولو لم تطرأ عوامل سوى

مغالبتها الفصيحة ومغالبة الفصيحة إياها إذ لا بد في تلك المغالبة ،
أن تنتهي بقوة إحداهما وضعف الأخرى ، وبالجرى يقرب هذا الانتهاء
بما قد يكون من عوامل طارئة ، كما يشاهد على كليهما في أوائل
العصور وأواخرها .

وعلى الرغم مما ذكرنا للعامة من سلطان ، قدر الله عليها ألا تتعدى
لغة التحدث العام إلى غيره من لغة العلم في التأليف أو لغة الأدب في
الإنشاء والقريض^(١) ، وقدر للفصيحة أن تبقى حاملة اللواء في هذه
النواحي الثلاث على أيدي العلماء والكتاب والشعراء ، فصمدوا ثلاثتهم
على نصرتها يقارعون الحوادث ويغالبون الأيام حتى كانوا النبراس
المهادي فيما جدد أواخر العهد العباسي من غيم ، وأطبق بعد زواله على
أيدي التتار من ظلام . أما العلماء فلما رسخ في نفوسهم من الحرص
على خدمتها ، خدمة للقرآن والحديث حتى يبقيا مددا مفهوما للوعظ
والتشريع ، وأما الكتاب فلما كان من حاجة الملوك إليهم في ضبط
أمور الدولة بمختلف الدواوين على ما هدى إليه الملوك من إبقاء الكتابة
عربية كما ورثوها ، زلنى إلى الدين وتقربا من المحكومين ، وأما الشعراء
فلأن الشعر مهما أبعد رجاله وضمن عليهم بالنصالات لا بد أن يغلبهم ولو
بالتنفيس عنهم فيما يشكون ومنه يألمون ، على أن حراسة الله للغة دينه
وقرآنه أبت إلا أن يكون لها نصراء في أشد العصور حليكة ، وأضيق
الأيام حرجا ، وهكذا يأتي سبحانه إلا أن يكون .

(١) لم يظهر بها في لغة العلم شيء هام ، ولا في لغة الأدب إلا الزجل ،

والقوما ، وكان وكان ، وبعض المواليا

و بعد

فان لنثر اللغة جانبا أدبيا تراه ماثلا في الخطابة والكتابة الانشائية،
وآخر علميا يظهر في الكتابة العلمية أى تدوين العلوم والفنون .
وإننا لمتناولو الجانبين من الآن بالكلام ، بعد الذى قدمنا من مقدمات .
وبعدها يكون الكلام على الشعر إن شاء الله .

الخطابه

أولا - نماذجها

١ - لما بويح السفاح^(١) صعد منبر الكوفة فقال :

الحمد لله الذي اصطفى الاسلام لنفسه تكرامة ، وشرفه وعظمه ،
واختاره لنا وأيده بنا ، وجعلنا أهله وكفه وحصنه ، والقوام به والذابين
عنه والناصرين له ، وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها ، وخصنا
برحم رسول الله ﷺ وقرابته ، وأنشأنا من آبائه وأنبتنا من شجرته
واشتقنا من نبعته^(٢) جعله من أنفسنا عزيزا عليه ما عنتنا^(٣) حريصا
علينا بالمؤمنين رءوفا رحيمًا ، ووضعنا من الاسلام وأهله بالموضع الرفيع
وأنزل بذلك على أهل الاسلام كتابا يتلى عليهم فقال عز من قائل فيما
أنزل من محكم القرآن « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت
ويطهركم تطهيرا » وقال « قل لأسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى »
وقال « وأنذر عشيرتک الأقربين » وقال « ما أفاء الله على رسوله من
أهل القرى فله وللرسول ولذی القربى والیتامى » فأعلمهم جل ثناؤه
فضلنا ، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من الفى والغنيمه نصيبنا
تكرمة لنا وفضلا علينا ، والله ذو الفضل العظيم
وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا^(٤) أحق بالرياسة والخلافة منا ،

(١) هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس . (٢) واحدة النبع

وهو شجر السهام . (٣) يريد عزيزا عليه عنتنا أى مشقتنا .

(٤) السبئية أتباع عبد الله بن سبأ من الغلاة القائلين بأحقية العلويين

على أبناء عمهم العباسيين .

فشاهت وجوههم ، بم ولم أيها الناس ؟ وبناهدى الله الناس بعد ضلالهم ،
وبصرهم بعد جهالتهم ، وأنقدهم بعد ما كنهم ، وأظهر بنا الحق وأدحض بنا
الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسدا ، ورفع بنا الخسيسة وأتم بنا
النقيصة ، وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاضف وبر
ومواساة في دينهم ودينام ، وإخوانا على سرور متقابلين في آخرتهم ، فتح
الله ذلك منة ومنحة لمحمد ﷺ ، فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر
من بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم ، فحوا موارث الأمم فعدلوا
فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها وخرجوا خصامنها ، ثم وثب
بنو حرب ومروان فابتزوها وتداولوها بينهم فجاروا فيها واستأثروا
بها وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حيننا حتى آسفوه ، فلما آسفوه انتقم منهم
بأيدينا ، ورد علينا حقنا وتدارك بنا أمتنا وولى نصرنا والقيام بأمرنا
لمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض وختم بنا كما افتتح بنا وإني
لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ، ولا الفساد من حيث
جاءكم الإصلاح ، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله .

يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا
عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا
وأنا كم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا وقد زدكم في
أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير^(١)

٢ - قال ذلك وكان موعو كما فاشتد به الوعك^(٢) فجاس على المنبر

وصعد صم داود بن علي فقام على مرقاة دونه فقال :

(١) بهذا لقب بالسفاح ، والمبير المدمر . (٢) ألم الحمى .

الحمد لله شكرا شكرا شكرا الذي هلك عدونا وأصار إلينا
ميراثنا من نبينا محمد ﷺ . أيها الناس الآن أقشعت حنادس الدنيا^(١)
وانكشف غطاؤها، وأشرق أرضها وسماؤها وطلعت الشمس من
مطلعها، وبزغ القمر من مزغته، وأخذ القوس باريها وطادت السهم إلى
الترعة^(٢) ورجع الحق إلى نصابه، في أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة
بكم والعطف عليكم .

أيها الناس إنا والله ماخرجنا في طلب هذا الأمر لنكثر لجينا
ولاعقيانا^(٣) ولا نحفر نهرا، ولا نبني قصرا، وإنما أخرجنا الأنفة من
ابتزازهم حقنا والغضب لبني عمنا وما كرثنا من أموركم^(٤) وبهظنا من
شئونكم^(٥) ولقد كانت أموركم ترمضنا^(٦) ونحن على فرشنا ويشتد علينا
سوء سيرة بني أمية فيكم وخرقهم بكم، واستذلالهم لكم، واستئثارهم بفيئكم،
وصدقتكم ومغائكم عليكم ، لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله ﷺ
وذمة العباس رحمة الله، أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله
ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ تبا تبا^(٧) لبني
حرب بن أمية وبني مروان: آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة،
والدار الفانية على الدار الباقية فركبوا الآثام وظلموا الأثام ، واتهكروا
المحارم وغشوا الجرائم، وجاروا في سيرتهم في العباد وسنتهم في البلاد ،
التي بها استلذوا تسربل الأثام وتجلبب الأصار، ومرحوا في أعنة المعاصي

(١) ظلماتها جمع حندس . (٢) جمع نازع وهم الرماة . (٣) فضة ولا ذهبيا .

(٤) كرثنا نزل بنا واشتد علينا (٥) بهظنا أثقلنا (٦) تهرقنا .

(٧) ضللا وخسرانا وهلاكنا .

وركضوا في ميادين الغي ، جهلا باستدراج الله وأمنا لمكر الله فاتام
بأس الله بيئاتهم نائمون فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق فبعدا
للقوم الظالمين ، وأدا لنا الله من مروان ^(١) وقد غره بالله الغرور، أرسل
لعدو الله في عنانه حتى عثر في فضل خطامه فظن عدو الله أن لن تقدر
عليه، فنادى حزبه وجمع مكابده ورمى بكتائبه ، فوجد أمامه ووراءه
وعن يمينه وشماله من مكر الله وبأسه ونقمة ما أمات باطله ومحق
ضلاله وجعل دائرة السوء به وأحيا شرفنا وعزنا ورد إلينا حقنا وإرثنا .
أيها الناس إن أمير المؤمنين نصره الله نصرا عزيزا إنما عاد إلى
المنبر بعد الصلاة، أنه كره أن يخاطب بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعه عن
استتمام الكلام بعد أن اسخف فيه ^(٢) شدة الوعك، فادعوا الله لا مير المؤمنين
بالعافية فقد أبد لكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان المتبع
للسفلة الذين أفسدوا الأرض بعد اصلاحها بإبدال الدين وانتهاك حريم
المسلمين ، الشاب ^(٣) المتكهل المتمهل المقتدى بسلفه الأبرار الأختيار
الذين أصاحوا الأرض بعد فسادها ، بمعالم الهدى ومناهج التقوى .
يأهل الكوفة إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى
أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقنا، وأفليج بهم حجتنا،
وأظهر بهم دولتنا، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون وإليه تتشوفون،
فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيض به وجوهكم وأدالكم على أهل
الشام ونقل إليكم السلطان وعز الاسلام، ومن عليكم بأمام منحه العدالة

(١) يريد مروان بن محمد آخر خلفاء بني مروان . (٢) توسع وزاد .

(٣) كانت منه عند استخلافه ثمانيا وعشرين سنة .

وأعطاء حسن الايالة^(١) نخذوا ما آتاكم الله بشكر والزموا طاعتنا ولا
تخدعوا عن أنفسكم فإن الأمر أمركم ، فإن لكل أهل بيت مصرا
وإنكم مصرنا ، ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعدي رسول الله ﷺ
إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب^(٢) ، وأمير المؤمنين عبد الله بن
محمد^(٣) فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى
ابن مريم صلى الله عليه والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا .
٣ - ولما قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، خطب أبو

العباس السفاح بالشام فقال : -

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار
جهنم يصلونها وبئس القرار » فكص بكم يأهل الشام آل حرب وآل
مروان يتسكعون بكم الظلم ويتهورون بكم مداحض الزلق ، يطئون بكم
حُرَمَ الله وحُرَمَ رسوله ، ماذا يقول زعماءكم غدا ، يقولون « ربنا هؤلاء
أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار » إذن يقول الله عز وجل « لكل
ضعف ولكن لا تعلمون » ، أما أمير المؤمنين فقد ائتنف بكم التوبة
واغتفر لكم الزلة وبسط لكم الإقامة وطاد بفضله على نقصكم وبحامه
على جهلكم فليفرخ روعكم^(٤) ولتطمئن به داركم وليقطع مصارع
أوائلكم « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .

(١) الايالة السياسة من آل إليه أمر الناس ساسهم

(٢) لأن الخلفاء قبله كانوا في المدينة والامويين منكرون (٣) يعني السفاح

(٤) أي ليخرج قلبكم مابه من خوف كما تخرج البيضة الفرخ

٤ - وخطب عمه عيسى بن علي إذ ذاك بها فقال : -

الحمد لله الذي لا يفوته من طلب، ولا يعجزه من هرب، خدعت
والله الأشقر^(١) نفسه إذ ظن أن الله ممهله « ويأبى الله إلا أن يتم نوره
ولو كره الكافرون » فحتى متى وإلى متى، أما والله لقد كرهتهم العيدان
التي افترعوها^(٢) وأمسكت السماء درها والأرض ريعها، وقحل الضرع^(٣)
وجفر الفنيق،^(٤) وأسمل جلباب الدين وأبطلت الحدود وأهدرت الدماء،
وكان ربك بالمرصاد فدمدم عليهم ربهم بذنبيهم فسواها^(٥) ولا يخاف
عقباها، ومليكتنا الله أمركم عباد الله لينظروا كيف تعملون، قال شكر
الشكر، فانه من دواعي المزيد، أعاذنا الله وإياكم من مضلات الأهواء
وبغيات الفتن فأنما نحن به وله .

٥ - ولما حج أبو مسلم الخراساني في خلافة السفاح خطب

بالمدينة فقال :

الحمد لله الذي حمد نفسه، واختار الاسلام ديناً لعباده، ثم أوحى إلى
محمد رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك ما أوحى واختاره من خلقه،
نفسه من أنفسهم وبيته من بيوتهم، ثم أنزل عليه في كتابه الناطق الذي
حفظه بعلمه وأشهد ملائكته على حقه قوله « إنما يريد الله ليذهب
عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » ثم جعل الحق بعد محمد
صلى الله عليه وآله في أهل بيته فصبر من صبر منهم بعد وفاة رسول

(١) يعني مروان بن محمد وكان لونه كذلك : (٢) علوها . (٣) يبس

(٤) الفنيق الفحل الكريم يتخذ للفحلة وجفر أمسك عن الضراب

(٥) طحنهم فسوى الطحنة بما هي عليه أي سحقها

الله صلى الله عليه وآله على اللاؤاء^(١) والشدة، وأغضى من اغضى على الاستبداد والأثرة، ثم إن قوما من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله جاهدوا على ملة نبيه وسنته بعد عصر من الزمان، من عمل بطاعة الشيطان وعداوة الرحمن، إن رتق جور فتقوه، أو فتق حق رتقوه، بين ظهراني قوم آثروا العاجل على الآجل والفاني على الباقي أهل خور وما خور^(٢)، وطنابير ومزامير^(٣)، إن ذكروا لم يذكروا أو قدموا إلى الحق أدبروا، وجعلوا الصدقات في الشبهات، والمغانم في المحارم، والنبي في النبي هكذا كان، زمانهم وبه كان يعمل سلطانهم. وزعموا أن غير آل محمد أولى بالأمر منهم، فلم وبهم أيها الناس؟ ألكم الفضل بالصحابة دون ذوى القرابة المرء في النسب والورثة في السلب مع ضربهم على الدين جاهلكم وإطعامهم في الجذب جائعكم، والله ما اخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قط، وما زلت بعد نبيه تختارون تيميا مرة وعدويا مرة وأمويا مرة وأسديا مرة وسفيا نيا مرة ومر وانيا مرة^(٤) حتى جاءكم من لا تعرفون اسمه ولا بيته^(٥) يضربكم بسيفه فأعطيتموها عنوة وأنتم صاغرون. ألا إن

(١) الشدة فعله نبي كفرح (٢) الماخور بيت البغاء (٣) جمعا مزار وطنبار أو طنبور من أدوات الطرب .

(٤) التيمى أبو بكر والعدوى عمر والأموى عثمان والأسدى عبد الله ابن الزبير والسفيا نى بنو سفيا نى والمروانى بنو مروان .

(٥) يعنى نفسه لأنه مختلف فى اسمه أهو عبد الرحمن أم ابراهيم أم عثمان، ومختلف فى نسبه أهو عربى أم فارسى أم كردى ، ومن جهل نسبه جهل بيته فهو يقصد بالبيت الأصل .

آل محمد أئمة الهدى ومنار سبيل التقوى القادة الذادة السادة، بنوعهم رسول
الله ﷺ ومُنزَّل جبريل، بالتنزيل، كم قصم الله بهم من جبار طاغ
وفاسق باغ، مثيد الله بهم الهدى وجلى بهم العمى، لم يسمع بمثل العباس،
وكيف لا تخضع له الأمم لو اوجب حق الحرمة، أبو رسول ﷺ بعد
أبيه وإحدى يديه وجلدة بين عينيه، أمينه يوم العقبة وناصره بمكة^(١)
ورسوله إلى أهلها وحاميه يوم حنين عند ماتق الفتين^(٢) لا يخالف له
رسماً ولا يعصى له حكماً، الشافع يوم نيق العقاب إلى رسول الله ﷺ
وآله في الاحزاب^(٣) ها، إن في هذا أيها الناس لعبرة لأولى الأبصار.
٦ - وخطب أبو جعفر المنصور^(٤) بالمدائن عند قتل أبي مسلم فقال:
أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا
تسروا غش الأئمة فانه لم يسر أحد قط منكراً إلا ظهرت في آثار
يده وقلبات لسانه وصفحات وجهه، وأبداها الله لامامه باعزاز دينه
وإعلاء حقه، إنا لن نبخسكم حقوقكم ولن نبخس الدين حقه عليكم
لانه من نازعنا عروة هذا القميص^(٥) أجزرناة خبي هذا الغمد^(٦)،
وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه
ثم نكث بنا فحكنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ولم تمنعنا رطاة
الحق له من إقامة الحق عليه.

(١) يعنى ماكان من العباس قبل اعلان اسلامه من ارسال أخبار وأمداد

لرسول الله (٢) كان أحد من حول البغلة (٣) نيق العقاب الموضع الذى شفع

به العباس يوم فتح مكة فى أهلها (٤) أخو السفاح واسمه عبد الله مثله

(٥) يكنى عن الخلافة (٦) كناية عن السيف

٧ - ولما أخذ المنصور عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن
أبي طالب اللقب بالنفس الزكية هو وأهل بيته من المايينة إلى العراق
وأقام في سجن الكوفة حتى ماتوا لامتناع عبد الله المذكور أن يسلم
إليه ابنيه محمدا وإبراهيم مدعيا جهله مكانيهما وكانت البيعة أواخر العهد
الأموي لمحمد هذا ، خطب في أهل خراسان فقال بعد الحمد والثناء والصلاة:
يا أهل خراسان، أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ، ولو بايعتم
غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا ، وإن أهل بيتي هؤلاء من ولد
علي بن أبي طالب تركناهم والله الذي لا إله إلا هو والخلافة ، فلم نعرض
لهم فيها بقليل ولا كثير فقام فيها علي بن أبي طالب فتلطخ بالدماء
وحكم عاينه الحكيمين فاقرقت عنه الأمة واختافت عليه الكامة ، ثم وثبت
عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه . ثم قام من بعده
الحسن بن علي فوالله ما كان فيها برجل ، قد عرضت عليه الأموال فقبلها
فدس إليه معاوية « إني أجعلك ولي عهدي من بعدي » فخدعه فأنسلخه
بما كان فيه وسلمه إليه ، فأقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة فيطأها
غدا فلم يزل علي ذلك حتى مات علي فراشه ، ثم قام من بعده الحسين بن
علي فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق والاغراق
في الفتن ، أهل هذه المدرة^(١) السوداء . وأشار إلى الكوفة -
فوالله ما هي بحرب فاحاربها ولا سلم ، فأسالها ، فرق الله بيني وبينها فخذلوه
وأسلموه حتى قتل ، ثم قام من بعده زيد بن علي فخدعه أهل الكوفة

(١) المدرة الطينة وأهل المدر سكان القرى وأهل الحاجر سكان المدن

أما أهل الروبر فيمكن قيام الشعر في البوادي

وغروه فلما أخرجوه وأظهروه أسلموه . وقد كان أتى محمد بن علي فناشده في الخروج^(١) وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة وقال له إننا نجد في بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصاب بالكوفة وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب . وناشده عمي داود بن علي ، وحذره غدر أهل الكوفة فلم يقبل وتم على خروجه فقتل وصاب بالكناسة^(٢) ، ثم وثب عاينا بنو أمية فأما توار شرفنا وأذهبوا عزنا ، والله ما كانت لهم عندنا تره يطالبونها وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم عليهم فنحنونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشرارة^(٣) حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ودمغ بحكم أهل الباطل وأظهر حقنا وأصار الينا ميراثنا عن نبينا ﷺ فأقر الحق مقره وأظهر مناره وأعز أنصاره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ، فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها وحكمه العادل لنا، وثبوا علنا ظالما وحسندا منهم لنا، وبغيا لما فضلنا الله به عليهم، وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم

جهلا علينا وجبنا عن عدوهم لبئست الخلتان الجهل والجبين فاني والله يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة، بلغني عنهم بعض السقم والتعرم^(٤) وقد دست لهم رجالا فقلت قم يا فلان قم يا فلان نخذ معك من المال كذا وحذوت لهم مثلا يعملون عليه نخرجوا حتى

(١) سأله ألا يخرج وفاعل ناشده يعود على محمد (٢) موضع قرب الكوفة

(٣) إقليم بين دمشق والمدينة فيه قرية الحميعة منزل أسلاف الخلفاء العباسيين

(٤) يعني بالسقم الخلاف في الرأي وبالتعرم التهيؤ للخروج .

أتوهم بالمدينة فدمسوا إليهم تلك الأموال فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم وحلت لي عند ذلك ، بنقضهم بيعتي وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج على فلا يرون أني أتيت ذلك على غير يقين؛ ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية « وحيل بينهم وبين ما يشتمون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب » .

٨ - ولما فعل المنصور فعلته تلك خرج عليه بالمدينة محمد بن عبد الله المذكور وقام على منبرها فقال بعد الحمد والثناء : -

أيها الناس إنه قد كان من أمر هذا الطاغية أبي جعفر ما كان من بنائه القبة الخضراء التي بناها معاندة لله في ملكه ، وتصغيره الكعبة الحرام^(١) وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى وإن أحق الناس بالقيام في هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأئصار اللواتين ثم قال - اللهم إنهم قد أحلوا حرامك ، وحرمو أحلالك ، وعملوا بغير كتابك ، وغيروا عهد نبيك صلى الله عليه وسلم وآمنوا من أخفت ، وأخافوا من آمنت ، فأحصهم عددا واقتلهم بددا^(٢) ولا تبق على الأرض منهم أحدا^(٣) .

٩ - ولما قتل المنصور محمدا هذا وبعث برأسه إلى أبيه عبد الله

في السجن مع الربيع حاجبه قال عبد الله

رحمك الله أبا القاسم فقد كنت من الذين يؤمنون بعهد الله ولا

(١) هذا رعم بعيد التصديق عن أبي جعفر (٢) متفرقين مبددين

(٣) انتهى خروج محمد هذا بالمدينة وخروج أخيه ابرهيم بالبصرة بأن قتل

المنصور كليهما .

ينقضون الميثاق ، والذين يصلون بأمر الله به أن يوصل ويخشون
ربهم ويخافون سوء الحساب ، ثم تمثل
فتى كان يحميه عن الذل سيفه ويكفيه سوءات الامور اجتنابها
والتفت إلى الربيع . فقال « قل لصاحبك قد مضى من بؤسنا مدة ومن
نعيمك مثلها والموعد الله تعالى » قال الربيع فما رأيت المنصور قط
أكثر انكسارا منه حين أبلغته الرسالة .

١٠ - وخطب المنصور يوم الجمعة ، فاما قال « الحمد لله أحمده وأستعينه
وأؤمن به وأتوكل عاينه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له »
قام رجل فقال أذكرك من ذكرتنا به يا أمير المؤمنين فقطع الخطبة ثم قال :
« سمعنا سمعنا من فهم عن الله وذكر به وأعوذ بالله أن أكون جبارا
عنيدا ، وأن تأخذني العزة بالاسم لقد ضلك إذن وما أنا من المهتدين ، وأنت
أيها القائل والله ما أردت بها وجه الله ولكنك حاولت أن يقال قام فقال
فعوقب فصبر ، وأهون بها ، ويملك لو هممت ^(١) فاهتبلها ^(٢) إذا غفرت
وإياك وإياكم معشر الناس أختها فان الحكمة عاينا نزلت ومن عندنا
فصلت ، فردوا الأمر إلى أهله تورده موارد وتصدره مصادره »
فكان كأنه يقرؤها من كفه ثم عاد إلى خطبته يقول وأشهد أن محمدا
عبده ورسوله أيها الناس اتقوا الله

١١ - ولما انهزم عبد الله بن علي عم المنصور بعد خروجه عليه
بالشام ^(٣) وقدم عليه وفدها للاستطاف قام الحارث بن عبد الرحمن

(١) يريد بعقابك (٢) اغتتمها (٣) كان سبب خروج عبد الله على المنصور
ما يزعمه من أن السفاح كان قال له « إن ظهرت على مروان الجعدي فأنت ولي
العهد بجعدي » وشهد له جماعة بذلك

الغفارى فقال :-

يا أمير المؤمنين إنا لسنا وقد مباحاة وإنما نحن وقد توبت وإنا ابتلينا
بفتنة استخفت كرمنا واستفزت حليمنا . ونحن بما قدمنا معترفون
ومما سلف منا معتذرون ، فإن تعاقبنا فيما أجر منا وإن تعف عنا فبفضلك
علينا؛ فاصفح عنا اذ ملكت، وامنن اذ قدرت، وأحسن اذ ظفرت، فطالما
أحسننت إلى من أساء منا .

فقال المنصور قد فعلت ثم قال للحرسى هذا خطيبهم وأمر برد
ضياعه عليه بالخطوة .

١٢ - وكان عبدالرحمن عمرو الأوزاعى إمام أهل الشام ، يتردد
على المنصور كطلبه ليعظه فكان مما قال له ذات مرة .

يا أمير المؤمنين إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذى أصبحت به
والله سائلك عن صغيرها وكبيرها وفتيلها وتقيرها (١) ولقد حدثني
عروة بن رويم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من راع يبيت
غاشاً لرعيته إلا حرم الله عايبه وأئحة الجنة » فحقيق على الوالى أن يكون
لرعيته ناظراً، ولما استطاع من عوراتهم ساتراً، وبالقسط فيما بينهم قائماً،
لا يتخوف محسنهم منه رهقاً ولا مسيئتهم عدواً، فقد كانت بيد رسول الله
صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويردع عنه المناققين فاتاه جبريل
فقال « يا محمد ما هذه الجريدة بيدك اذفها لا تملأ قلوبهم رعباً فكيف
من سفك دماءهم وشقق أبشارهم وأنهب أموالهم . يا أمير المؤمنين
إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه

(١) تقيير النواة قناتها والفتيل الخيط المستقر فيها .

بخدش خدشه أعرابيا لم يتعمده، وهبط جبريل فقال يا محمد إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قرون أمتك». واعلم أن كل مافي يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة ولا ثمرة من ثمارها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لقاب قوس أحدكم^(١) من الجنة خير له من الدنيا بأسرها» إن الدنيا تنقطع ويذول نعيمها، ولو بقى الملك لمن قبلك لم يصل اليك، ولو أن ثوبا من ثياب أهل النار علق بين السماء والارض لآذاهم فكيف من يتقمصه، ولو أن ذنوبا من صديد أهل النار صب على ماء الارض لآجنه فكيف بمن يتجرعة، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب فكيف بمن سلك فيها ويرد فضلها على عاتقه، وقد قال عمر بن الخطاب «لا يقوم أمر الناس إلا حصيف العقدة، بعيد الغرة: لا يطلع الناس منه على عورة، ولا يحنق في الحق على جرة، ولا تأخذه في الله لومة لأم»^(٢) واعلم يا أمير المؤمنين أن السلطان أربعة أمير يظلف^(٣) نفسه وعماله فذلك له أجر المجاهدين في سبيل الله وصلاته سبعمون ألف صلاة ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف، وأمير رتع^(٤) ورتع عماله فذلك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله، وأمير يظلف نفسه ويرتع عماله فذلك الذي باع آخرته بدنيا غيره، وأمير يرتع ويظلف عماله فذلك شر الاكياس^(٥) واعلم يا أمير المؤمنين أنك قد ابتليت بأمر عظيم عرض على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه وقد جاء عن جدك^(٥) في تفسير قول الله عزوجل «لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها»

(١) قاب القوس ما بين مقبضها وسيتها (٢) يكف (٣) أطلق لنفسه العنان

فظلم (٤) الحزمة جمع كيس (٥) عهد الله بن عباس .

أن الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك وقال فما ظنكم بالكلام وما عماته
الأيدي ، فأعيدك بالله أن يخيل إليك أن قرابتك برسول الله صلى الله
عليه وسلم تنفع من المخالفة لأمره ، فقد قال « يا صفية عمه محمد ويا فاطمة
بنت محمد استوهبا أنفسكما من الله إني لأغني عنكما من الله شيئا » ،
وكان جدك الأكبر^(١) سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة فقال
« أي عم ، نفس تحييبها خير لك من إمارة لا تخصيها » نظراً لعمه وشفقة
عليه أن يلي فيجور عن سنته جناح بعوضة فلا يستطيع له نفعا ولا
عنه دفعا . ثم قال : هذه نصيحتي إن قبلتها فلنفسك عملت ، وإن رددتها
فنفسك بنحست ، والله الموفق للخير والمعين عاياه ، فقال المنصور يلي
نقبلها ونشكر عليها وبالله نستعين .

١٣ - ولما تراجع المهدي^(٢) ووزرائه وأهل بيته تدير الرأي في
حرب خراسان كان مما قال المهدي فيمار آه رأيا استقر عاياه ، الخطب أيسر
مما تذهبون إليه وعلى غير ما تصفون الأمر عليه ، إنه لا بد لولي عهدى أن
يقود إلى خراسان البعوث ويتوجه نحوها بالجنود يقدم إليهم رساله
ويعمل فيهم حيله ثم يخرج نشيطا إليهم . حنقا عليهم ، يريد ألا يدع أحداً
من إخوان الفتن ودواعي البدع وفرسان الضلال إلا توطأه بحر القتل ،
وألبسه قناع القهر ، وقلده طوق الذل ، ولا أحداً من الذين عملوا في قص
جناح الفتنة وإخماد نار البدعة ونصرة ولاية الحق إلا أجرى عليهم ديم
فضله وجداول نهله ، فاذا خرج مزمعا به مجمعا عليه ، لم يسر إلا قليلا حتى
يأتيه أن قد عملت حيله وكدحت كتيبه ، ونفذت مكايده ، فهدأت نافرة

(١) العباس (٢) هو أبو عبد الله المهدي بن المنصور

القلوب ووقعت طائفة الأهواء، واجتمع عليه المختلفون بالرضا فيميل
نظراً لهم وبراً بهم وتعطفوا عليهم، إلى عدو قد أخاف سبيلهم، وقطع
طريقهم، ومنع حجاجهم بيت الله الحرام، وسلب تجارهم رزق الله الحلال.
ثم كان مما قال في وصاية ولي عهده موسى الهادي حين أزمع
الشخص إلى خراسان :

أى بنى، إنك قد أصبحت لسمت وجوه العامة نصيباً^(١) ولثني
أعطاف الرعية فاية^(٢)، فحسنتك شاملة، وإساءتك نائية. وأمرك ظاهر.
فعليك بتقوى الله وطاعته، فاحتمل سخط الناس فيهما ولا تطلب رضاهم
بخلافهما، فإن الله عز وجل كافيك من أسخطه عليك إيثارك رضاه،
وليس بكافيك من يسخط عليك إيثارك رضا من سواه - إلى أن قال
بعد أن أوصاه بالكرامة في الخاصة والعدل في العامة - ولا ينفكن في
ظل كرامتك نازلاً وبعري حبلك متعاقماً رجلاً، أحدهما كريمة من
كرائم رجالات العرب وأعلام بيوتات الشرف، له أدب فاضل وحلم
راجح ودين صحيح، والآخر له دين غير مغموز وموضع غير مدخول
بصير بتقليب الكلام وتصريف الرأي وأنحاء العرب ووضع الكتب
طالم بحالات الحروب وتصاريف الخطوب يضع آداباً نافعة وآثاراً باقية
من محاسنك وتحسين أمرك وتحلية ذكرك فتستشيره في حربك
وتدخله في أمرك، فرجل أصبته كذلك فهو يأوى إلى محلتى ويرعى
في خضرة جناتى، ولا تدع أن تختار لك من فقهاء البلدان وخيار الأمصار

(١) السمعت القصد والنصب بفتح فسكون ويحرك العلم المنصوب والغاية

(٢) يريد تدليلهم من مشى ثانی عطفه تدللاً وكبراً

أقوا ما يكونون جيرانك وسمارك وأهل مشاورتك فيما تورد ، وأصحاب
مناظرتك فيما تصدر ، فسر على بركة الله أصحابك الله من عونه وتوفيقه
دليلا يهدي إلى الصواب قلبك ، وهاديا ينطق بالخير لسانك .

١٤ - وأوصى الرشيد علي بن المبارك الأحمر مؤدب ولده الأمين

فقال :

يا أحر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمره قلبه ،
وصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك
أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن وعرفه الأخبار ورواه الأثعار وعلمه السنن
وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنع من الضحك إلا في أوقاته ، وخذ
بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا
مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتم فائدة تفيده إياها من غير
أن تحزنه فتميت ذهنه ، أو تمنع في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ،
وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة .

١٥ - ولما عقد الرشيد لجعفر بن يحيى البرمكي على الشام لهياج

العصبية بها فشخص إليها في عدة وعددهم ما قد أعاد الأمن والطمأنينة
فيها دخل على الرشيد فقبل يديه ثم قال :

الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي آنس وحشتي ، وأجاب دعوتي ، ورحم
تضرعي ، وأنساني أجلى حتى أراني وجه سيدي ، وأكرمني بقربه وامتن
علي بتقبيل يده وردني إلى خدمته ، فوالله إن كنت لا أذكر غيبتى عنه
ومخرجي ، والمقادير التي أزعمتني فأعلم أنها كانت بمعاص لحقتني ، وخطابا
أحاطت بي - إلى أن قال بعد إطالة في التزلف والتقرب - إن الله

يا أمير المؤمنين لم يزل يبليك في خلافتك بقدر ما يعلم من نيتك ، ويريك في رعيتك غاية أمنيته ، فيصلح لك جماعتهم ويجمع ألفتهم ويلم شعشهم ، حفظا لك فيهم ورحمة لهم ، وإنما هذا للتمسك بطاعتك والاعتصام بمحبل مرضانك ، والله المحمود على ذلك وهو مستحقه . وفارقت يا أمير المؤمنين أهل كور الشام وهم منقادون لأمرك ، نادمون على ما فرط من معصيتهم لك ، متمسكون بحبلك ، نازلون على حكمك . طالبون لعفوك ، واثقون بحلمك ، مؤملون فضلك آمنون بأدركك ، حالهم في ائتلافهم كحالهم كانت في اختلافهم ، وحالهم في ألفتهم كحالهم كانت في امتناعهم ، وعفو أمير المؤمنين عنهم وتعمده لهم سابق لعذرتهم ، وصلة أمير المؤمنين لهم وعطفه عليهم متقدم عنده لسألهم . وإيم الله يا أمير المؤمنين لئن كنت قد شخصت عنهم وقد أخذ الله شرارهم وأطفأ نارهم ونفى مراقهم وأصلح دهائمهم وأولاني الجميل فيهم ورزقني الانتصار منهم ، فما ذلك كله إلا ببر كتك ويمتك وريحك ودوام دولتك السعيدة الميمونة الدائمة وتخوفهم منك ورجائهم لك - إلى أن قال بعد عد نعم الرشيد عليه وبيان عجزه عن إيفائه بعض الشكر في إطالة باسقة هذا العجز - وأنا أسأل الله الذي رزقني ذلك منك من غير استحقاق له ، إذ كان الشكر مقصرا عن بلوغ تأدية بعضه بل دون شقص من عشر عشره ^(١) أن يتولى مكافأتك عنى بما هو أوسع له وأقدر عليه وأن يقضى عنى حقتك وجليل منتك فان ذلك بيده وهو قادر عليه .

١٦ - وخطب عبد الملك بن صالح بن علي عم الرشيد بالشام وكان

واليه عليها في نفرة أرادها منهم فتناقلوا فقال .
أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم « أقلا يتدبرون
القرآن أم على قلوب أفعالها » يأهل الشام إن الله وصف إخوانكم في
الدين وأشباهكم في الأجسام فحذرهم نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فقال
« وإذا رأيتم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم
خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم قاتلهم
الله أنى يؤفكون » فقَاتلكم الله أنى تصرفون : جثث مائلة وقلوب طائرة
تشبون الفتن وتولون الدبر إلا عن حرَم الله فإنه دريئتمكم ^(١) ، وحرَم
رسوله فإنه مغزاكم ^(٢) أما وحرمة النبوة والخلافة لتنفرن خفافا وتقالا
أو لاوسعنكم إرغاما ونكالا .

١٧ - ولما غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح لسمى كان به إليه
بطمعه في الخلافة ، حبسه وكان يستدعيه من الحبس أحيانا يؤنبه
ويسمع منه ، فاستداه يوما ليسمع احتجاجه فيما بلغه عنه ، فدخل فسلم
فلم يرد عليه ، فقال عبد الملك ليس هذا يوما أحتج فيه ولا أجادب منازعا
وخصما ، فقال الرشيد ولم ، قال لأن أوله جرى على غير السنة فأنا أخاف
آخره ، قال الرشيد وما ذاك ؟ قال لم ترد على السلام ، أنصف نصفه العوام
فقال الرشيد السلام عليكم اقتداء بالسنة وإيثار العدل واستعمال التحية ،
ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر فقال وهو يخاطب بكلامه عبد الملك ،

« ١ » الدريئة هنا الحلقة يتعلم الرمي عليها وهو يرمى إلى ما فعل الحجاج

بالكعبة . « ٢ » يعنى ما فعلت جيوش يزيد بالمدينة

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد^(١)
ثم قال أما والله لكأني أنظر إلى شؤبوبها قد همع، وطارضها قد
لمع^(٢)، وكأني بالوعيد قد أوردى ناراً تسطع فأقاع عن براجم بلا معاصم
ورعوس بلاغلاصم^(٣)، فهلا مهلاً في والله سهل لكم الوعر، ووصفا لكم
الكدر، وألقت إليكم الأمور أثناء أزمتهما فنذار لكم نذار قبل حلول
داهية خبوط باليد لبط بالرجل - فقال عبد الملك -

اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك وفي رعيته التي استرعاك . ولا
تجعل الكفر مكان الشكر ولا العقاب موضع الثواب ، فقد نخلت لك
النصيحة ، ومحضت لك الطاعة ، وشدذت أواخي ما - كك بأثقل من ركني
يلم^(٤) وتركت عدوك مشتتاً ، فالله الله في ذى رحمتك أن تقطعه بعد أن
بلتته^(٥) ، بظن أفصح الكتاب لي بعضه^(٦) أو ببغي باغ ينهس اللحم
ويالغ الدم^(٧) فقد والله سهلت لك الوعر وذلت لك الأمور وجمعت علي
طاعتك القلوب في الصدور ، فكم من ليل تمام فيك كابدته ومقام ضيق
فرجته ، كنت فيه كما قال أخو بني جعفر بن كلاب

ومقام ضيق فرجته بدياني ولساني وجدل

(١) هذا البيت متمثل به وهو من أبيات قاطها عمرو بن معد يكرب الزبيدي
في قيس بن مكشوح المرادي (٢) الشؤبوب دفعة المطر وهم هطل والعارض
السحاب ولمع أضواء برفه (٣) البراجم جمع برجمة وهي مفصل الأصبع والغلاصم
جمع غلصة وهي رأس الحلقة (٤) الأواخي جمع أخية وهي العروة ويعلم
جبل بالمدينة معروف (٥) قويتية بالصلة (٦) بقطعه (٧) ينهس اللحم يتناوله
بمقدم أسنانه ، ويالغ الدم يشربه بأطراف لسانه وكلاهما يتفق ورفق الواشي

لو يفوم الفيل أو فياله زل عن مثل مقامى وزحل^(١)
فقال له الرشيد أما والله لو لا اذ بقاء على بنى هاشم لضربت عنقك
ثم رده إلى السجن فبقى به حتى أطاقه الأمين وعقد له على الشام.
١٨ - ولما كتب الأمين إلى داود بن عيسى واليه على مكة والمدينة
يأمره بمخلع المأمون والبيعة لموسى بن الأمين بعد أن أخذ كتابي الرشيد
الذين كانا بالكعبة وكان داود أحد الشهود عليهما، جمع داود الناس
وخطبهم منادياً بمخلع الأمين ومبايعة المأمون فقال بعد الديباجة
أما بعد يا أهل مكة فأنتم الأصل والفرع والعشيرة والأسرة
والشركاء في النعمة، إلى بلدكم يفدو فدا لله وإلى قبلكم يأتى المسلمون وقد
علمتم ما أخذ عليكم الرشيد هرون رحمة الله عليه وصلاته حين بايع
لابنيه محمد وعبد الله بين أظهركم، من العهد والميثاق، لتنصرن المظلوم
منهما على الظالم، والمبغى عليه على الباغى، والمغدور به على الغادر. ألا
وقد علمتم وعلمنا أن محمد بن هرون قد بدأ بالظلم والبغى والغدر وخالف
الشروط التي أعطاه من نفسه في بطن البيت الحرام وقد حل لنا ولكم
خلعه من الخلافة وتصييرها إلى المظلوم المبغى عليه المغدور به. ألا
وإني أشهدكم أنني قد خلعت محمد بن هرون من الخلافة كما خلعت
قلنسوتي هذه من رأسي - ثم خلعهما وقال - قد بايعت لعبد الله المأمون
أمير المؤمنين بالخلافة، ألا فقوموا إلى البيعة خليفتمكم - فقاموا إليه
فبايعوه للمأمون وخلصوا الأمين.

(١) يريد الفيل في قوته، وفياله وهو سائسه في دهائه، وزحل نزح

١٩ - ولما تولى الأمر عن الأمين، وتسلم عنه الانصار إلى طاهر ابن الحسين خطب من بقي معه في بغداد فكان مما قال : الحمد لله الذي يرفع ويضع ، ويعطي ويمنع ، ويقبض ويبسط ، واليه المصير ، أحمده على نوائب الزمان وخذلان الأعوان وتشتت الرجال وذهاب الاموال ، وحلول النوائب وتوفد المصائب ^(١) احمداً يدخر لي به أجزل الجزاء ويرفدني ^(٢) أحسن العزاء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كما شهد لنفسه وشهدت له ملائكته ، وأن محمداً عبده الأمين ورسوله إلى المسامنين صلى الله عليه وسلم أمين رب العالمين : ثم أخذ يفصل ما ألمع اليه في ديباجته إلى أن قال - فالحمد لله حمد من أسلم لأمره ورضى بقدره والسلام .

٢٠ - وخطب طاهر بن الحسين ببغداد يوم الجمعة بعد قتل الأمين فقال :

الحمد لله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، لا يصلح عمل المفسدين ولا يهدى كيد الخائنين . إن ظهور غلبتنا لم يكن من أيدينا ولا كيدنا ^(٣) بل اختار الله للخلافة ، إذ جعلها عماد الدين ، وقواماً لعباده ، وضبط الأطراف وسد الثغور واعداد العدة وجمع الفيء ، وإنفاذ الحكم ونشر العدل ، وإحياء السنة بعد إذ بال البطالات ^(٤) والتلذذ بموبق

(١) نزولها وفودا وجماعات (٢) يعطيني والرفد العطاء (٣) أي لم يكن من قوتنا ولا من خيلتنا (٤) البطالات جمع بطالة وهي التماذي في الخسر والضياع ، واذبالها إذواؤها بكثرة الأمعان فيها .

الشهوات . والمخلد إلى الدنيا مستحسن لداعي غرورها ، محتلب درة نعمتها ، ألف لزهرة روضتها ، كلف برونق بهجتها . وقد رأيت من وفاء وعيد الله عزوجل لمن بغى عليه ، وما أحل به من بأسه ونقمته ، لما نكب عن عهده وارتكب معصيته وخالف أمره ، وغيره ناهية وعظته مؤدبه ، فتمسكوا بدقائق عصم الطاعة ^(١) واسلكوا مناحي سبيل الجماعة واحذروا مصارع أهل الخلاف والمعصية الذين قد حوا زناد الفتنة وصدعوا شعب الألفة ^(٢) فأعقبهم الله خسارة الدنيا والآخرة .

٢١ - وخطب المأمون حين بلغه بخراسان قتل الأمين وأقبل

الناس للنسليم عليه بالخلافة فقال بعد الحمد والثناء والصلاة :

أيها الناس إني جعلت لله على نفسي إن استرعاني أموركم ، أن أطيعه فيكم ، ولا أسفك دما عمدا لا تحمله حدوده ونسفك فرائضه ، ولا آخذ لاحد مالا ولا أثاثا ولا نحلة تحرم على ^(٣) ولا أحكم بهواي في غضبي ولا رضاي إلا ما كان في الله وله ، جعلت كله لله عهدا مؤكدا وميثاقا مشددا . إني أفي رغبة في زيادته إياي في نعمتي ، ورهبة من مسألته إياي عن حقه وخلقه ، فان غيرت أو بدلت كنت للغير مستأهلا وللنكال معرضا ، وأعوذ بالله من سخطه وأرغب إليه في المعونة على طاعته ، وأن يحول بيني وبين معصيته .

٢٢ - ولما دخل المأمون بغداد وتلقاه وجوه أهلها قال رجل منهم :

يا أمير المؤمنين بارك الله لك في مقدمك ، وزاد في نعمتك ، وشكرك

(١) جمع عصام وهو رباط القرية الذي به تحمل (٢) فرقوا مجتمعها

(٣) النحلة العطية والهبة

عن رعيتك ، تقدمت من قبلك وأتعبت من بعدك، وآيست أن يعاين
مثلك ، أما فيما مضى فلا نعرفه وأما فيما بقي فلا نرجوه ، فنحن جميعا
ندعو لك ونثني عليك . خصب لنا جنابك وعذب ثوابك ، وحسنت
نظرتك وأرمت مقدرتك ، جبرت الهقير وفككت الأسير ، فانك
ياأمير المؤمنين كما قال الأول

مازلت في البذل والنوال وإطلاق لعان مجرمه غلق^(١)
حتى تمنى البراء^(١) أنهم عندك أسرى في القيد والخلق

ثانيا - حياتها

أقبل العصر العباسي والناس قريبا عهد بالبداوة ، فيهم المقدرة على
المشافة والارتجال، وفي ألسنتهم مكة الفصاحة والبيان ، فالبادية هي
البادية لم يصيبها ما أصابها بعد من عى واستعجاب، والامصار مليئة بجالية
العرب الذين ارتشفوا أفوابق البلاغة ولدانا، واستدروا أخلافها يافعين
وشباننا ، وعلى رأس هؤلاء خاصة في الذروة مما ذكرنا، من الخلفاء وذوى
القراية القريبة أعماما وأبناء أعمام، ومن العلويين أصحاب الحق الأصيل
خارجين على أولئك العباسيين أو ناقين، ومن حوهم شيعة تشد أزرهم
وتعمل على إنالهم حقهم ، ثم من الولاة والقواد عربا خالصا أو موالى
متعربين. وهؤلاء جميعا قضوا قبل إقبال العهد فترة كانت الدعوة فيها
سرية ضد الأمويين ، لم يسروا عن أنفسهم فيها بقول، ولم ينفسوا عن
خناقهم بكلام هائمين في البوادي أو متخفين في الامصار ، فما إن حان

(١) العاني الأسير والغلق المحبوس (٢) جمع برىء ككريم وكرام

حين بنى مروان حتى كانوا في خطابتهم كالقندر أخذ ماؤها في الغليان
فاضترب وفار وصار حميا يصهر به ماني بطونهم والجلود .
وهذا بيان ما تناولت الخطابة في ذلك وفي غيره من أغراض بعد التمهيد له :
كان بنو العباس على جانب رفيع من قوة البيان وذراية اللسان ،
وحضور البديهة وامتانة الارتجال ، يدل ذلك ما سلف من أبي جعفر
النصور . إذ قطع عليه خطبة الجمعة بعض الحاضرين فقد قال ما قال
كأنه يقرؤه من كفه ، ثم عاد إلى الخطبة بعد ، يصل ما كان بما يكون ،
ويدلك عليه أيضا ما تقدم عن دواد بن علي في تلك الخطبة القوية
الضافية التي كانت منه إذ قطع الوعك على أبي العباس خطبته ، وهذا
داود المذكور يقول محسا عن أنفسهم أنهم أمراء الكلام « ألا وإنا
لا ننتطق بطرا ، ولا نسكت حصرا ، بل نسكت معتبرين وننتطق
مرشدين ، ونحن بعد أمراء القول ، فينا ، وشجت أعرافه ، وعلينا عطفت
أغصانه ولنا تهدلت ثمراته ، فنتخير منه ما احلولى وعذب ، ونطرح منه
ما املوح وخبث » ثم هم بعد كثرة كثيرة ملأت الأعمار واحتلت
المنابر والأعواد^(١) .

(١) منهم الخليفتان الأخوان أبو العباس وأبو جعفر ومن بعدها سائر
الخلفاء إلى ما بعد العصر العباسي الأول ، ومنهم عبد الله وداود وصالح وسليمان
وعيسى من أعمام الخليفتين الأولين ، ومنهم من أبناء هؤلاء الأعمام عبد الملك
واسماعيل وعبد الله أبناء صالح ، وداود بن عيسى وجعفر ومحمد ابنا سليمان ، ومن أبناء
جعفر هذا سليمان وداود وأيوب إلى غير هؤلاء ممن قل الجاحظ فيهم :
« لم يكن لهم نظراء في أصالة الرأي وفي الكمال والجلال وفي العلم بقرين والدولة

١- بهذه الكثرة في العدد وتلك القوة في الالدد ، كان بنو العباس نقمة ولعنة على الدولة الدائلة لا يزالون يذكرون اجترائها على الدين، واحتجائها الفىء ، وعدوانها على آل الرسول ، ويذكرون كيف كان جورها يقض منهم المضاجع ويرمض العيون ، ثم يذكرون كيف كان غضبهم عليها لله حتى آتاهم من نصره ما أزال دولة الظلم وقضى على رجال الطغيان ، فأبدل الأمة بهم دولة العدل ورجال الصلاح والاصلاح، إلى غير ذلك من المعانى التى أكثروا فيها تعفية لآثار بنى مروان وتنبيتها لهذا الملك الجديد، وهانت ذاتراها مائلة فى كثير من خطبهم أول العهد ، وقد تقدم منها خطبة السفاح وخطبة عمه داود بالكوفة وكذا خطبته وخطبة عمه عيسى بالشام ثم خطبة أبى مسلم بالمدينة عقب حجه .

٢- وما كاد الداعى إلى استخدام الخطابة فى التعفية على الدولة الدائلة ينقضى بانقضاء عهد السفاح الذى أفنهم قتلا وتشريدا ، ويؤتى بعد عهد المنصور ، حتى نبت لها داع جديد هو استخدامها فى مقاومة العلويين ، فقد خرجوا على المنصور يطالبون الحق لأنفسهم لأنهم أبناء على الذى يقربهم إلى رسول الله كما يقرب العباسيين العباس ، ثم هم بعداً بناء فاطمة البتول بنت رسول الله ، وللعمامة إلى أبنائها هوى متغلغل فى السواد. وقد هال ذلك أباجعفر حتى حرمه الرقاد ففعل ما ذكرنا من القبض على عبد الله بن الحسن وآله

وبرجال الدعوة مع البيان العجيب والغور البعيد والنفوس الشريفة والأقذار الرفيعة ، وكانوا فوق الخطباء وفوق أصحاب الأخبار وكانوا يحملون عن هذه الأسماء إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك .

وإيداعهم السجن، ووجه بالجيوش إلى ولديه محمد بالمدينة و إبراهيم بالبصرة
للقضاء على خروجهما بالقضاء عليهما وقد كان . وفي خلال ذلك كانت
تستخدم الخطابة من العلويين تسويغاً للخروج وأداة لجمع الأتصار ،
كما كانت تستخدم من المنصور تبدينا لعدم شرعية هذا الخروج وتبريرا
للموقف الذي وقفه إزاءهم من قتال ؛ مطيلا في ذلك ومكثرا من الأدلة
والبراهين . على أن ذلك لم يكن لينزع محبتهم من القلوب حتى قلوب
قواده وعظماء دولته كأبي مسلم الخراساني الذي قتله لميله إلى هؤلاء ثم
استغل الخطابة كما تقدم بعد هذا الحدث الخطير في تفهيم الناس أنه لم
يك فيه من المعتدين .

٣- هذا الوادي وذاك كانا أزر الأودية بتيار الخطابة ، جرى فيهما
عظيم اللجة قوى الاندفاع ، ثم كان كذلك في واد ثالث اطرد واياهما ،
هو استخدامهما في الثورات لتحسيس الجيوش والنهوض بها إلى ميادين
القتال ، أو لتثبيط همها والعودة بها حتى عن نصرته من يكون له في نصرتها
أمل ورجاء . وإليك في هذا مثلين مما كان أيام الفتنة بين الأمين والمأمون .

أتى رجل طاهر بن الحسين وهو ناهض مجيشه إلى جيش علي بن
عيسى بن ماهان فقال « أيها الأمير إن جنديك قد هابوا هذا الجيش ،
وامتلأت قلوبهم منه خوفا ورعبا . فلو أقمت بمكانك ودافعت » فلم يسمع له
طاهر الأريثما خطب جيشه يقول « يا أولياء الله وأهل الوفاء والشكر إنكم
لستم كهؤلاء الذين ترون من أهل النكث والغدر ، إن هؤلاء ضيعوا
ما حفظتم ، وصغروا ما عظمتهم ، ونكثوا الأيمان التي رعيتم ، وإنما يطلبون
الباطل ، ويقاثلون على الغدر والجهل ، أصحاب سلب ونهب ، فلو قد

غضضتم الأبصار وأثبتتم الأقدام ، قد أنجز الله وعده وفتح عليكم
أبواب عزه ونصره ، فجالدوا طواغيت الفتنة ويعاسيب النار عن دينكم ،
ودافعوا بحقكم باطلهم ، فانما هي ساعة واحدة حتى يحكم الله بينكم وهو
خير الحاكمين » ثم نهض به فدارت الدائرة على جيش ابن ماهان وقتل .
وذهب عبد الملك بن صالح إلى الشام فجمع أجنادها على نصرة
الأمين ليده عليه في إطلاقه من سجن أبيه وتوليته ، ثم سار بهم إلى
الجزيرة فجمع رؤوسها ووجوهها ، ولكن ما إن تاهب بهما للمسير حتى
قام رجل من أهل حمص فقال « يا أهل حمص ، الهرب أهون من العطب ،
والموت أهون من الذل ، إنكم بعدتم عن بلادكم ، وخرجتم من أقاليمكم ،
ترجون الكثرة بعد القلة والعزة بعد الذلة ، ألا وفي الشر وقعتم ، وإلى
حومة الموت أنتم ، إن المنايا في شوارب المسودة وقلانسهم ، النفير
النفير قبل أن ينقطع السبيل وينزل الأمر الجليل ، ويفوت المطلب
ويعسر المذهب ويبعد العمل ويقرب الأجل » وقام آخر من كلب
فقال « يامعشر كلب إنها الراية السوداء والله ما ولت ولا عدلت ولا ذل
نصرها ولا ضعف وإيها ، وإنكم لتعرفون مواقع سيوف أهل خراسان
في رقابكم ، وآثار أسنتهم في صدوركم ، اعتزلوا الشر قبل أن يعظم
وتخطوه قبل أن يضطرم ، شامكم شامكم داركم داركم ، الموت
الفلسطي خير من العيش الجزري ، ألا واني راجع فمن أراد الانصراف
فليصرف معي » ثم سار هو والحصى فسار معهما طامة أهل الشام ، وحدث
أن مات عبد الملك بن صالح ، فأقفل الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان
وكان معه جند الجزيرة إلى بغداد . وإنه لما يذكر من تلاعب الخطابة

بعقول الناس ما كان من الحسين هذا، فانه ما كاد يصل بغداد بهذا الجند المؤلب لنصرة الأئمة حتى قام فيهم مناديا بخاعه يقول « يا معشر الأئمة إن خلافة الله لا تجاوز بالبطل ونعمه لا تستعجب بالتجبر والتكبر، وإز محمد يريد أن يوتغ أديانكم^(١) وينكث بيعتكم، ويفرق جمعكم، وينقل عزكم إلى غيركم، وباللله إن طالبت به مدة وراجعه من أمره قوة ليرجعن وبال ذلك عليكم وليعرفن ضرره ومكروهه في دواتكم ودعوتكم، فاقطعوا أثره قبل أن يقطع آثاركم، وضعوا عزه قبل أن يضع عزكم، فوالله لا ينصره منكم ناصر الاخذل، ولا يمنعها مانع الا قتل، وما عند الله لأحد هواده ولا يراقب على الاستخفاف بعهوده والحنث بأيمانه » قال ذلك فاذا السامعون يمكنون له في خلع الأئمة وحبسهم والبيعة للمأمون . وإنا لذا كرون هنا وفي هذا الموضوع عينه ما هو أغرب من ذلك في تلاعب الخطباء بالعقول ؛ فقد حدث بعد هذا الخلع والحبس أن قام أسد الحربى^(٢) فقال « يا معشر الحريية هذا يوم له ما بعده، إنكم قد تمتم وطلت نومكم وتأخرتم فقدم عليكم غيركم ، وقد ذهب أقوام بذكر خلع محمد وأسرهم فاذهبوا بذكر إطلاقه وفكه » وإذا شيخ أقبيل على فرس فصاح بالناس اسكتوا فسكتوا فقال « أيها الناس هل تعتدون على محمد بقطع منه لا رزقكم ؟ قالوا لا ؛ قال فهل قصر بأحد منكم أو من رؤسائكم وكبرائكم ؟ قالوا ما علمنا ، قال فهل عزل أحدا من قوادكم ؟ قالوا معاذ الله أن يكون فعل ذلك ، قال فما بالكم خذلتوه وأعدتم عدوه على اضطهاده

(١) يفسدها (٢) نسبة الى حربية محلة ببغداد بناها حرب بن عبد الله

وأسرهم، أما والله ما قتل قوم خليفةكم قط إلا ساط الله عليهم السيف
القاتل والحتف الجارف، انهضوا إلى خليفةكم وادفعوا عنه وقاتلوا
من أراد خلعه والفتك به « فنهضوا معه وقاتلوا الحسين فهزموا أصحابه
وأسرود، ثم دخل أسد الحربى على محمد فكسر قيوده وأقعده فى مجلس
الخلافة. ولولا أن خلع الأمين كان قد أعلن بالأمة ما وخاصة مكة كما
تقدم فى خطبة داود بن عيسى واليهما، وهجمت جيوش طاهر على بغداد
وليس لأهلها نظام، لما بعد أن يدوم انتفاهه بهذا الانتصار.

وللخطابة أغراض غير التى تقدمنا بها فى تلك النواحي الثلاث
كانت فى العصر العباسى الأول ذات شأن واعتبار.

١- منها أن يتخذها المستعطف المترضى أداة يستل بها ما يخشى من
سخائم القلوب وغضببات النفوس، فلا يكاد يمتطئها فى هذا الميدان حتى
تبلغ به الذى أراد وفوق الذى أراد طالما حدثنا التاريخ إذ ذاك أنه كان
يدخل بالمغضوب عليه على الغاضب، وقلب الثانى على الاول حميم آن، فياخذ
فى الترضى والاستعطاف فاذا هذا الحميم بزد وسلام، وإذا هو قد انتقل
بنفسه لدى صاحبه من وهدة العقاب الى دروة المكافأة والثواب؛ وقد
سبق ما كان من أبى جعفر المنصور للحارث الغفارى إذ استعطفه بعد
خروجه عليه مع عمه عبد الله، فشفع رضاه عنه برد ضياعه غايه.
وهذه امرأة النفس الزكية تدخل على المنصور ومعها صبيان فتقول
« يا أمير المؤمنين أنا امرأة محمد بن عبد الله وهذان ابناها أيتهمما سيفك،
وأضرعهما خوفك، فناشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تصبر لهما خدك،
فيناى عنهما ردفك. أولتعطفك عليهما شوايك النسب وأواصر الرحم»

فلا يتمالك أن يلتفت إلى الربيع فيقول اردد عايهما ضياع أبيهما ثم يقول كذا والله أحب أن تكون نساء بني هاشم . بل هذا جعفر الصادق يدخل به عليه إذ مر بالمدينة من حجه وقد طلبه ليقنته فيسلم فيرد عليه « لا سلم الله عليك يا عذر الله تعمل على الغوائل في ما كفى » فيقول جعفر « يا أمير المؤمنين إن سليمان أعظم فشكر ، وإن أيوب ابتلى فصبر ، وإن يوسف ظلم فغفر ، وأنت على إرث منهم وأحق من تأسى بهم » فينكس أبو جعفر رأسه ملياً ثم يرفعه قائلاً « إلى أبا عبد الله فأنت القريب القرابة ، ذو الرحم الواشجة ، السليم الناحية ، القليل الغائلة » ثم يصافحه بيمينه ويعانقه بشماله ويجلسه معه على فراشه منحرفاً له عن بعضه ، ويقبل عليه بوجهه يحادثه ويسأله ، ثم يقول يارب عجل لأبي عبد الله كسوته وجأزته وإذنه . ومن بعد أبي جعفر طالما استعطف الخطباء الخلفاء فنالوا بقولهم غفران عظام الذنوب ، وتخطوا ذلك إلى الحظوة برد ما صدر من أموالهم زائداً أسنى العطايا وأجزل الصلات كما فعل المأمون مع عمه إبراهيم ^(١) وكما فعل المعتصم مع تميم بن جميل ^(٢) وغير هذين وهذين كثير .

(١) لما عهد المأمون من بعده إلى علي بن موسى الرضا من العلويين وسمع العباسيون ذلك أنكروه وخلصوه وبايعوا عمه إبراهيم هذا فطلبه المأمون فهرب وتوارى فجاء في طلبه حتى قبض عليه . ولم نذكر استعطافه لطوله .

(٢) كان تميم قد خرج على المعتصم بشاطيء الفرات وعظم أمره ، فوجه إليه المعتصم مالك بن طوق فظفر به وحمله موثقاً إلى المعتصم . ولم نذكر استعطافه لطوله أيضاً .

٢ - ومنها أن يتخذها المتوعد المتهدداً داة مسخطة وعقاب، وسوط نعمة وعذاب، حتى لترتعد فرائص من أمامه خوفاً وفرقا، ويطير لبه مما يسمع رعباً وجزعاً، استمع إلى داود بن علي يقول وقد بلغه أن قوماً أظهروا شكاة أبي العباس السفاح فقال «أعدوا ي أهل الختر والتبديل. ألم يردكم الفتح المبين عن الخوض في ذم أمير المؤمنين، كلا والله حتى تحملوا أوزاركم وأوزار الذين كانوا من قبلكم، كيف قامت شفاهكم بالشكوى من أمير المؤمنين بعد أن حانت آجالكم فأرجأها وانبعثت دماؤكم فحقنتم، الآن يا منابت الدمن مشيتم الضراء ودبتم الخمر^(١) أما ومحمد والعباس إن عدتم لمثل ما بدأتم لا حصدنكم بظلمات السيوف ثم بغنى ربنا عنكم ونستبدل غيركم» ثم لا يكونوا أمثالكم» وفي مثل هذا المعرض يقول أبو جعفر المنصور «أحرز لسان رأسه، تنبه امرؤ لحظه، نظر امرؤ في يومه لغده، فشئ القصد وقال الفصل وجانب الهجر - ثم يقول وقد أخذ بقائم سيفه - أيها الناس إن بكم داء هذا دواؤه وأنا زعيم لكم بشفاؤه، فليعتبر عبد قبل أن يعتبر به، فانما بعد الوعيد الايقاع و«إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله»

٣ - وبين حالتى الترضى والتوعد كان ذو المكانة والسلطان، يستخدم الخطابة في معاتبة من ارتكب معه عسيانا فقدر عايبه، وأعقب هذه القدرة بصفح منه وغفران، لمنزلة سالفة وخدمة مرجوة، فإن لسانه حينئذ يعمد إلى منطق الشدة والتجبر، ولكن قلبه يأبى الاشوب الكلام

(١) الضراء الشجر الملتف والخمر كل ما وارى وستر وكلاهما كناية عن

التخفى في تدبير المكابد لوما وجهنا .

بعامل الرحمة والحنان، فيأتي قوله لذلك بين الشدة واللين كالذي كانت
من الامين للحسين بن علي بن عيسى إذ قال « يا حسين ألم أقدم أباك
على الناس وأوله أعنة الخيل وأملاً يده من الأموال وأشرف
أقداركم في أهل خراسان وأرفع منازلكم على غيركم من القواد، قال
بلى، قال فما الذي استحققت به منك أن تخضع طاعتي وتؤلب الناس علي،
وتندبهم إلى قتالي، قال الثقة بعفو أمير المؤمنين وحسن الظن بصفحة
وتفضله، قال فان أمير المؤمنين قد فعل ذلك بك وولاك الطلب بشارك
ومن قتل من أهل بيتك »^(١) ثم دعاه له بخلعة نخلعها عليه وحمله على
مراكب وأمره بالمسير إلى حلوان ولكنه إذ خرج هرب في نفر من
خدمه ومواليه فنادى الأئمين في الناس - إذ لم يعد هناك موضع لعفو -
فركبوا في طابه فأدركوه وقتلوه . وكذا كان من المأمون للفضل
ابن الربيع^(٢) إذ ظفر به فقد قال له « يا فضل أكان من حقي عليك وحق
آبائي ونعمهم عند أبيك وعندك أن تشابني وتسبني وتحرض على دمي،
أحب أن أفعل بك ما فعلته بي » فقال يا أمير المؤمنين إن عذري
يحمدك إذا كنت واضعاً جميلاً فكيف إذا حفته العيوب وقبحته
الذنوب، فلا يضيق عني من عفوك ما وسع غيري منك فأنت كما قال
الشاعر فيك

صفوح عن الأجرام حتى كأنه من العفول يعرف من الناس مجرماً

(١) يعني أخذه بشار أبيه من طاهر بن الحسين فإنه قتله وبعض أهل بيته كما تقدم.

(٢) كان أول المناصرين للأئمين لأنه من أبناء العرب وكانت ضلع الأئمين

سهم لعمريته أمه وضلع المأمون عليهم مع الفرس لفارسية أمه

وليس يبالي أن يكون به الأذى إذا ما الأذى لم يغش بالكره مسلما
٤ - ثم منها أن تكون أداة الحوار بين الخصماء الألداء والمتعابيين
الأصفياء أو الراغبين في التفاصح من البلغاء . فترى فيها حيث الخصام
نارا وجحيميا، وحيث التحاب جنة ونعما، وحيث الرغبة في التفاصح علوا
في البلاغة كبيرا . فأما حوار الخصومة فقد سمعت منه فيما سبق بين
الرشيد وعمه عبد الملك ، السؤال المفحم والرد المقنع . وأما حوار التحاب
والتواد فاليك منه ما حدث به سعيد بن مسلم بن قتيبة قال ، دعا المنصور
بالربيع فقال له ياربيع سلني ماتريد فقد سكنت حتى أنطقت ، وخففت
حتى أنقلت ، وقللت حتى أكثرت ، فقال والله يا أمير المؤمنين ما أرب
بخلك ولا أستقصم عمرك ولا أستصغر فضلك ولا أغتتم مالك ، وإن
يومي بفضلك على أحسن من أمسي ، وغدك في تأميلي أحسن من يومي ،
ولو جاز أن يشكرك مني بغير الخدمة والمناجحة لما سبقني لذلك أحد ، قال
صدقت علمي بهذا منك أحلك هذا المحل فسلني ما شئت ، قال أسألك
أن تقرب عبدك الفضل وتؤثره وتحبه ، قال ياربيع إن الحب ليس بمال
يوهب ولا رتبة تبذل وإنما تؤكده الأسباب . قال فاجعل لي طريقا
إليه بالفضل عليه ، قال صدقت وقد وصلتته بألف درهم ولم أصل بها
أحدا غير عمومي لتعلم ماله عندي فيكون منه ما يستدعي به محبتي ،
ثم قال وكيف سألت له المحبة ياربيع؟ قال لأنها مفتاح كل خير ، ومغلاق
كل شر ، تستر بها عندك عيوبه ، وتصير حسنات ذنوبه ، قال صدقت .
أما حوار التفاصح فخذ منه ما روى من أن خالد بن صفوان دخل على

السفاح وعنده أخواله من بني الحارث بن كعب^(١) فقال ما تقول في أخوالي فقال ، هم هامة الشرف وعز نين الكرم وغرس الجود ، إن فيهم خصالا ما اجتمعت في غيرهم من قومهم لأنهم أطولهم لهما ، واكرمهم شيئا ، وأطيبهم طعاما ، وأوفاهم ذمما وأبعدهم همما ، الجرة في الحرب والرغد في الجذب والرأس في كل خطب وغيرهم بمنزلة العجب ، فقال وصفت أبا صفوان فأحسنت فزاد أخواله في الفخر حتى غضب لأسمامه فقال : انخر يا خالد على أخوال أمير المؤمنين وأنت من أسمامه فقال « وكيف أفاخر قوما بين ناسج برد ودابغ جلد وسائس قرد وراكب عرد^(٢) ، دل عليهم هدهد وغرقهم جرد ومملكتمهم امرأة » فأشرق وجه أبي العباس .

٥ - ولقد كانت الخطابة مر كباذلو لا في التعازي والتباني ، يبلغ به المعزون أرفع مراتب الصبر ويصل به المهنئون أبهج درجات البشر ، ذكر الطبري أنه لما ماتت الباقونة بنت المهدي جزع عليها جزع عالم يسمع بمثله فجلس للناس يعزونه وأمر ألا يجيب عنه أحد ، فأكثر الناس في التعازي فأجمع من حضر على أنهم لم يسمعوا تعزية أو جز ولا أبلغ من تعزية شبيب بن شيبه^(٣) له إذ قال : « أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رزئت أجرا وأعقبك صبورا ، ولا أجهد الله بلاءك بنقمة ولا نزع منك نعمة ، ثواب الله خير لك منها ورحمته خير لها منك ، وأحق ما صبر عليه مالا سبيل إلى رده » . وقد ذكرنا فيما سلف من نماذج تهنئة أحد وجوه بغداد للمأمون

(١) أم السفاح ريطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد الممدان بن الديان

الحارثي ولذا يقال له ابن الحارثية .

(٢) العرد الحمار (٣) هو ابن عم خالد بن صفوان المنقري

حين دخلها بعد قتل الأمين . وكثيرا ما كان يجمع بين التعزية والتهنئة في الخلافة وفي غير الخلافة . فمن الاول ما ذكر في صبح الاعشى من أن أعرابية تعرضت للمنصور عقب وفاة السفاح فقالت « يا أمير المؤمنين احتسب الصبر وقدم الشكر فقد أجزل الله لك الثواب في الحالين وأعظم عليك المنة في الحادثين ، سلبك خليفة الله وأفادك خلافة الله فسلم فيما سلبك . واشكر فيما منحك ، تجاوز الله عنك يا أمير المؤمنين وخار لك فيما ملكك من أمر الدنيا والدين » . ومن الثاني ما ذكر من أن عبد الملك بن صالح دخل دار الرشيد - قبل غضبه عليه - فقال له الحاجب إن أمير المؤمنين قد أصيب الليلة بآبن له وولد له آخر فلما دخل عليه قال « سررك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك ، ولا ساءك فيما سررك ، وجعل هذه بهذه مثوبة علي الصبر ، وجزاء علي الشكر » .

٦ - ولقد اتخذ ذوو الاسن الخطابة رقى سحرية يتزلفون بها إلى أولى الأمر والنهي يغزون منهم القلوب ويحتلون السويداء بما يرتلون من آيات مدح وينظمون من عقود ثناء ، قال الحسن بن سهل للمأمون يوما ، « الحمد لله يا أمير المؤمنين علي جزيل ما آتاك وسني ما أعطاك ، إذ قسم لك الخلافة ووهب لك معها الحجة ، ومكنك بالسلطان وحلاه لك بالعدل ، وأيدك بالظفر وشفعه لك بالعفو ، وأوجب لك السعادة وقرنها بالسيادة ، فمن فسح له في مثل عطية الله لك ؟ أم من ألبسه الله من زينة المواهب ما ألبسك ، أم من ترادفت نعمة الله عليه ترادفها عليك ؟ أم هل حاولها أحد وارتبطها بمثل محاولتك ؟ أم أي حاجة بقيت لرعيته لم يجدوها عندك ؟ أم أي قيم للإسلام انتهى إلى عنايتك ودرجتك ؟

تعالى الله تعالى ما أعظم ما خص القرن الذي أنت ناصره ، وسبحان
الله أى نعمة طبقت الأرض بك . إن الله تعالى خلق السماء فى فللكها
ضياء يسندير بها جميع الخلائق ، فكل جوهر زها حسنه ونوره ، فهل
لبسته زينته إلا بما اتصل به من نورك ، وكذلك كل ولى من أوليائك
سعد بأفعاله فى دولتك ، وحسنت صنائعه عند رعيتك ، فانما نالها بما
أيدته من رأيك وتديرك ، وأسدته من حسك وتقديرك .

ولقد صار الحسن بهذا وزيراً للمأمون وتزوج المأمون من ابنته بوران .

وقيل للمهدى عن شبيب بن شيبه للايقاع به ، إن شيبه يستعمل
الكلام ويستعد له ، فلو أمرته أن يصعد المنبر فجأة لرجوت أن يفتضح
فأمر رسولا فأخذ بيده حتى أصعدته المنبر وقال خذ فى مدح أمير
المؤمنين فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه حق الصلاة عليه ثم قال :
« أيها الناس ألا إن لأمير المؤمنين أشباهاً أربعة الأسد الخادر ، والبحر
الزاخر ، والقمر الباهر ، والربيع الناضر . فأما الأسد الخادر فأشبهه منه
بأسه ومضاهه ، وأما البحر الزاخر فأشبهه منه جوده وأعطاه ، وأما القمر
الباهر فأشبهه منه نوره وضياءه وأما الربيع الناضر فأشبهه منه حسنه
وبهائه ، ثم نزل وهو يقول : -

وموقف مثل حد السيف قمت به أحى الذمار وترومىنى به الحدق
فما زلقت وما ألقيت كاذبة إذا الرجال على أمثاله زلقوا
فكان بعد هذا أعز على أمير المؤمنين قبله .

٧ - وكثيراً ما كانت إحالة الرأى فى مهام الأمور على السنة ذوى

البعثاثر والعقول : تلبس اد سلوب الخطابى فيقف كل مدل برأيه موقف الخطيب يجود لفظه كما يحص معناه ويعمل على التأثير بالقول كما يؤثر بالفكر، وإن كان الموقف موقف مشاورة لا يعدو الرغبة فى الوصول إلى أحزم الآراء . وعندك فى هذا ما صدر عن المهدي وأهل بيته ورجالات دولته من تدبير الرأى فى حرب خراسان وهو كثير . وقد سبق منه بعض ما كان من المهدي فى إبداء رأيه ووصايته لولى عهده موسى الهادى ، واليك بعض ما كان من موسى هذا فى الموضوع ، وهو وحده من لم يسبق لنا عنه دون سائر الخلفاء إلى المأمون اختياره . قال « أيها المهدي لا نسكن إلى حلاوة ما يجرى من القول على ألسنتهم وأنت ترى الدماء تسيل من خال فعلهم ، الحال من القوم ينادى بمضرة شر وخفية حقد ، قد جعلوا المعاذير عليها مسترا ، واتخذوا العلل من دونها حجابا ، وجاء أن يدافعوا الأيام بالتأخير والأمر بالتطويل ، فيكسروا حيل المهدي فيهم ويفنوا جنوده عنهم حتى يتلاحم أمرهم وتلاحق ما ذنهم ، وتستفحل حربهم وتستمر الأمور بهم ، والمهدي من قولهم فى حال غرة ولباس أمنة قد فتر لها وأنس بها وسكن إليها » إلى أن قال « والرأى للمهدي وفقه الله ألا يقبل عثرتهم ولا يقبل معذرتهم حتى تطأم الجيوش وتأخذهم السيوف ، ويستحرمهم القتل ويحدق بهم الموت ، ويحيط بهم البلاء ويطبق عليهم النذل ، فإن فعل بهم ذلك ، كان مقطعة لكل عادة سوء فيهم ، وهزيمة لكل بادرة شر منهم ، واحتمال المهدي فى مثونة غزوتهم هذه يضع عنه غزوات كثيرة ونفقات عظيمة » .

٨ - ولم تقف الخطاب إبان ازدهارها في هذا العصر أن تكون ذات باع يطول وقوة تجول في نواحي الوصايا والنصائح والعظات ، وهذه كلمات ثلاث تكاد تكون متحدة المدلول ولكنها غطفنا بعضها على بعض عطف تغاير على أمل التفرقة بينها في المراد .

فأما الوصايا فأنا نقصد بها ما جاوز ناحية التزهيد وكان من كبير بشأن صغير تربطهما لحة نسب وقرابة ، وإنما أقحمنا كلمة شأن لتشمل ماوجه الخطاب فيه لغير الموصى به ولكنه من أجله يكون ، كوصية الرشيد السابقة للأحمر مؤدب ولده الأمين ، وكوصية السيدة زبيدة على بن عيسى حين الذهاب لقتال المأمون من قبل ابنها الأمين إذ تقول : « يا علي إن أمير المؤمنين وإن كان ولدي ، إليه تناهت شفقتي وعايه تكامل حذري ، فإني على عبد الله منعطفة مشفقة ، لما يحدث عليه من مكروه وأذى ، وإنما ابني ملك ناس أخاه في سلطانه وغاراه^(١) على ما في يده ، فأعرف لعبد الله حق والده وإخوته ، ولا تجبهه بالكلام فإنك لست نظيره ، ولا تقتسره اقتسار العبيد ولا ترهقه بقيد ولا غل ، ولا تمنع منه جارية ولا خادما ، ولا تعنف عليه في السير ولا تساور في المسير^(٢) ولا تركب قبله ولا تستقل على دابتك حتى تأخذ بركابه ، وإن شتمك فاحتمل منه ، وإن سفه عليك فلا تراده » وطوال الوصايا في هذا العصر كثيرات كوصايا أبي جعفر المنصور لولي عهده المهدي وكوصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله إذ ولاء المأمون الرقة ومصر وما بينهما .
وأما النصائح فهي كالوصايا في مجاوزتها ناحية التزهيد ولكنها

(١) لاجه وخاصنه (٢) أي لا تحتد فيه .

تُخلو من قيد الرابطة في القرابة والسن ، ومثلها في هذا العهد ما حدث
من يزيد بن عمر بن هبيرة^(١) ، إذ دخل يوما على أمير المؤمنين المنصور
فقال له حدثنا فقال « يا أمير المؤمنين إن ساطانكم حديث ، وإمارتكم
جديدة ، فأذيقوا الناس حلاوة عدلها ، وجنبوهم مرارة جورها ، فوالله
يا أمير المؤمنين لقد محصت لك النصيحة » . وكذلك قوله له أيضا
« يا أمير المؤمنين توسع توسعا قرشيا ، ولا تضق ضيقا حجازيا » .
« وكثيرا ما وجهت النصائح في هذا العصر توجيهها طاما لفشو الحكمة
فيه كقول مسلم بن قتيبة « لا تطلبن حاجتك إلى واحد من ثلاثة ،
لا تطلبها إلى الكذاب فإنه يقربها وهي بعيدة ويبعدا وهي قريبة ،
ولا تطلبها إلى الأحمق فإنه يريد أن ينفعك وهو يضرك ، ولا تطلبها
إلى رجل له عند قوم مأكلة فإنه يجعل حاجتك وقاء حاجته » والنصائح
على العكس من الوصايا يغلب فيها الإيجاز .

أما العظاات فهي خلو من القيدين السالفين ، وإنما قيدها أن ترمى
إلى التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة بمختلف الطرق وشتى
الأساليب ، كالذى رأيتة فيما اخترنا بالتماذج من عظة الأوزاعى للمنصور
وهى من العظاات الطوال ، ومن قصارها ما كان من ابن السماك^(٢) إذ دخل
على الرشيد يوما ، وبيننا هو عنده إذ استسقى الرشيد ماء فأتى بقلعة فلما
أهوى بها إلى فيه ليشرّب ، قال له ابن السماك « يا أمير المؤمنين ، بقرابتك
من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت هذه الشربة بكم كنت

(١) كان والى العراقين مروان بن محمد (٢) هو محمد بن صبيح الزاهد العابد

الكوفى قدم بغداد زمن الرشيد ثم عاد إلى الكوفة فمات بها سنة ١٨٣ .

تشتريها؟ قال بنصف ملكي، قال اشرب هناك الله، فلما شربها قال له أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريها؟ قال بجميع ملكي، قال فما اغترارك بملك قيمته بولة؟ فبكي هرون وانصرف ابن السماك .

تلك أم النواحي التي توضح ما كان للخطابة في العصر العباسي الأول من أغراض يرمى إليها الخلفاء وغير الخلفاء سوى ما كان من الخطب الدينية في الجمع والمواسم يلونها بأنفسهم فيحفلون بها ويطيّلون، وقاما تصدر منهم في هذه الناحية القصار، وهذا نموذج من قصارها يوم الجمعة عن محمد بن سليمان بن علي عامل البصرة في خلافة المنصور إذ لا يتسع المقام لطوالها قال .

الحمد لله أحمده وأستعينه، وأستغفره وأؤمن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . من يعتصم بالله ورسوله فقد اعتصم بالعروة الوثقى وسعد في الآخرة والأولى، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضللا بعيدا وخسر خسرانا مبينا . أسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يطيعه ويطيع رسوله، ويتبع رضوانه ويتجنب سخطه، فاتما نحن له وبه . أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعة الله وأرضى لكم ما عند الله، فان تقوى الله أفضل ما تحاث الناس عليه وتداعوا إليه وتواصوا به، «فاتقوا الله ما استطعتم ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون» .

هذا وإن فما قدمنا من نماذج خالصة وأخرى شبننا بها الكلام

على الأغراض ، لمرءة تريننا أن الخطابة في العصر العباسي الأول قد ارتفعت إلى درجة من البيان لا تقل إن لم تزد عما كان لها فيه عهد الأمويين ، ذلك بأن رجالها به كانوا كرجال العصر المذكور من حيث السليقة العربية في بيانهم ، وتوافر الدواعي إلى الكلام أمامهم ، ثم هم على ذلك يغلب فيهم العنصر الهاشمي ولبنى هاشم في ميادين القول سبق لا ينال . وأم الطوابع التي تميز بها خطابة هذا العصر بعد شمول أغراضها كما ساف هو مانسوقه الآن على سبيل الاجمال .

١ - طبعها بطابع ديني لاتزال تعتر به وتستمد منه وهذا أمر ماكان لرجالها عنه فكأن ماداموا يعتقدون أنهم جند الله المؤزرين للقضاء على دولة الظلم وإقامة معالم الدين ، ولذلك امتلأ كلامهم بجور بني أمية واجترأهم على الحرمات والتحدث عن أنفسهم حديث الحاكمين العادلين ، ومن هنا طادوا إلى التعهد للسامعين بمثل ما كان يتعهد به الخلفاء الراشدون كما رأيت في خطب السفاح والمنصور وأعمامهما وكما هو ثابت في خطب من بعدهم من الخلفاء وقد تقدمت منها واحدة للمأمون .

٢ - كثرة الاستعانة فيها بالقرآن الكريم اقتباسا واستشهادا ، ومن أقدر من بني هاشم في دينهم وعدالتهم وقوة عارضتهم وفصاحتهم أن يكونوا آية مستغلين في شن الغارة على بني أمية ومن كانوا لهم أنصارا ومشايخين ، وقد كانت الآيات تواترهم كما يواتي الذلول عن طواعية واختيار ، حتى تسنى لكثير منهم في بعض مواقفه أن يجعل جل خطبته من القرآن . خطب المنصور بمكة بعد بناء بغداد فقال

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ،
أمر مبرم وقول عدل وقضاء فصل ، والحمد لله الذي أفليح حجته وبعدها
للقوم الظالمين الذين اتخذوا الكعبة غرضاً والنبيء إرثاً وجعلوا القرآن
عضين^(١) ، لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، فكم ترى من بثر معطلة
وقصر مشيد ، أمهلهم الله حتى بدلوا السنة واضطهدوا العترة^(٢) وعندوا
واعتدوا واستكبروا وخاب كل جبار عنيد ، ثم أخذهم فهل تحس منهم
من أحد أو تسمع لهم ركزا » . وعلى وتيرتها كانت خطبة عبد الملك بن
صالح في أهل الشام وقد ذكرت بالتماذج .

٣- وكذلك كثرة الاستشهاد بالشعر وإن لم تفضل فيه خطابة الأمويين ،
خطب داود بن علي فقال « أيها الناس حتام يهتف بكم صريخكم^(٣) ،
أما أن لراقدم أن يهب من نومه ، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا
يكسبون ، أغركم الأمهال حتى حسبتموه الأهمال ، هيهات منكم وكيف بكم
والسوط كفى^(٤) والسيف مشهر :

حتى تبديد قبيلة فقييلة وبعض كل مثقف بالهام^(٥)
وتقوم ربات الخدور حواسرا يمسحن عرض ذوائب الإيتام
وخطب صالح أخوه فقال « يا أعضاء النفاق وعبد الضلالة ، أغركم
لين أساسي وطول إيناسي حتى ظن جاهلكم أن ذلك لفلول حدو فتور
جد وخور قناة ، كذبت الظنون إنها العترة بعضها من بعض فأما

(١) جمع عضه ، أي فرقا من سحر و كهانة وشعر (٢) العشيرة الأقرين

(٣) الصريخ هنا المغيث (٤) كثير الكفاية (٥) المثقف هنا المنقر

إذ قد استوبلتم العافية^(١) فعندي فطام وفكاك وسيف يقدا لهام وإني أقول:
أغر كم أنى بأكرم شيمة رفيق وأنى بالفواحش أخرق
ومثلى إذا لم يجز أحسن سعبه تبكم نعماء بفيها فتنتطق
لعمرى لقد فاحشتنى فغلبتني هنيئا مريئا أنت بالفحش أرفق

٤ - السهولة البادية في وضوح مفرداتها وسلاسة تراكيبها مع
بقائها جزلة الاثلوب قوية الأداء ، نتيجة للحضارة التي صقلت اللغة
كما صقلت كل شيء ، فأصبحت الكلمات الغريبة فيها قليلة الوجود .
والتراكيب العسيرة بها نادرة الاستعمال ، ثم خطت نحو مزاوجة الجمل
وتساوى الفقرات خطوات كانت الأساس لما بنى بعد من محسنات ،
وإن فيما قرأت لها الشواهد على ما ذكرنا كثيرة كخطبة شبيب في المديح ،
على أنى أزيد هنا شاهدا مما كان آخر هذا العصر الأول يؤذن بما كان
مقدورا للنثر بعده من صناعات . دخل رجل على المأمون يتظلم
من عامل له فقال : « يا أمير المؤمنين ، ماتوك لي فضة إلا فضها ، ولا ذهبا
إلا ذهب به ، ولا غلة إلا غلها^(٢) ، ولا ضيعة إلا أضاعها ، ولا علقا إلا علقه ،
ولا عرضا إلا عرض له ، ولا ماشية إلا امتشها^(٣) ، ولا جليلا إلا أجلاه^(٤) ،
ولا دقيقا إلا دقه^(٥) » .

٥ - ظهورها على السنة الموالي بجانب ظهورها على السنة العرب
وذلك لما صار إليه الفرس من نباهة الشأن وتولى كثير منهم أزمة الحكم
مع إجادتهم العربية وحذقهم آدابها كما رأيت فيما اخترنا لأبي مسلم

(١) عددتموها وديلة وخيمة (٢) حازها واحتبسها (٣) أخذ كل ما يضرعها

(٤) فعه (٥) كسره .

وطاهر بن الحسين وجعفر البرمكي والحسن بن سهل وغيرهم ممن عهد اليهم بكبار الشئون . على أنه لا يفوتنا التنبيه هنا عما ظهر في خطب هؤلاء وأمثالهم من العمل اليبادى فى الصياغة ، والخنوع المعلن فى الزراعة تأثرا منهم بما هو من طابع الفارسية وطباع أهلها ، ولذا يبدو على تراكيبهم فى بعض العبارات سقم أو استكراه لاتكاد تجد له من من مثل فى هذا العصر على ألسنة العرب الخالصين .

كان هذا شأن الخطابة فى العصر العباسى الأول ، حتى إذا ما أقبل العصر الثانى كانت قد ماتت الحاجة إلى الدعاية ضد الأمويين بما عفا من آثارهم وتثبت من أقدام العباسيين ، ومن كان فى نفسه هوى أموى توجه به إلى الأندلس حيث أسست الدولة الثانية لبني مروان ، وبذلك أقفر الوادى الأول للخطابة وذهب داعيه ، ثم أعقبه إقفار الوادى الثانى وهو مقاومة العلويين - لما قاموا به من هجرة المشرق إلى المغرب الأقصى بعد أن أخفقوا فى خروجهم على أبى جعفر وخروجهم على الرشيد وبعد أن أخفق المأمون فى عقد ولاية العهد من بعده لعلى بن موسى الرضا منهم ، ثم جاء المتوكل معلنا على شيعتهم سيف البطش والجهروت ، وكذلك كان الخدم الأتراك ، فبقوا فى المغرب الأقصى بين بني مروان فى الأندلس والأغالبة فى أفريقية (تونس) - وكلاهما يود لهم البقاء - إلى أن ضعف أمر بني العباس فزحفوا شرقا إلى أن امتلكت الدولة الفاطمية مصر والشام . وبموت هذين الداعيين أقفر الوادى الثالث ونضب للخطابة أكبر معين . أما العيون الأخرى التى كانت تمد سائر الأغراض فقد جفت بعاملين جديدين ، أحدهما تجريد الخلفاء

على أيدي الخدم الأتراك من السلطنة الدنيوية التي كانت تجعلهم مرغوبين
مرهوبين ، وإذا ماتت الرغبة إلى شخص والرغبة منه ، تقطعت بينه
وبين الناس أوامر الكلام ، وثانيهما ضعف أولئك الخدم في المقدرة على
الكلام وفي فهم ما يلقى إليهم من بيان ، ضعفا حال بينهم وبين أن يسدوا ذلك
الفراغ للخلفاء ومن كان على شاكلتهم من أعوانهم موالى الفرس المتعربين ،
وبذلك تم القضاء تقريبا على كل ما كانت تتناول الخطابة في غير الناحية
الدينية من أغراض .

أما الناحية الدينية فقد استمر أولئك الخدم يسمحون للخلفاء فيها بكل
ما يودون ، فبقوا يزاولون الخطب في الجمع والأعياد ، ويخرجون إلى هذه
المواسم كما كان أسلافهم في مواكب الأبهة والجلال^(١) فبقى للخطب
الدينية في هذا العصر على أسنتهم وألسنة محاكيهم من فصحاء الولاة
والعمال شبه ما كان لها في سابقه من شأن واعتبار ، وما ساعد على هذا
أن ذيل العفاء لم يك قد تم سحبه على ما للعربية من مكانة في التخاطب
العام ، ولذلك يذكر المؤرخون عن الراضى بالله المتوفى سنة ٣٢٩ هـ
قبيل انقضاء هذا العصر بسنوات أنه آخر خليفة له خطب كثيرة

(١) كانت هذه المواكب تسترعى أنظار الشعراء فيبدعون في تصويرها

ما شاء لهم البيان كما حدث من البحترى في رأيه التي يقول فيها :

بالبر صمت وأنت أفضل صائم وبسنة الله الرضية تظفر

فقد أجاد فيها وصف موكب المتوكل في خروجه إلى المسجد ليصلى بالناس

أحد أعياد الفطر كما أجاد وصف خطبته الواعظة في هذا العيد وستأتي في نماذج

الشعر بعد .

وأنه كان كأسلافه الأول يجالس في بيته العلماء والأدباء .
ولما أقبل العصر الثالث بسط آل بويه سلطانهم على بغداد ؛ بسطا لم يبق معه للخليفة إلا صورة الخلافة جوفاء ، فقد سلبوا خلفاءه ما كان قد بقي لهم في سابقه من نفوذ ديني فحالوا بينهم وبين الظهور في المواكب للناس حتى ما كان للخليفة في الدولة إلا مرتب يتسلمه كاتبه لتفقاته جملة معز الدولة للمستكفي بالله خمسة آلاف درهم كل يوم^(١) فقطع بذلك ، المدد الروحي الذي كان للخطابة من كلام الخلفاء . ثم أخذ ضعف اللسان العام يتناول الخاصة وأهل البادية بعد أن تناول السواد ، ففضى بذلك على المقدرة الخطابية العامة أتم قضاء ، وأصبحت الخطابة حرفة تسند في بغداد بعد الخلفاء ، وفي سائر الحواضر بعد الولاة والعمال ، إلى علماء يختارون على سبيل التعيين ويلقب كل منهم بالخطيب .

ثم جاء العصر الرابع فجرى الأمر فيه على ما كان في الثالث من بقاء الحجر على الخلفاء وتعيين الخطباء من العلماء ، ولقد اشتهر من خطباء الحواضر في العصرين رجال كانوا ذوي مقدرة على البيان وامتلاك لنواصيه ، فأغنوا في هذه الناحية غناء عظيمًا وصاروا مددًا لمن هم دونهم ممن يلون الخطابة في غير حواضرهم وفي سائر المدن . وأمهات

(١) بدأ اضطهاد آل بويه للخلفاء منذ وجودهم ببغداد فان المستكفي الذي لقب أحمد بن بويه إذ دخلها بلقب معز الدولة ولقب أخويه كاتقدم وأمر أن تضرب ألقابهم على الدراهم والدنانير ، لم يبقه معز الدولة بعد ذلك إلا أربعين يوما ثم خلعه أشنع خلعة يجعل رجلين من أتباعه يجذبانه عن سريره ويجعلان صمامته في عنقه إلى خيث اعتقل ، على زعم أنه يدس عليه ويكيد له .

القرى، حتى دونت خطب بعضهم في دواوين^(١) غير أن هؤلاء لقلتهم وللضعف الذي أخذ يحل بالعربية في العصر الأخير، لم يصدوا عن الخطابة الدينية ما اعتورها من خمول، فقد سار القائمون بها في طريق الاضمحلال مسرعين، وكان أول ما بدا عليهم من ضعف، محجزهم جملة عن الارتجال، ثم محجزهم عن المشافهة بعد إعداد، فكانوا يدونون خطبهم ثم يلقونها على المنابر من أوراق، ولشد ما كان الخطب فادحاً حينها محجزوا عن تحضيرها بأنفسهم، وأخذوا يكتبون خطب غيرهم، فيلقونها غير ملائمة للبيئة ولا مطابقة لمقتضيات الأحوال، حتى كان من وراء ذلك أن هبت جماعات تضع خطبا لكل جمعة من جمع العام يملئونها بما ساد الكلام آخر العصر من أسجاع، ولا يلمون فيها من نواحي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشيء ذي بال، على نحو ما كنا نسمع من جميع خطباء المساجد بمصر منذ فترة من تاريخنا الحديث، وما نسمع الآن من مجموعهم في هذا الوقت المقيم الذي حاد فيه بعض الخطباء الحديثين عما كان عليه إجماع سابقهم حيدة نقابلها بالغبطة متمنين لها دوام التقدم وسرعة الذيوع والانتشار.

(١) من هؤلاء على حسب سني وفاتهم في العصرين أبو يحيى بن نباتة خطيب سيف الدولة بحلب المتوفى سنة ٣٧٤ وله ديوان خطب مشهور طبع ببيروت. والخطيب البغدادي الحافظ أبو بكر أحمد بن علي صاحب تاريخ بغداد المتوفى سنة ٤٦٣. والخطيب التبريزي يحيى بن علي الشيباني المتوفى سنة ٥٠٢. والخطيب الرازي عمر بن الحسين والد الفخر صاحب التفسير المتوفى سنة ٥١٢. وزكي الدين الدمشقي خطيب أول جمعة صلوات بيت المقدس بعد استعادته من الصليبيين سنة ٥٦٤. ثم خطيب القسطنطينية إبراهيم بن منصور العراقي المتوفى سنة ٦١٣.

الكتابة

قلنا إن لنثر اللغة جانبا أدبيا هو الخطابة والكتابة الانشائية، وآخر عاميا هو لغة التدوين والتصنيف، وإنا سنسوق الكلام على هذا الترتيب وبعده يكون الكلام على الشعر، وقد فرغنا من الكلام على الخطابة، وأن أن نشرع في الكلام على الكتابة جريا على ما رسمنا من نظام، غير أننا مضطرون فيها إلى تصدير لم نضطر إلى مثله في الخطابة هو سوق كلمة عن أنواعها في هذا العصر الطويل، فقد لبست فيه أثوابا عدة ذات تغاير في الأشكال والألوان، دفع إليها نظام العصر وأتم نسجها طول مداه.

فكانت منها الكتابة الديوانية وهي التي يتولاها رجال الدواوين على النحو الفنى الذى نراه من كتبة الوزارات الآن. منها ديوان الرسائل والتوقيعات، وديوان الخراج والنفقات، وديوان الضياع والاقطاعات، وديوان الجيش وديوان الشرطة وغيرها إلى ما يشمل عدد المصالح العامة فى تعريف الأمور، وهى مع اشتراكها جميعا فى ضم عدد من الكتبة يتولى عملا فنيا، مختلفة بعضها عن بعض فى نوع الكتابة تبعالا لاختلاف المهمة الملقاة على كل ديوان، والنظام الكتابى الذى يقتضى إنجازها فيه، حتى إن نقل كاتب من أحدها إلى غيره، كثيرا ما تأباه طبيعة العمل الجديد، لأن لكل ديوان صبغة فنية وتعاليم يحذقها كتبته ولا يلم بها الكاتب الجديد إلا بعد تمرين، غير أن الكتابة فيها جميعا ماعدا ديوان الرسائل والتوقيعات لا تحتاج بعد معرفة فنيته إلى روية وإجهاد، إذ

لا تعدو القيد في الدفاتر أو التحرير من غير مشقة في الانشاء فهي خلو من المسحة الأدبية للغة كما هي الآن . أما في الديوان المذكور ، فكانت ذات صبغة أدبية تتطلب من الكاتب تجويد العبارة والتحليق بالأسلوب إلى مستوى من البيان رفيع ، تتسامى إليه طوائف الكتاب .

وكان منها خارج الدواوين ما ينشئه الكتاب من رسائل على نمط ما في ديوان الرسائل وإن كانت إخوانيات ، وما يصورونه من القصص والمقامات ، ثم ما يدونه العلماء في التأليف والتصنيف ، ومع ما للغة العامية من فنية خاضعة للطابع العلمي وإن كانت مختلفة باختلاف العلوم والفنون ، جاءت بعيدة عن الصبغة الأدبية بخلاف الرسائل الإخوانية ، وكتابة القصص والمقامات فانهادات جانب أدبي رفيع . جعلها نظيرة ما في ديوان الرسائل كما جاءت الكتابة العلمية نظيرة ما في غيره من سائر الدواوين ولما كان الأدب وحياته ينظران إلى الناحية الأدبية دون غيرها ، صارت الكتابة الانشائية في ديوان الرسائل والتوقيعات ، وخارجه في الرسائل الإخوانية والقصص والمقامات من أبحاثها في الصميم ، دون كتابة الدواوين الأخرى لبعدها عنها البعد كله ، أما الكتابة العلمية فإنها يمان بها الالمام اليسير لما هو معروف من صلتها بكثير من العلوم والفنون . وعلى هذا الذي يقتضيه الأدب وحياته سيقع منا الكلام مع عدم التوسع الكثير في التدوين والتصنيف . وبعده يكون الكلام بإفاضة في الشعر إن شاء الله .

الكتابة الانشائية

أولاً - نماذجها

أ - في الرسائل والتوقيعات

١ - لما خرج محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية على المنصور كتب إليه المنصور .

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله، أما بعد فإنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم، ولك عهد الله وذيمة وميثاقه، وحق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، إن تبت من قبل أن أقدر عليك، أن أوثقتك على نفسك وولدك وإخوانك، ومن بايعك ومن تابعك وجميع شيعتك، وأن أعطيتك ألف ألف درهم وأنزلت من البلاد حيث شئت واقضى لك ما شئت من الحاجات، وأن أطلق من في سجنى من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك، ثم لا أتتبع أحداً منكم بمكروه، فإن شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من يأخذك من الميثاق والعهد والأمان ما أحببت والسلام .

٢ - فكتب إليه محمد بن عبد الله . بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد أما بعد « طسم

تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم
يؤمنون، إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة
منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين، ونريد أن
نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ونمكن
لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون»
وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي أعطيتني، وقد تعلم أن الحق
حقنا وأنكم إنما طلبتموه بنا، ونهضتم فيه بشيعتنا وخببتموه بفضلنا،
وأن أبانا عليا عليه السلام كان الوصي والأمام، فكيف ورثتموه دوننا
ونحن أحياء؟ وقد علمت أنه ليس أحد من بني هاشم يمت بمثل فضلنا
ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا، وأنا بنو أم رسول الله صلى
الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية دونكم^(١) وبنو ابنته فاطمة
في الإسلام من بينكم؛ فأنا أوسط بني هاشم نسباً وخيرهم أمماً وأباً، لم تلدني
العجم ولم تعرق في أمهات الأولاد، وأن الله تبارك وتعالى لم يزل يختار
لنا، فولدني من النبيين أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم، ومن أصحابه
أقدمهم إسلاماً وأوسعهم علماً وأكثرهم جهاداً على بن أبي طالب، ومن
نسائه أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى القبلة، ومن
بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة، ومن المولودين في الإسلام الحسن

(١) ينتهي نسبها إلى كعب بن لؤي وكانت زوجا لعبد المطلب بن هاشم
فأولدها عبد الله أبا رسول الله وأبا طالب أبا العلويين واسمه عبد مناف
ممن الزبير وعبد الكعبة

والحسين سيدا شباب أهل الجنة^(١)؛ ثم قد علمت أن هاشما ولد عليا مرتين وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدني مرتين من قبل جدى الحسن والحسين^(٢)، فما زال الله يختار لى حتى اختار لى فى النار، فولدنى أرفع الناس درجة فى الجنة وأهون أهل النار عذابا؛ فأنا ابن خير الأختيار وابن خير الأشرار وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار، ولك عهد الله إن دخلت فى بيعتى أن أومنك على نفسك وولدك وكل ما أصبته إلا حدا من حدود الله أو حقا لمسلم أو معاهدا، فقد علمت ما يلزمك فى ذلك؛ فأنا أوفى بالعهد منك وأحرى بقبول الأمان، فأما أمانك الذى عرضت على، فأى الأمانات هو أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله بن على أم أمان أبى مسلم والسلام^(٣).

٣ - فكتب إليه المنصور - بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله

١ (أ) أبوه عبد الله بن حسن بن حسن بن على، وأمه فاطمة بنت الحسين ابن على، فهو يرجع إلى رسول الله من الجهتين.

٢ (ب) يرجع على إلى هاشم من قبل أبيه أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم ومن قبل أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، ويرجع الحسن إلى عبد المطلب من قبل أبيه على بن أبى طالب ومن قبل أمه فاطمة بنت رسول الله، ويرجع محمد هذا إلى رسول الله من الجهتين كما تقدم.

(٣) هؤلاء الثلاثة أمنهم المنصور ثم غدر بهم، وابن هبيرة هذا هو يزيد

ابن عمر بن هبيرة والى العراقين مروان بن محمد

أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله ، أما بعد فقد أتاني كتابك وبلغني كلامك؛ فاذا جل نحرك بالنساء لتفضل به الجفافة والقوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعومة، ولا الآباء كالعصبة والأولياء، ولقد جعل العم أبا وبدأ به على الوالد الأثني فقال جل ثناؤه. عن نبيه عليه السلام «واتبعت ملة آبائي إبراهيم واسحاق ويعقوب». ولقد علمت أن الله تبارك وتعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم وعمومته أربعة؛ فأجابته اثنان أحدهما أبي وكفر اثنان أحدهما أبوك^(١) فأما ما ذكرت من النساء وقرابتهن، فلو أعطيت علي قرب الأُنساب وحق الأَحساب، لكان خير كله لآمنة بنت وهب، ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه. فأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب؛ فإن الله لم يهد أحدا من ولدها للإسلام، ولو فعل، لكان عبد الله بن عبد المطلب أولام بكل خير في الآخرة والأولى، وأسعدهم بدخول الجنة غدا، ولكن الله أبي ذلك فقال «إنك لاتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء» فأما ما ذكرت من فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب وفاطمة أم الحسن وأن هاشما ولد عليا مرتين، وأن عبد المطاب ولد الحسن مرتين، فخير الأولين والآخرين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلد هاشم إلا مرة واحدة ولم يلد عبد المطلب إلا مرة واحدة، وأما ما ذكرت من أنك ابن رسول الله، فإن الله عز وجل أبي ذلك فقال «ما كان محمداً أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين» ولكنكم بنو ابنته وانها

(١) المجيبان حمزة والعباس، والكافران أبو لهب وأبو طالب، والثاني أهون

لقرابة قريبة. غير أنها امرأة لا تحوز الميراث ولا يجوز أن تؤم، فكيف تورث الامامة من قبلها؟ ولقد طلب بها أبوك بكل وجه فأخرجها تخاصم ومرضاها سرا ودفنها ليلا، فأبى الناس إلا تقديم الشيعيين، ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر بالضلاة غيره، ثم أخذ الناس رجلا رجلا فلم يأخذوا أباك فيهم، ثم كان من أصحاب الشورى فكل دفعه عنها وبايع عبدالرحمن عثمان وقبلها عثمان، وحارب أبوك طلحة والزبير، وودعا سعدا إلى بيعته فأغلق بابيه دونه ثم بايع معاوية بعد، وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن فسلمه إلى معاوية بخرق ودرهم وأسلم في يديه شيعته وخرج إلى المدينة، فدفع الأمر إلى غير أهله وأخذ مالا من غير حله فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه. فأما قولك ان الله اختار لك في الكفر فجعل أباك أهون أهل النار عذابا فليس في الشر خيار ولا من عذاب الله هين، ولا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفخر بالنار، وسترد فتعلم وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. وأما قولك انك لم تلدك العجيم ولم تعرق فيك أمهات الا ولاد، وأنتك أوسط بني هاشم نسبا وخير أما وأبا فقد رأيتك نخرت على بني هاشم طرا وقد مت نفسك على من هو خير منك أولا وآخرا وأصلا وفصلا، نخرت على ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى والد ولده. فانظر ويحك أين تكون من الله غدا، وما ولد فيكم مولود بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم افضل من علي بن الحسين وهو لأم ولد ولقد كان خيرا من جدك حسن بن حسن، ثم ابنه محمد بن علي خير من أبيك وجدته أم ولد، ثم ابنه جعفر، وهو خير منك، ولقد علمت ان جدك عليا حكيم حكيما

وأعطاهما عهداً وميثاقه على الرضا بما حكما به فاجتمعوا على حلعه، ثم خرج
عماك الحسين بن علي، علي ابن مرجانة^(١)، فكان الناس الذين معه عاينيه
حتى قتلوه ثم أتوا بكم على الأقتاب بغير أوطئة كالسبي المجلوب إلى
الشام^(٢)، ثم خرج منكم غير واحد فقتلكم بنو أمية وحرقوكم بالنار وصلبوكم
على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدركنا بتأركم إذ لم تدركوه،
ورفعنا أقدراكم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك
في أدبار الصلاة المكتوبة كما تمن الكفرة، فعنفناهم وكفروناهم، وبيننا
فضله وأشدنا بذكره فاتخذت ذلك علينا حجة، وظننت أنا لما ذكرنا
من فضل علي[ؑ] أنا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر، كل أولئك مضوا
سالمين مسلماً منهم وابتلى أبوك بالدماء، ولقد علمت أن ما أثرنا في الجاهلية
سقاية الحجاج الأعظم وولاية زمزم، وكانت للعباس دوزاخوته فنازعنا
فيها أبوك إلى عمر فقضى لنا عمر عليه، وتوفى رسول الله ﷺ وليس
من همومته أحد حياً إلا العباس فكان وارثه دون بني عبد المطلب،
وطلب الخلافة غير واحد من بني هاشم، فلم ينهاها إلا ولده، فاجتمع للعباس
أنه أبو رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء، وبنوه القادة الخلفاء، فقد ذهب
بفضل القديم والحديث: ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرها لمات
عماك طالب وعقيل جوعاً، أو يلحسا جفان عتبة وشيبة^(٣) فأذهب

(١) هو عبید الله بن زیاد بن أبيه ومرجانة أمه (٢) الأقتاب جمع قتب

هو الرجل على قدر العناب، والأوطئة جمع وطاء وهو ما يقابل العطاء.

(٣) يؤيد الكره قول رسول الله ﷺ يوم بدر « من لقي منكم العباس

فلا يقتله فإنه أخرج كرها » وطالب وعقيل ابنا أبي طالب أسرا يوم بدر،

عنهما العار والشنار ، ولقد جاء الاسلام والعباس بمون أبا طالب للآزمة التي أصابتهم، ثم فدى عقيلا يوم بدر^(١) فقد مناكم في الكفر وفديناكم من الأسر، وورثنا دونكم خاتم الأبياء وحزنا شرف الآباء ، وأدر كنا من ثأركم ما عجزتم عنه، ووضعناكم بحيث لم تضعوا أنفسكم والسلام .

٤ - وكتب عبد الله بن المقفع « المتوفى سنة ١٤٣ » إمام الطريقة الكتابية في العصر العباسي الأول « طريقة الترسيل » في التعريف بكتاب كيلة ودمنة، فكان مما كتب في أول باب عرض الكتاب:

هذا كتاب كيلة ودمنة وهو مما وضعه علماء الهند من الأمثال والأحاديث التي ألهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول في النحو الذي أرادوا ، ولم تزل العلماء من أهل كل ملة يلتمسون أن يعقل عنهم، ويحتالون في ذلك بصنوف الحيل، ويبتغون إخراج ما عندهم من العليل، حتى كان من تلك العليل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم والطيور فاجتمع لهم بذلك خلال ، أما هم فوجدوا متصرفا في القول وشعابا يأخذون منها ، وأما الكتاب فجمع حكمة وطهرا. فاختره الحكاء لحكمته، والسفهاء للهوه ، والمتعلم من الأحداث ناشط في حفظ ما صار إليه من أمر يربط في صدره ولا يدري ما هو بل عرف أنه قد ظفر من ذلك بمكتوب مرقوم، وكان كالرجل الذي لما استكمل الرجولية وجد أبويه قد كئزا له كنوزا وعقدا له عقودا استغنى بها عن الكدح فيما يعمله من أمر

فكانا من الآكلين على جفان العباس وكان يطعم يوم بدر ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة كانا من المطعمين لقريش يوم بدر أيضا .

(١) كما فدى نوفل بن الحارث أيضا، أما طالب ففدى نفسه .

معيشته فأغناه ما أشرف عليه من الحكمة عن الحاجة إلى غيرها من وجوه الأدب .

هـ - ومما كتب في الدرة اليتيمة وهي رسالة دونها للخليفة المنصور في وجوب طاعة الناس لبني هاشم وبسميها الجاحظ الهاشمية ، قوله على ما ذكر أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ في كتابه المنثور والمنظوم ^(١) .

فتفكروا فيما جمع الله لأمر المؤمنين في معدنه وفي سيرته ، وفيما ظاهر عليكم من النعمة والحق والحجة بذلك ، وفيما عسى لقائل أن يبتغى فيه الغمز والمقال ، فلعمري إن للشيطان من أهواء الناس وألسنتهم في الأثر لنصيبها ، وإن له لستراحا حين يستوفيهم أمنيته ويصدق عليهم ظنه ويوحى اليهم بمكايده ، فجعل الله كيده ضعيفا وحزبه مغلوبا ، وجعله وإيأم نصيبا لجهنم من أجزاءها المقسومة لأبوابها وخطبها ووقودها وحصبها ليعدل لها . فمن كان سائلا عن حق أمير المؤمنين في معدنه ، فإن أعظم حقوق الناس منزلة ، وأكرمها نسبة ، وأولاها بالفضل ، حق رسول الله صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة وإمام الهدى ووارث الكتاب والنبوة والمهيمن عليهما وخاتم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، بعنه الله

(١) الدرة اليتيمة مفقودة الآن ، ولم تعرف إلا بالتنبيه عنها أو النقل منها في بعض الكتب ، وأما الرسالة المطبوعة باسمها في بيروت فهي الأدب الكبير ، أخذ اسم الدرة اليتيمة خطأ ، لأن مشتملاتها لا تتفق وما تذكر تلك الكتب عن مشتملات الدرة بل تتفق مع مشتملات الأدب الكبير المنوه عنها في كثير من الكتب وهي السلطان ثم الصديق .

بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بأذنه وسراجاً منيراً، ثم هو باعته يوم القيامة
مقاماً محموداً، شرع الله له دينه وأتم به نوره، ومحق به رءوس الضلالة
وجبايرة الكفر، وخوله الشفاعة وجعله في الرفيق الأعلى صلى الله عليه وسلم

٦ - ومما كتب في رسالة الصحابة وهي رسالة. دونها للخليفة
المنصور أيضاً، لتكون دستوراً فيما يجب على كل ذي مصاحبة للسلطان
في عمل نحو هذا العمل حتى يحسن القيام به، قوله من أولها :

أما بعد، أصلح الله أمير المؤمنين، وأتم عليه النعمة وألبسه المعافاة
والرحمة، فإن أمير المؤمنين حفظه الله يجمع مع علمه، المسألة والاستماع،
كما كان ولاية الشر يجمعون مع جهلهم العجب والاستغناء، ويستوثق
لنفسه بالحجة، ويتخذها على رعيته فيما يلطف له من الفحص على أمورهم
كما كان أولئك يكتفون بالدعة، ويرضون بدحوض الحجة وانقطاع
العذر، في الامتناع أن يجترىء عليهم أحد برأي أو خبر مع تسليط الذئاب؛
وقد عصم الله أمير المؤمنين حين أهلك عدوه وشقى غليله، ومكن له
في الأرض وآتاه ملكها وخزائنها، من أن يشغل نفسه بالتمتع والتفيش^(١)

والتأمل والأخلاء، وأن يرضى ممن آوى منهم بالمتاع به وقضاء حاجة النفس
منه، وأكرم الله أمير المؤمنين باستهانة ذلك واستصغارها إياه، وذلك من
أبين علامات السعادة وأبجح العوامل على الخير. وقد قص الله عز وجل
علينا من نبياً يوسف بن يعقوب أنه لما تمت نعمة الله عليه وآتاه الملك
وعلمه من تأويل الأحاديث، وجمع له شمله وأقر عينه بأبويه وإخوته،
أثنى على الله عز وجل بنعمته، ثم سأل عما كان فيه، وعرف أن الموت وما بعده

(١) التفيش هو ادعاء المفاخر باطلا

هو أولى فقال «توفنى مساماً وألحقنى بالصالحين». وفي الذى قد عرفنا من طريقة أمير المؤمنين ما يشجع ذا الرأى على تناوله بالخبر فيما ظن أنه لم يبلغه إياه غيره، وبالتذكير بما قد انتهى إليه، ولا يزيد صاحب الرأى على أن يكون مخبراً أو مذكراً، وكل عند أمير المؤمنين مقبول إن شاء الله. ٨٦٧ - ومما كتب فى الألب الكبير وقد جعل بابه الأول فى السلطان والثانى فى الصديق، وهو الكتاب المطبوع باسم الدرّة اليتيمة خطأ كما تقدم، قوله فى أول الباب الأول بعد الديباجة.

إن ابتليت بالامارة فتعود بالعلماء، واعلم أن من العجب أن يبتلى الرجل بها، فيريد أن ينتقص من ساعات نصبه وعمله فيزيدها فى ساعات دعتة وشهوته، وإنما الرأى له والحق عاينه أن يأخذ لعماله من جميع شغله، فيأخذ من طعامه وشرابه ونومه وحديثه وطهوه ونسائه. فإذا تقلدت شيئاً من الأعمال، فكن فيه أحد رجلين، إما رجلاً مغتبطاً به محافظاً عليه مخافة أن يزول عنه، وإما رجلاً كارهاً قال: كاره عامل فى سخرة إمام الملوك إن كانوا هم سلطوه، وإما لله إن كان ليس فوقه غيره. وإياك إذا كنت والياً أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية، وأن يعرف الناس ذلك منك فتكون ثمة من الثلم يتقحمون عليك منها، وبأبى فتتحونك منه وغيبة يغتابونك بها ويضحكون منها، واعلم أن قابل المدح كما مدح نفسه، والمرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذى يحمله على رده فإن الراد له محمود والقابل له معيب

ثم قوله فى آخر الباب الثانى يصف صاحباً له:

إنى مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس فى عينى، وكان رأس

مأعظمه عندي صغر الدنيا في عينه . كان خارجا من سلطان بطنه ، فلا يشتهي مالا يحد ولا يكتر إذا وجد ، وكان خارجا من سلطان فرجه ، فلا يدعو إلى مثونة ولا يستخف له رأيا ولا بدنا ، وكان خارجا من سلطان الجهالة ، فلا يقدم إلا على ثقة أو منفعة ، وكان أكثر دهره صامتا فإذا قال بد القائلين ، وكان يرى متضاعفا مستضعفا . فإذا جاء الجدهم واليئ حاديا ، وكان لا يدخل في دعوى ولا يشترك في مرء ولا يدلي بحجة حتى يجد قاضيا عدلا وشهودا عدولا ، وكان لا يلوم أحدا على ما قد يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره ، وكان لا يشكو وجعا إلا إلى من يرجو عنده البرء ، ولا يصحب إلا من يرجو عنده النصيحة لهما جميعا ، وكان لا يتبرم ولا يتسخط ، ولا يتشهى ولا يتشكى ، ولا ينتقم من المولى ولا يغفل عن العدو ، ولا يخلص نفسه دون اخوانه بشيء من اهتمامه بحياته وقوته . فعليك بهذه الاخلاق إن أطقت ولن تطيق ، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

٩ - ومما كتب في الأدب الصغير وهو آداب منشورة في غير موضوع قوله عن صناعة الكتابة :

ومن أخذ كلاما حسنا عن غيره فتكلم به في موضعه وعلى وجهه فلا ترين عليه في ذلك ضئولة ، فانه من أعين على حفظ كلام المصيبين وهدى للاقتداء بالصالحين ، ووفق للاخذ عن الحكماء ولا عليه أن يزداد ، فقد بلغ الغاية وليس بناقصه في رأيه ولا غامطه من حقه ألا يكون هو استحدث ذلك وسبق اليه ، فانما إحياء العقل الذي يتم به ويستحكم ، خصال سبع . الا يثار بالمحبة ، والمبالغة في الطلب ، والتثبت في الاختيار ،

والاعتقاد للخير، وحسن الوعي، والتعهد لما اختير واعتقد، ووضع ذلك موضعه قولاً وعملاً .

١٠ - وكتب إلى بعض إخوانه يستقضيه حاجة .

أما بعد فإن من قضى الحوائج لإخوانه ، واستوجب بذلك الشكر عليهم فلنفسه عمل لاهم ، والمعروف إذا وضع عند من لا يشكره فهو زرع لا بد لزارعه من حصاده أو لعقبه من بعده ، وكتبت اليك ولحالنا التي نحن بها فيما نذكر لك حاجة؛ أول ما فيهم معروف تستوجب به الشكر علينا، وتدخر به الأيادي قبلنا.

١١ - وكتب إلى بعض أصدقائه وقد تفارقا يخبره ويستخيره .

كان من خبري بعدك أني قدمت بلد كذا فتهياً لي بعض ماشخصت له، والحمود على ذلك الله عز وجل، وأنا إلى أن يأتيني خبرك محتاج، فأما جملة خبري في فراقك؛ فقلبي مكة كل ما سواك حرام فيها .

١٢ - وكتب إلى صديق ولدت له جارية .

بارك الله لاسم في الابنة المستفادة وجعلها لكم زينا وأجرى لكم بها خيراً . فلا تكرهها فانهن الأثمات والأخوات والعمات ومنهن الباقيات الصالحات ، ورب غلام ساء أهله بعد مسرتهم ، ورب جارية فرحت أهلها بعد مساءتهم

١٣ - وكتب يعزى صديقا عن بنت له

جدد الله لك من هبته ما يكون خلفاً لك عما رزقته ، وعوضاً من المصيبة به ، ورزقك من الثواب عليها أضعاف ما رزأك منها فما أقل كثير الدنيا في قليل الآخرة مع فناء هذه ودوام تلك .

١٤ - وكتب يعزى من ولد .

إنما يستوجب على الله وعده من صبر الله بحقه فلا تجمعن إلى ما فجعت به من ولدك الفجيعة بالأجر عليه والعوض منه فإنها أعظم المصيبتين عليك وأنكى المرزئتين لك ، أخلف الله عليك بخبر وذخر لك جزيل الثواب .

١٥ - وكتب أحمد بن يوسف وزير المأمون يهنيء بمولود .

أما بعد فانه ليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورا إلا كنت به بهجا أعتد فيه بالنعمة من الله الذى أوجب على من حقتك وعرفنى من جميل رأيك ، فزادك الله خيرا وأدام إحسانه إليك . وقد بلغنى أن الله وهب لك غلاما سرىا أجمل صورته وأتم خلقه وأحسن فيه البلاء عندك فاشتد سرورى بذلك وأكثر حمد الله عليه فبارك الله فيه وجعله بارا تقيا يشهد عضدك ويكثر عددك ويقر عينك .

١٦ - وكتب عمرو بن مسعدة وزير المأمون عن لسانه إلى الحسن

ابن سهل يهنئه بمولود

أما بعد فان هبة الله لك هبة لأمير المؤمنين ، وزيادته إياك فى عددك زيادة له فى عدده ، لمحكك عنده ومكانك من دولته وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلاما سرىا فبارك الله لك فيه وجعله بارا تقيا مباركا سيدا زكيا .

١٧ - وكتب طاهر بن الحسين عن المأمون إلى نصر بن شيبث

حين قويت شوكته وهزم جيوش الخلافة

أما بعد فانك يانصر بن شيبث قد عرفت الطاعة وعزها وبرد ظلمها

وطيب مرتعها، وما في خلافتها من الندم والخسارة . وإن طالت مدة
الله بك، فإنه إنما يعلو لمن يلتبس مظاهره الججة عليه لتقع غيره بأهلها
على قدر إصرارهم واستحقاقهم . وقد رأيت إذ كارك وتبصيرك لما
رجوت أن يكون لما أكتب به اليك موقع منك ، فإن الصدق صدق
والباطل باطل؛ وإنما القول بمخارجه وأهله الذين يعنون به . ولم يعاملك
من عمال أمير المؤمنين أحد أنفع لك مني في مالك ودينك ونفسك، ولا
أحرص على انقاذك والانتياش لك^(١) من خطئك مني ، فبأى أول أو
آخر أو سلطة أو إمارة إقدامك يا نصر على أمير المؤمنين، تأخذ أمواله
وتتولى دونه ما ولاه الله، وتريد أن تبنيت آمننا مطمئنا أو وادعا ما كنا
أو هادئا، فو عالم السر والجر، لئن لم تكن للطاعة مراجعا وبها خانعا
لتستوبلن وخم العاقبة^(٢)، ثم لا بد أن بك قبل كل عمل؛ فإن قرون الشيطان
إذا لم تقطع كانت فتنة في الأرض وفسادا كبيرا، أما لا طأن بمن
معي من أنصار الدولة كواهل رعاع أصحابك ومن تأشب اليك^(٣) من
أداني البلدان وأقاصيها وأوباشها، ومن انضوى إلى حوزتك من خراب
الناس، ومن لفظه بلده ونفته وعشيرته لسوء موضعه فيهم ، وقد أعذر
من أنذر والسلام .

١٨ - وكتب محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والوائق

عن لسان الخليفة إلى أحد العمال

أما بعد فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأنكره ، ولا تخلو من
إحدى منزلتين ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة ولا يزيل لأمة ،

(١) انتياشه أنقذه (٢) لتجدن العاقبة وبيلة وخيمة (٣) التف بك

إما تقصير في عمك دماك للإخلال بالحزم والتفريط في الواجب ،
وإما مظاهره لأهل الفساد ومداهنة لأهل الريب ، وأية هاتين كانت
منك محلة النكربك وموجبة العقوبة عايك ؛ لولا ما يبقاك به أمير المؤمنين
من الأناة والنظرة والأخذ بالحجة ، والتقدم في الاعتذار والانداز ، وعلى
حسب ما أقلت من عظيم العثرة يجب اجتهادك في تلافى التقصير
والإضاعة والسلام .

١٩ - وكتب إلى إبراهيم بن العباس الصولي أيام مقامه بالأهواز

في تقصيره بنفسه يقول :

قله نظرك لنفسك حرمتك سناء المنزلة ، وإغفالك حظك حطك
عن الدرجة ، وجهلك بقدر النعمة أحل بك اليأس والنقمة ، حتى صرت
من قوة الأمل معتاضا شدة الوجمل ، ومن رجاء الغد متعوضا يأس
الأبد ، وركبت مطية المخافة بعد مجلس الامن والكرامة ، وصرت
معرضا للرحمة بعد ما اكتنفتك الغبطة ، وقد قال الشاعر :

إذا ما بدأت امرأ جاهلا ير فقصر عن جملة

ولم تره قابلا للجميل ولا عرف الفضل من أهله

فسمه الهوان فان الهوان دواء لذى الجهل من جهله

وقد فهمت كتابك وإغراقك وإطنابك ، وإضافة ما أضفت بتزويق
الكتب بالأقلام ، وفي كفاية الله غنى عنك يا إبراهيم وعوض منك وهو
حسبنا ونعم الوكيل .

٢٠ - وكتب إبراهيم بن العباس الصولي الى ذى نعمة يتوصل :

لا أزال « أبقاك الله » أسأل الكتاب اليك ، مرة أتوقف توقف

المخفف عنك من المثونة، ومرة أكتب . كتاب الراجع منك الى الثقة
والمعتمد منك على المقييل ، لا أعدمنا الله دوام عزك ولا سلب الدنيا
بهجتها بك ولا أخلانا من الصنع لك ، فانا لا نعرف الانعمتك ولا نجد
للحياة طعما إلا في ذلك ، ولئن كانت الرغبة الى بشر من الناس خسارة
وذلا ، لقد جعل الله الرغبة اليك كرامة وعزا لأنك لا تعرف حرا
قعد به دهره إلا سبقت مسأله بالعطية ، وصنت وجهه عن
الطلب والذلة .

٢١ . وكتب أبو عثمان عمرو الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ إمام الطريقة
الكتابية في العصر العباسي الثاني «طريقة الازدواج» من رسالة في مدح
التجار ودم عمل السلطان ، بعد أن ذكر احتجاج حشوة الأتباع يقول :
وهذا الكلام لا يزال ينجم من حشوة أتباع السلطان^(١) فأما عليتهم
ومصاصهم^(٢) وذوو البصائر والتميز منهم ، ومن فيقته الفطنة وأرهقه
التأديب وأرهفه طول التفكير ، وجرى فيه الحياء ، وأحكمته التجارب
فعرف العواقب ، وأحكمت التفصيل وأنطق غوامض التحصيل ، فأنهم
يعترفون بفضيلة التجار ويتمنون حالهم ويحكون لهم بسلامة الدين
وطيب الطعمة ، ويعلمون أنهم أروع الناس أبدا وأهنؤم عيشا وآمنم
سربا ، لأنهم في أفئدتهم كالمملوك على أسرتهم ؛ يرغب اليهم أهل الحاجات
ويتزع اليهم ملتهم والبياعات^(٣) ، لا تلحقهم الذلة في مكاسبهم ؛ ولا يستعبدهم
الضرع لمعاملاتهم ، وليس هكذا من لابس السلطان بنفسه وقاربه
بخدمته ، فإن أولئك لباسهم الذلة ، وشعارهم الملق ، وقلوبهم ممن هم لهم خول

(١) توابع البطانة (٢) مصاص كل شيء خالصه (٣) الملع

مملوءة قد لبسها الرعب وألفها الذل ، وصحبها ترقب الاحتياج فهم من هذا في تكدير وتنغيص خوفا من سطوة الرئيس وتنكيل الصاحب وتغيير الدول واعتراض حلول المحن فان هي حلت بهم وكثيرا ما تحمل فناهيك بهم مرحومين يرق لهم الاعداء فضلا عن الأولياء ، فكيف لا يميز بين من هذا ثمرة اختياره وغاية تحصيله وبين من قد نال الوفاء عنه والدعة وسلم من البوائق مع كثرة الاثراء وقضاء اللذات من غير منة لأحد ولا منة يعتد بها ، وكم بين من هو من نعم المفضلين خلى وبين من قد استرقه المعروف واستعبده الطمع ولزمه ثقل الصنعة وطوق عنقه الامتتان واسترهن بتحمل الشكر .

٢٢ - ومن كلامه يصف الكتاب

الكتاب - نعم الذخر والعقدة ونعم الجليس والعمدة ونعم النشرة والنزهة ونعم المشتغل والحرفة ونعم الانيس ساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربية ونعم القرين والدخيل والزميل ونعم الوزير والنزيل . والكتاب وعاء مليء عامما وظرف حشى ظرفا وإنما شجن مزاحا ، إن شئت كان أعيانا من باقل وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل وإن شئت مرتك نواذره وشجنتك مواعظه . ومن لك بواعظ مله وبناسك فانتك وناطق أخرس : ومن لك بطبيب أعرابي ورومي هندي وفارسي يوناني ونديم مولد ونجيب ممتع ومن لك بشيء يجمع الأول والآخِر والناقص والوافر والشاهد والغائب والرفيع والوضيع والبغث والسمين والشكل وخلافه والجنس وضده . وبعد فما رأيت بستانا يحمل في ردن وروضة تنقل في حجر وناطقا ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء ، ومن لك

بمؤنس لا ينام الا بنومك ولا ينطق الا بنا تهوى ، آمن من في الأرض
وأكرم للسر من صاحب السر، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة .
ولا أعلم جارا آمن، ولا خليطا أنصف ، ولا رفيقا أطوع ، ولا معلما
أخضع، ولا صاحبا أظهر كفاية وعناية، ولا أقل إملالا ولا إبراما، ولا أبعد
من مرء ولا أترك لشغب، ولا أزهد في جدال ولا أكف عن قتال
من كتاب ، ولا أعم بيانا ولا أحسن موثقة، ولا أعجل مكافأة ولا شجرة
أطول عمرا ولا أطيب ثمرا، ولا أفرب مجتنى ولا أسرع إدراكا، ولا أوجد
في كل إبان من كتاب ، ولا أعلم نتاجا في حدائة سنه وقرب ميلاده ورخص
ثمنه وامكان وجوده ، يجمع من السير العجيبة والعلوم الغريبة وآثار
العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة، ومن الحكيم الرفيعة والمذاهب
القديمة والتجارب الحكيمة والأخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة
والامثال السائرة والأهم البائدة ما يجمعه كتاب . ومن لك بزائر إن
شئت كانت زيارته غبا، وورد، خمسا، وإن شئت لزمك لزوم ظلك وكان
منك كبعضك . والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك والصديق الذي
لا يقلبك، والرفيق الذي لا يملك والمستمتع الذي لا يستزيدك والجار
الذي لا يستبطنك والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالمق
ولا يعاملك بالمكر ولا يخذعك بالنفاق ، والكتاب هو الذي إن نظرت
فيه أطال إمتاعك وشهد طباعك وبسط لسانك وجود بيانك ونخم
ألفاظك وبحبح نفسك وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام وصدقة
الملوك ، يطيعك بالليل طاعته بالنهار وفي السفر طاعته في الحضر، وهو
المعلم إن افتقرت اليه لم يحقرك، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة،

وإن عزات لم يدع طاعتك وإن هبت ريح أعدائك لم ينقلب عليك ومتى كنت متعلقاً منه بأدنى حبل لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء، وإن أمثل ما يقطع به الفراغ نهارهم وأصحاب الكفايات مساطت ليلهم نظر في كتاب لا يزال لهم فيه ازدياد في تجربة، وعقل ومروءة وصون عرض وإصلاح دين وتتمير مال وربّ صنيعه^(١) وابتداء إنعام، ولو لم يكن من فضله عليك واحسانه اليك إلا منعه لك من الجلوس على بابك والنظر إلى المارة بك^(٢) مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم، ومن فضول النظر وملابسة صغار الناس، ومن حضور ألقاظهم الساقطة ومعانيمهم الفاسدة وأخلاقهم الرديّة وجهالتهم المذمومة لكان في ذلك السلامة والغنيمة، وإحراز الأصل مع استفادة الفرع، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يشغلك عن سخر المنى واعتياد الراحة وعن اللعب وكل ما تشتهييه، لقد كان له في ذلك على صاحبه أسبغ النعم وأعظم المنن، وجملة الكتاب وإن كثرت ورقه فليس مما يميل لأنه وإن كان كتاباً واحداً فإنه كتب كثيرة في خطابه والعلم بالشريعة والأحكام والمعرفة بالسياسة والتدبير.

٢٣ - ومن كلامه في محاسن الضحك ومنافعه وقد ساقه إليه الاستطراد في مقدمة كتابه البخلاء.

وإذا كان البكاء مادام صاحبه فيه فإنه في بلاء، وربما أعمى البصر وأفسد الدماغ، ودل على السخف وقضى على صاحبه بالهلع، وشبهه بالأمّة

(١) رب الصنيعه تربيتها . (٢) المارة جماعة المارين

اللكم (١) وبالحدث الضرع (٢) كذلك ؛ فما ظنك بالضحك الذي لا يزال صاحبه في غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه ؛ ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك وقبيحا من المضحك لما قيل للزهرة والخبرة والحلي والقصر كأنه يضحك ضحكا ، وقد قال الله جل ذكره « وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمت وأحيا » فوضع الضحك بمخاء الحياة ووضع البكاء بمخاء الموت ، وإنه لا يضيف إلى نفسه القبيح ولا يمن على خلقه بالنقص ، وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما ومن مصلحة الطباع كيرا وهو شيء في أصل الطباع وفي أساس التركيب ؛ لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي وقد تطيب به نفسه وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذي هو علة سروره ومادة قوته ، ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمى أولادها بالضحاك وببسام وبطاق وبطليق . وقد ضحك النبي صلى الله عليه وسلم وفرح وضحك الصالحون وفرحوا ، وإذا مدحوا قالوا هو ضحك السن وبسام العشيات وهش إلى الضيف وذو أريحية واهتزاز ، وإذا ذموا قالوا هو عبوس وهو كالح وهو قطوب وهو شتيم الحيا (٣) وهو مكفر أبدا وهو كرية الوجه ومقبض الوجه وحامض الوجه وكأنا وجهه بالخل منضوح . وللضحك موضع وله مقدار وللمزح موضع وله مقدار ؛ متى جازها أحد أو قصر عنهما أحد ؛ صار الفاضل خطأ والتقصير نقصا ، فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر ؛ ولم يعيبوا المزح إلا بقدر ؛ ومتى أريد بالمزح النفع وبالضحك الشيء الذي جعل له الضحك ؛ صار المزح جدا والضحك وقارا .

(١) اللثيمة الجماء (٢) المستكين (٣) كرية الوجه .

٢٤ - وكتب إلى الفتح بن خاقان في يوم عيد مهنتنا:
أخرتني العلة عن الوزير «أعزه الله»، فحضرت بالدعاء في كتابي لينوب
عني ويعمر ما أخلته العوائق مني، وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العبد
أعظم الأعياد السالفة بركة على الوزير. ودون الأعياد المستقبلية فيما يحب
ويحب له، ويقبل ما توسل به إلى مرضاته، ويضاعف الاحسان إليه على
الاحسان منه، ويمتعه بصحبة النعمة ولباس العافية، ولا يره في مسرة
نقصا ولا يقطع عنه مزيدا، ويجعاني من كل سوء فداءه، ويصرف عيون
الغير عنه وعن حظي منه.

٢٥ - وكتب إلى قليب المغربي معاتبا:

والله يا قليب لولا أن كبدي في هواك مقروحة، وروحي بك
مجروحة، لساجلتك هذه القطيعة وما ددتك حبل المصارمة، وأرجو الله
تعالى أن يدل صبري من جفائك، فيردك إلى مودتي وأنف القلي راغم،
فقد طال العهد بالاجتماع حتى كدنا نتناكر عند اللقاء.

٢٦ - وكتب مستنجزا عدة طال مطالها

أما بعد فقد رسفنا في قيود مواعيدك، وطال مقامنا في سجون
مطلك، فأطلقنا أبقاك الله من ضيقها وشديد غمها، بنعم منك مثمرة
أو لا مريحه.

٢٧ - وكتب الحسن بن وهب المتوفى سنة ٢٦٥ في الشكر:

من شكرك على درجة رفعته اليها أو ثروة أفدته إياها، فان شكرك
لك على مهجة أحييتها وحشاشة أبقيتها ورمق أمسكت به وقت بين
التلف وبينه، فلكل نعمة من نعم الدنيا حد تنتهي إليه، ومدى يوقف

عنده، وغاية من الشكر يسمو اليها الطرف ، خلا هذه النعمة التي قد
فاقت الوصف وأطالت الشكر وتجاوزت قدره وأنت من وراء كل
غاية ، رددت عنا كيد العدو وأرغمت أنف الحسود ، فنحن نلجأ منك إلى
ظل ظليل وكنف كريم ، فكيف يشكر الشاكر ، وأين يبالغ جهد المجتهد .

٢٨- وكتب أبو الحسن علي بن العباس الرومي المتوفى سنة ٢٨٢م مستعظفا

ترفع عن ظلمي إن كنت بريئا، وتفضل بالعفو إن كنت مسيئا،
ووالله إنى لأطاب عفو ذنب لم أجنه ، وألتس إلاقلة مما لا أعرفه ، لتزداد
تطولا وأزداد تذلا ، وأنا أعيد حالى عندك بكرمك من واش يكيدها
وأحرصها بوفائك من باغ يحاول إفسادها ، وأسأل الله تعالى أن يجعل
حظى منك بقدر ودى لك ، ومحلى من رجائك بحيت أستحق منك .

٢٩ - وكتب عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ إلى عايل يرجو شفاءه :

أذن الله فى شفائك ، وتلقى داءك بدوائك ، ومسح بيد العافية عليك
ووجه وفد السلامة إليك ، وجعل علتك ماحية لذنوبك مضاعفة لتوابك
٣٠ - وله يذكر كيف يكون اكتساب المحامد واستيجاب الشرف :

لن تكسب « أعزك الله » المحامد وتستوجب الشرف إلا بالحمل على
النفس والحال ، والنهوض بحمل الأثقال ، وبذل الجاه والمال . ولو كانت المكارم
تنال بغير مئونة لا شراك فيها السفلى والأحرار ، وتساهمها الوضعاء من
ذوى الأخطار ، ولكن الله تعالى خص بها الكرماء الذين جعلهم أهلها
نخفف عليهم حملها وسوغهم فضلها ، وحظرها على السفلة لصغر أقدارهم
عنها وبعد طباعهم منها ونفورها عنهم واقشعرارها منهم .

٣١ - وكتب أبو الفضل محمد بن العميد المتوفى سنة ٣٦٠م إمام الطريقة

الكتابية في العصر العباسي الثالث «السيج» إلى عضد الدولة في انقراض العلوم بتملك الجبهة الظالمين ونماؤها بتملك العلماء العادلين ، رسالة كان من فصولها قوله

وقد يعد أهل التحصيل في أسباب انقراض العلوم وانقباض مددها وانتقاض مررها^(١) والأحوال الداعية إلى ارتفاع جبل الموجود منها وعدم الزيادة فيها ، الطوفان بالنار والماء ، والموتان العارض من عموم الأوباء ، وتسليط المخالفين في المذاهب والآراء ، فإن كل ذلك يحترم العلوم اختراما وينتهكها انتهاكا ويجتث أصولها اجتثاثا ، وليس عندي الخطب في جميع ذلك يقارب ما يولده نسلط ملك جاهل تطول مدته وتتسع قدرته ، فإن البلاء به لا يعد له بلاء . وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفتها ، والبلوى بمن هذه صورتها ، تعظم النعمة في تملك سلطان عالم عادل كالأمير الجليل الذي أحله الله من الفضائل بملتقى طرفها ومجتمع فرقها ، وهي نور^(٢) نوافر بمن لاقت حتى تصير إليه . وشرذ نوازع حيث حات حتى تقع عليه ، تتلفت إليه تلفت الواثق ، وتتشوف نحوه تشوف الصب العاشق ، وقد ملكتها وحشة المضاع وحيرة المرتاع .

فان تغش قوما بعده أو تزدهم فكالوحش يدنيها من الأنس المحل
٣٢ - وكتب عن ركن الدولة إلى بلكا بن ونداد خورشيد ، عند استعصائه عليه ، رسالة قامت في رد غوايته مقام الكتاب يقول فيها على ما ذكر الثعالبي في اليتيمه :

كتابي وأنا مترجح بين طمع فيك ويأس منك وإقبال عليك

(١) جمع مرة وهي قوة الحبل وانتقاضها فكها (٢) جمع نوار وهي البقرة الوحشية

وإعراض عنك، فإنك تدلى بسابق حرمة، وتمت بسالف خدمة، أيسرهما
يوجب رطابة، ويقتضى محافظة وعناية، ثم تشفعها بحادث غلول^(١)
وخيانة، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية، وأدنى ذلك يحبط أعمالك
ويحقق كل مايرعى لك، لاجرم انى وقفت بين ميل إليك وميل عاك،
أقدم رجلا لصندمك وأؤخر أخرى عن قصدك، وأبسطيدا لاصطلامك
واجتياحك، وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك، وأتوقف عن امتثال
بعض الأمور فيك ضنابا للنعمة عندك، ومنافسة فى الصنيفة لديك وتأميلا
لفيئتك وانصرافك، ورجاء لمر اجعتك وانعطافك . فقد يغرب العقل ثم
يثوب، ويعزب اللب ثم يثوب ويذهب الحزم ثم يعود ويفسد العزم ثم
يصلح، ويضاع الرأى ثم يستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء
ثم يصفو، وكل ضنيقة إلى رخاء وكل غمرة فالى انجلاء . وكما أتيت من
إساءتك بمالم يحتسبه أولياؤك، فلا بدع أن تأتي من إحسانك بمالاتر تقبه
أعداؤك، وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ماركبت واخترت
ما اخترت، فلا عجب أن تتنبه انقباهة تبصر، فيها قببح ما صنعت وسوء
ما آثرت، وسأقيم على رسمى فى الابطاء والمماطة ما صالح وعلى الاستيناء^(٢)
والمضاولة ما أمكن، طمعا فى إنابتك وتحكيما لحسن الظن فيك، فلست
أعدم فيما أظاهرة من إعدار وأرادفه من إنذار، احتجاجا عليك
واس تدراجا لك، فان يشأ الله يرشدك ويأخذ بك إلى حظك ويسددك،
فانه على كل شىء قدير وبالاجابة جدير

وزعمت أنك فى طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها، وإذا

كنت كذلك فقا. عرفت حالها وحلبت مشطريها ، فشدتلك الله ما صدقت
عما سألتك . كيف وجدت ما نزلت عنه؟ وكيف تجد ما صرت إليه ؟
ألم تكن من الأول ، في ظل ظليل ونسيم عليل وريح بليل وهواء ندى
وماء روى ومهاد وطى وكن كنين ومكان مكين وحصن حصين ، يقيك
المتالف ويؤمنك المخاوف ، ويكففك من نوائب الزمان ، ويحفظك من
طوارق الحدثان ، عززت به بعد الذلة وكثرت بعد القلة وارتفعت بعد
الضعة وأيسرت بعد العسرة وأثريت بعد المتربة واتسعت بعد الضيقة ،
وظفرت بالولايات وخفقت فوقك الرايات ووطىء عقبك الرجال وتعلقت
بك الآمال وصرت تكاثر ويكثر بك وتشير ويشار إليك وبذكر على
المنابر اسمك وفي المحاضر ذكرك ، فقيم الآن أنت من الأمر وما العوض
عما عدوت والخلف مما وصفت ، وما استفدت حين أخرجت من الطاعة
نفسك ونقضت منها كفك وغمست في خلافها يدك ؟ وما الذى أظلك
بعد انحسار ظلها عنك ؟ أظل ذو ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من
الذهب ؟ قل نعم كذلك فهو والله أكتف ظلالك فى العاجلة وأروحها فى
الآجلة إن أقمت على المحايدة والعنود ووقفت على المشاقة والجحود .
تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي إليك فسبتنكرها : والمس
جسدك وانظر هل يحس ، واجسس عرقك هل ينبض ، وفتش ما انحنت
عليه أضلاعك هل تجد فيه قلبك ؟ وهل حلا بصدرك أن تظفر بفوت
سريح أو موت مريح ثم قس غائب أمرك بشاهده وآخر شأنك بأوله .

٣٣ - وكتب الى أبي عبد الله الطبرى فى الشوق

كتابي اليك وأنا بحال لو لم ينغصمها الشوق اليك ولم يرنق صفوها

الزروع نحوك ، لعدتها من الأحوال الجميلة، وأعددت حظي منها في
النعم الجميلة . فقد جمعت فيها بين سلامة طامة ونعمة تامة ، وحظيت منها
في جسدي بضالاح وفي سعيي بنجاح . لكن ما بقى أن يصفو لي عيش مع
بعدي عنك ، ويخلو ذرعى مع خلوى منك ، ويسوغ لي مطعم ومشرب
مع انفرادى دونك ، وكيف أطمع في ذلك وأنت جزء من نفسى وناظم
لشمل أنسى وقد حرمت رؤيتك وعدمت مشاهدتك ، وهل تسكن
نفس متشعبة ذات انقسام ، وينفع أنس بيت بلا نظام . وقد قرأت
كتابك جعلني الله فداءك فامتلات سرورا بملاحظة خطك ، وتأمل
تصرفك في لفظك . وما أقرظهما فكل خصالات مقرظ عندي وما أمدحهما
فكل أمرك ممدوح في ضميري وعقدى ، وأرجو أن تكون حقيقة
أمرك موافقة لتقديرى فيك فان كان كذلك وإلا فقد « غطى هواك
وما ألقى على بصرى »

٣٥ - وكتب إليه أبو القاسم اسماعيل بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥
الملقب بالصاحب لطول مباحبه ، جوابا عن كتابه إليه في وصف
البحر يقول .

وصل كتاب الأستاذ الرئيس صادرا عن شط البحر بوصف
ما شاهد من عجائبه . وطاب من مراكبه ، ورأى من طاعة آلاته للرياح
كيف أدارتها واستجابة أدواتها لها متى نادتها . وركوب الناس أشباحها
والخوف برأى ومسمع والمنون بمرقب ومطلع ، والدهر بين أخذ وترك
والأرواح بين نجاة وهلاك ، إذا فكروا في المكاسب الخطيرة هان عليهم
الخطر وإذا لاحت لهم غرر المطالب الكثيرة حجب إليهم الغرر ، وعرفت

ما قاله من تمنييه كوني عند ذلك بحضرتيه وحصولي على مساعدته ؛ ومن رأى بحر الاستاذ كيف يزخر بالفضل وتتلاطم فيه أمواج الأدب والعلم لم يعتب على الدهر فيما يفيتته من منظر البحر ، ولا فضيلة له عندي أعظم من إكبار الاستاذ لأحواله واستعظامه لأهواله ، كما لا شيء أبلى في مناخره وأنفس في جواهره من وصف الاستاذ له ، فاني قرأت منه الماء السلسال لا الزلال^(١) والسحر الحرام لا الحلال ، وقد علمت أنه كتب ولما يخطر بفكر سعة صدره ، ولو فعل ذلك لرأى البحر وشلا لا يفضل عن التبرض وتمد الايكتر عن الترشف^(١)

وكم من جبال جبت تشهد أنك الجبال وبحر شاهد أنك البحر
٣٥ - وكتب الى صديق أهدي إليه مصحفا فأجاد . نعت
القرآن والخط .

البر «أدام الله الشيخ» أنواع تطول به أبواع ، فان يكن فيهما هو
أكرم منصبا وأشرف منسبا ، فتحفة الشيخ ، إذ أهدي ما لا يشاكه
النعيم ولا تعادله القيم ، كتاب الله وبيانه وكلامه وفرقانه ووحيه وتنزيله
وهداه وسبيله ومعجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودليله طبع دون
معارضته على الشفاء وختم على الخواطر والافواه فقصر عنه الثقلان
وبقى ما بقي الملوان . لأتح سراجيه واضح منهاجه منير دليله عميق نأويله

(١) الزلال الصافي السهل الاساغة ، والسلسال الصافي الذي لا ينقطع فهو

يريد أنه قرأ السلسال لا الزلال وحده (٢) الوشل الماء القليل ، ولا يفضل عن
التبرض لا يزيد عن أن ينقطع بعد قليل أخذ ، والتمد الماء القليل غير المتصل ،
ولا يكثر عن الترشف لا يزيد عن أن يتناول بالافواه .

يقصم كل شيطان مرید، ويذل كل جبار عنيد، وفضائل القرآن لا تحصى
في ألف قرآن . فأصف الخط الذي بهر الطرف وفاق الوصف ، وجمع
صحة الاقسام وزاد في نخوة الاقلام،^(١) بل أصفه بترك الوصف، فأخباره
آثاره وعينه قراره^(٢) وحقاً أقول إنى لأحسب أحداً ما خلا الملوك جمع
من المصاحف ما جمعت، وابتدع في استكتابها ما ابتدعت ، وإن هذا
المصحف لزائد على جميعها زيادة الفرعة على الغرة^(٣) ، بل زيادة الحج
على العمره

لقد أهديته علقاً نفيساً وما يهدى النفيس سوى النفيس

٣١ - وكتب إبراهيم بن هلال بن هرون الصابي المتوفى سنة ٣٨٤

إلى صاحب يعتذر له عن تأخر كتبه عنه، ويثني عليه فقال :

أنا أعتذر إلى سيدي «أطال الله بقاءه» من تأخر كتبي عن حضرته
الجليلة ، بعذر اذا تأمله حق تأمله، وعرضه على نقده وتميزه، وعرف صدق
منطقه وخلوص مصدره ، علم أننى مواصل بباطن مرادى وإن صرمت
بظاهر فعلى ، وملازم بخافى مقصدى وإن أخلت ببادى مسلكى، وهو
أننى جربت مكاتبته «أيده الله» مواظبا عليها مكباً، ومرأخياً بين أوقاتها
مغنياً، لا أتبع أحب الامرين اليه وأوقعهما لديه . فلما لاح لى أن الاجام
أنفق والترفيه أرفق ، ووثقت بأن رأيه على فى الحالين محروس النواحي
والجوانب محى الشرائع والمشارب ، اقتصرت على أن أتعرف أخباره
وأسر باستقامتها وانتظامها ، وأتسم أحواله وأسكن إلى اطرادها

(١) فى نحرها (٢) أى ومعاونته قرار له بما أقول (٣) يريد زيادة الذؤابة

والتنامها وابتهج بما يصير اليه «أيده الله» من ذروة مرتبة يعتليها وغارب
مرقبة يمتطيها، وأنا أول المتحدثين عنهما والسامعين بهما على أنه
لم يستوف بعد حظه، ولم يستوعب قسطه فأن للديار ما أعيد فيه لا بد
أن ينتجزها بمساعيه.

٣٧- ومن كتاب له عن عضد الدولة الى أخيه مؤيد الدولة إذ
قبض على ذى الكفايتين على بن محمد بن العميد وكان أبوه صدر وزراء
أبيهما ركن الدولة يستشفع له :

وهذا غلام أفسدته سجية ركن الدولة الشريفة في شدة الاحتمال
والصبر على الأذلال، واجتمع له الى ذلك، التقلب في نعمة حازها حياز
وارث لها، لم يكدر في تأثيلها ولا مسه النصب في تثيرها ولا اهتدى
إلى طريق استيفائها ولا تحزن من طرق دواعي انتقالها، ومن أزم
اللازم في حكم الرماية، أن نحفظه من سكر نعمة نحن سقيناه بكأسها
وأن نعذره عن هفوة قد شاركناه في إيجاد أسبابها، وأن تكون نفسه
محروسة، والبقية من ماله بعد أخذ فضلها المفسد له متروكة وأن يتحدث
الناس بأن سيدي الأمير أصاب غرض الحزم في القبض عليه ثم طبق
مفصل الكرم في التجاوز عنه.

٣٨- وكتب رسالة عن لسان صديق له بعث بها مع رسول إلى
عظيم يخطب اليه كريمة جاء فيها:

ولو لم يكن للخاطب إلى المخطوب سبب غير ابتدائه إياه بالثقة
والتماس المشابكة ورضاه به شريكا مفوضا في الولد واللحمة والمال والنعمة،
لكفاه وأجزاه وأغناه عن كل ماسواه، حتى إنه لو خطب الى زاهد

لوجب عليه أن يرغب أو إلى معتاص^(١) للزمه أن ينقاد ، لأن هذا المطلب إذا صدر عن الأحرار إلى الأحرار استهجن عنه الرد والمقابلة له بضد فكيف وقد انتظمت بيننا دواعي الأجابة وارتفعت دواعي المدافعة؟ وبالله جهد المقسم، إن والدي «أيدها الله» تعالى يسوماني التأهل منذ - نين كثيرة ، فأحمل نفسي على التقاعس عما آثره مع ما افترض علي من طاعتها . اشتطاطا مني في شرائط أحببت أن تجتمع لي في الخبيثة^(٢) التي أوصلها ، وقلمما تتكامل إلا فيمن طهر الله أصله وجعل أمره وأظهر فضله . وقد دعاني بالدعاء الى ذلك كثير من الرؤساء الأ' كابر وذوى الأخطار الأفاضل ، بفارس والبصرة وبغداد ، فامتنعت من أجل شذوذ بعض شرائط عليهم . حتى إذا أوجدنيها الله في جهتك الجليلة وجمعها إلى في منازل المصونة ، بعثتني البواعث وحفزتني الحوافز إلى أن يتألف بيننا الشمل ويتصل بنا الحبل فكتبت اليك هذه الرقعة خاطبا كريمتك فلانة ، علي أن أكون لها كالجنف الواقي لمقلته والصدر الحاوي لمهجته ، ولك كالولد المطيع لأبيه ، ولأخيها كالأخ العاصد لأخيه ، فان رأيت ياسيدي أن تتأمل ما كتبت به من هذه الجملة ونسمع من موصلها ما تحمله عني من تفصيلها وتتوخى بأجابتي إلى ما سألت تحقيق ظني وتصديق أملي ، فعلت إن شاء الله

٣٩ - وكتب أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣

بعد إبلاله^(٣) من مرض ، يعاتب صديقا لم يعده في مرضه ولم يهنئه بشفاؤه كتابي وقد خرجت من البلاء خروج السيف من الجلاء وبرز

(١) حاص ممتنع (٢) الخبوءة (٣) شفاؤه

البدر من الظالماء ، وقد فارقتني المحنة وهي مفارق لا يشتاقي اليه وودعتني وهي مودع لا يبكي عليه ، والحمد لله تعالى على محنة بجليها ونعمة ينيها ويوليها . كنت أتوقع أمس كتاب سيدي بالتسليية واليوم بالتهنئة . فلم يكاتبني في أيام البرحاء بأنها غمته ولا في أيام الرخاء بأنها سرته ، وقد اعتذرت عنه إلى نفسي وجادلت عنه قلبي ، فقامت : أما إخلاله بالأولى فلا زه شغله الاهتمام بها عن الكلام فيها ، وأما تغافله عن الأخرى فلا نه أحب أن يوفر على مرتبة السابق إلى الابتداء ويقتصر بنفسه على محل الاقتداء ، لتكون نعم الله تعالى موقوفة من كل جهة عليه ومحفوفة من كل بيئة به ، فان كنت أحسنت الاعتذار عن سيدي فليعرف لي حق الاحسان وليكتب إلي بالاستحسان ، وإن كنت أسأت فايخبرني بعذره فانه أعرف مني بسره ولا يرض مني بأنني حاربت عنه قلبي واعتذرت عن ذنبه حتى كأنه ذنبي ، وقلت يانفس اعذري أخاك وخذي منه ما أعطاك ، فمع اليوم غد والعود أحمد

٤٠ - وكتب إلى تهنيذ له قطع زيارته بعد أن أتم تخريجه :

إن كنت « أعزك الله » لا ترانا موضعاً للزيارة فنحن في موضع الاستزارة ؛ وإن كنت تعتقد أنك قد استوفيت ما كان لدينا فسقط حقنا عنك وبقى حَقُّك علينا ، فقد يزور الصحيح الطبيب بعد خروجه من دائه واستغناؤه عن دوائه ، وقد تجتاز الرعية على باب الأمير المعزول فتتجمل له ولا تعيره عزله ، ولو لم تزرنا إلا لترينار جحانك كما طالمارأينا نقصانك ، لكان ذلك فعلاً صائباً وفي القياس واجباً .

٤١ - وكتب بديع الزمان أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمداني

المتوفى سنة ٣٩٨ إمام القصص « مع اجادة الرسائل » في العصر الثالث إلى صديق هنأه بمرض الخوارزمي الذي عاداه بعد مناظرته إياه يقول:-
الحر «أطال الله بقاءه» ولا سيما إذا عرف الدهر معرفتي ووصف أحواله صفتي ، إذا نظر علم أن نعم الدهر مادامت معدومة فهي أماني فأن وجدت فهي عواري ، وأن محن الزمان وان طالست فستنفد وإن لم تصب فكان قد ، فكيف يشمت بالحننة من لا يأمنها في نفسه ولا يعدمها في جنسه ، والشامت إن أفلت فليس يفوت وإن لم يموت فسوف يموت ، وما أقبح الشماتة بمن أمن الامانة فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة وعقب كل لفظة ، والدهر غرثان طعمه الأختيار وظمان شربه الأحرار^(١) وهل يشمت المبرء بأنياب آكله أو يسر القاتل بسلاح قاتله وهذا الفاضل «شفاه الله» وان ظاهرنا بالعداوة قليلا فقد باطنا ودا جيلا ، والحر عند الحمية لا يصطاد ولكنه عند الكرم ينتقاد وعند الشدائد تذهب الأحقاد ، فلا تتصور حالي إلا بصورتها من التوجع لعنته والتحزن لمرضته ، وقاه الله المكروه بحوله ووقاني بسماع السوء فيه بلطفه ، والسلام عليك ورحمة الله .

٤٢ - وكتب إلى بعض إخوانه . وقد أخبره بموت أبيه يعزيه

ويحذره التبذير والتقتير .

وصلت رقعتك ياسيدي والمصاب لعمر الله كبير وأنت بالجزع جدير ولكنك بالعزاء أجدر ، والصبر عن الأجابة وشد كأنه الغي وقد مات الميت فايحى الحى ، والآن فاشدد على مالك بالخمس فأنت اليوم

(١) الطعم بالكسر ما يطعم ، والشرب كمثل ما يشرب .

خيرك بالأمس، قد كان ذلك الشيخ «رحمه الله» وكيفك تضحك ويبكي لك،
وقد مولك بما ألف في سراه وسيره، وخلفك فقيرا إلى الله غنيا عن غيره.
وسيعجم الشيطان عودك فان استلانه رماك يقوم يقولون خير
المال ما أتلف بين الشراب والشباب وأنفق بين الحباب والأحباب^(١)
والعيش بين الأقداح والقداح^(٢)، ولولا الاستعمال لما أريد المال، فان
أطعتهم فاليوم في الشراب وغدا في الخراب، واليوم واظربا للكاس
وغدا واحر با من الافلاس. يامولاي، ذلك الخارج من العود يسميه
الجاهل نقرا والعاقل فقرا وذلك المسموع في الناي هو الآن في الأذان
زمر وغدا في الأبواب سمر^(٣) والعمر مع هذه الآلات ساعة والقنطار
في هذا العمل بضاعة. فان لم يجد الشيطان معمزا في عودك من هذا
الوجه رماك بأخرين يمثلون الفقر حذاء عينيك، فتجاهد قلبك وتحاسب
بطنك وتناقش عرسك وتمنع نفسك وتبوء في دنياك بوزرك وتراه
في الآخرة في ميزان غيرك لا. ولكن قصدا بين الطريقتين وميلا عن
الفريقتين لا منع ولا اسراف فالبخل فقر حاضر وضير عاجل وإنما يبخل
المرء خيفة ما هو فيه فليكن لله في مالك قسط وللمروءة قسم. صل
الرحم ما استطعت، وقدر اذا قطعت، فلأن تكون في جانب التقدير
خير لك من أن تكون في جانب التبذير.

٤٣ — وكتب أبو منصور عبد الملك التعالي المتوفى سنة ٤٢٩

(١) الحباب بالفتح فقايع الخمر، والأحباب الأصحاب (٢) الأقداح جمع
قدح بالتحريك وهي الكأس، والقداح جمع قدح بكسر فسكون وهو السم
الهدير والعيد والأول المراد (٣) المصادرة استيفاء للديون

يهنيء بقدم من سفر :

أهنيء سيدي ونفسي تطيب بما يسر الله من قدومه سالما ، وأشكر
الله على ذلك شكرا دائما . جعل الله قدومك مقرونا بالخبرة التامة العامة ،
والكفاية الشاملة الكاملة ، غيبة المكارم مقرنه بغيبتك وأوبة النعم موصولة
بأوبتك ، فوصل الله قدومك من الكرامة بأضعاف ، باقرن به سفرك
من السلامة ، وهناك بآياك وبلغك غاية محابك . مازات بالنبأ معك
مسافرا وباتصال الذكر والفكر ملاقيا . إلى أن جمع شمل سروري
بأوبتك وسكن فرند قلبي بعودتك .

٤٤ - وكتب أبو محمد القاسم بن علي الحريري المتوفى سنة ٥١٦ هـ
إمام الطريقة الكتابية في العصر العباسي الرابع « استخدام البديع »
إلى الرئيس أبي الفتح هبة الله بن الفضل بن صاعد بن التلميذ الكاتب
في التعارف قبل اللقاء : -

جزى الله خيرا والجزاء بكفه بنى صاعد أهل السيادة والمجد
هم ذكروني والممامة بيننسا كما ارفض غيث في تهامة في نجد
لو أخذت في وصف شغفي بمناقب سيدنا « أطال الله بقاءه ، وأدام
علاءه ، وحرس نعماءه ، وكبت حساده وأعداءه » ، وما أنا بصدده من
مدح سودده ، وشرح تطوله وتودده ، لكنني بمنابة المغترين في محاولة
عذرمل يبرين . لكنني راج أن أحظى من ألمعته الثاقبة وبصيرته الصائبة .
بما يمثل له عقيدتي ويطلعه على نخيله مودتي ، وبما أملك في مقابلة مفاخرته
التي أخلصت له إيجاب الحق وفضيلة السبق إلا الثناء الذي أتلو صحائفه
والثناء الذي أقيم في كل وقت وظائفه والله سبحانه يحسن توفيقي لما

يشيد مباني المودة التي أعتدها أفضل مقاني العدة . ثم إنى لفرط اللهبج
بامتلاء فضائله النيرة، واستطلاع محاسنه المسيرة، أسائل عن خصائصه
الركبان وأطرب بسماءها ولا طرب النشوان . ولما حضر الشيخ
الأديب الرئيس أبو القاسم بن الموز «أدام الله تمكينه» ألقىته مواليا
مغاليا وداعية إليه وداعيا فازددت كفا بما وعيته منه وشغفا بما استوضحته
عنه، واستدللت على كمال سيدنا بامتداده بخلص شكر مثله وتحققت وفور
أفضاله وفضله ، فافتتحت المكتبة بتأدية هذه الشهادة، واستمداد سنة
المواصلات المعتادة والتكرمة التي تقتضيها بواعث السيادة ، ولرأيه في
الوقوف على ما كتبتة والتطاول فيه بما توجهه أريحتة علوه ، إن شاء
الله تعالى .

٤٥ - وكتب رشيد الدين الوطواط المتوفى سنة ٥٧٣ في التهنية

بالقدوم من سفر .

بلغنى إياب سيدى زانه الله بصنوف المعالى وصانه من صروف
الليالى، من سفرته الميمونة التي أسفرت عن نيل المراد وتسهيل البغية
إلى دار إقامته ومستقر كرامته ، لم يؤثر فيه نصب السير وعناؤه وكلال
السفر ووعثاؤه ، فبلغ سرورى بذلك مبلغا يضاهى ما كنت بصدده
من الجزع لغيبته، فحمدت الله تعالى على ما يسر له من الرجوع إلى مغانيه
والطلوع على بلدة جر فيها ذبول أمانيه ، وسألته جللت قدرته أن يجعل
ما أنعم به عليه من قرب الدار ودنو المزار، موصولا بطول العمر والبقاء
مقرونا بدوام العز والعلاء، إنه سميع الدعاء .

٤٦ - وكتب القاضى الفاضل أبو على عبد الرحيم بن على المتوفى سنة ٥٩٦ وهو الذى أفرط فى استخدام البديع فرسم طريقة التكلف المنسوبة إليه ، عن العاصد آخر خلفاء الفاطميين إلى أحد الملوك فى شأن كتاب أنفذه إليه فلم يجب عنه .

كتابنا «أطال الله بقاء الملك» عن مودة طاهرة الأسباب، متظاهرة الأنساب، صافية جلاب الشباب ، وعوائد عوارف لا يتنكر معروفها ووفود فوائد لا يتصدع تأليفها ومساعى مساعد لا ينقص معروفها ، ولا ينفذ مسوقها^(١) ، وسعادة بالخلافة التى عدق إليها أمرها^(٢) وأوضح سرها وملا سرائرها وسريرها، وأطلع شمسها وقرها . بمولانا وسيدنا أمير المؤمنين تتوالى ميامنها وتتلالا محاسنها^(٣) وتشرف درجاتها وتتضاعف سعادتها، والكلمة قائمة على أصولها وأمور الخلق جارية على أهولها ، ونظام الاسلام بسياستها لا يهيب ، ومسياقة الدوام فى سعادتها لا تنتهى ، والله الموزع شكر هذه المنن ، المسئول فى الانهاض المناهضة فيه النية وقصرت عنه المنن^(٤) . ولم نزل «أدام الله إقبال الملك المعظم» معظمين لأمره، عارفين نبيل قدره وجليل نخره مشيدين بحميد ذكره وجزيل نصره ، معيدين لما تهادى الالسن من مستطاب نشره، قارئين من صفحات الأيام ما أمدها به من بشره غير مستيمنين لذكر اسمه الكريم إلا بصيامه وشكره ، موردين مما هو يبلغه من بارع ضرائبه^(٥) بالمقامات الشريفة من آثار سلفه ومآثرهم، ومأثور مكارمهم ومفاخرهم،

(١) لا ينثر مشمومها (٢) عدق جمع من باب ضرب (٣) مخفف تتلألا

(٤) المنن الأولى بالكسر النعم والمنن بالضم القوى (٥) مناقبه

واستناد المكرمات إلى أولهم وآخرهم ، ومشهور ذبهم عن الملة ودفاعهم
عن أهل القبلة ، وسدادهم في الأمور وسدادهم الثغور ^(١) وسيادتهم
الجمهور ، واستقلالهم بالمشقات المتقدمة ، وإخادهم نيران الخطوب
المضطربة ، وكفهم سيول السيوف العرمة ، وموالاتهم أمور الدولة
العلوية التي اشتهر بها منهم الأكارب ، وورثها كبار عن كبار ، وحافظوا منها
على سيرة معروف لا ينسخ ، وعقد صفاء لا يفسخ . وسريرة صدق تستقر
في الضائر وترسخ ، وتتوضح بها غرة في جباه السبق وتشدخ ^(٢) ،
وتستمدى عند إيراد هذا الذكر العطر والثناء المشتهر ، من الدعوات
الشريفة العاضدية المعضودة بالنجح ، المتوضحة عن مثل فلق الضبح ،
ما يتهلل لساعيه باليامن المستهلة ، ولراميه بالاصابة المتصلة ؛ بينه وبين
هذه الدولة العالية ، والخلافة الحالية ، بكتاب منه نهجنا فيه طريقها
اللاحب ^(٣) واستدعيننا به إجابته التي تتلقى بالمراحب ، وأعلمناه أن
تمامي الأيام دون المراسلة وتطاولها ؛ وتنقل الأحوال والدول وتناقها ،
لا يزيد مودته إلا استحكماً معاقداً ، وانتظام عقائده ، ووفاء مواعده ، وصفاء
موارد ، وأنه لا تباعد بين القلوب بغرض المرمى المتباعد ، ولا تفرق
المسافات القواصي ما بين النيات القواصد ، فلما تأخرت الإجابة تقدمت
الاستجابة ، وتناجت الظنون المعتلجة ^(٤) وتراجعت الآراء المختلجة ^(٥) بأن
الرسول طاقته دون المقصد عوائق ، وتقسمته من الأحداث دون الطريق
طرائق ، فلم ترد المكاتبة إلى جنابه ، ولا أسعد السعنى بطروق جنابه ، الذي تبال

(١) السداد بالفتح الاصابة وبالكسر الكفاية (٢) تنتشر سفلًا (٣) الواضح

(٤) المضطربة (٥) المضطربة

السعادة ونجني به . وإلا فلو أنه أم له ، بلغ ما أمله ، ولو وصله لأجاب عما أوصله ، لأن مكارم خلائقه تبعث على التبرع بالمسنون فكيف بقضاء المفروض ، وشرائف طرائقه تأتي للحقوق الواجبة أن تقف لديه وقف المطرح المرفوض ، فجددنا هذه المكتبة مشتملة على ذلك المراد ، وفاوضناه بما يعيره الاصغاء ويجنبه الالغاء ، ويحسن له الانصات ولا يحتاج فيه إلى الوصاة ، ورسمنا أن يكتبه حتى عن لسانه ، وأن يطويه حتى عن جناحه ، وأن يتمسك بالأمر النبوي في استعانته على أمره بكمائه ، فمن حسن الحزم سوء الظن ، وهل لأرباب الأسرار فرج إلا مادامت في السجن ، وقد استلزمنا المرتين لما استعظمنا الرهن ، وفوضنا إلى من لا يعترينا فيه الوهم ولا منه الوهن ، ونحن تحببنا بما يعلم به حسن موقع رسالة الامترسال ، وبما يبين به عن دلالة الادلال ، وبما يرحب بمودته مجال الجمال ، والله سبحانه يؤيد الملك بنصر تستخدم له الاقدار ، وسعادة لا تتصرف في تصرفها أحكام الفلك المدار ، وإقبال يقابل آراءه وآدابه في فاتحة الورد وعاقبة الاصدار ، وعز لا يزال منه متوقلاً^(١) في درجات الاقتدار ، إن شاء الله تعالى .

٤٧ - وكتب ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن الأثير الموصلی

المتوفى سنة ٦٣٧ إلى عراقى حديث العهد بعداقته يستهديه رطباً فقال

هذه المكتبة ناطقة بلسان الشوق الذى ترف كلمة زفيف الأوراق^(٢)

وتسجع سجع ذوات الاطواق . وتهتف وهى مقيمة بالموصل فتسمع من

هو مقيم بالعراق ، وأبرح الشوق ما كان عن فراق غير بعيد ، وود

(١) صاعداً (٢) تسرع في صوت

استجدت حالته واللذة مقترنه بكل شيء جديد، وأرجو ألا يبلى قدم الأيام لهذه الجدة لباسا، وأن يعاذ من نظرة الجن والانس حتى لا يخشى جنة ولا ناسا، وقد قيل إن للموده طعما كما أن لها وسما، وإن ذا اللب يصادق نفسا قبل أن يصادق جسما. وإني لأجد لموده سيدنا حلاوة يستلذ دوامها ولا يمل استطعامها. وقد أذكرتني الآن بحلاوة الرطب الذي هو من أرضها، وغير عجيب لمناسبة الاشياء أن يذكر بعضها ببعضها، إلا أن هذه الحلاوة تنال بالأفواه وتلك تنال بالاسرار، وفارق بين ما يغترس بالأرض وما يغترس بالقلب في شرف الثمار، فلا ينظر سيدنا على في هذا التمثيل، فربما كان ذلك ترويضاً ينوب مناب التطفيل.

ب - في القصص والمقامات ^(١)

سنكتفي في هذا النوع من الانشاء بنموذج من كل عصر لا مام الكتابة فيه .

١ - قال ابن المقفع في باب عرضه كتاب كيلة ودمنة وهو

من إنشائه :

ويجب على العاقل أن يصدق بالقضاء والقدر، ويأخذ بالحزم ويجب للناس ما يجب لنفسه، ولا يلتمس صلاح نفسه بفساد غيره فإنه من فعل ذلك، كان خليقا أن يصيبه ما أصاب التاجر من رفيقه فإنه يقال:

إنه كان رجل قاجر وكان له شريك فاستأجرا حائوتا وجعلا متاعهما فيه، وكان أحدهما قريب المنزل من الحائوت، فأضمر في

(١) إنمآنتقلنا إلى نماذج القصص والمقامات دون تمثيل للترقيعات، لأن إيجاز

نماذجها حسن إلينا تركها إلى حيث الكلام عليها ؛

نفسه أن يسرق عدلا من أعدل رفيقه، ومكر الحيلة في ذلك، وقال إن أتيت ليلا لم آمن أن أحمل عدلا من أعدالي أو وزمة من رزمي ولا أعرفها فيذهب عنائي وتعبى باطلا، فأخذ رداءه وألقاه على العدل الذي أضمر أخذه ثم انصرف إلى منزله، وجاء رفيقه بعد ذلك ليصلح أعداله فوجد رداء شريكه على بعض أعداله فقال والله هذا رداء صاحبي، ولا أحسبه إلا قد نسيه، وما الرأي أن أدعه هاهنا ولكن أجعله على رزمه فلعله يسبقتني إلى الخانوت فيجده حيث يجب، ثم أخذ الرداء فألقاه على عدل من أعدل رفيقه وأقفل الخانوت ومضى إلى منزله، فلما جاء الليل أتى رفيقه ومعه رجل قد واطأه على ماعزم عليه، وضمن له جملا على جملة، فصار إلى الخانوت فالتس الأزار في الظلمة فوجده على العدل فاحتمل ذلك العدل وأخرجه هو والرجل وجعلا يتراوحان على جملة حتى أتى منزله ورمى نفسه تعباً، فلما أصبح افتقده فاذا هو بعض أعداله فندم أشد الندامة، ثم انطلق نحو الخانوت فوجد شريكه قد سبقه إليه ففتح الخانوت ووجد العدل مفقوداً، فاعتم لذلك غمماً شديداً وقال واسوأ آتاه من رفيق صالح قد ائتمنى على ماله وخلفني فيه، ماذا يكون حالي عنده ولست أشك في تهمة إياي، ولكني قد وطنت نفسي على غرامته ثم أتى صاحبه فوجده صاحبه مغتماً فسأله عن حاله فقال: إني قد افتقدت الأعدال وفقدت عدلا من أعدالك ولا أعلم بسببه وإني لأشك في تهمة إياي وإني قد وطنت نفسي على غرامته. فقال له يا أخي لا تغتم فان الحياة شر بعملة الانسان والمكر والخديعة لا يؤديان إلى خير وصاحبهما مغرور أبداً وما عاد وبال البغي إلا على صاحبه، وأنا أخدم من مكر وخدع واحتمال،

فقال له صاحبه وكيف كان ذلك؟ فأخبره بمخبره وقص عليه قصته. فقال له رفيقه: مامثلك إلا مثل اللص والتاجر، فقال له وكيف كان ذلك؟ قال: زعموا أن تاجرا كان له في منزله خايتان إحداهما مملوءة حنطة والأخرى مملوءة ذهباً، فترقبه بعض اللصوص زماناً حتى إذا كان بعض الأيام تشاغل التاجر عن المنزل فتغفله اللص ودخل المنزل وكن في بعض نواحيه، فلما هم بأخذ الخاوية التي فيها الدنانير أخذ التي فيها الحنطة وظنها التي فيها الذهب، ولم يزل في كد وتعب حتى أتى بها منزله، فلما فتحها وعلم ما فيها ندم. فقال له الخائن: ما أبعدت المثل ولا تجاوزت القياس، وقد اعترفت بذنبي وخطئي عليك، وعزيز علي أن يكون هذا كهذا، غير أن النفس الرديئة تأمر بالفحشاء، فقبل الرجل معذرتة وأضرب عن توبيخه وعن الثقة به. وندم هو عندما عين من سوء فعله وتقديم جهله

٢ - وقال الجاحظ من قصة أهل البصرة عن المسجدين في كتابه البخلاء:

قال أصحابنا من المسجدين: اجتمع ناس في المسجد ممن ينتحل الاقتصاد في النفقة والتنمية للمال من أصحاب الجمع والمنع، وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذي يجمع على التحاب، وكالحلف الذي يجمع على التناصر وكانوا إذا التقوا في حلقتهم تذاكروا هذا الباب وتطارحوه وتدارسوه التماساً للفائدة واستماتاً بذكره.

فقال شيخ منهم: ماء بئرنا كما قد علمتم ملح أجاج لا يقربه الحمار ولا تسيفه الأبل وتموت عليه النخل، والنهر منا بعيد وفي تكلف العذب علينا مثوثة، فكنا نمزج منه للحمار فاعتل منه وانتفض عيننا من أجله،

فصرنا بعد ذلك نسقيه العذب صرفا وكنت أنا والنعجة^(١) كثيرا ماغتسل بالعذب مخافة أن يعتري جلودنا من الملح مثل ما اعتري جوف الحمار، فكان ذلك الماء العذب الصافي يذهب باطلا، ثم انفتح لي فيه باب من الاصلاح، فعمدت إلى المتوضأ فجعلت في ناحية منه حفرة وصهرجتها^(٢) وماستها حتى صارت كأنها صخرة منقورة، وصوبت إليها السيل، فنحن الآن إذا اغتسلنا صار الماء إليها صافيا لم يخالطه شيء والحمار لا تقزر له من ماء الجنابة، وليس علينا حرج في سقيه منه، وما علمنا أن كتابا حرمه ولا سنة نهت عنه، فربحنا هذه منذ أيام وأسقطنا مئونة عن النفس والمال وهذا بتوفيق الله ومنه .

فأقبل عليهم شيخ فقال: اشتكيت أياما صدرى من سعال كان أصابني، فأمرني قوم بالفانيد السكري^(٣)، وأشار على آخرون بالحريرة تتخذ من الشاهنج والسكر ودهن اللوز^(٤) وأشباه ذلك؛ فاستنقلت المئونة وكرهت الكلفة، فبينما أنا أدافع الأيام إذ قال لي بعض الموقنين: عليك بماء النخالة فاحسه حارا، فحسوت فاذا هو طيب جدا وإذا هو يعصم فما جعت ولا اشتبهت الغداء في ذلك اليوم إلى الظهر ثم ما فرغت من غدائي وغسل يدي حتى قاربت العصر، فلما قرب وقت غدائي من وقت عشائي طويت العشاء وعرفت قصدي، فقلت للعجوز لم لا تطبخين لعيالنا في كل غداة نخالة فان ماءها جلاء للصدور، وقوتها غذاء وعصمة

(١) يعني زوجته (٢) كصرجتها طليتها بالصاروج وهو النورة وأخلطها

(٣) دهرج بانيد لضرب من الحلوى (٤) الحريرة دقيق يطبخ بلبن أو دسم

وبحلي، والشاهنج دقيق البر.

ثم تجففين بعد النخالة فتعود كما كانت فتبييعينها بمثل الثمن الاول وتكون قد ربحتنا فضل ما بين الحالين . قالت أرجو أن يكون الله قد جمع بهذا السعال مصالح كثيرة لما فتح الله لك بهذه النخالة التي فيها صلاح بدنيك وصلاح معاشك وما أشك أن تلك المشورة كانت من التوفيق .

ثم اندفع شيخ منهم فقال . لم أرفى وضع الامور مواضعها وفي توفيتها غاية حقوقها كعادة العنبرية : قالوا وما شأن معاذة هذه ؟ قال أهدى إليها العام ابن عم لها أضححية^(١) فرأيتها كشيبة حزينة مفكرة مطرقة فقلت لها مالك يا معاذة ؟ قالت أنا امرأة أرملة وليس لي قيم ولا عهد لي بتدبير لحم الأضاحي وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه ويقومون بحقه وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة واست أعرف وضع جميع أجزائها في أما كنها وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا في غيرها شيئاً لا منفعة فيه ، ولكن المرء يعجز لا محالة ، واست أخاف من تضييع القليل إلا أنه يجر تضييع الكثير . أما القرن فالوجه فيه معروف وهو أن يجعل كالخطاف ويسمر في جذع من جذوع السقف فيتعلق عليه الزبل والكيران وكل ما خيف عليه من الفأر والنمل والسنانير وبنات وردان والحيات وغير ذلك . وأما المصران فإنه لا وتار المندفة^(٢) وبنالي ذلك أعظم الحاجة . وأما قحف الرأس واللحيان وسائر العظام فسبيله أن يكسر بعد أن يعرق^(٤) ثم يطبخ فما ارتفع من الدسم كان المصباح

(١) شاه للتضححية (٢) الزبل ككتب جمع زبيل وهو القفة أو الجراب أو

الوعاء والكيران جمع كير وهو زق ينفخ فيه الحداد (٣) المصران جمع مصير

وهو المعى والمندفة آلة تدف القطن (٤) يؤكل ما عليه من اللحم

والأدام والعصيدة ولغير ذلك، ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها فلم ير
الناس وقودا قط أصفى ولا أحسن لها منه وإذا كانت كذلك فهي
أسرع في القدر لقلّة ما يخالطها من الدخان . وأما الأهاب فالجلد نفسه
جراب وللصوف وجوه لا تدفع . وأما الفرت والبعر فخطب إذا جفف
عجيب . ثم قالت بقى الآن الانتفاع بالدم وقد علمت أن الله عز وجل
لم يحرم من الدم المسفوح إلا أكله وشربه وأن له مواضع يجوز فيها
ولا يمنع منها ، وإن أنا لم أقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع
به صار كية في قلبى وقذى في عيني وهما لا يزال يعاودنى « قال الشيخ »
ثم لم ألبث أن رأيتها قد تطلقت وتبسمت فقلت ينبغى أن يكون قد
انفتح لك باب الرأى فى الدم قالت أجل ذكرت أن عندى قدورا
شامية جددا وقد زعموا أنه ليس شىء أدبغ لها ولا أزيد فى قوتها من
التلطبخ بالدم الحار الدسم ، وقد استرحت الآن إذ وقع كل شىء موقعه ،
قال ثم لقيتها بعد ستة أشهر فقلت لها كيف كان قديد تلك الشاة ^(١)
قالت بأبى أنت لم يجىء وقت القديد بعد ، لنا فى الشحم والألية ^(٢) والعظم
المعرق وغير ذلك معاش ولكل شىء إبان . فقبض صاحب الحمار والماء
العذب قبضة من حصا ثم ضرب بها الأرض وقال ، لاتعلم أنك من
السرفين حتى تسمع بأخبار الصالحين .

٣ - المقامة الأسدية للبديع .

حدثنا عيسى بن هشام قال كان يبلغنى من مقامات الاسكندى
ومقالاته ما يصغى إليه النفور وينتفض له العصفور ، ويروى لنا من شعره

(١) لحمها المحفف (٢) ماركب العجز من شحم ولحم

ما يترج بأجزاء النفس رقة ويغمض عن أوهام الكهنة دقة ، وأنا أسأل
الله بقاءه حتى أرزق لقاءه وأتعجب من قعوده بمحالته مع حسن آله^(١)
وقد ضرب الدهر شثونه بأسداد دونه وهلم جرا إلى أن اتفقت لي
حاجة بحمص فشجذت إليها الحرص في صحبه أفراد كنجوم الليل
أحلاس لظهور الخيل^(٢) ، وأخذنا الطريق ننتهب مسافته ونستأصل
شأفته ولم نزل نفرى أسنمة النجاد بتلك الجياد حتى صرن كالعصى ورجعن
كالقسي وتاح لنا واد في سفح جبل ذى آلاء وأثل^(٣) كالعداري يسرحن
الصفائر وينشرن الغدائر ومالت المهاجرة بنا إليهما ونزلنا نغور ونغور^(٤)
وربطنا الأفراس بالأمراس وملنا مع النعاس فما راعنا إلا صهيل الخيل
ونظرت إلى فرسى وقد أرهف أذنيه وطمح بعينيه يجذ قوى الجبل
بمشافره ويخذ خد الأرض بحوافره ، ثم اضطربت الخيل فأرسلت
الأبوال وقطعت الجبال وأخذت نحو الجبال وطار كل واحد منا إلى
سلاحه فاذا السبع في فروة الموت قد طلع من غابه منتفخا في إهابه
كاشرا عن أنيابه بطرف قدمي صلفا وأنف قد حشى أنفا وصدر
لا يبرحه القلب ولا يسكنه الرعب وقلنا خطب ملم وحادث مهم وتبادر
إليه من سرعان الرفقة فتى
أخضر الجلد في بيت العرب يملأ الدلو إلى عقد الكرب
بقلب ساقه قدر وسيف كله أثر^(٥) وملكته سورة الأسد نخانته

(١) استعداده فيما يزاول (٢) جمع حلس بالكسر وهو الملازم (٣) شجران

قالآء الصنفاف والأثل الطرفاء (٤) نغور بالتضعيف نهبط ونغور ننام في

النور (٥) قدر الرجل مكانته وأثر السيف على وزنه فرنده وجوهه

أرض قدمه حتى سقط ليده وفه وتجاوز الأمد مصرعه إلى من كان معه ودعا الحين أخاه بمثل مادعاه فصار إليه وعقل الرعب يديه فأخذ أرضه واقترش الليث صدره واكنى رميته بعامتى وشغلت فه حتى حقتت دمه وقام الفتى فوجاً بطنه^(١) وقد هلك الفتى من خوفه والأسد للوجاة في جوفه ونهضنا في أثر الخيل فتألفنا منها ما ثبت وتركنامنها ما أفلت وعدنا إلى الرفيق لنجهزه

فلما حثونا الترب^(٢) فوق رفيقتنا جزعنا ولكن أى ساعة مجزع وعمدنا إلى الفلاة وهبطنا أرضها وسرنا حتى إذا ضمرت المزاد ونفذ الزاد أو كاد يدركه النفاذ ولم نملك الذهب ولا الرجوع وخفنا القاتلين الظماً والجوع ، عن لنا فارس فصمدنا صمده وقصدنا قصده ولما بلغنا نزل عن حر فرسه ينقش الأرض بشفتيه وياتى التراب يديه وعمدنى من بين الجماعة فقبل ركابى وتحرم بجنايى ونظرت فاذا هو وجه يبرق برق العارض المتهلل وقوام متى ترق العين فيه تسهل وطارض قد اخضر وشارب قد طر وساعد ملآن وقضيب ريان ونجار^(٣) تركى وزى ملكى ، فقلنا مالك لأبالك فقال أنا عبد بعض الملوك هم من قتلى بهم فهمت على وجهى حيث ترانى ، وشهدت شواهد حاله على صدق مقاله ثم قال أنا اليوم عبدك ومالى مالك فقامت بشرى لك وبك أذاك سيرك إلى فناء رحب وعيش رطب ، وهنأتنى الجماعة وجعل ينظر فتقتلنا الحاظه وينطق فتفتننا أفاظه ، فقال ياسادة إن فى سفح الجبل عينا وقد ركبت فلاة عوراء فخذوا من هنالك الماء فلوينا الأعنة إلى حيث أشار وبلغناه

(١) وجأشق (٢) أهلناه (٣) أصل

وقد صهرت الهاجرة الأبدان وركبت الجنادب العيدان^(١) فقال ألا
تقبلون في هذا الظل الرحب على هذا الماء العذب فقلنا أنت وذاك فنزل
عن فرسه وجلى منطقته^(٢) ونحى قرطقته^(٣) فما استتر عنا إلا بغلالة
ثم على بدنه فما شككنا أنه خاصم الولدان فقارق الجنان وهرب من
رضوان ، وعمد إلى السروج فخطها و إلى الأفراس فحشها^(٤) وإلى الأمكنة
فرشها وقد حارت البصائر فيه ووقفت الأَبصار عليه ، فقلت يا فتى
ما أطفك في الخدمة وأحسنك في الجملة فالويل لمن فارقت وطوبى لمن
رافقت فكيف شكر الله على النعمة بك ، فقال ما سترونه منى أكثر
أعجبكم خفتي في الخدمة وحسني في الجملة فكيف لو رأيتموني في الرفقة
أريكم من حذق طرفا لآزدادوا بي شغفا فقلنا هات فعمد إلى قوس أحدنا
فأوتره وفوق سهمها^(٥) فرماه في السماء وأتبعه بأخر فشقه في الهواء ،
وقال سأريكم نوعا آخر ثم عمد إلى كنانتي فأخذها وإلى فرسى فعلاه
وزمى أحدنا بسهم أثبتته في صدره وآخر طيره من ظهره فقلت ويحك
ما تصنع قال امسكت بالكع والله ليشدن كل منكم يد رفيقه أو لأغصنه
بريقه فلم ندر ما نصنع وأفراسنا مربوطة وسروجنا محطوطة وأسلحتنا
بعيدة وهو راكب ونحن رجاله والقوس في يده يرشق بها الظهور^(٦)
ويمشق بها البطون والصدور^(٧) وحين رأينا الجد أخذنا القد^(٨) فشد
بعضنا بعضا وبقيت وحدي لأجد من يشد يدي فقال اخرج باها بك

(١) الجنادب جمع جنذب وهو نوع من الجراد يفرح للحر ولكن الرمضاء

قد تشتد عليه فيصعد منها العيدان (٢) حزامه (٣) قباهه (٤) ربطها

(٥) وضعه في الفوق ليرميه (٦) يثبتها فيها (٧) يمزقها (٨) الجلد والمير

عن ثيابك فخرجت ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منا بعد الآخر ويتزع ثيابه وصرار إلى وعلى خنجان جديدان فقال اخلعهما لأأم لك فقلت هذا خف لبسته رطبا فليس يمكنتي نزعه فقال على خلعته ثم دنا إلى لينزع الخف ومددت يدي إلى سكين كان معي وهو في شغله فأثبتته في بطنه وأثبتته من متنه فما زاد على فم فغره وألقمه حجرة وقت إلى أصحابي فخلت أيديهم وتوزعنا سلب القتيلين وأدركنا الرفيق وقد جاد بنفسه وصرار لرمسه وصرنا إلى الطريق ووردنا حص بعد ليال خمس فلما انتهينا إلى فرضة من سوقها^(١) رأينا رجلا قد قام على رأس ابن وبنية بجراب وعصية وهو يقول :

رحم الله من حشا في جرابي مكارمه
رحم الله من رنا لسعيد وفاطمه
إنه خادم لسكم وهى لاشك خادمه

قال عيسى بن هشام فقلت إن هذا الرجل هو الاسكندري الذي سمعت به وسألت عنه فاذا هو هو فدللت اليه^(٢) وقلت احتمكم حكيمك فقال درهم فقلت

لك درهم في مثله ما دام يسعدني النفس^(٣)
فاحسب حسابك والتس كما أنيل الملتمس

وقلت له، درهم في اثنين في ثلاثة في أربعة في خمسة حتى انتهيت إلى العشرين، ثم قلت لعلامي كم معك قال عشرون رغيفا فأمرت له بها وقلت، لا نصر مع الخذلان ولا حيله مع الحرمان .

(١) طريق منه (٢) أمرعت (٣) أي حتى ينتهي النفس الواحد

٤ - المقامة السنجارية للحريري^(١)

حدث الحارث بن همام قال . قفلت ذات مرة من الشام أنحو
مدينة السلام ، في ركب من بني نمير ورفقة أولى خير ومير ، ومعنا
أبو زيد السروجي^(٢) عقلة العجلان^(٣) وسلاوة الشكلان وأعجوبة الزمان
والمشار اليه بالبنان في البيان ، فصادف نزولنا سنجار أن أولم بها أحد التجار
فدعا إلى مأدبته الجفلي^(٤) من أهل الحضارة والفلا ، حتى سرت دعوته
إلى القافلة وجمع فيها بين الفريضة والنافلة فلما أجبنا مناديه وحملنا نأديه
أحضر من أطعمة اليد واليدين^(٥) ما حلا بالفم وحلى بالعين ثم قدم
جاما^(٦) كأنما جمد من الهواء أو جمع من الهباء أو صيغ من نور الفضاء
أو قشر من الدرة البيضاء ، وقد أودع لفائف^(٧) النعيم وضمخ بالطيب
العميم وسيق اليه شرب من تسنيم^(٨) وسفر عن مرأى ومسيم وأرج
نسيم . فلما اضطربت بمحضرة الشهوات وقرمت^(٩) إلى مخبره اللهوات
وشارف أن تشن علي سر به الغارات وينادي عند نهبه بالثارات ، نشز
أبو زيد كالمجنون وتباعد عنه تباعد الضب من النون^(١٠) ، فراودناه على أن
يعود وألا يكون كقदार^(١١) في ثمود ، فقال والذي ينشر الاموات من
الرجام لاعدت دون رفع الجمام فلم نجد بدا من تألفه وإبرار حلفه ،

(١) سنجار بلدة مشهورة بعراق المعجم (٢) سروج بلدة قرب حران

(٣) محبس المتعجل (٤) الدعوة العامة (٥) أي مما يقطع بيد ومما لا يقطع الا بيدين .

(٦) ظرفا من زجاج (٧) جمع لفيقه مالف من الحلوى (٨) عين بالجنة (٩) نهمت

(١٠) النون الحوت والضب أشد الحيوان تبديا (١١) طقر ناقة صالح

فأشلهناه^(١) والعقول معه شائلة والدموع عليه سائلة ، فلما فاء إلى مجتمه
وخاص من مائمه سأله لم قام ولأى معنى استرفع الجلام؟ فقال إن الزجاج
تمام وإني آليت مذ أعوام ألا يضمني ونمو ما مقام فقلنا له وما يمينك
الصرى^(٢) وأليتك الحرى؟ فقال :

إنه كان لى جار لسانه يتقرب وقلبه عقرب ، ولفظه شهد ينقع
وخبوؤه سم منقع ، فملت لمجاورته إلى محاورته واغتررت بمكاشرته^(٣) فى
معاشرته واستهوتنى خضرة دمنته لمنادمته وأغرتنى سمته بمناسمته ،^(٤)
فمازجته وعندى أنه جار مكسر^(٥) فبان أنه عقاب كاسرو أنسته على أنه
حب موانس فظهر أنه حباب^(٦) موالس، ومالحته ولا أعلم أنه عند نقده
ممن يفرح بفقده، وطاقرته ولم أدر أنه بعد فره ممن يطرب لفره، وكانت
عندى جارية لا يوجد لها فى الجمال مجارية ، إن سفرت خجل النيران
وصليت القلوب بالنيران وإن بسمت أذرت بالجمان^(٧) ويبيع المرجان بالمجان،
وإن رنت هيجب البلابل^(٨) وحققت سحر بابل وإن نطقت عقلت لب
العاقل واستنزلت العصم من العاقل وإن قرأت شفقت المفتود^(٩) وأحيت
الموءود وخلتها أوتيت من مزامير آل داود، وإن غنت ظل معبد لها عبدا
وقبل سحقا لا سحوق وبعدا وإن زمرت أضحى زنام^(١٠) عندها زنا بعد
أن كان لجياها زعيما وبالاطراب زعيما، وإن رقصت أمالت العمام عن الرؤوس
وأنستك رقص الحبيب فى الكشوس، فكنت أزدرى معها حمر النعيم وأحلى

(١) رفعناه (٢) المصر عليها بعزم (٣) بسبب تبسمه (٤) بمحادثته

(٥) ملازم لكسر البيت (٦) ثعبان (٧) اللؤلؤ (٨) الوسوس والمهموم

(٩) المصاب فى فؤاده (١٠) زامر المتوكل

بتعليها جيد النوم، وأحجب مرآها عن الشمس والقمر وأذود ذكرها عن
شرائع^(١) السمير، وأنا مع ذلك أليح^(٢) من أن تسرى برياها ريح
أو يكهن بها سطيح أو ينم عنها برق مابيح، فاتفق لوشك الحظ المبخوس
ونكد الطالع المنحوس؛ أن أنطقني بوصفها حميا المدام عند الجار النمام،
ثم تاب الفهم بعد أن صرد السهم^(٣) فأحسست الخبال والوبال وضيعة
ما أودع ذلك الغربال، بيد أنى عاهدته على عكم ما لفظته وأن يحفظ السر
ولو أحفظته، فزعم أنه يخزن الأسرار كما يخزن اللثيم الدينار وأنه لا يهتك
الأستار ولو عرض لأن يلج النار، فما إن غبر على ذلك الزمان إلا يوم
أو يومان حتى بدا لا مبر تلك المدرة، وواليها ذى المقدرة أن يقصد باب
قبيله مجددا عرض خيله ومستمطرا عارض نيله، وارتاد أن تصحبه تحفة
تلائم هواه ليقدما بين يدي نجواده، وجعل يبذل الجعائل لرواده ويسنى
المرائب لمن يظفره به راده، فأسف ذلك الجار الختار إلى بذوله وعصى في
أدراع العار عدل عدوله، فأتى الوالى ناشر أذنيه وأبته ما كنت أسرته
إليه، فأراعني إلا انسياب صاغيته^(٤) إلى وائثيال حفدته^(٥) على تسومنى
إيثاره بالدرة اليتيمة على أن أتحمم عليه فى القيمة؛ فغشيتنى من الهم
ماغشى فرعون وجنوده من اليم، ولم أزل أدافع عنها ولا يغنى الدفاع
وأستشفع إليه ولا يجدى الاستشفاع، وكلما رأى منى ازديادا الاعتياص^(٦)
وارتياد المناص تجرم وتخفرم وحررق على الأرم^(٧)، ونقسى مع ذلك

(١) موارد (٢) أشفق (٣) خرج من القوس (٤) حاشيته (٥) الحفدة

هنا الخدم والآتباع (٦) الامتناع (٧) الأضراس

لا تسمح بمفارقة بدرى، ولا بأن تنزع قلبي من صدرى، حتى آل الوعيد
إيقاعا والتفريع قراطا، فقادنى الاشفاق من الحين إلى أن قضته سواد
العين بصفرة العين^(١) ولم يحظ الواشى بغير الاثم والشين، فعاهدت
الله تعالى منذ ذلك العهد، ألا أحاضر تماما من بعد، والزجاج مخصوص
بهذه الطباع الذميمة، وبه يضرب المثل في النسيمة، فقد جرى عليه سيل

يميني ولذلك السبب لم تمتد اليه يميني

فلا تعذلونى بعد ما قد شرحته على أن حرمتى في اقتطاف القطائف^(٢)
فقد بان عذرى في صنيعى ومانى سأرتق فتقى من تايدي وطارفى
على أن ما زودتكم من فكاها أذ من الحلوى لدى كل طرف
قال الحارث بن همام فقبلنا اعتذاره، وقبلنا عذاره، وقلنا له قدما وقذت
النسيمة^(٣) خير البشر حتى انتشر عن جمالة الخطب ما انتشر، ثم سألتناه
عما أحدث جاره القنات ودخله المفتات^(٤) بعد أن راش له نبيل السعاية
وجذم حبل الرماية، فقال أخذ فى الاستخذاء والاستكانة والاستشفاع إلى
بذوى المكانة، وكنت حرجت على نفسى ألا يسترجعه أنسى أو يرجع
إلى أمسى، فلم يكن له منى سوى الرد والاصرار على الصد وهو لا يكتب
من النجى^(٥) ولا يتنب^(٦) من وقاحة الوجه، بل يلط^(٧) بالوسائل ويلج
فى المسائل، فما أنقذنى من إبرامه ولا أبعد عليه نيل مرامه إلا آيات
نفت بها الصدر الموتور، والخاطر الميتور، فانها كانت مدحرة لشيطانه

(١) قضته بادلته والعين الأولى الباصرة والثانية الذهب (٢) تناول الفطائر

(٣) آلمت وأذت (٤) مخالطه الكذاب (٥) الردع والزجر (٦) لا يستحى

(٧) يلتصق

ومسجنة له في أوطانه، وعند انتشارها بت طلاق الحبور ودعا بالويل
والشبور ويثس من نشر وصلى المقبور كما يثس الكفار من أصحاب
القبور، فنادى أن ينشدنا إياها وينشقناريها؛ فقال أجل خلق الانسان
من عجل ثم أنشد لا يزويه^(١) خجل ولا يثنيه وجل

ونديم محضته صدق ودي	إذ توهمته صديقا حيا
ثم أوليته قطيعة قال	حين ألفتته صديدا حيا
خلتة قبل أن يجرب إلها	ذا ذمام فبات جلفا ذميا
وتخيرته كلما ^(٢) فأمسى	منه قلبي بما جناه كلما ^(٣)
وتظنيته معيننا رحيا	فتبينتته لعينا رجيا
وتراءيته مريدا ^(٤) فجلى	عنه سبكي له مريدا ^(٥) لثما
وتوسمت أن يهب نسيا	فأبى أن يهب إلا سموما
بت من لسعه الذي أعجز الرا	قي سليما ^(٦) وبات مني سليما ^(٧)
وبدا نهجه غداة افرقنا	مستقيما والجسم مني مستقيما
لم يكن رائعا ^(٨) خصيبا ولكن	كان بالشر رائعا ^(٩) لي خصيما
قلت لما بلوته ليته كا	ن عديما ولم يكن لي نديما
بغض الصبح حين نم إلى قاسي	لأن الصبح يلفي نومنا
ودعاني إلى هوى الليل إذ كا	ن سواد الدجى رقبيا كتوما
وكفى من يشى ولو فاه بالصد	ق أناما فيما أتاه ولو ما ^(١٠)

(١) لا يصرفه (٢) متكلما (٣) مكلوما (٤) بضم الميم محبا (٥) بفتح

الميم متمردا (٦) ملدوفا (٧) صحبيجا (٨) جميلا معجبا (٩) مخيفا

(١٠) مخفف لوم

قال فلما سمع رب البيت قريضه وسجعه واستملح تقريظه وسبعه^(١)
بوأه مهاد كرامته وصدره على تكرمته^(٢) ثم استحضر عشر صحاف من
الغرب^(٣) فيها حلواء القند والضرب^(٤) وقال له لا يستوى أصحاب النار
وأصحاب الجنة ولا يسمع أن يجعل البريء كذى الظنة، وهذه الآية
تنزل منزلة الأبرار في صون الأسرار، فلانوها إلا بعاد ولا تلحق هودا
بعاد، ثم أمر خادمه بنقلها إلى مثواه ليحكم فيها بما يهواه فأقبل علينا
أبو زيد وقال اقرأوا سورة الفتح وأبشروا باندمال القرح، فقد جبر الله
ثكلكم وسنى أكلكم وجمع في ظل الخلواء شملكم وعسى أن تكرهوا
شيئا وهو خير لكم، ولما هم بالانصراف مال إلى استهداء الصحاف فقال
للآدب إن من دلائل الظرف، سماحة المهدي بالظرف: فقال كلاهما لك
والغلام فاحذف الكلام وانهض بسلام، فوثب في الجواب وشكر شكر
الروض للصحاب، ثم اقتادنا أبو زيد إلى حوائه وحكمنافى حلوائه، وجعل
يقلب الاواني بيده وينض عددها على عدده^(٥) ثم قال لست أدري
أشكو ذلك النمام أم أشكر، وأتناسى فعلته التي فعلها أم أذكر، فانه وإن كان
أسلف الجريمة ونمى النيمة فمن غيمه انهمت هذه الديمة وبسيفه انحازت
لى هذه الغنيمة، وقد خطر ببالى أن ارجع الى أشبالي وأقنع بما تنسى لى وألا
أتعب نفسى ولا أجمالى، وأنا أودعكم وداع محافظ وأستودعكم خير حافظ
ثم استوى على راحلته راجعا فى حافرتة^(٦) ولاويا إلى زافرتة^(٧) فغادرنا
بعد أن وخذت عنسه وزايلنا أنسه، كدست غاب صدره أوليل أفل بدره.

(١) مدحه وذمه (٢) وسادته (٣) الفضة (٤) السكر والشهد

(٥) يفرقها على صحبه (٦) طريقه التي جاء منها (٧) ناكها إلى عشيرته

ثانيا - حياتها ١ - الرسائل

أساليبها ومميزاتها وطبقات رجالها

١ - في العصر الاول - ما كاد العصر الأموي يشارف منتهاه حتى تحولت كتابة الرسائل من ترسل طبيعي لا أثر للصناعة فيه الى ترسل صناعي أرسى أساسه سالم كاتب هشام بن عبد الملك وأعلى بناءه عبد الحميد صاحب ديوان مروان آخر خلفاء الأمويين ، وقد عرفت حيث وقع الكلام منا على الانشاء اذ ذاك أن عبد الحميد أظهر تلك الصناعة أكثر ما أظهر، في رسوم رسمها للمبادئ والخواتيم، وفي جولات بعيدة الاطراف بين طرفي القلة والاكثار، ثم تنويع الرسائل الاخوانية الى أنواع، وفي طرق أبواب لم تكن معروفة قبله للناس . غير أن صناعته هذه وقد جاءت آخر العصر لم تقض القضاء كله على الترسيل الطبيعي لدى جمهرة الناس فكان للكتابة حينئذ انك طابعان ورثهما العباسيون فيما ورثوا عن الأمويين. وإذ كان صدر العصر العباسي الاول إن هو إلا دفعة لطريقة عبد الحميد فان لنا أن نتوقع فيه تراجع الترسيل الطبيعي الى الوراثة واطراد الانشاء الصناعي الى الأمام حتى يعظم هذا ويقنى ذلك وهذا ما كان ، فلم نكد نلمح الاسلوب الفطري في كلام الخليفةتين الأولىين وأضربهما كما رأيت في الرسائل التي سقناها بين المنصور ومحمد بن عبد الله بجوار ما كان يصدر عن جماعة الكتاب حتى توارى بعدها واحتضنه التاريخ ولذا نجد عنه ونعتبر الكتابة منجاء العصر العباسي

صناعة حمل لواءها بعد عبد الحميد صديقه المخالط عبد الله بن المقفع واتبعه
فيما رسم الجميع ، وحق لذلك أن نخصه بكلمة لاغنى عنها في الموضوع .
نشأ ابن المقفع بالبصرة حيث كان والده يتولى خراج فارس لخالد
ابن عبد الله القسري والى العراق ، وهي حينئذ حلبة العربية ومجتمع
الرواة وقرارة المربد بحاظ الاسلام والحاضرة التي يفد اليها فصحاء
الأعراب ، والدولة إذ ذاك عربية محضة لا تستكتب فارسيا في الدواوين
العربية إلا إذا أجاد العربية كأهلها ، فدفع به أبوه وهو خير من يعرف
ذلك إلى تعلم العربية في هذه البيئة الغنية بها الصالحة لتنشئ الأحداث
عليها ، فحذق فنونها وتخرج في آدابها . وكان من حسن حظه وحظ العربية
معا أن كان ولاؤه وولاء أبيه في بيت خطابة ومعدن فصاحة هو بيت
الأهتم المنقري فكان في نشأته قرين خالد بن صفوان وابن عمه شبيب
ابن شينة وناهيك بهما فصاحة منطلق وذراية لسان . ولما تمت آتته في
العربية تمامها في الفارسية لغة آبائه وأجداده تطلع إلى التخرج في صناعة
الكتابة وكان عبد الحميد المذكور كاتب مروان بن محمد والى الجزيرة إذ ذاك ،
فتقرب عبد الله إليه تقرب الصديق الملازم وأخذ يتأثر كتابته ذات
الديباجة العربية والعقلية اليونانية ويحتذى فيه ذا النواحي المبتدعة
والطرائق المستحدثة ، ضاماً إلى ذلك ما أفاضته عليه لغته الفارسية حتى صار
كاتباً يجمع إلى بلاغة العرب حكمة اليونان وصناعة فارس فاستكتبه في
عصر بني أمية داود بن يزيد بن عمر بن هبيرة أيام ولاية أبيه العراق .
ولما دالت دولتهم استكتبه في زمن بني العباس عيسى بن علي والى كرمان
وعلى يديه أسلم وتسمى عبد الله وكان اسمه روزبة ، ومن بعد عيسى كتب

لأخيه سليمان أيام ولايته على البصرة وكان أبو جعفر المنصور لا يزال بالأخبار فاتصل به وترجم له كتاب كيلة ودمنة ونقل إلى العربية كثيرا من آداب الفرس وسياستها كما نقل إليها بعض كتب اليونان التي كان كسرى أنوشروان قد أمر بترجمتها إلى الفارسية فكانت صلة ثانية له بالعقلية اليونانية بعد تلك التي كانت له من عبد الحميد الذي عرف الكثير منها عن أستاذه سالم كاتب الخليفة هشام .

بهذا البيان المعتمد على قلب ناضج التفكير ولسان حسن التعبير زاول ابن المقفع الكتابة بأسلوب الترميل الذي كان لعبد الحميد ، وقصاره التعبير عن المعنى الجيد بالعبارة الواضحة الجزلة دون نظر إلى مزاجية أو سجع إلا ما جاء عفوا غير متعمد ولا مقصود والذي يبدو لنا من إبقاء ابن المقفع على هذا الأسلوب مع أنه فارسي الجنس واللغة ، ولغة فارس ذات عنايه بزخرفة الألفاظ وحبك الأساليب ، أنه فعل ذلك صارا عن أمرين . أحدهما دينه أن البلاغة كل البلاغة في شرف المعاني وسهولة الألفاظ مع رصانة القول ورشاقة الأسلوب ولذا كان يقول « عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة » ويقول « إياك والتتبع لو حشى الكلام طمعا في نيل البلاغة فان ذلك هو العيب الأكبر » ثم يقول وقد قيل له ما البلاغة ؟ « هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » يقصد أنها السهل المحتنع . وثانيهما توجيه همه في تغذية العربية بالفارسية إلى ناحية المعاني لا الألفاظ وللفرس في المعاني مجال ، فهم ذوو فلسفة أصيلة عرفت لهم كما عرفت للهنود وقد غنوها منذ القديم بالفلسفة الهندية التي ترجموها إلى لغتهم كما فعلوا في

كتاب كلية ودمنة ، وقبل أن ينقرض ملكهم نقلوا كثيرا من فلسفة اليونان . ولهذا كثر فيهم الحكماء الذين ينطقون بالحكم عن علم وثقيف لآعن غريزة وفطرة كما كانت تنطق العرب ، ولم تكن للعرب غنية عن ترجمة كثير من هذه الحكم في هذا الطور العباسي الذي حصلوا فيه على قسط وافر من التعليم . ونعل أول من نقل هذا الحكم وتلك الفلسفة إلى العربية عن أمثال يزدجرد وقباذ وبهرام وسابور وأنوشروان وأزدشير وغيرهم في السياسة والاجتماع وسائر أحوال الناس ، رجلنا الذي نتكلم عنه ، وما كان له وهو الفيلسوف أن يصدف عن هذا الجانب المعنوي إلى الجانب اللفظي بحال

هذا وكما يمثل ما نقلناه من نماذج ، أسلوب الترسل السهل الممتنع كما قلنا ، يمثل كذلك ما أشرنا إليه في ناحية المعاني أتم تمثيل ، فكل ما كتب ابن المقفع كان ظرفا يسكب فيه عقلا وحكمة وفلسفة وعبرة ، وعلى هذا الذي رسم ، سار من ورائه كتاب عصره كيجي بن زياد وسمارة بن حمزة والقاسم بن صبيح وغيرهم ممن أدركوا الدولتين وكتبوا للمنصور وهم رجال الطبقة الأولى . وكذلك رجال الطبقة الثانية أمثال أبي عبيد الله معاوية بن يسار وأبي عبد الله يعقوب بن داود ويوسف بن القاسم ويحيى ابن خالد وغيرهم ممن كتبوا للمهدي والهادي والرشيد ، ثم رجال الطبقة الثالثة أمثال الفضل وجعفر ابني يحيى والفضل والحسن ابني سهل وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وغيرهم ممن كتبوا للرشيد والأمين والمأمون وأمثال محمد بن عبد الملك الزيات وبرايم بن العباس الصولي ونحوها ممن تربوا في عصر المأمون وأدركوا العصر الثاني فاعتبروا رجال

طبقته الاولى كما سيأتى بعد . فهذه الطبقات الثلاث حذت حذوا بن المقفع في الالفاظ السهلة الممتعة البعيدة عن المزاجية والسجع إلا ما جاء عفواً ، وفي المعاني الشريفة النبيلة المشعرة بسعة العقل وقوة المنطق ؛ ولذلك نقول إن استفادة العربية من الفارسية في العصر العباسي الأول في ناحية المعاني كانت أظهر وأوضح منها في ناحية الالفاظ ولسنا نقول ذلك عن غير دليل نتقدم به ، فقد كتب أبو الفضل أحمد بن أبي داهر طيفور في كتاب بغداد يقول « حدثني أبو الحسن أحمد بن محمد المهدي قال حدثني يحيى بن الحسن بن علي بن معاذ بن مسلم قال . إني بالرقعة بين يدي محمد بن طاهر بن الحسين علي بركة إذ دعوت بسلام لي فكلمته بالفارسية فتدخل العتابي^(١) وكان حاضراً في كلامنا فتكلم معي بالفارسية فقلت له أبا عمرو مالك وهذه الرطانة فقال لي قدمت ببلدكم هذه ثلاث قدمات وكتبت كتب العجم التي في الخزانة بمرو وكانت الكتب سقطت إلى ما هنالك مع يزدجرد فهي قائمة إلى الساعة فكتبت منها حاجتي ثم قدمت نيسابور وجزتها بعشرة فراسخ فذكرت كتاباً لم أقض حاجتي منه فرجعت إلى مرو فأقمت أشهراً . قال فقلت - أبا عمرو ولم كتبت كتب العجم فقال لي « وهل المعاني إلا في كتب العجم ، البلاغة

« ١ » هو أبو عمرو كلثوم بن عمرو العتابي ينتهي نسبه إلى عمرو بن كلثوم التغلبي ، وهو شاعر رقيق مطبوع وكاتب مترسل بليغ قال الجاحظ « كان العتابي ممن اجتمع له الخطابة والبيان والشعر الجيد والرسائل الفاخرة » وقال يحيى البرمكي لولده وكان العتابي منقطعا اليهم « إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم ابن عمرو العتابي فضلاً عن رسائله وشعره فافعلوا فلن تروا أبداً مثله » .

في اللغة لنا والمعاني لهم» قال ثم كان يذكرني ويحدثني بالفارسية كثيرا». ولهذا الذي كان من الكتاب في هذا العصر من العناية بالمعاني لبست الكتابة فيه ثوب الایجاز أكثر مما جررت ذيول الاطناب وكان الكتاب يجدون لذلك حسن وقع في نفوس الخلفاء؛ حدث أحمد بن يوسف وزير الأمون قول دخلت على الأمون وهو يمسك كتابا بيده وقد أطال النظر فيه زمانا وأنا ملتفت اليه فقال يا أحمد أراك منكرا مني متفكرا فيما تراه فقلت نعم وفي الله أمير المؤمنين من المكاره وأعاده من المخاوف؛ قال فانه لا مكروه فيه ولكني قرأت كلاما وجدته نظير ما سمعته من الرشيد يقوله في البلاغة فانه كان يقول «البلاغة التباعد عن الاطالة وانتقرب من معني البغية والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى وما كنت أتوهم أن أحدا يقدر على المبالغة في هذا المعنى حتى قرأت هذا الكتاب - ورمى به إلى وقال - هذا كتاب من عمرو بن مسعدة إلى، قال فقرأته فاذا فيه «كتابي إلى أمير المؤمنين، ومن قبلي من قواده وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم واختلت لذلك أحوالهم والتأثت معه أمورهم» فلما قرأته قال إن استحسناني إياه بعثني أن أمرت للجند قبله بعطائهم لسبعة أشهر وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حل محله في صناعته. هذا وإنك لتجد الایجاز باديا فيما تقدم لابن المقفع من إخوانيات بل فيما تقدم له من رسائل أخذت اسم الكتب وان طال لآن العبرة في الایجاز ليست في طول ما يكتب لنفس الطول، وإنما هي في طول ما يكتب بالنظر إلى ما عبر عنه من معان،

ولذلك قد يوجد الطول مع الايجاز كما هي حال تلك الرسائل، وقد يوجد
الاطناب مع قلة كم الكتاب إذا كان معناه أقل من لفظه . ثم إنك لتجده
كذلك في كتاب العصر الأول طرا ، وهذان اللذان جاء ذكرهما في الكتاب
السابق كانا من أعلام الموجزين . كتب أحمد إلى ابراهيم بن المهدي وقد
استقل هدية أطفه بها « بلغني استقلالك لما ألفتك ، والذي نحن عليه
من الأتس سهل علينا قلة الحشد لك في البر ، فأهدينا هدية من لا يحتشم
إلى من لا يغتم » وكتب في التهنئة بافراق من مرض « قد أذهب الله وصب
العلة ونصبها ووفر أجرها وثوابها وجعل فيها من إرضام العدو بعقبها أضعاف
ما كان عنده من السرور بفتح أولها » . وكتب عمرو موصيا بشخص
« كتابي اليك كتاب واثق بمن كتب اليه معني بمن كتب له ولن يضيع
حامله بين الثقة والعناية » وكتب إلى المأمون يستشفع في رجل بالزيادة له
في منزلته ويعترض لنفسه « أما بعد فقد استشفع بي فلان يا أمير المؤمنين
لتطولك على ، في إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزون ، فأعلمته أن
أمير المؤمنين لم يجعاني في مراتب المستشفعين وفي ابتدائه بذلك تعدى
طاعته والسلام » فوقع إليه المأمون « قد عرفنا تصريحك بصاحبك
وتعريضك لنفسك وأجبتناك إليهما ووقفناك عليهما » وقال الرشيد يوما
ليحيى بن خالد قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر
وقد استجيمت من مكاتبتة في هذا المعنى فاكتب أنت اليه فكتب
يحيى إلى الفضل « أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الخاتم
من يمينك إلى شمالك » فأجابه الفضل « قد سمعت ما أمر به أمير
المؤمنين في أخي وما انتقلت عنى نعمة صارت اليه ولا غربت عنى رتبة

طلعت عليه . ولما قتل طاهر بن الحسين على بن عيسى بن ماهان كتب الى الفضل بن سهل كاتب المأمون « أطال الله بقاءك وكبت أعداءك وجعل من شنوك فداءك ، كتبت اليك ورأس على بن عيسى في حجرى وخاتمه فى يدي والحمد لله رب العالمين » .

ب - فى العصر الثانى - منذ عهد الرشيد ، قد استبحر العمران وعم الرخاء ونشرت الرفاهية أجنحتها على ذوى اليسار فنعموا بنعيم الحياة وذاقوا حلاوة الوجود وصار فى متناول الجميع التمتع بما كان للفرس من متعات ، وأصبح كل إنسان لا يرضى مما هو فيه بغير الكثير فكان من الطبيعى وقد فاضت الفارسية على العربية اذذاك بكل ما هو معروف عنها من بسط وإطناب ، أن يشب الكتاب الناشئون فى آخر هذا العصر نشأة طفولة ، على غير ما عليه كتابه من ترسل وإيجاز فهم لا بد مطنبون فيما يكتبون بجعل أثواب المعانى فضفاضه ذات ذيول ولن يكون هذا بغير الاكثار من المفردات والجمال ، على سبيل الترادف والازدواج . وقد شاءت الاقدار أن تجبو هذه الفترة بطفل موهوب ينشأ فيها نشأة الكتاب فلا يكاد هذا العصر الا أول ينقضى حتى يستوى فى العصر الثانى حامل لواء هذه الطريقة الجديدة أمام الكتاب ذلكم هو أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الذى يقتضينا مقامه كلمة عنه فى هذا المقام .

ولد الجاحظ بالبصرة سنة ستين ومائة وهى على ما علمت عنها فيما ذكرنا عن ابن المقفع ، عش الادب . فأدرك طبقة الاصمعي وأبى عبيدة وأبى زيد وأخذ عنهم ما خصوا به من أدب وفكاهة وغريب ، ولازم أباسحاق

ابراهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلى المعروف فتخرج عليه فى علم الكلام، ثم خالط أعلام الكتابة والترجمة فقرأ جميع ما ترجم أيام المنصور والرشيد والبرامكة والمأمون فخرج بذلك كله أديبا فكها عالما فيلسوفا، وأقام بالبصرة إقامة مغرم بالكتب لا يدع كتابا حتى يستوعبه قراءة وفهما، وكثيرا ما كان يكترى دكا كين الوراقين فيقيم فيها ينظر ويتثبت، وان فيما أودعه وصف الكتاب آنفا لا نصع دليل على ما للكتب فى نفسه من منزلة وعلى تنوع ما جناه منها من فائدة، وكان محبوبا من كل من فى البصرة من الولاة والأعيان عربا وفرسا، لا يزال محبوبا بما يصنف من كتب ورسائل فى شتى العلوم والفنون ولا يزال محبوبا به بجزيل العطايا وسنى الدلات وبعد قليل ذاع صيته ببغداد وسر من رأى، فكان ينتجع اليها الخلفاء والوزراء والعظماء حتى استخدمه محمد بن عبد الملك الزيات فى كتابة الديوان، ولما قتل ابن الزيات عاد الى البصرة فأقام بها كما كان طالما مصنفا وأديبا كاتبا الى أن فليج وبقى بالفالج طويلا ومع هذا لم ينفطع عما نصب نفسه له وطالما حمل مفلوجا الى بغداد يستمتع به، وفى إحدى هذه الحملات مات بها سنة خمس وخمسين ومائتين .

بهذه الكفاية الممتعة فى العلم والفلسفة والأدب والكتابة، زاول الجاحظ تدبيج الكتب والرسائل فكان أمجوبة الزمان وينبوع الافتنان، إن ذكر أدب العلماء فهو آدهم وإن ذكر علم الأدياء فهو أعلمهم، وقد استخلص مما قرأ علوما جمة شارك بها أهل كل علم، وأدبا ممتعة ضرب فيها بكل منهم، فكان واسع الاطلاع لطيف البحث طيب الفكاهة مخترعا لدقيق المعانى صواغا لبليغ العبارات، إذا ألف ألف بين الاشتات وإذا

كتب استنزل العصم من العبارات صادرا عن نفس جامعة بين المتناقضات.
فكان راوية متكلمة وفيلسوف مسامرا وأديباً مؤثرا وشاعرا طامئ دارسا
أحوال الحيوان والنبات والجمادات، وهو في كل ذلك الكاتب المكثّر الذي لا يدرك له شأو ولا يشق له غبار حتى
لكأنه المعني بقول أبي نواس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

لذلك عد أحد الأفاضل وإحدى حجج اللسان. قال يصف كتبه ابن العميد
« كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والادب ثانيا » وقال يصفها السعدي أيضا
على تشييعه وثمانية الجاحظ « وكتب الجاحظ مع انحرافه - أي عن
التشييع - تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان . لأنه نظمها
أحسن نظم وروصفها أحسن رصف وكساها من كلامه أجزل لفظ .
وكان اذا تخوف ملل القارئ وسامة السامع خرج من جد إلى هزل
ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة . وله كتب حسان منها كتاب
البيان والتبيين وهو أشرفها لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم وغرر
الاشعار ومستحسن الأخبار وبلغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر
لاكتفى ، وكتاب الحيوان وكتاب الطفيليين والبخلاء ، وسائر كتبه في
نهاية الكمال ما لم يقصد منها إلى تعصب أو إلى دفع حق ، ولا يعلم ممن
سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه . »

فلا جرم وهذه حال الجاحظ أن يكون إمام الكتاب في هذا
العصر العباسي الثاني ، وكما قامت ميز العصر الأول على الترسل والايجاز
تقوم ميزة الثاني بما من الجاحظ على الازدواج والاطناب . وإن عودة

إلى ما اخترنا له في مدح التجار و ذم عمل السلطان وفي وصف الكتاب
وفي محاسن الضحك لتريك بأجلى وضوح قدرته على المزاوجة والترادف
وإتباع الشيء بمثله والقارين بقرنه في فقرات يغلب أن تكون قصيرات
حتى ليسلخ في المعنى الواحد عبارات كثيرة في ابتداع مستحدث وابتكار
ليس له فيما سبق مثيل ، وهانحن أولاء ناقلون هنا شيئاً مما قال في
الحسد مسبقاً بما قال ابن المقفع إمام العصر الأول فيه ، حتى تكون
الموازنة متحدة الموضوع .

قال ابن المقفع في الحسد من الأدب الكبير « ليكن مما تصرف
به الأذى والعذاب عن نفسك ألا تكون حسوداً ، فإن الحسد خلق لئيم
ومن لؤمه أنه يوكل بالأذى فالأذى من الأقارب والأكفاء الخلقاء .
فليكن ما تقابل به الحسد أن تعلم أن خير ما تكون ، حين تكون مع من
هو خير منك وأن غمالك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل منك
في العلم فتقبس من علمه ، وأفضل منك في الجاه فتصيب حاجتك بجاهه ،
وأفضل منك في الدين فزداد صلاحك بصلاحه . وليكن ما تنظر فيه
من أمر عدوك وحاسدك أن تعلم أنه لا ينفعك أن تخبر عدوك أنك له عدو ،
فتنذره نفسك وتؤذنه بحربك ، قبل الأعداد والفرصة فتحمله على
التسلح لك وتوقد ناره عليك » .

وقال الجاحظ مما قال في رسالة الحسد « وهب الله لك السلامة وأدام
لك الكرامة ورزقك الاستقامة ورفع عنك الندامة . كتبت إلى أكرمك
الله تسألني عن الحسد ما هو ومن أين هو وما دلائله وأفعاله وكيف
تفرقت أموره وأحواله وبم يعرف ظاهره ومكتومه ولم صار في العلماء

أكثر منه في الجهلاء ولمكثر في الأقرباء وقل في البعداء وكيف دب
في الصالحين أكثر منه في الفاسقين وكيف خص به الجيران من جميع الأوطان؟
الحسد أبقاله الله داء ينهك الجسد ويفسد الأود علاجه
عسر وصاحبه ضجرو وهو باب غامض وأمر متعذر فماظهر منه فلا يداوى
وما بطن منه فداويه في عناء ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « دب
اليكم داء الأمام قبلكم ، الحسد والبغضاء » وقال بعض الناس جلسائه أي الناس
أقل غفله فقال بعضهم صاحب ليل إنهمه أن يصبح فقال إنه لكذا
وليس كذلك وقال بعضهم المسافر إنهمه أن يقطع سفره فقال إنه لكذا
وليس كذلك فقالوا له فأخبرنا بأقل الناس غفله فقال الحاسد، إنهمه أن
ينزع الله منك النعمة التي أعطاكها فلا يغفل أبدا . وروى عن الحسن
أنه قال « الحسد أسرع في الدين من النار في الخطاب اليابس » وما أتى
المحسود من حاسد إلا من قبل فضل الله تعالى إليه وبعثته عليه قال
الله تبارك وتعالى « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد
آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما » . والحسد
عقيد الكفر وحليف الباطل وضد الحق وحرب البيان وقد ذم الله تعالى
أهل الكتاب فقال « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من
بعد إيمانكم كفارا ، حسدا من عند أنفسهم من بعدما تبين لهم الحق »
فمنه تتولد العداوة وهو سبب كل قطيعة ومنتج كل وحشة ومفرق كل
جماعة وقاطع كل رحم بين الأقرباء ومحدث التفرق بين القرناء وملقح
الشر بين الخلطاء، يكمن في الصدر كحون النار في الحجر ، ولو لم يدخل
رحمك الله على الحاسد بعد تراكم الهموم على قلبه واستمكن الحزن في

جوفه وكثرة مضضيه ووسواس ضميره وتنغيص عمره وكدر نفسه ونكد
لذاذة عيشه الاستصغار له نعمه الله تعالى عنده وسخطه على سيده بما
أفاده عبده وتمنيه عليه أن يرجع في هيبته إياه ولا يرزق أحدا سواه ،
لكان عند ذوى العقول مرحوما وكان عندهم في القياس مظلوما وقد
قال بعض الاعراب « مارأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد نفس دائم
وقلب هائم وحزن لازم » فالحاسد مخذول ومأزور والمحسود محبوب
ومنصور ، والحاسد مهموم ومهجور ، والمحسود مغشى ومزور - إلى أن
قال في آخر الرسالة وهي اثنتا عشرة صفحة - وما أرى السلامة إلا في
قطع الحاسد ولا السرور إلا في افتقاد وجهه ولا الراحة إلا في صرم
مداراته ولا الربح إلا في ترك مصافاته . فاذا فعلت ذلك فكل هنيئا
واشرب مريئا ونم رضيا وعش في السرور مليا ، ونحن نسأل الله
الجليل أن يصفي كدر قلوبنا وبجنبنا وإياك دناءة الاخلاق ، ويرزقنا وإياك
حسن الألفة والاتفاق ، أحسن الله توفيقك والسلام .

وعلى هذا النحو من المزوجة الكثيرة الفقرات مع تقصيرها غالبا
لملاءمة القصر للزواج ، كان الجاحظ يكتب عن ذهن صفي وطبع رخي
فيطنب ماشاء له الاطناب ، كما يتضح ذلك حتى في قصار رسائله مالم
يتعمد فيها مساواة ، كما في تهنيئته الفتح بن خاقان ومعاتبته قليبيا المغربي
أو إيجازا كما في كتابه السابق معهما يستنجز مما طلا ، فان القلة كما قلنا لا تأتي
الاطناب ، كما لا تأتي الكثرة الايجاز ، وهذه رسالة له في ثلاثة مسطور
ولكنها من الاطناب قال « أما بعد فما أقبح الأحدثه من مستمنح حرمة

وطالب حاجة رددته، ومثار حجبته، ومنبسط إليك قبضته، ومقبل عليك بعنايته لويت عنه، فثبتت في ذلك، ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم» ولم يكن موضوع الكتاب مهما تجافى عن الأدب والفن ولج في السيرة والعلم، ليقف بالجاحظ دون تلك الطريقة الفذة، أو يصرفه عن تناولها، انظر إليه وهو يقول من تأريخه قريش «قد علم الناس كيف كرم قريش وسخاؤها، وكيف عقولها ودهاؤها وكيف رأيها وذاكؤها، وكيف سياستها وتديرها، وكيف إنجازها وتحسيرها، وكيف رجاحة أحلامها إذا خف الحليم، وحدة أذهانها إذا كل الحديد، وكيف صبرها عند اللقاء وثباتها في اللأواء، وكيف وفاؤها إذا استحسن الغدر وكيف جودها إذا حب المال وكيف ذكرها لأحدث غد وقلة صدورها عن جهة القصد وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه وكيف وصفها له ودهاؤها إليه، وكيف سماحة أخلاقها وصونها لأمر اضنها، وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم وطريفهم بتليدهم، وكيف أشبهه علانيتهم سرهم وقولهم فعاهم وهل سلامة صدر أحدهم إلا على قدر بعد غديره وهل غفلته إلا في صدق ظنه وهل ظنه إلا كيقين غيره» وانظر إليه يرسم الخطة المثلى لمن يقرأ الكتب فيما يجب أن يكون منه إزاء المعاني والألفاظ، لتستفيد وتعرف كيف استفاد قال «ومن قرأ كتب البلغاء وتصفح دواوين الحكماء ليستفيد المعاني فهو على سبيل الصواب، ومن نظر فيها ليستفيد الألفاظ فهو على سبيل الخطأ، والخسران هاهنا في وزن الربح هناك، لأن من كانت غايته انتزاع الألفاظ، حمله الحرص عليها والاستثثار بها إلى أن يستعملها قبل وقتها، وبضعها في غير مكانها، ولذلك قال بعض الشعراء

لصاحبه: أنا أشعر منك فلما قال له ولم ذاك؟ قال: لاني أقول البيت وأخاد،
وأنت تقول البيت وابن عمه، وإنما هي رياضة وسياحة وسماع الألفاظ
ضار ونافع، فالوجه النافع أن تدور في مسامعه وتغيب في قلبه وتخيم في
صدره، فإذا طال مكثها تناكحت ثم تلاقحت، وكانت نتيجةها أكرم نتيجة
وثمرتها أطيب ثمرة لأنها حينئذ تخرج غير مسترقة ولا مختلسة ولا مغتصبة
ولادالة على فقر، إذ لم يكن القصد إلى شيء بعينه والاعتماد عليه دون غيره،
وبين اللفظ إذا عشتش في الصدر ثم باض ثم فرخ ثم نهض وبين أن
يكون اعتسافا واغتصابا فرق بين. ومتى اتكل صاحب البلاغة على
الهويني والوكال، وعلى السرقة والاحتتيال لم ينل طائلا وشق عليه النزوع
واستولى عليه الهوان، واستهدمته سوء العادة. والوجه الضار أن يحفظ
ألفاظا بأعيانها من كتاب بعينه، أو من لفظ رجل ثم يريد أن يعد لتلك
الألفاظ قسمها من المعاني، فهذا لا يكون إلا بخيلا فقيرا وحائفا سروقا
ولا يكون إلا مستكرها لا لفاظه متكيفا لمعانيه، مضطرب التأليف
منقطع النظام، فإذا مر كلامه بنقاد الألفاظ وجهابذة المعاني، استخفوا
عقله وبهرجوا علمه .

وقد اقتدى بالجاحظ في هذا الأسلوب كتاب عصره الذين قلنا
إنهم تربوا في عصر المأمون، نقصد بذلك أنهم جمعوا إلى الآداب
العربية، الآداب الدخيلة تامة الأني والاستواء بما استبحر من آداب
الفرس والهنود وما أعيد نقله وفقهه على أصله من فلسفة اليونان، وقد
ذكرنا منهم الصولي وابن الزيات، ونضم إليهم الآن الحسن وسليمان ابني
وهب وسعيد بن حميد، وأحمد بن اسرائيل وغيرهم ممن كتبوا للمعتصم

والواثق والمتوكل وجاوزوهم إلى المنتصر والمستعين والمعز والمهتدي
والمعتبد وهم رجال الطبقة الأولى في العصر الثاني ، وقد أعقبتهم طبقة
ثانية أمثال عبيد الله بن سليمان بن وهب، وأبي العباس بن ثوابة ، وأبي
الحسن علي بن الفرات، وعلي بن الجراح وغيرهم ممن كتب بعد المعتمد
للمعتضد والمكتفي والمقتدر . وأعقبت هذه طبقة ثالثة منها الحسين بن
عبيد الله بن سليمان بن وهب، وأبو الفضل جعفر بن الفرات ، وأبو علي
ابن مقلة وغيرهم ممن كتبوا بعد المقتدر للقاهر والراضي والمتقي
والمستكفي الذي انتهى على أيامه العصر الثاني بدخول بني بويه بغداد .
فكل هؤلاء كانوا للجاحظ في طريقته مجتدين ، ولأسلوبه مترسمين ، كما
نرى فيما اخترنا لبعضهم من إخوانيات . وكذلك كانوا في غيرها مما
يكتبون من الرسائل المطولة أو المصنفات ، فهذا حمزة الاصفهاني جامع
ديوان أبي نواس يقول في مقدمة هذا الديوان «سألني أبقاك الله وأعلى
قدرك، وبلغك أقصى أملاك، وزادك من أفضل ما خولك وأحسن ما منحك
ولا أعدمك جميل ما عودك، أن أصرف لك عنائتي إلى عمل مجموع من شعر
أبي نواس مشتمل على كل أشعاره وجل أخباره، وقد أسعفتك أيديك الله
بطلبتك، وأجبتك إلى ملتصك» إلى آخر ما قال على هذا النمط الذي ابتدأه
بالدعاء كما كان يبتدئ الجاحظ، وطاد يكرر الدعاء في ثنايا ما يقول بعد الابداء
كما كان يكرر . وهذا أبو محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة تأثر
الجاحظ فيما خاف من مصنفات جاءت في الأسلوب والاطناب على
نحو ما كان للجاحظ من مؤلفات، وستقرأ نبذة منها بعد قليل .
وكما أوحى العصر الأول إلى كتابه أن يمدوا ويحمد لهم الايجاز،

فقد أوحى هذا العصر الثاني إلى رجاله أن يكرروا ويطنبوا اعتقاداً منهم أن في التكرار على أيامهم قوة بلاغ للمعنى، وشدة تأثير في النفس، ثم غلوا في هذا الاعتقاد حتى أوصوا به وحادوا عما كان شائعاً في العصور قبلهم من إيجاز. قال ابن قتيبة في أدب الكاتب « ولو كتب كاتب إلى أهل بلد في الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية، كتب يزيد بن الوليد إلى مروان حين بلغه عنه تلكه في بيعته - أما بعد فاني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فاعتمد على أيهما شئت - لم يعمل هذا الكلام في أنفسها عمله في نفس مروان، ولكن العيوب أن يطيل ويكرر، ويعيد ويبدى، ويحذر وينذر » ونحن نقول: ولهذا تعد استنفادتهم من الفارسية واقفة عند حدود المعاني كما كانت لدى أولئك الأسلاف بل صارت في ناحية اللفظ والمعنى سواء .

على أننا لا ننكر أن ما حدث بهذا العصر من حيدة ذوى الأمر لجهلهم، عن التشجيع، وانصراف الناس إلى العلوم العقلية أكثر من علوم اللسان، ثم نصرمة الشعوية الداعية إلى احتقار الغرب وتهوين ما لهم من كفايات، قد أصاب الأدب والأدباء، فأثر ذلك في صناعة الكتابة فيه بعض التأثير وظهر الضعف في كتابات الكتاب. ومن أجل هذا وضع ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ كتاب أدب الكاتب. فاسمع إليه يقول في مقدمته: « أما بعد فاني رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين، ومن اسمه متطيرين، ولا أهله كارهين. أما الناشء منهم فراغب عن التعليم، والشادي تارك للزيادة، والمتأدب في عنفوان الشباب ناس أو متناس ليدخل في جملة المجدودين ويخرج عن جملة المحدودين. فالعلماء

مغمورون وبكثرة الجهل مقموعون، حين هوى نجم الخير وكسدت سوق البر، وبارت بضائع أهله وصار العلم عاراً على صاحبه، والفضل تقصاً وأموال الملوك وقفاً على النفوس، والجاه الذي هو زكاة الشرف يباع يبيع الخلق، وأضنت المروءات في زخارف النجد وتشبيد البنيان، ولذات النفوس في اصطفاف المزاهر ومعاطة الندمان، ونبتت الصنائع وجهل قدر المعروف وماتت الخواطر، وسقطت هم النفوس وزهد في لسان الصدق وعقد الملكوت. فأبعد غايات كاتبنا في كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتاً في مدح قينة أو وصف كأس - إلى أن قال - فاني رأيت كثيراً من كتاب أهل زماننا كسائر أهله قد استطابو الدعة واستوطئوا مركب العجز وأعفوا أنفسهم من كد النظر، وقلوبهم من تعب التفكير حين نالوا الدرك بغير سبب، وبلغوا البغية بغير آلة.

ج . في العصر الثالث - كانت الثروة على ما علمت في العصر الثاني ممدودة الرواق، وكانت الحضارة وارفقة الظلال، وكان الأثرياء منغمسين في المتع غارقين في النعيم. غير أن جهل القائمين بالأمر على الدولة فيه، جعل الأدب كما تقدم تركد ربحه، وتفتت حر كته، وجعل الكتاب وهم قطب الأدب الذي عليه يدور رحاه بعيدين في جمهورتهم أن يشركوا أولئك القائمين في سعة النفوذ وبالتالي في الاستمتاع بمباهج الحياة. ولكن ما كاد هذا العصر الثالث يقضى على سابقه برفع نفوذ الخدم الأتراك عن بغداد وجعله في أيدي آل بويه الذين وإن شلوا نفوذ الخلافة كانوا من العلماء الأدباء، حتى علا نجم الأدب وارتفع شأن

الكتابة ونافست بغداد في ذلك حواضر كثيرة إن نقص عنها بعض فقد أوفى عليها آخر ، وكانت هذه المنافسة أشد ماتكون بين رجال الكتابة الحاليين إذ ذاك من الملوك محل السمع والبصر ، وكان قد مهد لذلك بالدويلات التي انسلخت عن الخلافة قبيل حلول العصر الذي تكلم فيه . فكانت منها دولة السامانيين ببخارى التي زهت بنفوذهم وصارت منتدى العلم والأدب على أيامهم ، وشارك ملوكها في سعة النفوذ وعراضة الجاه ووداعة العيش ورفاهة الحضارة ، عدد من الكتاب كانوا يلقبون بالشيوخ ، منهم أبو محمد عبد الله بن الحسين الذي لقب فوق الشيخ بلقب العميد زيادة في التعظيم أيام نوح بن نصر ، فكان بيته بيت غنى ونعمة وثروة وجاه . وقد نشأ في هذا البيت ابنه أبو الفضل محمد بن العميد نشأة محوطة بكل هذا النعيم ، فأحسن أبوه في هذه البيئة تربيته ، ورشحه لصناعاته وهياها لمنزلته ، وكان ذا ذهن صاف وطبع موات ، فعرف علوم العرب والعجم ونبغ في العربية والفارسية وتضلع في آدابهما حتى لقب بالاستاذ والرئيس . ثم نبه شأنه وضافت الدولة السامانية عن قدره ، فاجتذبت به دولة آل بويه فوزر لركن الدولة سنة ٣٢٨ وامتد به العمر في هذا السلطان ثلث قرن كان فيه محط الرهبان وكعبة الآمال والمدوح من الكتاب والشعراء بكل لسان ، حتى توفي سنة ٣٦٠ .

ذاك ما أردناه التنويه به عن بيت ابن العميد وشخصه ونعمة عصره . وخفض عيشه ؛ لنخرج منه إلى أن الكتابة لا بد ظافرة لهذين الأمرين بأسلوب تخطه روح العصر وتقسيم دعاته يد ابن العميد ، فإن الزخرف تناول كل مظاهر الحياة من المسكن والملبس والمطعم

والمشرب ، وحمل ذوى الترف واليسار أن يتأنقوا في كل ذلك ما وسعهم
التأنق ، فغلوا فيما حملوا عليه ، وتنافسوا فيه حتى ظهرت آثار ذلك فيما
ذكرنا وفيما لم نذكر واضحة للعيان تبهر الأبصار . ومن أولى من
ابن العميد ، واللغة كائن يتأثر كما تتأثر الكائنات ، وهو الناشئ بحوطه
الترف ويحدوه النعيم ، أن يحكى في كتابته ما يشهد في عيشه ويعكس
على أسلوبه ما يشع من ضوء نفسه ، اللهم لا غيره يصلح لأن يكون
صاحب الأسلوب الجديد . فبأى شيء يأتى يحدث الزخرف ويحصل
التنميق ؟ لا شك أن الخطوة الطبيعية بعد الزواج تكون السجع فانه
أول ما يدل في صاحبه على ذلك ، وهو إذا جودت صياغته أكسب المعنى
قوة فوق تحليته الألفاظ ، وبعد السجع يكون الامام بأجمل الحلى اللفظية
من جناس ، وأجمل الحلى المعنوية من طباق ، على أن تبقى الصور والظاهرة
للأسجاع .

رسم ابن العميد هذا الأسلوب الجديد صادرا فيه عن فنان صناع ،
قد امتلأت نفسه بشتى الصور والألوان ، وأرهف حسه حتى أصبح
يشعر بما يدق عن الكهان ، فجاء ممثلا في السجع منزوما يصحبه الجناس
قليلا والطباق نادرا ، مع الامام بما كان للطريقة الجاحظية من إطالة
وإكثار وترادف وإطناب ، ولكن في عدول غالبا عما كان لها من تقصير
الفقرات إلى إطالتها التي أصبحت لا تتنافى والسجع كما كانت تتنافى مع
الزواج ، فمت بها إلى العصر الأول ، وجمع بذلك كله بين محاسن العصور .
على أن العناية بالألفاظ لم تكن لتشغل ابن العميد عن العناية
بالمعاني وهو الحكيم الفيلسوف ، الجامع بين سعة المنقول وغور المعقول ،

فما كان لفارس والهند والعرب ويونان فكانت معانيه كالفاظه ذات
حظ فيما لكلامه من بهاء وكتاهما لصاحبها زين وجمال كما قيل :
تزين معانيه ألفاظه وألفاظه زائعات المعاني
وحسبه أن يظفر في وصف بلاغته بأبيات من المتنبي قد طلعت على
الأكوان شمسا، وسارت في الآفاق مثلا، فهو القائل فيه :
إذا سمع الناس ألفاظه خلقن له في القلوب الحسد
وهو القائل فيه:

عربي لسانه ، فلسفي رأيه ، فارسية أعياده
خاق الله أفصح الناس طرا في مكان أعرابه أكراده

بل حسبه أن يكون المقول عنه « بدئت الكتابة بعبد الحميد
وختمت بابن العميد » فان الحسن الذي وصلته على يده لم يزد على يد
أحد وإن ماثله من بعده، ولذا اطمأن الناس إلى طريقته حتى لكانها
كانت أمل رجال العصر يريدونه ولا يدركونه ؛ وطابع كتابه يودون
رسمه ولا يعرفونه ، فإذن عبد لهم طريقها حتى سلكوه ثم تسابقوا فيه
تسابق الجياد في الميدان ، فكانت الطبقة التي لم يعد الدهر يسمح لها
بمثال، ويكفي أن يكون فيها صاحبه أبو القاسم اسماعيل بن عباد المتوفى
سنة ٣٧٥ وأبو اسحق الصابي ابراهيم بن هلال المتوفى سنة ٣٨٤
وأبو بكر الخوارزمي محمد بن العباس المتوفى سنة ٣٨٣ وأبو الفضل بديع
الزمان أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٩٨ وأبو منصور الثعالبي
عبد الملك بن محمد المتوفى سنة ٤٢٩ ، وغير هؤلاء ممن عطروا الوجود
بأريج أنفاسهم، وجعلوا للكتابة مضاء السيوف بأسنة أقلامهم، فكان

لها على أيديهم من مزايا الابتكار أو فضل الزيادة والاكتثار، ما نشير الآن إلى أهمه في ناحية الأسلوب .

١ - جعلوا الطابع الميز لها في هذا العصر السجع مع الاطناب يصعبه الجناس على قلة والطباق نادرا، على أن تكون الصورة الظاهرة للأسلوب هي السجع دون غيره، ولهذا أغرم القوم به اغراما والتزموا التزاما في تمكن وقوة، فجاء عفا صفوا كسجع الحما ثم حسن وقع وجمال انسجام وقد بلغ من التزامهم إياه أن انتقل ببعضهم من ميدان الأدب إلى ميدان التأليف كما فعل أبو نصر العتبي محمد بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٢٧ في تاريخه المسمى اليميني نسبة إلى يمين الدولة السلطان محمود الغزنوي، فقد ترجم فيه حياته وحياته أليه سبكتكين، وكان كاتبها، في أسلوب كله مسجوع بعيد عن التكلف والاستكراه وكما فعل الشعالي المذكور في يتيمة الدهر وإن لم يبلغ مداه، ثم كما جاء سجع الكتاب في هذا العصر على ما قدمنا لا تكاف فيه جاء كذلك ما قد يلمون به مع السجع من جناس وطباق، انظر إلى الخوارزمي يقول مستخدما لها في كتاب منه إلى نائب الوزير ابن عباد هو دا « كتبت إلى الأستاذ معاتبا مره ومستعتبا كره، فما وجدت للعتاب إعتابا، ولا قرأت عن الكتاب جوابا، وليت شعري ما الذي منعه عن صلة لا تضره وتنفعني، وعن تواضع لا يضره ويرفعني »

٢ - أكثروا تضمين رسائلهم الحكم والجوامع والأمثال والأشعار والأشارات التاريخية والعلمية، والنكت الأدبية والملح الفكاهية وبخاصة إذا كان التراسل بين أخوين توثقت بينهما عربى المحبة وارتفعت رسوم

الكلفة كالذى كان من ابن العميد إلى أبي العلاء السروى فى رسالة يشكو فيها رمضان سنة شديدة الحر فانها من أجمع الرسائل^١ لما ذكرنا تقريرا ولذا أثرنا الاستشهاد بها عليه قال .

كتابى جعلنى الله فداك، وأنا فى كد وتعب منذ فارقت شعبان، وفى جهد ونصب من شهر رمضان ، وفى العذاب الأذى دون العذاب الأكبر من ألم الجوع ووقع الصوم ، ومرتهن بتضاعيف .

حرور لو أن اللحم يصلى ببعضها غريضا تى أصحابه وهو منضج^(١) وممتحن به واجر يكاد أوارها يذيب دماغ الضب ويصرف وجه الحرياء عن التحنف ويزويه عن التنصر^(٢) ويقبض يدها عن إمساك ساق وإرسال ساق ،

ويترك الجأب فى شغل عن الحقب^(٣) ويقدم النار بين الجلد والعصب ويغادر الوحش وقد مالت هواديتها^(٤) سجد الذى الأرتى كأن روءسها علاها صداع أو فواق يصورها^(٥) وكما قال الفرزدق

ليوم أتى دون الظلام شموسه تظل المما صورا جماجمها تغلى
وكما قال مسكين الدارمى
وهاجرة ظلت كأن ظباءها إذا ما اتقتها بالقرون سجد

(١) حرور جمع حر ، والغريض الطرىء ، والمنضج التام الطبخ (٢) يريد بصرف الحرياء عن عاداتها فى استقبال الشمس كأنها تعبدها (٣) الجأب حمار الوحش والحقب أثنه جمع حقباء (٤) رءوسها (٥) الأرتى نبات مستعاق يتمتع فيه الوحش إذا اشتد الحر تبردا

تلوذ بشو بوب من الشمس فوقها كما لا ذل من وخز السنان طريد
وممنوب أيام تما كي ظل الرمح طول اوليال كاهام القطا قصر ا ، ونوم كلا
ولاقله^(١) وكحسو الطائر من ماء الثماد دقة وكتصفيقة الطائر المستحر خفة
كما أبرقت قوما عطاشا غمامة فلما رأوها أقشعت وتجات

ومثل

نقر العصافير وهي خائفة من النواطير يانع العنب
وأحمد الله على كل حال وأسأله أن يعرفني فضل بركتته وياقيني الخير
في باقي أيامه وخاتمته ، وأرغب اليه في أن يقرب على القمر دوره ويقصر
سيره ، ويخفف حركته ويمجل نهضته ، وينقص مسافة فلكه ودأثرته
ويزيل بركة الطول من ساعاته ، ويرد على غرة شوال فهي أسر الغرر عندي
وأقرها لعيني ، ويسمعي النعرة في قفا شهر رمضان ويعرض على هلاله
أخفى من السر وأظلم من الكفر ، وأنحف من مجنون بني عامر وأضنى من
قيس بن ذريح وأبلى من أسير الهجر ، ويسلط عليه الحور بعد الكور^(٢)
ويرسل على رفاقته التي يغشى العيون ضوءها ويحطم من الأجسام نوءها
كلها يغمرها وكسوفها يسترها ويرينيه مغمور الظهور مغمور النور ، قد
جمعه والشمس برج واحد ودرجة مشتركة ، وينقص من أطرافه كما
تنقص النيران من أطراف الزند ويبعث عليه الأرضة ويهدى اليه
السوس ويغري به الدود ويبليه بالفأر ويخترمه بالجراد ويبيده بالنمل
ويجتحفه بالذر ويجعله من نجوم الرجم ويرمى به مسترق السمع ويخلصنا
من معاودته ويريمنا من دوره ويعذبه كما عذب عباده وخلقه ويفعل به

(١) أي كالمن بين هذا الحرف مكررا في الإجابة (٢) النقصان بعد الزيادة

فعله بالكتان ويصنع به صنعه بالالوان، ويقابله بما تقتضيه دعوة السارق
إذا افتضح بضوئه وتهتك بطلوعه « ويرحم الله عبدا قال آمينا » وأستغفر
الله جل وجهه مما قلته إن كرهه وأستعفيه من توفيقى لما يذمه وأسأله
صفحا يفيضه وعفوا يسبغه . وحالى بعد ما شكوته صالحة وعلى ما تحب
وتهوى جارية، والله الحمد تقدمت أسماؤه والشكر

٣ - أغرموا بالخيال الشعري إغراما شديدا فهموا في أوديته
كما يهيم الشعراء واستخدموا صورهم كما يستخدمون ، حتى صار كلامهم
والشعر سواء ، لولا أنه غير موزون . ولذلك بالغوا في الاستشهاد به
حتى كان يصل أحيانا قدر النثر كما يقول الصحاح بن عباد في كتاب
يصف به فصلا من كتب العميد

فصل رأيت فصيح الإشارة لطيف العبارة

إذا اختصر المعنى فشربة حاتم وإن رام إسهابا أتى الفيض بالمد

فصل قد نظرت فرأيت جسما معتدلا وفهما مشتعلا

ونفسا تفيض كفيض الغمام وظرفا يناسب صفو المدام

فصل قد عمهم بنعمه وضمهم بشيمه

وغزاهم بسوابع من فضله جعلت جماجمهم بطائن نعله

وهكذا - ثم جاوزوا هذه المبالغة في الاستشهاد إلى ترصيع الكتاب

بالشعر كل فقرة بشرط كأول ما كان من البديع إلى الخوارزمي في

الشوق قبيل رحلته إليه إذ يقول

أنا تقرب دار الأستاذ كما طرب النشوان مالت به الخمر

ومن الارتياح للقائه كما انتفض العصفور بلله القطر

ومن الامتزاج بولائه كما التقت الصهباء والبارد العذب
ومن الابتهاج بمزاره كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب
ولقد ساعد كتاب هذا العصر - على ذلك ، أن جمهرة كبيرة منهم -
وهذا ميزة له - كانوا شعراء كما كانوا كتابا وإن غلبت إحدى الموهبتين
على صاحبها^(١) ومن هذا تسنى لكثير منهم أن يضمن كتابته
أشعاره ويذيل رسائله بأبياته . كتب الصباني إلى قاضي القضاة أبي محمد
ابن معروف وكان قد زاره في معتقله أيام عضد الدولة وواساه يقول .
لقد قوى دخول سيدنا قاضي القضاة إلى نفسي وجددا نسي وأغرب
نحسي ووسع حبسي فدعوت الله تعالى بما قد ارتفع اليه وسمعه له ، فإن
لم أكن أهلا لأن يستجاب مني فهو أيده الله أهل لأن يستجاب
فيه وأقول مع ذلك .

دخلت حاكم الزمان على صنيعه لك رهن الحبس ممتحن
أخنت عليه خطوب جار جأرها حتى توفاه طول الهجم والحزن
فعاش من كلمات منك كن له كالروح جائدة منه إلى البدن
ولنصوع الجمال الذي فاض على الكتابة بما تقدم من هذه الميزات الثلاث كثر
وصفها في العصر بمثل ما كان يوصف به الشعر قبله وفيه ، من حسن
وبهجة ورواء كما توصف سائر المحاسن في مجالى الطبيعة ومبدعات

«١» من هؤلاء من ذكرنا آنفا من الكتاب ومنهم أبو الطيب المتوفى
سنة ٣٥٤ وأبو الفتح كشاجم محمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٠ ، والقاضي
الرجزاني علي بن عبد العزيز المتوفى سنة ٣٦٦ والشريف الرضى أبو الحسن
محمد بن الظاهر المتوفى سنة ٤٠٦ وأبو العلاء المعرى المتوفى سنة ٤٤٩

الخطارة على السنة الشعراء وأقلام الكتاب .

قال بعض معاصري الصابي يصف رسائله نظماً .

أصبحت مشتاقاً حليف صباية برسائل الصابي أبي إسحاق
صوب البلاغة والحلاوة والحجى ذوب البراعة سلوة العشاق
طوراً كما رق النسيم وتارة يحكى لنا الأطواق فى الأعناق
لا يبلغ البلاغ شأو مبرز كتبت بدائعه على الأحداق

وكتب ابن العميد إلى القاضى أبى محمد الحسن بن عبد الرحمن بن
خلاد الرامهرمزي يصف كتاباً وصله منه بهدية « وصل كتابك الذى
وصلت جناحه بفنون صلاتك وتفقدك وضروب برك وتعهدك ، فارتحت
لكل ما أوأيت وابتهجت بكل ما أهديت ، وأضفت إحسانك فى كل
فصل إلى نظائره التى وكلت بهاذكرى ووقفت عليها شكرى ، وتأملت
النظم فماكنى العجب به وبهرنى التعجب منه ، وقد رمت أن أجرى على
العادة فى تشبيهه بمستحسن من زهرجنى وحال وحلى ، وشذور الفرائد
فى محور الخرائد .

بالمدارى غدون فى الحلال البيض وقد رحن فى الخطوط السود
فلم أره لشيء عدلاً ولا أرضى ما عدته له مثلاً ، والله يزيدك من فضله
ولا يخليك من إحسانه وطوله ، ويلهمك من بر إخوانك ما تنعم به
صنيعك اليهم ، وترب معه إحسانك عليهم .

٤- أغرقوا فى عبارات التعظيم والتفخيم للملوك والأمراء تهويلاً
بشأنهم وأقدارهم وإنما كان ذلك لأن أغلب كتاب الدول الشرقية فرس مثلها ،
والفرس أميل الناس إلى الغلو فى عبارات التمجيد والتكبير جرياً على

عاداتهم وإجابة لطبائهم، فهم قد جبلوا على تملق ذوى الأمر بهذا التعظيم وبالاطناب لهم فى جمال الدماء والتفخيم، ثم اشتهر ذلك عنهم فحاكم فيه أبناء العرب من كتاب الدول الغربية ولكن جاء فيها أقل حدة منه فى الشرقية لما ذكر من عريبتها وعربية كتابها، وهذا الصابى يقول فى فصل له من كتاب الى عضد الدولة يهنئه بغرة سنة

« أسأل الله تعالى مبهتلاً لديه ماذا يدي إليه، أن يحيل على مولانا هذه السنة وما يتلوها من أخواتها بالصالحات الباقيات وبالزائدات الغامرات، ليكون كل دهر يستقبله وأمد يستأنفه موفياً على المتقدم له قاصراً عن المتأخر عنه، ويوفيه من العمر أطوله وأبعده ومن العيش أعذبه وأرغده، عزيزاً منصوراً محبوباً موفوراً، باسطاً يده فلا يقبضها إلا على نواصى أعداء وحساد سامياً طرفه فلا يغمضه إلا على لذة ورقاد، مستريحاً ركابه فلا يعملها إلا لاستضافة عزيز وملك فائزة قداحه فلا يجيلها إلا لحيازة مال وملك حتى ينال أقصى ما تتوجه إليه أمنيته جامعاً والسمو له همة طامحاً اه. ثم لم يبق ذلك مقصوراً على ذوى السلطان والنفوذ بل تعدى إلى ما كان بين الإخوان كما قرأت سابقاً فى كتاب ابن عباد الى الطبرى، وكتاب الصاحب الى ابن العميد، وكتاب الثعالبي فى التهنئة بالقدوم، وغيرها فى هذا المعنى كثير.

هـ - ولقد كان من نتيجة هذه الظاهرة أن حاد الكتاب عن التصريح بأسماء الخليفة والرؤساء وبألقابهم الى الكناية عنها تنزيهاً لها وتصوناً عن ذكرها فصاروا يكتنون عن الخليفة بالحضرة المقدسة النبوية أو السدة النبوية أو الخدمة الشريفة أو الديوان الشريف يعنون

ديوان الانشاء ، كما يكتنون عن الوزراء بالخضرة الوزيرية وهكذا حتى صار لكل طبقة من رجال الدولة والأعيان نعوت خاصة لا يخاطبون إلا بها تبعاً لاختلافهم في مقادير النفوذ ودرجات المنازل . وقد نال الكتاب من ذلك ما نال غيرهم ، فأخذوا ألقاب الشيخ والرئيس والاستاذ والصاحب . على أنهم تعدوا في هذا ، الألقاب إلى الدعاء فنوعوا في في جملة مراعاة لمكانة المکتوب إليه ، كأن يقولوا للخليفة أطال الله بقاء مولانا . ولولى العهد أطال الله بقاء الامير وللوزير أطال الله بقاءك وهكذا .

٦ - اتخذوا للرسائل نمطا خاصا هو أن يبدأوها بمخاطبة المرسل اليه بلقبه أو نعته بعد الإشارة إلى كتابه إن كان ثم منه كتاب ، ويعقبوا ذلك بالدعاء الملائم له بصيغة الغائب أيضا ، ثم ينتقلوا إلى المقصود بنفس هذه الصيغة غالبا وبصيغة الخطاب في بعض الأحيان ، وهذا ظاهر فيما أسلفنا من نماذج فلا داعي هنا إلى تمثيل .

وأخيرا بهذا النمط وما تقدمه من ميزات صار الانشاء في العصر العباسي الثالث فنا قائما له شخصية وحدود واضحتان في الأسلوب وأصبحت الكتابة حرفة ذات مصطلحات كمصطلحات العلوم والفنون فلنتركه إلى العصر الأخير لنرى ماذا كانت حال الأسلوب فيه .

د - في العصر الرابع - ورث العصر العباسي الرابع أسلوب الكتابة عن سلفه قوى النسيج جميل الرواق ، قد حالفه السجع في غير تكلف ، وظهر به الجناس والطباق من غير إكثار ، فيهر القارىء بأشراق معانيه ، كما راقه بحلى ألفاظه ، وشهد للكتائب بسعة الاطلاع في فنون الأدب

وقوة العتاد في صناعة القلم . وقد دعت سنة الرقي المطردة ورغبة النفس الدائبة في الزيادة ، أن يأخذ الكتاب منذ أواخره في الاكثار من الجنس والطباق، وأن يضموا اليهما ما وسعهما من سائر البديعيات ، وكان البديع إذذاك قد كثرت فنونه وتعددت محاسنه، واتفق أن ولد في آخر العصر الثالث رجل قدر له أن يكون حامل لواء الكتاب في هذا العصر الذي يليه، هو أبو محمد القاسم بن علي المعروف بالحريري .

ولد الحريري بقرية مشان القريبة من البصرة مدينة ابن المقفع والجاحظ سنة ٤٤٦، ولما كان قد خلق مفظورا على الأدب مهياً لما ذكرنا، غادر قريته إلى البصرة فأقام منها في محلة بني حرام، وتعلم بها علوم العربية حتى برع فيها وعنى عناية خاصة بمفردات اللغة وفنون البلاغة ، حتى صار في كليهما إماما ودعت شهرته الناس إلى الأخذ عنه فيهما، واتصل بالخلفاء العباسيين والأمراء السلاجوقيين، وما زال علما من أعلام العلم والأدب والكتابة والشعر حتى توفي بالبصرة سنة ٥١٦ . خلفا من الكتب : درة الغواص في أوهام الخواص ، وملحة الاعراب وهي أرجوزة في النحو ، وشرح ملحة الاعراب ، ومجموعة رسائله وديوان شعره ، ثم المقامات التي شخصته شاعرا، ونصبتة في الكتابة إماما .

أبدع رحمه الله في كتاباتها الابداع كله، وتلاعب بالالفاظ تلاعب بصوالجة بالأكر، فلم يدع فنا من البديع إلا استخدمه في قدرة عليه وتمكن منه ، مكثرا الألفاظ اللغوية والحكم المختارة، والأمثال السائرة والفكاهات المستملحة، والاقتباس من القرآن والحديث، والالمام بكتير من دقائق العلوم، ومتناولات الجدل وغرائب الحيل ، إلى غير ذلك مما

جعلله فذا في ابتكاره، وجعل الناس بعده عاجزين عن الجرى في مضماره لشدة ما تكلفه حتى صار له طبعاً وعلى غيره عبثاً، فأخذت ألفاظهم تكتم أنفاس المعاني حتى خفيت، واستكرهت المحسنات حتى سمجت وقبحت ثم نصب معين الأجداد من الكتّاب والفهم من القارئ بما أنسخ على الأدب، وعصف بذويه من تسلط الأتراك شرقاً والأكراد غرباً على الفاطميين العرب، والبويهيين المتعربين، وظهرت آثار ذلك من تكلف واستكراه، منذ أواسط العصر ظهوراً حاداً بأسلوب الكتابة في نصفه الثاني مما كان عليه في النصف الأول، وخلع على طريقتها فيه اسم الطريقة الفاضلية نسبة إلى القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي المتوفى سنة ٥٩٦ فقد أغرق في استخرام البديع، وغالى في التأنق حتى تجاوز الحد، فانقلب الحسن بهذا الغلو كما يقولون إلى الضد، وقد تقدمت له رسالة فارجم إليها تجمد التكلف بادياً والمعنى خافياً. ولقد كان هذا الخفاء أبدياً في الكتب العلمية التي تكلفوا فيها البديع إذ ذاك، منه في رسائل الانشاء كما هي الحال في كتاب «الفتح القسي في الفتح القدسي» الذي أرخ فيه عماد الدين الاصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ فتح صلاح الدين لبيت المقدس. فان من عباراته مالا يفهم إلا بالتأمل، ومن ألفاظه مالا غنية عن المعاجم في معرفة معناه على عكس ما ذكرنا عن كتاب اليميني أنفا.

وقدهالت هذه الغابة للالفاظ على المعاني بعض أدباء العصر إذ ذاك. فعملوا على مقاومتها وحضوا على مراعاة حرمة المعنى مع عدم الاجحاف بحق الألفاظ، وذلك بما ألفوا ورسموا كأبي الفتح ضياء الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ صاحب كتاب «المثل السائر في أدب الكتّاب والشاعر»

فقد بين فيه ما يتطلبه الأدب من كليهما في المعنى واللفظ على السواء ،
وله رسالة استهداء سابقة ليس فيها ما كان لعصره من تكلف اللفاظ
وإخفاء المعاني .

هذا ولا يفوتنا وقد انتهينا من وصف الأسلوب الكتابي في كل
عصر من العصور الأربعة العباسية وصفا مميزا أن نقول إن ذلك
واقع على اعتبار مجموع كتاب كل عصر لاكل كاتب فيه . فقد يحدث في
عصر متقدم أن ينشأ كاتب سابق لزمانه يلبس أسلوبه ثوب عصر بعده
كالزهرة تتفتح مبكرة في بستان ، ولما يتفتح بعد شيء من الأزهار .
واليك في هذا رسالة إبراهيم بن سيابة إلى يحيى بن خالد البرمكي التي
يقول فيها مستعظفا : - الأصيلد الجواد الواري الزنادي الماجد الاجداد ،
الوزير الفاضل الأثم الباذل اللباب الحلال ، من المستكين المستجير
البائس الضرير ، فاني أحمد اليك الله ذا العزة القدير ولي الصغير والكبير
بالرحمة العامة والبركة التامة . أما بعد فاعلم واسلم واعلم إن كنت لاتعلم
أنه من يرحم يرحم ، ومن يجرم يجرم ، ومن يحسن يغم ومن يصنع
المعروف لا يعدم . وقد سبق إلى تغضبك على واطراحك لي وغفلتك
عني بما لا أقوم به ولا أقعد ، ولا أنتبه ولا أرقد . فلست بحى صحيح ولا
بميت مستريح . فررت بعد الله منك اليك ، وتحملت بك عليك ولذلك قلت

أسرعت بي حثا اليك خطائي^(١) فأناخت بمذهب ذي رجا

راغب راهب اليك يرجي منك عفوا عنه وفضل عطاء

ولعمري ما من أصرو من تا ب مقرا من ذنبه بسواء

(١) جمع خطيئة من غير اعلال مماما .

فان رأيت أراك الله ماتحب وأبقاك في خير ، ألا تزهد فيما ترى
من تضرعى وتخشعى وتذلى وتضعفى . فان ذلك ليس لى بنجيزة ولا
طبيعة ولا على وجه تصنع ولا تخدع ، ولكنه تذلل وتخشع وتضرع
من غير ضارع ولا مهين ولا خاشع لمن لا يستحق ذلك إلا لمن
التضرع له عز ورفعة وشرف . ومثله من يجيد فى عصر ضعف وتأخر
كصاحب المثل السائر المذكور . وقد يحدث أن يكتب كاتب فى عصر
لاحق متأثراً بأصلوب كاتب سابق نشأ يتعشقه ويحتذى رسمه ، فتجىء
كتابته على غير طريقة عصره كأنها بقلم سلفه ، عن محاكاة أو معارضة ، على أنه
فى جميع هذه الاحوال لابد أن يكون هناك خضوع من الجميع
لمؤثرات العصر العامة وظروفه الشاملة

دواعى الرسائل وأغراضها ومكانة رجالها

مامن داعية دعت إلى الخطابة فى العصر العباسى الأول إلا دعت
إلى الكتابة فيه ، وما من غرض قصد إليه الخطيب تمت إلا قصد إلى
مثله الكاتب إذ ذاك ، ولهذا نرانا فى حل من العودة إلى تفصيل
الدواعى والأغراض هنا اتكالا على ما فصلنا هناك ، وإن هى إلا كرة
منا تذكرك فيها بما كان وتشير إلى موطن الشاهد فى النماذج ، أو نأتى
بجديد إذا دعت الحاجة إلى جديد ، ثم نخلص بعدها إلى ما انفردت به
الكتابة دون الخطابة فى ذلك العصر وفيما أعقبه من عصور

١ - فالكتابة قد استخدمت فى تثبيت قواعد الملك الجديد ضد
الطامعين فيه من العلويين والخارجين عليه من غيرهم ، وهانت ذا قد
قرأت ما صدرنا به نماذجها من الرسائل القوية الطويلة المتممة بين أبي

جعفر المنصور والنفس الزكية محمد بن عبد الله ، والآن فاقراً ما كان بين
أبي جعفر هذا وبين أبي مسلم الخراساني إذ بعث إليه من يحيى عليه
المغانم عقب انتصاره على عمه عبد الله بن علي ، فغضب وقال « أكون
أميناً على الدماء غير أمين على الأموال » وحدثته فنه بالخروج وهم
أن يعود إلى خراسان فكتب إليه المنصور « إني قد وليتك مصر
والشأم فهي خير لك من خراسان ، فوجه إلى مصر من أحببت ، وأقم
بالشأم حتى تكون بقرب أمير المؤمنين ، فإن أحب لقاءك أتيتك من
قريب » - فكتب إليه أبو مسلم وقد فهم أنه يريد بقاءه قريباً منه
لقتله - كما حدث بعد - « إنه لم يبق لأمر المؤمنين أكرمه الله عدواً إذ أمكنه
الله منه ، وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون من
الوزراء إذا سكنت الدهماء . فنحن نأفرون من قربك ، حريصون على
الوفاء لك بعهدك ما وفيت ، حريصون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد
حيث تقارنها السلامة . فإن أرضاك ذلك كنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت
إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضمناً بنفسي »
فكتب إليه المنصور - « قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة
أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة
لكثرة جرائمهم ، فإن راجتهم في انتشار نظام الجماعة . فلم سويت نفسك
بهم وأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء
هذا الأمر على ما أنت به ، وقد حمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن
موسى رسالته لتسكن إليها إن أصغيت إليها ، وأسأل الله أن يحول
بين الشيطان ونزغاته وبينك ، فانه لم يجد باباً يفسد به نيتك أو كد

وأقرب من طبه من الباب الذي فتحه عليك» . فأثرفيه ذلك على ما فهم
آنفا، ووقدم عليه فلقى حتفه .

٢ - والكتابة قد استخدمت في الاستعطاف والوعيد والعتاب
المصحوب بالعفو مما يدور حول الملك، وتعدته دون الخطابة إلى ما يدور حوله
فمن الاول في الاستعطاف : كتاب الصابي عن عضد الدولة إلى
أخيه مؤيد الدولة بشأن ذي الكفایتين علي بن محمد بن العميد ، ومنه
في الوعيد كتاب طاهر بن الحسين عن المأمون إلى نصر بن شيبث وكتاب
ابن العميد عن ركن الدولة إلى ابن ونداد ، ومنه في العتاب المصحوب
بالعفو كتاب ابن الزيات عن الخليفة إلى بعض العمال .

ومن الثاني في الاستعطاف كتاب ابن الرومي السابق ، ومنه في
الوعيد كتاب ابن الزيات إلى الصولي ، ومنه في العتاب كتاب الخوارزمي
إلى صديقه الذي لم يعده في مرضه ولم يهنئه بإبلاله وكتابه إلى تلميذه
الذي لم يزره بعد أن تخرج عليه .

٣ - والكتابة قد استخدمت في الحوار بين الخصماء وفيه بين
الأحباء وفيه بين المتفاحين . فمن الأول الرسائل المذكورة بين المنصور
والنفس الزكية ، ومن الثاني كتاب يحيى بن خالد إلى ابنه الفضل في
تنازله عن الخاتم لجعفر ، ورد الفضل عليه . أما الثالث فإليك منه رسالتين
مما كان بين الخوارزمي والبديع ، فإن الخوارزمي لما لم يحسن مقابلة البديع
على ما كتب له قبل لقائه في رسالة الشوق الماضية كتب إليه البديع -
الأستاذ والله يطيل بقاءه ، ويدعم تأييده ونعمائه ، أزرى بضيفه أن وجده
يضرب آباط القلة في أطمار العربة ، فأعمل في ترتيبه أنواع المصادفة وفي

الاهتزاز له أصناف المضايقة ، من إيماء بنصف الطرف وإشارة بشطر الكف، ودفع في صدر القيام عن التمام ، ومضغ الكلام وتكاف لرد السلام؛ وقد قبأت هذا الترتيب صغيرا واحتملته وزراواحتضنته نكراوتأبطته شرا ولم آله عذرا ، فأن المرء بالمال وثياب الجمال، وأنامع هذه الحال وفي هذه الاسمال لا أتقزز من صف النعال . ولو حاملته العقاب وناقشته الحساب وصدقته المتاع ، لقلت إن بوادينا ثاغية صباح، وراغية رواح وقوما يجرون المطارف ولا يمنعون المعارف .

وفيهم مقامات حسان وجوهمهم وأندية ينتابها القول والفعل على مكثريهم حق من يعترهم وعند المقلين الساحة والبذل ولو طوحت بالاستاذ أيدي الغربية إليهم لوجد منال البشر قريبا ومحط الرحل رحيبا ووجه المضيف خصيبا ، ورأيه أيده الله في أن يملأ من هذا الضيف أجفان عينه ويوسع أعطاف ظنه بموقع هذا العتاب الذي معناه ود، والمر الذي يتلوه شهد ، موفق إن شاء الله تعالى .

فكتب إليه الخوارزمي -

إنك إن كلفتني ما لم أطق ساءك ما سرك مني من خلق

فهمت ما تناوله سيدي من حسن خطابه، ومؤلم عقبه وعتابه، ووصرفت ذلك منه إلى الضجر الذي لا يخلو منه من نيا به دهر ، ومسه من الأيام ضر ، والحمد لله الذي جعلني موضع أنسه ومظنة مشتكي ما في نفسه ، أما ما شكاه سيدي من مضايقتي إياه زعم في القيام وتكفي لرد السلام، فقد وفيتة حقه كلاما وسلاما وقياما على قدر ما قدرت عليه ووصلت إليه ، ولم أرفع عليه غير السيد أبي القاسم، وما كنت لأرفع أحدا على من أبوه الرسول وأمه

البتول وشاهداه التوراة والانجيل، وناصره التأويل والتنزيل، والبشير
به جبريل ومكائيل . وأما عدم الجمال ورثاة الحال، فما يضعان عندي قدرا
ولا يضران نجرا، وإنما اللباس جلدة والزي حاية بل قشرة، وإنما يشغل
بالجل من لا يعرف قيمة الخيل، ونحن بحمد الله نعرف الخيل طارية من
جلالها، ونعرف الرجال بأقوالها وأفعالها لآلاتها وأحوالها، وأما القوم
الذين صدر سيدي عنهم وانتمى إليهم، ففيهم لعمري فوق ما وصف
حسن عشرة وسداد طريقة وجمال تفصيل وجملة، ولقد جاورتهم فقلت
المرتاد وأحمدت المراد .

فان أك قد فارقت نجدا وأهله فما عهد نجد عندنا بدميم
والله يعلم نيتي للاحرار عامة ولسيدي من بينهم خاصة . فان أعاني على
مرادى له ونيتي فيه بحسن العشرة، باغت له بعض مافى النية وجاوزت
مسافة القدرة، وإن تطع نلى طريق عزمى بالمعارضة وسوء المؤاخذة .
صرفت عنانى عن طريق الاختيار بيد الاضطرار

فما النفس الانطفة بقرارة اذا لم تكدر كان صفوا غديرها
وعلى هذا فخبذا عتاب سيدي إذا صادف ذنبا وامتتوجب عتبا . فأما أن
يسلفنا العريضة ويستكثر المعتبة والموجدة، فتلك حال نصونه عنها
ونصون أنفسنا عن احتمال متلها . فإيرجع بنا إلى ما هو أشبه به وأجل له
ولست أسومه أن يقول « لإتريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو
أرحم الراحمين » .

٤ - والكتابة قد استخدمت فى التعازى والتهانى وقد سافت فى
النماذج تهنته ابن المقفع بمولودة وتعزيتته عن بنت، ثم عن ابن، وتهنته أحمد بن

يوسف بن مولى ، وتهنئة عمرو بن ميمونة عن المأمون صهره الحسن بن
سهل بن مولى أيضا، وتهنئة الجاحظ الفتح بن خاقان في يوم عيد، وتهنئة الثعالبي
بالقدوم من سفر، وكذا تهنئة رشيد الدين الطواط وغيرها مما جاء بعدها.
وباب التمزية والتهنئة من أحفل أبواب التراسل وأكثرها مقولا
لاتصاله بنعماء الأيام وبأسائها. ويتصل به ما يكتب إلى الكرويين
بمرض أو غيره تصبيراً لهم وتمنياً لئواله عنهم، كما كتب ابن المعتز سابقا.
٥ - والكتابة قد استخدمت في التراف والتقرب عن طريق المدح
والثناء، كما فعل ابن العميد في كتابه إلى ركن الدولة عن نماء العلوم به ،
وكما كتب الصاحب إلى ابن العميد وقد وصف له البحر ، وكما كتب
عبد الله بن طاهر من خراسان إلى المأمون يقول
« بعدت داري عن أمير المؤمنين وعن ظل جناحه وعن خدمته ، وإن كنت
حيث تصرفت لا أتفياً إلا به . وقد اشتد شوقي إلى النظر إلى رؤيته المباركة
والترين بحضور مجلسه وتلقيح عقلي بحسن رأيه ، فلا شيء عندي آثر من قربه
وإن كنت في سعة من عيش وهبة الله جل ذكره لي به . فإن رأى أمير المؤمنين
أن يأذن لي في المصير إلى دار السلام لا أحدث عمدا بالنعم علي ، وأتهدأ
بالنعم التي أقرها لذي ، فعل - فكان جواب المأمون إليه - قربك إلى
يأبا العباس حبيب وأنا إليك مشتاق وإنما بعدت دارك عن أمير
المؤمنين بالنظر لك والتخير لحسن العاقبة فيك ، فالزم مكانك واتبع
قول الشاعر

رأيت دنو الدار ليس بنافعي إذا كان ما بين القلوب بعيدا
٦ - والكتابة قد استخدمت في بيان وجه الرأي لمن طلبه مستشيراً

كما كتب ابن المعتز أنفا مجيبا من يسأل كيف يكون كسب المحامد ، وكما كتب البديع ابن تيمية نفسه بصحبة الملوك يقول « إن الملوك إذا خدمتهم ملوك ، وان لم تخدمهم أذلوك ، وإنهم يستعظمون في الثواب رد الجواب ويستقلون في العقاب ضرب الرقاب ، وإنهم ليعثرون على عثرة من خدمهم فيبنون لها منارا ، ثم يوقدون لها نارا ، ويعتقدونها نارا ، فكن من الملوك مكانك من الشمس ، إنها لتؤذيك والسماء لها مدار والأرض لك دار ، فكيف لو أسفت قليلا وتدانيت يسيرا ، وإن العاقل ليطلب منها مزيد بعد ، فيتخذ سربا لو اذا وهربا ، ويبتغي في الأرض نفقا فرارا وفرقا » . ومما يتصل بهذا ما يصدر في كتب الترفع مما لا ينبغي أن يكون إلى ما يجب أن يكون ، كما تقدم في كتاب البديع إلى من هنا بمرض الخوارزمي ، وكما كتب محمد بن يحيى والى أرمينية للرشيد إلى بعض عماله وقد وشى إليه برجل ليأخذ مالاله يقول « قرأت هذه الرقعة المذمومة وفهمتها ، وسوق السعاية بحمد الله في أيامنا كسدة وألسنة السعاة كليلة خاسئة . فاذا قرأت كتابي هذا فاحمل الناس على قانونك ، وخدم بما في ديوانك ، فانا لم نولك الناحية لتتبع الرسوم العافية ، ولا لأحياء الأعلام الدائرة . وجنبنى وتجنب قول جرير يخاطب الفرزدق :

وكننت إذا حلت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عارا
وأجر أمورك على ما يكسب الدعاء لنا لأعلينا ، واعلم أنها مدة
تنتهي وأيام تنقضي ، فاما ذكر جميل ، وإما خزي طويل «

٧ - والكتابة قد استخدمت في النصائح والوصايا وفي العظات أيضا

على النهج الذي أوضحناه فيها، وإن كثر استعمالها في الأوليين وكان في الأخرى قليلاً. فمنها في الوصية ما كان يكتب به الخلفاء لآل ولياء عهدهم، وذوو الأقدار لناهبي أبنائهم، كما كتب المنصور لولي عهده المهدي، وطاهر بن الحسين لابنه عبد الله، ثم ما كان يكتب به كل رجل لمن يهتم بأمره من ذوى قريبه، كما فعل البديع مع ابن أخته إذ كتب إليه يقول: « أنت ولدي مادمت والعلم شانك، والمدرسة مكانك، والدفترا أليفك والمخبرة حليفك. فان قصرت ولا إخالك فغيري خالك ». ومنها في النصيحة ما كتب البديع إلى صديقه الذي مات أبوه يحذره التبذير والتقتير وما كتب ابن المقفع في أدبه الصغير من شتيت النصيح والارشاد. أما العظة فمنها ما كان من سفیان الثوري إلى الرشيد إذ كتب يدعوه إلى زيارته ويذكر له أن العلماء زاروه حين استخلافه وهنتوه، وأنه فتح لهم بيوت المال وأجزل لهم الصلوات. فانه حين وصل إليه الرسول بالكتاب وهو بمسجد الكوفة يعظ أصحابه، وقرأ ما فيه كتب إلى الرشيد على ظهره يقول: - بسم الله الرحمن الرحيم من العبد المذنب سفیان بن سعید بن المنذر الثوري إلى العبد المغرور هرون الرشيد الذي سلب حلاوة الايمان. أما بعد فاني قد كتبت اليك أعرفك أني قد صرمت حبلتك، وقطعت ودك وقليت موضعك، فانك قد جعلتني شاهداً عليك بأقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فأنفقته في غير حقه، وأنفذته في غير حكمة، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عني، حتى كتبت لي تشهدني على ذلك. أما إنني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين شهدوا قراءة كتابك، وسنؤدي الشهادة عليك

غدا بين يدي الله تعالى . ياهرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضام . هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليهم في أرض الله تعالى والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل؟ أم هل رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأراذل والأيتام؟ أم هل رضى بذلك خلق من رعيتك؟ فشد ياهرون مئزره وأعد للمسألة جوابا وللبلاء جلبابا، واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل، فقد رزئت في نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد، ولذيد القرآن ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظلما وللظالمين إماما . ياهرون قعدت على السرير وأسبلت سترا دون بابك وتشبهت بالحجبة رب العالمين، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وستره، يظلمون الناس ولا ينصفون، ويشربون الخمر ويضربون من شربها، ويزنون ويحدون الزاني، ويسرقون ويقطعون يد السارق، أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها الناس؟ فكيف بك ياهرون غدا إذا نادى المنادى من قبل الله تعالى «احشروا الذين ظلموا وأزواجهم» أين الظلمة وأعوان الظلمة؟ فقدمت بين يدي الله تعالى ويداك مغلولتان إلى عنقك، لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك، والظالمون حولك وأنت لهم سابق وإمام إلى النار . كأنني بك ياهرون وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق، وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك، وسيئات غيرك في ميزانك زيادة في سيئاتك، بلاء على بلاء وظلمة فوق ظلمة . فاحتفظ بوصيتي واتعظ بموعظتي التي وعظتكم بها، واعلم أنني قد نصحتك وما أبقيت لك في النصيح غاية فاتق الله ياهرون في رعيتك، واحفظ محمدا صلى الله عليه وسلم في أمته

وأحسن الخلافة عليهم، واعلم أن هذا الأمر لو بقي لغيرك لم يصل اليك وهو صائر إلى غيرك، وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحدا بعد واحد، فمنهم من تزود زادا نفعه، ومنهم من خسر دنياه وآخرته، وإني أحسبك ياهرون من خسر دنياه وآخرته فإياك إياك أن تكتب لي كتابا بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام^(١)

هذا على أنه قد بقيت من النماذج السالفة بقية تمثل أغراضا أخرى للكتابة لم تتناولها الخطب بل لم يتناول بعضها الشعر .
وهاهي ذى مصحوبة بما يتصل بها، وبما لا يتصل من سائر الأغراض التي لم يسبق لها في النماذج شيء

١ - الأخبار والاستخبار - كما كتب ابن المقفع فيما سلف وكما كتب ابراهيم بن المهدي إلى صديق له يقول « كتابي اليك كتاب مخبر وسائل ، فأما الأخبار فعن تصرف الخطوب على ما يوجب العذر عند صديق العزيز علي في إبطائي بالتعاهد له ، وأما السؤال فعن إمساك هذا الأخ الودود الودود عن مثل هذا ، فان السؤال كاشف ما سلف مصلح لما استؤنف »

٢ - الاستمناج والتوصل - كما كتب ابن المقفع والصولي آتفا

(١) قيل إن هرون لما وصله هذا الكتاب جعل يقرؤه ودموعه تتحدر فقال له بعض الحاضرين: قد اجترأ عليك يا أمير المؤمنين سفيان ، فلو أثقلته بالحديد، وضيق عليه السجن فقال لهم « اتركونا يا عبيد الدنيا فالمغرور من غررتموه، والشقي من أهلكتموه، إن سفيان أمة وحده » ثم أبقى الكتاب إلى جنبه يقرؤه رحمه الله عند كل صلاة حتى توفي

ومن أجهل ما وقع في هذا الباب ما كتب العتاني إلى أحد أصدقائه وهو :
« أما بعد أطال الله بقاءك وجعله يمتد بك إلى رضوانه والجنة ، فإنك كنت
عندنا روضة من رياض الكرم ، تبهج النفوس بها وتستريح القلوب
اليها ، وكننا نعفيها من النجعة استتماما لزهرتها وشفقة على خضرتها
وادخارا لثمرتها ، حتى أصابتنا سنة كانت عندي قطعة من منى يوسف
اشتد علينا كابها وطاش قحطها ، وكذبتنا غيومها وأخلفتنا بروقها ، وفقدنا
صالح الأخوان فيها ، فانتجعتك وأنا بانتجاعى إياك شديد الشفقة عاينك
عظيم المنة لك والثقة بك ، مع علمى بأنك موضع الرائد وأنتك تغطى
عين الحاسد ، وأنتك غاية أمل القصاد وأعذب مناهل الورد ، والله يعلم
أنى ما أعدك إلا فى حومة الأهل ، واعلم أن الكريم إذا استحيا من
إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير ، لم يعرف جوده ولم تظهر همته » فشاطر ،
ذلك الصديق ماله ومرافقه .

ومن أدق أنواع التوصل ما كان فى طلب المصاهرة : ولعل من
أوقع الرسائل فيه رسالة الصابى السابقة عن صديقه .

٣ - الاستنجاز - وقد تقدم للجاحظ نموذج منه ، وهو مثل
ما كتب العتاني قبله يقول « أما بعد فقد تركتني منتظرا لوعدهك متنجزا
لرفدك ، وطالب الحاجة محتاج إلى نعم هنيئة أولا مريحة ، والعذر الجميل
أحسن من المطل الطويل وقد قلت

بسطت لسانى ثم أوثقت نصفه فنضف لسانى بامتداحك مطلق
فان أنت لم تنجز عداتى تركتني وبقى لسان الشكر بالياس موثق
وأرفق منهما ما كتب به يحيى بن أكثم الى المأمون « أنت يا أمير

المؤمنين أكرم من أن نعرض لك بالاستنجاز، ونقابلك بالآذكار، وأنت شاهدى على وعدك، لاتأمر بشيء لم تتقدم أيامه ولم يقدر زمانه، ونحن أضعف من أن يستولى علينا صبر انتظار نعمتك، وأنت الذى لا يؤوده إحصان ولا يعجزه كرم، فعجل لنا يا أمير المؤمنين ما يزيدك كرما وتزداد به نعماء، ونلقاه بالشكر الدائم»

٤ - الاعتذار - كما كتب الصولى سابقا يعتذر من تأخر كتبه، وكما كتب البديع يقول « يعز على أيد الله الشيخ أن ينوب فى خدمته قلمى عن قدمى، ويسعد برؤيته رسولى قبل ورسولى، ويرد مشرع الانس به كتابى قبل ركابى، ولكن ما الحيلة والعوائق حجة

وعلى أن أسعى وليد س على إدراك النجاح

وقد حضرت داره وقبلت جداره، ومابى حب للحيطان ولكن شغف بالقطان، ولا عشق للجدران ولكن شوق الى السكان

٥ - الشكر - كما كتب الحسن بن وهب سابقا، وكما كتب العتافى الى بعض الرؤساء « كتب اليك ونفسي دأمة القيام بشكرك ولسانى لهج بالثناء عليك، والغالب على ضميرى لأئمة نفسى واستقلال جهدى فى مكافأتك، وأنت أعزك الله فى عز الغنى عنى، وأنا تحت ذل الفاقة إلى عطفك، وليس من أخلاقك أن تولى جانب النبوة منك، من هو عان فى الضراعة إليك ». ومن لطيفه وغريبه ما كتب به عبيد الله بن عبد الله بن طاهر إلى أحد الرؤساء وقد عاده « ما أعرف أحدا جزى العلة خيرا غيرى، فانى جزيتها الخير وشكرت نعمتها على، إذ كانت إلى رؤيتك مؤدية، فأنا كالأعرابي الذى جزى يوم البين خيرا فقال

جزى الله يوم البين خير افانه أرانا على علاقته أم حارث
أرانا ريبيات الحدود ولم نكن نراهن الا بانبعث الحوادث

٦ - الاستهداء - كما كتب ابن الاثير الموصلي فيما سبق يستهدى
صديقه العراقي تمرا ، وكما كتب ذو الكفايتين حفيد العميد يستهدى
شرايا فقال « قد اغتنمت الليلة أطال الله بقاء سيدي ومولاي رقدة
من عين الدهر ، وانتهزت فيها فرصة من فرص العمر ، وانتظمت مع
أصحابي في سبط الثريا ، فان لم تحفظ علينا النظام باهداء المدام ، عدنا كبنات
نعش والسلام »

٧ - الاهداء - كما كتب عبد الله بن طاهر إلى المأمون وقد أهدى
إليه فرسا « قد بعثت إلى أمير المؤمنين بفرس يالحق الأرانب في
الصعداء ، ويجاوز الظباء في الاستواء ، ويسبق في الحدود جري الماء
فهو كما قال تأبطشرا :

ويسبق وقد الريح من حيث تنتحي بمنخرق من شده المتدارك
وكتبت جارية من جوارى المأمون له وقد أهدت إليه تفاحة ،
« إنى لما رأيت تنافس الرعية في الهدايا إليك ، وتواتر اللطافهم عليك ، فكرت
في هدية تخف بثونها وتهون كلفتها ، ويعظم خطرها ويكمل موقعها ، فلم
أجد ما يجتمع فيه هذا النعمت ويكمل فيه هذا الوصف الا التفاح ، فأهديت
إليك منه واحدة في العذد كثيرة في التقرب ، وأحببت يا أمير المؤمنين
أن أعرب لك عن فضلها ، وأكشف لك عن محاسنها ، وأشرح لك لطيف
معانيها ، وما قالت الأطباء فيها ، وتفنى الشعراء في أوصافها ، حتى ترمقها

بعين الجلالة، وتلحظها بمقلة الصيانة، ولكن أقول كما قال أبوك الرشيد
رضي الله عنه: أحسن الفأهة التفاح اجتمع فيه الصفرة الدرية، والحمرة
الخرية، والشقرة لذهبية، وبياض الفضة ولون التبر، يلذبهما من الحواس العين
بدهجتها، والأنف بريحها، والفم بطعمها»

٨ - الشوق - كما تقدم للجاحظ إلى قليب ولا بن العميد إلى الطبرى.
وكتب الغتاني «لو اعتصم شوقي إليك بمثل سلوكك عنى لم أبذل وجه الرغبة
إليك ولم أتجشم مرارة تماذك . ولكن استخفتنا صبا بتنا فاحتمانا
قسوتك لعظيم قدر مودتك ، وأنت أحق من اقتصص لصلمتنا من جفائه
ولشوقنا من إبطائه » . وكتب عبدالله بن العباس العلوى إلى ابراهيم بن
المهدى « ما أدري كيف أصنع ، أغيب فأشتاق ونلتقى فلا أشتقى ، ثم يجدد
لى اللقاء الذى طلبت به الشفاء نوما من تجديد الحرقه بلوعة الفرقة »
فكتب إليه ابراهيم « أنا الذى علمتك الشوق لآنى شكوت ذلك اليك
فهيجت مثله منك » . ومما يتصل بالشوق الكتابة فى التعرف قبل اللقاء
كما كتب البديع إلى الامير أبى نصر الميكالى يقول « كتابى أطال الله
بقاء الأمير وبودى أن أكونه فاسعد دونه ، ولكن الحريص محروم ،
لو بلغ الرزق فاه لولا هرقاه . وبعد فانى فى مفاتيحه فى ثقة تعد ، ويد ترتعد ،
ولم ذاك والبحر وإن لم أره فقد سمعت خبره ، ومن رأى من السيف أثره
فقد رأى أكثره ، والليث وإن لم ألقه فلم أجهل خلقه . وما وراء ذلك
من تالد أصل ونسب ، وطارف فضل وأدب ، فعلوم تشهد به الدفاتر والخبر
المتواتر ، وتنطق به الأشعار كما تحلف عليه الآثار ، والعين أقل الحواس
إدراكا ، والأذن أكثر استمساكا »

٩ - الاستزارة - كما سبق من الخوارزمي إلى تلميذه ، وكما كتب بعضهم إلى صديق يقول « ليس من قدرى أدام الله سعادتك أن أقول لك جعلت فداك ، لآثي أراك فوق كل قيمة نضيرة وثمن معجز ، ولأن نفسي لا تساوي نفسك فتقبل في فديتك ، وعلى كل حال جعلني الله فداء ساعة من أيامك . واعلم أيها السيد العلي المنزلة ، أنه لو كان لعبدك من شدة الخطب أمر يقف عند حده النعت . لاجتهدت أن يصف من ذلك ما عسى أن يعطف به زمام قلبك ، ويحنو على الرقة والتحنى أثناء جوارحك ، ولكن ما أمسيت وأصبحت ممتحننا به فيك ، منع كل بيان ونزح عن كل لسان ، والود أيها الصديق لم يشبهه قذى ريبة ، ولم يختلط به ثاب معاب ، فلا ينبغي لمن كرمته أخلاقه أن يعاف قرابة صاحبه المدل بحسن نيته والذي أتمناه أيها المولى الحبيب مجلس أقف فيه أمامك ثم أبوح بما أضنى جسدي وفتت كبدي ، فان خف ذلك عليك ، ورأيت نشاطا من نفسك إليه ، كنت كمن فك أسيرا وأبرأ عليلا ، رسلك من الخير سبيلا ، يتوعد سلوكها على من كان قبله ويكون بعده ، ثم أضاف إلى ذلك منة لا يطيقها جبل راس ولا فلك دائر ، فز أيلك أيها السيد المعتمد في الاسعاف قبل أن يبدرنى الموت فيحول بيني وبين ما نزعته إليه النفس ، مواصلا برا إن شاء الله ^(١) .

(١) كان جواب هذه الرسالة الممعنة في الضراعة والتزلف رسالة مثلها في ذلك وهي « تولى الله تعالى ماجرى به لسانك بالمزيد ، ولا أوحش ما بيننا بطائر فرقة ولا حافر تشقيت ، وضمننا وإياك في أوثق حبال الأانس وأؤكد أسباب الألفة . وقفت على ما خلصته من العجز عن بلوغ ما خامر قلبك وانطوى في ضميرك من

ومما جرت العادة بالاستزارة فيه مجالس الأانس والمنادمة، كما كتب
إسحق بن ابرهيم الموصلى لبعض الكبراء « يومنا يوم لين الحواشي وطيء
النواحي، وسماؤنا قد أقيمت ورعدت بالخير وبرقت، وأنت قطب السرور
ونظام الأمور، فلا تفردنا فنقل ولا تنفرد عنا فنذل ». وكما كتب
الحسن بن سهل إلى الحسن بن وهب وقد اصطبغ في يوم دجن لم
يمطر « أما ترى تكافؤ هذا الطمع واليأس في يومنا هذا بقرب المطر
وبعده كأنه قول كثير عزة :

وإن وتهيامي بعزة بعدما تخليت مما بيننا وتخلت
لكالر تجبي ظل الغمامة كلما تبوأ منها للمقيل اضمحللت

وما أصبحت أمنيته إلا في لقائك، فليت حجابا هتك بيني وبينك،
ورقعت هذه وقد دارت زجاجات أوقعت بعقلي ولم تتحيفه، وبعثت في
نشاطا حركني للكتابة إليك، فرأيتك في إمطارى سرورا بسار خبرك
إذ حرمت السرور بمطر هذا اليوم، موقفا ان شاء الله (١) ». وكتب

الشغف المقلق والهوى المضرع . ولعمري لو كشف لك عن معشار ما اشتمل
عليه مضمير صدري، لأيقنت أن الذي عندك إذا نسبته إلى ما عندي كالملاشي
الزائل، ولكنك بفضل الانعام سبقتنا إلى كشف مافي الضمير . وأما طاعتي
لك وزمامي إليك، فطاعة العبد المقتنى الطائع لما يحكم به وعليه مولاه وهالكه،
وأنا صار إليك وقت كذا فتأهب لذلك بأجهد حافية وأتم طاقبة وأسعد نجم
جري بألفة إن شاء الله تعالى »

(١) كانت إجابة ابن وهب له « وصل كتاب الأمير أيده الله وفي طاعم
ويدي عاملة، ولذا تأخر الجواب قليلا . وقد رأيت تكافؤ إحسان هذا اليوم

الحسن بن سهل أيضا في مثل ذلك إلى صديق « نحن في مأدبة لنا تشرف على روضة تضاحك الشمس حسنا وقد بان السماء تعلها ، فهي مشرقة بأها حالية بنوارها. فرأيك فينا لذكورن سواء في استمتاع بعضنا ببعض ». فكان الجواب « هذه صفة لو كانت في أقاصى الاطراف لوجب انتجاعها وحث المطى في ابتغائها، فكيف في موضع أنت تسكنه ، وتجمع إلى أنيق منظره حسن وجهك ، وطيب شمائلك وأنا الجواب ». وقد رقت المكاتبات في هذا الباب وما تقدمه حتى أصبحت غزلا منتورا لا يفرقه عن غزل الشعر إلا القافية والوزن كما قرأت فيما مر .

١٠ - شكوى الدهر - كتب الصولي إلى بعض إخوانه « يا أخى أشكو إلى الله وإليك تحامل الايام على ، وسوء أثر الدهر عندي ، وأنى معلق في حبائل من لا يعرف موضعي ولا يحلو عنده موقعي . أطلب منه الخلاص فيزيدني كفا، وأرتجى منه الحق فيزداد به صننا ، فالتواء ثواء مقيم ، والنية نية ظاعن وبزمام الرأى مرتحل . ما أذهب إلى ناحية في الحيلة إلا وجدت من دونها مانعا من العوائق ، وأحمل الذنب على الدهر فأرجع إلى الله بالشكر ، وأسأله جميل العقبي وحسن الصبر » . وكتب ابن العميد في مثل ذلك « إنما أشكو إليك جعلي الله فداك دهرنا خثونا غدورا ، وزمانا خدوطا غرورا ، لا يمنح ما منح إلا ريثما يتزع ،

وإساءته ، وما استوجب ذنبا يستحق به عتبا . لأنه إذا أشمس حكي حسنك وضيائك ، وان أمطر حكي جودك وسخائك ، وان غام أشبه ظلك وفناءك ، وسؤالى الآن عن نعمة من نعم الله عز وجل ، على أعنى بها آثار الزمان المسمى عندي ، وأنا كما يحب الأمير ، صرف الله الحوادث عنه وعن حظي منه » .

ولا يبقى فيما يهب إلا ريثما يرتجع : يبدو خيره لمعاً ثم ينقطع ويحلو ماؤه
جرعاً ثم يمتنع . وكانت منه شيمة مألوفة وسجية معروفة أن يشفع
ما يبرمه بقرب انتقاض ، ويهدي لما يبسطه وشك انقباض . وكنا نلبسه
على ما شرط وإن حاف فيه وقسط ، ونرضى على الرغم بحكمه ، ونسلم
ونستثم بقصده وظلمه ، ونعتد من أسباب المسرة ألا يجيء محذوره
مصمتاً بلا انفراج ، ولا يأتي مكروهه صرفاً بلا زاج ، وتعلل بما تختلسه
من غفلاته ونسرقه من ساطاته . ونداستحدث غير ما عرفناه سنة مبتدعة
وشريعة متبعة ، وأعد لكل صالحاً من الفساد حالاً وقرن بكل خلة
من المكروه خللاً .»

١١ - الموازنة والمناقضة - فأما الموازنة فهي المفاضلة بين شيئين
بذكر محاسن كل ومقابحه أو منفعه ومضاره ، وقد راجت سوقها حتى
ألفت فيها كتب في العشرين الثالث والرابع كما سيأتي في تدوين الأدب
بعد . وأما المناقضة ، فهي أن يعمد الكاتب إلى الشيء يكون ذا فضل
على غيره فيسلبه ماله من فضل ، ويثبت لهذا المفضول ما يجعله فاضلاً ، كما
فعل سهل بن هرون في تفضيل الزجاج على الذهب من رسالة يقول فيها .
« الزجاج مجلو نوري والذهب متاع سائر ، والشراب في الزجاج أحسن
منه في كل معدن ، ولا يفقد معه وجه النديم ولا يشغل اليد ولا يرتفع في
السوم . واسم الذهب يتطير منه ، ومن لؤمه سرعته إلى اللثام ، وهو فاتن
فإنك لمن صانه . وهو أيضاً من مصايد إبليس ، ولذلك قالوا أهلك الرجال
الاحمران ، والزجاج لا يحتمل الوضوء ولا يداخله الغمر ، ومتى غسل بالماء
وحده عاد جديداً ، وهو أشبه شيء بالماء ، وصفته عجيبة وصناعته أعجب »

١٢ - التفكه والتندر - كما كتب الجاحظ إلى صديق له يوصيه
برجل لا يعرفه يقول « هذا كتابي مع من لا أعرفه وقد كلني فيه من
لا أوجب حرمة، فان قضيت حاجته لم أجدك، وإن رددته لم أذمك ». .
وكما كتب أبو هرون العبدى إلى السيدة زبيدة وقد هلك لها قرد
مستأنس « أيتها السيدة الخطيرة إن موقع الخطب بذهاب الصغير
المعجب كموقع السرور بنيل الكثير المفرح . ومن جهل قدر التعزية عن
التأفه الخفى، عمن عن التهنئة بالجليل السنى . فلانقضك الله الزائد فى سرورك
ولا حرمك أجز الذهب من صغيرك » . وكتب البديع الى رجل ألح
عليه فى طلب العطاء وقال له « لم لاتديم الجود بالذهب كتهديه بالأدب ». .
« طافك الله ، مثل الانسان فى الاحسان كمثل الأشجار فى الثمار، سبيله
إذا أتى بالحسنة أن يرفه إلى السنه ، وأنا لا أملك عضوين من جسدى
وهما فؤادى ويدي . أما الفؤاد فيعلق بالفؤود، وأما اليد فتولع بالجود ،
لكن هذا الخلق النفيس ليس يساعده الكيس ، وهذا الطبع الكريم
ليس يحتمله الغريم . ولا قرابة بين الذهب والأدب فلم جمعت بينهما ؟
والأدب لا يمكن ثرده فى قصعة، ولا صرفه فى ثمن سلعة ، ولى من
الأدب نادرة . جهدت فى هذه الأيام بالطباخ أن يطبخ لى من جيمية
الشاخ لونا فلم يفعل، وبالقصاب أن يبتاع أدب الكاتب فلم يقبل، وأنشدت
فى الحمام ديوان أبى تمام فلم ينفذ ، ودفعت إلى الحجام مقطعات اللحم^(١)
فلم يأخذ ، واحتيج فى البيت إلى شىء من الزيت فأنشدت من شعر الكميت
ألفى ومائتى يدت فلم تغن، ولو وقعت أرجوزة العجاج فى توابل السكباج^(٢)

(١) شاعر تغلبى (٢) لحم يطبخ بالخل طعام فارسي

ما عدمتها عندي ، ولـكنها ليست تقع فما أصنع . فان كنت
تحسب اختلافك إلى إفضالا علي ، فراحتي في ألا تطرق راحتي ،
وفرجسي في ألا تجسي . ولعل من هذه الناحية ما يكتب به في
المواطن التي لا تحسن فيها الكتابة كما فعل ابن العميد إذ كتب إلى
شخص تزوجت أمه يقول : « الحمد لله الذي كشف عنا ستر الحيرة
وهدانا لستر العورة ، وجدع بما شرع من الحلال أنف الغيرة ، ومنع من
عضل الامهات كما منع من وأد البنات ، استنزالا للنفوس الأبية عن
الحمية حمية الجاهلية ؛ ثم عرض للجزيل من الأجر من استسلم لواقع
قضائه ، وعوض جزيل الثواب والذخر من صبر على نازل بلوائه ، وهناك
الله الذي شرح للتقوى صدرك ووسع في البلوى صبرك ، ما ألهمك من
التسليم لمشيئته والرضا بقضيته ، وما وفقك له من قضاء الواجب في
أحد أبويك وفي عظم حقه عليك . وجعل الله تعالى جده ، ما تجرعتة
من أنف وكظمتة من أسف ، معدودا فيما يعظم عليه أجرك ويجزل به
ذخرك ، وقرن بالحاضر من امتعاضك لفعالها . المنتظر من ارتماضك لدقنها ،
فتستوفي بها المصيبة وتستكمل عنها المثوبة ، ووصل الله سيدي من الصبر
على عروسها ، بما يستكسبه من الصبر على نفسها ، وعوضه من أسرة
فرشها أعواد نعشها ، وجعل تعالى جده ، ما ينعم به عليه من نعمة ، معرى
من نقمة ؛ وما يوليه بعد قبضها من منحة مبرأ من محنه . فأحكام الله تعالى
جده ، وتقدست أسماؤه جارية على غير مراد المخلوقين لكنه تعالى يختار لعباده
المتقين ما هو خير لهم في العاجلة ، وأبقى لهم في الآجلة ، اختار الله لك في قبضها
إليه وقدمها عليه ، ما هو أنفع لها وأولى بها وجعل القبر كقواها والسلام .

١٣ - الذم والتهكم - وهو باب حافل في الكتابة بكثير من أنواع
للذم حفل الشعر به - كتب أحمد بن يوسف يهجو بني سعيد بن
سلم « لولا أن الله ختم نبوته بمحمد وكتبه بالقرآن، لنزل فيكم نبي نعمة
وأنزل فيكم قرآن غدر، وما عسيت أن أقول في قوم محاسنهم مساوي
السفل، ومساويهم فضائح الأثم، وألسنتهم معقولة بالغي، وأيديهم مغلولة
بالبخل، وهم كما قال الشاعر :

لا يكبرون وإن طالت حياتهم ولا تبديد مخازبهم وإن بادوا
وكتب أبو العتاهية إلى الفضل بن معن بن زائدة « أما بعد فاني توصلت
إليك في طلب نائلك بأسباب الامل وذرائع الحمد، فرارا من الفقر ورجاء
للغنى، فازددت بهما بعدا مما إليه تقربت وقرها بما عنده تباعدت. وقد قسمت
للأئمة بيني وبينك لأنني أخطأت في سؤالك وأخطأت في منعي، وأمرت
باليأس من أهل البخل فسألتم ونهيت عن منع أهل الرغبة فمنعتهم». .
وكتب ابراهيم بن المهدي « أما بعد فانك لو عرفت فضل الحسن لتجنبيت
شين القبيح. وقد رأيتك وآثر القول عندك ما يضرك، فكنت فيما كان
منك ومنا، كما قال زهير بن أبي سلمى

وذى خطل في القول يحسب أنه مصيب فما يلهم به فهو قائله
عبأت له حلما وأكرمت غيره . وأعرضت عنه وهو باد مقاتله
وكتب بشر بن أبي كبار البلوي إلى ابراهيم بن عبد الله الحنفي والي صنعاء
لهرون الرشيد حين هم بتوليته بعض النواحي فمنعه هشام بن يوسف
البناعي « أما بعد فان رأي الامير أمتع الله به ألا يعلم هشام ما يريد
من صلاتي فعل، فانه لم يردني وآلي قط بخير، ولم يفتح لي الأبر باب صلة

فتكون منه خالصة لا يريد بها إلا وجه الله وحده ، ولا يرجو بها إلا ثوابه ؛ إلا عرض هشام من دونها فتعلمها وكرهها ، وأدار القياس عليها وضرب لها الأمثال ، وألقى الحيلة فيها إلى الكاتب والحاجب وقاسمها بالله إنى لك لمن الناصحين ، ومدحني بما لم يسمع به من أخلاقي ، وانتقصني فيما لا يطمع بغيره مني ، ليكون ما أظهر من المدحة مصدقا لما أسر من العيبة ، ثم زخرف ذلك بالموعظة ، وزينه بالنصيحة وقاربه بالمودة وأغراه من ناحية الشفقة ، وشهد عليه أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، فإذا الحاجب يزلقني ببصره ، وإذا الكاتب يسلقني بلسانه ، وإذا الخادم يعرض عني بجانبه ، وإذا الوالي ينظرني نظر المغشى عليه من الموت . فصارت وجوه النفع مردودة وأبواب الطمع مسدودة ، وأصبح الخير الذي كنت أرجوه هشيما تذروه الرياح والهالة التي كنت أشرفت عليها صعيدا زلقا وأصبح ماؤها غورا فلن أستطيع له طابيا ؛ فأسال الله الذي جعل لكل نبي عدوا من المجرمين أن يكفيبي شره ويصرف عني كيده فإنه يراني هو وقبيله من حيث لا أراهم والسلام »

١٤ - الوصف - وكما أن هذا الباب جاء في الشعر أحفل أبوابه كذلك جاء في الكتابة ، وقد تقدم منه ووصف ابن المقفع لكتاب كليله ودمنة ، ووصف الجاحظ للكتب ووصفه للضحك ، ووصف الصاحب لصحف ، قرآنا وخطا . وهناك منه بعضا منوطا - كتب عبد الله بن طاهر وهو بخراسان إلى اسحق بن ابراهيم ببغداد يسأله أن يوجه اليه بأقلام : « أما بعد فأنا على طول الممارسة لهذه الصنعة التي غلبت على الاسم

ولزمت لزوم الرسم. فحلت محل الأنساب وجرت مجرى الألقاب، وجدنا
الأقلام القصبية أسرع في الكواعد وأمر في الجلود، كما أن البحرية منها
أملس في القراطيس وألين في المعاطف، وأكل عن تمزيقها والتعاق بما
ينبو عن شظاياها، ونحن في بلاد قليلة القصب ردىء ما يوجد بها منه،
فأحببت أن تتقدم باختيار أقلام قصبية، وتتأق في انتقائها قبلك، وطلبها
في منابتها من بشطوط الأنهار وأرجاء الكروم، وأن تقيم باختيارك
منها، الشديدة المجس، الصلبة المعض، الغليظة الشحوم، المكتنزة الجوانب
الضيقة الأجواف الرزينة الوزن، فإنها أبقى في الكتابة وأبعد من الخفاء،
وأن تقصد بانتقائك منها الرقاق القصبان، اللطاف المنظر المقومات الأود،
الملس العقد، ولا يكون فيها التواء عوج ولا أمت وضم، الصافية القشور
الخفية الأبر، الحسنة الاستدارة الطويلة الأنايب البعيدة ما بين الكعوب
الكريمة الجواهر المعتدلة القوام، تكاد أسافلها تهتز من أعاليها لاستواء
أصولها برءوسها، المستكلمة يابس القائمة على سوقها. قد تشرب الماء في
لحائها، وانتهت في النضج منتهاها، لم تعجل عن تمام مصلحتها وإبان
ينعها، ولم تؤخر في الأيام المخوفة عاهاتها من خصر الشتاء وعفن الندى.
فاذا استجمعت عندك، أمرت بقطعها ذراعا ذراعا رقيقا تتحرز
معه أن تتشعب رءوسها وتتشق أطرافها. ثم عبأت منها حزما فيما
يصونها من الأوعية وعليها الخيوط الوثيقة ووجهتها مع من تحتاطه في
حراستها وحفظها وإيصالها إذ كان مثلها يتوانى فيها لقلة خطرها عند
من لا يعرف فضل جوهرها». وكتب الخوارزمي يصف رمد الأضبابه:
«صادف ورود الكتاب زمدا في عيني حصرني في الظلمة، وحبسني في

الغم والنقمة ، وتركني أدرك بيدي ما كنت أدرك بعيني ، كليل سلاح
البصر: قسیر خطوط النظر ، قد ثكأت مصباح وجهي وهدمت بعضی
الذی هو آثر عندي من كلی ، فالأبيض عندي أسود والقريب مني مبعده ،
قد خاٹ الوجع أجفاني ، وقبض عن التصرف بناني ، ففراغی شغل ونهاری
ليل وطوال الحاظی قصار ، وأنا ضریرو إن عددت فی البصراء ، وأمی وإن
كنت فی جملة الكتاب والقراء ، قصرت العلة خطوة قلبي وبناني ، وقامت
بين يدي ولساني « . - وكتب القاضي الفاضل يصف حمام الرسائل -
تحمل من البطائق أجنحة ، وتجهز جيوش المقاصد والأقلام أسلحة . وتحمل
من الأخبار ما تحمله الضمائر ، وتطوى الأرض إذا نشرت الجناح الطائر ،
تكون مراكب الأغراض والأجنحة قلوطا ، وتركب الجو بحرا بصفق
فيه هبوب الرياح موجا مرفوعا ، ومن بلاغات البطائق استفادت ماهي
مشهورة به من السجع ، ومن رياض كتبها ألفت الرياض فهي إليها دائمة
الرجع ، وقد مسكنت النجوم فهي أنجم وأعدت في كنفاتها فهي أسهم ،
وكادت تكون ملائكة لأنها رسل نيطت بها الرقاع فصارت أولى
أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، وقد باعد الله ما بين أسفارها وقربها ، وجعلها
طيف خيال اليقظة الذي صدق العين وما كذبها ، ترغم أنف النوى
بتقريب العمود ، وتكاد العيون بملاحظتها تلاحظ نجم السعود ، وهي
أنبياء الطيور لكثرة ما تأتي به من الأنباء ، وخطباؤها لأنها تقوم على
منابر الأغصان مقام الخطباء « . - وكتب الموصلي يصف روضة -
« جنة عات أرضها أن تمسك ماء ، وغنيت بينبوعها أن تستجدى سماء ، وهي
ذات ثمار مختلفة الغرابة وتربة منجبة وما كل تربة توصف بالنجابة ،

ففيها الشمس الذي يسبق غيره بقدمه ، ويقذف أيدي الجنين بنجومه ،
فهو يسمو بطيب الفرع والنجار ، ولو نظم في جيد الحسنة لاشتبه بقلادة
من نضار ، وله زمن الربيع الذي هو أعدل الأزمان ، وقد شبهه بسن الصبا
في الاسنان . وفيها التفاح الذي رق جلده وعظام قدمه وتوردخده وطابت
أنفاسه فلا بان الوادي ولا رنده ، وإذا نظر إليه وجد منه حظ النعم
والنظر ، ونسبته من سرر الغزلان أولى من نسبته إلى منابت الشجر .
وفيها العنب الذي هو أكرم الثمار طينة ، وأكثرها ألوان زينة وأول
غرس اغترسه نوح عليه السلام عند خروجه من السفينة ، يميل
بكف قاطفه ، ويغرى بالوصف لسان واصفه . وفيها الرمان الذي هو
طعام وشراب وبه شبهت نهود الكعاب . ومن فضله أنه لا نوى له
فيرى نواه ولا يخرج اللؤلؤ والمرجان من فاكهة سواه ، وفيها التين
الذي أقسم الله به تنويها بذكره ، واستتر آدم عاينه السلام بورقه إذ
كشفت المعصية من ستره ، وخص بطول الأعتاق فما يرى بها من ميل
فهو نشوة من سكره ، وقد وصف بأنه راق طعاما ونعم جسما ، وقيل هذا
إنه مليء شهيدا لا إناء مليء علما . وفيها من ثمرات النخيل ما يزهى بلونه
وشكاه ويشغل بلذة منظره عن لذة أكله وهو الذي فضل ذوات الافنان
يعرجونه ، ولا تماثل بينه وبين الحلواء « هذا خلق الله فأروني ماذا خلق
الذين من دونه » وفيها غير ذلك من أشكال الفاكهة وأصنافها وكما معدود
من أوساطها لا من أطرافها ولقد دخلتها فاستهوتني حسدا ولم ألم
صاحبها على قوله « لن تبديد هذه أبدا » . هذا وقد ضربوا بالوصف في ناحية
المعنى كما ضربوا في ناحية الحس ، كتب الحسن بن سهل إلى محمد بن سماعة

القاضي يطلب إليه رجلا يستعين به في أموره: « أما بعد فاني احتجت لبعض أسورى إلى رجل جامع لخصال الخير، ذى عفة ونزاهة طعمه، قد هذبتة الآداب وأحكمتة التجارب، ليس بظنين في رأيه، ولا بطعون في حسبه إن أوّمن على الأسرار قام بها، وإن قلد مهما من الأمور أجزأ فيه له سن مع أدب ولسان، تقمده الرزانة ويسكنه الحلم، قد فر عن ذكاء وفطنة، وعض على قارحة من البجال، تكفيه اللحظة وترشده السكينة. وقد أبصر خدمة الملوك وأحكمتها، وقام في أمورهم فحمد فيها، له أناة الوزراء وصولة الأمراء وتواضع العلماء وفهم الفقهاء وجواب الحكماء، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه، دلائل الفضل عليه لأثمة وأمارات العلم له شهادة، مضطلع بما استنمض مستقل بما حمل، وقد آثرتك بطلبه وحبوتك بارتياحه، ثقة بفضل اختيارك ومعرفة بحسن تأتيك »^(١)

١٥ - البيعة بالخلافة: وولاية العهد، والعهود، والمنشورات وكل ذلك كان يكتب بالاسهاب والأطناب. فالبيعة كان يفصل فيها ما يجب للخليفة على الأمة وما يجب للأمة على الخليفة وكانت تملأ بالآيمان المخرجة على الوفاء لما فيها والاخلاص في الطاعة لصاحبها. وكذلك كانت الصفة في ولاية العهد. وكتاتهما كانت تتلى على الناس ويشهد عليها ولو الحل والعقد،

(١) كان جواب ابن سماعة أن كتب إليه « إني عازم أن أرغب إلى الله

عز وجل حولا كاملا في ارتياد مثل هذه الصفة، وأفرق الرسل والثقات في الآفاق لالتماسه، وأرجو أن يمن الله بالأجابة فافوز لديك بقضاء حاجتك والسلام »

ثم تسجل في الديوان لتكون حجة على الخارجين والمدعين. ولقد غالوا في التشديد فيهما لما بدا على الناس من النكث والغدر فضمنوها أيمان الطلاق حتى من الزوجات المستقبلية وإعتاق الرقيق كذلك ، وعلقوها على الكعبة تحت نظر سدنتها مبالغة في الحرمة والاشهار، ومع هذا كله كان يوجد الخنث بها في كثير من الأحيان

والعهود كانت تختلف باختلاف عمل المعهود إليه. ففي العهد بالامارة كانت تفصل الصفات اللازمة للولاية من حزم وعدل ونزاهة واستمسك بالدين ورعاية للصالح العام ، وتذكر البلاد التي تتناولها الولاية ثم تختم بتوثيق العهود على المولى أن يخلص فيما ولى وأن يكون عند ظن الخليفة به . وفي العهد بامارة الجيش كانت تعد الصفات الملائمة من شجاعة وحسن كيد وقوة وصرامة ، وتبين ضرورة القوة للمحافظة على الدولة وحماية الثغور ، كما تبين ضرورة المحافظة على الجند مما تسوء عاقبته في أجسامهم وعقائدهم ، ثم يختم بالتوكيد كذلك . وفي العهد بالقضاء كانت توضح الصفات الواجبة في القاضى من علم وأمانة وتقوى ونزاهة، وتبين الأمور التي يجب أن يعنى بها من توزيع المواريث وحفظ أموال اليتامى وحسن القيام على الأوقاف والحبوس، كما تطلب إليه الدقة في اختيار كتبه وشهوده ، وفي مناقشة الشهود لاستخلاص الحقيقة، وفي تجنب الهوى الحائف أو المحابى ، وينتهى بمثل ما انتهى به العهدان السابقان من توكيد . وهكذا كان التنويع في العهود الأخرى من دنيوية كالعهد بالخراج والشرطة والأمان، أو دينية كالعهد بامامة الصلاة وتخصيل الزكاة والقيام على الحاج، وغير ذلك مما كان في سائر العهود .

أما المنشورات فكانت الوسيلة لإعلان الخطير من الأمور الدينية والسياسية وخاصة أيام الفتن ، بقراءتها على العامة في الولايات ليقفوا على رأى الخلافة فيسيروا كما تريد ، وكانت الوسيلة كذلك في إعلان الابتهاج بما يسر من فتح وانتصار ، وتهوين ما يسوء من هزيمة وانكسار.

وأمثلة هذه الأنواع الأربعة مستفيضة في كتب التاريخ لاتصالها بسياسة الدولة ، وفي كتب الأدب لرسوخها في بلاغة الاطناب ، وليس يتسع المقام للآتيان بنماذج منها لاسهابها فليرجع إليها فيما ذكرنا

١٦ - وأخيرا استخدمت الكتابة في إنشاء الرسائل المطولة لغير الاخوانيات ، كالسياسة والاخلاق والعلم والاجتماع ، وما إلى ذلك مما لم يكن للناس عهد بالكتابة فيه ، ومما يشبهه في زماننا الحاضر ، ما نقرؤه لولاة الأمور وكبار الكتاب في خطيرات المسائل بالصحف والمجلات. وليس من شك وقد نشأ ذلك أول ما نشأ في العصر العباسي على يد ابن المقفع وبأنشائه ، أنه قد سرى إليه مما قرأ في لغة فارس منه ، فعكس صورته على لغة العرب في كثير مما أنشأ ، وقد سبق التعريف في منشأته بالدرة اليتيمة ورسالة الصحابة وهما في السياسة ، وبالآدب الصغير وهو في الأخلاق ، وبالآدب الكبير وهو فيهما معا ، واختيرت نماذج منها جميعا. ثم جاء بعده الجاحظ فأكثر من هذه الرسائل فيما سمينا وفيما لم نسّم من موضوعات ، وقد طبعت له مجموعة تشمل إحدى عشرة رسالة ، أولها منفصلة الرقم في الحاسد والمحسود وسبق اختيار شيء منها ، والعشر الباقيات متصلات الأرقام وهي على الترتيب ، في مناقب الترك وطامة

جند الخلافة، وفي نحر السودان علي البيضان، وفي التريبع والتدوير، وفي تفضيل النطق علي الصمت، وفي مدح التجار وذم عمل السلطان، وفي العشق والنساء، وفي الوكلاء، وفي استنجاز الوعد، وفي بيان مذاهب الشيعة، ثم في طبقات المغنين. ومن الرسائل المطولة الممتعة لغير هذين الامامين الراسمين، الرسالة العذراء لابراهيم بن المدير في صناعة الكتابة، ورسالة سهيل بن هرون في مدح البخل، ورسالة الصابون في الصيد، ورسالة البصاحب في الطب، وغيرها مما تفتقت عنه أذهان هؤلاء وأمثالهم من الكتاب العلماء، فكان إيذاناً بأقبال القوم على التأليف والتصنيف إذ كان النواة له، وقد أخذ بعض الرسائل اسم الكتاب كالأدين الكبير والصغير لابن المقفع مثلاً، وليس المقام وقد ضاق بنماذج البيعات وأخواتها، بالمتسع لهذه الرسائل التي تفضلها سعة وطولا. وكثير منها مطبوع وحده أو مع أشباهه، وسائرهما معلوم المواطن في الكتب فليزجع إليها حيث هي.

وبعد

فقد بقيت للوفاء بحق العنوان المعقود آنفاً، كلمة في مكانة الكتابنا ومنزلة رجالها نجملها هنا قبل الانتقال الى سائر الأقسام فنقول :
أدركت الدولة الأموية - وقد عظمت - نفع الكتابة والحاجة إلى الكتاب، فأنشأت منذ عهد عبد الملك ديوان الأثشاء، وأخذ شأن هذا الديوان يعظم حتى كان القائم عليه يد الخليفة، كما كان من سالم على أيام هشام. ثم ازداد عظمة وسعة على يد عبد الحميد أيام مروان بن محمد، فكان الكتاب من الخلفاء كما يقول عبد الحميد هذا من وصيته لهم (بكم تنتظم للخلافة

محاسنها وتستقيم أمورها، وبنصائحكم يصلح الله للخلق ساطانهم، وتعمر بلدانهم، لا يستغنى الملك عنكم ولا يوجد كاف إلا منكم . فوقعكم من الملوك موقع أسماءهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبسطون . « غير أن تلك الدولة قد دالت ولم يتجاوز صاحب الانشاء لقب الكاتب إلى غيره . فلما جاءت الدولة العباسية واستقامت الأمور لآبي العباس السفاح لقب كاتبه أبا مسلمة الخلال حفص بن سليمان مولى أخواله بنى الحارث بن كعب ، بلقب الوزارة ، فكان أول وزير في الاسلام ، وثبت بذلك هذا اللقب لكل من ولي أمر الكتابة بعده من الكتاب ، فعظم شأنهم ، وامتد نفوذهم ، وبلغ أقصى ما يمكن أن يبالغ في يحيى بن خالد وزير الرشيد، لأنه صاحب اليد عليه في بقاء العهد له ، ولأنه كان خاصته وملازمه قبل خلافته ، ولأنه كان بمنزلة والده إذا ارتضع لبن زوجته على ابنه الفضل ، ولهذا قلده الوزارة تقليد تفويض ، ثم كان كذلك وأكثر منه مع ابنه جعفر . فأصبح ديوان الانشاء بهذه السنة التي استمرت مرعية يتولاها وزير بنفسه أو بكاتب يندبه هو ليصرفه بأمره . ومن هنا وصل الكتاب إلى أرفع المنازل بعد الخلافة ، وألقيت اليهم الأمانة في سياسة الدولة ، وأحس الخلفاء بشدة الحاجة اليهم ، فاعتصموا بهم في النوازل وتركوهم يتصرفون عنهم في الوعد والوعيد والنقض والابرام ، ونظر الناس إلى هذه المكانة نظرة التقديس والاجلال ، فصاروا يسمعون من الكتاب من يقول:

ولي فقر تضحي الملوك فقيرة إليها لدى أحداثها حين تطرق
أرد بها رأس الجموح فينتهي وأجعلها سوط الحرون فيعنق

إذا حاولت اطفأ فمأ مروق وإن حاولت عنفا فنار تألق
وصار الكتاب يسمعون من الناس من ينشد :

قوم إذا أخذوا الأقلام عن غضب ثم استمدوا بهاماء المنيات
نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا مالا ينال بحمد المشرفيات
ونشأ من ذلك ما نشأ من مزاحمة القلم السيف في تصريف الشئون
وحسم الامور ، فوجدت المفاخرات التي شبت بينهما نظماً ونثراً .
قال علي بن العباس النوبختي مفضلاً القلم :

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت له الرقاب ودانت خوفه الأمم
فالموت والموت لا شيء يغالبه مازال يتبع ما يجرى به السقم
بذا قضى الله للأقلام مديريت ان السيوف لها منذ أرهفت خدم
وقال أبو تمام مفضلاً السيف :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصفائح في متونهن جلاء الشك والريب
وفاخر صاحب سيف صاحب قلم فقال صاحب القلم : أنا قتلت بلا غرر
وأنت تقتل على خطر ، فقال صاحب السيف : القلم خادم السيف إن تم
مراده والافألى السيف معاده .

لهذا عنى الخلفاء وذوو الأمر باختيار الكتاب ممن عرفوا برجاحة
العقل وغزارة الأدب حتى يكونوا أهلاً لما يلقى عليهم من أعباء الملك
وسياسة الدولة غير ناظرين إلى شرف من يختارون في اختياره لا الكتابة
كل التشريف إذا كان ممن أخطأه شرف الأصول ؛ وفي الكتابة تسويد
له إذا لم يكن من المسودين . هذا ابن الزيات سمى به الكتابة إلى منازل

الأشراف وقد كان كأبيه تاجر زيت . وكان بذلك جد فخور . قال له العلاء بن أيوب يوما وهو يناظره « ليس هذا كيل الزيت ولا عد الجوز » فقال له « أبا التجارة تعيرني وقد كنت تاجرا ومتأخرا فقدمني الله بالادب ، وأصارتني بعد التجارة إلى الوزارة ، ليس المعيب من كان خسيسا فارتفع ، وإنما هو من كان شريفا فاتضع » . وهؤلاء آل سهل كانوا ضبانا وتجارا فيهم صانع الخمر وبائعها فارتقت بهم الكتابة إلى الوزارة ، وصاهر المأمون الحسن منهم في ابنته بوران . ولما كتب إلى المأمون بعد زفافها إليه يقول « قد تولى أمير المؤمنين من تعظيم عبده في قبول أمته شيئا لا يتسع له الشكر عنه إلا بمعونة المن منه أدام الله عزه في إخراج توقيعه بتزيين حالي في العامة والخاصة بما يراه فيه صوابا إن شاء الله » خرج توقيع المأمون « الحسن بن سهل زمام على ما جمع أمور الخاصة وكنف أسباب العامة ، وأحاط بالنفقات ونفذ بالولايات ، وإليه الخراج والبريد واختيار القضاة ، جزاء بعرفته بالخال التي قربته منا وإثابة لشكره إباننا على ما أولينا . وهذا الصابيء على صابئته تولى ديوان الرسائل خلفاء بني العباس وملوك بني بويه ، وحين مات رثاه الشريف الرضي ، ولما لامه بعض الناس على رثائه صابئيا كان جوابه « إنما رثيت فضله » وغيرهم كثير فأغلب الكتاب سادوا بالكتابة عن صنعة وشمول .

ولعظم مهمة الكتاب عنوا بالتبحر في الأدب والتفقه في كل ما يتصل به من علم ، حتى يكونوا كفاة لما يندبون له ، وحتى يقموا من الخلفاء والملوك الموقع المرضي عنه وبخاصة إذا كان أولئك ممن يعرفون القول وينقدونه ،

ويؤثرون الفاضل ويرفعونه؛ كما عنوا أن يجمعوا إلى دماثة الخلق وكرم
السجايا رقة الطباع ولطف الخدمة، حتى ضربت الأمثال بجمال خلقهم
وكمال علمهم. قال بعض آل المهلب لبنيه «تزيوا بزى الكتاب فانهم جمعوا
أدب الملوك وتواضع السوقة» وقال الشاعر يصف رقة الخمر بأنها من
رقة الكتاب :-

وشمول كأنما اعتصروها من معاني شمائل الكتاب
وغير هذين في الناحية الخلقية كثير. أما الناحية العلمية فجماع ما قيل
عنها فيهم قول الجاحظ « طلبت علم الشعر عند الأصمعي ، فوجدته
لا يعرف إلا غريبه، فرجعت إلى الأخصش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه،
فمطفت على أبي عبيدة، فرأيت أنه لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار. وتعلق
بالإيام ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب
ومحمد بن عبد الملك وغيرهما .»

هذا وإنه لما يرينا اتساع أفق الثقافة أمام من يهيء نفسه للكتابة
منذ أوائل العصر العباسي قصيدة أبان بن عبد الحميد اللاحق التي قدمها
إلى يحيى البرمكي، رغبة في الاتصال بخدمته في هذه الصناعة؛ وانا نلخاتون
بها هذا الموضوع لما لها من الجدوى فيه قال:

أنا من بغية الأمير وكنت من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أريب ناصح زائد على النصاح
شاعر مفلق أخف من الريشة مما يكون تحت الجناح
لِي في النحو فطنة واتقاد أنا فيه قلادة بوشاح
ثم أروي من ابن سيرين للعلم بقول منور الإفصاح

وظريف الحديث في كل فن وتصبر بترهات الملاح
كم وقد خبات عندي حديثا هو عند الملوك كالتفاح
فبمثلي تخلو الملوك وتلهو وتناجى في المشكل الفداح
أيمن الناس طائرا يوم صيد لغدو دعيت أو لرواح
أبصر الناس بالجواهر والخيل وبالخرد الحسان الصباح
كل ذا قد جمعت والحمد لله على أنني ظريف المزاح
لست بالناسك المشمر ثوبيه ولا الماغن الخليع الوقاح
لو رمى بي الأمير أصلحه الله رماحا ثامت حد الرماح
ما أنا واهن ولا مستكين لسوى أمر سيدي ذي السماح
لست بالضخم يا أميري ولا القزم ولا بالجحدر الدحاح^(١)
لحية جمدة ووجه صبيح واتقاد كشملة المصباح
إن دعاني الأمير حان مني شمريا كالبلبل الصداح

٢ - التوقيعات

استعملت العرب قبل الاسلام كلمة التوقيع - ما أخذت منه
وما أخذ منها - في معان كثيرة . فقالت وقع الصيقل السيف إذا أقبل
عليه بميقته أي مطرفته يجلوه ويحدده ليكون ماضيا نافذا . وقالت
وقع القتب ظهر الراحلة إذا أثر فيه تأثيرا خفيفا ، فإذا ترك ذلك التأثير
دبرة أي فرحة ، ثم برئت وبقيت بموضعها شامة بيضاء ، قالت ظهر موقع
تريد أن به بقعة صغيرة ذات لون يخالف سائر اللون ، ومن ذلك وقع
المطر الارض إذا أصاب منها بعضا وترك بعضا يخالف بين ألوانها .

(١) الجحدر العظيم البطن ، والدحاح البطيء الخطو

وقالت وقعت الدواب ربضت، ووقعت الابل بركت، أى اطمأنت إلى الارض بعد الشبع والرى . وقالت وقع السارون إذا عرسوا أى نزلوا آخر الليل. ولعل هذا من موقعة الطائر وهى الموقع الذى يعتاد نزوله. غير أن هذا مكان وذاك زمان . وقالت وقع الراعى إذا رمى من قريب فلم يخطئ، تريد أنه أصاب من أقرب الطرق . وقالت وقع فلان ظنه على الشئ إذا قدره وأنزله موضعه . كما قالت وقع الامر إذا لزم وحق، ومنه قوله تعالى « ووقع القول عليهم بما ظلموا » . فهذه معان سبعة مما عرفت العرب للتوقيع وليس منها ما نطقه عليه الآن من الامضاء .

ولما جاء الاسلام وأسس ملكا عظمت دولته على أيام عمر بن الخطاب، رأينا رحمه الله يستعمل التوقيع فيما يكتب به على حواشى الرقاع المرفوعة اليه لبيان وجه الفصل فيها، وهذا معنى جديد، ولكنه يمت الى المعانى السابقة بالذات . فهو مجلو اللبس فى القصة ويمضيها، وهو وجيز اللفظ ومخالف اللون بالنسبة للفظها ولون مدادها، وهو يجعل صاحب الأمر يطمئن فى تعريف ما رفع اليه، وهو يتحرى فى إثباته آخر الوقعة وموقعا معيننا من حاشيتها، وهو يفصل فى الأمر من أقرب طرقه، وهو نتيجة تقدير وتفكير، ثم هو يحق نفاذه ويلزم .

فتوقيعات عمر رضى الله عنه هى أول توقيع فى الاسلام وهذا بعض منها . كتب اليه سعد بن أبى وقاص حامله على العراق يستأذنه فى بناء دار، فوقع فى أسفل الكتاب « ابن ما يكنك من الهواجر وأذى المطر » ووقع لعمر بن العاص حامله على مصر فى كتاب « كن لرعيته كما تحب أن يكون لك أميرك » . وقد اقتدى به فى ذلك الخليفةتان بعده .

وقع عثمان رحمه الله في شكاة قوم من حامله مروان بن الحكم « فان
عصوك فقل انى برىء مما تعملون » ووقع في قصة رجل شكا اليه فقرا
« قد أمرنا لك بما يقيمك وليس في مال الله فضل للسرف » . ووقع
على كرم الله وجهه في كتاب لابنه الحسن « رأى الشيخ خير من جلد
الغلام » ووقع في كتاب لسلمان الفارسي يسأله فيه كيف يحاسب الناس
يوم القيامة « يحاسبون كما برزقون »

وجاءت الدولة الأموية فزاول خلفاؤها التوقيع بأنفسهم كما كان
يفعل عمر وتابعاه وهذا بعضها . وقع معاوية لزياد وقد كتب يخبره أن
عبد الله بن العباس يطعن في خلافته « إن أبا سفيان وأبا الفضل كانا في
الجاهلية في مسالخ واحد، وذلك حلف لا يحله سوء رأيك » وكتب اليه
عبد الله بن طامر يعاتبه فوق « بيت أمية في الجاهلية أشرف من بيت
حييب في الاسلام وأنت تراه » وكتب اليه يسأله أن يقطعه مالا في
الطائف فوق « عش رجبا تر عجبا » وكتب اليه ربيعة بن عسل
اليربوعي يسأله أن يعينه باثنى عشر ألف جذع في بناء داره بالبصرة
فوق « أدارك في البصرة أم البصرة في دارك » . ووقع يزيد ابنه إلى
عبد الرحمن بن زياد طاماه على خراسان « القرابة واشجة والأفعال
متباينة، نخذ لرحمك من فعلك » ووقع عبد الملك للحجاج وقد كتب
يخبره بسوء طاعة أهل العراق، ويستأذنه في قتل أشرافهم « إن من
يمن السائس أن يتألف به المختلفون، ومن شوومه أن يختلف به المؤتلفون »
ووقع في ذيل كتاب من ابن الأشعث وهو تائر عليه بهذا البيت :

ما بال من أسعى لأجبر عظمه حفاظا فينوى من سفاهته كسرى

ووقع الوليد ابنه للحجاج وقد كتب اليه يسأله الاقتصاد « لأجمعن المال جمع من يعيش أبدا ، ولأفرقنه تفريق من يموت غدا » ووقع لعمر بن عبد العزيز « قد رأب الله بك الداء وأوذم بك السقاء » ووقع سليمان بن عبد الملك وقد كتب اليه قتيبة بن مسلم يهدده « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا » ووقع له وقد هدده بالخلع:

زعم الفرزدق أن سيمقتل مربعا أبشر بطول سلامة يامربع
وقد كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كثير التوقيعات . كتب اليه صاحب العراق يخبره بسوء طاعة أهله فوقع « ارض لهم ما ترضى لنفسك، وخذ بجراتهم بعد ذلك » وكتب اليه عامل الكوفة أنه فعل فى أمر كما فعل عمر بن الخطاب فوقع له « أولئك الذين هدام الله فبهدام اقتده » وكتب اليه عامل يستأذنه فى رم مدينة فوقع له « حصنها بالعدل ونق طرقها من الظلم » ووقع لرجل ولاء الصبقات فعدل وكان دميا « ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا » . ووقع يزيد ابن عبد الملك على رقعة رجل يتظلم من عامل له « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » . ووقع هشام أخوه لعامله بالمدينة وقد أخبره بوثوب أبناء الأنصار « احفظ فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبهم له » ووقع فى قصة متظلم « أتاك الغوث إن كنت صادقا، وحل بك النكال إن كنت كاذبا ، فتقدم أو تأخر » ووقع فى قصة رجل شكاه إليه الحاجة وكثرة العيال ، وذكر أن له حرمة « لعيلك فى بيت مال المسلمين سهم، ولك بحرمتك منا مثلاه » . ووقع يزيد بن الوليد لروان ابن محمد إذ تلكأ فى بيعته « إني أراك تقدم رجلا وتؤخرى أخرى، فإذا

أناك كتابي فاعتمد على أيهما شئت . ووقع مروان هذا إلى ابن هبيرة أمير خراسان « الامر مضطرب وأنت نائم وأنا ساهر » . ولقد كان ولاية بني أمية يحاكون خلفاءهم في التوقيع على ما يرفع إليهم من رقاع . وقع زياد بن أبيه في رقعة لمحبوس يرجو الاطلاق لتوبته « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » وفي رقعة شاكي حاجة « لك في مال الله نصيب أنت آخذه » وفي رقعة متظلم « الحق يسمعك » وفي رقعة متنصح « مهلا فقد أبلغت أسماعي » وفي رقعة رجل شكى عقوق ولده « ربما كان عقوق الولد من سوء تأديب الوالد » . ووقع الحجاج إلى قتيبة بن مسلم وقد أخبره بعزمه على عبور نهر ومحاربة الترك « لا تخاطر بالاسلمين حتى تعرف موضع قدمك ومرمى سهامك » ووقع له أيضا « خذ عسكريك بتلاوة القرآن فإنه أمتع من حصونك » .

ثم جاءت الدولة العباسية فتولى خلفاؤها وولاتهم أول ما جاءت ، التوقيعات مثل ما كان يلي خلفاء بني أمية وولاتهم . وقع أبو العباس السفاح لعامل تظلم منه الناس « وما كنت متخذ المضلين عضدا » ، ولجماعة من الأنبار ذكروا أن منازلهم أخذت في بناء أمر به ولم يعطوا أثمانها « هذا بناء أسس على غير تقوى » وأمر بدفع قيمتها ، ولجماعة من البطانة شكوا احتباس أرزاقهم « من صبر في الشدة شورك في النعمة » ووقع المنصور في رقعة قوم تظلموا من طامهم « لا ينال عهدي الظالمين » ولأهل الكوفة وقد شكوا عاملهم « كما تكونون يؤمر عليكم » ولعامل شكاه رجل « إن آثرت العدل صحبتك السلامة ، وإن آثرت الجور فما أقربك من الندامة ، فأنصف هذا المتظلم من الظلامة » ولعامله بمصر .

وقد ذكر له نقصان النيل « طهر عسكريك من الفساد يعطك النيل
القياد » ولعامله على حص وقد أخطأ كاتبه في كتاب « استبدل بكاتبك
والا استبدل بك » ولعمه عبد الله بن علي « لا تجعل للأيام في وفيك
نصيبيها من حوادثها » ولرجل شكاً عيلة (سل الله من رزقه) ولرجل شكاً
دينا « إن كان دينك في مرضاة الله قضاءه » ولآخر قطعت عنه أرزاقه
« ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له
من بعده وهو العزيز الحكيم » . ولعامل أرمينية وقد أخبره أن الجند
شغبوا عليه ونهبوا بيت المال « اعتزل عملنا مذمو ما مدحورا فلو عدلت
لم يشغبوا ولو قويت لم ينهبوا » . ووقع المهدي لعامل أرمينية وقد شكاً
إليه سوء طاعة أهلها أيضا « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن
الجاهلين » ولعامل خراسان وقد أخبره بغلاء الأسعار (خذهم بالعدل
في المكيال والميزان) وفي قصة رجل حبس في دم « ولكم في القصاص
حياة يا أولى الألباب » وفي قصة آخر من بطانته يطلب صلة أبطأت
« ليت إسراعنا إليك يقوم بابطائنا عنك » ولشاعر أسرف في مديحه
« أسرفت في مديحك فقصرنا في حباؤك » . ووقع وزيره أبو عبيد الله
لرجل كتب إليه يتعجل استمناحه ويقول - والنفس - ولعه بحب العاجل -
« لكن العقل الذي جعله الله للشهوة زماما وللهوى رباطا ، موكل
بحب الآجل ، مستصغر لكل كثير زائل » . ولآخر مبطل « الحق
يعقب صلحا وظفرا ، والباطل يورث كذبا وندما » .

ولما آلت الخلافة إلى الرشيد وكان ليحيى بن خالد البرمكي عليه
في ذلك الفضل وله حق الأبوّة من قبل ، عنده اليه بما كان لا يتركه الخلفاء

لغير أنفسهم فشاركه في التوقيعات وبذلك تحول التوقيع إلى منصب
ووجدت في الكتابة خطة جديدة يقول في التعريف بها ابن خلدون
« ومن خطط الكتابة التوقيع، وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان
في مجالس حكمه وفصله، ويوقع على القصص المرفوعة إليه، أحكامها
والفصل فيها، متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه، فاما أن تصدر
كذلك وإما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب
القصة » وقد صدر عن الرشيد ويحيى وكان في البلاغة على أرفع ما تكون،
توقيعات منسوبة إلى الرشيد جاوزت ما كان. وقع لعامله بخراسان
« داو جرحك لا يتسع » وفي قصة محبوبس « من لجأ إلى الله نجى » وفي
قصة متظلم « لا يجاوز بك العدل ولا يقصر بك دون الانصاف » وفي
قصة رجل يعرف كفايته تظلم من عامله على الاهواز « قد وليناك
موضعه فتنكب سيرته » وفي رقعة شيخ سمى اليه بنميمة « السعاية
قبيحة وإن كانت صحيحة، فإن كنت أردت بها النصيح فخرانك فيها
أكثر من الربح، وأنا لا أسعى في محظور ولا أسمع قولة مهتوك في مستور،
ولولا أنك في خفارة شيبك لعاقبتك على جريرتك معاقبة تشبه أفعالك »
ولما نقل الرشيد ديوان الخاتم من الفضل بن يحيى إلى جعفر
أخيه وترك له كل شيء يتصرف فيه كما يشاء، تولى جعفر التوقيع بنفسه
بين يدي الرشيد. فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف
فيها على أساليب البلاغة وفنونها. حتى قيل إنها كانت تباع كل
قصة منها بدينار كما قال ابن خلدون. وقع لعامل كثير التظلم منه « قد
كثير شاكوك وقل شاكوك، فاما عدات واما اعزات » ولعامل مثله

ظالم « أنصف من وليت أمره وإلا أنصفه منك من ولي أمرك »
ولعامل آخر « اجعل وسيلتك إلينا ما يزيدك عندنا » ولعامل مصر
فى رجل من بطانته يوصيه به « إنه رغب إلى شعبك فارغب فى اصطناعه »
ولقوم تظلموا « عين الخليفة تكلوكم ونظره يعمكم » وارجل اعتر
من ذنب « قد قدمت طاعتك وظهرت توبتك ولا تغلب سيئة حسنتين »
وفى قصة مجبوس يطلب العفو « العدل أو ثقه والتوبة تطلقه » وفى
قصة متنصح « بعض الصديق قبيح » وفى قصة مستمنح وحله مرارا
« دع الضرع يدر لغيرك كما در لك » وفى كتاب رجل قرأه فاستحسن
خطه « الخط خيط الحكمة ينظم فيه منتورها وتفصل فيه شذورها » .
ومن توقيعات أخيه الفضل فى قصة متعدد « بثس الزاد إلى المعاد
التعدى على العباد » . ولكن الرشيد عاد إلى التوقيع بنفسه بعد قتله جعفر
وحبسه أباه . وقع فى قتل جعفر « أنبتته الطاعة وحصدته المعصية »
ورفع إليه يحيى رقعة من الحبس يستعطفه فيها فوقع عليها « عظيم
ذنبك أمت خواطر العفو عنك » ولما كتب إليه وقد أجس بالموت
يقول — قد تقدم الخصم إلى موقف الفصل وأنت بالأثر والله الحكيم
العدل وستقدم فتعلم — وقع على الكتاب « الحكيم الذى رضيته فى
الآخرة لك هو أعدى الخصوم عليك وهو من لا يرد حكمه ولا
يصرف قضاؤه » .

وهكذا كان التوقيع على عهد المأمون ورجاله وبخاصة الفضل
والحسن ابنا سهل . فمن توقيعات المأمون لأخيه فى قصة منتظم منه
« فاذا نفع فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » وفى

قصة متظلم من عمرو بن مسعدة « يا عمرو وعمر نعمتك بالعدل فان الجور يهدمها » وفي قصة متظلم من حميد الطوسي « يا أبا غانم لا تغتر بموضعك من إمامك فانك وأخس عبيده في الحق سيان » ولما كتب إليه عمه ابراهيم - إن غفرت فبفضلك وإن أخذت فبحقك - كان توقيعه « القدرة تذهب الحفيظة والندم جزء من التوبة وبينهما عفو الله ». وكتب إليه عامل الرقة يصف خروج الاعراب بسنجار وعبتهم بها فوقع له :

أسمعت غير كهام السمع والبصر لا يقطع السيف إلا في يد الحذر
ميصبح القوم من سيني وضاربه مثل الهشيم ذرته الريح بالمطر
ومن توقيعات الفضل بن سهل لعامل متسرع « إن أسرع النار
التهابا أسرعها خمودا فتأن في أمرك » ولصاحب الشرطة « ترفق توفق »
وإلى رجل شكاه إليه الدين « الدين سوء يهيبض الأعناق وقد أمرنا
بقضائه » وفي رقعة قاتل شهد عليه العدول ولكن شفع فيه « كتاب
الله أحق أن يتبع » وفي قصة متظلم « كفى بالله للمظلوم ناصرا » وفي قصة
قاطعي طريق « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض
فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو
ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب
عظيم » ووقع الحسن بن سهل في قصة قوم تظلموا من واليهم « الحق
أولى بنا والعدل بغيتنا فان صح ما ادعيتم عليه صرفناه وعاقبناه » ومدحه
على ابن عبيدة الريماني ووقف ببابه ينتظر عطاءه فطال وقوفه فبعث
إليه رقعة يشكو الأبطاء فوقع عليها « باب السلطان محتاج إلى ثلاث

خلال : عقل وصبر ومال .

هذه طائفة من التوقيعات منذ أن عرفت على يد عمر بن الخطاب إلى أواخر العصر العباسي الأول تقريبا على عهد المأمون ورجاله. ومنها يرى أن التوقيع مبني على إيداع اللفظ القصير المعنى الكثير ولذلك غلب أن يكون آية قرآنية أو حديثا نبويا أو مثلا سائرا أو حكمة متوارثة، فإن تعدى هذه الأنواع فلا أقل من أن يكون جامعة كالموقع أو لغيره ممن سلف. كما لازم العصور التي ساد فيها الإيجاز الاطناب وأخرها العصر العباسي المذكور حيث كانت السليقة العربية متمكنة والبدائة حاضرة فيمن يتولونه وفي كثير ممن كان يكتب به اليهم. قال العلامة ابن خلدون يصف حال صاحبه « واعلم أن صاحب هذه الخطة - يعني خطة التوقيع - لا بد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وطارضة البلاغة فانه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل ومع ما يضطر اليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها » اهـ

وقد بدأ الطول منذ عهد المأمون ووزرائه يظهر في التوقيعات وهذه ظاهرة لم تكن معروفة فيها ولسناتهم هؤلاء بالعجز أن يوجزوا، فاز لهم في ذلك الآيات البيّنات ولكننا لانخيلهم من أن روح العصر المتنقلة حينذاك من الإيجاز إلى الاطناب أخذت تؤثر فيهم من حيث لا يشعرون. رفع الواقدي رقعة إلى المأمون يشكو فيها الدين فوق

عليها (فيك خلتان السخاء والحياء فأما السخاء فهو الذي أطلق يديك
بما ملكت وأما الحياء فهو الذي حملك على ذكر بعض دينك وقد
أمرنا لك بضعف ما ذكرت فان قصرنا عن بلوغ حاجتك فبجنايتك
على نفسك وإن بلغنا بغيتك فزد في بسط يدك فان خزنة الله مفتوحة
ويده بالخير منسوطه) . وكتب اليه أحمد بن يوسف يستجدي لطلاب
الصلوات وقد كثروا على بابه فوقع على كتابه (الخير متبع وأبواب
الملوك مغان لطالبي الحاجات ومواطن لهم ولذلك قال الشاعر
يسقط الطير حيث ياتقط الحب وتغشى منازل الكرماء
فاكتب أسماء من يبابنا منهم وبين مراتبهم ليصل إلى كل رجل
قدر استحقاقه ولا تكدرن معروفنا عندهم بطول الحجاب وتأخير
الثواب فقد قال الشاعر :

وإنك لن ترى طردا لحر كالصاق به طوق الهوان
ولم تجلب مودة ذى وفاء بمثل البشر أو بذل اللسان)
وكتب رجل إلى أحمد بن يوسف يستتم الصنيعة عنده فوقع
على كتابه « مستتم الصنيعة : من عدل زائغها وأقام أودها . صيانة المعروفه
ونصرة لرأيه ، فان أول المعروف مستخف وآخره مستثقل يكاد أول
الصنيعة يكون للهوى وآخرها للرأى ولذلك قيل تميم الصنيعة أشد من
ابتدائها » . ورفع بعض الولاة إلى الفضل بن سهل رقعة طامل عنده
بسعاية فوقع عليها « نحن نرى قبول السعاية شرا منها ، لأن السعاية
دلالة والقبول إجازة وليس من دل على قبيل وأخبر به كمن قبله وأجازه
فاطرد هذا الساعي عن عملك وأقصه عن بابك فانه لو لم يكن في سعائته

كاذبا لكان في صدقه لثيما آثما إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة» .
ولما انقضى العصر الأول وفقدت بانقضائه القدرة على الإيجاز ؛
وتولى شئون الدولة في العصر الثاني من لا يفهمون البلاغة من الخدم
الأتراك لم يجهد الكتاب أنفسهم في التوقيعات وإن بقيت خطة
صاحبها، فأصبحت غير كفيلة وحدها بالافادة كما كانت قبل، وصارت بمنزلة
ما نعرفه الآن بالتأشيريات من حيث بناء الردود عليها لا إرسالها نفسها
لعدم غنائها في تمام الاستفادة منها ، نعم إن بعضها كان صالحا لذلك في نظر
واضعه وأمام من يبني الرد عليه ، ولكنه ما كان صالحا بحال عند من
يبعث به إليه لتقلص القدرة على فهم بلاغة الإيجاز إذ ذاك كما هي الحال
في الإشارة الآن .

وقد استمر التوقيع في العصر الثالث - على رقى الكتابة فيه -
فاقدا روعة البلاغة بلاغة الإيجاز ، فهبطت منزلته وتناساه الناس إذ
لم يعودوا يرون عليه ما كانوا يرون قبل من رونق وبهاء ، وبذلك زال
ما كان له من حسن وقع في الصدور ورفعة قدر في النفوس .
على أنه قد وجد من كبار الكتاب في هذا العصر من جهد نفسه في التوقيع
فكان له منه ما لا يقل عن توقيعات المتقدمين . ولعل خير هؤلاء الصاحب
ابن عباد وهذا شيء مما خلف فيه . وقع في رقعة استحسناها « أفسح
هذا أم أنتم لا تبصرون » ورفع إليه بعضهم رقعة أثار فيها على بعض مآثوره
من معان وألفاظ فوق عليها « هذه بضاعتنا ردت إلينا » ووقع في كتاب
لبعض مخالفيه « فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون »
وكتب رجل يخبر أن أحد من ينطوى له على غير جميل يدخل داره

في غمار الناس ثم يتنوم لاستراق السمع فوقع إليه « دارنا هذه خان يدخلها من وفي ومن خان » ورفع إليه رجل رقعة يخطب فيها عملاً فوقع عليها « التصرف لا يلتمس بالتكفف ، من احتجنا إليه صرفناه وإلا صرفناه » ووقع إلى أنى محمد الخازن وكان قد انصرف عنه مغاضباً ثم كتب إليه يستأذن معاوداً « ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين » . أما في العصر الرابع فقد توارت التوقيعات عن الأنظار لاستيلاء العجمة واستحكامها، ولم يظهر للقوم فيه من ناحية الإيجاز الكتابي إلا ما خرج بالإيجاز عن وضعه الاصيل إلى الرمز المشير الذي بدأ يظهر من أواخر العصر الثالث قبله. وإليك في هذا مثلين: بعث السلطان محمود الغزنوي في أواخر القرن الرابع وقد استقل بالسلطنة عن بغداد يطلب إلى الخليفة ذكر اسمه في الخطبة ونقش اسمه على النقود، فامتنع الخليفة فبعث إليه كتاب تهديد جاء فيه « لو أردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة إلى غزنة لفعلت » فكان الجواب كتاباً ليس فيه إلا البسملة وبعدها ألف فلام فميم ثم الصلاة على النبي والحمد لله . فلما فتحه تحير هو وأهل مجلسه في فهمها حتى دخل عليه أبو بكر القمستانى من كبار العلماء فسئل فيه فقال: إنكم بعثتم تهديدون الخليفة بالفيلة فبعث اليكم هذا الكتاب وفيه « ألف ولام وميم » إشارة إلى قوله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » السورة فارتاع السلطان وطاد مطيعاً . وحدث في أواسط القرن الخامس أن خاف سيد الملك صاحب قلعة متيزر بالقرب من حماة تاج الملوك صاحب حلب فخرج إلى جلال الملك بن عمار صاحب طرابلس وأقام عنده ، فأراد تاج الملوك أن يختل في

استقدامه ليفتك به، وأوعز إلى كاتبه أبي النصر محمد بن الحسين أن يكتب إليه في ذلك وكان له صديقاً فكتب كما أمر، ولكن حين بلغ قوله « إن شاء الله تعالى » شدد النون وفتحها؛ فلما وصل الكتاب إلى سديد الملك استحسنه الحاضرون فقال لهم وكان فطنا « إني أرى في الكتاب ما لا ترون » وأجابه بكتاب كان من جملة « أنا الخادم المقر بالانعام » غير أنه كسر همزة أنا وشدد نونها، فلما قرأ أبو النصر الكتاب علم أنه فهم ما أراد، إذ كان أبو النصر يقصد بما تقدم قوله تعالى، « إن السلا يأتمرون بك ليقتلوك » وكان سديد الملك يقصد « إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها » .

هذا وإنا قبل الفراغ من الكلام على التوقيعات، لا يسعنا إلا الحكم بأنها أثر من آثار العرب لا محاكاة منقولة عن الفرس كما يقال، لأن الإيجاز من مميزات العربية، وسائر الساميات عن الآريات، كما هو ظاهر في أمثال العرب الجاهليين وحكمهم وجوامع كلمهم، ولأن عمر حينما بدأ التوقيع لم تكن الفارسية معروفة في الجزيرة حتى يكون هناك محل للمحاكاة، إنما هي نوع من أنواع التفكير دفع إليه ملك العرب الجديد، في أسلوب من الأساليب القصيرة وسعته لغتهم ذات الإيجاز، فأخذ ينمو شيئاً فشيئاً أيام الدولة الأموية دون أن يكون للفارسية على أيامها انتشار، ثم استبصر الملك أول العهد العباسي وبقيت بلاغة الإيجاز، فكان له ما كان حتى إذا ما ضعفت تقلص مع بقاء الفارسية صارية الجران .

٣- القصص

نشأ الانسان الأول محوطا بالوحوش التي تناصبه العداة صباح مساء، وبنوا ميس الطبيعة التي تنكى به وهو يجهل ما لها من أسرار، فكانت هذه الحرب المشبوبة عليه من الجانبين حافزة خياله أن يتصور الخوف في كل شيء، ولعله أن يفكر بقدر استعداده إذ ذاك فيما يدفع هذه الغوائل عنه، وقد سبغ به خياله أن يرى وراء هذه الظواهر المجهولة الأسباب قوى خفية يرهب جانبها ويخشى سطوتها، وهداه عقله أن يتملقها ويتقرب اليها فكان من ذلك الدين الذي يتحقق بين معبود مخوف مرجو، وطابد خائف راج، ولعل مما قوى في نفسه وجود هذا العالم غير المنظور ما كان يطرقة في نومه من أحلام يرى فيها من ماتوا أحياء يقولون ويفعلون كما كانوا في هذا العالم المنظور، وكان من نتائج ذلك أن حاك لنفسه أساطير خرافية تغذى نهمه في الخوف والرجاء كانت النواة لما جد بعد من قصص وروايات . غير أن هذا التراث القديم لم يجد عوامل النمو في كل البيئات سواء ، فحيث تكون البلاد كثيرة الجبال والكهوف والأنهار والغابات وضواحي الوحوش وجوارح الطيور يعظم الخوف ويقوى التخيل والاختراع ، وحيث تكون منبسطة الأرض مسافرة السماء تقل الرهبة ويضعف الخيال ، وكلما قوى الخوف بالانسان جدى التأليه وأكثر من المعبودات؛ وعلى العكس إذا ضعف الخوف تبسطت عبادته وقلت آلهته . ومن ثم كانت الحالة الاولى ممثلة قديما في مثل بلاد اليونان ، وكانت الثانية واضحة في سكان البوادي كالعرب الجاهليين . وليس يطعن فيما نقول عن العرب الآن ما كان لديهم من تعدد الديانات

لأننا نعني بالتعدد أن يكون في معتقدات الشخص الواحد كما هي الحال في الأمة التي ذكرنا، لا أن يكون في مجموع أمة تقف كل طائفة منها عند عبادة واحدة كما كانت العرب في القديم .

ذكرنا ذلك لنخرج منه إلى أن الأمم كانت إزاء القصص مختلفة الدرجة على حسب اختلاف البيئة التي هي الأساس. وإذ كان تنازع البقاء في القديم ممثلاً أولاً بين الإنسان وغير الإنسان، ومثلاً ثانياً في الحروب التي كانت لا ينقطع لها مدد بين الجماعات، فقد وقعت الأساطير الخرافية على ذلك التنازع، وجاءت القصص القديمة في تلك الحروب يتغنى فيها المنتصر بأبطال الانتصار، ويتخيل فيها المهزم بطلا منتظراً يكون على يديه الخلاص. وأعقب ذلك وجود أناس من القصاصين يرتقون بالقصص على حساب الطبقات. فعند الخاصة يفيض القاص في نبل الأمراء ومالهم على العامة من سطوة وإفضال، ولدى العامة يسخر من الأمراء ويذكر ما يشينهم من فسائح ومخاز. ولم يكن أولئك القصاصون بالواقفين عند الحقائق التي كانت تبني القصة عليها أول وضعها، بل كانوا يعطون لأنفسهم حق الزيادة فيها والتحويل بها وإضافة حقائق أخرى إليها، وقد ساعدهم على هذا الوضع والاختلاق في القصص الموضوعية بعد الهوة بين طبقتي الأمة إلى ما يشبه الانعزال، وفي غير الموضوعية انقطاع الصلات بين بعض الأمم وبعض انقطاعاً أوجده اكتفاء كل أمة ببلادها وأحكامه سوء حال المواصلة وقلة وسائل الانتقال. فكثرت بذلك القصص على أيدي هؤلاء القصاصين حتى صار لكل أمة مستعدة لها تراث منها عظيم، وبخاصة وقائع الملاحم المنشأة في الحروب، وسير

الأبطال ممزوجة بذكر الآلهة المساعدين إذ كان تمجيد الأبطال واستنجاد الآلهة أمرين جوهرين في القصص القديم^(١).

جاء الإسلام والعرب خلو من القصص للأسباب التي ذكرنا، ومع احتكاكهم بالأمم منذ الصدر الأول، واطراد هذا الاحتكاك في العهد الأموي، استمروا ببيدين عن أن يكون لهم قصص في العصرين المذكورين على النهج الذي أوضحناه لأسباب زائدة على خلو قديمهم من الأساطير أهمها عدم عنايتهم بأداب غيرهم اعتقاداً منهم أن أدبهم لا يعلوه أدب وأنهم وصلوا في الناحية الأدبية إلى القمة؛ وأن الأمم الأخرى في الخضم. على أن امتلاء القصص القديمة لغيرهم بتعدد الآلهة قد يكون من أسباب انصرافهم عنها لمنافاتها الإسلام، وبذلك انسلخ هذان العهدان بعد العهد الجاهلي، وتدوين القصة عندهم في حكم المعدوم على ماله عند بعض الأمم من شأن عظيم.

غير أن دخول كثير من الفرس الإسلام، وجذقهم العربية والفارسية مما حبيب إليهم أول العصر العباسي أن يغذوا العربية عن طريق الترجمة بما يرونه في القصة الفارسية من جمال، وكان أول عهد العرب بالقصص المترجمة كتاب كيلة ودمنة المنقول في القرن الثاني وتلته كتب كثيرة

(١) من أشهر الملاحم القديمة الألياذة والأوذيسة لهوميروس شاعر الاغريق، والأنياد لفرجيل شاعر الرومان. فالألياذة قصة حرب طروادة التي دامت عشرين سنة بينها وبين اليونان. والأوذيسة قصة ضلال يوليسيس طريق البحر وهو قائد برجاله من تلك الحروب إلى بلاد اليونان، أما الأنياد فقد نظمها فرجيل تمجيذاً لامرة أغسطس قيصر أحد أباطرة الرومان.

أشهرها كتاب ألف ليلة وليلة في القرن الثالث . ومنذ تذوقوا جمال هذا الفن نشطوا في وضع القصص بعد نشاطهم في ترجمتها فسكانت لهم في كلا النوعين آثار كما سترى في هذا البيان .

١ - القصص المنقولة

عرفت أن أول كتاب عرفته العرب في القصص المنقولة في القرن الثاني كتاب كليلة ودمنة ذو الحكمة الخالدة والشهرة الذائعة^(١)، وهو كتاب وضعه بيدبا الفيلسوف الهندي من البراهمة بالهندية السنسكريتية لبشاييم أحد ملوك الهند بعد عصر الاسكندر، في صورة أقاصيص على السنة الحيوان تتضمن الأدب والحكمة مما يحتاج إليه الملوك في سياساتهم؛ والناس في معاملاتهم، وذلك في خمسة عشر بابا هي :

(١) باب الأسد والثور، وفيه قصة المتحابين يقطع بينهما الكذب المحتمل، حتى يحملهما على العداوة والبغضاء (٢) باب الفحص عن أمر دمنة، وفيه قصة الواشى الماهر المحتمل وكيف ينتهى أمره إلى وبال (٣) باب الحمامة المطوقة، وفيه قصة إخوان الصفاء كيف يتواصلون ويستمتعون (٤) باب اليوم والغربان، وفيه قصة العدو الذى لا ينبغي أن يغتر به، وإن أظهر تضرعا وملقا (٥) باب القرد والغيلم^(٢)، وفيه قصة الرجل الذى يطلب الحاجة، فاذا ظفر بها أضاعها (٦) باب الناسك وابن عرس، وفيه قصة الرجل العجلان في أمره من غير روية ولا نظر

(١) أخذ الكتاب هذا الاسم من اسم أول حيوانين من بنات آوى دار الحديث بينهما في باب الأسد والثور أول أبواب الكتاب وأضحهما .

(٢) الغيلم هو السلحفاة الذكر

في العواقب (٧) باب الجرذ والسنور ، وفيه قصة الرجل تكثر أعداؤه فيلتمس النجاة بموالاتة بعضهم ويفي له (٨) باب ابن الملك والطار فتنزة^(١) وفيه قصة أهل التراث الذين لا بد لبعضهم من اتقاء بعض (٩) باب الأسد والشغبر^(٢) الناسك، وفيه قصة الملك الذي يراجع من أصابته منه عقوبة من غير جرم (١٠) باب إبلاذ وبيلاذ وإيراخت^(٣) ، وفيه ذكر الأشياء التي يجب أن يجعلها الملك رأس أمره وملاكه (١١) باب اللبوة والأسوار^(٤) والشغبر ، وفيه مثل الرجل يدع ضر غيره ويتعظ بما ينزل به (١٢) باب الناسك والضيف. وفيه مثل الرجل الذي يدع ما يشاكره ويطلب غيره فلا يدركه (١٣) باب السائح والصائغ ، وفيه مثل الذي يضع المعروف في غير موضعه ويرجو الشكر عليه (١٤) باب ابن الملك وأصحابه ، وفيه مثل الجاهل يصيب الخير ، والعاقل يقع في الضر (١٥) باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين^(٥) وهو باب من يرى الرأي لغيره ولا يراه لنفسه .

وبعد نحو ثمانية قرون من وضعه سمع بمكاته كسرى أنوشروان فبعث برزويه رأس أطباء مملكته إلى الهند لترجمته ، فترجمه من خزانه كتبها سرا إلى الفارسية الفهلوية . وطلب إلى الملك أن تكون مكافأته أن يأمر وزيره بزوجه. بعمل ترجمة له في باب يوضع أول الكتاب قبل باب الأسد والثور فعملها. ثم عملت مقدمة للكتاب بقلم بهنود ابن سحوان في باب ذكر فيه السبب الذي من أجله وضع بيد بالكتاب

(١) اسم بيغاء (٢) ابن آوى (٣) أسماء لوزير فملك فلكة (٤) بكسر

الهمزة وفتحها الجيد الرمي بالهم (٥) الطائر المعروف بأبي قردان .

لدبشليم، وأعقبها بباب ثان ذكر فيه بعثة برزويه إلى بلاد الهند لترجمته. وبعد نحو مائتي سنة من هذه الترجمة نقله عبد الله بن المقفع إلى العربية وزاد عليه مقدمة بين فيها أغراضه في باب دطاه باب عرض الكتاب وجعله بين ما كتب بزرجهر وما كتب بهنود، فكانت الأبواب الزائدة على الابواب الهندية أربعة، وبذلك صار الكتاب تسعة عشر بابا، ثم فقد الاصلان الهندي والفارسي ولم يبق غير الاصل العربي الذي طبع مرارا منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى الآن، ومن هذا الاصل نقل إلى معظم اللغات الشرقية والغربية قديما وحديثا^(١) وقد شغل هذا الكتاب مكانة عظيمة في عالم القصص الحيواني، وفتح أمام الكتاب مجالا للخيبالات شرقا وغربا، ولذلك عنى الناس به

(١) ما ذكرناه عن أبواب الكتاب هو الوضع الذي تنطق به النسخة العربية المتداولة في مصر الآن. ويرى فقيده التاريخ والأدب « جورجى زيدان » في كتابه آداب اللغة العربية، أن أبواب الكتاب واحد وعشرون فقد منها اثنان في النسخ المطبوعة عن الترجمة العربية، هما باب ملك الجرذان من وضع الفرس، وباب مالك الحزين والبطة، من وضع ابن المقفع، كما يرى أن باب الفحص عن أمر دمنة، وباب الناسك والضيف، وباب الحمامة والشعب ومالك الحزين، وكذا أول البابين المنسوبين إلى بهنود من وضعه كذلك مع باب عرض الكتاب، وعلى رأيه تكون الأبواب الهندية اثني عشر، والفارسية ثلاثة، والعربية ستة، ولكنه لم يذكر مستنده في هذا الخلاف مع اعترافه بفقد الاصلين الهندي والفارسي، كما لم يشر إلى أية نسخة عربية غير المطبوعة يوجد فيها هذان البابان الماقصان.

عناية كبيرة فوق ترجمته إلى أغلب اللغات . فنظمه أبان بن عبد الحميد
اللاحق ليحيى البرمكي وأولاده ، وقيل إن سهل بن نوبخت نظمهم لهم
أيضا ، ونظمه كذلك على بن داود كاتب السيدة زبيدة ، كما نظم بعضه
بشر بن المعتد ، وكل هذه ضاعت ولم يبق منها إلا أبيات منقولة من
نظم أبان ^(١) ثم نظمها أبو يعلى محمد العباسي المنوفي سنة ٥٠٩ المعروف بابن
الهبارية في كتاب سماه نتائج الفطنة في نظم كيلة ودمنة . كما نظمها
القاضي الأسعد بن ممتي المصري المتوفى سنة ٦٠٦ لصالح الدين
الأيوبي ، وكلاهما موجود . وقد عورض الكتاب بكتب ألفت على منواله
نظما ونثرا . فمن المنظومة كتاب الصادح والباغم لابن الهبارية المذكور وقد
رفعه إلى الأمير صدقة بن منصور بن ديس أمير الحلة ^(٢) وكتاب درر

(١) أول هذه المنظومة

هذا كتاب أدب ومحنة وهو الذي يدعى كيلة دمنه

فه احتيالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند

ومنها في معنى أن الرجل الرشيد إما أن يكون مع الملوك مكرما ، أو مع

الذمك متعبدا ، كالقيل يكون وحشيا أو مركبا للموك

وقيل أيضا إنه قد ينبغي للرجل الفاضل فيما ينبغي

ألا يرى إلا مع الأملاك أو يعبد الله مع الناسك

كالقيل لا يصلح الأمر كبا للملك أو راعيا مسيبا

(٢) هذا الكتاب أبدع فيه صاحبه اختراع الحكايات والأمثال في أسلوب

رقيق حسن الانسجام وأوله:

الحمد لله الذي حباني بالأصغرين القلب واللسان

الحكم في أمثال الهنود والعجم لعبد المؤمن بن الحسن في القرن السابع.
وثالث لجلال الدين النقاش في القرن التاسع. ومن المنتورة كتاب ثعلما وعفرة
لسهل بن هرون صاحب بيت الحكمة للمأمون^(١). وسلوان المطاع في عدوان
الأتباع لأبي عبد الله محمد القرشي المعروف بأبن ظفر في القرن السادس.
وثالث لأحمد بن محمد الحنفي المعروف بأبن عربشاه في القرن التاسع.
ومع وجود هذه الكتب الستة مع نظومه الستة التي قلنا بوجود بعضها
إلى الآن مطبوعا أو مخطوطا لم تقو على معارضة الكتاب، فقد صرعا جميعا
كما صرع ترجمة له ثانية من الفارسية كان قد قام بها عبد الله بن هلال
الأهوازي ليحيى بن خالد في خلافة المهدي فبادت مع ما باد .

والكتاب فوق اشتماله على القصص الجميلة المخترعة ذات الخيال
الرائع، وعلى التشبيهات المركبة والاستعارات التمثيلية التي تنسجم معها في
هذا الخيال، قد اشتمل في ثنايا ذلك على أمور عدة زادت من قيمته
ورفعت من شأنه. كاشتماله على الحكم والأمثال في السياسة والاجتماع،
وعلى التحليلات الدقيقة لظواهر النفس من إرادة وتفكير وشعور،
وعلى تصوير النظم في الحكومات المطلقة وتبيين طبائع الاستبداد،
وعلى وصف الطبائع الكثيرة لكثير من البهائم والسباع والطيور

(١) مما نقل عن هذا الكتاب قبل فقده قوله « اجعلوا أداء ما يجب عليكم
من الحقوق مقدما قبل الذي تجودون به من تفضلكم . فان تقديم النافلة مع
الابطاء في أداء الفريضة شاهد على وهن العقيدة وتقصير الروية، ومضر
بالتدبير ومخل بالاختيار، وليس في دفع تحمده به، عوض من فساد المرودة
ولزوم النقيصه »

والحشرات، وما يتعلق بأحوال معيشتها وحياتها، وكل ذلك في ضروب محكمة من التعبيرات المستوفية شرائط البلاغة فيما يتوخاه. ولولا أن الكتاب مشهور وما فيه من ذلك معروف لضربنا منه لكل تلك الأشياء الكثير من الأمثال. هذا وقد رأيت فيما نقلنا عن ابن المقفع في أسباب وضعه على السنة الحيوان، أنه وضع كذلك ليلائم الأحداث كما يلائم الكبار فظاهرة هو ممتع وقصص لذيذ، وباطنه حكمة مقنعة وعظة بالغة، ولذا نشط له هؤلاء كما نشط له هؤلاء وعمر هذه القرون العديدة مثلاً طاليا وأستاذاً مريباً للشرق والغرب على السواء. وكلما مرت الأيام ازداد جده وزاده الناس إقبالا ومحبة.

أما كتاب ألف ليلة وليلة الذي عرفته العرب عن القصص في القرن الثالث، فهو مجموعة قصص تقع في أربع مجلدات تبلغ صفحاتها نحو ألفي صفحة منها نحو مائة قصة اعتبرت أصولاً ثم وردت في ثناياها مئات القصص على سبيل الاستطراد، وتعزى هذه القصص على ما يزعمون في أصلها إلى قاصة تدعى شهرزاد كانت بنتاً لوزير ملك من ملوك ساسان خاتمه زوجه، فاعتاد أن يقتل كل زوجة بعد الليلة الأولى من دخوله بها، وعز هذا القتل على تلك البنت فطلبت إلى أبيها أن يزوجه منها لتحمله على ترك هذه العادة إبقاء على بنات جنسها ففعل، وفي ليلة بنائه بها بدأت له في قصة جعلت الصباح يدركها قبل تمامها، وقطعت الحديث عند نقطة يشفق السامع إلى ما بعدها. وفي الليلة الثانية استأنفت الحديث ثم قطعت كما قطعت في الليلة الأولى وهكذا حتى أتت معه ألف ليلة رزق فيها ثلاثة أبناء منها. فاستشفعت إليه في الليلة الأولى

بعد الألف أن يقيمها من أجل أبنائها وأطلعتته على ما كانت تبغى من وراء هذه القصص، فأكبر عقلمها وقبل رجاءها وأقام معها في حبور ووافق والمطلع على ما قيل عن هذا الملك بمقدمة الكتاب من أنه كان من ملوك ساسان الذين حكموا جزائر الهند والصين، يدرك حتماً أن هذه القصص كما تتناول فصصاً فارسية تتناول معها قصصاً هندية وأخرى صينية، وأنها وقد وضعت بالفارسية قبل الإسلام لا يمكن عقلاً أن يكون من قصصها الأصلية شيء وقع بعده في جهة ما. ومن ثم يحكم بدهة أن جميع القصص التي تناولت فترة من تاريخ العباسيين ببغداد، وأخرى من تاريخ الفاطميين ومن بعدهم بمصر، دخيلة على الكتاب وموضوعة بمعرفة العرب في هذه العهود. هذا وقد كان الأصل الفارسي يدعى « هزار أفسانه » ومعنى ذلك ألف خرافة، فلما ترجمه العرب في القرن الرابع دعوه ألف ليلة وليلة على ما جاء في سبب وضعه من أن الليالي كانت ألفاً وأن كل ليلة كانت عامرة بخرافة أو أكثر أو جزء من خرافة غير عربية حتماً، وأن العرب حينما زادوا على الكتاب أكثر من نصفه لم يغيروا من وضعه هذا، فأبقوا لياليه كما ذكر عنها ألفاً وجعلوا حكاياتهم المزيدة في ثنايا تلك الليالي. غير أن الفاحص عن الكتاب يجزم حتماً أنهم نقلوا بعض الخرافات من لياليها إلى ليال غيرها، فإن هناك ليالي كاملة تغمرها حكايات لا يعقل أن تكون من وضع الفرس لأنها عربية خالصة، كما لا يتفق أن تكون الليالي المحكي فيها أصلاً أقل من ألف لأن سبب وضع الكتاب ناطق بهذا العدد صريحاً. وقد استمرت هذه الزيادة وهذا التحوير في الكتاب منذ أن ترجم إلى القرن العاشر الهجري

حيث دولة المماليك بمصر، وساعد عليهما عدم حمل الكتاب اسم المترجم من الفارسية ولا أسماء من تعاقبوا عليه بعد .

فالكتاب من حيث مأخذ حكاياته وقصصه يمثل ثلاث نواح مختلفة لأحوال الناس وأمور الاجتماع .

الناحية الأولى فارسية بما فيها من دخيل هندي وصيني، وهي تصور عقليات هذه الأمم الثلاث واتساع الخيال فيها، ولذلك تكثر فيها عجائب الخلق وغرائب الحوادث كالأسماء الكبيرة الحجم المختلفة الأشكال، والأودية المملوءة بالماس، والأفاعى وطير الرخ الذي يشبع فرخه عشرات الناس، وغيرها مما يماثل طبيعة تلك العصور كما يماثل عقائد الفرس والهنود والصين .

والثانية عربية إسلامية تمثل الحياة العربية في بغداد، بعيدة عن ذلك الخيال القديم، وهي تكثر من ذكر الرشيد والبرامكة والجواري والقيان وأحوال الاجتماع إذذاك، ويتخلل ذلك قصص لأبطال العرب في الفضائل كالجود والحلم والوفاء، وأخرى ترمى إلى الصبر والتعقل والنظر في العواقب. وكثير من حكايات هذا القسم يطابق الواقع ويتفق وسياق التاريخ .

والثالثة مصرية، إسلامية أو إسرائيلية . فالإسلامية تمثل حياة القاهرة ويعتمد الكاتب فيها على ما تحسه نفسه من أثر الحوادث، وهي على ما فيها أحيانا من إغراب يستهوى القارىء، إليها، بعيدة عن الخيال الصرف الجسم في القصص الفارسية، وبعيدة كذلك عن نيل السعادة بالمصادفة والحظ، ولذا يكثر فيها الاعتماد على النفس والاحتراف بالمهن، ثم يغلب عليها عدم الطول مع الامتلاء بأثر المزاج المصبرى من الفكاهة العذبة

والنقد المقبول . والاسرائيلية مثل الاسلامية في مصريتها لأن أغلب كاتبها ممن اعتنقوا الاسلام كما يفهم منها ، ولكنها تمتاز بالزوع إلى تقديس سليمان وداود ومالا يخالف الاسلام من مجد اليهود وبخاصة ما كان معدن الغريب كأحوال الجن مع سليمان ، وسحر هاروت وماروت ، ونحو ذلك من الاساطير الاسرائيلية المليء بها تاريخ بني اسرائيل . ولهاقين الناحيتين في الكتاب يعتبر من وضع العرب إلى حد ما وأسلوبه في مجموعه مقبول ، غير أنه أكثر قبولاً في القسم الفارسي والعربي لأن اللغة على عهد ترجمة الأول ووضع الثاني في بغداد كان خيراً منها في مصر حيث وضع القسم الأخير ، ولذلك اعتبر كتاب أدب وان كانت النظرة الأولى إليه من ناحية القصص والاساطير ، وقد طبع مراراً ونقل من العربية إلى معظم لغات أوربة وكان له من الفضل على كتابها القصصيين ما للعالم الاستاذ علي طلبته الناشئين .

هذا وقد ترجمت العرب من الكتب القصصية عن الفارسية والهندية غير كليله ودمنة وألف ليلية وليلة كثيراً ذكر أسماءها ابن النديم ولكنها ضاعت وما بقي تغير عن أصله حتى تقطعت بينهما الصلات^(١)

ب - القصص الموضوعية

كانت ترجمة ألف ليلية وليلة بعد كليله ودمنة فأنحة أبواب القصص بمعناه الحق أمام القرائح العربية ، فلم تعد ترضى بما لا يتسع فيه الخيال

(١) فما نقل عن الفارسية رستم واسفنديار ، وشهر زاد مع أبرويز ، والكارمانج في سيرة أنو شروان ، ودارا والصنم الذهب ، وبهرام ونرمى .
ومما نقل عن الهندية السندباد الكبير والصغير ، وجوداسف ، وأدب الهند .

كقصص ابن المقفع في كتابه هذا ، ولا بما يضرب إلى السيرة أكثر من القصة كقصص الجاحظ في بعض كتبه وأخصها بالبخلاء ، وبدأت تشارك الفرس في مثل ما وضعوا بما زادت في ذلك الكتاب ثم طفت تنشيء على غراره كتباً في القرنين الثالث والرابع تحدث ابن النديم عنها طويلاً فكان مما قال: «وابتداً أبو عبدالله محمد بن عبدوس الجهشياري صاحب كتاب الوزراء ، بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسماء العرب والعجم والروم وغيرهم ، كل جزء قائم بذاته لا يعلق بغيره، وأحضر المسامرين فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون، واختار من الكتب المصنفة في الأسماء والخرافات ما تحلى بنفسه، وكان فاضلاً. فاجتمع له من ذلك أربعائة ليلة وثمانون ليلة ، كل ليلة سمر تام محتوى على خمسين ورقة، ورأيت من ذلك عدة أجزاء بخط أبي الطيب أخى الشافعى . وكان قبل ذلك ممن يعمل الأسماء والخرافات على السنة الناس والطيور والبهائم جماعة منهم عبد الله بن المقفع وسهل بن هرون وعلى ابن داود كاتب زبيدة وغيرهم» اه وهذا الكتاب الذى تحدث عنه ابن النديم هنا قد ضاع كما ضاع معظم ما ألف فى القرنين المذكورين من القصص الخرافية والنكت المجوزية مما يتحدث عنه أيضاً (١)

على أن العرب لم يرضوا أن يكونوا فى محاكمتهم للفرس بعبيدين عن تاريخ آبائهم وأجدادهم فتلفتموا اليه يبحثون عن مواطن تصلح لأن يصاغ فيها قصص يكون منهم واليهام فاهتدوا إلى مواطنين عظيمين ،

(١) مثل كتاب حوشب الأسدى وكتاب جحا ونوادر أبي ضمضم

ونوادر ابن الموصلى. وقد ضاعت ولم يبق إلا ما نقل عنها وهو قليل .

أحدها حماسى جاهلى، والثانى غرامى إسلامى، فكان لهم فى كليهما على العصر العباسى أثر جليل .

فأما عن الأول، فقد عمدوا إلى بعض أيام العرب فوسعوا أخبارها وبالغوا فيها وضموا إليها كثيرا من مناقب الجاهلية المتعلقة بها كالتأثر والعصبية والجوار والوفاء مسندين تلك الأخبار لتوثيقها إلى مشهورى الرواة كأتى عبدة والأصمعى وغيرهما، ومتناقلين ذلك فيما بينهم تناقل زيادة وتنمية، حتى انتهى إلى أن صار قصصا تتلى فى المنازل والأندية للسرور والتسلية، كما كانت الحال فى القصص القديمة لليونان. غير أن بعض هذه القصص لم يتم نضجها وقليلها جاء كاملا ناضجا .

فمن الأولى، قصة البراق المأخوذة من كتاب لعمر ابن شبة المتوفى سنة ٢٦٢ سماه الجمهرة، وهو فى أخبار العرب القدماء وبعض أيامهم وأشعارهم وحروبهم، ويوجد مخطوطا بدار الكتب المصرية، وهذه القصة فى حروب وقعت بين ربيعة وغيرهم، والبراق شاعر قديم من أقرباء المهمل وكليب، ذو تاريخ فيه حماسة ونفر، وقد ساق ابن شبة قصته على أنه بطل فى خمس حروب، الأولى بين ربيعة والطائيين أخواله بسبب قتل الحارث بن عباد البكرى للفضيل بن عمران الطائى، والثانية بين ربيعة ومضر لتعامل مضر عليها، والثالثة بين ربيعة والفرس لاسرهم ليلى العفيفة، والرابعة بين ربيعة واليمن لقتل كليب أسيرا كان عنده منهم، والخامسة حرب البسوس المعروفة، وقد استغرقت وحدها أكثر من مائة صفحة .

ومن الثانية، قصة عنتر وهى أكبر القصص الممثلة للحماسة العربية

التي يخالطها الحب والغرام. بل الممثلة لأدب الجاهلية وأخلاق أهلها وعقائدهم وعاداتهم. والواضع لها هو العالم الراوية الشيخ يوسف بن اسماعيل، وكان من المتصلين لفضله بالعزير بالله الفاطمي في القرن الرابع، وحدث أن لهج الناس بريبة في قصر العزيز، فساءه ذلك وطلب إلى الشيخ يوسف أن يشغل الناس بقصة طريفة تصرفهم عن ريبة القصر وكان واسع الرواية في تاريخ العرب وأيامهم عن أبي عبيدة وابن هشام والأصمعي وغيرهم. وكأنه قد راقه ما كان من قصة البراق في حرب وبل ربيعة أهمها البسوس، فأراد أن يضع قصة لبطل يفوقه هو عنتر في حرب تفوقها لقيس هي حرب داحس والغبراء فأخذ في كتابتها، ولكي يسارع بالهاء الناس بها عن تلك الريبة أخرجهما في أجزاء بلغ عددها ٧٢ جزءاً، وتعهد أن يقطع الكلام في آخر كل جزء فيها قبل نهاية أمر يشتاق السامع إلى تمامه كما كانت تفعل شهر زاد في لياليها، فتمكن بذلك من شغل الناس بها في أسماهم على أيامه، كما اشتغلوا بها من بعده إلى عهد ليس بالبعيد. وبالنظر إلى سعة رواية هذا الرجل قدأ ودعها من أخبار العرب وأشعارها في النواحي التي ذكرنا ما لم يأت بمجموعا في غيرها، فجاءت أحسن القصص العربية الموضوعات وأفيدتها وقد طبعت مرارا وعنى الغربيون بنقلها إلى شتى لغاتهم. وهناك قصص غير هاتين. (١)

(١) من القصص الموضوعات في هذا العصر أيضا: قصة بكر وتغلب ابني وائل في أخبار كليب وجساس المنسوبة الرواية إلى محمد بن اسحاق: وقصة شيبان مع كسرى أنو شروان المندوبة إلى بشر بن مروان الاسدي عن ابن نافع التميمي، ولكنهما أقرب إلى التاريخ منهما إلى القصص على العكس من البراق وعنتر فانهما

وأما عن الثاني، فقد عمدوا إلى الهوى العذرى الذى ذاع أمره
بيوادمى الحجاز أيام الامويين. إزاء الهوى الاباحى بمدنه الثلاث-المدينة
ومكة والطائف- على ما فصّلناه بكتابنا الثانى عن الغزل فى العهد الاموى،
فأروا أبطاله يعنون فى العفة وراء إمامهم جميل؛ كلما معن رجال الاباحى
وراء إمامهم عمر فى الجرى وراء النساء، وراعهم ما لا ولئك الأبطال
من شجاعة فى مقاومة الهوى والتضحية بالنفس على مذبح الحب،
وشاهدوا فى هذا الميدان ما لم يشاهدوا فى ميدان الحرب، فوضعوا فيه
قصصا تمثل طائفة الحب فى أروع مظاهره. محب ملك عليه الهوى
زمام قلبه وأخلص للعفة قبل إخلاصه ليله، وأقيمت العقبات فى طريق
زواجه ممن يهوى، وطال عليه الزمن فى هذا الألم ثم انتهى الامر بالتفريق
الدائم مصحوبا بالحكم على من يهوى أن يكون لغيره. وقد وجد قصاصو
هذا النوع تلك العناصر مجسمة بارزة فى سير جميل بن عبد الله بن معمر
عاشق بثينة، وقيس بن ذريح عاشق لبنى، وقيس بن اللوح عاشق ليلي
المعروف بالمجنون - والأولان مقطوع بوجودها بغض النظر عما
دخل سيرتيهما من مغالاة. أما المجنون فالرواية فى أنه شخص حقيقى أو
خيالى على خلاف لم يقطع التاريخ فيه ببيان.. فكان أن وضعوا لكل
منهم قصة تمثل الحب الباكى آتم تمثيل. ولم يعدم الحب اللاهى قصاصين
يؤلفون فيه فوضعت قصة لأمامه عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة

قصصيتان والثانية أقص من الأولى وإن كانت الأولى أحق وقائع وأصح لغة
لتقدم زمنها عن الثانية أكثر من قرن.

المذكور وتلتها مثيلات . ثم كان أن ألفت قصص في مغرمات النساء لتقابل القصص الموضوعية لمغرمي الرجال، بل ألفت قصص للغرام بين الانس والجن كان المحب فيها الرجل أو المرأة من هؤلاء تارة ومن هؤلاء أخرى^(١)

أما وقد ذكرنا مجملين ما ينبغي أن يقال عن القصة العربية في العصر العباسي منقولة وموضوعة فإن علينا أن نبين كذلك ما يراد بالقصة في هذه الأيام لنحاكم إليه ما ذكرنا فنعلم الفرق بين ما كان وما هو كائن الآن. يراد بالقصة في العصر الحاضر كل كتابة أدبية فنية تصدر عن كاتب واحد بقصد تصوير حالة معينة في التاريخ أو الأدب أو الأخلاق أو الاجتماع أو غيرها تصويراً ينزع فيه الكاتب عن شعوره الخاص وتفكيره الناشئ عن هذا الشعور والوجه الذي يتجه إليه رأيه على حسب ما شعر وفكر بحيث تتمثل شخصيته في هذا التصوير تمثلاً يفرق بينه وبين غيره ممن كتبوا فيما كتب، لأن هذه الأشياء التي ذكرنا واحدة في ذاتها، ولكن الذي يختلف إنما هو نظر الناس إليها وكيفية تصويرها، وكلما اتسعت مسافة الخلف بين النظرات تباعد البون بين التصويرات، ولبست تلك الأشياء أثواباً تبعدها عن مرآها الثابت الأصيل إلى مرأى يخلع عليها ثوب القصص أو الأساطير . وهذا ما يطلق عليه الغربيون كلمة « رومان » أي حكاية أو خرافة وما نطلق

(١) ذكر صاحب الفهرست أسماء عشرات من القصص الغرامية المختلفة

كأبي العتاهية وعتب ، وابن قتيبة وبانوحه ، وريحانة وقرنفل ، وغيرها مما ضاع أو تضمنه ألف ليلة وليلة .

عليه نحن كلمة « قصة » هذا على أن بعضه قد يصدره الكاتب بشكل يجعله صالحاً للتمثيل على المسارح فتراه يتعمد فيه الاكثار من الأشخاص المختلفين في الأخلاق والصفات، ويجعلهم يتحدثون في حوار حديثا يظهر المستور من طبائع النفوس وخفايا الصدور، مع الاحتفاظ بشخصية البطل أن تغطي عليها تلك الشخصيات، ومع المفاجأة بالعقد التي تعرض متطلباته الحل والمهارة في إيراد الحلول. وهذا ما يسميه الغربيون باسم « درام » أي قصة تشخيصية ونسبية نحن عرفنا باسم الرواية لأننا اعتدنا أن نلاحظ فيما أخذ هذه التسمية من القصص،
التشخيص (١)

تلك شروط القصة الحديثة وأنواعها، وهي شروط لو دققنا في تطبيقها على ما ذكرنا للعرب عن القصص في العصر العباسي استعصى علينا التطبيق؛ لأن قصصه سير تاريخية لا تصوير شخصي، أو هي مكتوبة بقلم أشخاص عدة لا شخص واحد، أو هي مسفة العبارة كثيرة الأخطاء، ولكننا لو تساهلنا في التطبيق من غير تدقيق ساغ لنا أن نقول إن العرب خلفت في العصر العباسي مثالا للقصة في عموم إطلاقها وشبه مثل لها في الروايات منها. وإنما جعلنا ما خلفت في هذا شبه مثل لا مثالا للضعف البادي فيه عن نظيره الغربي، ولعل من أسباب هذا الضعف عدم استعداد العرب منذ قديمهم للشعر القصصي والتمثيلي كما يناه مفصلا في كتابنا الأول حيث الكلام على نوع الشعر الجاهلي؛ ثم عدم سماحهم

(١) يأخذ هذا النوع اسم « تراجيدى » إذا غلب عليه عنصر الفجعة والحزن، وبأخذ اسم « كوميدي » إذا غلب عليه عنصر الضحك والمزول.

للمرأة بالتشخيص والتمثيل مع أن وجودها مع الرجل شرط أساسي فيه. هذا وقد طالج العرب نوعا من القصص غير ما أسلفنا رموا فيه إلى عرض نظرية علمية أو فكرة فلسفية فعرف لذلك بالقصص العلمي أو الفلسفي، وهو وإن ضم إلى سمو الفكرة جودة العبارة إذ كتب خاصة الناس؛ ليس جديرا أن يحمل اسم القصص؛ لأن الغرض الأول للقصص مغمور بالعلم والفلسفة المقصودين فيه. ومن أمثاله في القرن الرابع كتاب «الإنسان والحيوان» لـ «خوان الصفا» أصحاب الرسائل المشهورة المنسوبة إليهم، فأنهم وإن جعلوه مناظرات بين الحيوان والإنسان كما في كيلة ودمنة قد حشوه كثيرا من الحوار العلمي في الطبيعة ومميزات الإنسان والحيوان. ومنها في القرن السادس رسالة «حى بن يقظان» لأبي بكر محمد بن عبد الملك بن الطفيل المتوفى سنة ٥٨١ التي شرح فيها بأسلوب قصصي، إنسان الفطرة أو ابن الطبيعة، ووفق إلى نظريات علمية في تطورات هذا الإنسان، وقد طبعت في مصر وفي غيرها مرارا وترجمت إلى كثير من اللغات الأجنبية. على أن من هذه القصص العلمية ما تمكن صاحبها من تغليب الصبغة القصصية فيها على الصبغة العلمية كرسالة الغفران من مخلفات القرن الخامس لأبي العلاء التي كتبها في عزلة وضمها انتقاد شعراء الجاهلية والأسلام والأدباء والرواة والنحاة فانها علمية فلسفية، يتضمن بعضها لغة وأدبا وشعرا ونقدا، وبعضها نواذر اجتماعية عن الزنادقة والمتنبئين وشاذى الأفكار في عصور الإسلام؛ ولكنه ساقها في أسلوب قصصي خيالي أبعد فيه. فقد تصور رجلا صعد إلى السماء وشاهد الجنة والنار، وقابل كثيرا من

أهليهما وحاورهم وحادثهم فيما ذكرنا . وإذ كان يسأل دائما من كانت
يعتقدون أبناء جهنم وأبصرهم في الجنة عما من أجله غفر الله لهم فكانوا
يجيبونه بما لا يخرج عن النوعين الذين أوضحنا في مشتملات الرسالة
دعاها رسالة الغفران ، وهي ذات شأن هام ومقام كبير ؛ لأنها وإن
لم يقصد تمثيلها ، تمثل القصص الشخصية إلى حد ما ، فقد جاءت
فوق ما رأيت من مشتملاتها ؛ خصيبة الخيال في تصوير الجنة والنار ،
ومافيها من نعيم وعذاب ، ولاذعة السخرية في كثير من حوارها .
ومن هنا وقعت لدى الغربيين الوقع العظيم ؛ فما كاد الغرب يتصل بالشرق
في الحروب الصليبية حتى عرف الطليان مكانتها إذ كانوا أسبق المسارعين
إلى هذه الحروب ، فذبح شاعرهم دانتى على منوالها « الرواية الالهية »
وفيها نفس الخيال الذي سبقه إليه المعري بثلاثة قرون ، وكذلك فعل
ملتن الأنجليزى في روايته « ضياع الفردوس » بعده بأكثر من ستة
قرون . فهي قد غدت الغرب من الناحية التمثيلية « درام » كما غداه في
القصص العربي قبلها كليلة ودمنة والفا ليلة وليلة في الناحية القصصية
« رومان » . ولكن حال الشرق ساءت فوقف عند هذا الحد وتقدم العرب
الذي أخذ عنه فوصل إلى ما يرى الآن من رقى باهر في فنون الأقاصيص
والروايات .

هذا وكما انحازت طائفة من القصص إلى الناحية العامية الفلسفية
التي غطت على الروح القصصية كما تقدم ، انحازت طائفة أخرى إلى ناحية
لغوية صناعية نزعته بهجة القصص منها ، تلك هي المقامات التي سنتكلم
عنها الآن .

٢ - المقامات

لقد نفخ إنشاء الدويلات في المشرق منذ أواخر العصر العباسي الثاني، وتحكم آل بويه على الخلافة في بغداد بعد هذا الانشاء، في اللغة الفارسية وآدابها، نفخة حركتها من الأجدات ووهبتها روحاً أنهضتها من الرجام. فرأينا رجال هذه الدويلات يحضون أدباء الفرس على النظم بها في مجدهم وسالف تاريخهم، كما فعل نوح بن منصور الساماني في اقتراحه على الدقيقي نظم الشاهنامه، وحتى من كان يحكم هذه الأقاليم من غير الفرس، كان يجاريهم في النهوض بلغتهم تقرباً إلى شعوبه من أهلها، كما فعل السلطان محمود الغزنوي التركي في اقتراحه على الفردوسي إتمام الشاهنامه التي بدأها الدقيقي ولم يتمها. وكان هذا الانتصار لأدب الفرس في وقت يزدهر فيه الأدب العربي. قد حرك أدباء العرب المشاهدين له عن كتب في أجواء فارسية، وخلق فيهم روح انتصار للعربية يقابل ذلك الانتصار الفارسي، وكان لابد لهذا الروح أن يظهر في معارضات أدبية كما ظهر الانتصار الفارسي، واتفق أن رحل إلى نواحي فارس العلامة اللغوي والراوية الأديب، والشاعر العظيم أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى في النصف الأول من القرن الثالث. وأقام هناك مع ابني ميكال^(١) وهما يوسئد على عمالة تلك البلاد^(٢) فقلداه رياسة الديوان، فابتكر نوعاً من الأدب اشتقه من الحياة الفارسية ليعارض به أدبها في أربعين حديثاً

(١) هما عبد الله بن محمد بن ميكال وولده اسماعيل، فهما لاشاه بن ميكال ولد وحفيد، ولكن شاعت لقبتهما إليه نسبة الأبناء (٢) من قبل المقتدر الخليفة العباسي.

تحدث عنها الحصري في زهر الآداب صفحة ٢٧٨ هامش العقد الفريد
جزء أول بما يدل على ما قدمنا، قال تحت هذا العنوان جملة من كلام
أبي الفضل أحمد بن الحسين الهمداني بديع الزمان - « وهذا اسم وافق
مسماه ولفظ طابق معناه وكلام غرض المكسر أنيق الجواهر يكاد
الهواء يسرقه لطفًا، والهوى يعشقه ظرفًا، ولما رأى أبا بكر محمد بن
الحسن بن دريد الأزدى أغرب بأربعين حديثًا وذكر أنه استنبطها من
ينابيع صدره واستنخبها من معادن فكره وأبداها للأبصار والبصائر
وأهداها للأفكار والغمائر في معارض عجمية وألفاظ حوشية، فجاء
أكثر ما ظهر تنبؤ عن قبوله الطباع ولا ترفع له - جيبها الأسماع وتوسع
فيها إذ صرف ألفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة وضروب متصرفة،
عارضها بأربعائة مقامة في الكدية تذوب ظرفًا وتقطر حسنا، ولا مناسبة
بين المقامتين لفظًا ولا معني، وعطف مساجاتها ووقف مناقلتها بين
رجلين سمي أحدهما عيسى بن هشام والآخر أبا الفتح الاسكندري
وجعلهما يتهاديان الدرويتنافتان السحر في معان تضحك الحزين وتحرك
الرصين، يتطلع منها كل طريفة ويوقف منها على كل لطيفة، وربما أفرد
أحدهما بالحكاية وخص أحدهما بالرواية، وسأذكر منها ما لا يحل طوله
بالشرط المعقود ولا ينافي حصوله الغرض المقصود». وهذا كلام نخرج
منه إلى أن ابن دريد أنشأ أحاديثه في بيئة فارسية ومعارض عجمية،
وأنه كان فيها أميل إلى اللغة والغريب بحكم لغويته التي كانت أغلب شيء
عليه، وأن البديع حين عارضه سمي أحاديثه مقامات^(١) ولكننا نذكر

(١) أصل المقامة في اللغة بالمقام موضع القيام كمكانة ومكان وقد استعملت

أن الذي احتذاه أولاً إنما هو أستاذ البديع أبو الحسن أحمد بن فارس
العلامة اللغوي المتوفى سنة ٣٩٠ لا البديع. فقد وضع مقامات اتبع العلماء
نسقه فيها، وكان أولهم أتباعاً تلميذه البديع المتوفى سنة ٣٩٨ في مقاماته
التي وصفها الحصري آنفاً، وكلاهما عاش في بيئة فارسية كما عاش ابن دريد.
ولعل من حظ البديع ضياع مقامات هذين الاستاذين وبقاء مقاماته ممثلة
في الثمن الباقي منها وهو خمسون مقامةً فاعتبرت لذلك أولى المقامات
بني البديع مقاماته على الكدية^(١) وجعل الحديث فيها بين

في المجلس استعمال الأضداد كما قال المسيب بن عجل:

وكالمسك ترب مقاماتهم وترت قبورهم أطيب

وكما قال نهشل الدارمي:

إنا نظرنا في المقامة مالكا نظر المسافر أين ضوء الفرقد

وانتقلت منه إلى الجماعة الجالسين كما قال لبيد العامري:

ومقامة غلب الرقاب كأنهم جن لدى باب الحصير قيام

وكما قال زهير بن أبي سلمى:

وفيهم مقامات حسان وحوهم وأندية ينتابها القول والفعل

وقد سبق المجلس المقامة في هذا الاستعمال كما قال مهلهل

نبئت أن النار بعدك أوقدت واستب بعدك يا كليب المجلس

ثم أطلق المحدثون المقامة على الحديث يقال في مجلس يستمع له، وبعدئذ قصره

على هذا الضرب المعروف من الكلام

(١) لعل سبب اختيار البديع للكدية في بناء المقامات يرجع إلى انتشارها

أيامه بأواسط آسيا في صور شتى تألفت منها الطائفة المعروفة إذ ذلك بالساسانية

شخصين خياليين هما عيسى بن هشام راوية، وأبو الفتح الاسكندري شحاذا. فكانت جمعة فصاحة وبلاغة، ولكنها وقد تركت على الكدية وحدها، جاءت بعيدة عن الروح القصصي غير خليقة أن تسمى قصصا على الوضع الذي شرحناه، ويكفي أن تعلم أن خمس عشرة منها لم يك فيها مع الكدية غيرها وهي الأزاوية^(١) والبلخية والسجستانية والكوفية والأذربيجانية والجرجانية والأصفهانية والبصرية والفسزارية والمكوفية^(٢) والبخارية والقزوينية والسامانية والقردية والناجمية^(٣)

ولذا جاءت أقصر المقامات وأقلها روعة؛ أما الباقيات فقد تضمنت مع انتهائها بالكدية غالبا، أشياء أكسبتها جمالا وإن لم تنقلها عن الناحية اللغوية إلى القصصية، أهمها الوصف وقد وقع في عشرين مقامة انحدرت خمس منها إلى هوة الكدية أيضا بوصفها ألوان الأطعمة والأشربة وهي البغدادية والمضيرية^(٤) والمجاعية والنهيديّة^(٥) والخيرية، وتناول ساورها وصف أشياء أخرى متباينة كالأسد والفاثك في الأسدية والفرس في الحمدانية^(٦) وأنواع اللصوص وطرقهم في الرصافية والمغزل في المغزلية وكهل رث في الشيرازية وحمامي وحجام في الحلوانية والرجل يكون

من أعراب وأبناء سبيل وذوى طاهات وحواة وقرادة وسحرة ومشعوذين وغيرهم ممن كانوا يتحيلون في جلب الرزق ولكن من طريق الامتاع بقص الاخبار ورواية الاشعار والمناظرة والتهاجي والمدح ونحو ذلك مما جعل بين الأدب والكدية نعبا

- (١) الأزاوية من التمر (٢) ادعى فيها الاسكندري كف بصره (٣) تسمى فيها الاسكندري بالناجم (٤) المضيرة لحم يطبخ باللبن المضيراي الحامض كالخل (٥) النهيدة الزبدة (٦) أهدي فيها فرس الى عظيم من بني حمدان

خشن الجانب أو لينه في الخلفية^(١)، واللص يتخذ ثوب الناسك في
النيسابورية، والعلم في العامية وإخوان الدهر ما يفعلون وما يجب أن
يفعل بهم في الصيميرية^(٢)، والملوك في الملوكية، والدينار إلغازا في
الصفيرية، والرجل يخدم مظهره ويؤذي مخبره في السارية^(٣) وهي قريبة
الشبه بالنيسابورية، والوضعاء يعلنون في التيمية^(٤) ثم المال والدعوة
إلى فتح المطالب في المطابية. ويلى الوصف في العناية المطارحات
الأدبية وقد شغلت تسع مقامات، ستا في الشعر وهي: القرىضية في
التفاضل بين الشعراء، والغيلانية في غيلان بن عقبة وهو ذو الرمة،
والاسودية^(٥) في إنشاد شعر مرتجل، والابليسية في شياطين الشعراء،
والعراقية والشعرية وكتاهما في الالغاز عن أبيات من الشعر، ثم ثلاثا
في محاورات أخرى وهي الجاحظية في مدح الجاحظ وذمه، والمارستانية
في دحض مذاهب المعتزلة، والدينارية في التساب بين متشائمين.
أما الست الباقيات فقد جاءت ثلاث منها في الوعظ والايصاء وهي:
الاهوازية في الحياة والموت، والوعظية في الدنيا والآخرة، والوصية في
الاقتصاد والتجارة؛ وثلاث في التويبه والتدجيل وهي الموصلية في
محاولة إحياء ميت ورد سيل، والحرزية في عمل حرز يضمن النجاة من
الغرق ثم الارمينية في التحميل جلب الخبز والأدم.
وقد أبدع البديع في مقاماته مع أنه أملاها ارتجالا أو في حكم الارتجال.

(١) نسبه الى حلف بن أحمد أحد الأجواد (٢) بلد قرب دينور

(٣) بلد بطبرستان (٤) نسبه الى ابن الندى التيمي . (٥) نسبه الى الأسود

بنيسابور الابدع كله، ولهذا بعد فيها عن تكاف صناعات البديع فجاءت
قليلة الغريب سهلة المتناول، يتعشق أول الكلام فيها آخره ويرتبط
بعضه ببعض ارتباطا يؤذن بصفاء قريحة وطول باع، فأنت إذ بدأت في
قراءة واحدة منها تخيلت نفسك قد حلت روضا ممتعا ينسيك كل
شيء غيره وكما سرحت نظرك في خميلة من خمائله أو زهرة من أزهاره
تظلمتك أجل منها حتى لا نشعر إلا وقد انتهيت إلى مياجه. وقد أجاد
فيها الوصف والتشبيه، والمقامات العشرون التي تناولت الوصف كما
ذكرنا مائة بأوصاف تنطق بالحقيقة وتمثل الصورة، وتشبيهات تستخف
القارئ عجبا وتأخذ بابه حيرة ودهشا، فارجع إليها أو إلى المقامة الأسدية
التي اخترناها نموذجا منها، تجد المثل العليا لما ذكرنا، كما قد أحسن فيها
الكناية وأحجم الالغاز، فمن كساياته قوله في شدة الروعة، من أسد خرج
عليه « فاذا السبع في فروة الموت قد طلع من غابه » وفي الخوف من
فانك لقيه فجأة « فراعى منه ما يروع الوحيد من مثله وأخذني ما يأخذ
الأعزل من شاكي السلاح » وفي بلدة نزلها ولم يقم إلا قايلا « فخللتها
حلول النىء » وفي تمثيل فرقة من صاحب « فاصطحبنا ثلاثة أيام حتى
جذبني نجد والتقمه وهد » وفي مجاس صفاء ليس فيه نوم « فأخذنا
نتحدث وماقينا الامنا. ومن الغازه وكان كثيرا الالغاز في أبيات
الشعر قوله : « بيت نصفه يغضب ونصفه يلعب » يعني قول عمرو
ابن كلثوم .

كأن سيوفنا منا ومنهم مخاريق بأيدي لاعبيننا

وقوله : « بيت كاد يسقط فعاد » يعني قول المتنبي .

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
وقوله : « بيت هو مهين بحرف ورهين بحذف » يعنى قول أبى نواس
لقد ضاع شعري على بابكم كما ضاع عقد على خالصه
إلى غير ذلك من الالغاز التي أكثر منها دون أن يحمل اللفظ مالا يحتمل
أو يكاف المعنى مالا يطيق، وليس هذا وغيره بغريب على رجل كان
له من صفاء الخاطر وجودة القريحة وسعة الرواية وكثرة الحفظ ما لم
يكن لغته من كاتب أو شاعر. قال عنه الثعالبي في اليتيمة « إنه كان
ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط، وهي أكثر من خمسين بيتا فيعيدها
كلها دون أن يترك حرفا، وكان ينظر في أربع الورقات والخمس نظرة
خفيفة ثم يسردها سردا، وكان يقترح عليه عمل قصيدة في معنى بديع
أو إنشاء رسالة في باب غريب فيفرغ منها في الوقت والساعة، وكان ربما بدأ
الكتاب المقترح عليه من آخره وانتهى بأوله فيخرج الكتاب جيدا
في نوعه فريدا في بابه ». ولهذا القول شأنه لأنه قول معاصر أدركه
لا يحدث سمع عنه .

وقد زاول إنشاء المقامات بعد البديع أبو نصر عبدالعزیز بن عمر
المشهور بابن نباتة السعدي المتوفى سنة ٤٠٥، وأبو القاسم عبد الله
ابن محمد المشهور بابن ناقي المتوفى سنة ٤١٥ ولكن مقاماتيهما لم تشهرا،
ثم جاء بعدها فارس ميدان المقامات والمجلى في حلبيته الحريري المتوفى
سنة ٥١٦ فأنشأ مقاماته الخمسين التي جارض فيها البديع فبذره في صناعة
الكلام وإن اعترف له بفضل السابق في هذا الفن، وهذى كلمة في
التعريف بها .

بنى الحريري مقاماته على الكدية كما فعل البديع، وجعلها خمسين مقامة
بجاءت وفق العدد الذي بقي لنا من مقامات سلفه المذكور . وقد جاءت
فيها خمس عشرة في الكدية وحدها ، ثمان خالصة لها وهي الكوفية
والبرقعيدية^(١) والبغدادية والمككية والصورية والتفليسية والمروية
والسامانية، وسبع في التحليل لها وهي الدمشقية التي ادعى فيها خفر
القافلة بدعوى لقنها في المنام، والفارقيه^(٢) التي ادعى فيها حاجته إلى تكفين
ميت، والوبرية التي طلب فيها ناقة ادعى ضلالتها، والواسطية التي ختم
فيها أهل الخان باطعامهم حلواء مخدرة، والزبيدية التي باع فيها ولده على
أنه غلام، والعمانية التي علق فيها عزيمة الطلق على حامل لتضع، والحرامية^(٣)
التي ادعى فيها أن ابنته في الأسر وطلب فداءها. وجاءت فيها ست للوعظ
هي الصنعمانية والساوية^(٤) والرازية والرملية الأولى والتنيسية والبصرية.
وأربع في الوصف الخالص الصريح هي الدينارية في الدينار والسنجارية
في النمام، والكرجية في الشتاء، والبكرية في البكر والثيب، ولا تخلو
هذه المقامات الأربع من وصف أشياء غير التي بنيت عليها كما لا تخلو
مقامة غيرها من أن يكون فيها وصف، ولو لم يكن للحريري من أوصاف
غير افتنانه في وصف أبي زيد بما يلائم شخصيته في كل مقامة لكفاء
ذلك في تقلد زعامة الوصف أمام الواصفين. وجاءت فيها عشر في الحوار
والخاصمه هي الحلوانية في محاسن التشبيهات، والدمياطية في المواصلة

(١) برقعيد قصبية في ديار بكر (٢) نسبة إلى ميفارقين مدينة بالشام

(٣) نسبة إلى بني حرام بالبصرة وهي أولى المقامات انشاء (٤) نسبة إلى

والقطيعة، والاسكندراية في أثاث زوجته وحليها إذباعه، والرحبية^(١) في دعوى القتل على برىء والفراية في صناعات الانشاء والحساب والشعرية في دعوى سرقة شعر والصعدية^(٢) في عقوق الابن والتبريزية في نشوز الزوجة والرملية الثانية في عصيانها والحجرية^(٣) في الحجامة. وجاءت فيها تسع في التكنية والالغاز، فمقامات التكنية أربع هي المعرية في الكناية عن الابرة والميل والنصيبيية في الكناية عن بعض ألوان الطعام وما يتعلق به والشيرازية في الكناية عن الخمر بيكر ربها والنجرانية في الكناية عن أشياء عشرة هي المروحة والخابول^(٤) والقام والميل والدولاب والمزملة^(٥) والظفر وطاقة الكبريت وخمر العنب ومعيار الذهب. ومقامات الالغاز خمس، هي الفرضية في مسألة توريت والنحوية في مائة لغز نحوي والطيبية^(٦) في مائة لغز فقهي والملطية^(٧) في عشرين مقايضة كلامية^(٨) والشتوية في خمسين تورية ملغزة ضمنها قصيدة بائية في كل بيت لغز سوى بيت المطلع وثلاثة أبيات ختمها بها معجبا بنفسه وكم فيما أتى به حقا من عجب. على أن الأعب منه ما جاء في المقامات الست الباقية من التلاعب بالصناعات اللفظية التي ابتكرها لآتي آتي بها علم البديع وهي المقامة المغربية للعبارات التي تقرأ ردا وطرذا

(١) نسبة إلى رحية مالك بن طوق (٢) نسبة إلى صعدة باليمن (٣) نسبة إلى حجر باليمامة (٤) هو حبال الصائد (٥) جرة يركب في ثقب بها قصب للشرب منها (٦) نسبة إلى طيبة مدينة الرسول (٧) ملطية من بلاد الجزيرة (٨) المقايضة هي الأحاجي وتكون بطلب كلمة واحدة تؤدي معنى كلام كطوامير في معنى «جوع أمد بزاد» والفاشية في معنى «أهل حلية» وهكذا.

والقمقرية لرسالة التي تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه. والخيفاء
لرسالة التي إحدى كلماتها معجمة والأخرى مهملة، والرقطاء لرسالة التي أحد
حروف كلماتها معجم والآخر مهمل، والسمرقندية للخطبة العارية من
النقط، ثم الحلبية لعشر مقطعات من الأبيات، وأولها عواطل من النقط،
والثانية حوال به، والثالثة أخيف أي كلمة مهملة وأخرى معجمة، والرابعة
متائم أي كل كلمتين مجنستان جناسا خطيا، والخامسة مطرفات أي بطرفي
كل بيت جناس بين كلمة وكلمتين، والسادسة لما أشكل من ذوات السين،
والسابعة لما أشكل من ذوات الصاد، والثامنة لما يجري عليه هذان
الحرفان، والتاسعة لعقد هجاء الأفعال الناقصة، والعاشر وهى طويلة لما ورد
من الكلمات فيه ظاء.

هذا ما نحا إليه الحريري في مقاماته من الفن المعجز الذي غطى على
كل فن قبله وقطع الطريق على كل فن بعده، وهو مع هذا بعيد عن التكلف
المقوت، ولذلك كان منصفاً للحقيقة بل غير موفياً بحقها حين قال من وصفها
في مقدمتها (وأنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة وفطنة خامدة وروية
ناضبة وهموم ناصبة، خمسين مقامة تحوى على جد القول وهزله، ورقيق
اللفظ وجزله، وغرر البيان ودرره، وملح الأديب ونوادره، إلى ما وشحتها
به من الآيات ومحاسن الكنايات، ورصعته فيها من الأمثال العربية
واللطائف الأدبية، والأحاجي النحوية والفتاوى اللغوية، والرسائل
البتكرة والخطب المحبرة، والمواعظ المبكية والاضاحيك الملهية، مما
أملت جميعه على لسان أبي زيد السروجي وأسندت روايته إلى الحارث

ان همام البصرى^(١) وما قصدت بالأحماض^(٢) فيه إلا تنشيط قارئيه
وتكثير سواد طالبيه، ولم أودعه من الأشعار الأجنبية إلا بيتين فدين
أسست عليهما بنية المقامة الحلوانية، وآخرين توأما بين ضمنتهما خوادم
المقامة الكرجية، وما عدا ذلك فخاطري أبو عذرة ومقتضب حلوه
ومره^(٣) هذا مع اعترافى بأن البديع رحمه الله سباق غايات وصاحب
آيات وأن المتصدى بعده لانشاء مقامة ولو أوتى بلاغة قدامة لا يعترف
الا من فضالته ولا يسرى ذلك المسرى إلا بدلالته والله در القائل^(٤).

فلو قبل مـبـكـاها بكيت صباية بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكيت قبلى فهيج لى البكا بكها فقلت الفضل له تقدم
فمقامات الحريرى بالنسبة إلى مقامات البديع. وإن كانت هذه أكثر انطبعا،
وأشد انسجاما، وأبعد عن زخرف الصناعة وغريب اللغة. أبداع فنونا
وأبرع خيالا وألطف فكاهة وأكثر أمثالا، ولذلك جذبت إليها طلاب
اللغة للاستفادة منها، وأعلام الادب للعمل فيها، فخطبت بمثل ما حظى
به شعر المتنبي وشرحها كثير. منهم الشريشى المتوفى سنة ٦١٩ والمطرزى
والعكبرى والطرائفى والزبيدى والطبلى والناصرى والباجى وغيرهم،

(١) أبو زيد السروجى هو المطهر بن سلام البصرى النحوى لزم الحريرى
وتأدب عليه وتخرج به فأملى مقاماته على لسانه. أما الحارث بن همام فيعنى به
نفسه لقوله عليه الصلاة والسلام (كلكم حارث وكلكم همام). فبطلا مقاماته
ليسوا خياليين كبطلى البديع (٢) التلوين والتنويع (٣) بالمقامات من الشعر ما يزيد
على ما لكثير من الشعراء ولذلك عد الحريرى من الشعراء المكثرين على أن له
ديوان شعر (٤) قيل هو عدى بن الرقاع وقيل غيره

وأشهرهم الشريشي، وقد طبع شرحه أكثر من مرة بمصر وبغير مصر أما شروح غيره فبين معدوم ومخطوط ببعض مكاتب أوربة. وقد نشر أصلها العربي بالغرب في القرن التاسع عشر ثم ترجمت فيه إلى بعض لغاته وإلى بعض اللغات الشرقية كالفارسية والتركية وغيرها. ولم يك العجب بها في القديم بأقل منه في الحديث فهذا علي بن الحسن المعروف بشميم الحلبي المتوفى بالموصل سنة ٦٠١ وكان معجبا بنفسه لا يكاد يرى لأحد من المتقدمين عليه فضلا يقول « لا أعلم أحدا من المتقدمين جاء بما يرضى إلا أن يكون المتنبي في مديحه، وابن نباتة في خطبة، والحريري في مقاماته، فمؤلا لم يقصروا » وقال له بعض إخوانه قد هجيت أن لم تصنف مقامات تدحض بها مقامات الحريري فقال « إن الرجوع إلى الحق خير من التنادي في الباطل، قد عملت مقامات مرتين فلم ترضني، فأعرضت عنها وأهملتها، وما أعلم أن الله خلقني إلا لأظهر فضل الحريري » وقال جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ صاحب الكشاف وهو من هو بلاغة، في الحريري ومقاماته .

أقسم بالله وآياته ومشعر الحج وميقانه
أن الحريري حري بأن نكتب بالتبير مقاماته
معجزة تعجز كل الوري ولو سروا في ضوء مشكاته

وللزمخشري هذا مقامات خمسون أيضا، ألفها قبل مقامات الحلبي المذكور، وكذا لأبي منصور أحمد بن جميل البغدادي المتوفى سنة ٥٧٧، والأولى هي الباقية دون الثانية، وكلها في الوعظ والارشاد بأسلوب وعلى طريقة غير ماعرف فيهما للحريري والبديع، فأسلوبها ليس فيه محدث

ومحدث عنه وطريقتها خلو كل الخلو من القصة . وقد جاء بعد هذين من تصدى لعمل المقامات في العصر العباسي، ولكن لم يشهر مع مقامات الحريري والبيديع فقبر أوضاع، كأحمد بن الأعظم الرازي المتوفى سنة ٦٣٠ .

ثم تعدى عمل المقامات رجال العصر المذكور إلى رجال العصور بعده حتى العصر الحديث، كزين الدين بن صقيل الجزري المتوفى سنة ٧٠١، وعمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩، وجلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١، والشهاب الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩، والشيخ ناصيف اليازجي المتوفى سنة ١٢٨٧، ثم المنشئ الأديب محمد بك المويلحي في كتابه حديث عيسى بن هشام الذي حذا فيه حذو البيديع، واختار له اسم راويته المذكور فأعاد إلى الأذهان ذكره، وأشهد لقد فاقه في أن جاء حديثه هذا أدخل في باب القصة من المقامات، لما طالجه من تصوير الحوادث وتحليل الشخصيات، فهو بطل المقامة في الحديث كما كان البيديع والحريري بطلها في القديم.



تدوين العلوم والكتابة العلية

علمت من الخلاصة التي أثبتناها عن تدوين العلوم في العصر الأموي، أن ذلك العصر انقضى ولم يدون فيه شيء من العلوم الشرعية إلا التفسير الذي نسبه مجاهد إلى ابن عباس، وحديث رسول الله الذي دونه محمد بن عمرو بن حزم، وأذاعه عمر بن عبد العزيز في الأمصار، والأول باق والثاني غير معروف، أما الفقه فلم يدون فيه شيء ومثله القراءات. كما علمت أنه لم يدون من العلوم اللسانية إلا بعض كتب في النحو ليس لها الآن وجود. وكذلك كان الشأن في العلوم الأخرى من تاريخ وكمياء وفلك وطب، فلم يصل إلينا مما ألف فيها إلا ترجمة ماسويه لكتاب أهرن السرياني في الطب الذي أذاعه أيضا عمر بن عبد العزيز، ولذلك يحكم المؤرخون على ذلك العصر بأنه لم يكن عصر تدوين للعلوم، ويعتبرون العصر العباسي هو العصر الحق للتدوين.

ذلك بأن الحال السياسية لم تكف تستقر أول العصر العباسي بعد خلافة السفاح وقليل من خلافة أخيه المنصور، حتى أحس هذا الخليفة العظيم بشدة الحاجة إلى تدوين العلوم، فعمل علماء الدين واللغة على جمع العلوم الشرعية واللسانية، وأوعز إلى المترجمين من السريان والفرس أن ينقلوا من اليونانية والفارسية ما تحتاج إليه الدولة من علوم أخرى كالطب والفلك وغيرها، وبذل في ذلك على جمود كفه المال الكثير. وتبعه في هذا أولاده وأحفاده حتى زخر تيار العلوم والفنون على أيدي طبقة واضحة انتهى مجرودها بعصر الرشيد. ثم جاء المأمون ففضل

آبائه وأجداده في تشجيع حركة التأليف والترجمة، فنشأت طبقة ثانية يصبح أن تسمى طبقة التهذيب والتفصيل، لما أتتجته طبقة الوضع، فأتمت العصر الأول وسلخت نصف الثاني. وبعدها نشأت طبقة ثالثة تم فيها استواء الملكات، وصح لذلك تسميتها طبقة التصنيف، لأنه صار عندها صناعة أخرجت البسيط والوسيط والوجيز في شتى العلوم والفنون، وبها انتهى العصر الثاني.

ولما جاء العصر الثالث نشطت حركة التأليف بعامل المنافسة بين رجال الدويلات، واشتدت المنافسة بين القاهرة وبغداد، فنمت العلوم وتعددت فروعها حتى تجاوزت الثلاثمائة، ووجدت علوم لم تكن موجودة، ومن ثم سمي عصر نضج العلوم ثم سمي عصر المكاتب لأنها كثرت فيه، كما سمي عصر توطن العلوم لأنها صحت جميع الحواضر ولم تعد وقفا على بغداد، وفيه انتشرت المؤلفات الشيعية بمظاهرة الفاطميين غربا والفرس شرقا فسمى لذلك عصر المذهب الشيعي. ثم جاء العصر الرابع فاستمرت العلوم مسائرة به في طريق النماء حتى اتسعت الأبحاث وأخرجت المؤلفات الضخمة والمصنفات الجامعة، فعرف بعصر الموسوعات. ثم انتشرت فيه حركة التعليم وأنشئت المدارس المنتظمة فعرف بعصر المدارس أيضا، غير أنه قد حدث فيه انقلاب كبير ضد المذهب الشيعي الذي كان سائدا في سلفه كما تقدم، قضى على قوته وأحل المذهب السني محله بعون السلاجقة شرقا والأيوبيين غربا، بعد ذهاب آل بويه والفاطميين، ثم كانت العلوم الأدبية فيه في المرتبة الثالثة بعد العلوم الأخرى من شرعية وكونية، وقد سبق ذلك كله مفصلا في صدر الكتاب. ولا يفوتنا

أن ننبه هنا إلى أن الحركة العلمية في الممالك الشرقية ونظيرتها في الممالك الغربية كانتا في العصر الثالث سواء ، أما في العصر الرابع فكانت في الشرق خيرا منها في الغرب ، غير أنها اضمحلت في الأول قبل اضمحلالها في الثاني .

هذا والعلوم التي خلفها المسلمون في العصر العباسي من وضعهم أو ترجمتهم نوعان . إسلامية من شرعية كالتفسير والقراءات والحديث والفقه والاصول والكلام والمنطق وغيرها ، ولسانية كالنحو والصرف واللغة والبلاغة بأقسامها ، والادب ويلحق به التاريخ^(١) وغيرها . ثم كونية من طبيعية ورياضية وإلهية وسياسية . وإليك كلمة موجزة عما ذكر من علوم النوع الأول بقسميه ، وأخرى مجملة عن النوع الثاني بأقسامه الأربعة .

العلوم الشرعية

١ - التفسير والقراءات

كان أول تفسير وضع ، التفسير المنسوب إلى ابن عباس برواية مجاهد من التابعين الذين كانوا يتلقون ذلك عن الصحابة في العهد الاموي كجاهد هذا وسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس وطاووس بن كيسان وعطاء بن أبي رباح وغيرهم من أصحاب ابن عباس بمكة والمدينة ، وكابرهيم النخعي والشعبي من أصحاب عبد الله بن مسعود بالكوفة ، وكمالك بن أنس والحسن البصري من أصحاب زيد بن أسلم بالبصرة .

(١) من مباحث الأدب أيضا العروض والقافية وسيأتي القول عنهما بما فيه الغناء حيث الكلام على ألفاظ الشعر وأساليبه .

وقد أدرك بعض التابعين العصر العباسي على عهد المنصور، وقد ونوا مع تابعي التابعين أمثال سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج ويزيد بن هرون وآدم بن أبي إياس وإسحاق بن راهويه ومحمد بن إسحاق ومقاتل بن سليمان وغيرهم، تفسير للقرآن، كما كتب بعضهم في غربته وبعضهم في تأويل آياته وبعضهم في مجازة، ولكن تفسيرهم جاءت حاوية لبعض التأويل الباطلة التي أخذوها من غير تحقيق عن أسلم من اليهود، كوهب بن منبه وعبد الله بن سلام وكعب الأحمباري. ثم جاءت في العصر الثاني طبقة حققت ذلك كان منها المفسر العظيم أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ صاحب «جامع البيان في تفسير القرآن» الذي يعد أول كتاب صحيح للتفسير المنقول، واقتدى به في ذلك جماعة، ومنهم استمد الناس. ثم جاء العصر الثالث فنشأت طبقة رغبت في تجريد الروايات من الأسانيد وإضافة كثير من مباحث العلوم المختلفة التي كانت قد نضجت إذ ذاك إلى التفسير، كالنقاش الموصلي صاحب «شفاء الصدور» وإبراهيم الثعلبي صاحب «الكشف والبيان» والحوافي المصري صاحب «البرهان». ولما جاء العصر الرابع بقيت هذه الطريقة ودحا كما في البسيط لأحمد الواحدي تلميذ الثعلبي المذكور، ثم لم تلبث الزيادات العلمية أن أخذت اتجاهها يمثل روح المفسر كالبلاغة والاحتجاج للمعزلة في كشف الزمخشري، والكلام والأصول في مفاتيح العلوم للرازي، كما ظهرت التفسير بالرأي والقياس دون تقييد بآراء السلف.

أما القراءات فقد تعددت وجوهها في أوائل العصر العباسي، ولكن الناس في جمهورتهم كانوا يرجعون في قراءتهم إلى سبعة، هم أبو عمرو بن

العلاء وأبو محمد يعقوب بن إسحاق وحمزة بن حبيب وطاصم بن أبي النجود
وعبد الله بن طامر وعبد الله بن كثير ونافع بن أبي نعيم . وقبيل الثلاثمائة
أحلوا في هذا الاقتداء على بن حمزة الكسائي محل يعقوب ، فأجهد
يعقوب نفسه في الحصول على جديد في رواية القراءات فنال ونال معه
يزيد بن القعقاع وخلف بن هشام ، وعرفوا بالقراء الثلاثة بعد السبعة
المذكورين . ثم عرفت قراءات أربع قبل انقضاء العصر منسوبة إلى
قراء أربعة آخرين هم ابن محيصن المكي والأعمش الكوفي والحسن
البصري ويحيى اليزيدي . وعلى هذا بقيت القراءات ^(١)

٢ - الحديث

كان أول تدوين للحديث ما قام به ابن حزم بأمر عمر بن عبدالعزيز ،
ولكنه ضاع كما تقدم فجاء العصر العباسي وليس هناك تدوين .
ولما كان الاقتراء على رسول الله قد ازداد بعمل الزنادقة والضلال ، أمر
المنصور مالك بن أنس بجمع كتابه الموطأ الذي أنبت فيه الحديث
مرتباً على أبواب الفقه ، فكان أول كتاب فيهما معاً . وقد حمل تمييز
الصحيح من الموضوع أئمة العصر الثاني على اقتفاء آثار الرواة بالجرح
والتعديل ، فكان من ذلك وضع مصطلح الحديث على يد كثير ، أشهرهم
إسحاق بن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨ . ثم عمدوا إلى تدوين الأحاديث
الصحيحة مجردة من الموضوع وكانوا قبل ذلك يدونونها معاً اكتفاء
بالتنبيه ، فوجدت كتب شتى أصبحها ، جامع الصحيح للبخاري والجامع

(١) قد فصلنا القول في القراءات حيث الكلام على جمع القرآن ورواياته

في كتابنا عن صدر الإسلام والعصر الأموي

الصحيح للنيسابوري والسنن لابن ماجه القزويني والسنن كذلك لأبي داود
السجستاني، والجامع لأبي عيسى الترمذي والسنن أيضا لأبي عبد الرحمن
النسائي، وبعده ذلك الكتب الستة لم تزد رواية الحديث في العصر الثالث واتجه
اهتمام أئمتها إلى ترتيب شيوخه وتبيين مراتبه والتوسع في مصطلحه. ومن
كبار الحديث فيه، الحاكم النيسابوري وأبو الفتح الرازي وتلميذه أبو بكر
البيهقي وكان كل جهدهم خدمة الكتب المذكورة فلم تعرف لهم مؤلفات مستقلة
أما في العصر الرابع فقد وجد من الحديث ذوى التأليف كثير منهم يبعثون
صاحب مصابيح السنة، والجزري صاحب جامع الاصول في أحاديث
الرسول، والنهاية في غريب الحديث

٣ - الفقه وأصوله

عرفت أن أول كتاب دون في الفقه موطأ مالك بن أنس إمام
الحجازيين الذين غلب عليهم التشدد وعدم إعمال الرأى لوقوفهم عند
الرواية وكانت كثيرة عندهم، أما أهل العراق البعيدون عن الرواية فقد عملوا
بالقياس والرأى فيما لا يخالف الكتاب والسنة وراء إمامهم الأعظم
أبي حنيفة النعمان، ولكن لما انتقل المحدثون إليه بالعراق مزجوا بالرواية
الرأى وظهر ذلك جليا في صاحبيه أبي يوسف ومحمد. واتفقت أن رحل
الشافعي إلى العراق فأخذ عن محمد وغيره ووضع مذهبا وسطا بين مذهب
مالك وأبي حنيفة. ثم رحل إلى مصر فرجع عن بعض ما رأى ووضع
مذهبا آخر فكان له مذهبان قديم وجديد. ثم جاء أحمد بن حنبل فأخذ
من بعض أصحاب الحديث عن الشافعي، ومن بعض أئمة القياس والرأى
عن أبي حنيفة، فكان مذهبه المعروف. وبذلك تمت في العصر العباسي

الأول المذاهب الأربعة . المالكي بالحجاز ، والحنفي بالعراق، والشافعي بمصر ، والحنبلي في نجد والبيهرين وبعض الشام. ولكل إمام من هؤلاء بقية من كتبه أهمها الموطأ لمالك، والفقهاء الأربعة لأبي حنيفة ، والأمام للشافعي، والمسند لابن حنبل . وفي العصر الثاني تغير كثير من الآراء في مسائل الفقه لانتشار العلوم المختلفة وبخاصة الفلسفة فتولدت مذاهب لم تكن موجودة كمذهب الطبري القريب من الشافعي، ومذهب داود بن علي الظاهري القريب من المالكي . ولكنها تضاءلت أمام المذاهب الأربعة التي لم يستجد بجوار أصولها في العصر الثالث أيضا غير التلخيص والشرح والتعليق، ومن خيار الفقهاء في هذا العصر أبو الحسن الماوردي صاحب كتاب الحاوي الكبير في الفروع في فقه الشافعي وهو مطبوع، وكذلك كانت الحال في العصر الرابع، ومن فقهاء أبو حامد الغزالي وله تأليف كثيرة في الفقه منها البسيط في الفروع، والوسيط المحيط بأقطار البسيط، والوجيز في فقه الشافعي، ثم الأحياء ونحو نصفه في الفقه .

أما الأصول فقد حمل على نشأته رسوخ ملكة الفقه في الأئمة رسوخا جعلهم يحصرون مسائله في أصول خمسة هي: الكتاب والسنة والاجماع والقياس ثم الاستحسان على خلاف يسير في الأخيرين، ويسمون الكلام فيها أصول الفقه . وأول من ألف فيه الشافعي رحمه الله، ومن بعده انتشر لدى الحنفية بالعراق وفي مقدمتهم أبو زيد الدبوسي . ومن اشتداد الجدل فيه بين المذاهب نشأ علم الجدل والخلاف . وقد سارت هذه العلوم الفقه في سائر العصور لأنها متفرعة عنه

٤ - الكلام والمنطق

نشأ علم الكلام في العصر العباسي على أثر تنكب بعض المتأخرين طريق السلف في التوقف عن البحث في المتشابه وما يورث التشبيه . فانهم حين تناولوا البحث في الأمور من ضل كثير منهم في التأويل ووقع في التجسيم المنافي للتنزيه ، فهب الآخذون برأى السلف إلى مقاومتهم ولكنهم لم يقنعوا الداخلين في الاسلام ممن امتلأت دياناتهم القديمة بالشبه والأوهام ، فدخل الدين كثير من العقائد الفاسدة ، واضطر العلماء المحافظون أن يخرجوا عن التوقف إلى الجدل والمعارضة بكثرة القول فكان هذا مبدأ علم الكلام . وظهر الخلاف أول ما ظهر من واصل بن عطاء الذي اعتزل حلقة الحسن البصري واتبعه في ذلك أناس عرفوا باسم المعتزلة لهذا الاعتزال . وقد نمت هذا العلم ما كان عليه الخلفاء من اختلاف ، فبعضهم كان ينصر أهل السنة ، كالمهدي وبعضهم ينصر المعتزلة كالأمون . ثم زاد الاعتزال نمواً في العصر الثاني ووفرة الفلسفة ، لما كثرت ترجمة كتبها ولم يقف تياره إلا ظهور أبي الحسن بن إسماعيل الأشعري الذي استعمل أدلة العقل مع النقل وأتم مباحث هذا العلم ، كما ألحق به مباحث الإمامة فكان له مذهب خاص اتبعه فيه جماعة عرفوا بالأشعريين . وقد أيدته في العصر الثالث أبو بكر الباقلاني فنسخ كل مذهب إلا مذهب الشيعة الذي بقي عليه كثير من الاتباع . ثم لقي مثل هذا التأييد في العصر الرابع على يد كثير أشهرهم الرازي وحجة الله الغزالي صاحب التأليف الكثيرة الواسعة في هذا الباب ، ومنها كتاب الأحياء . وفيه كثير من مباحث الكلام

هذا وقد حملتهم الحاجة إلى البرهنة والاحتجاج في علم الكلام، على شق الطريق إلى علم المنطق فنبغوا فيه وساء لهم على هذا النبوغ ما نقلوه عن اليونان في جميع مباحثه من فصول، ولعله لهذا السبب استمر طوال العصور العباسية خاضعا للنظام اليونانية بل بقي عليها من بعدها إلى الآن.

العلوم اللسانية

١ — النحو والصرف

وضع أبو الاسود الدؤلي النحو بالبصرة في العصر الاموي كما عرفت في كتابنا الثاني، فاختلف إليه عدد من رجالها يتعلمونه عليه، كان منهم عنبسة الفيل وعبد الرحمن بن هرون الاعرج ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وميمون الاقرن وغيرهم ممن عرفوا بالطبقة الأولى. وعندهم أخذت طبقة ثانية منها عبد الله بن أبي اسحق، وأسماء الحضرمي وأبو الخطاب الاخفش الأكبر وأبو عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر الثقفي وعن هذه الطبقة الثانية انتقل النحو إلى الكوفة فكون بها طبقة أولى منها أبو مسلم معاذ الهراء وابن أخيه أبو جعفر الرواسي، وقد تبارت في التأليف مع الطبقة البصرية الثانية ولم يك للطبقة البصرية الأولى فيه سوى أوراق، فكان لعيسى بن عمر كتابا الجامع والاكمل، وهما أول ما ألف في النحو البصري، وكان لأبي جعفر الرواسي كتاب الفيصل أول ما ألف في نحو الكوفيين، وقد أدركت هاتان الطبقتان العصر العباسي فتثقت عليهما الطبقة التي وضعت أساس التأليف في النحو وسائر علوم اللغة، وكان

رأسها الخليل بن أحمد مستخرج مسائل النحو ومصحيح قياسه ومخترع العروض ومدون اللغة . وعن طبقة الخليل نشأت بالبصرة طبقة سيبويه صاحب الكتاب، وبالكوفة طبقة الكسائي ، ودب بين الطائفتين الخلاف واشتد الجدل حتى كانت تعقدينيهما المناظرات . وكان منشأ الخلاف أن البصريين يقدمون السماع على القياس الذي لا يأخذون به إلا لضرورة، وقد ساعدتهم على الاكتفاء بالسماع كثرة فصحاء العرب بالبصرة لقربها من البادية، في حين أن الكوفيين يعتمدون في أكثر مسائلهم على القياس لقلة جالية العرب بالكوفة وقربها من الأعجم . ثم نشأت بالبصرة طبقة الاخفش الأوسط^(١) شارح كتاب سيبويه، وبالكوفة طبقة الفراء صاحب كتاب الحدود، وعنه انتشر المذهب الكوفي ببغداد قبل أن يعرف بها المذهب البصري . وبعدها كانت في البصرة طبقة التوزي والجرمازي والجرمي والمازني والسجستاني، وفي الكوفة طبقة ابن السكيت وابن سلام ثم ختمت طبقات البصريين بطبقة المبرد وطبقات الكوفيين بطبقة ثعلب وإليهما انتهى علم هؤلاء وعلم هؤلاء . وعلى هذا انقضى العصران الاول والثاني . ولما توالى فتن الزنوج والقرامطة على المصريين جلا علماءها إلى بغداد، ومن اختلاطهما نشأت طريقة البغداديين وهي خليط من المذهبين ولكن مع جعل مذهب البصريين الأساس . ولم يجد في العصر الثالث جديد إذ كان أكثر مادون شروحا وتعليقات على المذهبين

(١) هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة تلميذ سيبويه، أما الأبر المذکور آنفا فهو أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد الحميد أستاذ سيبويه ، والأصغر هو أبو الحسن علي بن سليمان تلميذ المبرد .

من غير تعصب ولا خلاف ، ومن علماء النحوفيه ابن خالويه صاحب كتاب « ليس في كلام العرب » وصاحب رسالة في إعراب ثلاثين سورة من القرآن ، وابن جنى صاحب الخصائص في أصول النحو ، وسر الصناعات في النحو ، وشرح تصريف المازني واللمع في النحو ، والمحتمسب في إعراب الشواذ وعلل التثنية ، ثم ابن درستويه والسيرافي والرماني ولكل هؤلاء مؤلفات . وفي العصر الخامس^{١١١١} وضعت أهم كتب النحو والصرف التي عليها معول العلماء الآن كالكافية في النحو ، والشافية في الصرف وهما لابن الحاجب ، وتصريف العزى لعز الدين الزنجاني في الصرف ، ومفتاح العلوم للسكاكي وغيرها

٢ - متن اللغة

كان المرجع في معرفة معاني المفردات طوال العهد الأموي ، مشافهة الأعراب أو سؤال الأديباء . ولما جاء العصر العباسي فكر بعض الأئمة في تدوين رسائل صغيرة في فئات من الألفاظ كالتي تجمع أعضاء الانسان أو بعض الحيوان أو النبات أو الجماد . ثم جاء الخليل بن أحمد ففكر في اختراع طريقة جامعة سهلة تحصى بها كلمات العربية وتكتب معها معانيها ، فوضع كتابه العين الذي رتبته على حسب مخارج الحروف من الخلق إلى الشفة مبتدئاً إياه بحرف العين ، ولكن يظهر أنه لم يتمه وبقيت طريقة الرسائل جارية حتى آتته جماعة بعد وفاته ، أشهرهم الليث بن المظفر فكان أول كتاب منظم في متن اللغة . وفي العصر الثالث ألف ابن دريد كتابه الجهرة منه ومن الرسائل المذكورة ومن كتب أخرى الأصمعي وأبي عبيدة وغيرها ، ورتبه على حروف الهجاء من الهمزة إلى

الياء، وألف أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر كتابه التهذيب على ترتيب الخليل في عشر مجلدات ، كما ألف الصحاح بن عباد المحيط في سبع مجلدات ، وأحمد بن فارس الجمل حاذفا للشواهد ، والجوهري الصحاح الذي جمع فيه أربعين ألف مادة . ثم حل العصر الرابع فألف الفيروزابادي القاموس المحيط ، والزنجشري أساس البلاغة ، وبعدهما ألف الصغاني المتوفى سنة ٦٥٠ كتابيه تكملة الصحاح والعياب، ثم جمع بينهما في مجمع البحرين . على أن التأليف لم ينقطع بالانكباب على المعاجم عن أن يتناول نواحي أخرى من اللغة كالأجناس في فقه اللغة للثعالبي، وشرح غريب الحديث للجزري وغيرها .

٣ — البلاغة

تطلق البلاغة في عرف العلماء على علوم ثلاثة هي المعاني والبيان والبديع، ولكل مباحث خاصة به كما هو معروف . وقد كان الدافع إلى نشأتها الدفاع عن إعجاز القرآن الذي خاض فيه كثير من الزنادقة والفلاسفة بانكاره أو بالحيدة عن أن سببه التناهي في البلاغة . وقد تقدمت هذه العلوم مباحث منها قبل أن تكتمل كأنها إرهاب لها قبل هذا السجال، دعت إليها أسباب طارئة كتأليف أبي عبيدة المتوفى سنة ٢٠٦ كتابه « مجاز القرآن » على أثر سؤال وجه إليه في معنى قوله تعالى « طلعتها كأنه رعوس الشياطين » وإجابته السائل بأن ذلك على حد قول الشاعر: أيقنتني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال^(١)

(١) استعمل أبو عبيدة في تلك التسمية كلمة مجاز بمعنى طريق التعبير لا

بالمعنى الذي اصطلح عليه بعد ولذلك جاءت أبحاث كتابه خليطا من النحو

وكالذي كان من الجاحظ في تأليف كتابه « إعجاز القرآن » الذي بقيت
منه أبحاث كثيرة منقولة في كتاب الفصول المختارة من كتبه لعبيد الله
ابن حسان، وفي كثير من كتابه البيان والتبيين، وكالذي كان من المبرد
حين قال له الكندي الفيلسوف « أراني أجد في كلام العرب حشوا
إذ أجدهم يقولون عبد الله قائم، ثم يقولون إن عبد الله قائم، ثم يقولون
إن عبد الله قائم، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد، فقال له أبو العباس
« بل المعاني مختلفة، فالأول إخبار عن قيام والثاني جواب عن سؤال
سائل والثالث جواب عن إنكار منكر وقد تكررت الألفاظ لتكرار
المعاني » إلى غير ذلك من متعلق البيان والمعاني. ثم جاء ابن المعتز فراه
ما كان يقع للشعراء من محسنات دون أن تعرف لها أسماء، فحصر منها
سبعة عشر نوعا سمي كلا منها وسميها في مجموعها البديع، وإن كان فيها
بعض ما هو الآن من البيان كالاستعارة والكناية. ولهذا كله يمكن أن
يقال إن البديع وضع قبل انتهاء العصر الثاني، وإنه وضعت أبحاث
كثيرة خلاله وخلال الأول للمعاني والبيان. وقبيل انتهائه عقب
تدامة بن جعفر على بديع ابن المعتز في كتابه « نقد قدامه » الذي أتى فيه
عشرين محسنا وافق ابن المعتز في سبعة منها، واختص بثلاثة عشر
كما اختص ابن المعتز بعشرة، فتمت المحسنات ثلاثين. وفي العصر الثالث
ألف ابن هلال العسكري كتابه الصناعات في معظم أبحاث هذه العلوم
الثلاثة فكان أول كتاب جامع لها وإن لم يميز بعضها عن بعض. وفي الرابع

والبلاغة وإن كان للثانية الكثرة وبخاصة البيان لأن السبب الحافز لوضع الكتاب

ألف إمام البلاغة عبدالقاهر الجرجاني كتابه « دلائل الاعجاز »، وكتابه « أسرار البلاغة » مغابا على الاول أبحاث المعاني، وعلى الثاني أبحاث البيان، فعد هذا أول تفرقة بينهما، وكان البديع قد تميز كما مر آنفا، وبهذا تكلمات هذه العلوم وتميزت تقريبا. ثم حدث بعد عبد القاهر أن زاول البلاغة كثير من الأعجام متأثرين بالعجمة من جهة، وبالفلسفة والمنطق من أخرى. فكتبوا فيها بأساليب مثلت الناحيتين المذكورتين فكانت عثرة في طريق الفصاحة والبلاغة، ومن هؤلاء السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ صاحب مفتاح العلوم في النحو والصرف والبلاغة والعروض. وقد لخص قسم البلاغة منه الخطيب القزويني في كتابه « تلخيص المفتاح » ذي الشهرى الذائعة والشروح المتعددة، وعنده وقف نمو هذه العلوم قبل أن يتم نضجها وهى فى حاجة إلى الانضاج الذى كان منظورا لها لولا ما دها العرب والعربية من أحداث^(١)

٤ - الأدب والتاريخ

طالنا فى أول موضوع من كتابنا عن العصر الجاهلى، التعريف بالأدب وتاريخه علاجا طويلا فهم منه أن أول معنى عرفته العرب لكلمة الأدب صنع طعام محتفل بالدعوة إليه فى مأدبة، وأنها قبيل

(١) مما ذكر عن علوم البلاغة هنا ترى أنها من صنع علماء المشاركة، أما علماء الممالك الغربية فقد كاد ينحصر عملهم فيها فى كتابى « المثل العاثر » للموصلى وهو خير كتبهما وبخاصة فى البيان والمعانى و « تحرير التعبير » لعبد العظيم بن أبى الاصمب المصرى المتوفى سنة ٦٥٤ فقد أوصل فيه محسنات البديع إلى التعمين.

الاسلام أخذت تستخدم في التهذيب والتثقيف ، وأن الاسلام أذاع هذا المعنى ونشره لكثرة تعاليمه الداعية إلى مكارم الأخلاق، وأن الناس توسعوا عقب ذلك فأطلقوا الأدب على كل ما له أثر في التهذيب، وبذلك تناول مأثور اللغة من كل نثر وشعر يحض على المحامد ويكره في المذام. وعرف من يروى ذلك بالأديب، ومن هنا جاء تعريف الأدب منذ صدر الاسلام بأنه «معرفة كلام العرب نثرًا وشعرًا وكل ما له صلة به من أيام وأنساب وأخبار وغيرها» وعلى هذا كان التأديب في عصر الراشدين، ثم أخذ ينمو ويتسع مدة بني أمية شاملاً معه ما وضع من قواعد النحو إذ ذاك. وقد عظمت رواية الأدب بهذا المعنى لما كان من تشجيع الخلفاء عليها، فنشأت الطبقة الأولى للرواة كما ذكرنا ذلك تفصيلاً بكتابتنا الثانية. والذي يزيد أن نقوله الآن، إن ما روى في العصر الأيوبي بقي غير مقيد في كتاب حتى إذا ما جاء العباسي ودخل الاسلام كثير من الأتجاهم الذين تعلموا لغة العرب، ووجدت الحاجة إلى التوسع في قواعد النحو لتحرز من الأخطاء، وإلى الأكتثار من الرواية للشواهد والمرانة، وقد دفع الحرص على هذين الأمرين معاً إلى تقييدهما بالتدوين، كما حجب بعد مواطن العباسيين عن البوادي، إلى طائفة من فصحاء الأعراب، التردد على حواضر العراق لمداواة والمتعلمين لقاء ما كانوا ينالون من رزق ومال فكان من أشهرهم بالبصرة أبو البيداء الرياحي، وأبو مالك بن كركرة، وأبو الجاموس بن يزيد، وأبو عدنان بن عبد الأعلى، وشبيل بن عرعة الضبيعي. وكان من أشهرهم بالكوفة والحيرة أبو خيرة بن زيد وأبو محم الشيباني. ثم تعدى سيلهم المصريين إلى بغداد فكان منهم فيها أبو زياد وأبو ضمضم الكلابيان

وأبو شبل العقيلي والفقعي الأسدي . بن تجاوزها إلى خراسان كأبي
العميثل مؤدب الطاهريين . ولكن كثير من هؤلاء كتب لم يحصل منها شيء
لضياعها ، ولكن معظم أدبهم وأدب غيرهم ممن لم يرحلوا عن البادية
وإنما كان الرواة يرحلون إليهم ، قد دونه الرواة في العصر العباسي الأول فكان
مرجع الناس . وأهم هؤلاء الرواة إذ ذاك أبو عمرو بن العلاء ، وعنه أخذ
أكثر النحاة والأدباء ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى صاحب نقائض جرير
والفرزدق والشعر الشعراء ، والأصمعي عبد الله بن قريب صاحب
الأصمعيات ورجز العجاج وعشرة كتب أخرى في الإنسان وكثير من
الحيوان والنبات والجماد ، وأبو زيد الأنصاري صاحب النوادر في اللغة
وكتابي المطر والابن ، والقاسم بن سلام صاحب كتب غريب الحديث وغريب
المصنف والامثال وفضائل القرآن والمواعظ . على أن هناك طائفة من
الرواة غلبت عليهم رواية الشعر ، أشهرهم حماد جامع المعلقات ، والضبي
صاحب المفضليات ، وخلف صاحب كتاب العرب وما قيل فيها من الشعر ،
والشيباني جامع أشعار القبائل . وقبيل أن ينتهي العصر الأول العباسي
نشأت طبقة ثانية كانوا يجمعون بين الروايات ويفاضلون بينها ، منهم
محمد بن سلام صاحب طبقات الشعراء ، وأبو زيد بن أبي الخطاب
صاحب جبهة أشعار العرب ، وله في صدرها مقدمة تبلغ نحو الأربعين
صفحة ، تكلم فيها عن الشعر واللغة كلاما انتقاديا له في عالم الأدب مكان ،
ثم كانوا يحيدون في كلامهم عن الأكثر من اللغة التي بدأت تتميز عن
الأدب ، كما حاد أسلافهم أوله عن الأكثر من النحو ، فتميز منذ أول العصر .
ولما حل العصر الثاني أخذ الأدب يستقل عن هذين

العامين إلا لما ، وبمعنى بالمأثور وبالكلام عليه شرحا وتعليقا وبالأخبار التي تتعاقب برجاله ، ثم جلا الأدياء في أوله عن المصريين للأحداث النازلة بهما إلى بغداد التي استبحر فيها العمران ، وكانت الكتب المترجمة في الأدب الفارسي وغيره ، قد أنارت للناس سبل التأليف فتغيرت بذلك كله وجهة الأدب وظهر هذا التغيير في أمور ، منها في المأثور تجاوز الرواية إلى التدبر في المروي بما يحل معناه تحليلا ينتهي بحكمة أو عظة ، ومنها في الخبر جمع أشتهات الأخبار العربية على اختلافها مع ترتيبها أبوابا في كل باب طائفة ، ومنها غيرهما الميل إلى تدوين الحكم وأخبار الحكماء ومنافع العدل وسير العادلين والحث على الافتداء بهم ، ولعل الدافع إلى هذا الميل ما ظهر في ذلك العصر من فساد الحكم وتوالي الظلم حتى على الخلفاء ، إلى غير ذلك مما اصطبغت به كتب الأدب وتوخاه في التصنيف الأدياء ، كالجاحظ إمامهم وفتح الفتح في التأليف ، فله كتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وكتاب البغلاء وكتاب المحاسن والاضداد على خلاف ، وأخلاق الملوك وتنبيه الملوك ، وسحر البيان وفضائل الأتراك ، وسلوة الحريف والعرافة ، والزجر والفراسة عند الفرس ، وطبقات المغنين والتاج وغيرها ، سوى الرسائل الكثيرة المتنوعة ، وكان قتيبة المقي للجاحظ في هذا الباب وصاحب هذه المؤلفات . عيون الأخبار في عشرة كتب ، والمعارف في التاريخ العام والشعر والشعراء وأدب الكاتب والامامة والسياسة والشراب والاشربة والتسوية بين العرب والعجم وتفضيل العرب وغيرها ، وكقدامة بن جعفر صاحب كتاب نقد الشعر وكتاب نقد النثر وغيرها ، محمد بن أحمد الوشاء صاحب الموشى ، وهو كتاب فريد في باب فيه

غير المواعظ الكثيرة ، وصف الازياء والفاظ المكاتبات وما يكتب من
الأشعار على الثياب والأدوات، وقد طبع باسم الظرف والظرفاء وغيره .
إلى سائر أدباء هذا العصر وهم كثير وكتبهم أكثر .

ولما جاء العصر الثالث كان أكبر ظواهر الأدب فيه .

أولاً : - انتشار الروح القصصية التي أحيها في العصر الأول
ابن المقفع، ونماها في الثاني من اقتفوا أثره فيها كالجاحظ، وقد قدمنا القول
على ذلك مبسوطاً في الكتابة حيث الكلام على القصص والمقامات .

ثانياً : - انتشار روح النقد وتعدد موضوعاته بعد أن فتحه في
العصر الثاني بالمعنى الذي نريد، قدامة بكتابه المذكورين فكان في أدبائه من
انتقد الرواية والإخبار، كأبي الفرج في كتابه الأغانى أضخم كتب
الأدب وأحفلها بمواده وأجمعها لتراجم الشعراء والمغنين . ومن انتقد
الشعراء كسيف بن بشر الأمدى المتوفى سنة ٣٧١ في كتابه «الموازنة
بين أبي تمام والبحترى» فإنه لم يترك لكليهما شيئاً مما يقوله متعصب
له أو عليه، إلا أورد في أسلوب جدي ممتع ونقاش حصيف، وكالصاحب
ابن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ في كتابه «مساوى المتنبي» الذي كان شديد
التحامل عليه فيه لعدم مدحه إياه مع عرضه عليه مشاطرته ماله،
وكعبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢ في كتابه «الوساطة بين
المتنبي وخصومه» الذي تصدى فيه لدحض ما ذكره الصاحب وغيره
من سائر الخصوم، فانتصف للمتنبي انتصافاً مؤيداً بالحجة والبرهان .
كما كان فيهم من انتقد الكلام انتقاداً مهنياً على قوانين البلاغة التي وضع

بعض قواعدها في العصر الأول وتمت في الثاني واطرد نموها في الثالث،
كأبي هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ في « كتاب الصناعتين الكتابة
والشعر » فقد ملأه نقدا مؤنساً على ضوابط الفصاحة والبلاغة في
الأساليب والمعاني؛ بل كن فيهم من طبق ذلك كله على نوابغ الشعراء
وكبار الكتاب، كالنعماني المتوفى سنة ٤٢٩ في كتابه « يتيمة الدهر »
الذي سبق القول عنه، وفي كثير من كتبه المعروف منها نحو الأربعين
كلاعجاز والايجاز، وخاص الخصاص، ونثر النظم، وحل العقد، وشمس
الادب في استعمال العرب، والكناية والتعريض، وأجناس التجنيس،
وسحر البلاغة، وغرر البلاغة، والنهية في الكناية، ولا ننس من نقاده هذا
العصر خاتمة شعرائه وكبير فلاسفته أبا العلاء المعري الذي جاءت
« رسالة الغفران » له مبنية عليه لجة وسدى.

ثالثاً - نضج نوع من الادب هو المحاضرة، وغايته اقتدار الأديب
على إيراد كلام غيره المناسب لما يطرأ في محضره، وعماده كثرة الحفظ
وجودة البديهة، ومن المؤلفات فيه « المحاضرات والمناظرات » للتوحيدى
المتوفى سنة ٤٠٠ و « النمل والمحاضرة » للنعماني و « الدرر والغرر »
للشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦.

ولما جاء العصر الرابع اطرد رقى هذه الظواهر الثلاث. فأما القصة
فقد علمت ذلك عنها، وأما النقد فكان من أصحبه وأتممه ما وقع من
عبد القاهر في كتابيه « دلائل الاعجاز وأسرار البيان » وما وقع للموصلى
في كتابه « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » فقد أجاد فيه نقد

الألفاظ والمعاني^(١)؛ أما المحاضرة فقد جاءت فيها « محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء » لأبي القاسم الراغب الاصفهاني المتوفى سنة ٥٠٢، خزانة أدب لكل ما يقال عن الشيء وضده في خمسة وعشرين بابا - سمى كلا منها حدا - في العلوم والصناعات والاخلاق والاجتماع والصفات وغيرها من أنواع البحوث .

هذا وإنما عددنا التاريخ من الأدب، لأن كل من تعرض للعرب فيه تعرض لأدبهم . وقد عني بتدوينه منذ العصر العباسي الأول في الانساب والسير والطبقات والفتوح . فكان من مؤرخي الانساب أبو المنذر هشام بن محمد الكلابي صاحب جمهرة الانساب، ومن مؤرخي السير أبو محمد عبد الملك بن هشام راوي السيرة النبوية لأبي بكر محمد ابن إسحاق، ومن مؤرخي الطبقات أي التراجم؛ أبو عبد الله محمد بن سعد صاحب طبقات الصحابة والتابعين، ومن مؤرخي الفتوح أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي صاحب المغازي وغيرها في الفتوح .

وفي العصر الثاني توسع المؤرخون فخرجوا في الانواع المذكورة إلى أنواع كثيرة، من تاريخ عام شامل لأخبار القدماء والمحدثين كأبي جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ المشهور، أو خاص بالناس أو البلدان كأبي الفضل أحمد بن طيفور صاحب تاريخ بغداد ويوسف بن الداية صاحب سيرة ابن طولون وابنه خمارويه، أو غيرها من تاريخ العرب

(١) ثم ما وقع بالمغرب لأبي العباس الحسن بن رشيق القيرواني المتوفى

سنة ٤٥٦ في كتابه «العمدة» الذي جاء أجل كتاب في صناعة الشعر وتقدمه، وفي

كتابه «قراضة الذهب في نقد أشعار العرب» .

المتصل بأدبهم كمحمد بن حبيب صاحب كتاب القبائل والأيام في أكثر من أربعين جزءا . أو تاريخ الفتوح كأبي جعفر أحمد بن يحيى البلاذري - خاتمة مؤرخي الفتح - صاحب فتوح البلدان .

وفي العصر الثالث ساد التاريخ العام شىء من الرحلة لكثرة ما كان فيه من رحلات ، ومن كبار الرحالة فيه ، على بن الحسين المعروف بالمسعودي . كما تكاثرت التواريخ الخاصة للأمم أو الأشخاص أو المدن ، فمن رجالها في تاريخ الأمم . أبو عمر محمد بن يوسف الكندي صاحب تاريخ مصر ، ومنهم في تاريخ الأشخاص ، أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبي صاحب البيهقي في تاريخ يمين الدولة الساطان محمود الغزنوي وأبيه ، ومنهم في تاريخ المدن أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي صاحب تاريخ بغداد « غير السالف لابن طيفور » .

أما في العصر الرابع فقد تعددت الموضوعات لتعدد الخلفاء والسلطين ، وتنوعت الكتب وتبارى المؤرخون في تدوين المعاجم والمطولات . فكان منهم ، مؤرخو الدول كالوزير جمال الدين علي بن خافر الأزدي المصري صاحب الدول المنقطعة - يعني عن العباسية - ، وأصحاب السير كتويد الدولة مجد الدين أبي المظفر أسامة بن مرشد المنقذ صاحب كتاب الاعتبار في سيرة حياته ووصف رحلاته ، و مترجمو الجماعات كأبي عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر صاحب الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، وفيه أكثر من ثلاثة آلاف ترجمة للصحابة ورواة الحديث ، ومؤرخو البلاد والمدن في مختلف الاقطار كابي القاسم علي بن الحسن المعروف بابن عساكر الدمشقي صاحب

تاريخ دمشق ، ثم المؤرخون العامون كأبي الحسن علي بن محمد المعروف
بعض الدين ابن الاثير صاحب الكامل أشهر كتب التاريخ ومن أوثقها
وأوضحها وأوسعها. وهو منذ الخليفة إلى سنة ٦٢٨ في اثني عشر جزءا

العلوم الكونية

عرفت أن العلوم الكونية أربعة أقسام ، طبيعية ورياضية وإلهية
وسياسة . فمن الطبيعية الكيمياء والطبيعة والطب والصيدلة والفلاحة
والمواليد الثلاثة « الحيوان والنبات والجماد » ، ومن الرياضية الجبر والحساب
والهندسة والحيل « الميكانيكا » والفلك والجغرافية النظرية ، ومن الإلهية
صفات الاله والسمعيات وقوى النفس وكل ما وراء الطبيعة ، ومن
السياسية تنظيم الملك وتدير المنزل وتدير المال والاخلاق . وإليك كلمة
مجملة عنها مجموعة كما وعدنا ، لأنها ليست ذات صلة مباشرة بالأدب
تخرج إلى أفرادها كما أفردنا مواد العلوم الإسلامية من شرعية ولسانية قبل .
ذكرنا في صدر الكتاب حيث الكلام على غلبة الفرس فيما طرأ
على العرب ولغتها من جراء امتزاج الاعجام بها ، أن الفرس أحرزوا
منذ القديم قسما وافرا من العلوم أوجدوا بعضه ، ثم ورثوا بعضا عن
الآشوريين والبابليين ، وترجموا بعضا منذ القديم عن الهند والصين ، كما
ترجموا بعضا آخر عن اليونان على يد بعثة أرسلها ساسان بن أزدشير إلى
بلاد اليونان ، وعلى أيدي العلماء الوثنيين الذين رحلوا من اضطهاد
جوستيان قيصر إلى بلاد الفرس أيام كسرى أنوشروان . وبذلك كان
العلم القديم كله تقريبا مستقرا في بلاد الفرس فلما اختلط العرب بهم

على العهد العباسي اختلاطا كبيرا، ورأى أبو جعفر المنصور حاجة الدولة الجديدة إلى هذه العلوم، عمل على ترجمتها كما تقدم وتبعه في ذلك خلفاؤه إلى أن جاء المأمون فوجه إلى الترجمة اهتماما ليس فوقه اهتمام، حتى أعاد ترجمة كثير من الكتب اليونانية والهندية عن لغتيها الأصليتين لأن اللغة الفارسية كما حدث قبله، وبذلك تم للعرب على عهده جل ما كان من علوم عند أمم الحضارة القديمة ولا سيما الفرس واليونان والهنود على أيدي ترجمة ماهرين.

وقد كان خلفاء الدولة يتخيرون من علوم كل أمة ما نبغت فيه، فكانوا يعتمدون في السير والحكم والتاريخ والموسيقى والآداب على الفرس، وفي الفلسفة والمنطق والهندسة والطب على اليونان، وفي الحساب والنجوم والعقاقير والاقاصيص على الهنود؛ على أنهم نقلوا علومها أخرى عن أمم غير هذه الثلاث كانت فيها ذات نبوغ، كالزراعة والزرعة والتنجم والسحر والطلاسم عن الانباط والسكادان، وكالكيمياء والتشريح عن المصريين. ثم مزجوا ذلك كله ببعضه ببعض وأخرجوه في طابع عرفوا به ونسب إليهم في العصر العباسي الأول، فكانوا في ذلك مثار الدهش والاعجاب. ومما ينبغي أن ينبه إليه هنا أن اعتزازهم بأدبهم جعلهم لا يعنون بنقل آداب غيرهم من تلك الأمم إلا ما تسرب إليهم من آداب الفرس بعجل أبناء فارس أنفسهم حين شاركهم النفوذ وأرادوا إظهار ما أثر أسلافهم فيها كما ظهرت في سائر العلوم، ولو كان لا بناء الأمم الأخرى مثل ما لا بناء للفرس في هذه المشاركة لنقلوا آداب أممهم كما فعل هؤلاء.

وقد كان معظم العقلة من أهل العراق والشام وفارس والهند غير المسلمين الذين استجروهم الخلفاء وأغدقوا عليهم المال . فكان أشهر المترجمين من اليونانية . آل بختيشوع طبيب المنصور، وآل حنين ابن إسحق وابن أخته حبيش الأعسم، وآل سرجويه، وآل ثابت الحراني وأفراد غيرهم كقسطن بن لوقا، والحجاج بن يوسف بن مطر، ويوحنا البطريق واسطفان بن باسيل، وموسى بن خالد وأبو عثمان الدمشقي وأبو بشر بن يونس ويحيى بن عدي . وكان أشهرهم من الفارسية ابن المقفع وآل نوبخت وخاصة الفضل ، وموسى ويوسف ابنا خالد وأبو الحسن علي بن زياد التيمي، والحسن بن سهل وأحمد بن يحيى البلاذري، وإسحاق ابن يزيد، ومحمد بن الجهم، وهشام بن القاسم، وموسى بن عيسى، وعمر بن الفرخان، وجبلة بن سالم . وكان أشهرهم من الهندية منكه وابن دهن الهنديان . وكل هؤلاء نقلوا للخلفاء ومشاركيهم في النفوذ . وكان ممن نقل للعلم ولنفسه بنو موسى بن شاكر محمد وأحمد والحسن وأبناؤهم من بعدهم . هذا والكتب التي نقلت تعد بالمئات ولكن الباقي منها لا يتجاوز العشرات ، وأشهره المجسطي لبطليموس ترجمة الحجاج بن يوسف بن مطر، والسياسة في تدبير الرياسة ترجمة يوحنا الطريق، ورسائل في الطب ترجمة قسطن بن لوقا، والمدخل في الطب ورسائل أخرى فيه، والنواميس لحنين بن إسحق ، ومنطق أرسطو لابنه إسحق . وقبل أن ينتهي هذا العصر الأول اشتغل المسلمون أنفسهم بهذه العلوم الدخيلة فنبغ فيها من فلاسفتهم أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي الملقب فيلسوف العرب ، وامتد زمنه من المأمون إلى المتوكل؛ فهو قد أدرك

العصر الثاني وله تأليف كثيرة في معظم العلوم الدخيلة ، عد منها ابن النديم في الفهرست ٢٣١ كتابا موزعة على ١٧ علما ومعدودة في كل علم ولكن الباقي منها إلى الآن لا يبلغ العشرين ، منها إلهيات أرسطو والمد والجزر واللون اللازوردى في السماء وذات الشعبتين « آلة فلكية » واختبارات الأيام ورسالة في الموسيقى ، ومقالة في تحاويل السنين . وفي العصر الثاني زاد اشتغال المسلمين بهذه العلوم . ومن نبغهم فيها أبو نصر الفارابى الذى يلى الكندى في المكنة ، ومن كتبه الباقية ١٢ كتابا في المنطق و٨ في السياسة والأدب و٢٧ في الرياضيات والنجوم والكيمياء والموسيقى وأبحاث أرسطو وموضوعات أخرى . وأبو بكر محمد بن زكريا الرازى وله كثير من المؤلفات والمخترعات . فهو لفاته تزيد عن المائتين ولكن الباقي منها بضع وعشرون أغلبها في الطب الذى يقال فيه « كان معدوما فأحياه جالينوس ، وكان متفرقا فجمعه الرازى ، وكان ناقصا فكماله ابن سينا » ومنها كتاب الحاوى فى الامراض ومداواتها ، والطب المنصورى ألفه للأمير منصور السامانى ، والطب الملوكى ألفه لصاحب طهرستان ، والمرشد والسكافى وبرء الساعة فى الطب أيضا والجدرى والحصبية وهو أول كتاب أجاد تشخيص هذين الداءين ووصف الدواء لهما

ومن مكشوفاته الكيميائية زيت الزاج « حامض الكبريتيك » ولا تزال طريقة استحضاره له باستقطار كبريتات الحديد مستعملة إلى الآن ، والكحول وقد استخرجه باستقطار مواد نشوية وسكرية مختمرة . وله فى الكيمياء مؤلفات .

ولما جاء العصر الثالث زاد المشتغلون بهذه العلوم من المسلمين فيه، فنبغ كثير أشهرهم أبو علي الحسين بن سينا الملقب بالشيخ الرئيس المتوفى سنة ٤٢٨ فقد انفرد بقوة العقل وسعة العلم وألف في كل فن حتى زادت مؤلفاته على المائة، وقد نقل الباقي منها إلى اللغات الاوربية فأثر في نهضتها الحاضرة تأثيرا بينا. منها في الطب القانون في ١٤ جزءا والشفاء في ١٨ جزءا « بعض أجزائه في علوم أخرى » وفيها في الفلسفة الاشارات والنجاة وفي الالهيات النفس الالهيات وقصيدة النفس، وفي المنطق الاشارة والعروس، غير كتب أخرى في الطبيعة والرياضة والسياسة والموسيقى وغيرها، ومن المبرزين فيه أيضا جماعة إخوان الصفا ولا تزال رسائلهم إلى اليوم مرجعا في كثير من مباحث هذه العلوم وخاصة الفلسفة. وقد تقدمت في هذا العصر الكيمياء فأنشئت حوانيت الصيدلة وعرف كثير من المركبات كما تقدم علم النبات، فولدت أنواعه واستخرجت منه الأدوية المختلفة، وكذا النجوم فبنيت المراصد وأبطلت صناعة التنجيم ثم الرياضيات والفنون الجميلة ثم استمر تقدم هذه العلوم سائرا إلى الامام بالشرق في هذا العصر حتى نقل إلى الأندلس وبخاصة رسائل إخوان الصفا فاهتم الاندلسيون بها.

وفي العصر الرابع اطردهم هذه العلوم كذلك بالشرق والغرب ولكن الاندلس في أواخره فاقت المشرق الذي كان له السبق في أوائله فكان معظم الفلاسفة منها، ويكفي أن تعلم منهم أبا الوليد بن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ صاحب الكتب الكثيرة التي كان فضلها على نهضة أوربة كفضل كتب ابن سينا المذكور.

وإن المقام ليضيق عن عد علماء هذه العلوم من المسلمين شرقا وغربا خلال العصرين الثالث والرابع؛ فلذلك كتب بالعالمين المذكورين «ابن سينا وابن رشد» اللذين جاء أولهما نجر المشرق في العصر الرابع، وجاء ثانيهما نجر المغرب في الخامس:

هذا - وقد خاق تدوين العلوم بنوعيتها كتابة علمية هي لغة التأليف. كما حمل تقدمها على إحياء مجالس العلم والناظرة التي انتهت بإنشاء المدارس في العصر الأخير بالمعنى الذي نعرفه الآن، وهدي كلمة عن كليهما تلامم المقام.

الكتابة العلمية أو لغة التأليف

جاءت كتابة التأليف مختلفة باختلاف نوع العلوم من إسلامية وكونية. فكانت في العلوم الإسلامية من شرعية ولسانية في العصر الأول العباسي، عبارة عن جمع الروايات وتصنيفها طوائف تقع كل منها تحت بحث خاص. وقليلًا ما كان يزيد المصنف على هذا الجمع ما يربط بعض الروايات ببعض أو يشرح الغريب. وقد كانت هذه الزيادات أظهر في اللسانية منها في الشرعية، كما كانت ذات فصاحة وبلاغة لرسوخ المصنفين إذ ذاك إلا في الفقه والكلام، فقد كانت فيهما أقل درجات في البيان. ولما جاء العصر الثاني نمت هذه الزيادات على ما رأيت آنفا في تاريخ العلوم واطرد نموها في الثالث لنمو العقائدية واتساع الأبحاث، فظهرت شخصيات المؤلفين وازدادت ظهورا باغفال الأسانيد في الرواية وبخاصة في عاوم اللسان مع بقائها ذات قوة في التعبير وجمال في الأداء، حتى إذا ما جاء العصر الرابع فسد هذا الجمال في أوله بالصناعة اللفظية التي أضرت

بالتعابير ، وفي آخره بالصناعة المنطقية التي أصابته بالتعقيد .
وكانت في العلوم الكونية المترجمة منذ العصر الاول - ماعدا الادبية
التي كانت آية في البيان - لاتعدو العبارة الأعجمية الأصلية في ثوب
ترجمتها العربية دون تصرف كبير . ولكن حينما نهضت الترجمة في آخره
على عهد المأمون بما أغدق من ذهب على المترجمين ، وجد فيهم الخداع
الذين أعادوا ما ترجم من قبل بعبارة صحيحة ترافق صحتها الجودة في
معظم الاحيان . وعلى هذا كانت العبارة في العصر الثاني . أما في الثالث
حيث هضم المسلمون هذه العلوم وعمدوا إلى التأليف فيها بعد أن
اختمرت معانيها في نفوسهم . فقد اقتربت لغة التأليف في العلوم المترجمة ،
من لغته في العاوم الاسلامية الشرعية ، بل في بعض اللسانية لأن
التأليف حينذاك كان وضعا لترجمة ، ولهذا ظهر فيه تصحيح كثير من
الاعطال ، غير أن النهوض لم يستمر طويلا في العصر الأخير الذي
تسرب فيه من الفساد مثل ما تسرب إلى العلوم الاسلامية ، ولكنه
كان في تعقيد المعاني شراً منه في تكلف الالفاظ .

هذا ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى ما استحدثه تدوين العلوم بنوعها
وخاصة الكونية في اللغة من تأثير في الالفاظ . فقد خرج كثير منها
عن معانيه الأصلية إلى معان اصطلاحية جديدة تراها منبثة في جميع
العلوم ، وهأنت ذا تعرف طوائف منها في العلوم الاسلامية شرعية
ولسانية ، وهالك بعضها في الكونية وخاصة الطب والفلسفة .

فمن الطبية ، الكحالة والعيدلة ، والتشريح والجراحة والتوليد ، في
فنون الطب ، والرطوبات والامزجة والاخلاط كالخار والبارد والجاف

واليابس والسوداء والصفراء في مصطلحات هذه الفنون : والسخن والمبرد والمرطب والمخفف والمسهل والمخدر ومائمه مشتقاتها في الأدوية ، والفسخ والرض والخاع والفتق والجبر في الجراحة ، والصداع والصرع والسرطان وغيرها كثير في الامراض ، ومثلها ما جاء في وصفها كالمزمنة والحادة والغيب والربع وغيرها في أوصاف الحمى مثلا .

ومن المدهية القدم والحدوث والحركة والسكون وغيرها في الكلام ، والمريد والسالك والأنس والمشاهدة في التصوف . وقد نقلت ألفاظ أعجمية كثيرة بالتعريب أو على حالها في أسماء العقاقير والامراض والأدوات والفلسفة . كلبقدونس والمصطكى من العقاقير اليونانية ، والبابونج والزرنيخ من الفارسية ، وكالقولنج والملنخوليا من الامراض اليونانية ، والرسام والمارستان من الفارسية ، وكالاصطراب والانبيق من الادوات اليونانية ، والبركار والاسطوانة من الفارسية . وكالهيولى والطاسم في الفلسفة . إلى غير ذلك مما زخر تياره حتى ألفت فيه كتب ، كالعرب من الكلام الأعجمي لأبي منصور الجواليقي المتوفى سنة ٥٣٩ هـ .

وقد جاوز التأثر بالعجمة الالفاظ إلى الأساليب لتأثر المترجمين بلغاتهم الاصاوية . فكثير استخدام فعل الكون ، وأدخات ال المعرفة على لا النافية ، وزيدت الألف والنون قبل ياء المتكلم ، كما زيد ضمير الغائب بين المبتدأ وخبره ، وصيغت كلمات من الاسم أو الضمير أو منهما معا كالكمية والهوية والماهية . وكثير استعمال الجمل المعترضة والفعل المبني لهجهول والألقاب وهكذا

م - ٢٠ أدب

مجالس العلم والمناظرة وإنشاء المدارس

قد عرفت ما كان من عناية خلفاء المسلمين منذ الصدر الأول إلى آخر العصر الأموي بالأدب والشعر، وما كان على عهدهم من علم، فيما ذكرناه وسقنا الشواهد عليه بكتابنا الثاني، كما عرفت أن دوره فيما كانت المساجد، ولتعرف الآن أنها بقيت في العصر العباسي كما كانت في سابقه ولكن ضم فيه إلى الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى والمسجد الأموي، وجامعي البصرة والكوفة والمسجد العتيق بالفسطاط وسواها، ومساجد بغداد ومسجد أحمد بن طولون والازهر وجامع الحاكم وغيرها.

ولكن لما زخر الأدب وفاض العلم منذ العصر العباسي الأول وولع خلفاؤه بهما ولعاشديدا، أكثروا استقدام العلماء إلى مجالسهم وحاكمهم في ذلك الأمر والوزراء، فصارت تعقد تلك المجالس للمناظرات في العلوم اللسانية والشرعية وتفدق العطايا على المتناظرين، وكان هذا أكبر حث للأدباء والعلماء على أن يهيئوا أنفسهم لتغذية هذه المجالس طمعا في المال.

قال أسامة بن معقل « كان السفاح راغبا في الخطب والرسائل يصطنع أهلهم ويثيبهم عايبها فحفظت ألف رسالة وألف خطبة طلبها للحظوة عنده فنلتها، وكان المنصور بعده معنيا بالاسمار والاختبار وأيام العرب، يدني أهلها ويجيزهم عليها، فلم يبق شيء منها إلا حفظته، طلبا للقرب منه، وكان الهادي مغرما بالشعر يستنصص أهلها فأتت بيتا نادرا ولا شعرا فاخرا ولا نسيبا سائرا إلا حفظته، ولم أر شيئا أدعى إلى تعلم الآداب غير رغبة الملوك في أهلها وصلاتهم عليها » ولو نحن نقول بلغت حياة أسامة

الرشيد لتحدث عنه أضعاف ما تحدث عن هؤلاء .

ولما فاضت العلوم الكونية على عهد المأمون امتلأت مجالسه ومجالس غيره بالمناظرات وبخاصة الفلسفة؛ ولكن لم تكن المناظرة في هذه العلوم الفلسفية على هدوء نظيرتها الأدبية ، فقد احتدم فيها النقاش وامتد الخلاف كما احتدم فيما يتصل بالفلسفة من علوم الدين كالكلام وبعض مسائل الفقه . وقد أشعل جذوة هذا الاحتدام إطلاق المأمون لحرية البحث وانغمسه في أعقد مسائله كخلق القرآن إلى الهامة ، وتشده في ذلك تشددا أوقع الناس في الفتن والمحن طوال عهده وعهد المعتصم والواثق من بعده ، ولم ينجهم منها إلا المتوكل الذي قضى على ما كان يخالطها من أذى يستبيح الدماء . على أنه قد بقيت في العصر الثاني الذي بدأه المتوكل بهذا التسكين ، خلافاً كانت تتور حيناً وتهدأ حيناً بين الحنابلة المتشددين وأبناء المذاهب الأخرى المعتدلين ، فكانت المناظرات الدينية حية إزاء الأدبية فيه . ثم جاء العصر الثالث فخاق خلافاً صحبه من المناظرات الدينية بين الشيعة وغيرهم شيء كثير كاد يقضى على الأدبية لولا شغف رجال الدويلات بالأدب . وقد أدالت الأيام في العصر الرابع للسنة من الشيعة بما كان من قيام السلاجقة والأيوبيين؛ فخي للسنة فيه مثل ما كان للشيعة في سابقه ، ولكن مع دخول المناظرات في الأدب وسائر العلوم .

وإليك مناظرتين قصيرتين من النوعين الأدبي والعلمي؛ أما النوعان المذهبي والفلسفي فمنناظراتهما طويلاً يمكن الرجوع في منلهما فيهما إلى ما كان من المأمون في علويته وفي قوله بخلق القرآن .

١- حضر عند الرشيد الأصمعي والكسائي فسأل الرشيد عن بيت الراعي:
قتلوا ابن عفان الخليفة محرما ودعا فلم أر مثله مخذولا
فقال الكسائي كان قد أحرم بالهيج فضحك الأصمعي وتهانف ، فقال
الرشيد ما عندك؟ فقال والله ما أحرم بالهيج ولا أراد أيضا أنه دخل في
شهر حرام كما يقال أشهر وأعام إذا دخل في شهر أو عام. فقال الكسائي
ما هو إلا هذا وإلا فما المعنى للأحرام ، قال الأصمعي نخبرني عن قول
عدي بن زيد :

قتلوا كسرى بليل محرما فتولى لم يتمتع بكفن
أى إحرام لكسرى فقال الرشيد فما المعنى؟ قال يريد أن عثمان لم يأت شيئا
محرما يوجب تحاميل دمه، فقال الرشيد أنت يا أصمعي ما نطاق في الشعر .
٢- جاء عيسى بن عمر الثقفي مجلس أبي عمرو بن العلاء فقال
ما شيء بلغني عنك أنك تجيزه قال وما هو؟ قال بلغني أنك تجيز « ليس
الطيب إلا المسك » بالرفع فقال له أبو عمرو هيهات نمت وأدج الناس
ثم قال ليحيى بن المبارك وخلف الأحمر امضيا إلى أبي مبيدة فلقنا بالرفع
فأنه يأبى وامضيا إلى المنتجع بن نبهان فلقناه بالنصب فإنه يأبى ، فمضيا إلى
أبي مبيدة فقال ما خطبكما قال جئناك لنسألك عن شيء من كلام العرب
قال هاتياه ، فقالا كيف تقول « ليس الطيب إلا المسك » فقال أتأمراني
بالكذب على كبرسني فأين الزعفران وأين الجاوى قال خلف « ليس الشراب
إلا العسل » قال فما تفعل سودان هجر ما لهم غير التمر؟ قال يحيى « ليس
ملاك الأمر إلا طاعة الله » فقال هذا كلام لا دخل فيه ليس ملاك الأمر
إلا طاعة الله والعمل بها ونصب فلقناه بالرفع فأبى . ثم جاء إلى المنتجع

فقال له كيف تقول « ليس الطيب إلا المسك » ونصباً فقال ليس الطيب إلا المسك ورفع، فجهدا به أن ينصب فلم ينصب فرجعا إلى أبي عمرو وعنده عيسى فأخبرها بما سمعا، فأخرج عيسى خانته من يده فدفعه إلى أبي عمرو وقال بهذا سدت الناس يا أبا عمرو .

إنشاء المدارس - انقضى العصر الأول ثم مضى الثاني والثالث كذلك ومتلقى العلم المساجد والمجتمعات العامة في مثل المرصد، ثم المجالس الخاصة في دور الخلفاء والعظماء، وفيها جميعاً كانت تدور المناظرات دون أن يكون للعلماء أو الطلاب دور خاصة أو أرزاق مفروضة، إنما كانت نفقة الطلاب على أهليهم ونفقة العلماء مما يحترفونه مع العلم، أو يمنحونه من صلة نظير تأليف كتب أو استفتاء في موضوع، مع غلبة التقشف في المعيشة والزهد في الدنيا على الجميع . ولكن ذلك لم يلبث أن أحدث في الدروس اضطراباً وفي النفوس قلقاً لكثرة من أصبحوا في حاجة إلى التعلم وقلة من بقوا يزاولون التعليم، فما كاد يحل العصر الرابع حتى هال هذا الأمر نظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان السلجوقي ووزير ابنه ملكشاه وكان فيه ميل إلى العلم وأرخت له الأيام في وزاره نحو ثلاث قرن فشرع سنة ٤٥٧ في تأسيس المدرسة النظامية نسبة إليه ببغداد فأتتها بعد سنتين وافتتحها في حفل حافل بجميع الطبقات وولى أبا إسحاق الشيرازي رئاسة التدريس بها، وفرض لآساتدتها وطلابها المرتبات فكانت أول مدرسة بالمعنى المعروف الآن في الإسلام^(١) ثم بنى أخرى باسمها

^١ (١) أنكر الحافظ الذهبي في كتابه تاريخ الإسلام هذه الأولوية لنظام الملك وذكر بعض مدارس في نيسابور، منها البيهقية نسبة إلى البيهقي المتوفى سنة ٤٥٠، والمعهدية التي أسسها فيها الأمير نصر أخو محمود الغزنوي واليه بها،

في نيسابور وعهد بها إلى إمام الحرمين ، فكان عمله هذا سنة حسنة اتبعه فيها ذوو الامر بجميع الاقاليم ، فأنشأ السلطان نور الدين صاحب دمشق المتوفى سنة ٥٧٧ مدارس في معظم بلاد الشام ، والسلطان صلاح الدين المتوفى سنة ٥٨٩ مثلها في القدس والاسكندرية والقاهرة . ومما كان يجب في هذا الانشاء ، رغبة الخلفاء والولاة اكتساب قلوب العامة بتقريب العلماء وتعليم الفقراء ، ثم رغبة كثير من ذوى اليسار ببلاط السلاطين في وقف أموالهم على سبيل الخير وأهمها التعليم مع الإبقاء على شيء من غلتها لأسرهم ليكسبوا بذلك الثواب على ما فعلوا من الله ، ويضمنوا لبنينهم بقاء هذا الشيء بعيدا عما كان يحدث كثيرا من الاغتصاب ، ثم التحزب لنصرة مذهب على آخر كما فعل صلاح الدين المذكور بإنشائه حين أبطل المذهب الشيعى من الازهر ، مدرسة لكل مذهب من المذاهب الثلاثة الشافعى والمالكى والحنفى . وقد استمر عدد المدارس يتزايد كلما تعددت أسباب الانشاء حتى غصت بها المدن الكبرى قبل انتهاء القرن السادس - ذكر ابن جبير في رحلته أنه شاهد عشرين مدرسة في دمشق وثلاثين في بغداد - فكانت هذه الكثرة ماطفة للأحداث الخطيرة التي نزلت بالمسلمين منذ أواخر العصر العباسى وتعدته إلى ما بعده من العصور .

على أن تاج الدين السبكي قد وفق بين الأمرين بقوله في طبقاته « قد أدت فكرى وغلب على ظنى أن نظام الملك أول من رتب فيها - أى فى المدارس - المعاليم للطلبة ، فإنه لم يصح لى أكان للمدارس قبله معاليم أم لا ، والظاهر أنه لا يمكن لهم - أى للطلبة - معلوم »

الشعر

أولا - نماذج

١ - قال بشار المتوفى سنة ١٦٧ ينسب وهو من مخضرمى الدولتين^(١)
ياليلة تزداد نكرا من حب من أحببت بكرا
حوراء إن نظرت إليك سقتك بالعينين خرا
تدسى التقى معاده وتكون للحكام ذكرا
وكان رجوع حديثها قطع الرياض كسين زهرا
وكان تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا
وتخال ما جمعت عليه ثيابها ذهباً وعطرا^(٢)
وكانها برد الشرا ب صفاووافق منك فطرا
جنية إنسية أو بين ذاك أجل أمرا
وكفالك أنى لم أحط بشكاة من أحببت خبرا
إلا مقالة زائر نثرت لى الأحزان نثرا
متخشعا تحت الهوى عشر او تحت الموت عشرا^(٣)

(١) هو بشار بن برد الفارمى أصلاً ، العقيلي ولاء ، الضرير الشاعر المتصرف
فى فنون الشعر الذى أجمعت الرواة على تقدمه طبقات المحدثين المجيدين . وهو
من مخضرمى الدولتين ، وقد صغر نيفا وتسعين سنة (٢) تقاء لون وطيب رائحة
(٣) لبس هذا العدد مراداً لذاته إنما يريد أن يسوى بين ألمه طواها وألمه خلوف
موتها من شكاتها .

٢ - وقال العباس بن الأحنف المتوفى سنة ١٩٢ ينسب أيضا (١)

أزين نساء العالمين أجيبني
كسبت كتابي ما أقيم حروفه
أخط وأحوما خططت بعبرة
أيا فوز لو أبصرتنى ما عرفتني
وأنت من الدنيا نصيبني فان أمت
ولاني لا أستهدى الرياح سلامكم
وأسألها حمل السلام اليكم
أرى البين يشكوه المحبون كلهم
أقول وداري بالعراق ودارها
وكل قريب الدار لا بد مرة
سقى منزلا بين العقيق وواقم
أجش مديم الرعد دان ربابه
أزوار بيت الله مروا ييثرب
وقولوا لهم يا أهل يثرب أسعدوا
فانا تركنا بالعراق أخا هوى

دعاء مشوق بالعراق غريب
لشدة إعرالى وطول نحبي
تسح على القرطاس مسح غروب
لطول نحولى بعدكم وشحوبى
فليتك من حور الجنان نصيبى
إذا أقبلت من نحوكم بهبوب
فان هى يوما بلغت فأجيبى
فيارب قرب دار كل حبيب
حجازية فى حرة ومهوب (٢)
سيصبح يوما وهو غير قريب
إلى كل أطم بالحجاز ولوب (٣)
بجود نه يمي شمال وجنوب
لحاجة متبول الفؤاد كئيب
على جانب للحادثات جايب
تنشب رهنا فى حبال شعوب

(١) هو الفضل أبو العباس بن الأحنف الحنفي الشاعر الرقيق الحاشية

اللطيف الطباع الغزل الخاص للغزل . لجميع ديوانه فيه وكله جيد .

(٢) الحرة الأرض الصلبة السوداء الحجارة ، والسهوب جمع سهب بالضم

وهو الأرض المستوية السهلة (٣) العقيق وواقم موضعان بالمدينة ، والأطم القصر

أو الحصن أو كل بيت من حجارة ، واللوب جمع لوبة كالألاب جمع لابة وهى الحرة

به سقم أعيا المداوين علمه سوى ظنهم من مخطيء وه صيب
إذا ما عصرنا الماء في فيه مجه وإن نحن نادينا فغير مجيب
خذوا لي منها جرعة في زجاجة ألا إنهم لو تعلمون طبيبي
وسيروا فإن أدركتم بي حشاشة

لها في نواحي الصدر وجس ديب (١)

فرشوا على وجهي أفق من بليتي يثيبكم ذو العرش خير مئيب
فإن قال أهلي ما الذي جئتم به وقد يحسن التعليل كل أريب
فقولوا لهم جئنا من ماء زمزم لشفية من دأه بذنوب
وإن أنتم جئتم وقد حيل بينكم وبين يوم المنون عصيد
وصرت من الدنيا إلى قعر حفرة حايض صفيح مطبق وكثيب
فرشوا على قبري من الماء وانذبوا قتيل كعاب لا قتيل حروب

٣ - وقال أبو نواس المتوفى سنة ١٩٨ يصف سلاف الشهد ونحله (٢)

لا يصر فنك عن قصف وإصبا مجموع رأى ولا تشتيت أهواء
واشرب سلافا كعين الديك مذهبة من كف ساقية كالريم حوراء
لها ذبول من العقيان تتبعها في الشرق والغرب في نور وظلماء
ليست إلى النخل والاعناب نسبتها لكن إلى العسل الماذي (٣) والماء
نشاج نحل خاليا غير مقفرة خصت بأطيب مطاف ومشتاء

(١) صوت خفي لئفس يدب

(٢) هو أبو علي الحسن بن هانيء الفارسي أصلا الحكيم ولاء، أرق الشعراء

حاشية، وأجودهم بديهة، وأفتحهم لأبواب الحديث من المعاني الرقيقة، وثنائي

الشعراء المحدثين بعد بشار عند الجاحظ (٣) الأبيض

ترعى أزاها ير غيطان وأودية
فطس الأتوف مقاريف مشمرة
من مقرب عشراء ذات زمزمة
تعدو وترجع ليلا عن مسارها
كل بحقله يمضى حـكـومته
حتى إذا اصطاك من بنيانها قرص
وآن من شهدها وقت الشيار^(٢) فلم
وصفثوها بماء النيل إذ برزت
حتى إذا نزع الرواد رغوها
استودعها رواقيدا^(٤) مزفنة
وكم أفواها زهر على ورق
وصمرت حقبها في الدن لم يرها
حتى إذا سكنت في دنها وهدت^(٦)
جاءت كشمس ضحى في يوم أسعدتها
كانها ولسان الماء يقرعها
لهـا من المزج في كاساتها حلق
كان مازجها بالماء طوقها
فأشرب هديت وغن القوم مبتدئا

وتشرب الصفو من غدرو وأحساء
خوص العيون بريئات من الداء
وطائد متبع منها وعندراء
إلى ملوك ذوي عز وأحياء
في حزبه بجميل القول والراء^(١)
أروينها عسلا من بعد اصداء
تلبث بأن شيرت في يوم أضواء
في قدر قس كجوف الجب وروحاء^(٣)
وأقصت النار عنها كل ضراء
من أغتبر قاتم منها وغبراء
من حر طينة أرض غير ميثاء^(٥)
حي من الناس في صبيح وامساء
من بعد زمزمة منها وضوضاء
من برج طهو إلى آفاق سراء
نار تأجيج في آجام قصباء
ترنو إلى شربها من بعد إغضاء
منزوع جلدة ثعبان وأفعاء^(٧)
على مساعدة العيدان والناء^(٨)

(١) مقلوب رأى (٢) جنى العسل (٣) واسعة (٤) جمع راقود أو راقودة،
الدن والخابية (٥) غير سهلة مفككة (٦) من هدأت سهل وحذف (٧) ممدود أفعى
(٨) مهموز ناي .

٤ - وقال مسلم المتوفى سنة ٣٠٨ يمدح يزيد الشيباني في قتله الوليد
ابن طريف^(١)

لولا يزيد وأيام لنا سلفت عاش الوليد مع الغاوين أعواما
كالدهر لا ينتنى عما هم به قد أوسخ الناس إنعاما وإرغاما
ترهى العفاة عكوفاً - ولحجرته يرجون أروع رحب الباع بساما
منية في يدي هارون يبعثها على أعاديه إن سامى وإن حامى
خير البرية آباء إذا ذكروا وأكرم الناس أخوالا وأعماما
تظلم المال والأعداء من يده لا زال للمال والأعداء ظلاما
لا يستطيع يزيد من طبيعته عن المنية والمعروف إحجاما
أذكرت سيف رسول الله سنته وبأس أول من صلى ومن صاما

إن يشكر الناس ما أوليت من حسن

فقد وسعت بنى حواء إنعاما
إذا الخلافة عدت كنت أنت لها
عزا وكان بنو العباس حكاما
يصيد منك مع الآمال صاحبها
حاما وعلمها ومعروفا وإسلاما
كم بلدة بك حل الركب جانبيها
وما يلم بها الركبان الماما
إذا علوا مهمها كان النجاء لهم
إنشاد مدحك إفصاحا وترناما

(١) هو صريع الغواني مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر المتصرف، البالغ المدح، الجيد القول في الشراب، كأبي نواس وهو على ما قيل أول من أكثر البديع، واخترع له هذا الاسم فاتبه في ذلك الشعراء وبخاصة أبو تمام، وقد مات وهو يلي بريد جرجان للأموين، وجل مدائمه في البرامكة والمهالبة وي زيد ابن مزيد الشيباني.

لو كان يفقه رجع القول طائرهما غنى بمدحك فيها بومها الهاما
لو لم تكو نوا بني شيبان من بشر كنتم رواسى أطواد وأعلاما
٥ - وقال أبو العتاهية المتوفى سنة ٢١١ في الحكمة^(١)

الحرص داء قد أضر م بمن ترى إلا قايلا
كم من عزيز قد رأيت الحرص صبحه ذليلا
فتجذب الشهوات واحذر أن تكون لهاقتيلا
فلرب شهوة ساعة قد أورت حزنا طويلا
من لم يكن لك منصفنا في الود فابغ به بديلا
وعليك نفسك فارعها واكسب لها فعلا بخيلا
ولقما تلقى اللئيم عايك إلا مستطيلا
والمرء إن عرف الجميل وجدته يبغى الجميلا
اضرب بطرفك حيث شئت فان ترى إلا بخيلا

٦ - وقال أبو تمام المتوفى سنة ٢٣١ يرثي محمد بن حميد الطوسي^(٢)
كذا فليجبل الخطب وليفدح الامر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر
توفيت الآمال بعد محمد وأصبح في شغل عن السفر السفر
وما كان إلا مال من قل ماله وذخرا لمن أمسى وليس له ذخرا
وما كان يدري مجتدى جود كفه إذا ما استهلته أنه خالق العسر

(١) هو أبو اسحاق اسماعيل بن القاسم الفارسي أصيلا، العنزي ولاء شاعر
سهل الألفاظ حكيم المعاني. أ كبر الشعراء زهدا وحكمة .

(٢) هو حبيب بن أوس الطائي واحد عصره في ديباجة اللفظ وصناعة الشعر
وكثرة الحفظ وإجادة الرثاء وقد لاقى شعره شبه مالاقي شعر المتنبي من عنابه

ألا في سبيل الله من عطمت له فجاج سبيل الله وانثغر الثغر
فتى كلما فاضت عيون قبيلة

دما ضحككت عنه الاحاديث والذكر

فتى دهره شطران فيما ينويه ففى بأسه شطر وفى جوده شطر

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر إن فاته النصر

وما مات حتى مات مضرب سيفه

من الضرب واعتلت عليه القنا السمر

وقد كان فوت الموت سهلا فرده اليه الحفاظ المر والخلق والوعر

ونفس تعاف العار حتى كأنما هو الكفر يوم الروح أودونه الكفر

فأثبت فى مستنقع الموت رجلاه وقال لها من تحت أخصبك الحشر^(١)

غدا غدوة والحمد نسج ردائه فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر

ترى ثياب الموت حمرا فما دجا لها الليل إلا وهى من سندس خضر

كأن بني نهبان^(٢) يوم وفاته نجوم سماء خر من بينها البدر

يعزون عن ثاو تعزى به العلاء ويبكى عليه البأس والجود والشعر

وأنى لهم صبر عليه وقد مضى الى الموت حتى استشهد هو والصبر

فتى كان عذب الروح لا من غضاضة ولكن كبرا أن يقال به كبر

فتى سلبته الخيل وهو حمى لها وبزته نار الحرب وهو لها جمر

وقد كانت البيض الماء يرفى الوغى بواتر ففى الآن من بعده بتر

أمن بعد طى الحادثات محمدا يكون لاثواب الندى أبدانشر

إذا شجرات العرف جذت أصولها ففى أى فرع يوجد الورق النضر

(١) الأخص كاصبع مالم يصب الأرض من باطن القدم (٢) عشيرته من طيء

لئن أبغض الدهر الخئون لفقده
لئن غدرت في الروح أيامه به
لئن ألبست فيه المعصيبة طيء
كذلك ما تنفك نفقد هالكاً

لعهدى به ممن يحب له الدهر
فما زالت الأيام شيبتها الغدر
فما عريت منها تميم ولا بكر
يشاركنا في فقده البدو والحضر

سقى الغيث غيثنا وارت الأرض شخصه

وإن لم يكن فيه سحب ولا قطر
وكيف احتمالى للغيوث صنيعة
بأسقامها قبرا وفي لحده البحر
مضى طاهر الأثواب لم تبق روضه
غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبر
ثوى في الثرى من كان يحيا به الثرى
ويغمر صرف الدهر نائله الغمر
عليك سلام الله وقفنا فاني
رأيت الكريم الحر ليس له صمر

٧ - وقال ابن الزيات المتوفى سنة ٢٣٣ آخر شعراء العصر الأول وكتابه
يرثي أم ابنه صمر وقد تركته ابن ثمان^(١)

بعيد الكرى عيناه تنسكبان
ألا من رأى الطفل المفارق أمه
يبيطان تحت الليل ينتجيان
رأى كل أم وابنها غير أمه
بلايل قلب دائم الخفقان
وبات وحيدا في الفراش تجنه
أداوى بهذا الدمع ماتريان
فلا تلحيانى أن بكيت فأنما
فهذى عزمت الصبر عنها لأنى
جليد فمن الصبر لابن ثمان
ضعيف القوى لا يطلب الأجر حسبة

ولا يأتسى بالناس في الحدثنان

(١) هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان الزيات الكاتب البليغ والشاعر

فلم أر كالأقدار كيف نصبتني ولا مثل هذا الدهر كيف رماني
أعيني إن لم تسعدا اليوم عبرتي فبئس إذن ما في غد تعداني
٨ - وقال البحري المتوفى سنة ٢٨٤ يمدح الخليفة جعفر المتوكل
ويصف خروجه في عيد فطر^(١)

الله مكن للخليفة جعفر ما كما يحسنه الخليفة جعفر
نعمى من الله اصطفاه بفضلهما والله يرزق من يشاء ويقدر
فاسلم أمير المؤمنين ولا تزل تعطى الزيادة في البقاء وتشكر
عمت فواضلك البرية فالتقى فيها المقل على الغنى والمكثر
بالبرصمت وأنت أفضل صائم وبسنة الله الرضية تظفر
فانعم بيوم الفطر عيننا إنه يوم أغر من الزمان مشهر
أظهرت عز الملك فيه بجحفل لجب يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت عددا يسير بها العديدا لا كثر
والخيل تصهل والفوارس تدعى والبيض تلمع والأسننة تزهر
والارض خاشعة تميد بثقلها والجو معتكر الجوانب أغبر
والشمس مائعة^(٢) توقد بالضحي طوراً ويطفئها العجاج الأكر
حتى طلعت بضوء وجهك فأنجبت
تلك الدجى وأنجاب ذاك العشير

(١) هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي شاعر مطبوع متصرف في فنون الشعر وخاصة المدح إلا الهجاء وهو نقي الكلام ذو بدائع في غير تكلف يعده أبو العلاء المعري، الشاعر ويعمد أبا تمام وأبا الطيب حكيمين .

(٢) يقال تمتعت الشمس إذا بلغت غاية ضوئها قبل الزوال

وافتن فيك الناظرون فاصبع
يجدون رؤيتك التي فازوا بها
ذكروا بطلعتك النبي فهللوا
حتى انتهيت إلى المصلى لابساً
ومشيت مشية خاشع متواضع
فلو ان مشتاقا تكلف فوق ما
أيدت من فصل الخطاب بحكمة
ووقفت في برد النبي مذكراً
ومواعظ شفت الصدور من الذي
حتى لقد علم الجهول وأخلصت
صلوا وراءك آخذين بعصمة
الله أعطاك المحبة في الوري
فلأنت أملاً للعيون لديهم
٩ - وقال ابن الرومي المتوفى سنة ٢٨٤ أو ٢٨٣ يهجو إبراهيم بن
المدبر^(٢)

يا ابن المدبر غرني الرواد
أدعو على الشعراء أخبت دعوة
قل لي بأية حيلة أعملتها
عمرا وليس لهم سواك مراد
إذ مجدوك وغيرك الأمجاد
هتفوا بأنك «لا حفظت» جواد

(١) المفكر (٢) هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريج الرومي ، شاعر
فياض ذو نظم عجيب وتوليد غريب ، يقع على المعاني النادرة فيستخرجها ثم
يوفيها ويحسن عرضها ، أجاد في كل فنون الشعر ولا سيما الوصف والهجاء

مأنت والمعروف أو مفتاحه
لكن إخال معاشرنا خيبتهم
أثنوا عليك ليستميدجك غيرهم
أرويت بالأصدا رعنك حوائمي^(١)
وسلوت ذكراك التي من مثلها
خيبتني ثقة بلؤمك إنه
عن مثله نكص الهجاء مقمقرا
لا أن لؤمك جنة لـكنه
فأهرب وأين بهارب من طالب
خذها إليك من الملابس ملبسا
ضنكا إذا زرت عليك زورره^(٢)
ولئن شقيت بابس برد منها
شعاع تضرب فيك نار شناعة
تجوك بدأتها بذكر نابه
ولقما يجدي على متبجح
ماينفع الخطب المحرق في الصلي
١٠ - وقال ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ يصف العقار وساقيا ومجلسها
والصيد لشوائها^(٥)

(١) جمع حائمة وهي العاطشة (٢) تحرق (٣) جمع زر أخى العروة
(٤) أضواؤها (٥) هو الخليفة العباسي عبد الله بن المعتز بن المتوكل، العالم

وحلوا الدلال مليح الغضب
سُقاني وقد مل سيف الصبا
عقارا إذا ما جلتها السقا
فأصلح بيني وبين الزما
وما العيش إلا لمستهر
يهم إلى كل ما يشتهي
ويتخو بما قد حوت كفه
فكم فضة فضها في سرو
ولا صيد إلا بوثابة^(١)
وإن أطاقت من قلاذاتها
فزوبعة من بنات الريا
تضم الطريد إلى نحرها
لها مجلس في مكان الزيد
فظلت لحوم ظباء الفلا
وظافت سقاتهم يمزجو
وختوا الندامى بمشمولة
فراحوا نشاوى بأيدي المدا
إلى مجلس أرضه نرجس

يشوب مواعيده بالكذب
ح والليل من خوفه قد هرب
ة ألبسها الماء تاج الحبيب
ن وأبدلني بالهموم الطرب
نظل عواذله في شغب
وإن رده العذل لم ينجذب
ولا يتبع لمن ما قد وهب
ريوم وكم ذهب قد ذهب
تطير على أربع كالعذب
وطار الغبار وجد الطلب
ح تريك على الأرض شدا عجب
كضم المحب لمن قد أحب
فكثر كية قد سببتها العرب
ة على الحمر معجلة تنتهب
ن بماء الغدير بنات العنب
إذا شارب عب فيها قطب
م قد نشطوا من عقال التعب
وأوتار عيـدانه تصطنخب

الأديب والكاتب البليغ والشاعر المتصرف القدير ذو التشبيهات الفائقة
والنخيلات الرائعة في شتى الأوصاف بعبارات مطبوعة كأنها مصنوعة .
(١) يريد كلبة سلوقية نسبة إلى سلوق بلدة باليمن مشهورة بهذا النوع .

وحيطانه خرط كافورة وأعلاه من ذهب يلتهب

١١ — وقال المتنبي المتوفى سنة ٣٥٤ فأمحة شعراء العصر الثالث يمدح
سيف الدولة ويصف نصرته على الروم ويذكر مركزه من الخلافة
سائفا المثل والحكمة في ثنايا ما يقول (١)

هنيئاً لأهل الثغر (٢) رأيك فيهم وأنتك حزب الله صرت لهم حزبا
وأنتك رعيت الدهر فيها وريبه فان شك فليحدث بساحتها خطبا
فيوماً بخيل تطرد الروم عنهم ويوماً بجود يطرد الفقر والجدا
سر أياك تترى والدمستق (٣) هارب وأصحابه قتلى وأمواله نهبي
أني مرعشا (٤) يستقرب البعد مقبلا وأدبر إذ أقبلت يستبعد الفربا
كذا يترك الأعداء من يكره القنا ويقفل من كانت غنيمته رعبا
وهل زد عنه باللقان (٥) وقوفه صدور العوالى والمطهمة القبا
مضى بعد ما التفت الرماح ساعة كما يتلقى الهدب في الرقدة الهدبا
ولكنه ولى وللطعن سورة إذا ذكرونها نفسه لمس الجنبيا
أرى كذا يبغى الحياة بسعيه حريصا عليها تمستها بها صبا
فحب الجبان النفس أوردته التقى وحب الشجاع النفس أوردته الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحد إلى أن يرى إحسان هذا لذا ذنبيا

(١) هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي البغدي شاعر أشهر من أن يعرف به ، نشأ بالكوفة ولكنه ملا بطوافه أرجاء المملكة العربية وبشعره العالم بأثره (٢) يعني مدينة بالثغر حلب (٣) قائد الروم (٤) مدينة بالشام قرب أنطاكية (٥) بلد بالروم

وما الفرق ما بين الأثام وبينه^(١)

إذا حذر المحذور واستصعب الصعبا
لأمر أعدته الخلافة للعهدا وسمته دون العالم الصارم العضبا
إذا الدولة استكفت به في ملة

كفاها فكان السيف والكف والقلبا
هباب سيوف الهند وهي حداد فكيف إذا كانت نزارية عربا
ويرهب ناب الليث والليث وحده فكيف إذا كان الليوث له صحبا
ويخشى عباب البحر وهو مكانه فكيف بمن يغشى البلاد إذا عبا
ومن تكن الأسد الضواري جدوده

يـمكن ليله صبحا ومطعمه غصبا
فيوركت من غيث كأنك جلودنا به تنبت الديباج والوشى والعصبا
١٢ - وقال أبو فراس الحمداني المتوفى سنة ٣٥٢ يفتخر ويعتذر عن
أسر الروم له^(٢)

سيدكرني قومي إذا جد جدم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

(١) الضمير لسيف الدولة . (٢) هو الحارث بن أبي سعيد بن حمدان بن حمدون فارس مغوار وشاعر عظيم يجمع بين السهولة والجزالة والظرف والعزة، وهو ابن عم سيف الدولة وملك الشعر الثاني في قول الصباح بن عباد « بدىء الشعر بملك وختم بملك » والأول امرؤ القيس، ويغلب على شعره الحماسة والفخر وقد أسر بالروم أربع سنين قال فيها كثيرا من الشعر عرفت قصائده بالروميات .

ولو سد غيرى ماسددت اكتفوا به

وما كان يغلو التبر لو نفق الصفر^(١)

وإني لجرار لسكل كتيبة معودة ألا يخل بها النصر

فأصدي إلى أن ترتوى البيض والقنا

وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر

ولا أصبح الحى الخلوف بغارة أو الجيش ما لم تأته قبلى النذر

ويارب دار لم تخفنى منيعة طلعت عليها بالردى أنا والفجر

وساحبة الأذيال نحوى لقيتها فلم يلقها جافى اللقاء ولا وعر

وهبت لها ما حازه الجيش كله

ورحت ولم يكشف لآياتها ستر

ولا راح يطعيني بأثوابه الغنى ولا بات يثني عن الكرم الفقر

أسرت وما صحبى بعزل لدى الوغى

ولا فرسى مهر ولا ربه غمر

ولكن إذا حم القضاء على امرىء فليس له بر يقيه ولا بحر

وقال أصيحابى الفرار أو الردى فقلت هما أمران أحلاهما مر

وليكننى أمضى لما لا يعينى

وحسبك من أمرين خيرهما الأسر

ولا خير فى دفع الردى بمذلة كما ردها يوماً بسوأته عمرو

يمنون أن خلوا ثيابى وإنما على ثياب من دماهم حمر

ونحن أناس لا توسط عندنا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

تهون علينا فى المعالى نفوسنا ومن يخطب الحسنا لم يغلها الدهر

(١) التبر الذهب، والصفر النحاس الأصفر

١١ - وقال السرى الرفاء المتوفى سنة ٣٦٢ برثى فتى من بني شيبان كان له صديقا قتل وصلب^(١) :

أبدر دجى فآلتة إحدى الغوائل فأصبح مفقودا وليس بأفل
أنته المنايا وهو أعزل حاسر خفى غرار السيف بادي المقاتل
غلام إذا طابت طاق ثوبه رأيت عايه شاهدا للحمائل
يمسح بالمسك الذكى مرجلا يرف على المتنين مثل السلاسل
سواء عليه فى السوابغ مرة ثنى عطفه أم فى رفاق الغلائل
وعز على العلياء أن حيل بينه وبين ظبا أسيافه والعوامل
وعرى من برديه كالسيف منتضى فلم يعز من بردى عفاف ونائل
فأحبب به من راكب غير سائر مقيم ولكن زيه زى راجل
يعنبر أنفاس الرياح بشاوه فتعبق من أنفاس تلك الشمائل
هو القدر المحتوم، والسيف لم يكن ليخضب إلا من دماء الأفاضل
أحلك من أعلى الهواء محلة نأت بك عن صنك الثرى والجنادل
وليس بعار ماعراك وإنما حماك اتساع الصدر ضيق المنازل

١٤ - وقال الصابى المتوفى سنة ٣٨٤ وهو فى سجن عضد الدولة يعزى نفسه عن حبسه ومصادرة ماله، بنفسه وهمته^(٢) :

(١) هو أبو الحسن السرى الرفاء بن أحمد بن السرى الكندى، كان يرفو الثياب بالموصل ولكنه ولم بالشعر حتى أجاده ولم يكن يعرف سواه، ولذا كان مطبوعا عذب الألفاظ، وله افتنان فى التشبيهات والأوصاف .

(٢) هو أبو اسحاق الصابى ابرهيم بن هلال، الكاتب المترئس على ديوان الانشاء للخلفاء وملوك بويه، والشاعر المطبوع المكثرا فى جميع الفنون، وصاحب المنزلة العالية على صابئته فى النفوس

يعيرني بالحدس من لو يحمله
ورب طليق أطلق الذل رقه
وإني لقرن الدهر يوما تنوبني
ومن مد نحو النجم كما يناله
ولا بد للساعي إلى نيل غاية
وإني وان أودت بمالي نكبة
فما كنت كالقسطار^(١) يثرى بكيسه
ولكن كليث الغاب إن رام ثروة
يبيت خميصا طاويا ثم يغتدى
كذلك مثلي نفسه رأس ماله
وللمال آفات يهنأ ربه
ومن يكن السلطان فيه خصيمه
وماضرنى أن غاض ما ملكت يدي
إذا كان مالي من طريف وتالد
ولى بين أقالمي ولى ومنطقي
١٥ - وقال ابن نباتة السعدي المتوفى سنة ٤٠٥ هـ يتحدث عن قصة ناسبا^(٥)
كيف العزاء وأين بابه والحي قد خفت ركابه

(١) جمع سطوة (٢) شجاع (٣) ناقد الدراهم كالقسطار . (٤) جمع مذوب وهو كل ما يذاب فيه

(٥) هو أبو نصر عبد العزيز بن صهر بن محمد بن أحمد بن نباتة السعدي -
التميمي الشاعر المجيد ذو السبك الحسن والمعنى الجيد في النسيب والمدح والوصاف

بأعز منتقب يم م على محاسنه نقابه
والبدر في قزح^(١) يشف م كما تشف به ثبابه
متأود حـالو الشما نل من أساوره حقا به^(٢)
زعم المخبر أنه ضربت على ساع^(٣) قبابه
فطلبته كالآيم^(٤) أو كالسيل في الليل انسيابه
فاذا أحم المقتـين يشين أنمله خضابه
يهتر مثل السمري م تدافعت فيه كعابه
وقف الولا ئد دونه كالقلب يستره حجابه
أقبلت أسأله وأءـ لم أن حرمانى جوابه
ويلى على متلون ال أخلاق يعجبه شبابه
لارسله ترى اليـنا بالسلام ولا كتابه

١٦ - وقال الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ وقد مر على قبر الصابي
في الجنيئة ببغداد من غير القصيدة الطويلة التي رثاه بها حين موته:^(٥)
أعلم قبر بالجنيئة أننا أقننا به تنعى الندى والمعالي
حططنا فحيننا مساعيه إنها عظام المساعى لالعظام البواليا

(١) سحاب خفيف (٢) وشاح خصره (٣) جبل بالمدينة (٤) الثعبان.
(٥) هو أبو الحسن محمد بن الطاهر ويلقب بالموسوى نسبة إلى جده موسى
الكاظم الراجع بنسبه إلى الحسين بن علي. نبغ في الشعر يافعا وأكثر منه مبدطاحي
أجمع الأدباء على أنه أشعر قريش لأنه أكثر مجيدا ، وهم بين مجيد مقل أو
مكثار غير مجيد . وكان ذا هيبة وجلال ، تولى نقابة الطالبين في حياة أبيه وله
ديوان شعر كثير الأبواب حافظها ثم هو عالم ذو مؤلفات .

وما لاح ذاك التراب حتى تحلبت
نزلنا إليه عن ظهور جيادنا
أقول لركب رائحين تعرجوا
ألموا عليه طافرين فأننا
وقفنا فأرخصنا لدموع وربما
ألا أيها القبر الذي ضم لحده
هل ابن هلال منذ أودى كعهدنا
وتلك البنان المورقات من الندى
هو الخاضب الأرقام نال بها علا
مفيد ضراب باللسان لو انه
مرير القوى نال المعالي واثبا
خلا بعدك الوادى الذى كنت أنسه
ملأت بمحيالك البلاد فضائلا

من الدمع أو شال ملآن المآقيا
نكفكف بالأيدى الدموع الجواريا
أريكم به فرعا من المجد زاويا
إذا لم نجد عقرا عقرا القوافيا
تكون على سوم الغرام غواليا
حساما على هام النوائب ماضيا
هلالا على ضوء المطالع باقيا
نواصب ماء أم بواق كما هيا
تقاصر عنها الخاضبون العواليا
بيوم وغى فل الجراز اليمانيا
إذا غيره نال للعالي حايا
وأصبح تقروه النوائب واديا
ويملا متواك البلاد مناعيا

١٧ - وقال التهامي المتوفى سنة ٤١٦ ينسب ويذكر الطيف^(١)

قلت خبرك يغنينى عن الخبر
فكيف أهوى بلاسمع ولا بصر
هل فيه غيرك من أثنى ومن ذكر
إلا هواك فلا تبقى ولا تدرى
بيضاء تسحب ليلا حسنه أبدا
فى الطول منه وحسن الليل فى القصر

قلت أنساك نجدا حب مطرف
أخذت طرفى وسمعى يوم بينكم
وقد أخذت فوادى قبل فاطمعى
فان وجدت سوى التوحيد فيه هوى
فان وجدت سوى التوحيد فيه هوى

(١) هو أبو الحسن على بن محمد التهامي، كاتب معروف وشاعر محسن ذرب

اللسان مشهور، له ديوان يخلب عليه الممدح والرثاء والنسيب .

يحكى جنى الأبقحوان الغض مبسمها
لو لم يكن أبقحوانا ثغر مبسمها
أهتز عند تمنى وصلها طربا
تجنى على وأجنى من مرأشها
أهدى لنا طيفها نجدا وساكنها
فبات يجلو لنا من وجهها قرا
وراعها حر أنفاسي فقلت لها
فما نكرنا من الطيف الملم بنا
فسرت أعر في ذيل الدجى ولها
وللمجرة فوق الأفق معترض
وللثريا ركود فوق أرحلنا
وأدم الليل نحو الغرب منهزم
فروع السرب لما ابتل آكرعه
ولو قدرت وثوب الليل منخرق

١٨ - وقال مهبيار المتوفى سنة ٤٢٨ يمدح أبا القاسم الحسين بن علي المغربي
عند تقليده الوزارة ويهنته بالنيروز ، وقد جاء لذلك من بابل إلى بغداد
سنة ٤١٤^(١)

(١) هو أبو الحسن مهبيار بن مرزويه الديلمي أحد من أسلم من نبغاء
المجوس ، وكان إسلامه على يد الشريف الرضى ، وعليه تخرج في الشعر نجاء على نحو
منه في جزالة القول وطول النفس ورقة الحاشية ، وقد فضل شعراء عصره ، وله ديوان
ضخم بكثير من فنون الشعر وأخصها المدح فالنسيب فالصفات

قد رفعت في بابل راية
يصيح داعي النصر من تحتها
جاء بها الله على فترة
لم تألف الأَبصار من قبلها
فارتبعوا بعد مطال الحيا
وزارة قلبها شوقها
قت بمعناها وكم جالس
وهي التي إن لم تقدر رأسها
مزلفة راكب سيسانها^(٢)
راحت على عطفك أثوابها
فتحت في مهبهم تديرها
رد بنو يحيى وسهل لها
فاضرب عليها يبت ثاوبها
وامدد على الدنيا وجهها
واطلع على النيروز شمسا إذا
يوم من الفرس أتى وافدا
فاغرس ونوه منعما واصطنع
ولوفة الاعطاف لم تعسف^(٤)

لهجد من يلق بها يغلب
ياخيل محي الحسنات اركبي
بآية من يرها يعجب
أن تطلع الشمس من المغرب
وروضوا بعد الثرى المجدب
منك إلى حولها القلب
يكفيه منها سمة المنصب
بمحصدات الصبر لم تصحب^(١)
راكب ظهر الاسد الأغلب
طاهرة المرفع والمسحب
تنفس البلجة في الغيب
والطاهريون بنو مصعب
قبلك لم يعمد ولم يطنب^(٣)
ظلال حلم لك لم يعزب
ساق الغروب الشمس لم تغرب
فقال العرب له قرب
ترض مضاء الصارم المقضب
بالكلم المر ولم تمعب

(١) لم تسلس وتذل (٢) ظهرها (٣) لم يقم صموذا ولم يمد طنبا

(٤) الولة اللامعة يريد القصيدة وهي مفعول لامطنع.

حاءك معناها وألفاظها

في الحسن بالأسهل والأصعب

أفصح ما قيل ولكنها فصاحة تهدي إلى يعرب

١٩ - وقال المعري المتوفى سنة ٤٤٩ هـ خاتمة شعراء العصر الثالث
يسجل رأيه في النساء^(١)

ترنم في نهارك مستعينا	بذكر الله في المترنمات
ولا ترجع بإيماء سلاما	على بيض أشرن مسلمات
أولات الظلم جئن بشر ظلم	وقد واجهننا متظلمات
فوارس فتنة أعلام غي	لقينك بالأساور معالم
وسام ^(٢) ماقتنعن بحسن أصل	جنتك بالخضاب موسمات
رأين الورد في الوجنات خيا	فغادين البنان معنات ^(٣)
وشننن المسامع قائلات	وكنن القلوب مكلمات ^(٤)
نخور الريق لسن بكل حال	على طلابهن محرمات
والكن الاوانس باعناات	ركابك في مهالك مقمات
صحبك فاستفدت بهن ولدا	أصابك من أذاتك بالسماات
ومن رزق البنين فقير ناء	بذلك عن نوائب مسقات
فمن نكل بهاب ومن عقوق	وأرزاء يجئن مصمات

(١) هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد التنوخي المعري
الشاعر الحكيم الفيلسوف خاتمة شعراء العصر الثالث ، الغنى كسلفه المتنبي فآخرة
العصر المذكور عن التعريف . وقد خلف لنا من شعره سقط الزند والذوميات
(٢) جمع وسيمة وهي الحسنة (٣) مخضوبات كالعلم (٥) جرحها متحدات

وإن تعط الأناث فأى بؤس
يردن بعولة ويردن حليا
يلدن أحاديا ويكن طارا
ولا ترمق بعينك وأنحات
فكم حلت عقود النظم وهنا
ولا تحمد حسانك إن توافت
فحمل مغازل النسوان أولى
سهام إن عرفن كتاب لسن
ويتركن الرشيد بغير لب
وإن جئن المنجم سائلات
ليأخذن التلاوة عن مجوز
فأبعدهن من ربات فكر
ولا يتأهلن شيخ مقل
فإن الفقر عيب إن أضيفت
وواحدة كفتك فلا تجاوز
وإن أرغمت صاحبة بضر
وصن في الشرخ نفسك عن غوان
فقد يسرى الغوى إلى مخاز
وما حفظ الخريفة مثل بعل

تبين في وجوه مقسمات
ويلقن الخطوب ملومات
إذا أمسين في المتهضات (١)
إلى حمامن مكلمات
عقودا للرشاد منظمات
بأيد للسطور مقوسات
بهن من اليراع مقلمات
رجعن بما يسوء مسمات
أتين لهديه متعلمات
فلسن عن الضلال بمنجات (٢)
من اللأى فغرن مهمات
سواحر يفتدين معزومات
بمعصرة من المتنعيات
إليه السن جاء بمعظمات
إلى أخرى تجيء بمؤلمات
فأجدر أن تروع بمعزومات (٣)
يزرن مع الكواكب معلمات
بجنح في سحائب منجات
تكون به من المتحرمات

يحور ذمارها^(١) من كل خطب
ويمنعها مصائب مقرمات^(٢)
إذا الغاران غرتهما^(٣) بحمل
فدينك بالتورع والصمات^(٤)
فهدا، قول مختبر شفيق
ونصح للحياة وللهمات

٢٠ - وقال صردر المتوفى سنة ٤٦٥ يستهدى مدادا ويصف الدواء
والقلم والقراطيس^(٥)

اليك أشكو مشيبا لاح بارقه
في فرع دهاء تجرى بالأساطير
كانت مفارقها مسكا مضمخة
فألها بدلت منه بكافور
ومقلة عهدت كحلاء مرهبا
طول البكاء على بيض الطوامير
ياحبذا هي والأقلام واردة
فيها وصادرة سحج المناقير
كأنما كرعت في ناظري رشأ
أوفي سويداء قلب غير مسرور
تحوى القراطيس منهار وضة أنفا
بها مفاخرة الظلماء للنور
فكيف لي بخضاب تسترد به
من الشبيه لونا غير مهجور
لو أن صبغته فاز الشباب بها
لما رمى الدهر فوديه بتغيير
وحاجة النفس إن قلت وإن كثرت
إذا سمحت بها مثل الدنانير

٢١ - وقال الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ يمدح سعد الدولة بن مقلد أحد

(١) يمتزجها ويحفظه (٢) نهات (٣) الغاران القم والفرج وغرتهما سددهما
(٤) الصمت (٥) هو الرئيس أبو منصور علي بن الحسن من فارس كاتب شاعر،
لشعره طلاوة وبهجة في جودة سبك وحسن معنى، وكان أبو الحسن يلقب صربر
لشحه فلما نبغ هو في الكتابة والشعر لقب صردر . ويغلب على ديوانه المدح
والنميب والرثاء .

أمراء الشام ويهنته بالبرء من مرض كان قد ناله ويعتذر من تأخره
عنه فيه (١) :-

ذم الزمان فما وجدت صروفه
صفحت نوائبه عن ابن مقلد
ولقد ألم به فأظهر فضله
راض الزمان فأصحبت أخلاقه
من معشر بذلوا النفوس سماحة
عادت بهم ظلم الخطوب مضيئة
لولا مخالطة الصوارم والقنا
قوم إذا استنجدتهم للممة
أسيافهم في راهط (٣) معروفة
يامن إذا ما زاد عن أحسابهم
خفض عليك فكم ظفرت بغاية
يني وبينك ذمة مرعية
فأصخ إلى وللحديث شجونه
ما أخرتني عن جنابك همة
لكنه قدر أناخ ركائي

إلا ذلولا في القياد وريضا
كرما فكيف ألومه فيما قضى
والنار لا تشتب حتى تحتضى (٢)
وأعاد صبغ شبابه لما نضا
وحوا بيوت المجد أن تتقوصنا
والجدب موشى البرود مروصنا
منع السماح أكفهم أن تقبضنا
ملأت عليك جياهم رحب الغضا
منعت دعام عزم أن تدحضا
يوم النضال أصاب ما أنبضا (٤)
وكبا وراءك جاهد ماخفضا
حاشا مرار عهدها أن تنقضا
حتى أثبتك ما أمض وأرمضا
وجدت من الأهواء عنك معوصنا
قسرا وقيد همتي أن تنهضا

(١) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي من شعراء
الشام، أجاد المديح والنسيب ولكن غلب عليه الأول، وله ديوان ليس بالكبير،
(٢) يلهب جمرها بالحضى وهو الكور أو يقلب بالحضاً وهو العود (٣) مرج
معروف بالشام (٤) حرك الوتر للرمى .

وعلمت أنك كالنسيم مخلد أبدا وليس يصح حتى يمرضنا
فاغفر لخلل لو أبيع هواكم بحياته هجر الحياة وأعرضنا
٢٢ - وقال ابن حيوس المتوفى سنة ٤٧٠ يصف دار تاج الملوك
محمود بن نصر المرداسي وما فيها من تصاوير^(١)
لك في العلاء محجة^(٢) لا يهتدى فيها الملوك وججة لا تدفع
وخصصت في زمن الحياة بجنة حسن المصيف بها وطاب المربع
دار بها اكتست البسيطة زينة وزينها منك الأمام الأروع
ما زال مبصرها يعود بخادير يشكو الكلال وناظر لا يشبع
وترى طيور الجو في جنباتها بعض محلقة وبعض وقع
وسوابقا ليست تفارق أرضها وكأنها تحت الفوارس تمزع^(٣)
بالمصلتين صوارما لا تعمدى واللابسين يلامقا^(٤) لا تنزع
دهط نضوابيض السيوف وآخر قد جر قوسا ليس فيها منزع
وسهامه لا تستطيع فراقها وحباله أبدا لطير مصرع
وزرافتان أقيمتا كتاهما ترنو إليك بمقلة لا تهجم
وظعانن تخشى العيون وتتقى نظر المريب فدهرها تتبرقع
أبدا يقاد بها ويبدى عيسها وخدا حثيثا للنواظر يخدم
هل طاقها ما طابنته فلم تسر أو راقها هذا الجناب المرع

(١) هو الأمير أبو الفتيان محمد بن سلطان بن حيوس الملقب بصفي الدولة
أحد شعراء الشام الحسينيين وخولهم المبرزين وكان منقطعا إلى آل مرداس
الكلايين أصحاب حلب وله ديوان كبير جله مدح وما جاء من غيره جد قليل
أو تبيع . « ٢ » طريقة (٣) تعد ومسرعة (٤) دروعا

وابن الملوح قائم وسقامه الـ بادي طليعة ماتجن الأضلع
يشكو إلى ليلى الغرام إشارة شكوى لعمر ك لم تعنها أدمع
ومواضع فيها كعرضك وضح ثلجية الألوان بل هي أنصع
ومن النضار بها سحائب حمة لزمت أماكنها فيما تتقشع
سحب جوامد قد أظلمت طارضا تحيا بصيبه البـ لاد وتمرع
وبدت بأعلاها رياض حاكها حسن اقتراحك لا الغيوث الهمع
روض على الأفواه يعسر رعيه لكن للأبصار فيه مرتع
فابجج^(١) فانك أوحذ الزمن الذي لم يفترق في أهله ماتجمع

٢٣ - وقال الطغرائي المتوفى سنة ٥١٤ يصف هاجرة وغديرا^(٢)

وهاجرة سجراء^(٣) تأكل ظلها ملوحة المعزاء^(٤) رمضى الجنادب^(٥)

ترى الشمس فيها وهي ترسل خيطها

لتمتاح^(٦) ريا من نطاف المذانب^(٧)

سفعنا^(٨) بها وجه النهار فراعنا بنقبة مسود المقاديم شاحب^(٩)

(١) افرح غير مبال (٢) هو مؤيد الدين أبو اسماعيل الحسين بن علي الطغرائي

نسبة إلى الطغرى وهي الطرة التي ترمم في أعلى الكتب بنعوت الملك لأنه كان يرممها. وقد

لقب بالأستاذ وبالمنشئ لجودة إنشائه، ووزر للسلطان مسعود السلجوقي بالموصل.

وكما كان نخر الكتاب كان نابغة في الشعر وله ديوان كبير تصرف فيه في كثير من

الفنون وخاصة المديح والنسيب والحكمة والوصف، ولا ميته المعروفة بلامية العمم

ذات مقام عظيم (٣) حامية (٤) مسودة لحصا (٥) محروقتها (٦) لتستقي (٧) ن

صافيات الجداول (٨) حرقنا (٩) بلون وجه ليل مسود الأوائل متغير

فلما اعتسفنا^(١) ظل أخضر فاستق على قمم الآكام^(٢) جون المناكب
وردنا سحيرا بين يوم وليلة

وقد علت بالغرب أيدي الكواكب

على حين عرت منكب الصبح جذبة

من الشرق واسترخى عنان الغياهب

غديرا كهواة الغربية تلتقى بصوحيه أنفاس الرياح الغرائب

إذا ما نبال القطر تاحت له اتقى بموضونة حصداء من كل جانب

بمنعرج من ريد عيطاء^(٣) لم نزل وقائعا يرشفن ظلم السحائب

تقبل أفلاذ الحيا وتكنها بطامية الأرجاء خضر النصائب

بعيس كأطراف المدارى^(٤) نواحل فرقنا بها الظلماء وحف الذوائب^(٥)

نشحن به^(٦) عذبا نقاخا كأنما مشافرها يغمدن بيض القواضب

رأين جسام الماء زرقا ومثلها سنا الفجر فارتابت عيون الركائب

فكم قامح^(٧) عن لجة الماء طامح

إلى الفجر ظن الفجر بعض المشارب

إلى أن بدا قرن الغزالة ماتعا كوجه نظام الملك بين المواكب

٢٤ - وقال ابن الخياط المتوفى سنة ٥١٧ ينسب من بانيته التي سارت

بذكرها الركبان^(٨)

(١) اقتحمنا (٢) مرتفعات الهضاب (٣) من حرف هضبة (٤) الأمشاط

(٥) غزيرتها (٦) شربنا منه (٧) رافع (٨) هو أبو عبد الله أحمد بن محمد التغلبي

الدمشقي شاعر مجيد طاف البلاد واستقر بفارس يمدح العظماء وأغلب ديوانه

مدح ورثاء ونعيب .

خذنا من صبا نجد أمانا لقلبه فقد كاد رياها يطير بلبه
وإياكما ذاك النسيم فانه إذا هب كان الوجد أيسر خطبه
خليلى لو أحببتما لعلمتما محل الهوى من مغرم القلب صبه
تذكر فذو الذكرى يشوق وذو الهوى يتوق ومن يعلق به الحب يصبه
غرام على يأس الهوى ورجائه وشوق على بعد المزار وقربه
وفي الركب مطوى الضلوع على جوى متى يدعه داعى الغرام يلبه
إذا خطر من جانب الرمل نفحة تضمن منها داءه دون صحبه
ومحتجب بين الأسننة معرض وفي القلب من إعراضه مثل حجبه
أغار إذا آنست فى الحى أنه حذارا وخوفا أن تكون لخبه
فبالسقامى من هوى متجنب بكى عاذلاه رحمة لمحبه
أهيم إلى ماء ببرقة عاقل^(١) ظمئت على طول الورود بشربه
وأستاف حر الرمل شوقا إلى اللوى وقد أودعتنى السقم قضبان كئبه
ولست على وجدى بأول عاشق أصابت سهام الحب حبة قلبه
٢٤ - وقال الغزى المتوفى سنة ٥٢٤ يمدح شرف الدين أبا الحسن على
ابن الحسن البيهقى^(٢)

أرى الخلق متفقا فى الهوى ومختلفا فى المنى والمنى
فراعى حقوق وراعى حقائق وبانى معال وبانى مدن
وإنى لا أكره مدح الورى ويشغلى عنه هجو الزمن

(١) احدى برق نجد (٢) هو أبو إسحق ابراهيم بن يحيى الكلبى أقام
بخراسان يقول الكثير الممتع فكان يضرب المثل بجودة شعره . وله ديوان ضخم
غلب عليه المدح والوصف وفيه هجاء ونسيب .

ولكن دعيتي فليبيتها
غريب وإن كان في داره
يقوم الرجاء بتعويلنا
على العلا وظهير الندى
كلامي سلافة أهل العراق
ومن كل هزة ذى هممة
بمسالك رميت التقاط النجوم
وكنت امرأاً أرخص النفس في
فخرج على أملى قبل أن
فأنت المبرز في الحالتين
ومن جعل الشمس خريته
٢٦ - وقال الأرجاني المتوفى سنة ٥٤٤ هـ يهجو أهل زمنه ويصف
سوءهم (١)

ومعشر شرم دان وخيرهم
أدى اليهم خلو الربع من أنس
قل للذي شخصه في القصر محتجب
يشري الثناء ولا يعطى به ثمننا
لحاكم الله من أغصان عارية
مكان بدر الدجى من باع معتنق
وطالما كرع الظمان في الرنق
وعرضه الدهر مطروح على الطرق
وذاك مبلغ رأس الجاهل الحق
من الندى والجنى والظل والورق

(١) هو القاضي ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد الأرجاني شاعر مكثار
في رقة لفظ وجودة رصف وله ديوان على ضخامته يقال إنه لم يجمع عشر شعراء،
وهو متصرف في كثير من الفنون ولا سيما المدح والنسيب والوصف .

إذا مدحناهم لم يوقظوا كرما
ونستسك إذا ازوروا مسامعهم
مدائح لا تقاه الشر تحسبها
أعناقكم ماؤها درى وليس لكم
وما خلقنا حمامات فنظر بكم
والله لو ذ محامتي وإن لو موا
إذا لسارت بما يخزيهم كلم
إذا شذنت على عرض أو أبدها
تهتز منهم أعطاف الورى طربا
كالسيف يحمده غير القتييل به

وإن تركناهم ناموا على حنق
بكل منظومة كاللؤلؤ النسق
رقيا العقارب تكسو أوجه الورق
وأحمد الله أدنى المن فى عنق
سجعا ونملك أطواقا من الحلق
على الكريمين من نفسى ومن خلقى
أربها من حواشى مقول نطق
أجلين عن قدم منه وعن مزق
إلا الذين أباتهم على قلق
يوزم الجلال إذا ما احمر من علق

١٧ - وقال الایبوردی المتوفى سنة ٥٥٧ هـ يفتخر بقومه وأوليته (١)

أنا ابن الأكرمين أبا وأما
أشدهم إذا اجتلدوا قتلالا
وأرجحهم إذا قدروا حلوما
وأصلبهم لدى الغمزات عودا
وإن دعيت نزال مشوا سراعا
يكبون العشار لمعتفيهم
ويثنون المغيرة عن هواها
وهم خير الورى عما وخالا
وأوثقهم إذا عقدوا حبالا
وأصدقهم إذا افتخر واما قالا
إذا الخفرات خلين الحجالا
إلى الاقران وابتدروا النزالا
ويروون الأسننة والنصالا
إذا الوادى بظعن الحى سالا

(١) هو أبو المظفر محمد بن أحمد الایبوردى نسبة إلى أيورد بخراسان وهو
سفياني كان رواية نسابه شاعر رقيقا قسم أشعاره أقساما منها العراقيات والنجديات
ولقى شعره خدمات من الأدباء وأغلبه مديح وفخر ونسب .

ويحتقبون أعماراً قصارى
على أثباج مقربة تمطت
نجروا السمرداجفة صدورا
بأيد يستشف الجود فيها
وهم فتحوا البلاد بيارات
ولولاهم — ادرت بفيء
وقد علم القبائل أن قومي
وأصرحهم اذا انتسبوا أصولا
مضوا وأزال ملكهم الليالى

ويعتقلون أرماحا طوالا
بهم وورطالها تنضو الرطالا
وقادوا الجرد راعفة نعالا
تفيد محامدا وتفيد مالا
كان على أغرتها نعالا
ولا أدرى بها العرب الفصالا
أعزهم وأكرمهم فعالا
وأعظمهم إذا وهبوا سجالا
وأية دولة أمنت زوالا

٢٨ - وقال عمارة اليمني المتوفى سنة ٥٦٩ يصف دارا لآل رزيك^(١)

فتمل دارا شيدتها همة
جملتها وتجملت مصر بها
فاقت على الأطلاق كل بنية
وسقيت من ذوب النضار مسقوفها
ثم يسد فيها الروض الأزهرا
وبها من الحيوان كل مشهر
وكان صولتك المخوفة أمنت

يغدو العسير بأمرها متيسرا
لما علت بك عزة وتكبرا
وسمت فما استئثنت سوى أم القرى
حتى لسكاد نضارها أن يقطرا
والنخ — نل والرمان إلا مثمرا
لبس الوشيج العبقري مشهرا
أسراها ألا تراع وتدعرا

(١) هو الفقيه نجم الدين أبو عمارة بن علي الحكيم اليمني العالم الأديب الشاعر المجيد ، استوطن مصر ونال حظوة كبيرة لدى الخليفة العاضد الفاطمي ووزيره طلائع الدين صالح بن رزيك. ومعظم شعره مدح فيهما ولما ملك صلاح الدين صلبه فيمن صلب

أنشأت فيما للعيون بدائعا
 فن الرخام مسيرا ومسهما
 والعاج بين الأبنوس كأنه
 قد كان منظرها بهيما رائقا
 وكذلك جيد الظبي يحسن عاطلا
 ألبستها بيض الستور وجرها
 فجالس كسيت رقيا أيبضا
 لم يبق نوع صامت أو ناطق
 فيها حدائق لم تجدها ديمة
 والطير قد وقعت على أغصانها
 لا تعدم الابصار بين مروجها
 أنست نوافر وحشها بسباعها
 وبها زرافات كأن رقابها
 نوبية المنشأ^(٣) تريك من المها
 جبلت على الأقماع من أعجابها

٢٩ - وقال ابن التعاويذي المتوفى سنة ٥٨٣ من مدحة للخليفة الناصر
 يصف غلمان الأتراك^(٤)

(١) المسير المخطط بصفرة، والمسهم المخطط بسواد، والمنمنم المنقط ببياض، والمدرم
 المشبه الدرهم، والمدنر المشبه الدينار (٢) مرقع خصب للوحش لأنها اربعون ميلا
 لا منزل فيها بين مكة والبصرة (٣) مسهل المنشأ (٤) هو أبو الفتح محمد بن
 عبيد الله بن محمد الله الكاتب بديوان المقاطعات ببغداد ولكنه شهر بمبسط ابن

القائد الغلب^(١) الحكمة عوابسا والبيض في أيمانهم تتبسم
سيان سلمهم وحربهم فما ينفك يقطر من أكفهم الدم
ترك اذلبسوا الترائك^(٢) أيقنت صم العوالي أنها ستحطم
يزداد إشراقا ضياء وجوههم والجو بالهبوات أربد أقم
فهم إذا حسروا ظباء خميلة

وهم أسود شرى إذا ما استلاموا^(٣)

ركبوا الدياجي^(٤) والسروج أهلة وهم بدور والاسنة أنجم
وكان إيماض السيوف بوارق وعجاج خيلهم سحاب مظلم
من كل من بجياله نار الهوى ويأسه نار الوغى تتضرم
في ثني برده قضييب نقي وفي الد م رع المفاضة منه طود أيهم^(٥)
بشر أرق من الزلال وتحتته كالصخر قلب لا يرق فبرحم
يصمى الخلي^(٦) بطرفه وبكفه يصمى الكمي فجؤذر أم ضيغم
هو تارة للحسن في أنزابه علم وطوراني الكتيبة معلم

٣٠ - وقال ابن عنين المتوفى سنة ٦٣٠ يذكر جهاد شرف الدين

عيسى بن أبي بكر الأيوبي ، الروم بشعر دمياط وطردهم منها^(٧)

التعاويذي نسبة إلى جده لأمه أي محمد المبارك ابن المبارك الزاهد المعروف
بأبن التعاويذي لأنه كفله صغيرا . كان شاعر وفته وله ديوان ضخم جمعه وبوبه
بنفسه في المدح والذم والصفات والرثاء والهجاء وأكثر هذه الفنون فيه
المدح (١) الشجمان جمع أغلب وهو الأسد (٢) جمع تريكة وهي البيضة كتركه
(٣) ليسوا اللأمت وهي الدروع (٤) يعني الخيل السود كالدياجي
(٥) أصم صعب المرتقى (٦) يرميه فيقتله (٧) هو شرف الدين أبو العباس

سألو اصهوات الخويل يوم الوثى عنا . إذا جهات آياتنا والقتنا اللدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا من الروم لا يخفى يقينا ولا ظنا
قد اتفقوا رأيا وعزما وهمة ودينا وإن كانوا قد اختلفوا لسنا
تداعوا بأنصار المليب فأقبلت جموع كأن الموج كان لهم سفنا
عليهم من الماذى ^(١) كل مفاضة
دلاص ^(٢) كقرن الشمس قد أحكمت وضنا ^(٣)
وأطعمهم فينا غرور فأرقلوا إلينا سراعا بالجياذ وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم بأطرافها حتى استجاروا بنا منا
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى وكيف ينام الليل من فقد الأنا
لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا طويلا فما أجدى دفاع ولا أغنى
رأو ^(٤) الموت من زرق الأسننة أحرا فألقوا بأيديهم إلينا فأحسننا
منحنا بقاياهم حياة جديدة فعاشوا بأعناق مقلدة منا
ولو ملكوا لم يأتلوا في دماننا ولوفا ولكننا ملكنا فأسججنا
وقد جربونا قبلها في وقائع تعلم غمر الموت منا بها الطعنا
فكم من مليك قد شددنا إساره وكم من أسير من شقا الأسر أطلقنا
وكم يوم حر قد لقينا هجيره بصبر وقر ما طلبنا له كنا

محمد بن نصر الدين بن نصر بن الحسين بن عنين الانصارى الدمشقى . كان
أديبا واسع الاطلاع ذا مكانة أوصلته إلى الوزارة بدمشق وكان ريمانة شعراء
عصره ثم لم يأت بعده من هو مثله ومعظم شعره جاء مدحا وهجاء ونسيبا .

(١) الدروع البيضاء (٢) لينة ويايباء (٣) نسجا (٤) بضم الهمزة قبل الواو

ضرورة وأصلها الفتح

فان نعيم الملك من شظف الشقا ينال وحلو العيش من مره يجني
يسير بنا من آل أيوب ماجد أبي عزمه أن يستقل به مغني
لعمرك ما آيات عيسى خفية هي الشمس للأقصى سناء وللأدنى
سرى نحو دمياط بكل سميدع نجيب يرى ورد الوغى المورد الأهنا^(١)
فأجلى علوج الروم عنها وأفرخت قلوب رجال حالفت بعدها الحزنا
وطهرها من رجسهم بحسامه هام يرى كسب الثنا المغنم الأسنى
مآثر مجد خافتها سيوفه لها نبأ يفني الزمان ولا يفنى
لقد عرفت أسيافنا ورقابهم مواقعها فيهم فان عاودوا عدنا

٣١ - وقال البهاء زهير المتوفى سنة ٦٥٦ « عام زوال الخلافة العباسية

من بغداد » يصف تليفه على حبيبه وإعراض حبيبه عنه^(٢)

يعاهدني لاخائي ثم ينكث وأحلف لا كلمته ثم أحنث
وذلك دأبي لا يزال ودأبه قيامعشر الناس اسمعوا وتحدثوا
أقول له صداني يقول نعم غدا ويكسر جفنا هازئاً بي ويعبت
وماض بعض الناس لو كان زارني وكنا خلونا ساعة تتحدث
أمولاي إني في هواك معذب وحتام أبقى في العذاب وأمكث
نخذ مرة روحى ترحنى ولم أكن أموت مرارا في النهار وأبعث

(١) مهمل الأهنا (٢) هو أبو الفضل بهاء الدين زهير بن محمد بن علي المهلبى

نشأ بالحجاز قرب مكة ثم رحل إلى مصر قبيل العشرين فعاش بها واتصل
بالملايك الصالح نجم أيوب فولاه ديوان الإنشاء وكان فوق اجادته النثر، شاعرا مكثارا
جمع شعره بين الطبيعة العربية والرقعة المصرية وديوانه مليء بتمنون الشعر الذى
يمثل البيئة المصرية تمثيلا ليس له فيه من نظير .

وإني لهذا الضيم منك لحامل
أعيزك من هذا الجماء الذي بدا
ومنتظر لطفاً من الله يحدث
خلائقك الحسنى أرق وأدمت
تردد ظن الناس فينا وأكثروا
أقاويل منها ما يطيب ويخبث
وقد كرمت في الحب منى شمائل
ويسأل عني من أراد ويبحث

ثانياً - حياته

لم يزل الشعر وما زال في كل عصر مرآته الصافية التي تنطبع فيها صورته الحقة ، لأنه فيض الشعور ونبع الوجدان ، ولأن رجاله أدق الناس شعورا وأرقهم وجدانا . ولذا رأيت في الحياة الجاهلية صورة ناطقة لما كان فيها من حس ومعنى ، حتى عدّه المؤرخون ديوانها وسجلها . ورأيت في صدر الإسلام قد بقي كما كان فيما بقي ، وحاد عن الخوض فيما ترك ، وتلون فيما تلون على شاكته وغراره . ثم رأيت في العصر الأموي قد جنح جنوحاً قويا إلى ما اختطه العصر حتى كاد يكون قصراً على ما كان الغرض الذائع فيه . فجاء في العصبية والسياسة تأييدا ومعارضة ، وفي رفع الأولياء ووضع الخصماء مدحا وهجوا ، ثم بين ذوى البطالة المبعدين عن ميادين العمل ، غزل إباحة ومتعة من ذوى الجدة المترفين ، ونسيب تصوف وعفة من ذوى العدم المتقشفين . على أنه في هذين العصرين الإسلاميين لم يعتمد كثيرا عما اختطه له العصر الجاهلي لأن الدولة فيهما بقيت عربية خالصة نظارة إلى عروبته وبدائها بقوة حادت بها عن التأثير الكبير بما سواها . أما في العصر العباسي الذي اختط عاصمته في ديار الإهلام واختلط بل امتزج بالفرس أتم امتزاج

وَأَتَّخِذْ مِنْهُمْ بَدَلَ الْعَرَبِ ، الْوُزَرَءَ وَسَائِرَ الْأَعْوَانِ ، حَتَّى تَغْيِرَ بِذَلِكَ نِظَامَ الْحَيَاةِ إِلَى مَا شَرَحْنَا آتِفًا فِي الْجِنْسِ وَالدِّينِ وَاللُّغَةِ وَشُؤْنِ الْاجْتِمَاعِ ، فَلَمْ يَكْ مَفْرَدًا لِلشَّعْرِ وَهُوَ كَمَا ذَكَرْنَا مِرَاةَ الْعَصُورِ أَنْ يَنْطَبِعَ كُلُّ ذَلِكَ فِيهِ وَيُظْهِرَ أَثْرَهُ بِهِ ظُهُورًا بَيْنَمَا يَخَالَفُ مَا كَانَ لِمَاضِيهِ فِي الْأَغْرَاضِ وَالْمَقَاصِدِ ، وَفِي الْمَعَانِي وَالْأَخْيَالِ ، ثُمَّ فِي الْأَلْفَاظِ وَالْأَسَالِيبِ ، عَلَى مَا سَتَرَى فِي هَذَا الْبَيَانِ الَّذِي يَتَنَاوَلُ عَلَيَّ مَا يَسْمَحُ الْمَقَامَ ، تَفْصِيلًا مَا يَخْصُ الشَّعْرَ فِيمَا أَجْمَلْنَا سَابِقًا مِنْ تَأَثُّرِ اللُّغَةِ فِي هَذِهِ النَّوَاحِي الثَّلَاثِ .

١ - نَاحِيَةُ الْأَغْرَاضِ وَالْفُنُونِ

لَعَلَّهُ مِنَ الْمَلَامُ وَقَدْ عَرَفْتَ الْأَغْرَاضَ الثَّلَاثَةَ الَّتِي كَانَتْ أَمَّ الْأَغْرَاضِ الشَّعْرِ فِي الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ أَنْ نَبْدَأُ بِهَا الْآنَ فِي هَذَا الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ ، وَبَعْدَهَا نَرْجِي الْقَوْلَ إِلَى مَا كَانَ لَهُ فِيهِ مِنْ سَائِرِ الْفُنُونِ .

١ - الْعَصْبِيَّةُ وَالسِّيَاسِيَّةُ - أَحْيَتْ الدَّوْلَةَ الْأُمَوِيَّةَ الْعَصْبِيَّاتِ وَكَانَتْ أَقْوَى مَا تَكُونُ بَيْنَ الْيَمِينِيَّةِ وَالْمُضَرِّيَّةِ مِنْذَ تَقْرِيْبِ مَعَاوِيَةَ الْيَمِينِ وَإِبْعَادِهِ قَيْسًا ، فَكَانَتْ الْمَلَاخَاةُ بَيْنَ الْعَنْصَرِيْنَ قُوَّةً شَدِيدَةً ، وَكَانَتْ تَزْدَادُ شِدَّةً كُلَّمَا تَقَدَّمَتْ بِالدَّوْلَةِ الْأَيَّامَ ، حَتَّى وَرَثَتْهَا الدَّوْلَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ بِاللُّغَةِ مِنْتَهَا ، وَقَدْ زَادَ الْعَنْصَرُ الْيَمِينِيَّ قُوَّةً عَلَى الْمُضَرِّيِّ أَنْ أُمَّ السَّفَاحُ كَانَتْ مِنْهُ - وَلِذَلِكَ خَلَفَهُ أَبُوهُ قَبْلَ أَبِي جَعْفَرٍ وَهُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ لِأَنَّهُ ابْنُ أُمِّ وَلَدٍ - هَذَا مَعَ مَنْ انْضَمَّ إِلَى شُعْرَاءِ الْيَمِينِ الْعَرَبِ مِنَ الْمَوَالِي الَّذِينَ كَانُوا يَنْتَمُونَ إِلَى قِبَائِلِهِ وَوَلَاءِهِمْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَبُو نُوَاسٍ الْحَكْمِيُّ الَّذِي يَقُولُ فِيهِمْ :

وَقَدْ نَاحَتْ عَنِ أَحْسَابِ قَوْمٍ هُمْ وَرَثُوا مَكَارِمَ ذِي نُوَاسٍ
فَإِنَّ تَكَّ أَوْقَدَتْ لِلْحَرْبِ نَارَ فَمَا غَطَّيْتَ خَوْفَ الْحَرْبِ رَاسِي

سأبلى خبير ما أبلى محام إذا ما النبيل أجم بالقياس^(١)
فما بال النعاج نعت بشتى^(٢) وفي زمعاتهن دم القراس^(٣)
وما حامت عن الأحساب إلا لترفع ذكرها بأبي نواس

غير أن ظهور الشعوب الأخرى بمعادة هذين العنصرين العربيين معا
كان من شأنه أن يخضد شوكة هذا الخلاف ويضعف منه ، على أن
تبقى الصولة لمضر لبقاء الخلافة بعد النبوة فيها كما كانت ، ولذا بقي الفخر
لها وحدها دون اليمن حتى على السنة الخلفاء الذين ينبغي أن يكونوا
آخر المتعصبين كما تلمح ذلك في قول ابن المعتز مفتخرا :

إذا شئت أوقرت البلاد حوافرا وسارت ورائي هاشم ونزار
وعم السماء النقع حتى كأنه دخان وأطراف الرماح شرار
وقد استغل العباسيون الشعر في تأييد ملكهم ضد الطامعين فيه من
آل علي كما كان يفعل الأمويون ، فقوبل شعراؤهم الموالون أمثال مروان
ابن أبي حفصة وعلي بن الجهم وأبان بن عبد الحميد بطبقة من الشعراء
المعارضين الذين يتمصبون لآل علي ، كالسيد الحميري ودعبل الخزاعي
ومسلم بن الوليد ، وطالت الملاحاة بين الطبقتين في شدة واحتدام كما
ترى في هذين المثليين :

قال مروان يخاطب بني علي طالبا اليهم تخلية الطريق لبني العباس :

خلوا الطريق لعشر عاداتهم حطم المناكب يوم كل زحام
وارضوا بما قسم الاله لكم به ودعوا وراثة كل أصيد حامى

(١) جمع قوس (٢) صوتت به (٣) الزمعات هنات زائدات وراء الأظلاف

أنى يكون وليس ذاك بكأن لبني البنات وراثه الأعمام^(١)
وقال الحميرى وكان يفضل عليا على الراشدين كما يفضل أبناءه على العباسيين

(١) شاع استعمال هذا المعنى الذى ألم به مروان تأييدا وتقضا

قال الطاهر بن على العباسى فى تأييده زائدا عليه

لو كان جدكم هناك وجدنا فتنازما فيه لوقت خصام

كان التراث لجدنا من دونه فخواه بالقرنى وبالاسلام

حق البنات فريضة معلومة والعم أولى من بنى الأعمام

وقال محمد بن يحيى التغلبى فى تقضه زائدا أيضا

لم لا يكون وإن ذاك لكائن لبني البنات وراثه الأعمام

للبنت نصف كامل من ماله والعم متروك بغير سهام

ما للطلق والتراث وإنما صلى الطليق مخافة الصمصام

وذكر صاحب الأغانى أن بيت مروان الأخير هذا، كان السبب فى قتله، فقد روى

عن حدثوه عن عطية الأضجيم أنه قال « لزمتم مروان لما قال هذا البيت

وماهدت الله أن اغتاله فأقتله أى وقت أمكننى ذلك، ومازلات ألاحظه وأبره

وأكتب أشعاره حتى خصصت به فأنس بى جدا، وعرفت ذلك بنو حفصة

جميعا، فأنسوا بى ولم أزل أطلب له غرفة حتى مرض من حمى أصابته فلم أزل أظهر

له الجزع عليه وألازمه وألاحظه حتى خلا لى البيت يوما فوثبت عليه فأخذت

بمقلقه فما فارقت حتى مات، فخرجت وتركته فخرج إليه أهله بعد ساعة فوجدوه

ميتا وارتفعت الصبيحة فحضرت وتباكيت وأظهرت الجزع عليه حتى دفن وما فطن

بما فعلت أحد ولا أهتمنى به »

إذا أنالم أحفظ وصاة محمد
فان كمن يشرى الضلالة بالهدى
ومالى وتيم أوعدى وإنما
تم صلاتى بالصلاة عليهم
بكاهلة إن لم أصل عليهم
بذات لهم ودى ونصحي ونزرتى
وإن امرأ يلجى على صدق ودم
فان شئت فاختر حاجل الغم ظلة
وقد حرك ماجد للموالى فى العصر العباسى من تقريب ، ما كان ماء
نفوسهم من حقد على العرب طوال العهد الاموى ، فأخذوا يفاخروهم
ويذكرون مثالبهم وأخذ العرب يردون عليهم مايقولون ، حتى نشأت
عصبية أعم من السابقتين بين العرب والعجم ، قوى فيها سلطان العجم
لنفوذ الفرس وكثرة شعراء الموالى . فعان أمر الشعوية وصار لها
شأن خطير ، وتعصب لها عدد وافر من الشعراء كبشار وديك الجن (٢)
والخرمى (٣) وغيرهم ، وقام من ينافح عن العرب ويرد على هؤلاء ، أمثال

(١) يعنى غدير خم بين مكة والمدينة فعنده أخذ رسول الله بيد على بن
أبى طالب وقال لمن معه ألت أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالو بلى يا رسول الله ،
قال فمن كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وادمن عاداه ، وهذا حديث
يدفعه غير الشيعة (٢) هو عبد السلام بن رغبان ابن عبد السلام الحمصى .
(٣) هو أبو يعقوب إسحاق بن حسان مول آل خريم المرين النديانيين

يزيد المهلبى ولكنهم قليل وهالك مثاين مما كان يقال .
دخل أعرابى على مجزأة بن ثور السدوس فتنقص الموالى أه
بشار فقال بشار .

ولا آبى على مولى وجار	خليلى لا أنام على اقتسار
وعنه حين تأذن بالفخار	سأخبر فاخر الاعراب عنى
ونادمت الكرام على العقار	أحين كسيت بعد العرى خزا
بنى الاحرار حسبك من خسار	تفاخر يا بن راعية وراع
شركت الكلب فى ولغ الاطار ^(١)	و كنت إذا ظمئت إلى قراح
وينسيك المكارم صيد فار	تريغ ^(٢) بمخطبة كسر الموالى
ولم تعقل بدراج الديار ^(٣)	وتغردو للقنafd تدريها
وترعى الضأن بالبلد القفار	وتتشح الشمال للابسيها
فليتك فائب فى حر نار	مقامك بيننا دنس علينا
على مثلى من الحدث الكبار	ونفرك بين خنزير وكلب

ولما قتل الخدم الخليفة المتوكل قال يزيد المهلبى من مرثيته يعيب على
بنى العباس إبعاد العرب وتقريب الموالى

ضعتم وضيعتم من كان يعتق	لما اعتقدتم أناسا لاحلوم لهم
حملتكم السادة المذكورة الحش	ولو جعلتم على الاحرار نعمتكم
والنجد والدين والارحام والبال	قومهم الجذم والانساب تجمعهم
بغير قحطان لم يبرح به أو	إذا قریش أرادوا شد ملكهم

(١) خليط من دم ورماد تلتطخ به القدور (٢) تريد (٣) الدراج كرمان طار

أضحى شهيد بنى العباس موعظة لكل ذى عزة في رأسه صيد
خليفة لم ينل ماناله أحد ولم يضع مثله روح ولا جسد
قد وتر الناس طرا ثم قد صمتوا حتى كأن الذى نيلوا به رشد
من الألى وهبوا للمجد أنفسهم فما يبألون مانالوا اذا حمدوا؟
وقد ضعف أمر هذه العصبية جميعا بتغلب الأتراك على العرب في
العصر الثانى ثم بأحلال الدولة إلى دويلات في الثالث إلا ما كان من الأشادة
بالعلوية في مصر أيام الفاطميين وبالعربية في الشام أيام الحمدانيين على
أن هذه الأشادة لم تلبث أن زالت في العصر الرابع الذى تملك فيه
الأتراك شرقا والأكراد غربا

٢ - المدح والهجاء : وكما فى الشعر السياسى فى المدح والهجاء
على العهد الأموى فأصبح لهما تبعا لا استقلال له ، لم يلبث أن صار
كذلك فى العهد العباسى منذ عصره الأول لميل النفوس بطبعها إلى
حب التناء وغلوها فى هذا الحب واتخاذ الشعراء هذا الميل أحبولة
لتصيد المال ثم سخاء ذوى الأمر لهم ببذله سخاء منقطع النظير . ولهذا
كثرت قائلو المديح وطالبوه وتعدى الشعراء التكسب بالشعر للعيش
والحياة ، إلى التكسب به لاقتناء الثروات الواسعة ومجارات ذوى اليسار
والبذخ فى مظاهر الرفاهة والتمتع بنعمى الحياة^(١) ومن ثم هجروا

(١) ذكر صاحب الألفانى أن سلما الخامر خلف روة مقدارها خمسون
ألف دينار وألف ألف وخمسمائة ألف درهم غير الضياع . وقد خلف مروان
أكثر من ذلك ومثلها فى هذا جمهرة من الشعراء غير مبذريهم الذين كانوا
نوقونهم كسبا ولكنهم لا يبتقون على شىء كأبى نواس

مواطنهم الأولى وأقاموا في بغداد متحضرين يتمتعون فيها بأجزل العطايا وأسنى الصلوات حتى من الخليفة المنصور على ما كان معروفاً به من التشدد في خزن المال . روى أن أبا دلامة لما أنشده قوله

لو كان يبعد فوف الشمس من كرم قوم لقييل أقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا في شعاع الشمس كلهم إلى السماء فأنتم أطهر الناس
وقدموا القائم المنصور رأسكم فالعين والأنف والأذنان في الراس
قال له بأى شيء تحب أن أعينك قال تملأ لي هذه الخريطة دراهم
فلئت فوسعت أربعة آلاف درهم

ومنذ عهد ابنه المهدي أخذت الأموال تتدفق على الشعراء .

قيل دخل عليه عمرو بن سليم الخاسر فأنشده .

أليس أحق الناس أن يدرك الغني مرجى أمير المؤمنين وسائله
لقد بسط المهدي عدلاً ونائلاً كأنهما عدل النبي ونائله

فقال له أما ما ذكرت يا سلم من الجود فوالله ما تعدل الدنيا عندي خاتمي
هذا ، وأما العدل فإنه لا يقاس برسول الله صلى الله عليه وسلم أحد فيه ، وإني
لا تحراه جهدي . ثم أمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب .
ودخل عليه بعدها فأنشده

إن الخلافة لم تكن بخلافة حتى استقرت في بني العباس

شدت مناكب ملكهم بخلافة كالدهر يخلط لينه بشماس

فأمر له بعشرين ألف درهم وعشرين ثوباً . ثم دخل عليه بعدها فأنشده

أفنى سؤال السائلين بجوده ملك مواهبه تروح وتغتدى

هذا الخليفة جوده ونواله نفذ السؤال وجوده لم ينفد

فأمر له بتلاثين ألف درهم وثلاثين ثوبا .
وقد أعطى ابنه الهادي عشرين ألف درهم لشاعر أجاد وصف الصمصامة
سيف عمرو بن معديكرب الزيندى حين حصل عاينه وكان مغرما
باقتناء السلاح وسياتى هذا الوصف

أما الرشيد فقد غطى فى ذلك على ما كان لأبيه وأخيه .
مدحه مروان بقصيدة يقول فيها
وسات بهارون الثغور فأحكمت به من أمور المسلمين المرائر
وما انفك معقودا بنصر لواؤه له عسكر عنه تشظى العساكر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية على الرغم قسرا عن يدوهو صاغر
ترى حوله الاثاملاك من آل هاشم كما حفت البدر النجوم الزواهر
فأعطاه خمسة آلاف دينار وكساه خلعتة وأمر له بعشرة من رقيق
الروم وحمله على بردون من خاص مراكبه . ثم كان جوده على الشعراء
يجاوز كل أمل فى محافل البيعات

وكذلك كان أبناؤه الأمين والمأمون والمعتصم ولاسيما المأمون
على طول مدته فى الخلافة . قال لمحمد بن الجهم يوما أنشدنى ثلاثة أبيات
فى المديح والهجاء والرثاء ولك بكل بيت كورة فأنشده فى المديح
يجود بالنفس إن صن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود
وأنشده فى الهجاء

قبحت مناظرهم فحين خبرتهم حسنت مناظرهم لقبح المخبر
وأنشده فى الرثاء

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر دل على القبر

وعلى مثل هذا كان للشعراء، الواثق والمتوكل ابنا المعتمد وبخاصة المتوكل، ومدائح البحتري فيه وعطاياها للبحتري مما ضربت به الأمثال. ومن بعده تغير مجرى التاريخ

وقد اقتدى بالخلفاء في ذلك، الأمراء والوزراء، وأخبار آل برمك في هذا أشهر من أن تذكر أو ينالها تعداد، وكفى أنها كانت من أهم بواعث الحقد عليهم في نفس الرشيد.

بذلك وغيره كثرت المدائح وجادت وكثرت فيها المبالغات كما قرأت بالتماذج في مدحتي مسلم وأبي تمام

هذا وإذا كان من شأن الشاعر المتكسب بشعره، أن يتخذ الهجو عصا في هذا الباب يهيب بها على الماطلين، وينال بأذاها البخلاء والمناعين، لم يك مفر من أن يكثر الهجاء مع المدح، على أن مما أكثره غير ذلك، تجاسد الشعراء وما أنتجه في نفوسهم من عداوة أعادت ذكرى ما كان بين الفرزدق وجرير وحلبتهما بصورة أوسع أفقا وأشد بشاعة ونكرا، ولا يجوز أن نغفل هنا ذكر العصبية الماضية وما خافته من ألوان الهجاء. ثم قد وسعت حرية المأمون الشعراء الهاجين إلى درجة أنه كان

يسمع هجوه بنفسه ويصفح. روى أن دعبلحا حين هجاه بقوله:

أيسومني المأمون خطية طاجز	أو ما رأى بالأمس رأس محمد
يوفي على هام الخلائف مثل ما	توفي الجبال على رؤوس القرد
وبجل في أكناف كل ممنع	حتى يذل شاهقا لم يصعد
إن اتراة مسهد طلابها	فاكف اعابك عن لعاب الأسود
إني من القوم الذين سيوفهم	قتلت أخاك وشرفتك بمقعد

شادوا بذكرك بعد طول خمولة واستنقذوك من الحضيض الاوهد
لم يزد أن قال « قاتل الله دعبلًا متى كنت خاملًا وفي حجر الخلافة ولدت
وبدرها غذيت، وفي مهدها ربيت »^(١) فتنزل الشعراء لذلك في عهده -
كما تنزلوا قبل عهده إرضاء للسياسة والعصبيات - إلى الاقذاع في
الهجو والبذاءة في الالفاظ، وقد جعلهم يغفلون في ذلك أشد غلو، ضعف
الوازع الديني وماجرته مثالب المدنية على النفوس من الانقياس في مفاسدها
والفتنة بها إلى أن عد بعضها من المحاسن وهو من المقابح في الحضيض.
هذا إلى أن التسابق في التهاجي كان رغبة بين بعض الشعراء وبعض
دون أن يرتكز في نفوسهم إلى أحقاد أو أسباب سواء

قال بشار يهجو المهدي ويحرض على وزيره يعقوب بن داود:

بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
صنعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود

وقال أبو نواس يهجو المفضل بن سيبان بالبخل

أصبحت أجوع خلق الله كلهم وأفزع الناس من خبز إذا وضعا
خبز المفضل مكتوب عليه ألا لبارك الله في ضيف إذا شبعنا
إني أحذركم من خبز صاحبنا فقد ترون بحلقى اليوم ما صنعنا
وقال أبو العتاهية يهجو معن بن زائدة بالجبن:

فصغ ما كنت حليت به سيفك خلخالاً

«١» روى أن أبا سعد الخزومي دخل على المأمون وأنشد شعراً دعبل هذا
ثم قال « أناذن لي يا أمير المؤمنين أن أجيبك برأسيه » فقال له « لا ، هذا رجل
نخر علينا فانخر أنت عليه فأما قتله بلا حجة فلا » .

فما تصنع بالسيف إذا لم تك قتالا
وشاع هجوم بدمامة الخلق كما قال البحتري يذم بكبر الأنف
رأيت الخنعمى يقل أنفا يضيق بعرضه البلد الفضاء
سما صعدا فقصر كل سام لهيبتة وغص به الهواء
هو الجبل الذي لولا ذراه إذن وقعت على الأرض السماء
وقد ساد الهجاء المديح في العصر الثاني لقلة الأجواد وعدم معرفة
ذوى اليسار ببلاغة القول ، فظهر تبرم الشعراء من هذه الحال والاكثار
من هجو الناس والزمن ، ونبغ في هذه الناحية ابن الرومي نبوغا لم يصله
سواه كما رأيت في ذمه ابن المدبر أنفا وكما ترى الآن حيث يذم رؤساء
زمنه لبخلهم على مدحه لهم، فيقول

قل للذين مدحتهم فكأنما مسخروا كلابا غير ذات خلاق
ردوا على صحائفها سودتها فيكم بلا حق ولا استحقاق
ما كان مثلي مادحا أمثالك لولا اتهامى ضامن الأرزاق
أسخطت خلاق البرية فيكم فباغتم منى رضا الخلاق
أغرقت في نزعى لكم ولربما حرم الرماة الصيد بالأغراق
ولما أقبل العصر الثالث تفجرت ينابيع الجود من جديد على أيدي
حكام الدويلات وعظماء رجالها ، فتسابق الفواطم والحمدانيون وآل بويه
في الانغداق على الشعراء ، وبذلك بلغ المدح الذروة التي ليس فوقها ارتفاع ،
ولكن مع بقاء الهجوم مسايرا له إذ لا غنى عنه في تقرير اللؤماء .
قال المتنبي يهجو كافورا وقد سمعت كيف كان مدحه لسيف الدولة بن
حمدان بالتماذج

أكلما اغتال عبد السوء سيده أو خانه فله في مصر تمهيد
صار الخصى إمام الأبقين بها فالحر مستعبد والعبد معبود
من علم الأسود والخصى مكرمة أقومه البيض أم آباؤه السود
أم أذنه في بد النخاس دامية أم قدره وهو بالفلسين مردود
غير أن حال الشعر عادت في العصر الرابع إلى الكساد لتغلب العجمة
على الحكام فالتفت الشعراء بمدائحهم إلى القديم ومن ذلك نشأ شعر
التصوف بالغزل في ذات الله ومدح النبي والخلفاء

٣ - الغزل - لقد ابتعد الغزل أول العهد العباسي عما كان له
في عصر بني أمية ابتعادا كثيرا لم يحدث مثله للفنين السابقين معه ،
وكان المنشأ الأول لهذا الابتعاد فتن المدنية ومفاسد الحضارة التي
تعدت الطبقة العليا إلى مادونها من سائر الطبقات فبات بذلك النسيب
العذري ولم يعد يظهر إلا على ألسنة القايل كالعباس بن الأحنف وقد
رأيت له قصيدة فيه . أما جمهرة المتغزلين فقد انساقوا وراء المتمة
والأباحة إلى حد أباح لهم ما كان غير موجود حتى في الغزل اللاهني أيام
بني أمية ، من كشف في الوصف ، وتبذل في القصة ، وفحش في الالفاظ ،
كما يقول بشار في معشوقته فاطمة

عجبت فطمة من نعتي لها هل يجيد النعت مكفوف البصر
أذرت الدمع وقالت ويلتي من ولوع الكف ركاب الخطر
أمتا بدد هذا نعتي ووشاحي حله حتى انتثر
فدعيني معه يا أمتا عاننا في خلوة نقضى الوطر
أقبلت مغضبة تضر بها واعتراها كجنون مستعر

بأبي والله ما أحسنه دمع عين يغسل الكحل قطر
 وقد حملهم الاستهتار باللذة والاستمتاع بالغم ان استمتاعهم بالنساء،
 أن يتغزلوا في المذكر كما يتغزلون في الاناث ، وتلك طادة سيئة قدرة
 كانت شائعة بين الفرس وانتقلت إلى العرب بفسدة الموالي ومن لف
 لفهم من ذوى الاباحة والمخنتين ، كأبي نراس وحماد مجرد ومطيع بن
 اياس ويحيى بن زياد وحسين بن الضحاك وأمثالهم ممن كان همهم الاجتماع
 على الشراب مع القيان والغمسان ، يشربون ويمزحون ويصفون الخمر
 ويهزلون لا يردعهم عن دناءات النفوس خلق ، ولا يزعمهم دين ، فكان
 غزلهم دعارة وعهرا ، وقوى ذلك فيهم انحطاط المستوى العام للأخلاق.
 قال أبو نواس العاهر في غلام :

يا بدعة في مثال	يجوز حد الصفات
فالوجه يدر تمام	بعين ظبي فلاة
والقد قد غلام	والغنج غنج فتاة
مذكر تحين يبدو	مؤات الخلوات
زها على بصدغ	مزرفن الحلقات ^(١)
من فوق خد أسيل	يضىء في الظلمات

وقال ابن الضحاك الخليلع في غلام يستحم

وابأبي أبيض في صفرة	كأنه تبر على فضه
جرده الحمام عن درة	تلوح فيها عكن بضة
غصن تبدى يتثنى على	مأكمة مثقلة النهضة

«١» زرفن صدغه ، جعله مستديرا كالزرفين بالضم وهو حلقة الباب

كأنما الرمش على خده ظل على تفاحة غضه
صفاته فائنة كلها فبعضه يذ كرني بعضه
وقد أنتج الانحدار في هذه الجملة القدرة ، وصف محاسن المذكر
كالعذار^(١) وشيوع هجو الناس باللوطية والأبنة، مع الاسترسال في هذه
السبيل بصراحة في الوصف والحكاية، صارت سببة للأدب العربي وقضى
في عيون قارئيه . ثم كان أن عمد المتغزلون إلى إظهار المتغزل فيه
بصورة المذكر، وإن كانت الصفات صفات إناث كما يقول أبو نواس
ياقرا أبصرت في مأمم يندب شجوا بين أتراب
يبكى فيذرى الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب
أبرزه المأمم لي كارها برغم دايات^(٢) وحجاب
لائيك ميتا حل في قبره وابك قتيلا لك بالباب

وعلى ذكر الغزل وما وقع فيه من جديد نذكر الجملة التي وجهت إلى ما كان
من ابتداء القصائد في كل الأغراض ماعدا الرثاء بما كانت تبدأ به إلى هذا
العصر من تشبيب يتناول الوقوف بالديار والأطلال والتألم لفارقة
أصحابها لها ومسير الأبل مفرقة أو محقة للقاء ، مع ما يأتي خلال ذلك كله
من محاسن المحبوبة وصفاتها على أسلوب الغزائين فنقول : إن أول من قادها
أبو نواس^(٣) فقد رفع عقيرته ينمى على الشعراء هذا التشبيب بالقديم

« ١ » من ذلك قول بعضهم

أيا قرا، من شمس طلعة وجهه وظل عذاريه، الدجى والأصائل

« ٢ » جمع داية وهي الظئر أي الموضع واستعمل في العاطفة على ولد غيرها

« ٣ » قيل إن أول من تلمه إلى ذلك مطيع بن إياس وقد اجتمع بفتى من

ويطلب إليهم في سخريه لاذعة هجره إلى ما أصبح ملاماً من جديد .

كأن يجبه من يقف على الطلول فيقول :

تبكى على طلال الماضين من أسد لادر درك قل لي من بنو أسد

لا جف دمع الذي يبكى على حجر ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

أو يشمت بتفاعيل الرياح والامطار في الرسم فيقول :

دع الرسم الذي دثرا يعانى الريح والمطرا

ألم تر ما بنى كسرى وسابور ابن غبرا

ثم يطلب أن يكون البديل صفة الخمر فيقول :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ويفعل هذا في قصائده مشركاً معه هذا التنديد تارة كطلمعه :

لا تبك رسماً بجانب السند ولا تجد بالدموع للجرد

ولا تعرج على معطلة ولا أثاف خلت ولا وتد

ومل إلى مجلس على شرف بالكرخ بين الحديق معتمد

ممد صفقت نمارقه في ظل كرم معرش خضد

ثم اصطبغ من أسيرة حجبت عن كل عين بالصون والرصد

محجوبة في مقيل حوبتها تسعين عاما محسوبة العدد

أو مكتفياً بالتنبيه تارة كطلمعه :

دع الربع ما للربع فيك نصيب وما إن سبتنى زينب وكعوب

أهل الكوفة ودار الحديث بينهما في هذا الشأن فقال مطيع

لأحسن من بيد يحاربها القطا ومن جبلى طى ووصفكما سلعا

تلاحظ عيني عاشقين كلاهما له مقلة في وجه صاحبه رعى

ولكن سبتي البابلية إنها لمثل في طول الزمان سلوب
وكثيرا ما كان يقصد إلى الخمر قصدا كان يقول :

دع عنك لومي فان اللوم إغراء ودواني بالتي كانت هي الداء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسها حجر مسته سراء^(١)
ولما حبسه الخليفة لذلك عاد إلى الأطلال ولكن بهذا الأسلوب
أعر شعرك الأطلال والمنزل القفرا

فقد طالما أزدى به نعتك الخمر
دعاني إلى نعت الطلول مسلط تضيق ذراعي أن أردله أمرا
فسمعا أمير المؤمنين وطاعة وإن كنت قد جشمتني مركبا وعرا
وقد أثرت هذه الجملة في شعراء العصر الأول أشد تأثير فاتبعه
فيها كل ذى هوى للخمر ، وابتدأ بالمقصود في القصيدة من صد عنها ، إلا
طائفة قليلة بقيت على عرف الأقدمين في الابتداء ، واستحدث الجميع
المعاني إلا طائفة أقل منها كانت تنزع أحيانا منزع البدو في المعنى المراد
كدعبل إذ يقول من قصيدة مطلعها :

بانت سايمي وأمسي حباها انقبضا وزودوك ولم يرثوا لك الوصبا
في بذل المال للثناء :

قالت سلامة ابن المال قلت لها المال ويحك لاقى الحمد فاصطحبا
هذي سبيلي وهذا فاعلمى نخلتي فارضى به أو فكونى بعض من غضبا

« ١ » نرى أن ثبت هنا البيت الثالث بعد هذين البيتين ، مثلا لما طالما

نبهنا عليه من الفحش في المعنى والابتداء في اللفظ وهو

من كف ذات حر في زى ذى ذكر لها محبات لوطى وزقاء

وقد استمرت المبادئ على هذه الأنحاء طوال العصر الثاني بعد الأول، ولما جاء الثالث بقيت عليه تقريباً في العراق وفارس وخراسان وطادت إلى القديم في الجزيرة والشام ومصر مع نزوع القول في جميعها إلى هذا المئزج الجديد. ولما حل العصر الرابع نشأ بجانب هذا الغزل المكشوف غزل عف بعث به أخوه العذري القديم لانتشار الروح الصوفية فيه كما رأيت في قصيدة ابن الخياط.

هذا - ولقد كان للشعر منذ العصر العباسي الأول جولات واسعة في فنون أخرى غير هذه الفنون الثلاثة، وجاء بعضها أول ما جاء نتيجة لها، كالغزل الذي دفعته إليه العصبية، والمجون الذي أنشأه الاستمثار، والخمريات التي شغلت المطالع أولاً واستقلت بعد بسائر القصيد، وجاء بعضها مستقلة عنها كالرثاء والزهد والصفات. فهذه ستة فنون غير الثلاثة السابقة وإليك كلمة عن كل فن منها على سبيل الإجمال

١ - الغزل - حالف الغزل العصبية منذ العهد الجاهلي إلى آخر العصر الأموي وكان يتزعم فيها جميعاً عن الحسب والنسب ولكن استمرت منازعه الحسبية العظامية غالباً على النسبية العصامية حتى العصر العباسي الأول الذي قامت فيه الشعورية على قدم وساق فانعكست الآية بسنته المعفية على كل قديم. ثم توارى الأمران تقريباً في العصر الثاني وعادا إلى الظهور كغرسى رهان في الثالث الذي حظى الغزل فيه بعدد وافر من الشعراء نذكر منهم المتنبي وأبأفراس والشريف الرضي وأبا العلاء، فقد جمعوا في مفاخرهم بين المظهرين وإن كان المتنبي دونهم حاد بعض الحيدة عن الأحساب. ثم جاء العصر الرابع فنضبت فيه الصفات

الشخصية وأصبح الفخر إما بالعظام كما رأيت في مفخرة الايبوردي
بسفيايته أو بانتحال الصفات على غير أساس كما شاهدت فيما سيأتي
لابن سناء الملك . وهذا مثل لمن لم يتقدم له نخر من تلك الشخصيات

قال المتنبى من قصيدة

ما مقامى بأرض نخلة^(١) إلا كقمام المسيح بين اليهود
مفرشى صهوة الحصان ولكن م قيصى مسرودة من حديد .
أنا رب الندى ورب التوفى وسمام العدا وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها الله م غريب كصالح فى ثمود

وقال الرضى من قصيدة

أنا من عادت قديمه وحديثه علم اليقين وإن جهلت فسائل
قوى الملوك وخيم نفسى خيمها أفلج بمثل أو أخرى وأوائلى^(٢)
نحن الولاة العادلون ولم نزل آثارنا حلى الزمان العاطل
وإذا الخصوم تجادلوا فى مجدم ظهرت دلالة مجدنا فى كامل

وقال أبو العلاء من قصيدة

وكم من طالب أمدى سيلقى دوين مكافى السبع الشدادا
يؤجج فى شعاع الشمس نارا ويقدح فى تلهبها زنادا
ويطعن فى علاى وإن شسى ليأنف أن يكون له نجادا
فلا وأبيك لا أخشى انتقاصا ولا وأبيك لا أرجو ازديادا

٢ - المجون - كان منشأ المجون وهو من مستحدثات العصر
باسى كما قلنا؛ الاستهتار الذى استهان بالدين فكانت الزندقة والأشهاد،

(١) موضع بجنوب الشام (٢) أسبق بهم وأظفر

واشتهر بالأخلاق فكانت الرذيلة والفساد، ثم استهزأ بالعرف فكان
الفحش في المعاني والبذاء في الألفاظ. وشياطينه الأثمل وغارسو
بذوره هم تلك الطائفة التي ذكرنا في الخروج على القديم

وقد ساعد على انتشار هذه السموم ما غزا البيئات العربية من الآراء الفلسفية
المختلفة، والاباحية الداعية إلى مشاركة الانسان لأخيه الانسان في كل
شيء، ثم عبادة المادة وعدم المبالاة بزواج الأديان، ذكروا أن مطيع
بن إياس مر ببيحي بن زياد وحماد بن إسحق وهما يتجادلان فقال لهما فيم
أنتما قالوا في قذف المحصنات فقال «أو في الأرض محصنة تقذفانها»
كما ساعد عليها أيضا ما كان يعقد بعض الأمراء والوزراء من مجالس
الشراب والمنادمة التي يحضرها أمثال هؤلاء فيعمرونها بالتهتك والخلاعة
ويحاكونها في صورة أشنع منها بمنازل بعضهم. كما كانوا يفعلون في منزل
إسماعيل القراطيسي بالكوفة. ولقد جرت صحبة هؤلاء إلى إفساد كثير
من أبناء الخلفاء، فالأفاني يذكر أن جعفر بن المنصور أفسده مطيع بن
إياس، ومحمدا الأمين أفسده أبو نواس وحسين بن الضحاك. ولم يلبث
اضطراب الحركة الفكرية وتزاحمها في أذهان الناس بما نقل واستنبط
من حقائق فلسفية مختلفة في الدين والرياضة والفلك والطب ومسائر
العلوم، أن فصل ذوى المجانة في الدين عن مجان الفضيلة والعرف، فكان
من الأوائل طائفة الزنادقة الملاحدين الذين كان دأبهم التشكيك في
حقائق الدين بشكل جدي لا مجانة فيه كصالح بن عبد القدوس وأبان
ابن عبد الحميد وعمارة بن حمزة وغيرهم، وكان من الآخرين مجان الهزل
الذين دأبهم التضحيك كمن ذكرنا مع أبي نواس. ومن أمثلة مجونهم

بسم الله الرحمن الرحيم

قول دعبل عن ديك له أخذه صالح ~~البحري~~ لضيوفه .

أمر المؤذن صالح وضيوفه أمر الكبي هنا خلال الماوط^(١)

بعثوا عايبه بناتهم وبنينهم ما بين ناتفة وآخر سامط

يتنازعون كأنهم قد أوثقوا خاقان أو هزموا كتائب ناعط^(٢)

نهشوه فانتزعت له أسنانهم وتهشمت أقفاؤهم بالحائط

وقد كان لهذا النوع من المجون شأن كبير في العصر العباسي الثالث

ومن مشهورى رجاله بالعراق أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد بن

سكرة الهاشمي وأبو عبد الله الحسن بن أحمد بن حجاج ، ومنهم بالشام

أبو الرقعمق أحمد بن محمد الأنطاكي . فن مجون ابن سكرة قوله في

جارية بخراء تدعى خمرة جعلها محطا . لكثير من مجونه

هل لك يا خمرة في تجرة مربحة ما مثل — ما تجره

سيرى إلى البصرة واسترزق ربك بالنكبة في البصره

يزكوبها النخل وتحمّر في غير أوان الحمره البصره

ومن مجون ابن حجاج قوله لرجل دعاه إلى عرس ثم أخلف

أين نصيبي من الطعام وما طمعت في لعقة من الرقه

أشفقت منى وكان يقنعنى عندك ما ليس يوجب الشفقه

قطعة لحم في وزن خردلة على رغييف كأنه ورقه

ومن مجون أبي الرقعمق قوله عن قيادته من قصيدة .

فأطيب العيش كان عندي أيام للفسق قلدوني

«١» بالتسهيل ، مكان الصراع ومنعول أمر ~~البحري~~ «٢» خاقان لقب

ملك الترك ، وناعط هو ربيعة بن مرثد الهمداني صاحب مخالف باسمه

وكننت طبا به بصيرا وأقود الناس في سكون
فـيكم غزال أخذت قسرا وكم مليح حوت يميني
والناس يسعون نحو داري من كل أرض ويقصدوني

٣ - الخمريات - قلنا إن الخمريات شغلت مطالع القصائد أولا مكان
التشبيبات القديمة، ثم استقلت بعد بسائر القصيدة، ولذلك تعد من
الفنون الجديدة في العصر العباسي. نعم إن الخمر نالها في عهد بني أمية
شيء من أيام يزيد بن معاوية، وأشياء على أيام الوليد بن يزيد، ولكن ذلك
لم يصل بها إلى أن تكون فنا من فنون الشعر مستقلا حتى جاء أبو
الهندي عبد المؤمن بن عبد القدوس الرياحي، وكان شاعرا مطبوعا من
مخضرمي الدولتين، فأشاد بذكرها لأدمانه العاقرة وشغفه بالشراب
مع ما كان يرمى به فن الفسق وفساد الدين حتى كاد شعره يكون كله
فيها وكان في تلك الاشارة كثير الحض عليها كقوله

قل للسرى أبي قيس أتهدرنا ودارنا أصبحت من داركم صددا
أبا الوليد أما والله لو عملت فيك الشمول لما فارقتها أبدا
ولانسيت حمياها ولذتها ولا عدلت بها مالا ولا ولدا

ثم جاء أبو نواس فلم يعدل بوصفها شيئا من الفنون، حتى بلغ ما قاله
فيها من القصائد والمقطعات والمطالع بضعة آلاف من الأبيات ولذا عد
إمام واصفها بالأجماع، واقتدى به في ذلك عدد ممن عاصروه وإن لم
يساووه. وكذلك كانت الخمريات في العصر الثاني ثم استفحل أمرها
في الثالث على عهد آل بويه الذين كان أغلب شعرهم فيها حتى لم تبق
زيادة لاستزيد. وعلى هذا الطغيان كانت في العصر الأخير. وقد رأيت

من ذلك نماذج لأبي نواس ولا بن المعتز وقبلها مثلها لمعز الدولة وأبي العباس بن ركن الدولة ، فلم يبق إلا نموذج نأى به من العصر الرابع نغذه للطغرائى يصفها في شيبه ويجعلها بديلة الشيباب

قد كان لى فى شيببى مرح يحدث لى بفتة بلا سبب
فند تولى الصبا تبين لى أن الصبا كان موجب الطرب
حظ تولى فلست أدركه إلا بعون من ابنة العنب
فهاها من شيببى بدلا أقضى بها بعض ذلك الأرب
صفراء مثل النضار ألبسها مزاجها لؤلؤا من الحبيب
فأسعد الناس من حوت يده ماشاء من لؤلؤ ومن ذهب

٤ - الرثاء - ليس الرثاء محتاجا بعصر ما فى وجوده إلى تعليل ، مادامت رحي المنايا دائرات وما دام الدهر نقادا يستتاب النفيس ويفجع بالعزير . وكل ما يزيد أن نأيه عليه الآن ، أن الرثاء فى رقيه وأنحطاطه كان سائرا وراء المديح ، وأنه لذلك بلغ فى العهد العباسى من جودة المعانى وحسن التعبير ، ما لم يصل إليه فى سابق أو لاحق من العصور ، وقد رأيت من مرأى العصر الأول قصيدة أبى تمام فى ابن حميدوهى مضرب الامثال فى عظمة المعانى وقوة الأداء ، ورأيت فى الثانى مقطعة ابن الزيات فى رثاء أم ابنه عمر ، وهى فيض من العاطفة الباكية والشعور المحزون ، ثم رأيت فى الثالث - وهو أرقى العصور رثاء لأنه أرقاها مدحا - رثاء الرفاء لصديقه المصلوب ، وهو نوع من الرثاء جديد ، ورثاء الرضى للصباى ، ولعله أروع رثاء ، يتبين فيه صدق الأخاء . وإليك فى الرابع نموذج لابن

سنان الخفاجى فى والدته، وكان الرثاء متطامنا فيه تطامن المديح قال :
قبحا ليومك فالنوائب بعده جنل وكل رزية لا تفجع
لو كان ينفعني السلو نبذته أسفا عليك فكيف إذ لا ينفع
هيمات يجمع شمل صبر نافر قلب بأيدي الحادثات مروع
أحنو الضلوع على بواعث غلة ضمن ادكارك أنها لا تنقع
عجبا لمن يبقى ذخائر ماله ويظل يحفظهن وهو مضيع
لا يغبطن على البقاء مرزاً إن المودع إلفه لمودع
٥ - الزهد - من النواميس المقررة فى حياة الجماعات، أن نزوع

طائفة ما إلى ناحية ذات غلو وإفراط، يقتضى نشوء أخرى مضادة لها
فى الاتجاه، ولذلك لما كان الوازع الدينى على عهد الراشدين وبنى أمية
قويا يكاد يشترك فى الخضوع له الناس جميعا دون استهتار أحد بالخروج
عليه فى تبجح وتظاهر، لم تك ترى الزهد والغلو فى الدين باديا للعيان .
أما حين غزت الأباية الشعب العربى على عهد بني العباس للأسباب
الكثيرة التى ذكرناها فيما قدمنا، ونشأت من غزوها طائفة المستهترين،
فلم يك مفر أن توجد طائفة تقاوم تلك، همها التزهيد فى هذه الحياة
بتجسيم مقابحها وتكذيب زخارفها. وعدم الاغترار بما فيها من متاع إن
هو لإحطام، بقدر ترغيبها فى الآخرة وما فيها من لذة وخلود. نعم جدت
هذه الطائفة، وعلى أنها كانت إزاء تلك قليلة العدد محدودة الاشخاص،
أمكنها بقوة الدين ومدده القويم، أن تنتج من المواعظ ونواحي الارشاد
مأثار السبل على أيامهم، وبقي بعدهم هدى للناس . ثم كان أشخاصها ذوى
مكانة فى نفوس الخلفاء وسائر الحكام، إن لم يكن لدى بعضهم عن

عقيدة وإخلاص، فلا أقل أن يكون استرضاء للعامة بتقريب هؤلاء
الوعاظ، وقد كان إمامهم في العصر العباسي الأول أبو العتاهية الذي
سلف من قصصه ووعظه ما فيه الغناء ولقد تفرع عن هذا الوعظ
بالتزهيد، نوع آخر من الحكمة، هو تأديب النفس بضرب الامثال وقص
الحكايات، وأول من فعل ذلك أبان بنظمة كريمة ودمنة، وتبعه من
ذكرنا آنفا حيث الكلام على هذا الكتاب. ثم اتصل الزهاد والمؤدبون
فلم تخل الأرض من حجيج منهم لله على نوال العصور. على أن التأديب
بالتزهيد لم يعدم أن يصدر على لسان كثير من المستمتمين فيكون حجة
عليهم وتقوية للزاهدين. وهذا أبو نواس يقول:

أخي ما بال قلبك ليس ينقى كأنك لا تظن الموت حقا
ألا يابن الذين فنوا وبادوا أما والله ما بادوا لتبقى
ومالك فاعلمن فيها مقام إذا استكملت آجالا ورزقا
ومالك غير ما قدمت زاد إذا جعلت إلى اللهوات ترقى
وما أحد بزادك منك أحظى وما أحد بزادك منك أشقى

٦ - الصفات - وعلى قدم الوصف في الشعر العربي منذ العهد الجاهلي
لم يبلغ فيه ولا في العصرين بعده شيئا مما بلغ في عصر بني العباس. ذلك
بأن منابعه الحسية من مظاهر طبيعته وآثار حضارة، والمعنوية من
مشاعر نفوس ومدركات عقول، كانت محدودة في الأول واقفة عند
حدود قريبة في الآخرين. أما في العصر العباسي وقد تجلت فيه
مظاهر الطبيعة وآثار الحضارة، وخطت فيه الوجدانات والعقول
خطوات لم تك في حساب، فقد أصبح الشاعر إذا غار في أحماق الفكر

لا ينتهى بقرار، واذا طار مع الخيال لا يصل إلى سماء، ولذلك بلغوا في
الناحيتين مبلغا يدهش عقل من لا يحيط بنواحي هذا الانقلاب الشمول.
وليس يالو ما ذكرنا من نماذج، وما استشهدنا به في معظم ماضى
وبخاصة في ناحية المعانى والأخيلة أن يكون دلائل ناطقة، وآيات بيّنة
على صدق ما نقول، فارجم إليه وإنه لقريب. ويكفى أن الوصف قد
خاق بعض نواح منذ العصر الأول وأنضجها فيه حتى صارت فنا
مستقلا كما تقدم في الخمریات. ولم يقف دون السير في هذا العصر نفسه
بفن آخر جديد هو وصف الرياض وما تحوى من آيات جمال كما
رأيت في بعض ما اخترنا، ثم ماكد الزمن يخطو إلى العصر الثانى حتى
استوى هذا الفن على سوقه يعجب الزراع، وصدر نيه على السنة كثير
من الشعراء ما يبهر الناظرين، وإليك بعض ما قيل

قال ابن المعتز يصف إقبال الربيع	ض وشكر الرياض للأمطار
مأرى ^(١) نعمة السماء على الأرب	وانفتاق الأشجار بالأنوار
وغناء الطيور كل صباح	وكأنا من قطره فى نثار
وقال على بن الجهم يصف الورد	حسن الرياض وصوت الطائر الغرد
لم يضحك الورد إلا حين أعجبه	وراحت الراح فى أثوابها الجدد
بدا فأبدت لنا الدنيا محاسنها	إلى الترائب ^(٢) والأحشاء والكبد
وقابلته يد المشتاق تسنده	أو مانعا جفن عينيه من السهد
كأن فيه شفاء من صبايته	

(١) ما هنا مخفف أما (٢) عظام الصدر.

بين النديمين والخلين مصرعه وسيره من يد موصولة بيد
ماقابلت طلعة الريحان طلعتة إلا تبينت فيه ذلة الحسد
قامت بحجته ربح معطرة تشفى القلوب من الأوصاب والكد
لا عذب الله إلا من يعذبه بسمع بارد أو صاحب نكد

وقال ابن الرومي - وكان مولعا بالخلاف - يفضل النرجس على الورد

خجلت حدود الورد من تفضيله خجلا توردها عليه شاهد
لم يخجل الورد المورد لونه إلا وناحله الفضيلة^(١) حاند
للنرجس الفضل المبين إذا بدا بين الرياض طريفه والتالد
فصل القضية أن هذا قائد زهر الربيع وأن هذا طارد
شتان بين اثنين هذا موعد بتصرم الدنيا وهذا واعد
فاذا احتفظت به فأمتع صاحب بحياته لو أن حيا خالد
ينهى النديم عن القبيح باحظه وعلى اللدامة والسماع مساعد
اطلب بعقلك في الملاح سميده أبدا فانك لا محالة واجد
والورد إن فتشت فرد في اسمه ما في الملاح له سمي واحد^(٢)
هذي النجوم هي التي ربتها بحيا السحاب كما يربي الوالد
فانظر إلى الولدين من أدناها شبيها بوالده فذاك للماجد
أين الحدود من العيون نفاسة ورياسة لولا القياس الفاسد

وحيث أقبل العصر الثالث صارت الزهريات من أوسع فنون
الشعر ، فلم تبق زهرة ولا ريحانة ولا أي شيء مما تنبت الرياض على
اتساع الرياض إلا أشبعه شعراؤه نعتا ووصفا . استمع إلى القاضي

(١) ناسبها إليه (٢) يظهر أن التسمية كانت شائعة بينهم دون ورد

على بن محمد التنوخي يقول :

ورياض حاكت لهن الثريا حللا كان غزلها للرعود
نثر الغيث در دمع عليها فتحلت بمثل در العقود
أقحوان معانق لشقيق كسغور تعض ورد الحدود
وعيون من نرجس تترأى كعيون موصولة التسهيد
وكان الشقيق حين تبنى ظلمة الصدغ في حدود الغيد
وكان الندى عايبها دموع في عيون مفجوعة بفقيد
وعلى هذا الافتنان بقيت الزهريات في العصر الرابع، قال الأثرجاني
يصف روضة في مطلع قصيدة غزلية

ماروضة أضحكك صبحا مباسمها دموع قطر عايبها الليل ينسفك
فالنرجس الغض عين كلها نظر والأقحوانة ثغر كله ضحك
وللشقائق زى وسطها عجب إذا تمايان والأرواح تأتفك^(١)
حمر الثياب تطير الريح شائلة أذيالها وهي بالأزوار تمتسك
إذا الصبا نبهت أحداقها سحرا حسبت مسكا على الآفاق ينفرك
أثم طيبا وحليا من ترائبها^(٢) إذا اعتنقنا وخيل الليل تعترك

ولم يترك الوصف شيئا بعد هذين الفنين من سائر فنونه إلا
أجاد فيه كما ترشد إلى ذلك بعض النماذج والمستشهد به من الأبيات،
ومن العسير أن نتعرض للاستقصاء فان الباب طويل .

١٠ - وأخيرا هذا فن طاهر لا يصح إغفال التنبيه عليه هنا وهو
ضبط قواعد العلوم والفنون على اختلاف أنواعها بالمزدوجات وغير

(١) تتناوح في تصرفها (٢) أتم خبر ما النافية المفتوح بها الشعر

المزدوجات، نعم إن هذا الفن قد ابتدل الشعر وحط من قدره لأنه أخرجته في معناه من أودية الخيال ومشاعر الوجدان، وبعد به في لفظه عن أناقة التعبير ورشاقة الأسلوب، ولكن ذلك ليس بمخرجه عن أنه من فنون الشعر على أية حال، وإذ قد فاتنا التمثيل له فيما مضى فلنأت منه في كل من العصرين الثالث والرابع بمثال لكثيرته فيهما نظراً لنقدم العلوم.

قال ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ في الحد من منظومة له في المنطق
إذا أردت أن تحد حداً فرتب الجنس القريب جداً
فانه يحصر كل ذاتي يكون للمحدود في الصفات
ثم اطلب الفصول فهي الحاده من صورة أخذتها أو ماده
وقال الحريري في أدوات الشرط من ملحمة الاعراب

هذا وإن في الشرط والجزاء تجزم فعلين بلا امتراء
وأختها أي ومن ومهما وحيثما أيضاً وما وإذما
وأين منهن وأنى ومتى فاحفظ جميع الأدوات يافتى
٢ - ناحية المعاني والأخيلة

لقد كان نضج العقول واتساع الأفكار بما حدث في العهد العباسي من تدوين العلوم وترجمتها، طاملاً مهما على تفسيح ميادين المعاني وتفجير ينابيعها، وكان وضع القصة المعتمدة على الفرض والتخيل، ومظهر الحضارة المصحوبة بحاسن الطبيعة وجمالها، منمياً للملكة التصور ومكثراً لأنواع الأخيلة. كما كانت الملاحاة الدائبة بين الجماعات من جنسية ومذهبية، والخصومة القائمة بين الزهاد والمستمتعين من أقوى البواعث

على نشر المباحثة والمناظرة ، وخلق القدرة على الجدل والسفسطة في النفوس ، فلم يعد الناس يتقبلون القضايا مجردة من الحججة والدليل . وكل هذا عاد على المعاني والاختيالة بتقدم واضح وورق كبير أجملنا مظاهره حيث الكلام على ما كان لحياة اللغة في ذلك من نصيب . وهانحن أولاء مفصلوه في الشعر تفصيلا يعتمد أول ما يعتمد في التمثيل له على ما أسلفنا من نماذج .

١ - استنباط الدقيق والجديد من المعاني - جال الشعراء في هذا الميدان جولات بعيدة المدى ، ظهر أثرها متشعب النواحي في كل ما طالجوا من فنون الشعر ، حتى لقد تزاحم الكثير منها في القصيدة الواحدة تراحما كان غير معروف ، كما فعل ابن الرومي في قصيدته السابقة التي تصدى فيها لهجاء إبراهيم بن المدبر ، حيث جعل ثناء رواده عليه شركا ليستميحه غيرهم فيخيب خيبتهم ، وحيث جعل نكوص هجائه عنه لنجاسة لؤمه لا لأنه جنة ، وحيث جعل هذا الهجاء لباسا يضي روحه ويشقيها انتقاما للأبراد التي طالما أشقاها جسده ، وهكذا من سائر المعاني الدقيقة التي عالجها . وكما فعل الرفاء في رثائه صديقه الفتي المصلوب من بني شيبان ، إذ تصوره بدرا مفقودا مع أنه غير آفل ، وإذ سوى بين ثنى عطفه في غلالة الصلب وسابغة الحرب ، وإذ جعله معرى كالسيف منتضى ، وإذ اعتقد أن القدر أحله الهواء ضنا به عن ضنك الثرى ، إلى آخر ما عالج^(١) وكما فعل الصابي في قصيدته التي يعزى بها نفسه وهو

(١) معظم ما وقع من معان في المصلوبين جاء جديدا ، لأن التمثيل بقتلاه يكن شائعا ، ومن أسير القصائد فيه قصيدة أبي الحسن الانباري في أبي

في السجن، من تفضيل من سجنه عزه على من أطلقه ذله ، ومن جعله
هذه النائبة أثرا لنازلته الدهر ، وتلك اليد ضده والسعاية به أثرا لمد يده
إلى النجم وسعيه نحو النجد ، إلى آخر ما تناول وهو كثير . ولغير هؤلاء
فيما تقدم من نماذج تناول دقيق للمعاني وإن لم يك في القصيدة بالكثير
كالذي رد به التهامي تهمة حبيبته إياه أنه نسيها بجديد ، من أنها أخذت
حواسه وعقله ، فكيف يعشق لو أراد ، وكالذي ألم به مهبّار في تهنته
ابن علي المغربي بالنيروز وهو يهنته بالوزارة ، وكالذي طالجه الغزي في
مدحه البيهقي من خلطه مدحه ببيان أنه يكره مدح الناس ، في شبه تخونيف
بما قد يحمله عليه المطل من هجاء ، ثم كالذي قاله الأرجاني في هجو أهل
زمنه وسوء حالهم من عدم إعطائهم إذا مدحوا وحنقهم إذا لم يمدحوا .

طاهر محمد بن بقية وزير عز الدولة بين بويه ، حين قبض عليه عضد الدولة إذ
انتصر على ابن عمه المذكور وقتله وصلبه .

علو في الحياة وفي الممات . لحق تلك إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا وفود نذاك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيبا وكلهم قيام للصلاه
مددت يديك نحوهم احتفاء كدهما إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضم علاك من بعد الوفاة
أصاروا الجوقبرك واستعاضوا عن الأكتاف ثوب السافيات

ومن جيده أيضا قول عمارة اليميني في حاص قتل وصلب

ومد على صليب الصلب منه يمينا لا تطول إلى شمال
ونكس رأسه لعتاب قلب دماه إلى الغواية والضلال

وهذه طائفة ثانية من الممانى الدقيقة التى تظهر عليها الجدة مع دقتها .

قال بشار ينسب العشق إلى الأذن كالعين

ياقوم أذنى لبعض الحى عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

وقال فى إهلاك ما به بعدوى كفه من كف ممدوحه

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدى

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعدان فأنلفت ما عندى

وقال أبو نواس يشبه نفسه وقد حرم عليه الخليفة الشراب - فكان يمدح

الخمر ولا يشربها - بقعدى الخوارج يحرض على الخروج ولا يحمل السلاح

فكأنى بما أزين منها قعدى يزين التحك - بما

كل عن حملة السلاح إلى الحر ب فأوصى المطيق ألا يقما

وقريب من هذا قول الغزى بعد

أنا فى الحملة الغداة كأنى علوى فى قبضة الحجاج

وقال إسحق بن ابرهيم الموصلى فى فلسفة الهجر

أخاف عليها العين من طول وصلها فأهجرها الشهرين خوفا من الهجر

وما كان هجرانى لها عن ملالة ولا كنتى أملت عاقبة الصبر

أفكر فى قلبى بأى عقوبة أعاقبه فيها لترضى فما أدرى

سوى هجرها والهجر فيه دماره فعاقبته فيها من الهجر بالهجر

فكنت كمن خاف الندى أن يبله فعاذ من الميزاب والقطر بالبحر

وقال ابن المعتز جاء علا تحكم الضيف بربعه أنفذ من تحكم آباءه على الأمام

بحكم الضيوف بهذا الربع أنفذ من حكم الخلائف أبائى على الأمام

فكل ما فيه مبدول لطارقه ولا زمام له إلا على الحرم

وقال أبو فراس في أثر سنان أصاب خده فعز ذلك على حبيبه

لما رأته أثر السنان بخده ظلت تفاعله بوجهه عابس

خلف السنان به مواقع لثها بثس الخلافة للمحب البائس

حسن الثناء بقبح ما صنع القنا يوم الطعان بصحن خد الفارس

وقال ابن الرومي يحال لنفسه عدم تفاضيه عن خطأ صديقه

يا أبا القاسم الذي كنت أرجو له دهرى قطعت من الرجاء

أنت عيني وليس من حق عيني غص أجفانها على الأقداء

وقال في الحبيبة تقتل بنظرها وإعراضها

نظرت فأقصدت الفؤاد بلحظها ثم انثنت عنه فظل يهيم

فالموت إن نظرت وإن هي أعرضت وقع السهام ونزع من أليم

وقال أبو تمام يجعل نعمة الطالب تعويذة لعطايا الممدوح كيلا تجن

تكد عطاياه يجن جنونها إذا لم يعوذها بنعمة طالب

وقال يذكر فضل الحاسد على المحسود

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وقال يذكر فضل قبور بني مالك على الثرى

بني مالك قد نبهت خامل الثرى قبور لسكم مستشرفات المعالم

غوامض قيد الكف من متناول وفيها علا لا يرتقى بالسلام

وقال يجعل المجد شفيعه في عدم التقاضى

وإذا المجد كان عوني على المرء تقاضيته بترك التقاضى

وقال المتنبى يذكر أنه رأى الماضين من فلاسفة وملوك في ابن العميد
من مبلغ الأعراب أنى بعدها جالست رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس راوى كتبه متمسكا متبديا متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما رد الاله نفوسهم والأعصرا
نسقوا كما نسق الحساب مقدهما وأتى فذلك^(١) إذ أتى متأخرا
إلى غير ذلك مما لا يتناوله إحصاء

هذا - ولقد كانت رغبة المحدثين في تدقيق المعانى حاملة لهم على
استخراج المكنون وتجلية المستور، فجاءت لذلك لابسة ثوب الجدة
والابتكار، ولعلمهم لهذا كانوا إذا ألموا بتقديم جعلوا لأنفسهم فيه ميزة
أويدا بجديد، وهذه ناحية حافلة بالأمثال المشرفة لكثير منهم في كثير
من أبواب الأدب ولا سيما باب السرقات . وقد ذكر منها طائفة صالحة
أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين؛ وهذا بعض ما جاء فيه وفي
غيره كالعمدة لابن رشيق

قال أبو نواس، وله في هذا الباب باع طويل

وإذا المطى بنا بلغن مجدا فظهورهن على الرجال حرام
فكان أوثق وأسخى وأرق من الفردق حيث يقول
متى تأتي الرصافة تستريحى من الأتساع والدبر الدوامى
وقال في محاسن حبيب بك

يبكى فيذرى الدر من نرجس ويلطمم الورد بعناب
فكان فاضلا الأسود بن يعفر بالزيادة والرقعة إذ يقول

(١) يريد أنى فى النهاية جامعاً لما سبقه من فذلك حسابه إذا أنها بقوله فذلك جملة .

يسمى بها ذو توأمين كأنما قنأت أنامله من الفرصاد^(١)
كما كان معبد الطريق لأن يزيد عليه غيره كلوا أواء الدمشقي في قوله .
وأمرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا وعضت على العناب بالبرد
وقال في دقة أخذ

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد
فكان بيته أعنم معني وأشد مبالغة من بيت جرير
إذا غضبت عليك بنو تميم رأيت الناس كلهم غضابا
ومثل هذا في دقة الأخذ قول أبي تمام
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر إن فاته النصر
فانه جعل الموت في الحرب انتصارا ، كما جعل ابن الوردي اجتهاده عذرا
في قوله

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذرا أو ينال رغبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح
وقال في تمنى الطير غزوة ممدوحه لتأكل من لحم قتلاه

تمنى الطير غزوته ثقة باللحم من جزره
فكان له فضل الأيجاز مع الأيضاح على النابغة حيث يقول .
إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدى بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله اذا ماالتقى الجيشان أول غالب
وقال في ذلك مسلم

(١) الضمير راجع إلى دور المناذرة بعد خلوها منهم وتهدمها ، وقنأت

اشتدت حمرتها ، والفرصاد التوت الأحمر أو صبغ أحمر

قد عود الطير طادات وثقن بها فمن يتبعنه في كل مرتحل
وقال فيه أبو تمام
وقد ظلت أعناق أعلامه ضحى بعقبان طير في الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقاقل
ثم جاء المتنبي ففضل الجميع بما زاد فيه اذ يقول
يفدى أتم الطير عمرا سلاحه نسور الملا أحداثها والقشاعم
وماضرها خلق بغير مخالب وقد خلقت أسيافه والقوائم
وقال أبو تمام في إعراض ممدوحه عن الدنيا للسهود
يصد عن الدنيا اذا عن سهود ولو برزت في زى عذراء ناهد
فكان قوله بزيادته أقوى من قول المعذل بن غيلان .
ولست بنظار إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء في جانب الفقر
وقال منصور النيرى
فلو كنت كالعنقاء أو كسموها خلقتك إلا أن تصد ترانى
ففضل النابغة حيث يقول
فانك كالليل الذى هو مدركى وإن خلعت أن المنتأى عنك واسع
وهذا معنى أكثر فيه المحدثون غير منصور فأجادوا؛ قال سلم الخاسر .
ولو ملكت عنان الريح أصرها فى كل ناحية مافاتك الطلب
وقال البحتري .
ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن ينجيهم من خوف بأسك مهرب
وقال على بن جبلة .
وما لأمريء حاولته منك مهرب ولو رفعته فى السماء المطالع

بلى هارب لا يهتدى لمكانه ظلام ولا ضوء من الصبح ساطع
على أنا لا نغبط المتقدمين حقهم في أن لهم من المعاني ما لم يزد فيه
المتأخرون قلوا أم كثروا كقول جرير

ولا يمنعك من أرب لحام مواء ذو العمامة والخمار

فقد أخذه المتنبي دون زيادة إذ يقول

ومن في كفه منهم قناة كمن في كفه منهم خضاب

وكقول عمر بن أبي ربيعة .

لقد دب الهوى لك في فؤادي ديب دم الحياة إلى العروق

فقد أخذه مسلم كما هو في قوله

تجري محبتها في قلب عاشفها جرى السلامة في أعضاء منتكس

وأخذه أبو نواس كذلك ولكن نقله إلى الخمر بقوله .

فتمشت في مفاصلهم كتمشى البرء في السقم

٢ - الا كثار من ضرب المثل وحسن التعليل - كن من أهم الدواعي

إلى طلب الأمثال حاجة العقلية الجديدة إلى شفع القضايا بما يوضح

معناها ويؤيد دعواها ، وقد ساعد القائلين على ضربها ما انتشر في

البيئات الجديدة منذ الصدر الأول من ترجمة الأفاضل في الحكيم

والامثال، ووضع قواعد العلم في مختلف الفنون، ولذلك نعد منها ما سبق

آنفا في استخدام مصطلحات العلوم . وأنت اذا رجعت إلى ما أسلفنا

من نماذج المهيت ذلك كثير الانبيثات في ثناياها لابن الرومي والمتنبي وأبي

فراس والصابي والخفاجي والأرجاني وابن عنين ، فارجع إلى ما اختير

لهم تجدها بارزة فيه . وهذه طائفة ثانية .

قال أبو العتاهية

يارب ذى نشب تكنفه حب الحياة وغره نشبه
قد صار مما كان يملكه صفرا وصار لغيره سلبه
ياصاحب الدنيا المحب لها أنت الذى لا ينقضى تعبه
إن استهانتها بمن صرعت لبقدر ما تسمو به رتبه
وإن استوت للنمل أجنحة حتى يطير فقد دنا عطبه

وقال أبو تمام

وطول مقام المرء فى الحى مخاق لديباجتيه فاغترب تتجدد
فانى رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

وقال

إن ريب الزمان يحسن أن يهـ لى الرزايا إلى ذوى الأحساب
فلهذا يجف بعد اهتزاز قبل روض الوهاد روض الروابي

وقال

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسبيل حرب للمكان العالى

وقال

يأيتها الملك النائى برؤيته وجوده لمراعى جوده كئيب
ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا إن السماء ترجى حين تحتجب

وقال البحتري

دنوت تواضعا وعلوت مجدا فشأنك انحدار وارتفاع
كذاك الشمس تبعد أن تسمى ويدنو الضوء منها والشعاع

وقال

دان على أيدي العفاة وشاسع
كالبدر أفرط في العلو وضوءه
عن كل ندى في الندى وضريب
للعصبة السارين جد قريب

وقال

وقدزادها إفراط حسن جوارها
وحسن دراري الكواكب أن ترى
خلائق أصفار من الحسن خيب
طوالع في داج من الليل غيب
وقال ابن الرومي

وما الحسب الموروث لادر دره
إذا العود لم يثمر وإن كان شعبة
بمحتسب إلا بآخر مكتسب
من المتمررات اعتده الناس في الخطب

وقال

لما تؤذن الدنيا به من صروفها
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه
يكون بكاء الطفل ساعة يولد
بما سوف يلتقي من أذاها يهدد
لأحسن مما كان فيه وأرغد
والا فما يبكيه منها وإنها
وقال المتنبي

وشبه الشيء منجذب إليه
ولو لم يعمل إلا ذو محل
وأشبهنا بدنيانا الطعام
تعالى الجيش وانحط القتام

وقال قابوس بن شمشير

يأذا الذي بصروف الدهر غيرنا
أما ترى البحر تطفو فوقه جيف
هل عاند الدهر إلا من له خطر
وتستقر بأقصى قعره الدرر
وفي السماء نجوم لا عدد لها
وقال ابن المعتز

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم
من شدة الفتك نالها الوصب

حمرتها من دماء من قتلت والدم في النصل شاهد عجب

وقال ابن نباتة السعدي من وصف فارس أغر محجل

وأدم يستمد الليل منه وتطلع بين عينيه الثريا

سرى خلف الصباح يطير زهوا ويطوى خلفه الأفلاك طيا

فما خاف وشك الفوت منه تشبث بالقوائم والمحيا

وقال ابن قلاقس الاسكندري

مضى معهم قلبي قاله دره لقد سرنى إذ مر مع من يسره

وأطول من هجر الحبيب وصبوتي ويوم النوى ليلى وهمى وشعره

وليس دما مماء الجفون وإنما فؤادى بماء الدمع قد ذاب جره

وقال ابن شبيل البغدادي

يفني البخيل بجمع المال مدته وللحوادث والأيام ما يدع

كدودة القز تبنيه ويهدمها وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

٣ — استخدام البراهين العقلية والآراء الفلسفية — لم تكن شاعرية

الشاعر قبل العصر العباسي تعتمد منه على ثقافة علمية، ولذلك بقي شعره

فطريا ليس فيه أثر من تثقيف وتعليم . أما في العصر العباسي فقد انحرف

الشعراء في زمرة العلماء، وأصبح منهم في كل ناحية أعلام، وتأثر شعرهم

من هذه الناحية تأثرا شديدا، فكان ميدانا لأفكارهم العلمية ومجالا

لآرائهم الفلسفية، وظهر فيه العقل المثقف بمظهر الغلبة على العقل

الفطري، وكان المجتمع الجديد بما فيه من حوار ونقاش في الدين وغير

الدين منميا لهذه الظاهرة دافعا لها إلى الامام . ولعل أول خطوة في سلوك

هذه السبيل كانت القدرة على صوغ الحكمة بعد ضرب المثل وإحسان

التعليل على السنة كثير من شعراء العصر الاول كبشار وأبي العتاهية،
وبعدها كان اقتباس بعض المعاني الفلسفية لشيوع العلوم القديمة بين
المسلمين بعد ترجمتها منذ عهد المنصور إلى عهد المأمون . وقد ظهر هذا
الاقتباس على السنة بعض شعراء العصر الثاني كابن الرومي

ولما جاء العصر الثالث وفاضت فيه العلوم الفلسفية فيضا، اغترف
الشعراء منها اغترافا ظهر غزيرا على لسان أول شعرائه المتنبى ، ثم زاد
غزارة وعمقا بعقلية فيلسوفه وآخر شعرائه المعري . ولكن بعد هذا
المعنى في العصر الرابع على الشعراء فعجزوا عن الامتياح ، ومن حاول
منهم السقيا على طول الرشاء أبعد التفكير ووقع في الخفاء .

وهذى بعض أمثلة لمن ذكرنا من الشعراء

قال بشار في الحكيم القريبة من وحي الفطرة

إذا كنت في كل الامور معاتبا صديقك لم تلق الذي لاتعاتبه
فحش واحدا أو صل أخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه
ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعد معايبه
وقال في فلسفة الخيرة وكان من أصحابها

طبعت على ماني غير مخير هواي ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد وقصر علمي أن أنال المغيبا
فأصرف عن قصدي وعلمي مقصر وأمسي وما أعقبت إلا التعجبا

وقال أبو العتاهية وكانت فلسفته في الزهد والدين - وله في ذلك الأرجوزة

التي قلنا آ نفا إن بها أربعة آلاف مثل - يعظ ويذكر

ياعجباً للناس ، لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا
وعبروا الدنيا إلى غيرها فانما الدنيا لهم معبر
الخير مما ليس يخفى هو السمعروف والشر هو المنكر
والموعد الموت وما بعده السحشر فذاك الموعد الأكبر
لا تخر إلا تخر أهل التقى غدا إذا ضمهم المحشر
ليعلمن الناس أن التقى والبر كانا خير ما يذخر
عجبت للإنسان في نخره وهو غدا في قبره يقبر
ما بال من أوله نظفة وجيفة آخره يفخر
أصبح لا يملك تقديم ما يرجو ولا تأخير ما يحذر
وأصبح الأمر إلى غيره في كل ما يقضى وما يقدر

وقال ابن الرومي في الحيرة بين حب المال والخوف من طلبه

أذاقتني الأسفار ما كره الغنى إلى وأغراني برفض المطالب
فأصبحت في الأثراء أزهد زاهد وان كنت في الأثر أرغب راغب
حريصا جباناً أشتهى ثم أنتهى بلحظى جناب الرزق لحظ المراقب
ومن راح ذا حرص وجبن فانه فقير أتاه الفقر من كل جانب
تنازعتني رغب ورهب كلاهما قوى وأعيانى اطلاق المغايب
فقدمت رجلاً رغبة في رغبة وأخرت رجلاً رهبة للمعاطب
أخاف على نفسى وأرجو مفازها وأستار غيب الله دون العواقب
ألا من يرى غايتي قبل مذهبي ومن أين والغايات بعد المذاهب
وصبرى على الاقتار أيسر محملاً على من التفرير بعد التجارب

وقال أيضا وكان شغورفا بمخالفة المؤلف في فلسفته^(١) بمدح الحق ودو يحسنه
وخير سجيات الرجال مسجية توفيك ما تسدى من القرض بالقرض
ولا عيب أن تجزى القروض بعثها بل العيب أن تدان ديننا ولا تقضى
ولولا الحقود المستكنات لم يكن لينقض وترا آخر الدهر ذو نقض
وما الحقدا إلا توأم الشكر في الفتى وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض
فحيث ترى حقدا على ذى إساءة فم ترى شكرا على حسن القرض
وقال المتنبى - وقد مزج الفلسفة بحياته مزجا - يعبر عن آماله وآلامه
أود من الأيام مالا توده وأشكو إليها بيننا وهي جنده
أبى خلق الدنيا حبيبا تديمه فما طلبي منها حبيبا ترده
وأسرع مفعول فعلت تغيرا تكلف شيء في طباعك ضده
وأتعب خلق الله من زاد همه فقصر عما تشتهي النفس وجده
فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده
وفي الناس من يرضى بميسور عيشه

ومركوبه رجلاه والنوب جلده
ولا يكن قلبا بين جنبي ماله مدى ينتهى بي في مراد أحده
وحكمه أشهر من أن تدون وأكثر أن تحصى
أما أبو العلاء فقد خلق فيلسوفا وللفلسفة عاش، وحسبه أن خلف

(١) يدل على تأصل هذه الهوية في نفسه قوله

في زخرف القول تزيين لباطله والحق قد يعتريه سوء تعبير
تقول هذا مجاج النحل تمدحه وان ذمت فقل قى الزناير
مدحا وذما وما جاوزت وصفهما جسمن البيان يرى الظلماء كالنور

في آرائه الفلسفية ديوانه الضخم « اللزوميات » وحسبك أن تتعرف
الآن غزارة آرائه الفلسفية وتزاحمها على الموضوع الواحد بالرجوع إلى
تأنيته التي اخترناها بالنماذج من هذا الديوان عن فلسفته في المرأة . فقد
قرر فيها أن النساء ذوات خداع؛ وأنهن فوارس فتنة للرجال وآيات إغراء
وأنهن الظالمات وإن ادعين أنهن المظلومات ، ثم ذكر أن الرجل يصحبه
فيخرجن له الأولاد وفيهم النوائب المسقيات وأبان وجه ذلك في الذكور
والإناث وطاد يحذر من تستر المرأة وخداعها بالحجاب . ثم انتقل إلى
تعليم المرأة الفصاحة والبيان، فجعله في يدها أداة شر وممول فساد، وأبان
أن خير ما تتعلمه القراءة والتلاوة على عجوز، وأن خير ما تعمل حمل المغزل
لاجل الأقدام، ثم غادر هذا إلى تحذير الشيخ المقل أن يتزوج من العصر
الرفية، وإلى الرجل مطلقاً أن يجاوز الواحدة إلى ضرة، وإلى الشاب
أن يسرف في شبابه للغانيات . ثم ختم آراءه في ذلك بتقريره أن حفظ
الخريفة لا يكون إلا بعل يسد غارها فتفديه بالورع والسكوت .
كل هذه النواحي قد عالجها في تلك القصيدة معالجة فليسوف خبير في
تحديد معان وبسط آراء، فجاءت عنواناً ظاهراً لمعالجته الفلسفية ودليلاً
واضحاً على نضوج عقله وغور فكره، وعليك أن ترجع إليها لترى أن
ما ذكرناه عنها أقل مما تقف عليه بقراءتها .

٤ — الأبداع في التصوير والاعراب في الخيال - كانت هذه
الناحية أظهر النواحي في شعر العصر العباسي منذ أن بدأ إلى أن زال .
ذلك بأنه ورث إذ بدأ حضارة فارسية صاربة في القدم إلى عهد سحيق،
وفيها من آثار الخيالات الواسعة والتصاوير البارعة، ومن صناعات الأيدي

الصناعات ذات المهارة والنقش ، الشيء الكثير ، هذا إلى ما جادت به الطبيعة تلك البلاد من مناظر ذات بهجة وسحر ، فكان شعراء بغداد حيث تلفتوا وجدوا منابع الخيال على بعد قرارها أجرى من السلسال وأصفي من الزلال ، ولذلك جروا في ميدانه وطاروا في سمانه إلى مدى بعيداً تتج من التصاوير الهائلة والخيالات المبدعة ما جاء فننة للناظرين ، وصار لمن خلفهم من الشعراء بعد انتشار الآداب في الحواضر والأمصاير ، المأخذ ومحل المحاكاة ، في مصر والشام وغيرها من سائر الأقاليم مع الاحتفاظ لكل إقليم بسعة حضارته وطبيعة أرضه إلى حد ما . واليك بعض ما كان لهؤلاء وهؤلاء من آثار نفيسة مشكورة في هذا الباب بعد أن نشير إلى ما برز منه في النماذج قبل .

رأيت فيما رأيت وصف بشار لحبيبتة وكيف أبدع في تشبيهات محاسنها ، ووصف أبي نواس سلاف الشهد ونحوه كيف انسجم فيه التصوير وتسلسل الخيال ، ووصف البحترى خروج المتوكل في عيد فطر للصلاة ، وكيف اشتق من شعائر الدين عن طريق الخيال ما خلع على الموكب جلالاته ليس بعده جلال . ووصف ابن المعتز الخمر وساقيةها ومجلسها والخروج لصيد شوائها ، وتخييله في وصف الكأس والبذل والاستهتار بالشراب ، وفي السلوقية كيف تصيد وفي طواف السقاة ونشوة الشاربين ، ثم في مجلس الشراب أرضه وسمانه وحيطانه واصطخاب العيدان فيه . ووصف السرى الرفاء لصديقه المصلوب وما تضمن من خيال جديد . ووصف التهامي للشعر والطيف ومظاهر الليل في ثباته أولاً وفي انهزام أدهمه أمام أشقر الفجر ثانياً إلى آخر ما أغرب به من خيال . ووصف صردر

لمداد دواته وقد بدأ يعلوه المشيب وما اندفع إليه من وصف القلم
والقراطيس . ووصف ابن حيوس وعمارة اليني . الأول دار تاج الملوك
المرداسى بالشام ، والثانى دار آل رزيك بقاهرة العزيز وما جرى إليه وراء
الخيال فيما طالجا من وصف النقوش والتهاويل على اختلاف أنواعها
وتنوع مرآئها . ووصف ابن التعاويذى غلمان الناصر الاثراك وصفها
عقد فيه بين فتنة الجمال وجرأة الأرقام . إلى غير هذه من مظاهر
الحضارة المختلفة الألوان . على أنه لا يفوتنا التنبويه بتعرض الطغرائى
لمظهر بدوى دفعه إليه ذكر القديم والحنين إلى ديار الأعراب ، هو وصفه
هاجرة بدأ فيها مع صحبه رحلة جاوزتها إلى الليل فاستغرقته إلى السحر
منه حيث وردوا غديرا اشتبه ماؤه على عيسهم بضوء الفجر المنبعت
عليهم من الشرق ، إلى غير ذلك مما باغ في تصويره حدا نرى من الظلم
له التعرض لوصفه دون ذكره ، فلترجع إليه هناك ولنعد نحن إلى ما وعدنا
به من خيال وتشبيه بعد الإشارة إلى هذه الأوصاف .

قال بشار يشبه فؤاد المضطرب وعين المسهد الخائف

كأن الفؤاد ككرة ترانى حذار البين لو نفع الحذار

يروعه السرار بكل شيء مخافة أن يكون به السرار^(١)

أقول وليأتى تزداد طولا أما لليل بعدهم نهار

جفت عيني عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصار

وقال فى نوع شرابه ومحاسن محبوبته

أبها الساقيان صبا شرابى وامسقيانى من ريق ثغر برد

(١) المسارة مصدر ساره يساره سرارا ومسارة

إن دأى الصدى وإن شفأى شربة من رضاء بيضاء رود^(١)
عندها الصبر عن لقأى وعندى زفرات يأ كان قاب الجليد
ولها مبسم كغفر الأ قاحى وحديث كالوشى وشى البرود
نزلت فى السواد من حبة القـلب ونالت زيادة المستزيد
ثم قالت نلقاك بعد ليال والليالى يبلىن كل جديد
لا أبالى من صن عنى بوصل إن قضى الله منك لى يوم جود

وقال فى تشبيهه العظام بالخيزران وهو جديد

ودعجاء المحاجر^(٢) من معد كأن حديثها ثمر الجنان

إذا قامت لحاجتها تثنت كأن عظامها من خيزران

وقال فى معنى بدوى زاده قوة وأسرا.

ويوم كتنور الأ ماء سجرنه وأوقدن فيه الجزل حتى تضرما

رميت بنفسى فى أجبيج سمومه وبالعيدس حتى بض منخرها دما

وقال أبو نواس فى نواح من تشبيهات الخمر

فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة من كف لؤلؤة ممشوقة القد

تسقيك من طرفها خمر او من يدها خمر ا فلاك من مسكرين من بد

كأما إذا انحدرت فى حلق شاربها رأيت حمزتها فى العين والخذ

وقال إسحاق بن ابراهيم الموصلى فى غزو محاسن محبوبته إياه

غزتنى بجيش من محاسن وجهها فعبى لها طرفى ليدفع عن قلبى

فلما التقى الجيشان أقبل طرفها يريد اغتصاب القلب قسرا على الحرب

ولما تجارحنا بأسياف لحظنا جعلت فؤادى فى يديها على الغصب

(١) متممة لينة (٢) سوداء العين فى سمة

وناديت من وقع الأسننة والقنا
فصرت صريرع اللهوى وسط عسكر
وقال أبو تمام في الغيث والسحاب
سحاب إذا ألقت علي خلفه الصبا
إذا ما ارتدى بالبرق لم يزل الندى
إذا انتشرت أعلامه حوله انطوت
وقال البحترى من وصف بركة المتوكل
تنصب فيها وفرد الماء معجلة
كأنما الفضة البيضاء سائلة
إذا علتها الصبا أبدت لها حبا
فحجب الشمس أحيانا أيضا حكاها
إذا النجوم تراءت في جوانبها
وقال في لؤلؤ الثغر ولؤلؤ الحديث
ولما التقينا واللوى موعد لنا
فن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها
وقال ابن الرومي في خباز رفاق
مأنس لأنس خبازا مررت به
ما بين رؤيتها في كفه كرة
إلا بمقدار ما تنداح^(٣) دائرة
وقال في صانع زلاية

(١) الدروع جمع جوشن (٢) مستديرة مقورة (٣) تنبسط

ومستقر على كرسية تعب
رأيته سحرا يتلى زلايية
يلقى العجين لجينا من أنامله
وقال ابن المعتز في الخمر
وأمطر الكأس ماء من أبارقه
وسبح القوم لما أن رأوا عجبا
وقال في أثر النشوة
وفد شربوا حتى كأن رؤوسهم
وقال في قيام الساقين على رؤوس الندامى
وكان السقاة بين الندامى
وقال في سيفه
ولى صارم فيه المنايا كوامن
ترى فوق متنيه الفرند^(١) كأنه
وقال في فرسه
ولقد وطئت الغيث يحملى
وكانه موج يسيل إذا
وقال السرى الرفاء في حدائق
وحدايق يسبيك وشى برودها
يجرى النسيم خلالها فكأنها
باتت قلوب المحل تخفق بينها
وقال أبو الفرج البغواء في كانون

(١) ما يظهر على صفحته من موجات (٢) جمع سببية وهي الشقة الرقيقة كالخمار

وذي أربع لا يطيق النهوض
تحملة سبجاً^(١) أسودا
وقال في ناره

إذا رمت بالشرار واضطربت
رأيت يا قوتة مشبكة
وقال في فحمه

كان كالأبنوس غير محلي
لقي النار في ثياب حداد
وقال أبو الفضل الميكالي في شرار النار

كأن الشرار على نارنا
قراضة تبر إذا ما علا
وقد راق منظرها كل عين
فأما هوى ففتات اللجين

وقال ابن بابك في غدير تعتدل عليه الغصون وتميل

وغدير ماء أفعمت أطرافه
قر الرياض إذا الغصون تعدلت
وقال الصابي يصف يد كاتب

وكم من يد بيضاء حازت جمالها
إذا رفشت بيض الصحائف خلقتها
وقال أبو العلاء في ليلتين مختلفتين

وليلتين، حال بالكواكب جوزه
كأن دجاء الهجر والفجر موعده
وآخر من حلى الكواكب طائل
بوصل وضوء الصبح حب^(٣) مما طل

(١) فخا (٢) المداد الأسود (٣) بكسر أوله المحبوب

وقال يرد على حبيبته في حوار

هي قالت لما رأته شيب رأسي
أنا بدر وقد بدا الصبح في رأ
أرادت تنكرا وازورارا
سك والصبح يطرد الأقارا
لا ترى في الدجى وتبدو نهارا
لست بدرا وإنما أنت شمس

وقال ابن سناء الملك

يا عاقل الجيد إلا من محاسنه
في سلك جسمي در الدهع منتظم
عطلت فيك الحشا إلامن الحزن
فهل لجيدك في عقد بلا ثمن
لا تخش مني فأني كالنسيم ضني
وما النسيم بمخشي على الغصن

هـ - المبالغة والتهويل - لعل أول ما حبيب إلى شعراء العصر

العباسي المبالغة والتهويل ، أن معظمهم كانوا من المولدين الراجعين في
نسبهم إلى أصل فارسي ، وللفرس ولع بالمبالغة والاعراق شديد . وإذ
كانت هذه الفئة المولدة في العصر العباسي الأول ، ذات شأن لدى الخلفاء
ووزراء الفرس ورجالاتهم ذوى النفوذ فقد اكتسبوا رفعة جعلتهم
القدوة أمام غيرهم من سائر الشعراء ، وانساق الجميع إلى هذه الظاهرة
رغبة في التحبيب وأكثرها منها في مدائحهم طمعا في ابتزاز المال . على
أن هناك سببا آخر لشيوع المبالغة والغلو بين طبقات الشعراء بعيدا
عن تلك الطبيعة الفارسية ، وهذه الرغبة في جذب المال ، هو تفتح أبواب
المعاني واتساع مناحي التفكير ومسابقة الشعراء بعضهم بعضا في هذا
الميدان وطمع كل أن يكون المجلى في تلك الحلبة أمام مناظريه ، فإن هذا
الطمع لا بد يحدوه إلى الاتيان بجديد كلما تسعفه الحقائق الخالصة فيه
فيتزع عنها إلى ضروب المبالغات والتهويل . وإن نظرة إلى ما أسلفنا من

نماذج لتريك هذه الظاهرة بادية للعيان وبخاصة كما ذكرنا في المديح .
فهذا مسلم قد رفع يزيد الشيباني في شجاعته إلى حيث مثابه رسول الله
ثم جعله عز الخلافة وعدة بني العباس . وهذا أبو تمام في رثائه ابن حميد
الطوسي قد بالغ في كثير من صفاته حتى جعل موته بين الطعن والضرب
نصرا وحياة . وزاد عنه البحري من شعراء العصر الثاني في مدحه المتوكل
على الله . وما كاد يحل العصر الثالث حتى صارت المبالغات أساسا
للقول وارتفع بها شعراؤه إلى ما كان يمقت قبلا من غلو وإغراق ،
فقد فتح هذا الباب فيه على مصراعيه للشعراء أول شعرائه أبو الطيب
المتنبي فأتى بما لم يدر بخلد في المدائح وفي غير المدائح على السواء
وهاهي تلك المدحة التي اخترنا آنفا من مدائحه في سيف الدولة
ابن حمدان قد بدأها بجعله حزب الله وبأنه راع الدهر ثم تحدى الدهر
أن يحدث خطوبا إذا شك فيما ذكر وعلى هذا النسق جرى إلى آخر
ماقال . وكذلك كانت مبالغاته وأشد ، في غير المديح كما سيأتي ، ثم كان
العصر الأخير أشد طغيانا وأكثر افتنانا في هذا الباب كما ترى ذلك في
قصيدة الأبيوردى التي اخترناها نموذجا للفخر فيما اخترناه

وإليك طائفة أخرى غير ما أشرنا إليه في النماذج من المبالغات

قال بشار في نحافته من أثر الحب

سلبت عظامي لحمها فتركها عواري في أجلادها تتكسر
وأخلت منها نخها فجعلتها أنابيب في أجوافها الريح تصفر
خذي بيدي ثم ارفعي الثوب فانظري ضني جسدي لكنني أتستر
وليس الذي يجري من العين ماؤها ولكنها نفس تذوب فتقطر

وقال المتنبي في ذلك

روح تردد في مثل الخلال^(١) اذا
كفى بجسمي نحولا أني رجل
وقال أبو نواس من مدح الرشيد
ملك تصور في القلوب مثاله
ما تنطوي عنه القلوب بنجوة
حتى الذي في الرحم لم يك صورة
وقات منصور النيري من مدحه أيضا

أحلك الله منها حيث تجتمع
ومن وضعت من الاقوام متضع
فليس بالصلوات الخمس ينتفع
أوضاق أمر ذكرناه فيتسع
خليفة الله إن الجود أودية
إذا رفعت إمرأ فالله رافعه
من لم يكن بأمين الله معتصما
إن أخلف القطر لم تخاف مخايله

وقال ابن الرومي من هجائه ابن يوسف

لو أن قصرك يابن يوسف كله
وأناك يوسف يستعيرك إبرة
إبر يضيق بها فناء المنزل
ليخيط قد قميصه لم تفعل

وقال ابزاهيم بن سيار النظام

توجه طرفي فألم خده
وصالغته كفي فألم كفه
فصار مكان الوهم من نظري أثر^(٣)
فمن صفح كفي في أنامله عقر
ولم أر خلقا قط يجرحه الفكر

وقال ابن دريد يخاطب الدهر ويعلو عليه

(١) في جسم كهود الخلال نجافة (٢) مصدر كاللحظ (٣) بتسكين الناء

مارست من لوهوت الافلاك من جوانب الجو عليه ماشكا
ولو حى المقدور منه مهجة لرامها أو يستبيح ماحى
تعدو المنايا طائعات أمره ترضى الذى يرضى وتأبى ماأبى

وقال المتنبي

لو كان علمك بالاله مقسما فى الناس ما بعث الاله رسولا
أو كان لفظك فيهم ما أنزل التوراة والقرآن والانجيلا

وقال أبو العلاء يمدح شريفا يسمى محمدا

لولا انقطاع الوحي بعد محمد قلنا محمد عن أبيه بدليل

هو مثله فى الفضل إلا أنه لم يأت به برسالة جبريل

وقال ابن سناء الملك من قصيدة طويلة .

سوى يهاب الموت أو يرهب الردى

وغيرى يهوى أن يعيش مخلدا

ولكننى لأرهب الدهر إن سطا ولا أحذر الموت الزؤام اذا عدا

توقد عزمى يترك الماء جمرة وحبيلة حلمى تترك السيف مبردا

ويأبى إبائى أن يرانى قاعدا وأنى أرى كل البرية مقعدا

٦ - تمحيص الافكار وترتيب العناصر - أظننى فى غير حاجة أن

أعلل هذه الظاهرة الآن؛ لأن أسبابها أوضح من أن ينبه عليها . على أنى

أجل هذه الأسباب فى أن الشعراء العباسيين أصبحوا يتزعون فى

الفطرة الشعرية لاعت تلك الفطرة وحدها كما كان أملا فهم ، بل عنها

ممزوجة بثقافة تجمع الى مسائل الأدب والعلم والفلسفة وغيرها مما يوسع

العقل والفكر ، فنون حضارة وارفة الظلال تنمى الذوق وترقى الاحساس

بالجمال . ولذلك كانوا يمحسون أفكارهم وينظمون عناصر أقوالهم ثم يبرزونها في ثوب ذي جمال خلاب كما سبق ذلك بناحيته ظاهرًا في النماذج أتم ظهوره .
فقصيدة العباس بن الأحنف قصة غزلية محكمة النسيج قوية الأداء . وقصيدة أبي نواس أجمع وصف يتناول صنع خمر الشهيد من خرج النحل يتغذى خلاياها إلى أن فادرت الدنان بعد حقب إلى آفاق السراء . وقصيدة ابن المعتز وصف يحكي العيان في الدعوة إلى الحجر والصيد لها والجلوس عقب ذلك في مجلس شرابها . وقصيدة ابن نباتة حكاية زورة ليلية لحبيبيب ذات تسلسل والنسجم . وقصيدتا ابن حيوس وعمارة اليمى تناولتا في دقة وإحكام كل ما يجول في الخاطر من محاسن القصور . وقصيدة الطغراء ، أحسن ما يصف به واصف رحلة بدوية في هاجرة نهار وظلام ليل ، ترد بعدها الأبل غديرا في منبليج الصباح . وقصيدة ابن عنين خير تعبير لما يجول في نفس هازم ومهزوم لكليهما من الشجاعة حظ ونصيب :

ولقد حملت هذه الظاهرة شعراء العباسيين أن يبرعوا البراعة كلها في ابتداء القصيدة ، وفي الانتقال خلالها من المطلع إلى ما هو الغرض المقصود فيها ، ثم في إنهاؤها ، إلى درجة حملت رجال البلاغة على تدوين هذه المحاسن الثلاثة في البديع باسم حسن الابتداء وحسن الانتقال وحسن الانتهاء ، ومن الأول تفرعت براعة الاستهلال .

فحسن الابتداء ويسمى براعة المطلع أن يتخير الشاعر لمطلع قصيدته اللماني الصحيحة للملأمة ، والالفاظ الرشيقة العذبة ويتحرز مما

يتطير منه من المعاني وما يستكره ويحفي من الالفاظ ، لأن المطلع أول
ما يقرع السمع فيسترعى الأذان أو تمجده الأذان . فإذا أضاف الى هذا
الحسن جعل أول بيت من القصيدة مشعرا بالغرض منها في إشارة
لطيفة فقد ضم الى براعة المطاع براعة أخرى هي براعة الاستهلال
وضمن بهذين حسن التقبل والاصغاء

فمن محاسن الابتداء قول أبي نواس

لن دمن تزداد حسن رسوم على طول ما أقوت وطيب نسيم
وقرل البحتری

بودى لو يهوى العذول ويعشق ليعلم أسباب الهوى كيف تعلق
وقول صريع الغواني

أجرت ذيل خليع في الهوى غزل وشمرت هم العذال في عذلى
وقول أبي العلاء

ياساهر البرق أيقظ راقدا السمر لعل بالجزع أعوانا على السهر
وقول التهامي

حازك البين حين أصبحت بدرا إن للبدر في التنقل عذرا
ومما ضم الى براعة المطلاع براعة الاستهلال قول أبي تمام في الرثاء

كذافليجل الخطب وليفدح الامر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر
وقول المتنبي في الشفاء من مرض

المجد عوفي إذا عوفيت والكرم وزال عنك الى أعدائك السقم
وقول أبي فراس على وشك رحيل

يا طول شوقى إن كان الرحيل غدا لافرق الله فيما بيننا أبدا

وحسن التخلص ويسمى براءة المقطع هو الانتقال مما بني عليه مطلع
القصيد من نسيب أو غيره إلى الغرض الأصيل ، على معبر من قوة
الاتصال بين المعنيين في دقة لطف وحسن وثام كقول مسلم في يحيى
وابنه جعفر

أجدك هل تدرين كم رب ليلة كأن دجاها من قرونك تنشر
لهوت بهاس حتى تجات بغرة كغرة يحيى حين يمدح جعفر

وكقول البحري في الفتح بن خاقان

رياض تردت بالنبات مجودة بكل جديد الماء عذب الموارد
إذا رواحتها مزنة بكرت لها شأبيب مجتاز عليها وقاصد
كأن يد الفتح بن خاقان أقبات عليها بتلك البارقات الرواعد
وكقول المتنبي في سيف الدولة

خليلي مالي لا أرى غير شاعر فكم منهم الدعوى ومنى القصائد
فلا تعجبا إن السيوف كثيرة ولكن سيف الدولة اليوم واحد

وكقول البها زهير المتوفى سنة ٦٥٦ في صلاح الدين بن العزيز

أهوى التذلل في الغرام وإنما يأتي صلاح الدين أن أتذلا
مهتد بالغزل الرقيق لمدحه وأردت قبل الفرض أن أتفلا

وحسن الانتهاء ويسمى براءة الختام أن تختم القصيدة بما يشعر بالانتهاء
فهو في النهاية نظير براءة الاستهلال في الابتداء وهو آخر ما يعنى السمع

ويرسم في النفس كقول المتنبي

فلا حطت لك الهيجاء سرجا ولا ذافت لك الدنيا فراقا

وكقول أبي العلاء

ولا تزال لك الأيام ممتعة بالآل والمال والعلباء والعمر

وكقول الأرجاني

علاك سوار والممالك معظم وجودك طوق والبرية جيد

وكقول الغزى

بقيت بقاء الدهر ماذر شارق وغار جديد المكرمات وأنجدا

وكقول ابن النبيه

دمتم بني أيوب فى نعمة تجوز فى التخليد حدالزمان

والله لازتم ملوك الورى شرقا وغربا وعلى الضمان

وقد كانت عناية الشعراء قبل العصر العباسى بهذه البراطات

قليلة وما كان عليهم فى إغفالها من عاب. أما فى العصر العباسى فقد

عنوا بها أتم عناية ولذلك كان من المآخذ عليهم إغفالها ثم كان من

المآخذ الشديدة أن يأتوا فيها بما يعاب^(١)

(١) ظهر عيب المولدين أكثر ما ظهر فى المطلع والانتقال دون الانتباه

فمن سوء المطلع ما كان من إسحق الموصلى إذ دخل على المعتصم وقد

فرغ من بناء قصر فأنشده

يادار غيرك البلى ومحاك ياليت شعرى ما الذى أبلاك

فتطير المعتصم وأمر بهدم القصر

ومن الانتقال المقتضب قول البحترى

وهوى تجدده الليالى كلما قدمت وترجعه السنون فيرجع

يأبها الملك الذى سقت الورى من راحتيه غمامة ما تقلع

ومن سوء المطلع وقبح الانتقال ما كان من أبى نواس إذ دخل على الفضل

البرمكى فأنشده مبتدئا

٣ - ناحية الألفاظ والأساليب

لقد كان نصيب الشعر في العصر العباسي من الدقة في انتقاء الألفاظ السهلة الرشيقة الممثلة للمعنى أتم تمثيل ، ومن التألق في صوغ العبارات المحكمة الرائعة المفهومة للغرض في إحكام وقوة أداء ، أوفر من نصيب النثر . ذلك لأن الشعر مجال الأناقة والظرف ، ولغة الحسن والجمال ومأخذ الغناء والاصوات ، وكل ذلك يستدعي عذوبة تنسجم مع وجدان الشاعر ، ويطلب خفة تطير مع خياله ، كما يطلب نغما يتسق وموسيقية الوزن وجرس القافية إلى غير ذلك مما لا وجود له في نفس النثر ولا مطلب له في القول المنتور .

غير أن الشعراء في هذا العصر قد وقع لهم في ناحية الألفاظ

أربع البلى إن الخشوع لبادى عليك وإنى لم أخنك ودادى
ثم انتقل إلى مدح البرامكة بقوله
سلام على الدنيا إذا ما فقدتم بنى برمك من رائحين وغادى
فكان ذلك منه عجباً وهو البارع في البراعات يجمعها في قصائده جمعاً كما فعل
في قصيدته إذ عزم على الرحلة من بغداد إلى مصر لمدح الخصب فحدث
عن زوجته في مبدئها يقول

تقول التي من بيتها خف تحملى عزيز علينا أن نراك تسير
وتخلص من المدح بقوله مخاطباً لها
ذرينى أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخصب أمير
ثم ختمها بقوله مخاطباً الممدوح
فإن تولى منك الجميل فأهله وإلا فابى عاذر وشكور

والاساليب ما لم يكن لزملاهم السالفين ومن ثم وسميهم العلماء باسم
المولدين أو المحدثين^(١) وضمنوا عليهم أن يكون كلامهم موطن حجة
وامتسهاد .

١ — فهم قد تصرفوا في بعض الكلمات العربية تصرفاً يخرجها عن
معانيها القديمة إلى معان لم تكن معروفة للعرب ثم كانوا كثيراً ما يشتقون
منها بعد هذا الإخراج إلى المعنى الجديد ما هو منه كما فعلوا في كلمة
« قصف » وأصل معناها كسر الغصن الصغير فأنهم أطلقوها على اللهو
كما قال أبو نواس

لا يصرفنك عن قصف وإصباة مجموع رأى ولا تشتيت أهواء
وكما قال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وقد أراد الخروج عن بغداد
إلى اليمن لولاية

أيرحل ألف ويقيم إلف وتحيا لوعة ويموت قصف
على بغداد دار اللهو مني سلام ما سجا للعين طرف^(٢)

ثم استعملوا منها على هذا المعنى كل أنواع المشتقات

(١) المولد لغة اسم لكل من نشأ غير خالص العروبة مقرفاً كان أم هجيناً،
ولكن المولدين أطلقوا في اصطلاح الأدب على الشعراء الذين نشئوا في العصر
العباسي ولو كانوا عرباً خالصاً دون من سبقوهم ولو كانوا غير خالصي العروبة
كما أطلق عليهم كذلك اسم المحدثين أي الذين حدثوا بعد الأصيلين

(٢) أشار إلى المعنيين في العصر المغولي عفيف الدين التلمساني حيث يقول

تبسم زهر البان عن طيب نشره وأقبل في حسن يجل عن الوصف
هدوا إليه بين قصف ولذة فان غصون البان تصلح للقصف

٢ — وهم قد استعملوا كثيرا من الالفاظ المعربة ولعل كثيرا منها كان من تعريبهم أنفسهم، وأمثلة هذا كثيرة جدا . منها لفظ آذريون معرب آذر كون أى لون النار لورد أحر الورق أو أصفره مع سواد الوسط فيهما ، ولذلك يشبه الأحمر منه بكأس عقيق فيه مسك كقول عبد الله بن المعتز

وطاف بها مباح أديب بمنزل كخنجر عيار صناعته الفتك
وحمل آذريونه فوق أذنه ككأس عقيق في قرارها مسك
كما يشبه الأصفر بمدهن ذهب فيه غالية ، وهي أخلاط طيب سوداء
كقوله أيضا

سقيا لروضات لنا من كل نور حاله
عيون آذريونها والشمس فيه كاليه^(١)
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية

والالفاظ المعربة أكثر من أن تحصى - وقد ذكرنا منها طائفة كبيرة في التعريب قبل .

٣ - وهم قد نقلوا بعض الالفاظ الالعجمية على حالها من غير تعريب نظرفا وتملحا، كلفظة آب سرد بمعنى الماء البارد في قول العمانى
لما هوى بين غياض الأسد وصار في كف الهزبر الورد
آلى يذوق الدهر آب سرد
وكلفظة يرلكأس الملائى في قول ابراهيم الموصلى
اذا ما كنت يومئى شداه^(٢) فقل للعبيد يسقى القوم يرا

(١) أى ناظرة من كلاً بنصره فى الشىء رده فيه (٢) كغراب تبلبل فكر

فان السقي مكرمة ومجد ومدفأة إذا ماخفت قرا
وقد ذاع استعمال كلتي نيروز معرب نوروز ومهرجان منقولة كما هي،
على السنة جهرة الشعراء ولا سيما في البيئات الفارسية^(١)

قال عبدالصمد بن بابك يمدح الصاحب بن عباد
لقد نشر النيروز وشيا على الربا من النور لم تظفر به كف راقم
كأن ابن عباد سقى المزن نشره فجاد برشاش من الوبل ساجم
وقال أيضا يمدح نخر الدولة بن بويه ويهنته بالمهرجان

أيا شاهنشاه صل الأمانى بتجديد البشائر والتهانى
فقد حزت السعود وجاء يحدو سبوت الدهر سبت المهرجان
٤ — ثم هم قد استخدموا كثيرا من ألفاظ العلوم والفنون والصناعات
ومصطلحاتها . قال أبو الفتح البستي

عزات ولم أذنب ولم أك جانبا وهذا لأنصاف الوزير خلاف
حذفت وغيرى مثبت فى مكانه كأنى نون الجمع حين يضاف

(١) كلاهما عيد من أعياد الفرس . فالنيروز ستة الأيام الأوئل من
أول شهر سنتهم « أفرودين » وهم يزعمون أنه أول الزمان الذى ابتدأ الفلك فيه
الدوران ويسمون اليوم السادس منها النيروز الكبير لأن الأكامرة كانوا ينصرفون
فيه الى مجالس أنصافهم مع ظرفاء خواصهم بعد جلوسهم لرد المظالم فى أيامه
الخمسة الأولى وهو يتفق واليوم المعروف الآن بشم النسيم . والمهرجان يبدأ
فى منتصف شهرهم السادس « مهرماه » ويوافق آخر الخريف وهو ستة أيام كذلك
آخرها يعنى المهرجان الكبير . فالنيروز استقبال للربيع والمهرجان استقبال
للشتاء وهما خير فصول السنة

وقال الصباني في سابور وزير بهاء الدولة وكان قد صرف عن الوزارة
ثم أعيد إليها

وقد كنت طلقت الوزارة بعدما زلت بها قدم وساء صنيعها
فعدت بغيرك تستحل ضرورة كما يحل إلى تراك رجوعها
فالآن قد عادت وآلت حلقة ألا بيت سوالك وهو ضجيعها

وقال عبد الوهاب بن محمد البغدادي المتوفى بمصر سنة ٤٢٢

ونائمة قبلتها فتنبهت وقالت تعالوا فاطلبوا اللص بالحد
فقلت لها إني فديتك غاصب وما حكموا في غاصب بسوى الرد
وقال ابن الرومي :

مأذر معتزلى موسى منعت كفاء معتزليا معسرا صفدا
أيزعم القدر المحتوم ثبطه إن قال ذلك فقد حل الذى عقدا

وقال أبو نصر أحمد بن يوسف المتوفى سنة ٤٥٣

ولى غلام طال فى دقة كخط إقليدس لا عرض له
وقد تنهى عقله خفة فصار كالنقطة لا جزء له

وقال أبو الحسن بن أبي الغنائم المتوفى سنة ٥٦٠

تعب الزمان فللغرام قضية ليست على نهج الحجا تنقاد
منها بقاء الشوق وهو بزعمهم عرض وتقنى دونه الأجساد

وقال كمال الدين بن النبويه المتوفى سنة ٦٠٨

وبى هندسى الشكل يسببك لحظه ونخال ونخد بالعدار مطرز
ومذ خط ييكار الجمال عذاره كقوس علمنا أنما الخال مر كز

٦ - ولم يتحرز شعراء هذا العصر وقد ابتدأوا الشعر بألفاظ العلوم

ومصطلحاتها ، أن يجعلوا منه لغة تأليفية في كثير من العلوم والفنون من نحو وفقه وتاريخ وطب وغيرها مما ألفوا فيه منظومات يسهل على الناشئين حفظها وتحصيل مسائل العلوم بتعليقها وهذه ظاهرة بدت منذ نظم أبان كلية ودمنة واستمرت تزايد وتنمو حتى بلغت مبلغها في نهاية العصر ، ومن مثلها في تلك النهاية ملححة الأعراب للحريري وقد سبقت الإشارة إليها

٦ - هذا وقد انحدر الشعراء الى استعمال كثير من ألفاظ السخف والبذاء وعبارات الخلاء والمجانة كما اتضح ذلك آنفا حيث الكلام على الأغراض التي تستدعيه كالمهجاء والغزل والمجون .

٧ - على أنهم قد أحسنوا الاحسان كله في استخدام ألفاظ التشبيه والمجاز والكناية مما رأيت حيث القول على الابداع في التصوير والاعراب في الخيال من الكلام على المعاني والأخيلة قبل .

٨ - ثم أكثروا من محسنات البديع على اختلاف أنواعها وبخاصة الجناس ، وسنكتفي بالتمثيل له لأنه أظهر المحسنات في اللفظ والاسلوب وأكثرها أنواعا .

فن الجناس المائل وهو المتفق اسمية وفعالية قول ابن الرومي وكان مولعا بالجوارى السود

للسود في السود آثار تركزن بها وقعا من البيض يثنى أعين البيض^(١)
ومن المستوفى وهو المختلف اسمية وفعالية قول البستي

(١) العود الأولى جمع سوداء للجارية والثانية جمع سوداء القلب ، والبيض

الأولى جمع أبيض للسيف والثانية جمع بيضاء للمرأة

فقال لي دعني ولا تؤذني إلى متى أجري بلا أجر
ومن المركب وهو المتفق لفظا وخطا قول أب الفضل الميكالى
تفرق الناس في أرزاقهم فرقا فلابس من ثراء المال أو عار
كذا المعاش في الدنيا وما كنها مقسومة بين أدماء وأوطار
من ظن بالله جورا في قضيته افتر عن مآثم في الدين أو عار
ومن المفروق وهو المتفق لفظا لا خطا قول البستي
كم من أخ قد هدمت أخلاقه في آخر ما قد بنى في أول
يرى سهاما إن أسر المقتلى بالكيد لا يقصدن غير المقتل
ومن المطرف وهو المختلف بزيادة حرف قول البحتري .
فإن صدفت عننا فربت أنفس صواد إلى تلك الوجوه الصوادف
ومن المذيل وهو المختلف بأكثر من حرف قول بعض العباسيين
فيالك من حزم وعزم طواهما جديد الردى تحت الصفا والصفائح
ومن المشتق وهو ما يرجع إلى أصل واحد قول أبى تمام
وأنجدتم من بعد إتهام داركم فيادمع أنجدنى على ساكنى نجد
ومن المطلق وهو ما لا يرجع إلى أصل واحد قول أبى نواس
فما السلاف ازدهتنى بل سوالفه ولا الشمول دهتنى بل شمائله
ومن المحرف باختلاف الشكل قول المعرى
لغيرى زكاة من جمال فان تكن زكاة جمال فاذكرى ابن سبيل
ومن المضارع وهو ما يختلف بحرف مقارب المخرج قول الرضى
لا يذكر الرمل الا حن مغترب له الى الرمل أوطار وأوطان
ومن اللاحق وهو ما لا تقارب في حرفيه قول البحتري

لست عن ثروة بلغت مداها غير أنى امرؤ كفاى كفاى
ومن اللفظى وهو ما اختلف بحرف مقارب الخط قول الأرجان
وبيض الهند من وجدى هواز باحدى البيض من عليا هوازن
ومن جناس العكس أى القلب قول ابن نباتة السعدى فى الأثير بهرام
قيل كل القلوب من رهب الحب تضطرب
قلت هذا تخرص قلب بهرام مارهب
ومن جناس التلفيق أى التركيب من كلمتين قول ابن عنين
خبروها بأزه ما تصدى لسوا عنها ولو مات صدا
والقول فى الجناس يطول .

٩ - وقد حلال كثير من الشعراء فى هذا العصر أن يودعوا
أشعارهم تصرفات لفظية تدل على تملكهم زمام الصناعة الى حد كبير .
ومن أعلامهم فى ذلك، الحريرى الذى تعدى بتلاعبه فى هذا ميدان النثر
الى الشعر فأتى بالعجب العجاب
قال من مقطعة عاطلة الأبيات
أعدد لحسادك حد السلاح
وقال من أخرى حالتها
شغفتنى بجفن ظبى غضيبض غنج يقتضى تغيبض جفى
وقال من ثالثة إحدى كلماتها مهملة والأخرى معجمة
اسمح فبث السماح زين ولا تحب آملا تضيف
وقال من رابعة خطية الجناس
زينت زينب بقدر يهد وتلاه ويلاه نهد يهد

وقال من خامسة مطرفته
سم سممة تحسن آثارها واشكر لمن أعطى ولو سمسمه
وهكذا مما جاوز فنون البديع المعروفة على كثرتها إلى ما عدا ابتكارها
واختراعها .

١٠ - ومما ظهر واضحا الاثر بالفاظ الشعر وأساليبه في العصر العباسي
ما اخترع في أوزانه وقوافيه، وهذى كلمة عما جد في كل منهما .
الأوزان - حصر الخليل بن أحمد أوزان الشعر التي نظم عليها
العرب في خمسة عشر بحرا معروفة، وأجهد تلميذه الاثخفش نفسه أن
يجد غيرها فلم يظفر إلا ببحر واحد سماه المتدارك لأنه تدارك به على الخليل .
وقد أثبت الاستقراء أن كل ما قيل من الشعر إلى آخر العهد
الأموي لا يخرج بحال عن هذه البحور . وبالرغم من أن جمهرة الشعراء
في العصر العباسي وبعده بقوا ينظمون عايمها ، فقد نظم بعض المولدين
على أوزان غيرها جريا وراء الأنغام الموسيقية الجديدة التي نقاتها اليهم
الحضارات المختلفة ، أو رغبة في عدم التقيد بالقديم وولوا باختراع جديد
في الأوزان كما اخترعوا في كل شيء للشعر غيرها .

وقد جاء هذا الجديد نوعين

أحدهما الأوزان المأخوذة من البهـور بالقلب أو التحريف

فما جاء بالقلب ، المستطيل مقلوب الطويل وأجزاؤه « مفاعيلن

فعولن » أربع مرات مثل :

لقد هاج اشتياقي غرير الطرف أحور

أدير الصدىخ منه على مسك وعنبر

والمتمد مقلوب المديد من غير جزء أى « فاعلن فاعلاتن » أربع
مرات مثل .

صاد قلبي غزال أحور ذو دلال كلما زدت حبا زاد مني نفورا
والمتمد مقلوب المجتث من غير جزء أى « فاعلاتن مستفع لن »
مرتين مثل .

كن لا تخلاق التصابي مستمريا ولا أحوال الشباب مستحليا
وقد يقع القلب في تفاعيل البحر الواحد على صورتين تأخذ كل
صورة اسما كما حدث في المضارع وأجزاؤه « مفاعيلن فاعلاتن مفاعيلن »
مرتين فقد أخرجت فيه فاع لاتن من غير جزء باسم المنسرد مثل .

على العقل فعول في كل شأن ودان كل من شئت أن تدانى
وقدمت باسم المطرد كذلك مثل

ما على مستهام ريع بالصمد فاشتكى ثم أبسكنى من الوجد
ومما جاء بالتحريف، المنوافر المأخوذ من حرف الرمل وهو « فاعلاتن » ست
مرات فانه أبدل بنونها الساكنة كافا متحركة وحذف من تفعيياتي الضرب
والعروض السبب فصاروزنه « فاعلاتك فاعلاتك فاعلن » مرتين مثل :

ماوقوفك بالركائب في الطائل ماسؤالك عن حبيبك قد رحل
ماأصباك يافؤادى بعدم أين صبرك يافؤادى مافعل
والثاني ما جاء على أوزان غير أوزان البحور وهو فنون سبعة ،

ثلاثة لا يجوز فيها اللحن مطلقا وهي الدويدت والسلسلة والموشح ، وثلاثة
ملحونة دائما وهي الزجل والكان وكان ثم القوما ، وواحد كالبرزخ بين
هذه وتلك يكون معربا وملحونا على ألا يجتمع الاعراب واللحن في

دور واحد منه وهو المواليا
فالدوبيت أصله فارسي يأتي بيتين بيتين ومعنى دو اثنان وهو يسمى
الرابعي أيضا لأن في البيتين أربعة أشطر. وقد اقتبسها البغداديون ونظموا
منه على أوزان أشهرها « فعان متفاعان فعولن فعلمن » مرتين مثل
إن جئت رب الحمى ولاحت نجد فاذكر وهى وما جناه البعد
قد كنت أقاسى العمد حتى رحلوا ياليتهم طادو وطاد الصمد
والسلسلة من مخترعات البغداديين ووزنه « فعلمن فعلمن متفعلمن
فعالان » مرتين ومنه

باعتدل القدان صبرى قد بان والدمع نخافى الغرام أظهر اذ بان
جددت شجونى وقد كحلت جفونى بالسهد فيبنى وبين نوى شتان
والموشح نشأ أول مانشأ بالأندلس ومنها انتقل الى المشرق فى
عصر بني بويه وهو ذو أوزان كثيرة منها « فاعلمن فاعلمن مستفعان فاعلمن »
مرتين وعليه موشحة ابن سناء الملك المصرى المتوفى سنة ٦٠٨ ومطامعها
كللى ياسحب تيجان الربى يالحلى واجعلى سوارك منعطف الجدول
ومنها « مستفعلمن فاعلمن فعيل » مرتين مثل .

ياجيرة الأبرق اليماني هل الى وصلكم سبيل
والزجل نظم العوام بالعامية على منوال الموشح وليس فى هذه الفنون
أكثر أوزانا منه على أنه لا ضابط لأوزانه ومثله

الفراق نار والوصال جنه والخلائق بعضهم يعشق
ولهيب الهجر يتوقد والوصال م الملاج يشفق
وقد تقصر أشطاره الثانية عن الأولى مثل

عن محرم شرابنا صمنا ونفطر بالثمار
حين وجدنا سفرجل البستان يذهب لـ صفرار
والسكان وكان نظم اخترعه أهل بغداد واستعملوه في النصيحة والوعظ
بمحاكاة ما كان وكان ، ولذلك أخذ هذه التسمية ووزنه واحد مستفعلن
فاعلاتن مستفعلن فاعلن وشطره الأول دائماً أطول من الثاني ومنه
قول بعضهم .

ياقاسى القلب مالك تسمع وما عندك خبر
ومن حرارة وعظى قد لانت الأحجار
أقنيت مالك وحالك فى كل مالا ينفعك
ليتك على ذى الحال تقلع عن الأصرار
والقوما نظم اخترعه البغداديون أيضا ليغنوا به الناس فى رمضان كى
يقوموا للسحور ومنه قول بعضهم

يامن جنابه شديد ولطف رأيه شديد
ما زال برك يزيد على أقل العبيد
ولا عدمننا نوالك فى صوم فطر وعيد
٧ - أما المواليا فقد نشأ كما يقولون على لسان جارية للبرامكة كانت
ترثيهم به وتقول يا مواليا وهو كما قلنا دون سائر الفنون المذكورة يأتى
غاميا ويأتى صحيحا . فمن غاميه قول بعضهم

حلف على كجاره أن يقاطعنى وصد عنى وأقسم ما يطاوعنى
كم إذا يصد وكم يرجع يصدعنى إن كنت آنا المطلق لا يراجعنى
ومن صحيحه قول آخر :

يا طاعن الخيـل والأبطال قد غارت
والمخصب الربيع والأمواء قد غارت
هو اطل السحب من كفيك قد غارت
والشهب - إذ شاهدت أضواءك قد غارت
القوافي - التزمت العرب القافية في القصيدة الواحدة كما التزمت فيها
الوزن فلم يغيروا حرف القافية في قصيدة مهما طالت بل لم يحميدوا
عن نظم راعوها في مجموع الحروف التي تشملها القافية بنهاية البيت -
وهي من آخر حرف ساكن فيه إلى أول حرف متحرك قبل ساكن
بينهما مع دخول هذا المتحرك فيها - وقد استمر ذلك مراعى إلى نهاية
العصر الأموي كما كانت الحال في الأوزان ثم أفادت الشعراء بعده من
القافية كما أفلتوا من الوزن لأسباب قد تتحد مع بعض السابقة كالرغبة
في الخروج عن القديم إلى جديد ، وقد تختلف كالفرار من تضيق
الحرف الواحد في القافية لكل قصيدة إذ صار هذا من نصيب القافية
وحدها، كما كان تنويع الوزن للغناء من نصيب الأوزان . على أنهم في هذا
الخروج عن القافية الواحدة لم يوسعوا المجال كما وسعوه في الأوزان
فانحصر فيما يأتي : -

١ - المزدوج وهو ما اقتصرت فيه التقفية في كل بيت على عروضه
وضربه دون ماحولهما في الأبيات ، وأم ما حمل القوم عليه إطالتهم
الباسقة في نظم قواعد العلوم والكتب وطوال المواضع وغيرها وقد
عرفت ما كان من نظم أبان بن عبد الحميد لكليمة ودمنة ، ووضع الحريري

ملاحظته في قواعد الاعراب وكلاهما من المزدوج . ولأبي العتاهية مزدوجة
بماها ذات الحكيم والامثال اشتملت على أربعة آلاف مثل منها قوله :
لكل ما يؤذى وإن قل ألم ما أطول الليل على من لم يتم
ولبشر بن المعتز مزدوجة في فضل على كرم الله وجهه على الخوارج
يقول فيها عنهم .

ما كان من أسلافهم أبو الحسن ولا ابن عباس ولا أهل السنن
غر مصابيح الدجى مناجب أولئك الأعلام لا الأعراب
وللصابي مزدوجة كتب بها إلى أبي الفرج البيهقي في وصف البيهقي
أولها .

ألفتها فصيحة مليحة ناطقة باللغة الفصيحة

وللبهقي رد عليه بمزدوجة أخرى يقول فيها .

تميزت في الطير بالبيان عن كل مخلوق سوى الانسان
ولا بن المعتز مزدوجة في الشراب يقول فيها .

لي صاحب قد لا منى وزادا في تركي الصبوح ثم حادا

ولأبي فراس الحمداني مزدوجة في اللهو بالصيد يقول فيها

ما العمر ما طال به الدهور العمر ماتم به السرور

وللحسن بن وكيع مزدوجة في فصول العام أولها .

ياسائل عن أطيب الدهور وقعت في ذلك على الخبير

٢ - المشطر وهو أن تتحد القافية في أشطار القصيدة أربعة أربعة

أو أكثر فيسمى مربعا أو خمسا وهكذا ، كقول الحسن بن وكيع

المذكور من مشطر مربع له

رسالة من كلف صميد حيانه في قبضة الصدود
بلغه الشوق مدى الجهود مافوق مايلقاه من مزيد
جار عليه حاكم الغرام فدق أن يدرك بالأوهام
فلو أتاه طارق الحمام لم يره من شدة السقام

٣- المسمط وهو أن يؤتى بأقسمة من قافية واحدة بعدها قسم
من قافية أخرى ثم يؤتى بمثل تلك الأقسمة عددا ووزنا من قافية
أخرى وبعدها قسم من قافية القسم المذكور ووزنه وهكذا من المخالفة
في الأقسمة المتعددة والاتحاد في القسم المفرد، ثلاثة كانت الأقسمة كما
تقدم التمثيل لذلك صفحة ٤٦ أم أكثر كقول الأثير تميم بن المعز الفاطمي

دم العشاق مطلول ودين الحب ممطول
وسيف اللحظ مسلول وميدى الحب معذول

وإن لم يصنع للأثم
وأحور ساحر الطرف يفوق جوامع الوصف
مليح الدل والظرف جنت الحماظه حتفي

فمن يعدى على الظالم
وقد يبتدأ بببيت مصرع غير الاقسمة يأتي عليه القسم الملتزم مثل
توهمت من هند معالم أطلال

عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي
مرابع من هند خلت ومصايف يصيح بمغناها صدى وعوازف
وغيرها هوج الرياح العواصف وكل مسف ثم آخر رادف
بأسحهم من نوء السما كين هطال

ومستلثم كشفت بالرمح ذيله أقمت بعضب ذى سفاسق^(١) ميله
فجعت به فى ملتقى الخيل خيله تركت عتاق الطير تحجل حوله
كأن على سرباله نضح جريال^(٢)

كما قد يبتدأ بببت غير مصرع يلتزم مثله قافية وضربا بعد كل قسم
كقول ابن المعتز

أيها الساقى اليك المشتكى . قد دعوناك وان لم تسمع
ونديم همت فى غرته وبشرب الراح من راحته كلما استيقظ من مسكرته
جذب الزق إليه واتكا وسقانى أربعا فى أربع
مالعيني غشيت بالنظر أنكرت بعدك ضوء القمر وإذا ما شئت فاسمع خبرى
غشيت عيناي من طول البكا وبكى بعضى على بعضى معى^(٣)

(١) طرائق جمع منسقة بفتح حين أو كسرتين مع سكون الثانى وفتح الثالث
(٢) الجريال صبيغ أحمر قبيل هو العصفور، وتعزى هذه الأبيات فى بعض الكتب
إلى امرئ القيس وهى نسبة غير مسلم بها وغير متفقة مع طبيعة الأشياء
(٣) بهذا الذى ذكرناه من تغير فى لفظ الشعر وأسلوبه نكون قد تناولنا
كل ما عددناه من تغير حياة اللغة جملة فى ألفاظها وأساليبها بصفتى ٤٤ ، ٤٥
ماعدنا الشغف باستعمال أنماط القرآن ، والتوسع فى ألقاب التعظيم ، والتغالى
فى الاطناب والايجاز . لأن هذه الثلاثة كانت أظهر فى النثر منها فى الشعر
وإن لم يخل بعض الشعر منها . فقد طالت القصيدة جدا فى العصر العباسى
الثالث كما انتشرت الأبيات المفردة ، وأكثرت فيه الألقاب على ما رأيت فى
بعض ماضى ، ثم وجد من الشعراء منذ العصر الأول من اقتبس ألفاظ القرآن
كأبى العتاهية إذ يقول

المرء آفته هوى الدنيا . والمرء يطنى كلما استغنى

هذا

ومما تقدم عن الشعر نماذج وقولا في تلك النواحي الثلاث ، يتبين القارئ فضل المولدين عليه وكثرة حسناتهم فيه ، كما لا يعدم أن يجد لهم في كل ناحية بعض السيئات ، كمنقل الأعمى على حاله ، واستعمال ألفاظ السخف والبذاء ، وتعمل الصناعة اللفظية ، وغيرها في الألفاظ والأساليب . وكتعمد الفلسفة إلى درجة الخفاء ، والتصوير إلى حد الإغراب ، والغلو في المبالغات إلى قمة الإغراق ، وغيرها في المعاني والأخيلة ، وكعدم التعفف عن الغزل في المذكر ، والانحدار في الخمريات ، والاسفاف في المجون ، وغيرها في المقاصد والأغراض . على أن ذلك لا يبرر لنا التعصب عليهم تعصبا يعمينا عما لشعرهم من حسن وجمال أو يجعلنا ننكره مع معرفتنا بجودته كما كان يفعل في الحالتين كثير من القدماء^(١) فان العقل يقضى بالعدل في الحكم لهم وعليهم كالأقدمين سواء وقد أنصفهم ابن قتيبة وابن رشيق في ذلك بعض الانصاف^(٢)

(١) من رجال الحالة الاولى أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ فقد كان يأنف أن يروى للشعراء الاسلاميين فضلا عن المحدثين وهو الذي جالسه الأصمعي حياة طويلة فما سمعه يحتج ببيت اسلمى وكذلك كان الأصمعي ، ولكنه كان يستحسن بعض الشعر الحديث . ومن رجال الحالة الثانية ابن الاعرابي المتوفى سنة ٢٣١ فقد روى عنه أنه عرضت عليه أرجوزة لأبي تمام على أنها لأحد شعراء العرب فنالت منه نهاية الاستحسان حتى قال « هذا هو الديباج الخسرواني » واستكتبها فلما أنهاها قيل له إنها لأبي تمام فلم ينجبل أن قال « من أجل هذا أرى عليها أثر الكلفة » وألقى الورقة من يده وقال « خرق خرق يا غلام »

(٢) كان ابن قتيبة يقدم القديم من ناحية الجزالة وسلامة العبارة ولأنه

وبعد

فانا واجدون من الحتم ألا ننهي الكلام على الشعر بعد الذي
أسلفنا عن نهضته من حيث المظاهر والأسباب في تلك النواحي الثلاث
دون أن نتعرض إجمالاً لثلاث نواح أخرى تتصل بتلك النهضة .
هي مواطن الشعر وطبقات رجاله ، والعوامل المساعدة لأسباب نهوضه ،
ثم الغناء ومجالسه ، لاتصاله الوثيق بالشعر والشعراء

١ - مواطن الشعر وطبقات رجاله

عرفت مما ذكرنا عن طابع كل عصر من العصور العباسية الأربعة
في حياة اللغة أن بغداد في العصر الأول كانت محط الرحال وكعبة
الآمال ومظهر العظمة والجلال . لقوة الخلفاء فيه قوة تجماعهم مناط تحقيق
الآمال ومفزع تفريج الكرب والآلام ، ولذلك تركز فيها كل شيء وقصدتها
ذوو الغايات من كل فن وفي مقدمتهم جمهرة الشعراء قصد توطن
 وإقامة لازيارة وإياب . ومن هنا كانت كل دابقتهم من أهلها وإن كانوا
في النشأة والنسب متعددي الأوطان . كما عرفت أنها بالرغم مما أصابها
في العصر الثاني بقيت مركز الأدب وعش الشعر ولكن في تطامن
وخضوع . وقد ظهر من الشعراء في العصرين ست طبقات ، أولها

مرجع النحوى فى الشواهد واللغوى فى معانى المفردات والتراكيب ، ويقدم
الحديث لعذوبة ألفاظه وحلاوة معانيه وشدة ارتباطه . وكان ابن رشيق على
النحو من ذلك فقد جعل مثل القديم والحديث مثل رجلين ابتداء هذا بناء
فأحكمه وأتقنه ثم أتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هذا وان حـ ن
والقدرة ظاهرة على ذلك وان خشن

طبقة بشار من مخضرمى الدولتين وأشهر رجالها بشار وحماد مجرد ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد وصالح بن عبد القدوس وأبو دلالة والسيد الحميرى ومروان بن أبى حفصة ، ومن رجالها رؤبة بن العجاج . وثانيتها طبقة أبى نواس التى نشأت فى صدر الدولة العباسية وأشهر رجالها أبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأشجع بن عمرو والسامى ومسلم بن عمرو الخاسر والحسين بن الضحاك والعباس بن الأحنف وأبان بن عبد الحميد وكثوم بن عمرو العتبانى وأبو الشيبى محمد بن رزين ومن رجالها عمارة بن عقيل ، والثالث طبقة أبى تمام التى نشأت فى آخر العصر الأول ومعظم رجالها أدراك العصر الثانى وأشهرهم أبو تمام ودعبل الخزاعى وديك الجن عبد السلام بن رغبان وعلى بن الجهم . والرابعة طبقة البحترى التى ظهرت شاعريتها فى أول العصر الثانى وأشهر شعرائها البحترى وابن الرومى وابن الزيات . والخامسة طبقة ابن المعتز فى وسط هذا العصر ومن شعرائها عبد الله بن المعتز وأبو الحسن على بن محمد البسامى البغدادى . أما السادسة فهى الناشئة فى آخره ومن شعرائها أبو القاسم نصر بن أحمد المعروف بالخبز أرزى وأبو بكر الحسن بن على المعروف بابن العلاف . ومن الشواعر فى الأول عليّة بنت المهدي . ومنهن فى الثانى فضل جارية المتوكل على الله العباسى وكان منزلها مجتمع الأدباء .

وقد عرفت أيضا أنها بدأت منذ العصر الثالث تفقد نفوذها وسطوتها لتفكك أوصال الدولة بإنشاء الدويلات المزاحمة لها بحواضرها فيما كانت به ذات استنثار فأخذ كل شىء يرحل عنها إلى تلك الحواضر حتى لم

يبقى لها إلا نصيب يسير، وكان أن توزع الشعراء على الأقاليم أكثر مما توزع الأدباء والعماء فصار لشعراء كل إقليم من المزايا والخواص ما لم يكن لغيرهم من سائر الشعراء .

وإنك بالرجوع إلى ما ذكرنا في التصوير السياسي لهذا العصر تجدهم كانوا منضوين في الممالك الشرقية لأمارات غير عربية كآل بويه بالعراق وفارس ، والسامانيين فيما وراء النهر ، والغزنويين بخراسان ، في حين كانت الممالك الغربية عربية كالحمدانيين بالجزيرة والشام ، والفاطميين بمصر ، أما الأخشيديون الأتراك بها فلم تكن مدتهم وهي ثلاث قرن ذات تأثير . ومن ثم تحكم بأن الشعراء في الممالك الغربية كان خيرا منه في الشرقية، كما تحكم بأنه كان في العراق وفارس خيرا منه فيما وراء النهر وخراسان كما كان في الشام والجزيرة خيرا منه في مصر ، وأنه كان في الوسطين خيرا منه في الطرفين . وعلى هذا يكون الشعراء بالنسبة إلى الأقاليم أربع طبقات وإليك أسماء أشهرهم على هذا التقسيم

فمن شعراء الجزيرة والشام أبو الطيب المتنبي فأخوه شعراء هذا العصر وأبو فراس الحمداني وكثير غيره من آل حمدان وأبو محمد جعفر وأبو أحمد عبد الله ابنا ورقاء الشيباني وأبو الفتح كشاجم محمود بن الحسين الرملي والسري الرفاء وأبو الفرج الوأواء وأبو الفرج البيهقي وأبو العباس النامي وأبو طالب الرقي وعبد المحسن الصوري وأبو الرقعمق وأبو القاسم الواساني وأبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم الخالديان ثم خاتمة صاحب المعرة وأبو العلاء

ومن شعراء مصر أبو محمد الحسن بن علي بن وكيع التنيسي وأبو

القاسم أحمد بن محمد اسماعيل بن طباطبا الحسني وأبو القاسم بن أبي العفير الأنصاري ومحمد بن عاصم الموقفي وأبو علي الأمير تميم بن المعز الفاطمي والتهامي وكان في الشام قبل .

ومن شعراء العراق وفارس الصابي وتاج الدولة بن عضد الدولة البويهسي وكثير غيره من آل بويه والوزير المهلبى أبو محمد الحسن بن محمد وابن دريد والقاضي التنوخي أبو القاسم علي بن محمد وابن لنكك أبو الحسن محمد بن محمد وأبو عبد الله الحسين بن علي النمرى وأبو الحسن محمد بن عبد الله السلامي وابن نباتة السعدي والشريف الرضى ومهيار وأبو الحسن علي بن زريق وابن مسكرة وابن حجاج

ومن شعراء ماوراء النهر وخراسان أبو الطيب طاهر بن محمد الطاهري وأبو الحسن علي بن الحسن اللحام وأبو محمد الحسن بن علي المطراني وأبو طالب عبد السلام بن الحسن المأموني وأبو محمد عبد الله ابن عثمان الواثق وأبو محمد عبد الله بن ابراهيم الرقاش والخوارزمي والهمداني وأبو الفتح البستي وأبو الفضل الميكالى وأبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبي وأبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل التعالبي، وقد كان للتعالبي هذا على شعراء هذا العصر الثالث فضل ليس لغيره مثله بتدوين أخبارهم في كتابه الجالد « يتيمة الدهر » ذى الاقسام الاربعة، فقد جعل القسم الاول وهو أصنخها لشعراء الشام وماحولها من الجزيرة شرقا ومصر غربا وفيه عنى بآل حمدان، وجعل الثانى لشعراء أهل العراق وفيه عنى بآل بويه ، وجعل الثالث لشعراء فارس وما إليها من جرجان وطبرستان منشأ البويهيين ، وجعل الرابع لشعراء ماوراء

النهر وخراسان موطن السامانيين والغزنين . وعقد في أول القسم
الأول بابا في فضل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان كان مما
قال فيه

« لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب
العراق وما يجاورها في الجاهلية والاسلام . والسبب في تبريز القوم
قديما وحديثا على من سواهم في الشعر ، قربهم من خطط العربية ولا
سيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة ألسنتهم من الفساد
العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم .
ولما جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة
الحضارة ورزقوا ملوكا وأمراء من آل حمدان وبني ورقاء هم بقية العرب
المشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم والجمع بين آداب السيف
والقلم وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر وينتقده ويتيب على الجيد
منه فيجزل ويفضل ، انبعثت قرائحهم في الاجادة فقادوا محاسن الكلام
بألن زمام وأحسنوا وأبدعوا ما شاءوا . »

ولما حل العصر الرابع وطوحت أحداثه بآل بويه في العراق
وفارس ، ومن قبلهم بالسامانيين فيما وراء النهر وبالجمدانيين في الجزيرة
والشام ، اضمحل الأدب والشعر في خراسان إذ لم يبق فيها إلا الغزنيون
وليسوا للعربية بنصراء ، وبقي ضعيفا في فارس والعراق ، ثم تنزل عن
الهامة التي كانت له في الجزيرة والشام ولكنه ارتفع اليها في مصر لبقاء
الفاطميين . حتى إذا ما زال الغزنيون من الشرق والفاطميون من الغرب
في نصفه الثاني تقلص نهائيا من القاصية واشتد ضعفه في فارس وصار

وسطا في العراق والجزيرة ثم نزل عن الهامة في مصر حتى كاد يصل
مستوى الشام ، ولكن ساعد على بقائه ناميا فيهما إذ ذاك الحروب
الصليبية أيام بني أيوب . وهذه أسماء أشهر الشعراء فيه بكل إقليم
مرتبة على حسب التنازل في القوة من الغرب الى الشرق

في مصر - ابن زقاق البلقيني وظافر بن القاسم الاسكندر
وأبو الفتوح نصر الله بن عبد الله المعروف بابن قلاقس الأزهرى
وعمارة البني وهبة الله بن جعفر المعروف بابن سناء الملك المصرى وكمال
الدين بن النبيه المصرى وابن عتيد وأبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة
وأبو حفص عمر بن الفارض وأبو الحسن جمال الدين بن مطروح
والامير سيف الدين الياروقى ثم أبو الفضل بهاء الدين زهير المتوفى
سنة ٦٥٦ .

في الشام - ابن سنان الخفاجى وابن حيوس الغنوى ومهذب
الدين أبو الحسين أحمد بن منير الطرابلسى وبهاء الدين أبو الحسن بن
على الساطى والملك الأشمجد أبو المظفر بهرام شاه الأيوبي وشهاب
الدين أبو المحاسن يوسف بن اسماعيل المعروف بالشواء الحلبي وأمين
الدين عبد المحسن بن حمود التنوخى الحلبي وصدر الدين محمد بن عمر بن
على بن حمويه الدمشقى ونور الدين محمد بن محمد الاسعدى ثم صدر الدين
على بن أبى فرج بن الحسن البصرى المتوفى سنة ٦٥٩

في الجزيرة والعراق - الطغرائى ودلال الكتب أبو المعالى سعد
ابن على الخزرجى وابن التعاوىذى ونجم الدين أبو الغنائم محمد بن على
المعروف بابن المعلم الواسطى وحسام الدين أبو يحيى عيسى بن سنجر

الحاجري وأبو الطيب أحمد بن محمد المعروف بابن الحلاوي والصرصرى
أبو زكريا يحيى بن يوسف البغدادي والأثير علم الدين أيدهم المحيوى
التركى ثم محيى الدين الوترى البغدادي المتوفى سنة ٦٦٢

فى فارس - صردر وأبو الحسن على بن الحسن الباخري ومعين
الدين أحمد بن عبد الرازق الطنطرانى وابن الهبارية السابق فى القصص
ثم ابن الخياط والغزى والارجانى والبيوردى السابقون فى النماذج^(١)

ب - العوامل المساعدة لأسباب نهوضه

نعنى بهذه العوامل المساعدة ، ماجاء مقويا لعوامل النهضة الاولى
التي شرحناها فى كل من الألفاظ والمعانى والأغراض وهى كثيرة
فلنكتف هنا بذكر أهمها :-

١ - تذوق الخلفاء ورجال الدولة للأدب - فقد كانوا منذ
أوليتهم ذوى أذواق أدبية سليمة يعرفون بها الغث والسمين ويميزون
الحسن والأحسن ، قال الربيع بن زياد - قامت للمنصور يوم ما إن الشعراء
ببائك وهم كثيرون طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم فقال اخرج اليهم
فاقرأ عليهم السلام وقل لهم عني ، من مدحني منكم فلا يصفني بالأسد
فإنما هو كلب من الكلاب ولا بالحية فإنما هى دويبة منتنة تأكل التراب ولا
بالجبل فإنما هو حجر أصم ولا بالبحر فإنما هو جلب غطامط فن ليس
فى شعره هذا فليدخل ومن كان فى شعره فلينصرف ، قال الربيع فانصرفوا
كلهم إلا ابرهيم بن هرمة فإنه قال أنا له ياربيع فأدخلني فادخلته قال فلما
مثل بين يديه قال لى المنصور ياربيع قد علمت أنه لا يجيبك أحد غيره

(١) قد اكتفينا فيمن تقدم نحبهم بالاسم المشهور وأكملنا الاسم فى غيرهم .

هات يا بن هرمة فانشده قصيدته التي يقول فيها
له لحظات عن حفاى سريره إذا كرها فيها عذاب ونائل
له طينة بيضاء من آل هاشم إذا اسود من كوم التراب القبائل
إذا ما أتى شيئاً مضى كلذى أتى وإن قال إنى فاعل فهو فاعل
فقال حسبك هاهنا بلغت هذا عين الشعر قد أمرت لك بخمسة
آلاف درهم. وقد تبعه فى ذلك ابنه المهدي وحفيده الهادي والرشيدي
وتناهى ذلك فى الرشيد فكان أعلم بالشعر من الشعراء . قال سعيد بن
سالم قدم على الرشيد أعرابى فمثل بين يديه فقلت يا أعرابى خذ فى
شرف أمير المؤمنين فاندفع فى شعره فقال الرشيد يا أعرابى أسمعك
مستحسنا وأنكرك متهما فقل لنا بيتين فى هذين - وأشار إلى
الامين والمأمون وكان حفايه - فقال يا أمير المؤمنين حملتنى على الوعر
القرود وأرجعتنى عن السهل الحرد ، روعة الخلافة وبهر الدرجة ونفور
القوافى على البديهة فأرودنى تتألف لى نوافرها ويسكن روعى قال
قد فعات وجعات اعتذارك بدلا من امتحانك فقال يا أمير المؤمنين
نفسى الخناق وسهلت ميدان السباق وأنشأ يقول
بنيت لعبد الله ثم محمد ذرا قبة الاسلام فاخضر عودها
ها طنباها بارك الله فيهما وأنت أمير المؤمنين عمودها
فقال الرشيد وأنت يا أعرابى بارك الله فيك فسل ولا تكن
مسألتك دون إحسانك ، قال الهنيدة يا أمير المؤمنين - والهنيدة مائة
من الابل - فأمر له بمائة ناقه وسبع خلع . ودخل عليه سهل بن هارون .
فوجده يضاحك المأمون فقال اللهم زده من الخيرات وأبسط له فى

البركات حتى يكون كل يوم من أيامه موفيا على أمسه مقصرا عن غده
فقال الرشيد يسهل من روى من الشعر أحسنه وأجوده ومن الحديث
أصحّه وأبلغه ومن البيان أفصحّه وأوضحه إذا رام أن يقول لم يعجزه
قال سهل يا أمير المؤمنين ما ظننت أحدا تقدمني الى هذا المعنى فقال
الرشيد بل أعشى همدان حيث يقول .

وجدتك أمس خير بني لؤي وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غدا تزيد الخير ضعفا كذاك تزيد سادة عبد شمس
وقد كان المأمون كأبيه الرشيد، أنشده مرة مروان بن أبي حفصة
قوله :-

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلا بالدين والناس بالدنيا مشاغيل
فلم يطرب له فساه ذلك وذهب الى حمارة بن عقيل يقول له أعلمت
أن المأمون لا يبصر الشعر فقال له حمارة ومن ذا يكون أعلم به منه
فوالله إنك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا الى آخره قال مروان فانه
لم يتحرك لقولى وأنشده البيت السابق فقال حمارة إنك والله ما صنعت
شيئا وهل زدت أن جعلته عجوزا في محرابها وفي يدها مسابحها فمن
القائم بأمر الدنيا اذا تشاغل عنها وهو المطوق بها هلا قلت فيه كما قال
عمك جرير في عبدالعزیز بن مروان .

ولا هو في الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله
فقال مروان الآن علمت أنى أخطأت .

لذلك كان الشعر شفيعا اليهم في عظام الذنوب ، خرج محمد بن البعيت
على المتوكل فأرسل اليه من أتى به أسيرا فأمر بضرب عنقه فأنشد .

أبي الناس إلا أنك اليوم قاتلي إمام الهدى والصفح بالناس أجمل
وهل أنا إلا جبة من خطيئة وعفوك من نور النبوة يجبل
فإنك خير السابقين إلى العلا ولاشك أن خير الفعالين تفعل
فقال المتوكل جلسائه إن فيه لأدبا وأمر باطلاقة والعفو عنه .

وقد شايع خلفاء العصر الأول في ذلك رجال الدولة وأعيانها وقصص
البرامكة في هذا أمر يطول ، كان أبان على أيامهم يرتب لهم الشعراء
في التقدّم بهم إليهم وإلى الخلفاء ثم بقي خلفاء العصر الثاني من ذلك شبه
ما كان لأسلافهم في الأول ولكن غض منه وخفض من همّتهم جهل
الخدم الأتراك المستبدين عابهم ، بمعاني الشعر وأقدار الشعراء فلم
يظهر بمظهر أسلافه منهم إلا القليل كعبد الله بن المعتز صاحب
اليد الطولى على الأدب والشعر والفتوح الواسعة في نواحي البديع والمعاني
وميادين الخيال ولكن لما جاء العصر الثالث وتعددت الحواضر نافس
ملوك الدويلات وأمرؤها وأعيانها بعضهم بعضاً في النهوض بالأدب
كما عرفت ذلك حيث الكلام على ميزات العصر الثالث في صدر الكتاب
عن آل حمدان وآل بويه والفاطميين . فرقى الشعر بهذا النهوض .
أما العصر الرابع فقد أخذ حكمه يسرون نحو الجهل بالأدب إلى الورداء
فقلت رغبة الشعراء فيه وإن بقي للشعر على أيامه وجود في مصر
والشام والجزيرة والعراق وبعض فارس دون خراسان ، على النحو الذي
ذكرناه في مواطنه وطبقات رجاله منذ الآن .

٢ - عقدم لمجالس الشعر - لعل أول خليفة إسلامي عقد مجالس

للأدب عامة وللشعر خاصة بالمعنى الذي نريده الآن ، عبد الملك بن مروان

الخليفة الأموي العظيم وقد دونا عن مجالسه الأدبية في كتابنا الثاني
الشيء الكثير ، وقد جراه في شبه ذلك أبنائه من بعده وخاصة هشام .
ثم جاء العصر العباسي وخلفائه ميل شديد إلى هذه المجالس ولكنه لم يظهر
واضحا أيام أولهم أبي العباس لقصر مدته مع اشتغاله فيها بالسياسة
ليل نهار ، ثم ظهر في عهد أخيه المنصور صاحب الرسالة السابقة إلى
الشعراء على لسان حاجبه الربيع بطلب النزوع عن القديم إلى الجديد .
وقد سنا الوقت بهذه المجالس لابنه المهدي فعقد منها الكثير ،
عقد يوما مجلسا مروان بن أبي حفصة حشد فيه وجوه بني العباس فلما
تتام الناس دعاه فأنشده .

كان أمير المؤمنين محمدا رأفته بالناس للناس والد
على أنه من خالف الحق منهم

. سقته به الموت الختوف الرواصد

فأشار إليه فأمسك ؛ فقال يا بني العباس هذا شاعركم المنقطع
اليك المعادي فيكم فآتوه مايسره فأعطاه موسى ابنه خمسة آلاف درهم
وأعطاه هرون مثلها وأعطاه سائر البيت كل على قدر حاله فبلغ ما أعطوه
أربعين ألف درهم وأعطاه هو ثلاثين ألفا ثم قال له وسيا تيك مني ما يؤدك
إلى الغنى فقال له مروان قد رأيت من قبولك وبشرك وسرورك بما
سمعت مني ما سأزداد به شعرا وستسمع ويبغك ، فلا يبلغ ما أعطيتني
لشاعر بعدى ؛ قال أجل قال فأذني في زيارتك قال آذنتك فقال لي فيك وفي
أهل بيتك عدو فان رأيت ألا تجعل لأحد على سلطانا دونك قال
لا سلطان عليك دون أمير المؤمنين . وعقد ابنه موسى الهادي حين

وقع اليه سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدي وكان معنيا بجمع السلاح
مجلسا للشعراء اقترح عليهم فيه وصفه فقال بعضهم :

حاز مصامة الزبيدي من بين جميع الأثام موسى الأمين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا خيرا ما أغمضت عليه الجفون
أخضر اللون بين حديه برد من ذعاف يمس فيه المنون
أوقدت فوقه الصواعق نارا ثم شابت به الذعاف القيون
فاذا ما سللته بهر الشمس ضياء فلم تكد تستبين
ما يبالي من اتضاه لحرب أشمال سطت به أم يمين
يستطير الأَبصار كالقبس المشعل ما تستر فيه العيون
وكان الفرند والجوهر الجا رى على صفحته ماء معين
فمنحه عشرين ألف درهم . ولما عقد الرشيد البيعة لابنه الأمين
أخذ يستمع للشعراء فأنشده سلم

قد وفق الله الخلافة إذ بنى بيت الخلافة للهجان الأزهر
فهو الخليفة عن أبيه وجده شهدا عليه بمنظر وبمخبر
قد بايع الثقلان في مهد الهدى لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر

فأنهالت عليه العطايا من الرشيد والسيدة زبيدة حتى ناء ، وكذلك
فعل حين عقد البيعة من بعده للمأمون . وحتى المعتصم على أميته كان
يطرب للأدب ويعقد مجالس للشعر ، اجتمع الشعراء ببابه مرة فبعث
اليهم من يقول لهم ، من كان منكم يحسن أن يقول مثل قول منصور
النميري في الرشيد - وأنشد الأبيات التي تقدمت في المبالغات -

فليدخل فقال محمد بن وهيب الحميري، فينا من يقول خيرا منه ودخل
فأنشده قصيدته التي منها

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحق والقمر
فالشمس تحكيه في الاشراق طالعة إذا تقطع عن إدراكها النظر
والبدر يحكيه في الظلماء منبلجا إذا استنارت لياليه به الغرر
فهش له وبالغ في جائزته . وكانت مجالس ابنه المتوكل للشعراء ومكانة
البحري فيها مضرب الأمثال ، ولكن بعده كسدت مجالس الأدب
وقمع الشعراء حتى أحيها ملولا الدويلات في الشام ومصر والعراق
كما علمت آنفا . ثم طودها الكساد في النصف الأول من العصر الرابع
حتى زالت في نصفه الأخير .

٣ - إثابة المحسنين من الشعراء وقد تقدم الكلام على ذلك مع المدح بما
فيه الكفاية .

٤ - رقى الغناء ومجالسه ، لما لذلك من صلة وثيقة برقى الشعر وإشهار
الشعراء كما ستري في الكلام عليه الآن

ج - الغناء ومجالسه

قد عرفت مما ذكرنا في العصر الأموي أن الغناء نهض فيه
وأنهض معه الشعر ، لحاجة الحياة المترفة إليه في مدن الحجاز . وإذا كان
الترف منذ العصر العباسي الأول قد بلغ أقصى الغايات فلا بد أن يكون
الغناء قد بلغ فيه مثل ذلك وأثر في النهوض بالشعر أوضح تأثير
واليك البيان

اتخذ المغنون أصواتهم من الشعر فدفعوا بالشعراء إلى توخي

السهولة والرشاقة في الأساليب، وتطلب الجمال والرقّة في المعاني، وابتكار الجديد اللائق في الأغراض . وقد كان الغناء بشعر شاعر في حضرة خليفة ووزير أو ملك وأمير يثير في نفسه من المشاعر الكامنة والوجدانات الخافية ما يقوى فيه ملكة الشعر حتى يظفر كل يوم بمزيد . كما كان التسابق في هذا المجال يولد لدى كل منهم الطمع في أن يكون المجلي في هذا السباق وفي ذلك للغناء على الشعر فضل كبير . على أن له عليه فضلا آخر هو إشاعته في الناس لما هو طبيعي في الانسان من حب الغناء والميل إلى استماعه سميان في ذلك الفرح والمحزون لحسن موقعه في القلب ووصوله دون أن تفاهم آخر إلى أعماق النفس ، نعم كان ذلك سببا في أن ياهج الناس بالشعر الذي يغنى فيه ويكثروا إنشاده في المجتمعات وفيما بينهم وبين أنفسهم بتريد أبياته استمتعا بمعانيها أو الترم بها استعادة لانغامها . ولهذا عقد بين المغنين والشعراء إزاء وثيق ، بل لهذا وجد من المغنين من أجاد الشعر ومن الشعراء من أتقن الغناء وإن كانت مجالس المغنين أحفل جمعا وأكثر عددا من مجالس الشعراء وإليك مجلسا منها للرشيد

جمع الرشيد يوم ما بين المغنين المتعصبين للقديم منهم كإبراهيم الموصلى وابنه إسحق ، ونصره الجديد كإسماعيل بن جامع^(١) ثم أمر إبراهيم أن

(١) كان الغناء كله أول العصر العباسي على القديم فلما جاء إبراهيم ابن المهدي لم يتقيد به وقال أنا ملك وابن ملك أغنى كما أشتهى وعلي ما ألتذ ، وانضم اليه جماعة ، منهم إسماعيل المذكور وفليح بن أبي العوراء ويحيى المكي وعمرو بن نابه وحسين بن محرز وغيرهم ، وبقي إبراهيم الموصل على القديم وانضم اليه

يعنى فغنى الصوت

وقفت على ربع لية ناقتى فمازلت أبكى عنده وأخاطبه
وأسقيه حتى كاد مما أبسه . تكلمنى أحجاره وملاعبه
فكان كل من من فى المجلس يجيبه بترديد صوته وطرب الرشيد حتى كان
يقوم ويقعد ، فأشار مسرور الخادم الى ابن جامع فغنى
كأن أحور من غزلان ذى بقر أطارها شبه العينين والجيدا
أجرى على موعده منها فتخلفنى فأمل ولا توفى المواعيدا
كأنى حين أمسى لا تكلمنى ذو بغية يبتغى ما ليس موجودا
فاستخف الطرب الرشيداً بما استخفاف ثم غنى إسحق

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها فلما انقضى ما بينا سكن الدهر
فياحبها زدنى جوى كل ليلة ويأسلوة الأيام موعداك الحشر
وإنى لتعرونى لذكراك هزة كما انتفض العصفور بالله القطر
هجرتك حتى قليل لا يعرف الهوى وزرتك حتى قيل ليس له صبر
فكاد الرشيد يخرج من ثيابه طرباً وقال « والله ما الغناء الذى يلين
العريكة ويفسح فى الرأس والصدر ويحدث فى النفس طرباً إلا غناء
إسحق » ثم أوما إلى المغنين أن يحلوا صفوفهم وفرق فيهم الجواز بقدر
أهليتهم من ألف دينار إلى خمسمائة إلى مادون ذلك

هذا وقد اعتنى الخلفاء بالغناء أكثر من عنايتهم بالشعر، وأكرموا المغنين

جماعة ، منهم إسحق ابنه وسليم بن سلام وزير بن دحمان ومحمد بن الرف و أحمد
بن يحيى ومحمد بن حمزة وغيرهم . ولم يلبث المجددون أن أتقنوا ما خرجوا فيه
فكان فى خروجهم فتح مبين للغناء

أكثر مما أكرموا الشعراء واتخذوا منهم الندمان والسماز وأسقطوا
الكلفة عنهم وكانوا يزورونهم في منازلهم ويهبونهم أياما ينقطعون
فيها إلى لذتهم فلا يطلبونهم مع شغفهم بمجاورتهم ، ثم كان أن أقبل
بعضهم على الغناء يتعاهه ، كما أقبل كثير من أقربائهم حتى أجاده عدد
منهم كإبراهيم بن المهدي وأبي عيسى بن الرشيد وعبد الله بن المهدي
وعبد الله بن الأمين وأبي عيسى بن المتوكل وعبد الله بن المعتز .
بل من الخلفاء أنفسهم من اشتهر بالتأحين كالواثق والمنتصر والمعتز
والمعتد والمعتضد ، وكل ذلك ذكره صاحب الاغانى وساق على بعضه
الشواهد . ولعل أشد هؤلاء جميعا ولعا بالغناء أبو عيسى بن المتوكل
الذي كانت مجالسه فيه تجاوز حدود الوصف وإليك واحدا منها .

جمع مرة بين المشدود وزنين وديس فغنى المشدود

لما استقل بأرداف تجاذبه	واخضر فوق حجاب الدرشاربه
وأشرق الورد في نسرين وجنته	واهتز أعلاه وارتجت حقائبه
كلمته بجفون غير ناطقة	فكان من رده ما قال حاجبه

ثم سكت وغنى زنين

الحب حلو أمرته عواقبه	وصاحب الحب صب القاب ذائبه
أستودع الله من بالطرف ودعى	يوم الفراق ودمع العين ساكبه
ثم انصرفت وداعى الشوق يهتف بي	أرفق بقلبك قد عزت مطالبه

ثم سكت وغنى ديس

بدر من الأنس حفته كواكبه	قد لاح طارضه واخضر شاربه
إن يمنح الوعد يوما فهو مخلفه	أو ينطق القول يوما فهو كاذبه

طاطيته كدم الأوداج صافية فقام يشد وقد مالت جوانبه
ثم طادوا فغنوا بلحن واحد وقافية واحدة ، في كل ثلاثة أصوات
كما رأيت في هذه، حتى تم لكل أحد عشر صوتا، فطلب أبو عيسى من
المشدد وحده أن يغنى صوتا يكون ختام المجلس فغناه إياه فأثابهم
جميعا ولولا أنه قطعهم ما انقطعوا، وهذا هو الصوت :-

يا لجة الدمع هل للدمع مرجوع أم الكرى من جفون العين ممنوع
ما حيلتي وفؤادي هائم أبدا بعقرب الصدى من مولاي ملسوع
لا والذي تلفت نفسي بفرقة فلقاب من حرق الهجران مصدوع
ما أرق العين إلا حب مبتدع ثوب الجمال على خديه مخلوع
هذا وقد مال القوم استكمالاً للمتعة منذ الصدر الأول أن يؤدبوا
الجواري ويعلموهن الغناء، فكان من ذلك قينات يجعن إلى جمال الأنوثة
أدب الشعراء وصنعه المغنين ، واتخذ ذلك أرباب هذا الفن تجارة رابحة
إذ كانوا يستحضرون الجارية غفلا بنحو مائة دينار فإذا ما ثقفوها
باعوها بعشرات الآلاف^(١) وغالى الناس في اقتنائهم حتى كان عند
الرشيد ثلثمائة من المغنيات، واليك حكاية عنان جارية الناطق في أدبها
رواية بكر بن حماد وفي وصولها إلى الرشيد رواية إبراهيم بن عمر .
قال بكر - وقد انتهى إليه أدبها - خرجت معترضاتها فاراعنى إلا الناطق
. مولاها قد ضرب على عضدى فقال هل لك فيما سئح من طعام وشراب
ومجالسة عنان قلت ما بعد عنان مطلب فمضينا حتى أتينا منزله فدخل

(١) روى أن الرشيد اشترى إحدى الجواري بمائة ألف دينار بل روى

أن الأمين ثمن أخرى بألف ألف دينار وليس ذلك على تبذيره في طوره ببعيد.

فقال لها هذا بكر شاعر باهلة يريد مجالستك اليوم فقالت لا والله إني
كسلانة فحمل عليها بالسوط ثم قال لي ادخل فدخلت ودمعها يتحدر
كالجمان في خدها فطمعت بها فقلت

هذي عنان أسبلت دمعها كالدر إذ ينسل من خيطه
ثم قلت أجزى فقالت

فليت من يضربها ظالما تجف كفاه على سوطه
فقلت إن لي حاجة فقالت هاتها فمن سببك أوذينا، قلت لها بيت وجدته
على ظهر كتابي لم أقرضه ولم أقدر على إجازته قالت قل فأنشدتها
فأزال يشكو الحب حتى حسبته تنفس في أحشائه فتكلم
قال فأطرقت ثم أنشدت

ويبكي فأبكي رحمة لبيكائه إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما
فقلت لها فما عندك في إجازة هذا البيت

بديع حسن بديع صد جعلت خدي له ملاذا
فأطرقت ثم قالت

فعاثبوه فعنفوه فأوعدوه فكان ماذا

وقال إبراهيم - جلس الرشيد ليلة ومعه سماره فغناه بعض من
حضر من المغنين بأبيات جرير التي يقول فيها

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك لا يزال معينا
فطرب طرباً شديداً وأعجب بالأبيات وقال لجلسائه هل منكم أحد
يجيز هذه الأبيات بمثل من وله هذه البدرة - وكانت بين يديه بدرة من
دنانير - قال فقالوا فلم يصنعوا شيئاً فقال خادم علي رأسه أنا بهذا ذلك

يا أمير المؤمنين قال شأتك فاحتمل البدره ثم أسرع الى الناظف فقال له
استأذن لي على عنان ، فأذنت له فدخل وأخبرها الخبر فقالت ويحك
وبما الأبيات فأنشدها إياها فقالت اكتب

هيجت بالقول الذي قد قلته داء بقلبي ما يزال كينسا

قد أينعت ثمراته في طينها وسقين من ماء الهوى فروينا

كذب الذين تقولوا يسيدى إن القلوب إذا هوين هويننا

فدفع اليها البدره ورجع بالأبيات إلى هرون فقال له ويحك من قالها
قال عنان فقال خلعت الخلافة من عنقي إن باتت إلا عندي، وبعث إلى
مولاها فاشتراها منه بثلاثين ألف دينار وباتت بقية الليلة عنده .

بهذا التشجيع وغيره رقيت صناعة الغناء حتى صارت فنا ذا
مؤلفات^(١) وزادها رقيا اختصاص كل مغن باحن أو أكثر يضع فيه
الكثير من الأصوات^(٢) كما رقيت بجوار الغناء مع الشعر الذي هو مدد

(١) ذكر ابن النديم من مؤلفات الغناء كتبها جلها ضائع الآن منها كتاب
النغم للخليل ، وأخبار المغنين لإسحق وكتاب آخر له جمع فيه أغانيه، والآداب
الرفيعة في الغناء، والمناديات لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما ذكر أن لمحة
البرمكي وحسن بن موسى النصيبي تأليف فيه أيضا . والباقي الآن هو الأغانى
ولكن أبا الفرج أخلاه من قواعد الغناء إلا ما كان إشارة ورمزا وعلب عليه
الصبغة الأدبية في أخبار المغنين والشعراء

(٢) كاتراد فليح بن أبي العوراء بالنواقيسى وإبراهيم الموصلى
بالمخورى وإسحق ابنه بلحن التخنيث . على أن إسحق افتن جدا فصنع ألحانا
لا يقدر عليها شبعان ، وأخرى لا يقدر عليها متكى حتى يقعد وثلاثة لا يجيدها

الاصوات ، صناعات استخدام آلات الطرب من عود وناي وطبل وغيرها ، وانبرى الشعراء يصفون هذه الآلات كما يصفون القيان فيأتون بأبداع الأوصاف . قال ابن الرومي يصف القيان وفي أيديهم الآلات

وقيان كأنها أمهات طاطقات على بنيتها حوانى

مطفلات وما حملن جنينا مرضعات ولسن ذات لبان

ملقيات أطفالهن ثديا ناهدات كأحسن الرمان

كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران^(١)

أمه دهرها تترجم عنه وهو بادي الغنى عن الترجمان

وكان القيان أردن أن يقابلن ذلك الجميل من الشعراء بجميل مثله فكن ينقشن بعض أبيات الشعر في أكفهن بالحناء ، أو يكتبنها على ما يرتدين من ملابس ويمسكن من أدوات . نقشت إحداهن بالحناء في كفها

ليس حسن الخطاب زين كفى حسن كفى زين لكل خضاب
وكتبت أخرى على عصابها

ألا بالله قولوا يارجال أشمس في العصابة أم هلال

وحملت وصيفة للأمين مروحة عليها

بي طاب العيش في الصيف وبي طاب السرور

ممسكى ينفى أذى الحر م إذا اشتد الحرور

الندى والجود في وجهه أمين الله نور

ملك أسامه الشيبسه وأخلاه النظير

قاعد حتى يقوم . وزاد عنه الفارابي بعد ، فقد روى أنه دخل مجلس سيف الدولة ف ضرب لنا أضحكهم وآخر أبكاهم وثالثا أنامهم ثم قام (١) الكران الصنوج

هذا وقد دام الرقى للغناء بالغيا الأوج العصرين الأول والثانى .
وناله فى الثالث ما نال الأءب عامة والشعر خاصة فكان فى إقليم خيرا
منه فى إقليم كما ذكرنا عن الشعر آ نفا . ثم انحط فى الرابع فكانت حاله
أسوأ من حال الشعر لأنه يحتاج فى رقيه إلى مالا يحتاج إليه الشعر
من أسباب كانت فى هذا العصر والعدم سواء

البياعى يوسى



فهرس

تاريخ اللغة العربية في العصر العباسي

« بغير الاندلس والمغرب »

مقدمات

- | | |
|---------|---|
| ٦٠ - ٣ | مقدمات |
| ٨ - ٣ | تصوير عام للحال السياسية في هذا العصر الطويل وتقسيمه
أربعة عصور |
| ٢٣ - ٩ | طابع كل عصر وأثره العام في حياة اللغة من حيث الآداب
والعلوم |
| ٣٤ - ٢٤ | ماطرأ على العرب ولغتها من جراء امتزاج الأعجام بها |
| ٤٦ - ٣٥ | غلبة الفرس في هذا التأثير وإلى أي درجة كان في اللغة مداه
« من ناحية الاغراض والمقاصد ، وناحية المعاني والأخيلة ،
وناحية الألفاظ والأساليب » |
| ٦٠ - ٤٧ | انتشار العامية واختلافها باختلاف الاقاليم |

الخطابه	١٠٨-٦١
نماذجها « ٢٢ نموذجاً »	٨٤-٦١
حياتها « دواعيها وأغراضها ومميزاتها »	١٠٨-٨٤
الكتابه	٣١٠-١٠٩
أنواعها « رسائل ، توقيعات ، قصص ، مقامات ، كتابة علمية »	١١٠-١٠٩
نماذج الرسائل « في العصور الأربعة ٤٧ نموذجاً »	١٤٩-١١١
نماذج القصص والمقامات « ٤ نماذج »	١٦٤-١٤٩
أساليب الرسائل ومميزاتها وطبقات رجالها في العصور الأربعة مع التعريف الوافي بإمام كل عصر	١٩٧-١٦٥
دواعيها وأغراضها ومكانة رجالها	٢٣٠-١٩٧
التوقيعات « نماذجها وحياتها منذ نشأتها إلى انقراضها »	٢٤٣-٢٣٠
القصص وحياتها منقولة وموضوعة مع الموازنة بينها وبين القصة الآن	٢٦٣-٢٤٤
المقامات وحياتها منذ نشأتها إلى نهاية العصر	٢٧٦-٢٦٤

٢٧٧ - ٣١٠	تدوين العلوم والكتابة العلمية
٢٧٧ - ٢٧٩	تمهيد عام وبيان لأنواع العلوم وأقسامها
٢٧٩ - ٢٨٥	العلوم الشرعية . « التفسير والقراءات . الحديث . الفقه وأصوله . الكلام والمنطق »
٢٨٥ - ٢٩٨	العلوم اللسانية « النحو والصرف . متن اللغة . البلاغة . الادب والتاريخ »
٢٩٨ - ٣٠٣	العلوم الكونية « من طبيعية ورياضية وإلهية وسياسية »
٣٠٣ - ٣٠٥	الكتابة العلمية أو لغة التأليف في كل من العلوم الإسلامية
٣٠٥ - ٣٠٦	« شرعية ولسانية » والعلوم الكونية مجالس العلم والمناظرة وإنشاء المدارس

الشعر	٤٤٢—٣١١
نماذجه « في العصور الأربعة ٣١ نموذجاً »	٣٤٧—٣١١
تمهيد لحياته من النواحي الثلاث الآتية	٣٤٨—٣٤٧
ناحية الأغراض والفنون « من مناح عشرة »	٣٧٥—٣٤٨
« المعاني والأخيلة » من مناح ستة	٤٠٤—٣٧٥
« الالفاظ والأساليب » من مناح عشرة	٤٢٠—٤٠٥
توجيه النظر إلى ما للمولدين في تلك النواحي من حسنات وسيئات	٤٢٢—٤٢١
مواطن الشعر وطبقات رجاله	٤٢٨—٤٢٢
العوامل المساعدة لأسباب نهوضه	٤٣٤—٤٢٨
الغناء ومجالسه وعلاقة ذلك بنهضة الشعر	٤٤٢—٤٣٤
الفهرس	٥ — ١

دار العلوم

من

محاضرات الأدب العربي

لطلبة السنة النهائية

للككتور

احمد صيف

حقوق الطبع للمؤلف

١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م

مطبعة العلوم شارع الخليل بمدينة لاظ



أدب العرب في الاندلس

وصف بلاد البرانس

تقع شبه جزيرة إيبيريا بالجنوب الغربي من قارة أوروبا ، وتحيط بها مياه بحر الروم وبحر الزقاق والمحيط الاطلانطي من جميع جهاتها ما عدا جزءا صغيرا من الشمال الشرقى الذى تمر به جبال الألب (جبال البرانس) حيث يتصل بالقارة الأوربية . وقد سمي العرب شبه الجزيرة هذا بجزيرة الأندلس . واعلمهم سموها جزيرة لظنهم أن الماء يحيط بها من كل جهاتها، لأنهم عندما عبروا إليها من بلاد المغرب رأوها محاطة بالماء ، أو سموها جزيرة كما سموا بلادهم بجزيرة العرب من باب التغليب (كما قال بذلك ياقوت الحموى) وقد سرت هذه التسمية في جميع المؤلفات التاريخية والجغرافية ، وأطلق عليها جميع المؤلفين جزيرة الاندلس والحقيقة أن بلاد الاندلس ليست إلا جزءا من شبه جزيرة « إيبيريا » وهذا الجزء هو القسم الجنوبي الذى يمر به نهر الوادى الكبير وغيره من الأنهر ، فهو إقليم من أقاليم شبه الجزيرة يحد شمالا بنهر الوادى الكبير . ومن الجنوب ببحر الزقاق ، ويتصل من الغرب ببلاد البرتغال ، ومن الشرق بأقليم بلنسية ولكن العرب عند ما فتحوا هذه البلاد ملكوا شبه جزيرة إيبيريا كله ما عدا الجزء الشمالى المتصل بجبال البرانس وجزءا من القسم الشمالى الغربى أيضا ، وأطلقوا على كل البلاد التى ملكوها اسم الاندلس

وقد اشتملت بلاد الأندلس الإسلامية على جزء كبير من الهضبة العظيمة التي تشغل الجزء الأكبر من شبه جزيرة ايبيريا، وتمتد من الشمال إلى سلسلة جبال تسمى « كنتبريان » ومن الجنوب إلى جبال « سريا مورينا » وتخترق شبه جزيرة ايبيريا وديان كثيرة يفصل بعضها عن بعض سلاسل جبلية تجعل كل واد مستقلا عن الآخر وتجري في هذه الوديان أنهار كثيرة يصب بعضها في المحيط الاطلنطي كنهر الوادي الكبير، وواديه من أخصب الوديان هناك، به كثير من الحدائق الغناء والرياض النضرة « مطرزبالا زهار تسدح في جنباته الاطيار فتعبر النواعير وييسم النوار » وبهذا الوادي مدينة « قرطبة » أشهر مدن الأندلس وقاعدة الدولة الاموية زهاء قرنين ونصف قرن ازدهرت فيها علوم العرب وفنونهم وآدابهم، واشتهرت بأثارها الفنية ومبانيها العظيمة، ومدارسها الكثيرة، ومساجدها الفخمة التي من أشهرها جامع قرطبة العظيم الذي كان من أكبر المدارس الإسلامية، وجامعات العلوم الدينية والكونية، ومنه خرج كثير من العلماء والفلاسفة المسلمين وغيرهم. وعلى نهر الوادي الكبير تقع أيضا مدينة « أشبيلية » التي كانت قاعدة بني عباد من ملوك الطوائف، ومن المدن العظيمة الجميلة؛ قالوا من محاسنها: اعتدال الهواء وحسن المباني وانها أحسن مدن الدنيا وقال أحد الشعراء في وصف نهرها:

شق النسيم عليه جيب قميصه فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها هزءا فضم من الحياء أزاره
وكانت هذه المدينة محط الشعراء والأدباء زمن المعتد بن عباد

أشهر ملوك الطوائف . وعلى فرع من نهر الوادي الكبير هذا تقع مدينة «غرناطة» التي كانت قاعدة بني الأحمر ، والتي لا يزال ماثلا بها قصر الحمراء معجزة الفن العربي .

ويقسم شبه الجزيرة نهر تاجه العظيم الذي يصب في المحيط الاطلنطي أيضا ، وتقع عليه مدينة طليطلة . وواديه من أخصب الوديان وكانت طليطلة قاعدة ملوك القوط قبل دخول العرب هناك ثم صارت قاعدة لبعض ملوك الطوائف . قال المقرئ « وبطليطلة بساتين محدة وأنهار مخترقة ورياض وجنان ، وفواكه حسان مختلفة الطعوم والألوان ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وضياع بديةة وقلاع منيعة . وهي مطلة على نهر تاجه ، وعليه كانت القنطرة التي يعجز الواصفون عن وصفها . وكانت على قوس واحد تكتنفه فرجتان من كل جانب » .

ومن الأنهر التي تصب شرقا في بحر الروم نهر إبرة وعليه تقع مدينة «سرقسطه» و «طرطوشة» وهو أيضا نهر عظيم ذو واد خصيب وأشجار بأسقة . وقد كانت «سرقسطة» من بلاد العرب الصناعية ومدن العلم الشهيرة نبغ فيها جملة من العلماء المعروفين .

السكان

لقد سكن بلاد الأندلس أمم كثيرة من قبائل مختلفة وأجناس متعددة ، ففي أول الأمر كان يسكن الجهة الشمالية الشرقية بجبال الألبواب «جبال البرنس» وامتدادها جماعة لا يعرف التاريخ مبدأ ظهورهم في هذه البلاد ، وهم قبائل الأبير . ثم نزل بها من شمال هذه الجبال ومن بلاد الغال . «بلاد فرنسا» قبائل السلت والبسك والجلالقة

وتفرقوا في شبه الجزيرة بالشمال والشمال الغربي ، واستقر بعضهم في الشواطئ وبعضهم في داخل البلاد ، ثم اختلط بعضهم ببعض وامتزجوا امتزاجا حتى صاروا كأنهم أمة واحدة من جنس واحد . ونزح إلى هذه البلاد من شواطئ افريقية الشمالية الغربية كثير من البربر واستقروا هناك كما نزل بها الفينيقيون من أهل قرطاجنة قبل الميلاد بقرون واستولوا عليها .

ولما امتد ملك الرومان وتوسعوا في الفتح وحاربوا القرطاجنيين وهزموهم استولوا على هذه البلاد (١٣٤ ق . م) وسموها هسبانيا . ونشر هناك الرومان حضارتهم وعلومهم كما نشر قبلهم بها صناعاتهم وفنونهم أهل قرطاجنة . وبقي ساطان الرومان ممتدا على هذه البلاد إلى أن ضعف أمرهم وأغار عليهم قبائل الفندال من الشمال ، وهم من أصل جرمانى ونزلوا على ضفاف نهر الوادى الكبير وأسسوا دولتهم هناك وسموا الملك الذى نزلوا به « فاندالوس » وعربها العرب بعد ذلك « أندلس » . ثم سطا على هؤلاء القوط ، وهم قبائل من الجرمان أيضا كانوا استوطنوا جنوب بلاد الغال وقد أزالوا ملك الفندال من الأندلس وبقوا أمراء البلاد إلى أن دخلها العرب .

وعند ما دخل العرب بلاد الأندلس كان سكانها خليطا من كل هذه الأمم فكانوا مزيجا من الأمم اللاتينية - بقايا الرومانيين - ومن الجرمانيين النازلين من الشمال ، والبربر النازحين إليهم من افريقية فامتزج العرب بهم وامتزجوا بالعرب ، وكان لذلك أثر عظيم في الحياة العقلية كما سنبين بعد .

بعضه اقوال الارباء في وصف بلاد الاندلس وسكانها

وصف لسان الدين بن الخطيب بلاد الاندلس بقوله :
« خص الله بلاد الأندلس من الريح ، وغدق السقيا ، ولذاذة
الاقوات وفراهة الحيوان ، ودرر الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبهر العمران
وجودة اللباس وشرف الأتية ، وكثرة السلاح ، وصحة الأبدان ، وابيضاض
الوان الانسان ، ونبل الاذهان ، وفنون الصنائع ، وشهامة الطباع ونفوذ
الادراك وإحكام التمدن والاعمار بما حرمه الكثير من الاقطار »
وذكرها أحمد بن محمد بن موسى الرازي بقوله :

« بلد الأندلس هو آخر الاقليم الرابع إلى المغرب . وهو عند
الحكماء بلد كريم البقعة ، طيب التربة ، خصب الجناب ، منبجس
الأنهار الغزار والعيون العذاب ، قليل الهوام ذوات السموم ، معتدل
الهواء والجو والنسيم رييغته وخريفه ، ومشتاه ومصيفه على قدر من
الاعتدال ، وسطة من الحال لا يتولد في أحدها فصل يتولد منه فيما
يتلوه انتقاص ، تتصل فواكه أكثر الأزمنة وتدوم متلاحقه غير
مفقوده ، وفواكه على الجملة غير معدومة في كل أوان ، وله خواص في كرم
النبات وللأندلس المدن الحصينة والمعقل المنيعه والقلاع الحريزة
والمصانع الجليله ولها البر والبحر والسهل والوعر »

ومما ذكره في وصف سكانها قول صاحب فرجة الأثف .
« وأهل الأندلس عرب في الأنساب والعزوة والأثفة وعلو الهمة
وفصاحة الألسن وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الأذى

والسماحة بما في أيديهم ، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية. هنديون في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم. بغداديون في نظافتهم وظرفهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم وذكاءهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم وتفوذ خواطرهم . يونانيون في استنباطهم للحياة ، ومعاناتهم لضروب الفرامسات واختيارهم لاجناس القواكه وتدييرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر . فهم أحكم الناس بأسباب الفلاحة . وهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجديد الاعمال ومقاساة النصب في تحسين الصنائع ، أحذق الناس بالفروسية وأبصرهم بالطعن والضروب .

ومن كلام الحجارى فى المسهب يصف الأندلس وأهله من العرب بقوله :

« الاندلس عراق المغرب عزة أنساب ورقة أداب واشتغالا بفنون العلوم وافتنانا فى المنظوم والمنثور . لم تضق لهم فى ذلك ساحة ولا قصرت عنه راحة . وهم أشعر الناس فيما كثره الله تعالى فى بلادهم وجعله نصب أعينهم من الأشجار والانهار والطيور والسكرؤوس ، لا ينازعهم أحد فى هذا الشأن . وأما إذا هب نسيم ودار كأس فى كف ظبي رخيم ورجع بم وزير وصفق للماء خريز ، أو رقت العشييه وخلعت السحب أبرادها الفضية والذهبية أو تبسم عن شعاع نعر نهر ، أو ترقرق بطل جفن زهر ، أو خفق بارق ، أو وصل طيف طارق أو وعد حبيب فزار من الظلماء تحت جناح ، وبات مع من يهواه كالماء والراح ، إلى أن ودع حين أقبل زائر الصباح ، أو أزهرت دوحه السماء

بزهر كواكبها ، أو قوضت عند فيض نهر الصباح بيض مضاربها ،
فأولئك هم الأولون ، الذين لا يجارون ولا يلحقون ، وليسوا بالمتصرين في
الوصف إذا تقعقت السلاح وسالت خلجان الصورام بين قضبان
الرماح ، وبنت الحرب من العجاج سماء ، وأطلعت شبه النجوم أسنة
وأجرت شبه الشفق دماء . وقد أعانهم على الشعر أنسابهم العربية
وبقاعهم النضرة وهمهم الأبية .

العرب في الأندلس

ظهر الإسلام في العرب فانتشروا في الأرض وأوغلوا في الفتح
واخترق الآفاق ، وانسابوا في البلاد وأنساب عليهم الظفر والغنائم .
فوجدوا في ذلك مطمعا لهم ، وسعة لدولتهم ، وعونا لدينهم ، وعزاً
لمجدهم . ففتحوا في نحو ثلاثة قرون ما لم تصل إليه أكبر دولة
في العالم .

وقد خرج العرب من بلادهم إلى مصر فالقبروان فبلاد البربر
فالأندلس . فأسسوا هناك دولة واسعة الأرجاء ، كانت من أعظم دولتي
أقامها العرب ، وأزخر مدينتها بها الإسلام . توغل المسلمون في أفريقية
سنة ٥٠ من الهجرة في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، بقيادة عقبة بن
نافع الذي أسس مدينة القيروان وانتشروا في بلاد البربر (شمال
أفريقية) فأسلم سكانها . وفي سنة ٨٩ عهد الوليد بن عبد الملك الخليفة
الأموي إلى موسى بن نصير بولاية أفريقية . فنزل القيروان وأخضع
قبائل البربر . ثم سار إلى طنجة وفتحها . فدانت لسلطانه جميع هذه
البلاد وأسلم أهلها . وترك موسى بن نصير جنده بقيادة مولاة

طارق بن زياد . ثم تطلع إلى فتح اسبانيا ، لما علم من ضعف أهلها واضطراب حالها . فاستأذن الخليفة في ذلك ، ونزل الشواطئ في سنة ٩١ هـ ، وفي سنة ٩٢ عبر طارق بن زياد البحر مع جنوده ، ونزلوا الجبل المسمى الآن باسمه . وانتشروا في بلاد الاندلس انتشارا عظيما

ولما استقرت قدمهم هناك نزع اليها العرب من كل بطن وقبيلة ، من عدنانيين وقحطانيين وغيرهم . فن العدنانيين القرشيون والهاشميون الذين كانت منهم دولة بني حمود . ومنهم الخزوميون الذين منهم أبو بكر الخزومي الشاعر الأعمى المشهور ، والوزير بن زيدون . ومن بينهم الفهريون ، ومنهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري الذي غلبه على أمره ، وأخذ منه الملك عبد الرحمن الداخل مؤسس دولة بني أمية بالاندلس . أما القحطانيون أو اليمنيون فكانوا أكثر انتشارا . ومن قبائلهم كهلان ومنها محمد بن هانيء الشاعر المشهور ، ومنهم الازد ومنهم الجهم الغفير بالاندلس^(١) ورحل إلى الاندلس أيضا كثير من أهل مصر والشام والعراق . كما عبر إليها من مراکش وشمال افريقية جماعة من البربر واختلط كل هؤلاء بسكان البلاد الأصليين ، من قوط وغيرهم بالمصاهرة والمصادقة ، وجمعهم الاسلام فكانوا أمة واحدة

ولكن هذه الأمم لم يكدم يجتمع أمرها حتى دب فيها ديب التنازع وكانت العصبية العربية في أشد ما تكون . فقام النزاع والخصام بينهم وأيقظوا الفتن القديمة النائمة . ودارت رحى الحرب بين اليمنيين والمصريين ، وتنافسوا في الملك ، حتى أدى ذلك إلى انقسام الامارة فيهم

(١) راجع الباب الثاني من فتح الطيب

وإداتها بين الجندين سنة لكل دولة^(١). وكان خلفاء بني أمية بعد ذلك يستعينون ببعض القبائل على بعض تأييدا لملكهم ، ويميلون إلى اليمنيين الذين نصرهم في واقعة مرج راهط . فكان انقسام العرب منذ وطئت أقدامهم هذه البلاد : وقد دامت هذه الفتن مدة وجوب الدول الإسلامية في بلاد الأندلس ، حتى قيل : ليست هناك بقعة من أرض الأندلس إلا رويت بدماء المسامين ؛ ولم يكد يخلو يوم من الأيام التي خفقت فيها راية الإسلام هناك من حرب أو شجار بين المسلمين والمسيحيين واليهود ، أو بين المسلمين أنفسهم .

مع هذا فقد كان لدول المسامين عصور ذهبية ، وأيام زاهرة ، أثمرت فيها قرايمهم وجهودهم . وظهر فيها صفاء عقولهم وميلهم الفطري إلى الرقي ، حتى أصبحوا قواد العالم وأساتذة المعمورة . وربما كان ذلك التنافس في الملك من أسباب رقي تلك البلاد . لأن كل أمير أو خليفة كان يريد أن يواد ملكه بنشر العلوم والمعارف . ولا سيما ان العباسيين كانت مدينتهم ازهرت في بغداد ، فأرادوا أن يجاروهم في قرطبة ، ويظهروا عليهم فيما كان لهم من حضارة هناك . هذا إلى ما كان عليه العربي من ميله إلى العلم ونشره ، لانه كان يرى في ذلك نشر المدنية على يديه ، وهذه وسيلة من وسائل الفخر والاعجاب اللذين هما من أكبر مظاهر الاخلاق العربية . ولقد كان ممثل الأمة العربية^(١) مثل النائم المستغرق في نومه ، فاذا استيقظ كانت يقظته يقظة الشيطان المجد .

ولما دخل العرب الأندلس أدخلوا معهم بلاغتهم ولغتهم التي كانت

(١) راجع تاريخ ابن خلدون جزء ٤ صحيفة ١٢٠

من أكبر مظاهر الفنون لديهم ، فتبعت أول خطوة خطاها أكبر قوادهم فاتح هذه البلاد طارق بن زياد . وأول مظاهر تلك البلاغة العربية الخطبة الحماسية الشهيرة لهذا الفتح العظيم ، التي تدل على رسوخ ملكة البيان في القواد . وخبرتهم بالقيادة ونفوس الجنود ، وكيفية امتلاكها بالرغبة أحيانا والرغبة تارة ، وبث الأمل في نفوسهم باكتساب الغنيمة وانتظار الأجر من الله ، وأن القائد بلسانه كالقائد بسيفه وسنانه قلها طارق بن زياد وهو قادم على عدو أكثر منهم عددا وعدة ، لأنه دخل الأندلس ومعه اثنا عشر ألف رجل أُرهب بهم سبعين ألفا من الأعداء

وهذه الخطبة هي أول ربح هبت على تلك البلاد معطرة ببلاغة العرب . وأول كلام بليغ عبر عبيره هناك . بل أول تاريخ البلاغة العربية . ولم تكن بلاغتها في الأسلوب وحده ، بل في الحماسة والشجاعة اللتين كانتا من طبع العربي ، وهي من نوع الكلام الذي يوحى به حب الجهاد ، والرغبة في نيل الأجر الدنيوي والأخروي معا ، ويذكر الجيوش بمفخرة النصر على العدو ، أو الموت في سبيل الدفاع عن الحوزة ونشر الدين . وفيها من ضروب الاستبسال والترغيب في القتال مالا يكون إلا من قاب حديد وقائد عظيم مجرب

وهذه هي خطبة طارق بن زياد :

أيها الناس . أين المنقر البحر ورائكم . والعدو أمامكم . وليس لكم والله إلا الصديق والصبر . واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيق من الأيتام في مادبة اللثام وقد أستقبلتم عدوكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة . وأنتم لا وزر

لكم إلا سيوفكم ولا أقوات إلا ما تمتخلصونه من أيد عدوكم . وان امتدت
بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهب ربحكم وتعوضت القلوب
من رعبتها منكم الجرأة عليكم . فادفعوا عن أنفسكم خذلات هذه العاقبة
من امركم بمناجزة هذا الطاغية . فقد انقت به اليكم مدينته الحصينة . وان
انتهاز الفرصة فيه لممكن أن سمحتم لانفسكم بالموت . وانى لم أحذركم أمرا
أنا عنه بنجوة . ولا حمايتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس ابرا منها بنفسى
واعلموا أنكم ان صبرتم على الاشق قليلا اسمتعم بالارفة الالذ طويلا . فلا
ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه باوفر من حظى . وقد بلغكم
ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات فى
الدر والمرجان . والحلل المنسوحة بالعقيان ، المقصورات فى قصور الملوك
ذوى التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الابطال
عربانا . ورضيكم ملوك هذه الجزيرة إصهارا واختناانا . ثقة منه بارتياحكم
للطعان واستماحكم بمجالدة الابطال والفرسان . ليكون حظهم منكم ثواب الله
على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصا لكم من
دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى انجادكم على ما يكون لكم
ذكرا فى الدارين . وأعلموا أنى أول مجيب الى مادعوتكم اليه . وإنى عند
ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى .
فاحملو معى فان هلكت بعد فقد كفيتم أمره ولم يعوزكم بطل ماقل تسندون
أموركم اليه . وان هلكت قبل وصولى اليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه واحملوا
بانفسكم عليه واكتفوا اليهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بعده يخذلون

وقد كنت للمسلمين هناك عصور تاريخية وعصور أدبية .
أما العصور التاريخية فقد بدأت بعصر الأمراء منذ الفتح الى سنة
(١٣٨) . تولى الأمر فيها عشرون أميراً كانت مدتهم ستة وأربعين
عاماً (٩٢ - ١٣٨) . وكانت هذه الامارات تابعة للخلفاء في المشرق
زمن الأمويين والعباسيين . ولكن هذا العصر كان عصر اضطراب
وشجار لا ينقطعان . ولما علم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد
الملك الأموي بما هناك من المنافسة بين اليمانيين والمضريين ، وكان قد
فر من ظلم أبي جعفر المنصور الذي نكل ببني مروان ، التجأ إلى بلاد
البربر وذهب إلى الأندلس مع جماعة من أتباعه ، وأسس هناك دولة
بني أمية سنة ١٣٨ واستتب له الملك سنة ١٤١ هـ واستولى على قرطبة
بمساعدة اليمانيين ، فتأسست دولة بني أمية التي كان عصرها من أزهى
عصور العلم والأدب والحضارة بجميع أنواعها . وبقيت هذه الدولة
٢٨١ سنة (الى سنة ٤٢٢ هـ) تولى الملك فيها ١٩ خليفة . وقد بلغت
الدولة ذروة مجدها في زمن عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر (٣٠٠ -
٣٥٠) ودامت مع الدولة العباسية بالمشرق . فكان نور المدينة الاسلامية
يسطع من المشرق والمغرب معا . فان عبد الرحمن الداخل طاش من عصر
أبي جعفر المنصور إلى زمن هرون الرشيد (١٣٨ - ٢٧٢) وكان الحكم
ابن هشام معاصراً للمأمون (١٨٠ - ٢٧٦) فكانت الدولتان تتسابقان
في ميدان العلوم والحضارة . وكانت قرطبة وبغداد كعنتي العلماء ومنبعي
العلوم والفنون .

وبعد زوال بني أمية انقسم الناس أحزاباً وشيعاً . فكانت

هناك ممالك كثيرة مستقلة سمي ملوكها بملوك الطوائف فقام ابن عباد في أشبيلية . وابن الافطس في بطليوس . وذو النون بطليطلة . وابن هود بسرقسطة الخ . وبقيت الحال كذلك كانت البلاد فيها أكثر ما تكون اضطراباً^(١)

مع هذا فقد كان لملوك الطوائف ميل عظيم للعلوم . فكان ابن الافطس الملقب بالمظفر أحرص الناس على جمع علوم الادب خاصة من النحو واللغة والشعر ونوادير الاخبار وعيون التاريخ . انتخب له مما اجتمع من ذلك كتاب كبير ترجم باسمه (المظفرى) كان يقع في نحو ٥٠ مجلدا . وكان لابنه المتوكل قدم راسخة في صناعة النظم والنثر قالوا : وكانت أيام بني المظفر أعيادا ومواسم ، وكانوا ملجأ لاهل الادب وفيهم قال الوزير الكاتب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون قصيدته الشهيرة وكان بنو هود ملوك سرقسطة ومايلها ، من أهل العلم وأنصاره فقد كان المؤمن بن المقتدر بالله قائما على العلوم الرياضية وله فيها تواليها منها كتاب « الاستكمال والمناظر » ومن أشهر ملوك الطوائف أبو القاسم المعتمد على الله بن عباد كان شاعرا أدبيا وكان لا يستوزر وزيراً إلا أن يكون

(١) قال صاحب المعجب ، وأما حال أهل الاندلس بعد انحلال دعوة بني أمية فقد تفرقوا فرقا وتغاب في كل جهة منها متغاب ، وضبط كل متغاب ماتغاب عليه وتسموا القاب الخلافة فمنهم من تسمى بالمعتضد ومنهم من تسمى بالمأمون وآخر تسمى بالمستعين والمقتدر والمعتصم والمعتمد وغير ذلك من القاب الخلافة . وفي ذلك يقول أبو علي حسن بن رشيق .

مما يزهدي في أرض اندلس أسماء مقتدر فيها ومعتضد
القاب مملكة في غير موضعها كالمهر يحف انتفاخا صولة الاسد

أديباً وشاعراً ، ومن وزرائه الكاتب الشهير ابن زيدون . ومنهم
الكاتب ابن عمار . وكان المعتمد هذا من أعظم ملوك الطوائف . ولم
تذهب دولته إلا بعد أن استعان يوسف بن تاشفين الذي تغلب عليه
وأسره في إفريقية بعد أن أبلى بلاء حسناً في محاربتة (سنة ٤٨٤ هـ)
ومنذ ذلك الزمن ملك البربر إسبانيا وسموا بالمرابطين ، وأصبحت
الأندلس ولاية تابعة لإفريقية . وملك يوسف بن تاشفين بلاد الأندلس
وأصبح هو وأبنة من أكبر الملوك ^(١)

ولم يكد يستتب لموكها الأمر حتى ظهر فيهم الجهل والتعصب
لمسائل الدين وابتدأت الحالة العقلية تنحط ، وحركة اللغة والعلوم
تقف . وفي زمن علي بن يوسف بن تاشفين ظهر التعصب لمذهب الإمام
مالك ، حتى قالوا إنه نسي النظر في كتاب الله . وصودرت كتب الكلام ،
ومنع الكلام في العقائد ، وأمر باحراق كتب الغزالي . ثم عمّت الفوضى
جميع البلاد واضطرب حال المسلمين بعد سنة خمسمائة ، ووكات
لأمور للنساء وعلى أثر ذلك قامت دولة الموحدين التي نشأت بمراكش
في أوائل القرن السادس وأراد الموحدون أن يردوا عظمة عصر بني
أمية من علوم وفنون وصناعات . واشتهر في زمنهم طائفة من
العلماء والشعراء والفلاسفة . فقد كان لامرأها ميل عظيم للعلم كأبي
عقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ - ٥٨٠) الذي اشتهر بحبه

(١) قالوا وانقطع الى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحواله
في أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم واجتمع له ولابنه
ن أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ، لم يسبق اجتماعه في عصر من العصور

للعلم والاشتغال به وبجمع الكتب . وكان يتناقش مع ابن رشد الفيلسوف الشهير . حتى قال ابن رشد أنه هو الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم ارسططاليس .

ثم ظهر بنو هود في أوائل القرن السابع الهجري وغلبهم بنو الأحمر ملوك غرناطة . واضطربت الحال في هذه المدة بين بني الأحمر وبني هود ، كما كانت عند الفتح بين الامراء . وانتهت الدولة في أواخر القرن التاسع الهجري حيث خفت صوت المسلمين هناك . وقد ظهر في هذه المدة الأخيرة كثير من الأدباء والشعراء ، كسان الدين بن الخطيب وابن زمرك وغيرهم .

أما عصور الأدب والبلاغة فقد ابتدأت بتأسيس الدولة الاموية ولم يافل نجم هذه الدولة إلا بعد أن أفضمت البلاد بالعلماء والفلاسفة والأدباء ومعاهد العلم ودور الكتب . وكانت الصبغة العربية ظاهرة في الشعر والنثر لأنها كانت أشبه بما في بلاد المشرق . فلما كثرت الطوائف ظهرت الاباحة في كل شيء وظهر كل هذا في أنواع البلاغة من نظم بديع ونثر رشيق ، ومن كلام في وصف مجالس اللهو والطرب وأغرب الشعراء والكتاب في هذه الانواع . وأكثر مشهورهم ظهوروا في زمن ملوك الطوائف وبعده كما ظهر كثير من العلماء والفلاسفة بالأدباء .

وما زالت النهضة الادبية سائرة سيراً حثيثاً ، لأن العقول كانت قد نضجت وأخذت في البحث والاستنباط . وقد زالت الدولة على

السياسية ، والحياة العقلية في عز مجدها . وعلماءؤها وأدباؤها لا يزالون في إبان نشاطهم ، ونشوة يقظتهم العقلية حتى انتشروا في البلاد ، وأفاضوا عاينها من فضل علومهم ما كان له أثر نافع عند الأمم التي نزلوا فيها .

وقد كانت آداب العرب تسرى في هذه العصور سريان الحياة في الأجسام منذ وضع العرب أقدامهم في تلك البلاد فالعصر الأول وهو عصر الولاة كان يسوده الروح العربي في العادات والأخلاق من حماسة وشهامة وحب للفتح والجهاد وتمسك بالعصبية العربية . وكانت هذه الأخلاق تتمثل في الخطب والرسائل بين الولاة . ولكن هذا العصر كان عصر فتح واضطراب بين العرب والقوط وغيرهم من سكان البلاد كما قلنا وبين القبائل العربية لما أثارتها في نفوسهم الأطماع والأحقاد القديمة التي كانت بينهم . فلم يكن للغة والأدب شيء يذكر في تلك الأيام وأما عصر بني أمية وعصر ملوك الطوائف وهو زهاء أربعة قرون فكان أزهى عصور اللغة العربية في الاندلس .

ففي هذا العصر ارتقت العلوم والفنون والآداب وكثر الشعراء والكتاب كما كثروا فدون من أهل العلم والأدب من المشرقين ، فوجدوا هناك صدراً رحيباً ، وأخصيت بهم موارد العلم والأدب فعالجوا الكتابة والشعر في كل ما كان هناك من مظاهر الحضارة في المجالس والمحافل وضروب الاجتماع من جد وهزل ، وحاجات الدولة ومرافقها السياسية والإدارية ، فكانت الصبغة العامة للحياة العقلية

والأدبية صبغة عربية دينية . كذلك كانت أساليبهم وصيغتهم عربية
بمحنة أشبه بأساليب الأثوميين ومن عاصروهم في بلاد المشرق لأنهم لم
يشتغلوا هناك بالعلوم الكونية والفلسفية إلا في آخر عصر ملوك
الطوائف وعصر البرابرة .

على أن كل ما حصل هناك من جديد في الكتابة كان في انتشار
السجع وتعبد الصنعة مجازاة لأهل المشرق وقد انسج الخيال في الشعر
من جراء الحالة الاجتماعية ومظاهر الحضارة كما سنبين ذلك .

وأما عصر المرابطين والبربر فكان عصر ركود في اللغة والأدب
وعصر تعصب أعمى لبعض مسائل الدين ، وعصر وقوف لفنون اللغة
وآدابها . وقد دام هذا العصر زهاء قرن ونصف قرن . وكان نذيرا
بسوء حالة اللغة .

وجاء بعد هذا العصر عصر بني هود وبني الأحمر (٦٣٠-١٩٧) م
ولم يبق في اللغة الا بقية رمق لم تقو على ما أدركها من الفناء ولم تحتفظ
ما كان لها من ذمء ،

الحياة العقلية في الاندلس

امتزج المسلمون الذين دخلوا الاندلس بسكان البلاد وتصاهروا
وتحابوا ، ثم دخل كثير من غير العرب في الاسلام ، فظهرت صلة
أخرى غير صلة الاجتماع في بقعة واحدة ، وهي صلة الدين ، وامتزجت
كل هذه الأجناس بعضها ببعض امتزاجا تسرب في عقولهم كما تسرب
في دماهم فكانت لهم نزعة عقلية جديدة ونمت مواهبهم الفطرية ،

وساعدهم على ذلك انتجاعهم بلادا واسعة غنية جميلة ، مختلفة المناظر متعددة المناحي ، فكان أثر ذلك كله ان أصبحت لهم مميزات عقلية وصفات لم تكن لغيرهم من العرب الخالص . فاشتغلوا بأنفسهم في نقل العلوم ونشرها ، وزحلوا إلى البلاد في طلبها ، ورحل إليهم كثير من العلماء ، فأخذوا عنهم كما أخذوا عن آثار اليونان والرومان والفرس . ولم يكن للعرب إذ ذاك من يزاحمهم ، لأن معالم الحضارة كانت خفيت والعالم يتطلع إلى من ينقذه من مخالب الموت ويفيض عليه بنور العرفان وكان العرب أبطال تلك الأيام ، فأصبحوا زعماء المدينة . وأرادوا أن ينالوا شرف هذه الزمامة ويملكوا زمام العالم . وقد عرفوا أن ذلك لا يكون إلا إذا ارتقت العقول وتقدمت العلوم ، وان دولة لا تؤسس إلا على العلم ، وان أمة تريد أن تعيش لآتمحيا إلا بالعلم فأراد عبد الرحمن الداخل أن تكون دولة بني أمية في المغرب أثبتت دمامة من دولة بني العباس بالمشرق ، وأبقى وأنخم من ملك آباءه في ربوع الشام^(١) فتمهدت في زمنه وسائل السعادة والمدينة ، وكان يعمل على ترقية العقول ونشر العلوم والفنون والصناعات . كذلك كان عبد الرحمن الثاني المعاصر للمأمون (من سنة ٢٠٦ إلى ٢٣٨) شديد الرغبة في الفنون والآدب والموسيقى ، فعمل على ترقية أذواق أهل الأندلس بنشر الفنون الجميلة . فكان خلفاء بني أمية يجارون دولة بني العباس

(١) فقد رووا عنه

أبني أمية قد جبرنا صدعكم بالغرب وغموا السعد دقبائل
مادام من نسلي امام قائم فالحكم فيكم ثابت متواصل

في حضارتهم وفي كل شيء لديهم . وأرادت قرطبة أن تظهر على بغداد فأدخل عبد الرحمن الثالث في أسبانيا أكثر ما كان عند العباسيين من علوم وفنون . وأنشأ في قرطبة كثيرا من المباني الفخمة . وبلغت أبهة الملك منتهاها في أيامه . وفي عصره كانت المدينة الاسلامية زاوية . فكان العلماء والادباء يفدون من المغرب الى المشرق ، ومن المشرق الى المغرب والطريق من بغداد الى قرطبة لا يغيب عنه ضوء العلم ، ولا تنقطع عنه قدم العلماء ، والعالم يستضيء في ظلمة جهله بأشعة العلوم العربية ، ويهتدى بآثار العرب وجهودهم في نقل الحضارة من اليونان وغيرهم مما كشفوا مخبئاته وفتحوا معيئاته . وقد نمت مواهب العرب في اسبانيا كما ينمي النبات الصالح للحياة في الارض الخصبة الطيبة . وظهر أثر ذلك كله في العلوم والفنون ، كما ظهر في أنواع البلاغة من شعر ونثر ، مما لم يكن عند سواهم ذلك لما كان لهم من النشاط والجد والمثابرة على البحث والتنقيب ، والعمل على فهم ما تركه الناس قبلهم من علوم عقاية أو نقلية ، ومن صناعات وفنون . فكان لهم أثر في كل شيء اطلعوا عليه ، فألفوا ودونوا واخترعوا ، مما لا يكاد يحصى ، حتى أن الحركة العقلية لديهم لم يكن لها مثيل في زمنهم . لأنها كانت نتيجة جهود العقول والقرايح عند العرب جميعا .

وقد عنوا عناية عظيمة بجمع الكتب في كل علم وفن . فقد كان في اسبانياستون مكتبة عامة ، أنشأها الخلفاء الامويون وغيرهم ، أشهرها مكتبة قرطبة ، وكانت تحتوي على الكتب العقلية والنقلية التي ترجمها وألفها العرب في الزراعة والفلك والرياضة . وفي الطب والكيمياء والموسيقى

وفي أصول الدين ككتب التوحيد والفقہ والحديث والتفسير . وفي فنون الأدب كالبلاغة والتاريخ والقصص والرحلات والخطب ودواوين الشعراء المختلفة ومعاجم اللغة . كان ذلك كله مجموعا مجمعا منظما في مكتبة الحكيم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦) كل غرفة تحتوى على علم أو فن من الفنون ^(١) . واشتدت رغبة الحكيم في اقتناء الكتب فكانت فهارس المكتبة أربعة وأربعين ، وبلغت الكتب فيها مائتي ألف مجلد . جمعها من إفريقية وفارس وجميع البلدان . وانتقلت رغبة جمع الكتب إلى طبقة العامة حتى صار ذلك أنفوس ما يقتنى . وحرص الناس عليها وعلى نقلها . وكان الحكيم نفسه طالما بالأخبار والأنساب ، محبا للقراءة ، حتى قالوا إنه قلما يوجد كتاب في مكتبته إلا كان له نظر فيه وتعليق عليه ، يكتب عن المؤلف وعن مولده ووفاته ويأتى بفرائب لا توجد إلا عنده . وكان يجمع في داره الحذاق في صناعة النسخ والضبط والاجادة في التجليد ، ويجود عليهم بالمال . فكانت داره أشبه بمجمع علمي . وكان يبعث في الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار ، يعطيهم الأموال لشراؤها ، حتى جلب منها إلى

(١) كان الحكيم من أشد أنصار العلم ؛ لأن أباه عبد الرحمن الثالث رباه بأمره الأساتذة ووكّل أمر تعليمه إلى أبي علي القالي . وقد نشر الحكيم على نفقته الخاصة مؤلفات أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد . وجعل في قرطبة أكبر دار لمطالعة الكتب العربية وجعل أخاه عبد العزيز مديرا لها ومحافظا عليها ؛ على حين أن أخاه المنذر كان له الرياسة على أندية العلوم المختلفة التي تأسست في قرطبة

الاندلس مالم يكن لهم به عهد، مما كان يضاهى ما جمعته ملوك بني العباس في الازمان الطويلة . واستخدم العلماء في كل مايساعد على العلم ونشره ، فكان منهم الوراقون المشهورون المعروفون بالضبط وحسن الخط . وبعث في كتاب الاغانى الى مؤلفه أبي الفرج بألف دينار من الذهب العين، فجاءه بنسخة منه قبل أن يخرجها الى العراق. كذلك كان للخلفاء ميل عظيم إلى أكرام العلماء والاخذ بناصرتهم^(١) فكان المنصور بن أبي عامر على مثل هذه الحال يعمل على ترقية العلوم ونشرها في أنحاء الدولة لدى الرعية على اختلاف أجناسهم ونزواتهم ، بعد أن كان العلم مقصوراً على الوجوه منهم وكان يزور المدارس ومحضر الدروس ويختلط بالطلبة ، ويمدح المدرسين ويكافئ التلاميذ على جدهم ويجلس في مجالس العلماء للمناقشة والبحث ، ويختار من نابغهم القضاء والقراء والخطباء

على مثل هذا كانت عناية العرب بنشر التعليم تفوق كل عناية . فكانوا إذا فتحوا بلداً أو مدينة يبدءون بإنشاء مسجد ومدرسة وكأنتهم يقصدون بذلك أن نشر الدين والعلم معاً لازم لتهديب الامم، وأن تربية النفوس بالدين كتربية العقول بالعلوم والمعارف . وعندهم أخذ أهل أوروبا المدارس الجامعة ونظام « الكليات » التي يجتمع فيها كثير من الطلبة على أساتذة يتعلمون العلوم المختلفة . وكان في كل مدينة من مدن اسبانيا مدرسة كبيرة . بل كانت القرى تحتوى على مدارس لتعليم

(١) راجع خبر دخول أبي علي القالى في الأندلس والاحتفاء به واشتغال

القرآن والقراءة والكتابة . وأصبح السواد الأعظم من سكان البلاد عارفاً بالقراءة والكتابة ، على حين أن أهل أوربا كانوا من العامة الذين لا يقرءون ولا يكتبون ، لان التعليم كان منحصراً لديهم في طائفة القسوس الذين لم يخرج العلم من دائرتهم ، وان تعدادهم فالى بعض الامراء والاغنياء . وكانت معاهد التدريس خاصة بالعلماء والفضلاء ، ورؤساؤها من أكبر الرجال المفكرين .

وكان للطب أربع مدارس أهلة بالمدرسين والتلاميذ من جميع الممال والاجناس فى قرطبة واثبيلية وطيطة ومرسية

هذا شىء يسير عن الحركة العلمية والادبية فى الاندلس . منها يمكن الوقوف على مقدار ما كان هناك من الميل الى العلوم والمعارف ، وما وصلوا اليه فى الحضارة والاطلاع وكثير من هؤلاء العلماء كانوا من الأديباء والفقهاء . وقد كانت لهم عناية خاصة بعلوم اللغة والدين ، لان تربيتهم العقلية كانت مؤسسة على هذين الفرعين . لذلك كان لكثير من علماء العرب المتخصصين فى العلوم الرياضية والطبيعية شهرة عظيمة فى علوم اللغة والدين . فكان أبو عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بابن السمين من أهل قرطبة بصيراً بالحساب والنجوم والنحو واللغة والعروض ومعانى الشعر والفقه والحديث والاخبار والجدل . وكان الحافظ أبو الوليد هشام من أعلم الناس بالهندسة وآراء الحكماء والنحو واللغة ومعانى الشعر والعروض وصناعة الكتابة والفقه والفرائض . فكانت الفنون الشرعية وعلوم اللغة أساساً لتربيتهم العقلية ، حتى لا تكاد نجد عالماً أو فيلسوفاً أو منجماً إلا وله علم بالشعر

والعروض واللغة . لهذا ظهر شيء كثير من آثار تلك التربية العلمية
والفلسفية في بلاغتهم من نظم ونثر
أما اللغة العربية وآدابها فقد ذاعت في كل أنحاء البلاد وعند
الخاصة والعامّة وماكنت منهم ما-كّة البيان : قال بعض المؤرخين
« هجر أهل اسبانيا اللاتينية واشتغلوا باللغة العربية وآدابها ،
وكانوا لا يكتبون بغيرها ، حتى أن أحد العلماء المشهورين منهم شكوا
من ذلك ، وقال اننا نحب قراءة الشعر والقصص العربية ، وندرس
المسائل الاينية والفلسفة الاسلامية باللغة العربية لتعلم لغة رشيقة
وعبارة بايغة ولا يكاد يوجد عندنا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة
اللاتينية . وكل شبابنا الاذكيا لا يعرفون غير لغة العرب وآدابها ،
لأنهم يقرءون الكتب العربية ويدرسونها بهمة عظيمة ، ويدعوهم كثرة
اطلاعمهم على تلك الكتب الى الاعجاب بأداب العرب . فاذا حدثتهم عن
كتاب من الكتب اللاتينية مسخروا منها ، وقالوا أنها لا تستحق
عناية قارىء أو مستفيد من أجل ذلك نسي المسيحيون لغتهم ، فلا
تكاد تجد في الالف منا واحدا يمكنه أن يكتب رسالة باللاتينية .
أما اذا أرادوا أن يكتبوا بالعربية فان كثيرا منهم يكتب بعبارات
بايغة ، وأسلوب منمق ، وقد يفوقون العرب أنفسهم في ذلك ، حتى
في الشعر وكتابه القوافي . »

كذلك دخلت الالفاظ العربية في اللغة الاسبانية وغيرت شكل
لغة البلاد وأكسبتها لهجة جديدة في زمن شارل الاصلع
« وفي أوائل القرن التاسع كانت اللغة العربية هي لغة الوثائق

الرسمية . وفي هذا الوقت ترجم قسيس من أهل اشبيلية التوراة الى اللغة العربية لتلاميذه فوجدَ أحد العلماء هناك على أهل دينه، وأتهمهم بالمساعدة على نشر اللغة العربية والعمل على ترك اللاتينية . وقد دامت هذه الحال زمنا طويلا في قرطبة وطليطلة ، حتى أن القسس جُلبهم باللاتينية اضطروا الى ترجمة كتب الكنيسة الى اللغة العربية . وبقى ذلك الى أواخر القرن الحادى عشر ، أى بعد أن استولى ألفونس السادس على طليطلة سنة ١٠١٥ م

وليس لاحد أن يناقش كلام « كوند » القائل بأن من أدب أهل اسبانيا ما هو مأخوذ من أدب العرب ومتأثر به . ولا شك فى أن الاسبانيين مدينون للعرب بلغتهم وآدابهم ومعرفتهم الفاسفية الخ . « وأما اهتمامهم بالفنون كالادب والغناء والموسيقى فقد كان أكثر انتشارا ، لانهم كانوا أحوج اليها فى مساحات الالهو والطرب ، ورياضة النفوس ومجالس الخلفاء والامراء . وهى عليهم أسهل ؛ ولدى ذوقهم أعذب ؛ ولنفوسهم أقرب .

الفنون والترف وأبهة الملك فى الاندلس

كانت هممة العرب فى إبان نهضتهم متجهة الى العلوم ، منصرفه الى الدرس والتأليف والنقل . فظهر منهم طائفة عظيمة من الفلاسفة والاطباء وعلماء النبات والحيوان والكيمياء والطبيعة والفلك والرياضة كما أشرنا الى ذلك . وكان اهتمامهم بالفنون كالموسيقى والغناء والشعر وفن العمارة عظيما أيضا ، حتى فاقوا غيرهم فى بعضها وأخذوا بعضها عن

الامم الاخرى . ولهم فى ذلك آثار جميلة بديعة ، وميوطهم الى فن التصوير والنحت كانت من بواعث الامل على تقدمهم فى ذلك لو أن دولتهم امتد زمنها . فقد كان لدولة بنى الاحمر بغرناطة آثار بديعة فى فن العمارة ، بل ظهر قبل ذلك ميول الخلفاء الامويين لفنى النحت والتصوير . فبنى عبد الرحمن الناصر لجاريته الزهراء مدينة سماها باسمها أتقن بناءها وأحكم الصنعة فيها ، وجعلها مستنزها ومسكناً لها ولحاشيته وأرباب دولته ، ونقش صورتها على الباب . وكانوا يجلبون الصور والتماثيل من البلاد الاخرى كالقسطنطينية وغيرها . وقد نصب الناصر على باب الزهراء ثمانية منها ، وقلدوا بعض النقوش التى كانت فى كنائس أسبانيا وصقايه . وروى بعض المؤرخين أن ثلاثة أعمدة فى مسجد قرطبه كانت عليها نقوش وصور فكان على أحدها صورة عصا موسى ، وعلى الثانى صورة أهل الكهف ، وعلى الثالث صورة غراب نوح . أما تصوير الآنيه والاثاث والاشكال الهندسيه فقد برعوا فيها براعة عظيمه ، وصوروا الطيور وأشكال الرجال ، كما فى الحوض الذى أتى به الناصر الى مدينه الزهراء فقد كانت به نقوش وتماثيل على صورة الانسان نصب عليه اثنا عشر تمثالا ومن آثارهم فى فن العمارة هناك ما لا يزال ناطقاً بما كان لهم من البراعه فى بناء المدن والقصور والمساجد . ولهم من الاتقان فى ذلك ما لم يكن لغيرهم فى زمنهم . ومن أشهر آثارهم الفنيه مسجد قرطبه الشهير الذى - فضلا عما يدل عليه من البراعة فى فن العمارة - يدل على ذوقهم الفنى ، وعلى بلوغهم درجه عظيمه فى الترف ومجاراتهم غيرهم

فيما عرفوه من آثار الرومان في المدن العظيمة والقصور الشاهجة
والكنائس المنمقة

أما مسجد قرطبة فقد أسسه عبد الرحمن الداخل وأمه ابنة
هشام . فكان إنشاؤه في أول أيام الدولة الاموية ؛ مما يدل على تيقظ العرب
ونشاطهم منذ دخولهم تلك البلاد . وقد كان في هذا المسجد الف
ومائتا عمود كلها من الرخام ، وكان باب المسجد من الذهب وفيه المحراب
وما يابيه قد أجرى فيه الذهب المطعم . وكان باب المقصورة من
الفضة . وكان بالمقصورة تفاحات من الفضة والذهب ، يحيط كل تفاحة
ثلاثة أشبار ونصف ، واثنان من هذه التفاحات من الذهب الابريز ،
وتحت كل تفاحة وفوقها سوسنة قد هندست بأبداع صنعة ورمانة
ذهب . قال المنرى انها احدي غرائب الارض : وكان بالجامع المذكور
في بيت منبره مصحف عثمان الذي خطه بيده (هكذا يقولون) وعليه
حلية ذهب مكاله بالدر والياقوت ؛ وعليه أغشية من الدياتج وهو
على كرسي من العود الطيب بمسامير الذهب وارتفاع المنارة الى مكان
الأذان ٤٥ ذراعا ؛ ودور الثريا الكبرى تحتوى على الف كأس وأربعة
وثمانين ؛ كلها موشاة بالذهب . وفي عضادتي المحراب أربعة اعمدة ؛
اثنان أخضران واثنان لازورديان وبه منبر خشبه العاج والابنوس
والعود . وصرف عليه عشرة آلاف متقال وخمسون متقالا ويقولون
إنه كان بالجامع حاصل كبير ملآن من آنيه الذهب والفضه لاجل وقوده

راجع الكلام على مسجد قرطبه في نفتح الطيب جزء ١ صفحته

وقد أخذ أهل أوروبا عن عرب الأندلس كثيرا من الفنون وغيرها . فقد كانوا لا يعرفون شيئا عن علوم اليونان ومدنيتهم . ولا عن اللغة الاغريقية وما ألف فيها . فلما ترجم العرب كتبهم وشرحوها وأضافوا اليها ما أضافوه ، فتحوا على أهل أوروبا باب المدينة الخاضرة وأطلعوهم على تلك الآثار التي بنوا على أنقاضها حضارتهم . فقرأوا الكتب اليونانية باللغة العربية . ومنذ ذلك عنوا بدراستها وبمعرفة اللغة اليونانية . بل ترجم أهل أوروبا الكتب العلمية اليونانية من العربية الى اللاتينية . ومن أول الكتب التي ترجمت في ذلك كتاب اقايدس في الهندسة سنة ١١٣٦ م

ولم يأخذ أهل أوروبا عن عرب الأندلس العلوم وحدها ، بل أخذوا عنهم أيضا بعض الفنون التي اشتغلوا بها كفن العمارة والموسيقى والشعر^(١) . أما فن الموسيقى فقد توسع فيه أهل أوروبا بما تركه العرب لهم . قال بعض المؤرخين « إن للعرب اليد الطولى فيما تركوه من فنون الموسيقى التي ساعدت أهل أوروبا على الوصول الى الدرجة التي عليها الآن هذا الفن الجميل . فان مكتبة طليطلة بها آثار عظيمة تدل

(١) أخذ العرب كثيرا من فنون العمارة عن دولة الروم الشرقية . كما نقلها الجرمانيون الى بلادهم . فكانت العمارة عند الجرمانيين تشبه ما عند عرب اسبانيا . حتى أن مسجد قرطبة يشبه الكنيسة الجرمانية الكبرى لأن أصلها مأخوذان عن الشكل البوزانتي . وكانت آثار البناء في أوروبا الجنوبية مأخوذة من نماذج عربية حتى قالوا إنه يوجد شيء من ذلك في كنيسة باريس الكبرى :

على ما كان للعرب من التقدم في ذلك . وأن هناك جزءاً من المخطوطات في الموسيقى عليه بعض ملاحظات بخط ألفونس العباشر ، التي كانت كل معلوماته وتربيته العقابية ، مكتسبة من قراءة الكتب العربية . وأن الموسيقى قبل ذلك العصر كانت متصورة على الكنائس . فساعد العرب على نشر هذا الفن بواسطة الفرنسيين أنفسهم ، الذين كانوا يقيمون في اسبانيا مع العرب ، أو يتعلمون في مدارسهم . وكان الشعر الفرنسي العامي من نوح الشعر العامي الاسباني المأخوذ عن الشعر العربي ، لأن الشعر اليوناني أو الروماني . لأن سكان تلك البلاد لم يكونوا يعرفون بعد شعراء اليونان أو الرومان ، حتى ينسجوا على منوالهم إذ لم يطلعوا على شيء من ذلك قبل القرن الرابع عشر . لذلك كان الشعر عندهم يشبه الشعر العربي من حيث أنه قطع صغيرة ، وأبيات قليلة في المدح أو الذم أو الوصف . وذلك أظهر ما يكون في فرنسا عند شعراء القرن الرابع عشر ، وبعض القرن الخامس عشر . حتى أن أسماء هذه المقطوعات أو الاصوات كانت تشبه أسماء الشعر العربي . قال « ولقد أخذنا صناعة الشعر والقوافي عن العرب ، فان الاسبانيين أول من أخذ القافية عن الشعر العربي ثم وصلت هذه الصناعة الى مرسلينا وطولون بواسطة التجار الذين كانوا يجيئون من اسبانيا » .

واقتبس الأروبيون كثيراً من أعمال العرب في الحروب والصناعة وغيرها مما يطول شرحه . وانما أردنا أن نثبت ذلك القدر القليل تنويهاً بفضل العرب وأثرهم في المدنية الحاضرة .

وقد بلغ عرب اسبانيا درجة عظيمة من الترف وأبهة الملك .

ولعل ذلك مايسمونه الآن « رد فعل » . فقد كانوا في خشونة من العيش ، بعيدين عن كل رفاهية ، فلما فتح أمامهم باب السعادة على مصراعيه ، ورأوا مدينة الأمم الأخرى وملكوا العالم ، أرادوا أن يتناسوا تلك الخشونة البدوية ، فتشبهوا بالدول العظمى . وكان العربي بطبيعته يتأثر بالمظاهر والمشاهد الجميلة لأنها هي التي كونت فكره وادراكه وتصوره ، وأوحى إليه هذه المعاني الشعرية . وقد رأى ذلك كله في البلاد التي فتحها . فأراد أن يكون من أصحاب العظمة والأبهة والترف . فاهتم ببناء القصور الضخمة ، والابنية المشمخرة ، وحياسة الاشياء النفسية ، ولبس الحلل الفخمة الزركشة ، وامتلاك الاواني الذهبية والاثاث المرصع بالاحجار الكريمة ، وغلبت عليه طبيعة السخاء ، فكان يجود بالهدايا الثمينة ، ويستعين بالأموال .

فقد روى عن عبد الرحمن الثاني أنه كان له جارية اسمها طروب أغضبها مرة فهجرته ونزلت مقصورتها . فاشتد قلقه لهدجرتها وضاق ذرعه من شوقها . وأراد أن يسترضيها فأعياه ذلك فأرسل مع خاصة خصيانه من يكرها على الوصول اليه . فأغلقت بابها في وجوههم وآلت أن لا تخرج اليهم الا طائفة ولو انتهى الامر إلى القتل . فانصرفوا وأعلموا الامير بذلك واستأذنه في كسر الباب عليها . فنهاهم وأمرهم بسد الباب من خارج بيدر الدرام . ففعلوا وبنوه عليها بالبدر وأقبل حتى وقف بالباب وكلها على أن لها جميع ماسد به الباب . فأجابت وفتحت الباب فانهاالت البدر في بيتها فأكبت على رجليه تقبلها وحازت المال .

وقد اتخذ عبد الرحمن الثمالي القصور والمنتزهات ، وجلب اليها الماء من الجبال وأقام الجسور ، وبنيت في أيامه المساجد الكثيرة والمدارس . على ما كان عاينه من الكلف باللهو والميل إلى الجوارى . أعطى جاريته حلياً قيمته مائة ألف دينار فقبل له إن مثل هذا لا ينبغي أن يخرج من خزانة الملك فقال إن لابسه أنفس منه وكان ملك عبد الرحمن الناصر بالأندلس في غاية الفخامة والضخامة كما يعلم من مقابلة رسل الملوك له ، فقد أمر أن يتلقوا أعظم تاق وأتخمه ورتب الناصر لحجابته رجالاً من الموالي ووجوه الحشم وصاروا إلى قصر منية الحكم ولي العهد ، وكانوا ستة عشر رجلاً لربع دول لكل دولة أربعة رجال ، ورحل الناصر من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لوفود الروم عليه فقعده في بهو المجلس الزاهر ، وحضر الوزراء على اختلاف مراتبهم ، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالي والأمراء . وقد بسط صحن الدار بعناق البسط وظللت أبواب الدار وحناياها بظلال الديباج ، ورفيع الستور ، حتى أن رسل ملك الروم عندما وصلوا ورأوا ذلك دهشوا من بهجة الملك ونخامة السلطان وقدموا كتاب ملكهم صاحب قسطنطينية وفيه وصف هدية عظيمة أرسلت إلى الناصر

وامتدت الثروة والابهة إلى الحجاب والوزراء . فقد أهدى أحمد بن عبد الملك بن شهيد الذي استوزره الناصر هدية لسيده ، وقال فيها ابن خلدون : انها تدل على ضخامة الدولة الاموية واتساع أحوالها . وقالوا إنها عبارة عن خمسمائة الف مثقال من الذهب العين ، وأربعمائة رطل

من التبر ، وخمس وأربعين ألف دينار من سبائك الفضة ، واثنى عشر رطلا من العود المهندي ، ومائة وثمانين رطلا من العود المتخير ، وثلاثين مثقة من الحرير المرقوم بالذهب للباس الخلفاء المختلفة الألوان والصناعات وعشرة أفرجه ، من غالى جلود الحيوان الخرسانية ، وغير ذلك وكثرت القصور والمساجد وغيرها من الابنية العامة إلى درجة عظيمة فقد كان عدد الدور في قصر قرطبة أربعمئة دار ونيفا وثلاثين وكان عدد دور الرصاية مائة ألف وثلثه آلاف دار ، وبلغت ديار أهل الدولة ثلثمائة وستة آلاف ، وبلغ عدد المساجد بها سبعة وثلاثين وثمانمئة وثلاثة آلاف ، وعدد الحمامات سبعمئة

الغناء ومجالس الادب

أما مجالس الغناء واللهو فقد غصت بها المحافل ، وشغمت أكثر أوقات الشعراء وفتقت ألسنتهم بقول الشعر الجميل ، وفتحت عليهم أبوابا من الخيال ، وزاد في الاقبال عليها ميل الخلفاء والأمراء وأهل الظرف والادب والنساء الشواعر ، فقد كان عبد الرحمن الثاني مولعا بالسماع مؤثرا له على جميع لذاته

جاءت صناعة الغناء الى الاندلس من المشرق ، لأنها كانت وهى في أوج عزها عند العباسيين من الفنون الناصجة ، ومن أكبر وسائل السرور والتسلى . واستأذ المغنيين في الاندلس زرياب (أبو الحسن على بن نافع مولى المهدي العباسي) ، قدم الى الاندلس بأمر الحكيم ابن هشام المتوفى سنة ٢٠٦ هـ . ولما أخبر بوفاة الحكيم قبل وصوله إلى الاندلس هم بالرجوع ، فجاءه كتاب من عبد الرحمن بن الحكيم

يذكر تطلعه اليه وسروره بقدمه عليه . وكتب الى عماله على البلاد أن يحسنوا اليه ويرافقوه الى قرطبة . وأمر خصيا من أكابر الخصيان أن يتلقاه ، فدخل هو وأهله البلد ليلاً ، وأنزله في دار من أحسن الدور ، وحمل اليها جميع ما يحتاج اليه ، وكتب له في كل شهر بمائة دينار راتباً ، وأن يجري على بنيه الذين حضروا معه عشرة ديناراً كل شهر لكل واحد منهم ، وأن يجري على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار ، وأن يقطع له من الطعام العام مائة مد . وأقطعته من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوم بأربعين الف دينار . ولما استدعاه الى مجالسه وسماع غنائه ترك كل غناء سواه ، وأحبه حباً جماً : وقدمه على جميع المغنين وشرفه بالاكل معه ، لما علمه من فضله وأدبه . وكان زرياب مغرماً بفنّه ، حتى انه كان يدعى أن الجن كانت تعلمه ، فكان يهب من نومه فيدعو بجاريته ، غزالات وهنيدة فيأخذان عودهما ، ويأخذ هو عوده فيطارحهما ليلته ، ويكتب الشعر ؛ ثم يعود عاجلاً الى مضجعه . وزاد زرياب في أوتار العود وترا خامساً اختراعاً منه ، وزيادة على الصنعة القديمة . وكان يحفظ عشرة آلاف صوت من الاغاني بألحانها . قالوا وهذا العدد من الألحان هو غاية ما ذكره بطليموس واضع هذا الفن . واختص بنوع من الصناعة في تعليم الغناء وضرب العود ؛ صارت منهجاً لمن جاء بعده ؛ وكان عالماً بكثير من العلوم والفنون ، اديباً ظريفاً ؛ حسن الحديث والمسامرة ؛ وكانت له جارية اسمها متعة أدبها وعلمها أحسن أغانيه . وعرفت حمدونة ابنته باتقانها هذه الصناعة .

وأخذ عن زرياب الغناء كثير من الرجال والنساء
وكانت محالس اللهو والطرب غاصة بغناء الأشعار والرقص
والراقصات ، وفي جميع البلدان أصناف من الملاحى والرواقص المشهورات
بحسن الانطباع واللعب بالسيوف وغيرها ، كما كان من بين المغنين
كثير من كبار القوم ، مثل عبد الوهاب بن حسين الحماجب ، « الذى
كان وحيد دهره فى الغناء الرائق ، والادب الرائع ، والشعر الرقيق ،
واللفظ الانيق . ورقة الطبع ، واصابة النادرة والنشبية المصائب . ،
وكان قد قطع عمره وأفى دهره فى اللهو والطرب ، وهو أعلم الناس
بضرب العود »

كتب بعضهم يستدعى عود غناء فقال :

« انتظم من اخوانك أترك الله عقد شرب يتسابقون فى ودك ،
ويعاطون ربحانة شكرك وحمدك ، وما منهم إلا شره المسامع الى رنة
حمامة ناد ، لاحمامة بطن واد . والطول لك فى صلتنا بحماد ناطق ،
قد استعار من بنان لسانا ، وصار لضمير صاحبه ترجانا . وهو على
الاساءة والاحسان لا ينفك من ايقاع به ، فى غير ايقاع به ، فان هذا
عركت اذنه وأدب . وأن تأنى واستوى بعيج بطنه وضرب . لازلت
منتظم الجدل ملتئم الامل »

هذا كله يدل على حسن الذوق ، ورقة الطبع ، اذ كلما أمعن
الانسان فى فنون الجمال دل على رقة ذوقه . ولو أن الدرب عرفوا شيئا
من بلاغة اليونان والرومان لجاروهم فى فنون التمثيل واختراع القصص
ولكنهم قنعوا من ذلك بما كان لهم فى مجالس الأدب والغناء واللهو

والشرب التي تفنن الكتاب والشعراء في وصفها ،
واشتمت أغاني الأندلسيين على كثير من أغراض الشعراء ؛
فكانت تشمل مدح الامراء ، ووصف القصور والحدائق ، والخيول
والفرسان ، ومجالس الشرب في الولائم . وغير ذلك من الموضوعات
الكثيرة المختلفة ، التي نشأت من أحوال الاجتماع هناك ، وأوحى بها
الى نفوس الشعراء تلك الحياة الاجتماعية ، وطبيعة البلاد وما بها من
رغد في العيش ، وساعد هذا كله على نمو الشعر العربي .
وقد كانت أغاني العشق تدل على أثر المرأة في النفوس والاجتماع .
لأنها كانت ذات مكان عظيم ومنزلة رفيعة وأثر ظاهر في الحركة العقلية ،
بل كانت تسابق الرجال ، فتسبقهم أحياناً ، واشتهر عدد عظيم من النساء
في الشعر والادب كما هو معروف . ولم تكن صلة المرأة بالرجل صلة
قلبية أو نفسية لا غير ، بل كانت صلة احترام واجلال ، لظهورها في
ميدان الجد والعمل ، واشتراكها مع الرجل في أحوال الاجتماع ؛ ولا أثرها
في مجالس الأدب وفنونه . وكان ذلك في أكثر طبقات النساء . فقد
كان لعبد الرحمن الناصر جارية حسنة الخط ، راوية للشعر ، حافظة
للاخبار ، طالمة بضروب الأدب . وكانت العبّادية جارية المعتمد أديبة
ظريفة ، كاتبة شاعرة ، ذاكرة لكثير من اللغة . معدودة من علماء
اشبيلية . فكانت المرأة هناك أرقى وأجل منها في أوربا ، وحبها ممزوجاً
بشيء من الوجد والاجلال معاً . وازدانت مجالس الغناء بالغانيات المطربات
من الجوارى وغيرهن ، وكان فيهن من هو أمهر من الرجال في هذه
الصنعة ، وأكثرهن وافد من المشرق . كالمغنية فضل التي اشترت

من المدينة للأمير عبد الرحمن الأول . فقد نشأت في بغداد وتعلمت الغناء وبرعت فيه ، واشتهرت في هذا الفن شهرة عظيمة . وكان يؤثرها عبد الرحمن على غيرها لجودة غنائها وكانت قمر جارية ابراهيم بن حجاج اللخمي صاحب اشبيلية من أهل الفصاحة والبيان والمعرفة بصوغ الالخان ، قالوا وجلبت اليه من بغداد وجمعت أدباً وظهر فأورواية وحفظاً ، مع فهم بارع وجمال رائع . كذلك كانت حالة الغناء من حيث الاهتمام به والاقبال عليه من أعظم مظاهر العقول والأدب .

وكانت مجالس الأدب في الأندلس من أكبر مسارح الافكار ، وأنخم مظاهر الجمال ، وأجمع أنواع الأدب واللها والجد والهزل ، ومظهر الحياة العقلية والاجتماعية . والشعراء فرسان هذا الميدان . والكلام وحده آلة التعبير عن ذلك بأساليب المختلفة البايغة . وكان الشعر نشوة الشارب وغناء الراقص ، ومؤدب النفوس وزاجرها ، وسلوة الفقير والغني ، ومعزة الشريف والسوقي ، وكانوا جميعاً على فهمه أقدر ، وعلى الاقبال عليه أسبق ، وكل اذن واعية عند سماعه خاشعة لروعة بلاغته ، لانه كل مظاهر الحسن والجمال في مجالس الخلفاء والامراء . كذلك كانت روعة تلك المجالس في الشعر وبلاغة الكلام . وكان من أهل الأدب هناك الوزراء والكتاب ، والعمال وجباة الاموال والمستعملون في أمور الدولة ، والخلفاء أنفسهم ، وكثير من اولادهم ونسأهم ومن يحضر مجالسهم . فبرع أهل الأندلس في فنون الادب والشعر براءة شهد لهم بها جلة الناس وكانت مجالسهم لذيذة ومحاضرهم فكهة . والشعراء كثيراً ماتحملهم هذه المجتمعات وما فيها على الارتجال والابتكار .

« حضر أبو عامر بن شهيد ليلة عند المظفر بن المنصور بن أبي عامر
بقرطبة فقامت تسقيهم وصيفة عجيبة صغيرة الخلق ، ولم تزل تسهر
على خدمتهم الى أن هم جند الليل بالانهزام ، وأخذ في تقويض خيام
الظلام . وكانت تسمى أسياء ، فعجب الحاضرون من مكابذها السهر
طول ليلتها على صغر سنها . فسأله المظفر وصفها فصنع ارتجالا .
أفدى أسياء من نديم ملازم للـكـووس راتب
قد عجبوا في السهاد منها وهي لعمرى من العجائب
قالوا تجافى الرقاد عنها فقلت لا ترقد الكواكب »
ومن البدهة في المجالس أيضاً ورسوخ ملكة الأبداع في النفوس ،
ما قيل عن ابن شهيد هذا ، وذكره ابن بسام . « از جماعة من أصحاب
ابن شهيد قالوا له يا أبا عامر ، انك لآت بالعجائب وجالب بذوائب
الغرائب ، ولكنك شديد الاعجاب بما يأتي منك ، هاز لعطفك عند
النادرة ، ونحن نريد منك أن تصف لنا مجلسنا هذا ، وكان الذي
طلبوه منه زبدة التعنيت ، لان المعنى اذا كان صلفاً ثقيلاً على
النفس ، قبيح الصورة عند الحس ، كات الفكرة عنه وان كانت
ماضية ، وأساءت القريحة في وصفه وان كانت محسنة . وكان ما في المجلس
باب مخلوع معترض على الارض ، ولابد أحر ميسوط قد رصت خفافهم
عند حاشيته . فقال مسرعا

وفتية كالنجوم حسناً كلهم شاعرٌ نبيلٌ
منفذُ الجانبيين ماضٍ كأنه الصارمُ الصقيلُ
رامو النصراني عن المعالي والغرب من دونها كيلُ

فاشتد في أثرها فسيح
في مجلس زانه التصابي
كأنما بابه أسير
يراد منه المقال قسراً
تنظر من لبدة لدينا
كأن أخفنا عابيه
صنلت فلم تدر أين تجرى
فعجب القوم من أمره .

كل كثير له قليل
وطاردت وصفه العقول
قد عرضت دونه نذول
وهو على ذاك لا يقول
بمجر دم تحتنا يسيل
مراكب ما لها دليل
فهى على شطه ثقيل

« ودخل الوزير أبو العلاء زهر بن الوزير بن مروان على الأمير
عبد الملك بن زرير في مجلس انس ، وبين يديه ساق يسقى خميرين من
كأسه ومن لحظه ويدي دزين من حبابه ولفظه ، وقد بدأ خط عذاره
في صفحة خده ، وكل حسنه باجتماع الضد منه مع ضده ، فسكاته
بسحر لحظه أبدى ليلا في شمس ، وجعل يومه في الحسن أحسن
من أمس ، فسأله ابن رزين أن يصنع فيه فقال بديها

انضاعف وجدى اذا تبدى عذاره
وقد كان ظنى أن سيمحق ليله
فأظهر ضد ضده إذ وشت له
واستزاده فقال بديها .

وتم نغان القاب منى اصطباره
بدائع حسن بهام فيها نهاره
بعنبره فى ضحفة الخد ناره

محيت آية النهار فأضحى
كان يعشى العيون نورا إلى أن
بدر تم وكان شمس نهار
شغل الله خده بالعدار
وكانت مجالس الأدب من بواعث قول الشعر ومجاراته بعض

الأدباء بعضاً في ذلك . قالوا : « إن ابن العريف النحوي دخل على المنصور بن أبي طامر وعنده صاعد اللغوي البغدادي ، فأنشده وهو بالموضع المعروف بالعامرية :

فالعامة تزهي على جميع المباني
وأنت فيها كسيف قد حل في غمدان

فقام صاعد وكان مناقضاً له . فقال أسعد الله الحاجب الأجل ،
ومكن سلطانه ، هذا الشعر الذي قاله فدأعده ، وأنا أقول أحسن منه
ارتجالاً . فقال له المنصور ، قل ليظهر صدق دعواك ، فجعل يقول من
غير فكرة طويلة :

يا أيها الحاجب المعتلى على كيوان
ومن به قد تناهى نثار كل يمانى
العامرية أضحت كجنة الرضوان
فريدة لفريد ما بين أهل الزمان

إلى أن قال :-

أنظر إلى النهر فيها ينساب كالثعبان
والطير يخطب شكراً على ذرى الأغصان
والقضب تلتف سكرًا بميس القضببان
والروض يفت زهواً عن ماسم الأفحوان
والترجس الغض يرنو بوجنة النعمان
وراحة الريح تمتا ر نفحة الريحان
قدم مدي الدهر فيها في غبطة وأمان

هذا أدل في جملة على مكانة الشعر في النفوس ، وأنه شيء من روائع القول وجمال الكون . وهذا من مميزات الشعر العربي ، وهي جمال الشعر الوجداني . لأنه ينقلنا من عالم الحقائق المؤلمة إلى عالم الأحلام والخيال ، حيث يذوق الانسان السعادة ، وينسى آلام الحياة وكوارثها وذلك هو الغرض من فنون الجمال لا أننا إذا كنا في حاجة دائمة إلى الاتصال بالحقائق وإدراكها لفهم الأشياء فأننا كثيرا ما نكون أحوج إلى الابتعاد من ذلك .

« حضر أبو الطرف بن عبد العزيز مع ابن عمار الوزير عند المؤمن في يوم جادت فيه السماء بطلها ، وأتبعته وبها بطاها ، وأعقب رعداها برقها ؛ وأنسكب دراكا ودقها ، والازهار قد تجلت من كمامها وتجلت بدر غمامها ، والأشجار قد جلى دماها ، وتوشحت بنداهها ، وأكؤس الراح كأنها كواكب تتوقد ، نديرها أنامل تكاد من اللطافة تعقد ، إذا بفتى من فتیان المؤمن أخرس لا يفصح ، مستعجم لا يبين ولا يوضح ، متمر تنمر الليث ، مشمر كالبطل الباسل عند الغيث ، وقد أفاض على نفسه درعا ، تضيق بها الأسننة ذرعا ، وهو يريد استشارة المؤمن في الخروج الى موضع بعنه ووجهه اليه ، فسكل من صده عنه نهره ، حتى وقف إلى مكان انفراده ، ووقف بأزاء وساده فلما وقعت عين ابن عمار عايه ، أشار بيده اليه وقربه واستدناه ، وضمه اليه كأنه تبناه ، وجد أن يخلع عنه ذلك العذير ، وأن يكون هو الساقى والمدير ، فأمره المؤمن بخلعه وطاعة أمره وسمعه ، فنضاه عن جسمه وقام يسقى على حكمه ورسمه ، فلما دببت فيه الحميا وسببت

غرامه بهجة ذلك المحيا ، واستنزلته سورة العقار ، من مرقب الوقار
قال :-

وهويته يسقى المدام كأنه قر يدور بكوكب في مجلس
متأرجح الحركات تندى ريحه كالغدن هزته الصبي بتنفس
يسقى بكأس في أنامل سوسن وبدير أخرى في محاجر نرجس
يا حامل السيف الطويل نجاده ومصرف القوس القصير المحبس
إياك بادرة الوغى من فارس خشن القناع على عذار أملس
جهم وإن حسر القناع فأتما كشف الظلام على النهار المشمس
يطغى وياعب في دلال عذاره كلمهر بدرج في الاجام المجرس
عنا بكأسك قد كفتنا مقله حوراء قائمة بسكر المجلس

قلوا اجتمع المعتصم بن صمادح مع ندمائه يوما فبرز لهم وصيفة
متصرفة في أنواع اللعب والطرب . وكان هناك لاعبا مصريا فارتجل
أبو عبد الله بن الحداد :-

كذا فلتلح قرا زاهرا وتجنى الهوى ناظرا ناظرا
وسيبك سيب ندى مغدق اقام لنا هاليا هامرا
وأن ليومك ذا رونقا منيرا كنور الضحى باهرا
صباح اصطباح باميفاره لحظنا محيا العلى سافرا
وألمعت فيه نجوم الكؤوس فما زال كوكبها زاهرا
واسمعتنا لاعبا فاتنا وأحضرتنا لاعبا ساحرا
يرفرف فوق رؤوس القيان فتنظر ما يذهل الناظرا
ويحفظها ذيل سرباله فتنظر طالعا فائرا

فظاهرها ينثنى باطنا وباطنها ينثنى ظاهرا
وثنائه ثان لألعا به دقائق ثنى الحجبى حاراً
وفي سورة الراح من سحره خواطر دهمت الخاطرا
إذا ورد الالحظ أثناءها فما الوهم عن وردها صادرا
ومن حسن دهرك ابداعه فما أنفك عارضها ماطرا
وسعدك يحتمل المغريات فيجعل غائبها حاضرا

يمثل ذلك كانت تنطق السنة الشعراء في تلك المجالس فيأتون
بالعجيب الرائع . وإذا وازنا بين مجالس الادب هذه ومجالس الغناء
هناك من حيث أثرها في الشعر ، إذا لوجدنا ان هذه المجتمعات اكثر
أثرا وأكثر توليدا للمعاني في نفوس الشعراء وادعى الى قول الشعر
وابتكار الاخيلة لأن منظرا من المناظر أو رأيا من الآراء أو فتاة بجهاها
أو كأسا بخمرها تحرك النفس وتدعوا الشاعر الى تصوير ما يرى أو
يشعر ، فيقول ما ولدته في نفسه تلك المؤثرات ، ولاشك أن هذا من
دواعي الاكثار في قول الشعر ، بل من دواعي إبداع أنواع جديدة
تغنى بها البلاغة ، لان كل ما يقال جديد مبتكر في نظر قائله ، وقد يكون
كذلك في نفس الحقيقة . لذلك كان أثر مجالس الأدب في الشعر
عظيما . وأكثر هذه الاشعار كانت في الاوصاف وهو مما يدخل في
باب التصوير للمحسوسات إذا لو كان المصور يصور بريشته وألوانه
فإن الشاعر يصور بريشته وبلاغته . ثم أوصافا للأشخاص والنفوس
وهو ما يدخل في العشق والاجتماع . ولقد غصت المجالس بهذين النوعين
وجرهم وصف الأشخاص الى الدخول في المجون من التمدح بذكر الخمر

والتغنى بها . وقد وصفوا الغلمان وجمال المرأة ورشاقتها وكل الاوصاف
التي تجرّك الميول وتتملأ العيون والقلوب كما قال بعضهم : —

ومهفّف طاوى الحشا خنت المعطف والنظر
ملاً العيون بصورة تليت محاسنها صور
فاذا رنا واذا مشى اذا شدا واذا صفر
فضح الغزاة والغما مة والحمامة والقمر

وقد قال آخر : —

وشاديين ألما بي على مقة تنازعا الحسن في غايات مستبق
كأن لمة ذا من نرجس خلقت على بهار وذا مسك على ورق
وحكما الصب في التفضيل بينهما ولم يخافا عليه رشوة الحدق
فقام يدلى عليه الرثم حجته مبينا بلسان منه مطلق
هدا شيء يسير من مجالس الأدب وأحوال الاجتماع في الاندلس

الثقافة في الاندلس وفي بلاد المشرق

اتصل العباسيون بالفرس ومن جاورهم ، وامتد سلطانهم في بلاد المشرق من أقاصي الصين والهندوتر كستان وخراسان إلى سواحل البحر المتوسط وجزره . ودخل أهل هذه البلاد في الاسلام واستعان خلفاء بني العباس بالفرس في إزالة دولة بني أمية فأصبح الأمر والنهي لأبناء الأكاسرة الذين قبضوا على ناصية الاجتماع وصاروا قادة الفكر ، وآل الأمر والنهي . وكان منهم العلماء والأدباء والوزراء والشعراء والكتاب وجاءوا بتراث آباؤهم العقلي والاجتماعي فبذروه في المعركة الاسلامية وفي عقول العرب ومن انتمى إليهم . وساعدوا الخلفاء في نشر ثقافة اليونان بالعمل على نقل كتبهم العلمية والفلسفية . كما عملوا على نقل علوم بعض الأمم الأخرى إلى لغة العرب واجتمع في بغداد العلماء والأدباء من كل أمة وصنف وكل مذهب ونحلة كما هو معروف حتى كانت قاعدة بني العباس مدينة كأنها دولية أو جامعة لجميع الأمم . فانتشرت الثقافة الفارسية واليونانية وصبغت العقول بهذه الصبغة الأجنبية ، وكان بجانب هذه الثقافة العلمية ثقافة عربية اسلامية . قام بنشرها علماء اللغة والدين من العرب والعجم ، وامتزجت هذه بتلك ، فكانت هناك حياة علمية هي مزيج من أدب العرب وعلومهم ودينهم وأحكام شريعتهم ، وأدب الفرس وعلوم اليونان . وتولد من هذه الثقافة مذاهب أدبية واجتماعية وسياسية وفلسفية . حتى سرى ذلك إلى الدين وأصوله فأحدث هذا كله في الحياة العقلية الاسلامية

نوعاً من التخبط والاضطراب ، وكانت الصبغة الأجنبية أظهر من
الصبغة العربية في ذلك كله

أما في الأندلس فكانت الحال على غير ذلك ؛ فقد فتح العرب بلاد
الأندلس وكانوا هم قواد الجيوش وأمراء البلاد وأصحاب الأمر والنهي .
وقد أرادوا أن يؤسسوا لهم دولة عربية خالصة من كل شائبة أجنبية
لينافسوا دولة العرب الفارسية في بغداد ، وملك بنى العباس الذين دمروا
ملك بنى أمية في ربوع الشام ونكروا بخلافاتهم وأبنائهم أشد تنكيل .
وكان في نفوس العرب الأندلسيين حفيظة من الأجانب الذين
أحلوا الروح الفارسي محل الروح العربي في كل مظهر من مظاهر
الحياة العقلية والاجتماعية

لهذا ؛ أراد حكام الأندلس من العرب وبخاصة بنى أمية أن يكون
ملكهم هناك عربياً خالصاً وأن تكون ثقافتهم عربية إسلامية
فعملوا على تحقيق ذلك ولم يحفلوا بآدىء الأمر بما كان بالبلاد
التي فتحوها وملكوها ، من ثقافة لاتينية أو غيرها ، ولا بنقل شيء من
علوم اليونان وفلسفتهم ، وكان الذين يرحلون منهم إلى بلاد المشرق في
طلب العلم يأخذون عن علماء الدين واللغة لا غير كما كانوا يستقدمون
من بغداد وغيرها جماعة من أئمة الفقهاء وأهل الأدب « كأبي علي
القالي » الذي استقدمه عبد الرحمن الناصر لتربية ابنه الحاكم وتعاليمه
ولقد ألف القالي لعبد الرحمن كتابه « الأملى » « وكأبي الفرج الأصبهاني »
الذي طلب إليه عبد الرحمن نشر كتابه « الأثاني » بالأندلس قبل نشره
في بغداد ، ووهبه على ذلك مالا عظيماً قيل انه مقدار ألف دينار .

« وكيعي بن يحيى الليثي » الذي رحل إلى مكة وأخذ الفقه عن الامام مالك وروى عنه الموطأ

وإذا كان أهل الأندلس يجارون المشاركة في العلوم والمعارف ويأخذون عنهم ذلك فقد كانت تلك المجارة مقصودة على علوم اللغة العربية ، والشريعة الإسلامية بآدى الأمر لهذا بقيت ثقافة أهل الأندلس عربية إسلامية إلى أواخر القرن الخامس الهجرى فكانت علوم اللغة والشريعة أساساً لثقافتهم كما كانت أساساً لثقافة العالم الإسلامي في كل بلد كان للمسلمين فيه أثر علمي أو عقلي . وكان ذلك أشبه بالثقافة اللاتينية المنتشرة الآن في بلاد فرنسا وإيطاليا وإسبانيا التي سكانها من أصل لاتيني ، بل وفي بلاد روسيا وعند أمم الصقالبة لاحتكاكهم بالفرنسيين وأخذهم عنهم الآداب والفنون كذلك كان العالم الإسلامي متأثراً بعلوم اللغة العربية وعلوم الدين فظهر ذلك في الحياة العقلية القومية للأمم التي دخلت في الإسلام كالفرس والترك وأمم البربر ، وأصبحت عقولهم وأخيلتهم عربية وأساليب التفكير لديهم عربية إسلامية وهذه أمة الفرس لم تظهر سطوتها الأدبية إلا بعد أن أسلموا وتأدبوا بلغة العرب وعطروا عقولهم الآرية بعبير التفكير السامي وبالثقافة العربية . فان الشهامة التي هي أعظم أثر أدبي في لغة الفرس على ما نعلم نظمت في القرن الرابع الهجرى : فقد نظمها أبو منصور محمد بن أحمد الدقيق المتوفى سنة ٣٦٥ من الهجرة وأتمها أبو القاسم المنصور الفردوسى المتوفى سنة ٤١١ هـ

فالثقافة العربية الدينية أساس كل التفكير الإسلامى . ولكن عرب

الأندلس على رغم ذلك كانوا أجمع الامم الناهضة تتطلع الى معرفة الحياة العقابية والعامية للأمم الاخرى حتى تجاريهم في ذلك أو تفوقهم إذا كان لا بد من هذا ، فرغم تشبعهم بالثقافة العربية الاسلامية الخالصة وتعصبهم لهذه الثقافة ، كان من بينهم جماعة من علماء الطب النابغين وعلماء الرياضة والفلك الذين ذاع أمرهم في جميع الاصقاع وانتشرت مؤلفاتهم في كل بلد ، وكانوا مع ذلك شعراءً وكتابيا وعلماء في اللغة والأدب والشريعة . نذكر منهم الحفيد أبا بكر محمد بن أبي مروان بن زهر الطيب « كان حافظا للقرآن ، سمع الحديث ، وأشتغل بعلم الأدب والعربية ولم يكن في زمانه أعلم منه بمعرفة اللغة ويوصف بأنه أكمل صناعة الطب والأدب ، وعانى عمل الشعر وأجاد فيه . وله موشحات مشهورة يغنى بها وهي من أجود ما قيل في ذلك ، وكان ملازما للأمور الشرعية ولم يكن في زمانه أعلم منه بصناعة الطب » (طبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٦٨) وكان أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجه أستاذ ابن رشد « في العلوم الحكيمية علامه وقته وواحد زمانه ... وكان متميزا في العربية والأدب حافظا للقرآن ، وكان مع ذلك بارعا في علوم الموسيقى وله كتاب في هذا الفن ، قالوا عنه « إنه في المغرب بمنزلة ابي نصر الفارابي في المشرق وإليه تنسب الألحان المطربة في الاندلس التي عليها الاعتماد) نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٧ ، طبقات الاطباء ج ٢ ص ٦٨)

اشتغال أهل الأندلس بالفلسفة:

أما الفلسفة فقد كانوا أقل عناية بها من أهل المشرق كما قلنا لأنهم كما روى المؤرخون لم يكونوا من أهل الجدل الديني . إذ كان جمهورهم من أهل السنة كما ذكر ابن حزم فقال « أما علم الكلام فإن بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم ولا اختلفت فيها النحل فقل لذلك معرفتهم في هذا الباب فهي على كل حال غير غريبة عنه » ومع هذا فلم تخلو مكاتبهم من كتب الفلسفة ولا جهل علماءهم دراستها ولا سيما بعد القرن الرابع ، فقد عرفها أهل الأندلس منذ عنى الحكيم بن الناصر بجمع الكتب واقتناء النفيس منها . قال ابن أبي أصيبعة في كتابه عيون الأنباء في طبقات الأطباء : « ... فإن هذه الكتب الفلسفية كانت متداولة بالأندلس من زمان الحكيم مستجلبها ومستجلب غرائب ما صنف بالشرق ، ونقل من كتب الأوائل وغيرها فنضرت الله وجهه ، (ح ٢ ص ٦٢)

وقال في ترجمة أبي بكر محمد بن الصائغ (توفي سنة ٥٣٣ هـ) وإنما انتهى النظر في هذه العلوم بهذا الخبر وبمالك بن وهب الأشبيلي فانهما كانا متعاصرين غير أن مالك لم يقيد عنه إلا القليل انذر : واضرب الرجل النظر ظاهراً في هذه العلوم وعن التكلم فيها لما لحقه من المطالبات في دمه لسببها (ح ٢ ص ٦٣) . وكان أبو الحكيم عمرو بن عبد الرحمن الكرماني المهندس الرياضي أول من جلب معه من المشرق رسائل أخوان الصفا « توفي الكرماني بسر قسطنطين سنة ٤٥٨ هـ وأكثر الأطباء المنجمين في الأندلس كانوا فلاسفة ، ولكن تعصب بعض الأمراء

وعامة العلماء على الفلسفة والفلاسفة ، جعل المشتغلين بهذا العلم يخفون اشتغالهم تجنباً لما عسى أن يلاحق بهم من الأذى . حتى لقد كان كبار الفلاسفة ينكرون مؤلفاتهم ، كما قالوا « وأما كتب الفلسفة فإمامها في عصرنا أبو الوليد بن رشد القرطبي وله فيها تصانيف جدها لما رأى انحراف منصور بن عبد المؤمن من هذا العلم وسجنه بسببها وكذلك ابن حبيب الذي قتله المأمون بن المنصور على هذا العلم بأشبيلية . وهو عام ممقوت بالأندلس لا يستطيع صاحبه اظهاره فلذلك تخفى تصانيفه » . (نفتح الطيب ج ٢ ص ١٣٨)

وبلغ من كراهة المنصور هذا لعلوم الفلسفة أنه أمر أن تجمع كتب الفلاسفة من المكاتب وأن تحرق « وأنه قصد ألا يترك شيئاً من كتب المنطق والحكمة باقياً في بلاده وأباد كثيراً منها باحراقها بالنار وشدد في ألا يبقى أحد يشتغل بشيء منها وأنه إذا وجد أحد ينظر بهذا العلم ، أو وجد عنده شيء من الكتب المصنفة فيه فإنه يلاحقه ضرر عظيم » (طبقات الأطباء ج ٢ ص ٦٩)

من هذا يمكن معرفة الفرق بين ميول المسلمين العلمية والعقلية في الأندلس وفي بلاد المشرق وبين نوع التفكير هنا وهناك ، ويمكن التمييز بين الثقافتين وأيهما أقرب إلى حرية الفكر ونضجه . ولا سيما إذا وازنا بين خلفاء بني العباس في بغداد وملوك الأندلس من المسلمين . إذن لعلمنا بأن الاشتغال بالعلوم العربية والدينية في بلاد الأندلس كان وجهة جمهرة العلماء والمثقفين هناك . وأن الاشتغال

بالفلسفة كان من صفات خواص العلماء المفكرين . فلسنا نقول مع القائلين إن دراسة الفلسفة لم تقيم لها قائمة في بلاد الأندلس ولم يكن لها رجال قائمون بها ولا مؤلفات تضارع مؤلفات أهل المشرق في ذلك بل كان من فلاسفة المسلمين هناك من يحسب في مقدمة الفلاسفة كأبن الصائغ المعروف بابن باجه الذي كثر مؤلفاته في هذا العلم وشرح كتباً لأرسططاليس ككتاب الكون والفساد وكتاب الحيوان والنبات وكتاب السماعي الطبيعي وغيرها من الكتب التي ألفها في ذلك وكأبي الوليد محمد بن رشد فيلسوف الأندلس الذي شرح جوامع كتب أرسططاليس في الطبيعيات واللاهيات والمنطق ونخص له كتاب ما بعد الطبيعة وكتاب الأخلاق وكتاب البرهان وشرح كتاب السماء والعالم والنفس وغير ذلك من كتب أرسططاليس وجالينوس . ومنهم ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ صاحب « الفصل في المال والنحل وابن طفيل وقد قالوا عنه أنه أعلم زمانه في الفاسفة وهو من أساتذة ابن رشد وصاحب القصة المعروفة حتى بن يقظان » توفي سنة ٥٨١ هـ

التأليف والتدوين

لقد تبين مما سبقناه في الكلام عن الحياة العقلية والثقافة في بلاد الأندلس مقدار عناية العرب هناك بنشر العلوم والمعارف والاشتغال بها بما جمعه الحاكم المستنصر في مكتبة قرطبة وما بذل من المال في مساعدة العلماء والأدباء واشتغال الخلفاء والأمراء أنفسهم بالعلم

والأدب . ومن أجل ذلك أيضا كانت قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس العظيمة مقصد العلماء والأدباء والوافدين إليها من بلاد المشرق وقد حاك خلفاء بني أمية في الأندلس خلفاء بني العباس في بغداد في العناية بالعلوم والآداب واتبع سنتهم بعدهم ملوك الطوائف . فكثرت الوفود على بلاد الأندلس من العلماء كما كثرت رحلة أهل الأندلس إلى بلاد المشرق في طلب العلم فكان لهذا الاتصال أثر عظيم في ترقية الحياة العقلية ببلاد الأندلس . وقد عمل على ذلك العلماء الذين رحلوا من هنا وهناك . فمن رحل من الأندلس إلى المشرق عبد الملك بن حبيب السلمى القرطبي صاحب الكتب الشهيرة وشارح تفسير موطأ مالك (ولد سنة ١٧٤ وتوفي سنة ٢٣٨ هـ) . ومنهم الفقيه المحدث يحيى ابن يحيى الليثى الذى قرأ الموطأ على الامام مالك ولازمه هناك (توفي يحيى بن يحيى سنة ٢٢٤ هـ)

ومنهم القاضى منذر بن سعيد البلوطى قاضى الجماعة بقرطبة ومنهم تقى بن مخلد صاحب التصانيف العظيمة فى الفقه والحديث الذى روى عن مائتى رجل واتصل بالامام أحمد بن حنبل . ومنهم الشيخ الأکبر محى الدين بن العربى الذى رحل الى بلاد المشرق فدخل مصر وأقام بالحجاز ودخل بغداد والموصل وبلاد الروم وتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ هـ . ومنهم الطبيب الشهير ضياء الدين أحمد بن البيطار المالى الذى رحل إلى القاهرة وألف هناك كتابا جمع فيه تصانيف الأدوية وغيرها وسافر الى بلاد الأغرقة وأقصى بلاد الروم والمغرب وعابن منابت الغابات وألف كتابه بناء على تجاربه وقالوا عنه انه انتهت إليه

معرفة تحقيق النبات وصفاته

وممن وفد الى الاندلس أبو علي القالي صاحب النوادر على الاندلس في أيام عبد الرحمن الناصر مريبيا لابنه الحكيم وألف كتابه هناك ومنهم صاعد البغدادي اللغوي وفد الى قرطبة أيام المنصور بن أبي طامر . وألف كتابه النصوص فأثابه المنصور عاياه بخمسة آلاف دينار . ومنهم رزياب المغربي رئيس المغنين مولى المهدي العباسي تلميذ اسحق الموصلي الذي زاد في العود وترا ونشر الغناء المشرقى ببلاد الاندلس .

الأدب واللغة : أما كتب الادب واللغة فن أشهرها كتب أبي علي القالي المتوفى (٣٥٦) وهي كتاب الامالى وكتاب النوادر . ومن الكتب النادرة كتاب العقد الفريد لآحمد بن عبد ربه (٢٤٦ - ٣٢٨) وهو من أجمع كتب الادب المعروفة . وكتاب الذخيرة لابن بسام ، وهو كتاب جامع لذكر أدباء الاندلس وشعائرهم ، يقع في أربعة أقسام . القسم الاول في أدباء قرطبة وماجاورها ، والثانى في أدباء الجاناب الغربى من الاندلس ، والثالث في أدباء الجاناب الشرقى والرابع فى من طراً على هذه الجزيرة من الادباء . وهذا الكتاب من أجمع كتب الأدب وأوفاهها لذكر أهل الاندلس وأخبارهم وشعرهم ونثرهم . ومن كتب الادب المعروفة كتاب قلائد العقيان ، ومطمح الأ نفس ، للفتح بن خاقان الاشبيلي المتوفى سنة (٣٣٥) وهذم الكتاب من أشهر وأجمع ما كتب عن أدباء الاندلس ولولا أنها مسجعة العبارة لسكانت من أجل الكتب فى موضوعها ، ومن كتب الأدب المسهب فى فضائل المغرب تأليف عبد الله بن

ابراهيم الحجارى . ومنها سراج الأدب لأبى عبد الله بن أبى الخصال
رئيس كتاب الأندلس . صنفه على منزع كتاب النوادر لأبى على القالى
وكتب الأذب التى فيها علماء الأندلس كثيرة لا تكاد تحصى .
اللغة والنحو : اشتغل أهل الأندلس بعلوم اللغة فزارع كثير
منهم أهل المشرق فى ذلك ، وبعضهم فافهم فى تأليف المعجمات العظيمة
كالأمام على بن اسماعيل المعروف بابن سيده صاحب كتابي المحكم
والمختص . وقد كان حافظا واعيا لكثير من قضايا اللغة ومفرداتها
ومسائلها ، وكان ضريرا كأبيه . «توفى سنة ٤٥٨» ومن علماء اللغة أبو
بكر الزبيدى الذى اختصر كتاب العين ، وأبو على القالى صاحب
الامالى وذيله .

وأخذ أهل الأندلس عن المشاركة النحو ورواية ، وكان فيهم
أئمة انفردوا بالتأليف فى بعض مسائله . فمن العلماء المشهورين فى ذلك
عمر بن محمد الشلوين وكان من أئمة اللغة وحفاظها ، ولد باشبيلية سنة
٥٦٢ وتوفى بها سنة ٦٤٥ ، ومنهم ابن مالك صاحب الألفية ، وابن
خروف وابن عصفور وغيرهم .

أما علوم البلاغة فلم يجاروا فيها علماء أهل المشرق ، ولم ينظروا
لهم تأليف خاص فى ذلك لأنهم اشتغلوا بالصناعة اللفظية وبخاصة
علم البديع وأنواعه .

العلوم الشرعية : كان أهل الأندلس يرحلون إلى المشرق ويأخذون
عن أئمتهم ، وكانت عنايتهم بالعلوم الشرعية لا تفوقها عناية . ولذلك
ظهرت لهم مؤلفات كثيرة فى الحديث والفقہ والتفسير وكانوا على

مذهب مالك والاوزاعي ، وفي مدة الحكم بن هشام كانت الأحكام
سائرة على مذهب مالك ولم يعمل بغيره .

فن علماء التفسير أبو عبد الرحمن بن بلي بن مخلد القرطبي ، وكان
من الحفاظ والمحدثين (٢٢١ - ٢٧٦) وكان من أشهر أئمة الحديث في
الأندلس روى عن ألف وثلاثمائة راو ، ومنهم القاضي أبو محمد عبد الحق
بن عطية الغرناطي (٤٨١ - ٥٤٢) ومن أشهر كتبه . الوجيز في تفسير
الكتاب العزيز وهو من أجل كتب التفسير ومنهم القاضي عياض
إمام الأئمة في الحديث ولد بمدينة سبتة سنة ٤٧٦ وولى القضاء بها
وتوفي بمراكش سنة ٥٤٤ . ومن أشهر كتبه كتاب الشفا لتعريف
حقوق المصطفى ، وطبقات الحاكمين ، ومشاهد الأنوار في غريب
الحديث . ومن الفقهاء عبد الملك بن حبيب السامي القرطبي (١٧٤ - ٢٣٨)
كان فقيه عصره سكن قرطبة وزار مصر ثم عاد إلى الأندلس
وتوفي بها . وكان من كبار فقهاء مذهب مالك طالما بالتاريخ والأدب
ألف كتبا كثيرة منها طبقات الفقهاء وطبقات المحدثين وثق سير موطأ
مالك . ومن أشهر الفقهاء هناك يحيى بن يحيى الليثي الذي ذهب إلى
المشرق والتقى بالامام مالك ورجع فنشر مذهبه كما سبق . ومنهم أبو
الوليد الباجي . وكان الفيلسوف ابن رشد فقيها أيضا ألف في الفقه
كتابا أسماه النهاية . وغير هؤلاء كثيرون .

أما علم الأصول ، وعلم الكلام فكان اشتغال أهل الأندلس بهما
قايلا ، لتفرغهم إلى العلوم الشرعية الأخرى ، كالفقه ، والحديث ،
والتفسير وإلى علوم اللغة العربية ، وفنون الأدب ، فانهم لم يعنوا

عناية عظيمة بالجدل وعلوم الماسفة ، والمذاهب الدينية التي شاعت في بلاد المشرق بسبب اختلاط المشاركة بالفريس ، واطلاعهم على علوم اليونان وبعد أهل المغرب عن ذلك

وأما التاريخ : فمن المؤرخين أبو مروان حيان بن خلف (ولد سنة ٣٧٧ وتوفي سنة ٤٦٩) وكتابه المسمى بالمتين أو المبين في تاريخ الأندلس في عشر مجلدات

ومما ألف في الجغرافيا كتاب المسالك والممالك لأبي عبد الله البكري ومعجم مما استعجم من البقاع والاماكن أيضا .
وللقاضي أبي القاصد صاعد بن أحمد الطليطلي كتاب التعريف بأخبار علماء الأمم من العرب والعجم .

العلوم الرياضية والطب : وكان اشتغال أهل الأندلس بالرياضيات

والطب والفلسفة أقل عناية من غيرها - كما قلنا - ، وظلوا على هذه الحال إلى أواخر القرن الرابع قال المقرئ في نفع الطيب « وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم ؛ فان لها حظا عظيما عند خواصهم ، ولا يُتظاهر بهما خوف العامة ، فانه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطاقت عليه العامة اسم زنديق ، وقيدت عليه أنفاسه ، فان نزل في شبهة رجفوه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره إلى الساطان أو يقتله السلطان تقربا لقلوب العامة وكثير ما يأمر بأحراق كتبه إذا وجدت . وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه ، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن »

وهذا موجز لبعض المشتغين بهذه العلوم .

فمن أشهر المنجمين ابراهيم بن ازراحيل الاسرائيلي من رجال القرن الخامس الهجرى . ويؤثر عنه أنه باشر عدة مرات رصدًا لتحقيق نقطتى الرأس والذنب من الارض . ومنهم جابر بن أفلح الاشبيلي الذى اختصر كتاب المجسطى لبطليموس
ومن أئمة الفلاسفة أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد . تعلم فى قرطبة ودرس بها العلوم الشرعية والطب والفلسفة والرياضة والفلك حتى قالوا عنه أنه أول من تنبه للسفع على وجه الشمس وكتب وألف فيها .

وبعد أن درس فى قرطبة ذهب إلى مراكش واتصل بأبى يعقوب يوسف أحد ملوك الموحدين وصار من أتباعه كما اتصل بالفيلسوف الشهير ابن طفيل ثم رجع إلى الاندلس تولى القضاء بقرطبة واشبيلية وتوفى سنة ٥٩٥ . وعن ابن رشد أخذ أهل أوروبا كتب الفلسفة اليونانية ودرسوها وقد كانوا يجهلون بها قبله .

وكثير من هؤلاء كانت لهم قدم راسخة فى الهندسة والمساحة والجبر وسائر العلوم الرياضية .

ومن فلاسفة الأندلس ابو محمد بن احمد بن سعيد بن حزم ولد بقرطبة سنة ٣٨٤ وتعلم علوم اللغة والدين حتى أصبح من كبار العلماء . وألف فى الحديث والأصول والفقه وعنى عناية خاصة بدراسة المذاهب الدينية وعقائد الامم ونحلهم فألف فى ذلك ومن أشهر كتبه كتاب «الفصل فى الملل والنحل» ذكر فيه مذاهب الفلاسفة وعقائدهم وسرد

مذاهب الطوائف الاسلامية وكان مع ذلك عالما وأديبا وشاعرا وكاتبا
توفي سنة ٤٤٦

وألف في الفقه والحديث ومراتب العلوم فكان اجمع اهل الاندلس
قاطبة للعلوم الشرعية

ومن كتبه كتاب اخلاق النفس وكتاب مراتب العلوم

ومن الفلاسفة ابن باجه السرقسطي المعروف بابن الصائغ توفي
بمدينة فاس سنة ٥٥٣ وكان طبيبا شهيرا مولعا بالموسيقى ووضع الألحان
وهو من أكابر العلماء في الفلسفة والرياضة والطب والموسيقى. ومنهم
ابن طفيل الذي كان معاصرا لابن الصائغ. ويقولون إنه أول من قال
بتدرج الحيوان إلى إنسان، وهو صاحب الرسالة الشهيرة التي سماها
« حى بن يقظان » ومن تلاميذه أبو الوليد محمد بن رشد المذكور آنفا
وقد ألف ابن طفيل في الطب وخص بعض مؤلفات جالينوس في
الأمزجة والعلل والحميات.

ومن أطباء الأندلس بنو زهر وهم : أبو العلاء بن زهر وابنه
أبو مروان عبد الملك، وأبنته أبو بكر. وعبد الملك هذا هو صاحب
كتاب التيسير، وكتاب الأغذية اللذين كانا لهما شهرة عظيمة في
المشرق والمغرب

ومن المشتغلين بالعلوم النباتية ابن البيطار واحد أهل عصره في
معرفة النبات، سافر إلى بلاد الأغر يق وأقصى بلاد الروم والمغرب،
واجتمع بكثير ممن يعاونون هذا الفن، وكان منابته وتبحره. ومنهم أبو
القاسم خلف بن عباس الزهراوي المتوفى سنة ٥٠٠ من الهجرة، كان

أشهر أطباء زمانه ؛ صاحب كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف .
وهو أول من ألف في فن الولادة ، ورسم في كتابه آلات الجراحة .

النثر في الأندلس

كان الشعر في أكثر عصور اللغة العربية أشهر من النثر . ولذلك
كان الشعراء أشهر من الكتاب . لأن البلاغة في الشعر أظهر ، والأخيلة
فيه أبين ؛ وقراء العربية كانوا إلى التأثير بهذه الأساليب والصناعة
أقرب . وكانوا يفهمون من الأساليب ما لا يفهمون من الموضوعات
ومعانيها وأغراضها .

ومع أن النثر كان أقل من الشعر انتشاراً من حيث الاعتماد عليه في
الاستدلال على أساليب العرب وصحة لغتهم ؛ فقد تنوعت مناحيه ؛
وظهرت له مذاهب وطرق ، كذهب ابن المقفع وطريقته ، ومذهب
الجاحظ وأسلوبه ؛ وطريقة ابن العميد والحريزى ؛ وغيرهم كما هو معروف
أما في الأندلس فقد دخل العرب هناك بعصبيتهم العربية ؛ ونفوسهم
تغلي كالمرجل من جراء الفتن والاحقاد التي انشرت ببلاد المشرق ،
فاشتغلوا بالفتح ومد ساطنهم ونشر الدعاية لحكمهم ودينهم ، وقع الفتن
والتغلب على أعدائهم ، وبث الحماسة في نفوس الجنود والقواد . بل كانت
هناك فتن ثار عجاجها بين الامراء والفاطميين ؛ ايقظتها الاطماع والضغائن
بين القبائل اليمنية والمضرية مدة حكم الامراء في الاندلس . فكان كل
هذا مدعاة لاستفزاز النفوس ؛ لالقاء الخطب الحماسية وكتابة الرسائل
على نحو ما كانوا يكتبون ويخطبون في بلاد المشرق . فلم يكن للكتابة

الفنية مجال طيال عصر الامراء وشطر عظيم من عصر الدولة الاموية فكانت الكتابة مقصورة على الرسائل والخطب السياسية ، وكانت هذه هي أنواع النثر ، لان القوم لم يكونوا قد اشتغلوا بعد بالعلوم ولا بأنواع الآداب الاخرى التي تفسح المجال للكتابة الادبية كالقصص والرسائل المنمقة ، كما كانت الحال منذ أواخر القرن الثاني .

وكان لكل وال أو أمير كاتب يتولى الكتابة ويكتب بأرشاد سيده ، وكانت أساليبهم جزلة رقيقة كما كانت الحال في بلاد المشرق . قال المقرئ : « وأما الكتابة فهي على ضربين . أعلاها كتب الرسائل ، وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الاندلس ، وأشرف أسمائه : الكاتب ، وبهذه التسمية يخصه من يعظمه في رسالة ... والكاتب الآخر كاتب الزمام ... الخ » ومن كتاب هذا العصر أمية بن يزيد كاتب الأمير يوسف الفهرى الذى كان واليا قبل عبد الرحمن الداخل . وقد كتب أمية لعبد الرحمن أيضا ، ومنهم أبو عثمان عبد الله كتب لعبد الرحمن الداخل أيضا ، وكان عبد الرحمن نفسه كاتبا ،

وكان أسلوب الكتابة في العصر الاول عربيا خالصا من كل شائبة اعجمية ، لآن الكتاب من أمراء ووزراء كانوا عربا خلصا لم تتطرق العجمة إليهم لعدم اختلاطهم بالأعاجم : وعدم تأثرهم بغير علوم العرب وآدابهم ، فكانت كتاباتهم جزلة سهلة غير متكلفة خالية من الفاظ التعظيم والتبجيل والملق ، قايلة السجع إلا ما كان عفوا أشبه بما كانت تكتب في عصر بني أمية ببلاد المشرق .

ومن نماذج الكتابة في هذا العصر « كتاب يوسف بن عبد الرحمن

الفهرى إلى عبد الرحمن الداخل وهو :

« أما بعد ، فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب ، وتأشب من تأشب
إليك ، ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر ، ونقض الايمان
المؤكدة ، النى كذبوا الله فيها وكذبونا ، وبه جل وعلا نستعينه عليهم ،
ولقد كانوا معنا فى ذرا كنف ، ورفاهية عيش . حتى غمطوا ذلك واستبدلوا
بالأمن خوفاً ، وجنحوا إلى النقض والله من وراءهم محيط ، فأر كنت
تريد المال وسعة الجناب فأنا أولى بك ممن لجأت إليه ، أكنفك
وأصل رحمتك ، وأنزلك معى إن أردت أو بحيث تريد ، ثم لك عهد الله
وذمته على ألا أغدرك ، ولا أمكن منك ابن عمى صاحب أفريقية
ولا غيره ، »

وكتب بدر مولى عبد الرحمن الداخل إلى سيده ، وقد هجره .
« أما كان جزائى فى قطع البحر وجوب القفر ، والاقدام على
تشتيت نظام مملكة وإقامة أخرى غير الهجر الذى أهانتى فى عيون
أكفائى ، وأشمت بى أعدائى ، وأضعف أمرى ونهيت عندهم يلوذبى ،
وبتر مطامع من كنت يكرمنى ويخذمنى على الطمع والرجاء ، وأظن
أعداءنا بنى العباس لو حصصت بأيديهم ما بلغوا بى أكثر من هذا . فأنا لله
وإننا إليه راجعون »

فلما وقف عبد الرحمن على رقعته اشتد غضبه ووقع عليها :

« وقفت على رقعتك المنبثة عن جهلك وسوء خطابك ، ودناءة
أدبك ، ولئيم معتقدك . والعجب أنك متى أردت أن تبني لنفسك
عندنا متاناً ، أتيت بما يهدم كل متات مشيد . بما تمن به ، مما قد أضجر

الاسماع تكرراره ، وقد حمت في النفوس إعادته ، مما استخرنا الله تعالى من أجله على أمرنا باستئصال مالك . وزدنا في هجرتك وإبعادك ، وهضنا جناح إدلالك . فلعل ذلك يجمع منك ، ويردعك حتى نباغ منك ما نريد إن شاء الله تعالى فنحن أولى بتأديبك عن كل أحد ، إذ شرك مكتوب في مثالينا ، وخيرك معدود في مناقبنا .

وكتب المنذر بن الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى أبيه يستعطفه وكان قد نفاه إلى مكان موحش لسوء خلقه وكثرة إصغائه للوشاة :-

« إني قد نوحشت في هذا الموضع توحشاً ما عليه من مزيد . وهدمت فيه من أنس إليه ، وأصبحت مسلوب العز ، فقير الأمر والنهي . فان كان ذلك لذنوب كبير ارتكبتها . وعامه مولاي ولم أعلمه ، فاني صابر على تأديبه ، ضارع إليه في عفوه وصفحته :

وإن أمير المؤمنين وفعله لكدهر لا طار بما فعل الدهر

ومنذ أوائل القرن الثالث أخذ خلفاء بني أمية يفسحون صدورهم للعلماء والأدباء والشعراء مجازاة لخلفاء العباسيين في بغداد ، فكثر الوافدون من بلاد المشرق إلى الأندلس من أهل العلم والأدب ووفد كثير من أهل الأندلس إلى المشرق لورود مناهل العلم هناك ، وأيسعت معالم الحضارة في الأندلس وكثرت المدارس والمسكاتب كما رأينا . وديت الترف في كل مرافق الحياة . وكثرت مجالس العلم والأدب ومظاهر اللهو والطرب والمجون ، فضيغت العقول بصبغة فنية أدبية بما نقل هناك من علوم وفنون ، وما كان لديهم من جمال

الطبيعه ومظاهر الحضارة . فأحدث هذا كله نوعاً جديداً في التفكير والادراك، وتهذيب الشـ ر وسعة الاخيـلة. وتمثل ذلك كله في الكتابة فسالت أقلام الكتاب بمظاهر هذه الحياة، ودخل النثر في طور جديد لأن كل هذا كان عاملاً من عوامل التجديد في شـجذ ملكة الكتابة الفنية التي لم تعرف قبل ذلك هناك، إذ بعد أن كان النثر مقصوراً على المراسلات والخطب السياسية لا غير انتقل الى طور جديد

فلم تقتصر الكتابة المثرية على الدواوين والرسائل، قصيرة كانت أو طويلة . مسـبـجة أو مرسلـة. في العشق والغرام . أو في الذم واللوم، أو في المدح والاستعطاف وغير ذلك مما ظهر لأول وهلة أنه ليس من الموضوعات الممتعة، والمعاني العامة الاجتماعية، بل شـمـلـنـكـل شـيـء في الاجتماع هناك، وكان ^{النـم}مـظـهـراً لتلك المدنية والحياة ^{التـم}التـمـغـلـية والسياسية والعامية. وكان أثره في الأدب والبلاغة كأثر الشعر، لاشتماله على كثير من أغراض الكتاب . كوصف المباني الفخمة من مساجد وكنائس، وقصور وآثار، وما فيها من صور وتماثيل . وكوصف الاشياء الجميلة التي غنموها أو عملوها بأيديهم. ووصف محافل الأُمراء والخلفاء وأبهة الملك. والمجادلات والمخاصمات، ومجالس العلم والأدب وطرق الموضوعات العامة الاجتماعية والفلسفية، بشكل قصصي، كما في رسالة « حى بن يقظان » لابن طفيل ^و وكتابة الحقائق في أسلوب قصصي خيالي، كما في رسالة الوزير أبي عامر أحمد بن مروان بن شهيد، التي هي من نوع رسالة الغفران، وكالمسائل الطويلة المملوءة بالمعلومات التاريخية، كرسالة أبي محمد بن حزم الحافظ التي ذكر فيها بعض فضائل أهل الأندلس من

علماء وأدباء وحكماء ومؤرخين ، وسرد فيها آثارهم ومؤلفاتهم . ثم تلك الرسائل الفريدة في بابها التي هي من نوع رسائل ابن زيدون . ثم كتابه الفتح بن خاقان . ولسان الدين بن الخطيب وما يشابهها مما لم يكن مثله كثيرا في بلاد المشرق ، بل بعض هذه الأنواع لم تكن معروفة

وكانوا يصفون في كتاباتهم نفوس الكبراء والأمرء والنواد ، كما كتبوا في المناظرات الخيالية ، كالمناظرة بين السيف والقلم لابن برد الاصغر . وكالمناظرة بين بلدان الأندلس لابي بحر صفوان بن ادريس التي كتبها للأمير عبدالرحمن بن السلطان يوسف بن عبدالموثمن . وكما كتبوا في الدعوات والارشاد والتوسل إلى الرسول : وفي شعائر الحج . وكانت لهم أساليب في الزهد والأسرار الربانية . عرف الكتاب كيف يتم يدون فيها ألفاظ الزهد والتصوف ، « من فلك المعرفة في الملكوت ، ونجوم الحكمة في الجبروت ، وحياة القدس . ولباس التقوى والصراط المستقيم » وغير ذلك من ألفاظ الغيبيات وأساليب ما وراء المادة . وفي جوار ذلك تجدهم برعوا في أساليب اللهو والمجون ، كما بعث بعض الكتاب بآثرجة وكتب معها كتابا يقول فيه :

« قد بعثت إليك من بنات الثمار أجلها ، ومن نتائج البستان أفضلها ، فشربت على وردها رطلين ، وتناولتها بالراحتين ، فبحرمة الكأس التي رضعناها ، إلامارفعت قدرها ، وجعات القبول مهرها ، وجعلتها على مجلس المدام ، وحجبتها عن عيون اللثام ، فخصالها عجيبة . وصفاتها غريبة ، إن خزنتها عطرت أثوابك ، وإن أمسكتها أذهبت أوصابك ، إن عملت فيها غرب السكين ، قرنت لك بين النرجس والياسمين وأرتك الكشب عن

وجه الحبيب . يالها من أترجة غضة ، قد صورت من ذهب وفضة .

رقت من العاشق سباه ، ومن المعشوق طعم ثناياه »

ولهم عبارات تحسب من الخيالات الجميلة والسجع المتكاف السائغ
للنفس تذوقه ، مثل قولهم « خرج الوزير أبو بكر بن عمار مع الوزير
أبو الوليد بن زيدون ومعهما الوزير ابن خلدون من أشبيلية إلى منظره
لبني عباد بموضع يقال له الفت . تحف به مروج مشرقة الأنوار ، متنسمة
الأنجاد والأغوار ، متنسمة من ثغور النوار ، في زمان ربيع سقت
الأرض السحب فيه بوسيمها ووبلها ، وحلتها من زاهر ملبسها وباهر
حليها ، وأرداف الربى قد نازرت بالازار الخضر من نباتها . وأجباد
الجداول قد نظم النوار قلائده حول لباتها . ومجر الزهر تعطر أردية
النسائم عند هباتها . وهناك من البهار ما يزهي على مداهن النضار
ومن النرجس الريان ما يهزأ بنواعس الاجفان . وقد نوا الانفراد لاهو
والطرب ، والتتزه في روضى النبات والأدب ، وبعثوا صاحباهم يسمى
خليفة هو قوام لذتهم ونظام مسرتهم ... الخ »

وبرعوا كذلك في فن المقامات . ولأبي حفص عمر بن الشهيد :

فصول جيدة في ذلك ، تشبه ما عند الفرنجة الآن ، أو يشبهها ما هو عندهم .
وفيها أوصاف خيالية تدل على براعة في انتقاء الألفاظ المعاني ، وأمعان
في الصنائه وضروب الخيال ، كقول أبي حفص بن الشهيد :

« وقد صحبتكم مدة . وسبحت الله على رؤوسكم مرارا عدة ، أوقفكم

بالاسحار وأوذن بالليل والنهار ، وقد أحسنت لدجاجكم سفادا : وريبت لكم
من الفراريج أعدادا ، فالآن حين بلى في خدمتكم تاجي . أنعى إلى دجاجي .

وتنحى الشفرة على أوداجي. وحين أدركنى المشيخ، يمزق لحمى ويطيخ.
يا للكرام من ذل هذا المقام، وجعلت دموعه تسفح من دمه. والحزن
يطبق على فمه. ثم غشى عليه. فاجتمعت الناس إليه، يضربون وجهه
بالماء. ويخلصون له فى الدعاء، ثم أفاق من غشيته. وأنشد:

سلام يقتل شيخ من كل ذنب برى
محقق متحد موحد منى
هل نص هذا كتاب أو قال هـ ذا نبى
لا ذنب لى غير أنى مؤذن بدوى

فرقت له نفس القوم. وأقبلوا على صاحب المنزل باللوم. فقال
ويحك، إن هذا الديك ذو نخذ وصدرة قد أصابتنى عليه ضجرة
ولى فى ذبحه سر، ولا بد أن تزين به قدر، وتضرم تحته النيران، ويشبع
من لحم الضيفان. أما ترونه قررة العين والقلوب. سبيكة لجين. وتمثل
ومن شيتى مهما تزين منزلى ^{لهذين} تضيق أن أقرئه أحسن ما عندى
لو أن دى خمرأ لأرويته به ولو صلحت كبدى شويتاه كبدى
بذلك أوصانى أبى مذ عقلته وقد كان أوصاه بذا قبله جدى
فقال الديك: لا أكذب. الحق طريق مستبين، واتباعه مروءة
ودين. أما أنه على خاق عظيم، كريم ابن كريم. غير أنه لو لم فى أمرى
وأفرط وغلط ما شاء أن يغلط. أما علم أن هرما ت الديوك، ليست من
مطاعم الملوك، وأنها بالادوية أشبه منها بالاغذية وأقسم لو اتخذ
برمة من فؤاد مهجور، ووضعنى من مثله على تنور، لأقضى به حاجة

ولا عدم منى فقرا ومجاجة . فزكى قوله من حوله ، ولم يألوه تعظيما ،
واتخذوه من ذلك لليوم حكيمًا ، وأصرف البدوى من الطافه ، ما أحسن
منه قرى أضيافه ، وختم توبة بره ، بالرغبة فى بسط عذره وسمعنا منه
ورحلنا سحرا عنه . . . إلى أن قال

فأصغيت فاذا انا بصوت ناقوس فى دير قسيس ، وقرية كلها حانة
دار البطاريق : وماعب الكأس والاباريق . ساءمتها خنازير وحياضنها
المعاصير : ومياها الأنبذة والخمور . وشكلها مثلث مسطوح هندستها
حوارى نباتها غصون من قدود تهتز فى أوراق من برود . وتثمر رمانا
من نهود وتفاحا من خدود ، وعقارب من أصدانغ . وأفاعى من أسورة
وعقود ، وفيها مدام من رضاب . وشفاه من كواعب أتراب ، وغيد
تهوى بقرط ، وارتجاج لكثيب فى مرط ، وجولان النطاق ، وعض
الخالخال فى ساق ، وخنث فى ألفاظ ، ومواعيد بألحاظ ، وقلوب تكلف
وتشفف ، ونفوس ، تنشأ . وأخرى تتلف . فلما كثر تحدثنا بحضرة
الفقيه من هذا التشبيه ، قطبنا له وجوه الاستكراه ، وعضضنا له الشفاه
فبينما نحن كذلك نكثر لفظا ، ونرى الحلول بالمستحسن غلطا ، إذ
نظرنا إلى أطراد صفوف من أعطاف حسنة ، وخصور هيفه ، وشموس
وأقمار ، على أفلاك جيوب وأزرار : لاسيوف إلا من مقل ولا درق إلا
من عجل . ولا عارض إلا من خلوق ، وأقسم بنعة قدود من الأجز متم
النية ، وثنيتم الاعنة ، تمرىجا علينا إلبنا ، وتمحكا فى المال والولد لدينا .
فكرمت الشفاعة ، وقانا السمع والطاعة . »

وتجد لهم كلاما مسجعا هو من السهل الممتنع مع رقة فى اللفظ

وجزالة في المعنى ، وطولا لا يمل ، وصراحة في القول ، وحرية في الفكر
كما في رسالة لابن الحداد :

« لما كان الكتاب أعزك الله جلاء الاقضاء ، وصقال لاصحاء وعقال
الأدواء ، وسميتي منه بوسام ، ولفحتني منه بسوم وأمرت حسوا
في ارتغاء ، وأدجت ذما في ثناء ، والحر يأنف من الضيم . ويشمئز من
الذم . ولا يقتصر على الاجتزاء ، بغير الجزاء ، ولو ترك القط ليل لنام
وفي العتاب حياة بين أقوام . فاصطبر لشرب صبره . وانتدب لتسوخ
مره . فن الحكم العدل والقضاء الفصل . أن الذعك بما لذعتني
وأجرعك ما جرعتني . غير آفك في حال . ولا مباحته بمحال . والتمويه
ليس خلق الكاذب النبيه . والحر على ما أساء يصبر . وكل مجر في الخلاء
يسر . والفضل ان حواه . لا ان زخرف دعواه . وتحقيق البرهان ،
غير تنميق البيان . والسؤدد في محاسن الخلال والفعال . لاني امكان
الزمان ، وإقبال السلطان . وقيمة كل امرئ ما يحسن . أمثال أضربها
عليك واضحة المناهج . ومقدمات أنشأتها معك ، صادقة النتائج وجل
تشتمل على تفصيل حالينا ، ونبد تشير إلى ما فيه جرينا . وقد قابلني
عتابك . واجلابك . بريح تعصف وردد يقصف ، واستقبلني خطابك
وأطنابك بوبل يخسف . وسيل ينسف . بلغ الزبي وزاد . وغمر الزبي
والوهاد ... الخ »

وأحيانا تجدهم وصلوا إلى درجة في النثر لا تفرق بينها وبين الشعر
إلا في الوزن وقواعد العروض ، كما في رقعة شفاعة كتبها أبو المغيرة
عبد الوهاب بن حزمي : « إذا شرب روض الشكر من حوض البر ، وأطلع

من الزهر ما ينجبل مسك الغرر . وتذسم عن نسيم، يشفى حرارة القلوب
الهميم، ولم يزل يجرى خلف الطلب ، بيد الادب ، ويسرى في ظلام
الأمور بسراج المنظوم والمنثور .. الخ « الذخيرة جزء «ا»

ومن السجع الجميل والأساليب المزوجة بالحقيقة والخيال أسلوب
ابن بسام في الذخيرة وترجمته الأديب والشعراء . كقوله في ترجمة ابن
شهيد : « كان أبو طاهر شيخ قرطبة وفتاها . ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاتها
ينبوع آياتها ، ومادة حياتها وأسانها ومعنى أسمائها ومسمياتها . نادرة
الفلك الدوار ، وأعجوبة الليل والنهار . ان هزل فسجع الحمام ، وإن جد
فزئير الاسد الضرغام . نظم كما انشق الدر على النحور ، ونثر كما خلط
المسك والكافور .. الخ . »

ونجد مع هذه الرقة اللفظية والذوق الأدبي الفني ، أنواعا من
الرسائل الطويلة المسجوعة سجعاً متكلفاً مملاً ، مملوءة بالعمل ، كثيرة
الصناعة ، قابلة المعاني . وإمام هذه الصناعة لسان الدين بن الخطيب .
والفتح بن خاقان طريقته معروفة في كتبه حتى أصبح السجع طابعا
من طوابع الأدب العربي في الأندلس وتسلل الفقهاء مناهب الخطابة
والكتابة . فنفتحوا الأدب بنفحة جافة جف من أجلها عوده ، حتى
كسر أو كاد يكسر . وبلغ هذا منتهاه في أيام ابن تاشفين :

~~ومحل الرغبت في التصرف الأندلس فانه لم يخرج من صبغته~~
العلمة ~~وهي الاعتماد على الخيال والصناعة اللفظية~~ . فإن الكتاب
حاولوا كما قلنا طرق الموضوعات العامة كالقصص والحكايات الخيالية
كما في رسالة لابن شهيد على لسان الأوزة، والمناظرات وغيرها، وابتكروا

هذه الاساليب في النثر كما ابتكروا أساليب الموشحات في الشعر .
أما طول الكلام والاطناب فيه ، فيتأد يكون عاما في جميع
كتاباتهم . وبعض هذا الطول يعد من الأمور الفنية البحتة ، والافتنان
في التصور والخيال ، وبعضه ممل سقيم ، يدل على تمكن الصناعة لا غير
في نفوس الكتاب والعناية بالألفاظ والسجع ، بل يدل على انحطاط
ملكة البلاغة ، كما في كثير من كتابات لسان الدين بن الخطيب والفتح
ابن خاقان وغيرهم من الكتاب .

وجملة القول أنه يمكن معرفة حالة النثر بالأندلس ، ودخوله
البلاد بخطبة طارق بن زياد ، التي قلنا أنها أول صوت سمع هناك من
بلاغة العرب وأول غرس من غرسها . فهذا كان نموذج النثر والخطابة
في تلك الايام الى أواسط دولة بني أمية . لأن الوافدين جاءوا من المشرق
الى المغرب ، والدولة عربية في بيت بني أمية ، وروح البلاغة العربية
البدوية كانت تجول في نفس كل خطيب وكاتب وشاعر فالذين هاجروا
الى بلاد الاندلس في الازمنة الأولى كانوا لا يزالون أعرباً في أفكارهم
وأخيلتهم وأساليبهم . ولذلك نجد النثر في تلك المدة يشبه كثيراً نثر
الامويين في المشرق ، وخطبائهم في الاندلس أشبه بخطبائهم في الشام
وببلاد العرب . ولما كثرت الوافدون على الاندلس من المشرق نقلوا اليها
طريقة النثر المسجوع ، والصناعة اللفظية ، والتنميق في الكتابة .
وسرى هذا في كل أغراض الكتابة ، حتى في الكتب الفنية والعلمية ،
من تاريخية وغيرها . ومن تراجم للعلماء والادباء ، ومن كتب جدية
وهزلية ونعود فنقول كان النثر في الاندلس يشتمل على أكثر ما كان

معروفا في بلاد المشرق من الموضوعات أو الاغراض بل قد يمتاز ببعض هذه الاغراض الخيالية كالمحاورات بين الازهار بعضها بعضا وبين البلدان في تفضيل بعضها على بعض وقد يكون هذا النوع من خواص الأندلسيين أو من مبتكراتهم ، كما جاء ذلك في رسائل أبي حفص بن برد الاصغر . فنجد في نثر الأندلسيين الرسائل السياسية والاجتماعية والقصص الخيالية . التي تحاكي المقامات والمحاورات وغيرها مما جاء في رسائل ابن شهيد .

ومن أشهر كتاب الاندلس أمية بن يزيد كاتب يوسف الفهري . آخر أمراء الاندلس قبل الدولة الأموية وعبد الله بن عثمان كاتب عبد الرحمن الداخل والوزير أبو عامر احمد بن عبد الملك بن شهيد وزير الناصر وأبو عبد الله محمد بن عبد العزيز كاتب المنصور بن أبي عامر . والوزير أبو حفص احمد بن برد كاتب المنصور .

ومن أشهر الكتاب زمن ملوك الطوائف الوزير أبو عمر الباجي وأبو محمد بن عبد البر . وأبو الوليد بن زيدون وممن كتب للملك البربر ، الوزير أبو المطرف بن الدباغ والوزير أبو عبد الله بن أبي الخصال أشهر كتاب الاندلس في وقته وأبو المطرف بن عميره والفتح ابن خاقان ومن أشهر الكتاب لآخر دولة المسلمين هناك لسان الدين ابن الخطيب . وزير وكاتب السلطان أبي الحجاج يوسف أحد ملوك بني الأحمر وابن زمرك تلميذه .

الخطابـة

تـحسب الخطابة في الادب العربي من أنواع النثر المعروفة . بل قد تكون في بعض العصور النوع الوحيد الذي عرف من الكلام العربي المنشور الموثوق بصحة روايته ، كما في العصر الجاهلي . وقد يكون أكثرها وأعمها وأعظمها تمثيلا للغة العرب ونوع التفكير لديهم كما في العصر الاسلامي الأول وعصر بني أمية وزهاء مائة عام من أيام بني العباس . وكل زمن من الأزمنة التي ساد فيها نفوذ العرب والروح العربي والنصرة العربية انتشرت فيها الخطابة ولا سيما أيام الفتح واستثمار روح العصبية في ذلك . لأن العرب أهل فصاحة وبيان . فكانوا يتخذون الستهم عدة وعونا . فكانت الخطابة في مقدمة أنواع الكلام تزامم الشعر ويزاحمها في الوصول الى قرارة النفس والاستيلاء على العقل . حتى أن الادباء عندما أرادوا أن يقسموا كلام العرب الى منظوم ومنثور جعلوا من أنواع المنشور الخطابة وقدموها على القصص ، بل لم يذكروا القصص في هذا التقسيم . للضرورة الخطابة لهم في فتوحاتهم ومجالسهم ومحافلهم .

*
**

فـلما دخلوا الاندلس كانوا أحوج ما يكونون الى الخطابة لبث روح الشجاعة والحماسة في روح الجند ، وايقاظ العصبية العربية والتفاني في سبيل نشر الدين وسعة الملك . كما رأينا ذلك في الخطبة المنسوبة الى طارق بن زياد .

وقد أنتشر هذا الروح الخطابي زمن الفتح مدة الولاية وفي عصر الدولة الاموية لاحتياجهم الى الخطابة في هذه العصور في ميادين الحماسة والمحافل وأستقبال الوفود . وكان من بين الخطباء من الولاية يوسف بن عبدالرحمن الفهرى ، ومن ملوك بني أمية عبدالرحمن الداخل وعبد الرحمن الثاني . وكان محمد المنصور بن ابي عامر المعافري (توفى سنة ٣٩٤) من مشهورى الخطباء . ومن أشهر الخطباء قاضى قرطبة منذر بن سعيد البلوطى . (توفى سنة ٣٣٥) كان خطيب عبد الرحمن الناصر ، ومنهم ابو عبد الله بن الفخار قاضى مالقه زمن يوسف بن تاشفين وغير هؤلاء كثير ممن كان بعضهم من الولاية أو القضاة أو الفقهاء أو الادباء .

ولم ينحط أمر الخطابة في بلاد المغرب إلا قبل زمن البرابرة ، حين أخذت العصبية العربية ، وانتشرت العجبة على الألسنة . وساءت الصناعة فى الكلام ، ولم يعد هناك حاجة لها ، واقتصر منها على الخطب فى المساجد .

وجملة القول أن الخطابة مرت بأدوار ؛ فكانت أول الأمر ترمى إلى تأييد العصبية وبث الشجاعة فى نفوس الجند ، ولما اتسع ملك بنى أمية هناك ، وذاعت العلوم وانتشرت المناظرات فى المجالس والمحافل أمام الخلفاء من بنى أمية ، والأمرأء من ملوك الطوائف نشأت أغراض أخرى فى الخطابة . ولما ملك البربر الأندلس انحط شأنها لجهل هؤلاء باللغة وانطفأ شعلة الحماسة العربية فى النفوس ؛ ولم يكن هناك غير خطباء المساجد .

وبعد أن كان أساليبها جزلة سلسلة أصبحت متكافة مسجعة
العبارة على أثر انتشار السجع في أساليب الكتابة النثرية الأخرى .
وأكثر الخطب المعروفة لأنحسب في شيء من التفكير الصحيح ،
ولا من الكلام الجيد ، ولا من الأدب الناضج ، ولا من أساليب
الكتابة الفنية .

وليس لدينا ما يدل على عظم أمرها ، ولا على حلولها المحل الذي
كان لها في بلاد المشرق في أي عصر من عصورها هناك : إذ ليس
لدينا شيء من كلام الخطباء يدلنا على ما كان لها من منزلة أو شأن رفيع
في الأدب العربي ؛ ولم يعرف أحد هناك بأن مكانته في ذلك كانت
أشبه بما كان لأبي بكر أو عمر أو علي ، أو معاوية أو الحجاج أو زياد
أو أبي العباس السفاح أو المأمون ؛ أو غيرهم من مشهورى المشرقيين ،
في أي دولة من دول الإسلام وأكثر من اشتهر من خطباء الأندلس
كانوا من الفقهاء لا من الأدباء والفصحاء ؛ وربما كان أشهرهم جميعا
منذر بن سعيد البلوطي ، وكلامه يدل على بعده عن تذوق البلاغة ،
وأنه ليس من رجال الأدب أو الفصحاء .

وهذا شيء من خطبته في حضرة عبد الرحمن الناصر عند وفود
ملك الروم إليه ، وقد ارتج على غيره من الخطباء لهيبة الموقف ؛ فقام
سعيد ابن المنذر وقال هذه الخطبة وهي من الخطب الطويلة التي تدل على
روح ذلك العصر في الخطابة وأسلوبها المتكاف الذي هو أول ما يدل
على روح الفقهاء وآرائهم قال .

« أما بعد حمد الله والثناء عليه والتعداد لآلئه والشكر لنعمائه

والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه ، فإن لكل حادثة مقاما
ولكل مقام مقال وليس بعد الحق إلا الضلال ، وأنى قرقت في مقام
كريم ، بين يدي ملك عظيم ، فاصغوا إلى معشر الأسماعكم ، وافقهوا
عنى بأفتدتكم ، ان من الحق أن يقال للمحق صدقت والمبطل كذبت
وان الجليل تعالى في سمائه وتقدس بصفاته واسمائه ، أمر كليمه موسى
صلى الله على نبينا وعاليه وعلى جميع أنبيائه أن يذكر قومه بأيام الله جل
وعز عندهم ، وتلافية لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمت شععتكم ، وآمنت
سربكم ، ورفعت قوتكم بعد أن كنتم قليلا فكثرتم ، ومستضعفين فقواكم
ومستدلين فنصركم . ولاء الله رعايتكم وأسند إليه إمامتكم أيام ضربت
الفتنة سرادقها على الآفاق ، وأحاطت بكم شعل النفاق حتى صرتم في مثل
حدقة البعير من ضيق الحال ونكد العيش والتقليد ، فاستبدلتم بخلافته
من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم بيمين سياسته إلى تمهيد كنف العافية بعد
استيطان البلاء . أنشدكم بالله معاشر الملأ ألم تكن الدماء مسفوكه
فقتنها ، والسبل مخوفة فأمنها ، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها؟ ألم
تكن البلاد خرابا فعمرها ، وثغور المسلمين مهتزمة فخاها ونصرها؟
فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافية جمع كلمتكم بعد افتراقها
بإمامته ، حتى أذهب الله عنكم غيظكم وشفى صدوركم وصرتم يدا على
عدوكم بعد أن كان بأسكم بينكم . فانشدكم الله ألم تكن خلافته قفل
الفتنة بعد انطلاقتها من عقالها؟ ألم يتلاف صلاح الامور بنفسه بعد
اضطراب أحوالها ولم يكل ذلك إلى القواد والاجناد حتى باشروا بالقوة
والمهجة والاولاد ، واعتزل النسوان وهي الاوطان ورفض الدعة وهي

محبوبه وترك الركون إلى الراحة وهي مطلوبة ، بطوية صحيحة وعزيمة صريحة وبصيرة ثابتة نافذة ثاقبه وريح هابة غالبية ونصرة من الله واقعة واجبة وسلطان قاهر وجد ظاهر وسيف منصور تحت عدل مشهور متحملاً للنصب مستقلاً لما ناله .

ومن خطبة لأبي عبد الله بن الفخار يشكو بعض الخارجين أمام يوسف بن تاشفين .

« إنه لتمام كريم نبدأ فيه بحمد الله على الدنو منه ، وذعلى على خيرة أنبيائه محمد الهادي إلى الصراط المستقيم ، وعلى آله وصحبه نجوم الليل البهيم :

أما بعد فأنا نحمد الله الذي اصطفاك للمؤمنين أميراً ، وجعلك للدين الخفيف نصيراً وظهيراً ، ونفزع إليك مما دهمنا في حماك ، ونبت إليك ما لحقنا من الضيم ونحن تحت ظل علاك . ويأى الله أن يدهم من احتسى بأمر المساميين . ويصاب بضم من أدرع بحصنه الحصين بشكوى قت بها بين يديك في حق أميرك الذي عضده مؤياة لتسمع منها ما تختبره برأيك وتنقده . وأن قاضيك ابن الوحيد الذي قدمته في مالقة للأحكام ورضيت بعدله فيمن بها من الخاصة والعوام . لم يزل يدل على حسن اختيار بحسن سيرته . ويرضى الله تعالى ويرضى الناس بظاهره وسريته ما علمنا عليه من سوء ، ولادرينا له موقف خزي ، ولم يزل جارياً على ما يرضى الله ويرضيك ويرضينا ، إلى أن تعرض بنو حسون إلى الطعن في أحكامه ، والهدم من أعلامه ، ولم يعلموا أن اهتضام المقدم راجع إلى المقدم بل جمحوا في لجاجهم فعموا وصدوا وفعالوا وأمضوا ما به هموا . وإلى

السحاب يرفع الكف من جف عنه مسيل عين ونهر ، فكف يد بني
حسون عنه » .

الشعر في الاندلس

العرب يميلون إلى جمال القول ويقصدون إلى حسن العبارة والاستيلاء
على النفوس بسحر الكلام . وكان العربي شاعراً بطبيعته . وكانت الفصاحة
والبلاغة مظهر الحياة النفسية العربية ودليلاً على جهود العقول وآثارها
وكما نزل العربي بمكان بذر بذرة الشعر فيه وتعمدهما بالنمو ، فلما نزل أرض
الاندلس غرسها هناك ، فنمت في تلك الأرض الخصبة ، فكانت
كالزهرة الطيبة العرف لتحت بأصل آخر نضير الطلعة ؛ فظهر فيها أرج
الطيب ونضارة اللون . ذلك مثل الشعر العربي في بلاد الاندلس .
جاء الشعر بلاد الاندلس بصيغته الأولى البدوية ، وما لبث أن
أخذ صبغة جديدة باتساع التصور ، واختلاف المناظر ، والاطلاع على
كثير من العلوم والآراء ، فشم كل مظاهر الافكار ومرافق الحياة .
ولكن كثيراً ما كان الشعراء يرجعون في أساليبهم وأفكارهم إلى
الأساليب والأفكار البدوية ، لأن العرب من أشد الأمم عصبية
وحنيناً إلى وطنهم وعيشتهم الأولى . إذ رغم ما كان في نفوسهم من الاثر
الذي اكتسبوه من تلك البلاد ، وما حصل لهم من الحياة التي لم يكن
لهم بها عهد في بلادهم ؛ كانوا لا يزالون يميلون إلى أخيلتهم الأولى ، ولم
يكن لهم أن يهجروا عاداتهم ، لان العجب والخيلاء ، اللذين كانا لهما
السلطان على عقولهم ، جعلهم — حتى في تلك البلاد البعيدة ، وحتى

الصفات العامة
للشعر

بعد عدة قرون من انتجاعهم اياها — يتغنون بذكر بلادهم ، ويتخذون الشعر القديم نموذجا لهم في الصناعة والخيال .
والذي يقرأ الشعر الأندلسي يجده أخال الشعر في بغداد ، بل وفي بلاد العرب نفسها من حيث الصفات العامة ، والموضوعات التي كانت عند القدماء

على أن شعر الأندلس يمتاز في جماته عن الشعر العربي بما فيه من المعاني المبتكرة الجميلة ، التي كان يعالجها الشعراء هناك من الوصف البديع ، والكلام الرشيق ، والذوق النقي ، والافتنان في أساليب الخيال ولأنه يدل على حياتين ويرسم صورتين من أحوال العربي: فبينما ترى الشاعر يصبو الى ذكر بلاده الاولى من حياته البدوية ، تجده يذكر الرياض ، والبساتين والازهار ، والانهار ، والمياه الجارية ، وظلال الاشجار والنسيم العليل ، والآراء العامة والخاصة ، وأحوال الاجتماع والعادات هذا العقل المزدوج من البدو والحضر ظهر فيه جمال الفطرة ونضارة الحضارة ، هذا كله في الشعر . لان الشعر كان مسرح العقول من جد وهزل وصور الحياة النفسية والاجتماعية . ولبت منتشرا زهاء ثمانية قرون بين الخاصة والعامة من العرب وسكان البلاد الاصليين كالقوط وغيرهم . وقال الشعر كثير من الأمراء . وسابق النساء الرجال في ذلك فكان أحيانا يسبقنهم ، وعني الناس هناك بالشعر عناية عظيمة فكانوا ينقشونه على جدران المساكن وأبنية الحكومة واتصل بالحوادث العامة الاجتماعية . وكان من وسائل الرقي ، ومن دواعي السلم والحرب ، وفك اسر المسجونين ، والعفو عن المجرمين .

ولم تكذب تخلو رسالة نثرية من الشعر ، حتى سرت عدوى الوزن والقافية الى النثر. وانتشرت طريقة السجع في جميع المكاتبات ، وهي محلاة بأبيات من الشعر ، حتى في الكتب العلمية ، ومكاتبات الحكومة واجازات السفر . وكانت صناعة الشعر لازمة ، وروايته واجبة لمن يريد أن يندمج في حواشي الملوك . فقد كان الادباء يجتمعون في حضرتهم للانشاد والسابقة في ذلك ، كما كانت الحال في حضرة عبد الرحمن الأول ومن جرى على سنته ممن جاء بعده من الملوك والامراء الذين كانوا يجرون المرئيات والجوائز على الشعراء .

وقد قال « فرنسيسكو فيلاسباسا » شاعر الأسبان لهذا العهد :
« لم يصب شعب من موهبة الشعر الالهية بقدر ما أصاب الشعب العربي منها . فكان من ولوعه بالشعر ومن ثقافته التواقفة إلى الحرية والبطولة ماوسم شعره بطابع خاص كان شعاره منذ ظهوره . وما انتصار الاسلام الباهر إلا انتصار للشعر العربي أيضا . وسيطر إبان انتصاراتهم على أرقى شعوب الارض وامتزجوا بهم ، فأخذ عنهم المصريون والبيزنطيون والرومانيون مناحي جديدة بدأت منذ ذلك الحين تسود خشونة شعرهم القديم ، ولم يتعد هذا التأثير الخلاب في التركيب والتلاعب بالالفاظ . وظلت القصائد العربية القديمة سليمة لم يطرأ عليها فساد القلوب ، ولا تصرفت بها الألسن على هوى الرواة . فكانت كالارث الثمين يتناقلها الناس جيلا بعد جيل ، وظل بدو الصحراء رعاة النجوم أو في الشعوب خبرة في تخير الأخيصة ، وأوفرها غنى بالمادة الشعرية ، ولم تهب للشعر العربي في عامة الاقطار التي اكتسحتها

العرب قربة أصلح من تربة الأندلس، ولازها في بلد من البلدان زهوته في هذا البلد .

قال « وكان قواد العرب أولا ومن بعدهم الخلفاء والامراء مثالا للشعب في بث الفكرة الأدبية في الأندلس العربية ، تكاد لا تستثنى منهم واحدا لم يخلد اسمه بقصيدة. غرام أو حماسة منذ أنشأ عبد الرحمن الأول تحية الوطنية الممتعة التي خاطب بها النخلة الأولى التي غرسها بيده على ضفة النهر الكبير ، إلى أن أنشد أبو عبد الله على ضريح مريم موشحته المشجية راصفا قوافيها بملذات قابه المنفطر الدامى . وإن أنس لأنس المعتمد آخر ملوك أشبيلية ، وفي رأيه أن شعره أجلى منال للشعر العربي ، إن لم يكن بجماله ، فبالتشاؤم الذي فيه ، وبالشؤم الذي رافق حياة صاحبه ، وكان حلقة من سلسلة الأبطال الذين نأواهم القدر في مختلف أدوار التاريخ .

ونسج الاشراف على منوال سلاطينهم ، فنمت رياض الأدب الغنائى ، وأزهرت في ظلال السيوف فتفتشت عدوى الاشتغال بالأدب العربي بين أساقفة النصارى ممن استعربوا في ذلك العهد ، فراحوا يقرضون الشعر باغة عربية عالية ، وهو لعمرى حدث وحيد من نوعه في التاريخ . وفاضت أرض الأندلس الممرعة بلوم الاسلام وآدابه التي عممت العالم ، وقامت النفوس التواقفة إلى العرفان في أقاصى البلدان ، تبرد شفاها الظمأى برشيف ينايع الحب والسلام المتفجرة من الشعر العربي في قرطبة وطليطلة أولا ، وأشبيلية وغرناطة آخر ونظام سلفه ستر الثاني بآبارومية قصائد عربية لها أوزانها وقوافيها .

وظلت اللغة العربية لغة التقاليد في الحب والعلم والشعر في كل من صقلية وبروفنس وإيطاليا وبيزنطية بل في قلب بلاد ألمانيا. ورافق الشعر جيوش العرب الفاتحين وسفنهم الظافرة ، وواكبت قوافيه قوادم ، فكانوا يولجونها في الصدور على سنان الحراب ، ناشطين لاذاعتها نشاطهم لاذاعة سور القرآن الكريم . ولم يكن جل أناشيد طبقاته القديمة وكثير من أغاني شعراء الولايات الجوالين غير قصائد عربية لشعراء الأندلس ، أدخل عليها بعض التطور ، وبقيت محتفظة بأثر الروح الشرقى . وبالعبودية نظم الامبراطور فريدريك الثاني ملك صقلية مقاطيع ممتعة ، وجمع في بلاطه رهطا من علماء الاسلام وشعرائه ليستخدم ذريعة يبعث بها في ملكه ما كان للأدب العربي من بهاء في دمشق وبغداد وقرطبة وإشبيلية . وهي المدائن الأربع التي كانت في ذلك العهد قبلة أنظار النهضة الأدبية في العالم أجمع ، وقد اتضح للباحثين من المعاصرين أن في شعر دانتى الذي هو نخر أمته بأسرها ، مأخذ صريحة مردودة الى الادب العربي .

وقد كان لنشاط العرب العقلي وصفاء قرائنهم في قول الشعر ما كان لهم من العلوم والفنون ، بل زاد ذلك في الشعر لما لهم من ميلهم الفطري اليه والافتنان فيه . فقد وسع كل شيء من أحوالهم الاجتماعية والنفسية . فكانوا يصفون الكبراء والعلماء ، ويمدحونهم بعبارات جميلة رقيقة ، أكثرها خال من المبالغات . ويتبنونه شكواهم وآلامهم ، ولهم قصائد في التقرب الى الله ومدح الرسول عليه السلام ، والزهد والتصوف والرثاء ، ولهم أشعار رقيقة في المزمح والتهكم والمجون :

أغراض الشعر

كافي قصيدة قاضي الجماعة بقرناطة أبي عبد الله بن علي بن الأزرق
نذكر منها شيئاً على سبيل الفكاهة قال :

عم باتصال الزمن ولا تبالي بمن
وهو يواسي بالرضا من سمج أو حسن
أو من عجوز تختطى والظهر منها منحني
أو من مليح مسعد موافق في الزمن
مهما تبدي تحده يبدولك الورد الجني

*
*
*

أفدى صديقا كان لي بنفسه يسعدني
فتارة أنصحه ونارة ينصحني
وتارة ألعنه وتارة يلعني
وربما أصفعه وربما يصفعني
أستغفر الله فهم ذا القول لا يعجبني
ياليت هذا كله فيما مضى لم يكن
أضحكت والله بذا ال حديث من يسمعني
دهر تولى وانقضى عنى كطيف الوسن
ياليتني لم أره وليته لم يرني
دنست فيه جاني وملبسي بالدرن
وبعت فيه عيشتي لكن بيخث الثمن
كأنتي ولست أد رى الآن ما كأنتي

والله ما التشبيه عند الشاعر بهين

*
*

ومنها

هل أمتطى يوما الى الـ شرق بطون السفن
وأجتلى ماشئته في المنزل للمؤمن
حينئذ أخلع في هذى القوافى رسى

*
*

ومنها

هل لا تريد عودة الى قد شوقني
تغوص فيه أنملى غوص الاكول المحسن
ولى الى الاسفنج شو ق دأم يطربني
وللارز الفضل إذ تطبخه باللبن
وللشواء والرقا ق من هيام أنثى

*
*

ومنها

إيه خليلي هذه مطاعم لكنى
أعجب من ريقك إذ يسيل فوق الذقن
هل نلت منها شعبا فذكرها أشبعني
وإن تكن جوطا يا صاح فكل بالأذن
فليس عند شاعر سوى كلام الألسن
يصور الاشياء وهى أبدا لم تكن

فقوله يريك ما ليس يرى في الممكن
فاصميح وسامح واقتمنع واطوحشاك وأسكن

* *

وقد نظموا التاريخ وحوادثه . وبرعوا في وصف الابنية الفخمة
ومافيه من الصور والاشكال والزينة ، ووصف القصور والحدائق
ومجالس الشرب واللهو والغناء والرقص . كقول الشاعر :

يأرب ليلٍ قد هتكتُ حجابَه بزُجاجةٍ وقَّادِةٍ كالكوكَبِ
يَسْمَعِي بِهَا ساقِ أَعْنِ كأنها من خده ورضاب فيه الاثنبِ
بدران ، بدر قد أمنت غروبه يسعي بيدر جانح للمغرب
فاذا نعمت برشف بدر طالع فأنعم بيدرٍ آخر لم يغربِ
حتى ترى زهر النجوم كأنها حول المجرَّة رربٌ في مشربِ
والليل منحصر يطير غرابه والصبحُ يطردُه بيازٍ أشهبِ

* *

ووصفوا التنزه بالليل في ضوء القمر ، والأشجار وعضونها ، والرياح
وهي تعبت بها وظلها الظليل ، وأشعة القمر على الجداول ، وصفاء الجوى ،
والفاكهة والأثاث والمساكن ، والقصور والصور . كقول الشاعر :

قصرٌ بمدرجة النسيم تحدث فيه الرياضُ بسرهما المستور
خفض الخورنق والسدير سُمُوهُ وثنى قصور الروم ذات قصور
لاث الغمام عمامة مسكية وأقام في روضٍ من الكفورِ

غنى الربيع به محاسن وصفه فاقترب من نور يروق ونور
فالدوح يسحب حلة من سندس تزهى بأؤلؤ طامسا المنثور
والنخل كالقيد الحسان تقرطت بسبائك المنظوم والمنثور
والرمل في حبيك النسيم كأنما أبدى غضون سوائف المذعور
والبحر يرعد متنه فكأنه درع نشن بمعطفى مقرر
وكأننا والقصر يجمع شملنا فى الأفق بين كواكب وبدور

*
*
*

ومما قاله شعراء الاندلس فى هرم مصر « قيل إن جماعة من
الشعراء خرجوا متنزهين إلى الأهرام ليروا عجائب مبانيها . ويتأملوا
ماسطرها الدهر من العبر فيها ، فاقترح بعض من كان معهم العمل فيها
فصنع أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى .

بعيشك هل أبصرت أعجب منظرا على ما رأيت عيناك من هرمى مصر
أنافا بأعناق السماء فأشرفا على الجواشرف السماك أو النسر
وقد واقيا نشزاً من الأرض عاليا كأنهما نهدان قاما على صدر
وصنع أبو منصور صنافر الحداد :

تأمل هيئة الهرمين وأنظر وبينهما أبو الهول العجيب
وقيض البحر عندهما دموع وصوت الريح بينهما نجيب
وظاهر سجن يوسف مثل صب تخلف فهو محزون أشيب
(نفتح ج ٢ ص ٢١٠)

*
*
*

ومن مراسلاتهم الظريفة ماروو ان الوزير أبا طامر أصطحب
يوما والجو سماكي العوارف ، لازوردي المطارف . والروض أنيقة
لباته رقيقة هبانه ، والنور مبتل ، والنسيم معتل ومعه قومه ، وقد
رقمهم يومه والراح تشعشع ، وماء الاماني ينشع ، فكتب إلى ابن عمار
وهو ضيفه .

ضمان على الأيام أن أبلغ المنى إذا كنت في ودي مسراً ومعلنا
فاو تسأل الأيام من هو مفرد بواد ابن عمار لقات لها أنا
فان حالت الأيام بيني وبينه فكيف يطيب العيش أو يحصل المنى

*
*
*

فلما وصلت الرقعة اليه تأخر عن الوصول واعتذر بعذر مختل
المعاني والفصول فقال أحد الحاضرين إنى لأعجب من فعود ابن عمار
عن هذا المضمار ، مع ميله الى السماع وكفه بمثل هذا الاجتماع ، فقال
ذو الرياستين : أن الجواب تعذر فلذا اعتذر لأنه يعانى قوله . ويعلله
ويرويه ولا يرتجل ، ويقوله في المدة الممتدة فرأى أن الوصول بلا جواب
أخلال لأدبه وأخلال في الشعر ورتبه . فلما كان من الغد ورد ابن عمار
وخصه الجواب وهو .

حصرت لى الآمال طيبة الجنى وسوغتنى الأحوال مقبلة الدنى
والبستني النعمى أغض من الندى وأجمل من وثى الربيع وأحسننا
وكم ليلة أحظيتنى بمحورها فبت سمير للسناء وللبنى
أعلل نفسى بالكارم والعسلا وأذنى وكفى بالغناء وبالغنى
سأقرن بالتمويل ذكرك كلما تعاورت الاسماء غيرك والكنى

لاُوسعتنى قولا وطولا كلاهما
وشرفتى من قطعة الروض بالتي
تروق بجيد الملك عقداً مرصعا
قدم هكذا فارس الدست والوغى
يطوق اعناقاً ويخرس إلسنا
تنائر فيها الطبع ورداً وسوسنا
وتزهوا على عطفيه رداً مزينا
لتطعن طوراً بالكلام وبالقنا
(نفتح ج ١ ص ٣١٣)

*
* *

ومما جاء فى الوصف الجميل قول ابن شهيد يصف روضاً .
وروض كساه الطال وشيا مجددا
إذا صاحفته الريح خات غصونه
إذا ما انسكب الماء طابت خلته
وإن كنت عنه حسبت صفاءه
وغنت به ورق الحمام بيننا
فلا تجفون الدهر مادام مسعدا
ونخذها مداً من غزال كأنه
فأضحى مقياً للنفوس ومقعدا
رواقص فى خضر من القطب ميديا
وقد كسرتة راحة الريح بددا
حساماً صقيلاً خافى المتن جودا
غناءاً ينسيك الغريض ومعبدا
ومد إلى ما قد حباك به يدا
إذا ماستقى بدر تحمل فرقدنا
(ج ١ ص ٣١٣)

*
* *

ومن أخيلتهم الجميلة أنه كان فى دار محمد بن اليسع شاعر الدولة
العامرية وردة وكان يهدى وردها كل عام إلى طارض الجيش احمد بن
سعيد فغاب العارض منه فقال :

قال لى الورد وقد لا
وهو قد أئنع طيباً
حظته فى روضتيه
جمع الحسن لديه

ابن مولاى الذى قد كنت تهدينى اليه
قامت غاب العام فأيتس أن ترى بين يديه
فبدا يذبل حتى ظهر الحزن عليه
ومن أوصافهم الجميلة قول ابن الزقاق يصف روضا .

ورياض من الشقائق أضحت يتهادى بها نسيم الرياح
زرتها والغمام تجلب منها زهرات تريك لون الراح
قلت ما ذنبها فقال مجيبا سرقت حمرة الحدود الملاح

*
*
*

ووصفوا التماثيل وبرك المياه وأوانى الأزهار . كما قال بعضهم فى
دائرتين من ورد وياسمين :

يا حسنَهَا دائرة من ياسمين كالحلى
فالورد قد قابلها فى حلة من خجل
كعاشق وحبّه تغامزا بالمقل
فاحمر ذا من خجل واصفر ذا من وجل

*
*
*

ووصفوا الحمامات الرخامية والسباحة والنوافير والحدائق والمياه
وتكلموا عن الغلمان والخدم ومجالس الخلفاء والاجتماعات العامة
ومجالس اللهو والشرب والرقص . كما قال ابن شهيد :

هاك شيخاً قاده السكر لسكا قام فى رقصته مُستهاكاً
لم يطق يرقصها مستثبتاً فأنثى يرقصها مستمسكاً

ساقه عن هزها منفرداً نقرس أخنى عليه فأتكأ
من وزير فيهم رقاصه قام للسكر يناعى ملكاً
أنا لو كنت كما تعرفنى قت اجلالاً على رأسى لكأ
قهقهه الابريق منى ضاحكاً ورأى رةشة رجلى فبكى

*
*
*

وتكلموا عن آلات الطرب وكل أنواع السرور والفرح ،
ووصفوا ميادين الحروب وأهوال القتال والنضال ؛ والشجاعة والجن
والاقدام ، والنصر والخذلان . ووصفوا النفوس وما يجول بها من
الميول والاهواء وما يتحدث فيها من لذة وألم ؛ والعشق وأثره فى النفس
كما قال الشاعر :

قبلة كانت على دهش أذهبت ما بى من العطش
ولها فى القلب منزلة لو عدتها النفس لم تطش
طارقتني والدجى لبست خلماً من جلدة الحبش
وكان النجوم حين بدت درهم فى كف مرتعش

وكقول بعضهم :

بتنا كأن حداد الليل شملتنا حتى بدا الليل فى ثوب سحولى
كأن ليلتنا والصبح يتبعها زنجية هربت أمام روى

وكقول الشاعر :

ولما تجلى الليل والبرق لامع كما مل زنجى حساما من التبر
وكقوله : ، فى وصف زنجى يسقيهم ،

وزنجى أتى بقضيب نور وقد زفت لنا بنت الكروم

فقال فتى من الفتيان صفه فقلت ، الليل أقبل بالنجوم
وكقولهم : ، في ملاقة الأُحبة وأوقات الوصل .

وواعدتها والشمس تجنح للندى بزورها شمساً وبدر الدجى يسرى
فجاءت كما يمشى سنى الصبح في الدجا وطورا كما مر النسيم على النهر
فعطرت الافاق حولي فأشهرت بمقدمها والعراف يُشعر بالزهر
فتباعت بالتقبيل آثار سعيها كما يتقصى قارىء أحرف السطر

*
*
*

وبرعوا في هذا النوع براعة لا تجارى حتى أتوا بالغرائب من المعانى
الجزلة التي تثير النفوس ، وتحملها على التعشق ؛ كما قال الشاعر :

غصبوا الصباح فقسموه خدوداً واستنهبوا قضب الاراك قدوداً
ورأوا حصى الياقوت دون نجومهم فاستبدلوا منه النجوم عقوداً
واستودعوا حدق الهمى أجفانهم فسبوا بهن ضراغماً وأسوداً
لم يكفهم حمل الأسنان والأظبا حتى استعاروا أعينا ونهوداً
وتضافروا بصفائهم أيدياً لنا ضوء النهار بليلاً معقوداً
صاغوا الثغور من الاقاحى بينها ماء الحياة لو اغتدى موروداً

*
*
*

ولهم خيالات مبتكرة وعبارات طلية خصوصاً في الوصف ،
كقول ابن شهيد :

فكان النجوم بالليل جيشي دخلت للكمون في جوف غاب

وكان الصباح قانص طير قبضت كفه برجل غراب
ومن أبدع كلامهم في الوصف الجميل والشعر الذي لا يجارى في
طريق الخيال والابتكار ، ورقة العبارة وحسن الاسلوب ، وجزالة
المعنى ، قول أبي الفضل بن شرف القيرواني .

مَطَلَّ اللَّيْلُ بوعَدِ الْفَلْقِ وَتَشَكَّى النِّجْمُ طَوْلَ الْارْقِ
ضربت ریح الصبامسك الدجى فاستفاض الروض طيب العبق
والاح الفجر خدًا تخجلا جال من رشح الندى في عرق
جاوز الليل الى أنجمه فتساقطن مسقوط الورق
واستفاض الصبح فيها فيضة أيقن النجم لها بالغرق
فانجلى ذاك السننا عن حلك وانمحي ذاك الدجى عن شفق

*
*
*

بأبي بعد الكرى طيف سرى طارقا عن سكن لم يطرق
زارني والليل ناع سدفة وهو مطاوب بياق الرمق
ودموع الطل تمر بها الصبا وجفون الروض غرق الحدق
فتأتى في أزار ثابت وتثنى في وشاح قلق
وتجلى وجهه عن شعره فتجلى فلق عن غسق
نهب الصبح دجى ليلته فجا الخد ببعض الشفق
سلبت عيناه حدى سيفه وتحلى خده بالرونق

ووصفوا الكنائس والأديرة والقسس . كما قالوا عن ابن شهيد
« أنه بات ليلة بأحدى كنائس قرطبة وقد فرشت بأصغاث آس ،
وعرشت بسرور واستيناس وقرع النواقيس يبهج سمعه ، وبرق الحميا

يسرج لعه ، والقس قد برز في عبدة المسيح ، متوشحا بالزنابير أبداع
توشيح ، قدهجروا الأفراسخ وطرحوا النعم كل اطراح
لا يعمدون الى ماء بآنية الا اغترافا من الغدران بالراح
وأقام منهم يعملها حميا ، كأنما يرشف من كلسها شفه ليا ، وهي
تنفح له بأطيب عرف ، كلما شفهها أعذب رشف ، ثم ارتجل بعدما ارتحل :

ولرب حان قد شممت بديره نخر الصبا مزجت بصرف عصيره
في فتية جعلوا السرور شعارهم متصاغرين تخشعا لكبيره
والقس مما شاء طول مقامنا يدعو بعود حولنا بزوره
يهدى لنا بالراح كل مخفر كالخشف خفره التماح خفيره
يتناول الظرفاء فيه وشربهم لسلافه والأكل من خنزيره

*
*
*

ومن خواص شعر الأندلسيين ذلك الروح الخيالي المجوني ، مع
حسن الدعاية وخفة الروح وجمال التشبيه مما لا يكاد يوجد له مثيل في
شعر غيرهم كقولهم : —

وصهريج تخال به لجينا يذاب وقد يذَّهبه الأصيل
كان الروض يمشقه فنه على أرجائه ظل ظليل
وتمنحه أكف الشمس عشقا دنائرا فنه لها قبول
إذا رفع النسيم القضب عنها فحينئذ يكون لها سبيل .
وللنار نبع تحت الماء لما تبدى عكسها جمر بليل
ولليمون فيه دون سبك بجلاجل زخرفت نصبا تجول

فيا روضا به: صقلت جفوني وأرهف متنه الزهر الكليل
تناثر فيك أسلاك الغوادي وقبّل صفح جدواك القبول
ولا برحت تجمع فيك شملا من الأكياس والكأس الشمول
بدور تستنير بها نجوم مع الأصباح ليس لها أقول
يهم بهم نسيم الروض الفأ فن وَجَدَ له جسم عليل
وقد تفننوا في المراسلات وأبدعوا فيها أيما ابداع فقد دعا أبو
عبد الله بن رشيق القلعي ثم الغرناطي بعض أصحابه إلى أنس فقال: —

سيدي عندي اترج ونارنج وراح
وَجَنَى آس وزهر وحمانا لا يباح
ليس إلا مطرب يسلي الندامى والملاح
ومكان لانتهاك قد نأى عنه الفلاح
لا يرى يطلع فيه دون اكواس صباح
فيه فتیان لهم في لذة العيش جماح
طرحوا الدنيا يسارا فاستراحتوا واستراحوا
لا كقوم أوجعتهم لهم فيها نباح

وكان من بين الشعراء الفقهاء والحكماء والمتصوفون والمؤرخون.
فنظموا حوادث التاريخ والحكم والمواعظ ومسائل الدين والفقهاء وقواعد
اللغة ، ومسائل النحو والصرف ، ولكنهم في كل ذلك لم يخرجوا
كما قلت عن المذاهب التي كانت معروفة في أصول الشعر وأنواعه ، لأنهم
كانوا يجارون أهل المشرق في كل شيء ، ولم يريدوا أن يتخطوا دائرة
الفكر العربي ولا (تقاليد اللغة العربية) ولا أن يخرجوا على أئمة الشعر

العربي ، ولا أن يبتكروا أو يزيدوا عنهم شيئاً ، سوى ما حصل في الأوزان من الموشحات ؛ لأنهم تعففوا عن الاطلاع على آداب الأمم الأخرى مما كان يكون له أثر في ابتكار أنواع جديدة ، بل انصرفوا عن ذلك إلى التوغل في الصنعة اللفظية والمبالغة في الافتنان ، والعناية بالخيال اللفظي ومظاهر البلاغة . لأن الشعر كان في جملته هناك من دواعي النسلي والمجون . وكانت حياة الشعراء حياة أقرب إلى اللهو منها إلى الجد . فكان من يريد منهم أن يكون حكيماً في شعره يحاول محاكاة المتنبي وأمثاله من أهل المشرق ، كما كان يفعل ابن درّاج القسطلي ، وابن هانيء . فكأنوا يقولون عن كل منهما أنه متنبى الأندلس .

وقد بلغوا الذروة في أنواع الوصف وذكر جمال الطبيعة حتى جعلوا الشعر العربي شعراً فنياً جميلاً يرقق الشعور ويهذب النفوس لأدراك الجمال ، وجاءوا بالعجب العجيب في ذلك

ولذلك كانت أساليبه رقيقة ، وعباراته متعملة كثير منها من

السهل المتنوع ، ومن السلامة بمكان عظيم

هذه أمثله من الشعر الأندلسي تدل على رقة ذوقهم ودقة بيانهم وحسن اختيارهم وسعة خيالهم في كل معنى من المعاني النفسية أو الوجدانية وفي كل شيء منظور أو محسوس ، وفي كل فكر ظاهر أو مأموس وفي كل معنى من المعاني التفهيمية ، أو الاجتماعية المعروفة لديهم وفي جمال الطبيعة وما توحى به إلى النفس وغير ذلك مما هو مجموع ومعروف من أشعارهم مما لا ينكره أديب أو عالم :

ولكن الذي يخامر الإنسان وهو يقرأ هذا الشعر الجميل ويملاً

نفسه بالأعجاب هذه المسألة .

ترى هل أتى الأندلسيون بشيء في الشعر العربي لم يكن معروفاً
ببلاد المشرق في أدب العرب من نوع جديد طراً عليه هناك ، أو
ولدته في نفوسهم مناظر بلادهم وانتقالهم من بلد إلى بلد واختلاطهم
بشعب جديد وتفكير لم يكن لهم عهد بمعرفته ؟

وهل هناك فرق واضح بين الشعر الأندلسي والشعر في بلاد
المشرق ؟ .

والجواب أنه إذا تأمل الإنسان شعر الأندلسيين وجدده كغيره
من الشعر العربي في كل مكان وفي كل بقعة من بقاع الأرض حل به
العرب ونظاموا فيها الشعر وحده منبعثاً من فطرة سليمة وخيال واسع
وضور لما وقع عاينه نظراً وأوحته إليه أفكارهم وآرائهم الشخصية
معتمدين في ذلك على وجدانهم وما يجول بنفوسهم سالكين مسلك آباءهم
واجدادهم فاتباع الأنواع التي سبقهم بها الشعراء الأقدمون من الوصف
والمدح والذم والحماسة ، وغير ذلك من الأنواع التي لا تخلو منها نفس
الشاعر ولا عواطفه والتي لا تمت إلا قليلاً إلى الحياة الاجتماعية العامة
ووصف النفوس البشرية الدائمة والاجتهاد الدائم ، فشعرهم هو نفس
الشعر القديم في موضوعاته أو أغراضه وأخيلته مصبوغة بصبغة
خاصة بهم أو كما يقال الآن بصبغة محلية .

فلم يحدث في شعر الأندلسيين نوع جديد لم يكن في الشعر العربي
مثل الشعر القصصي أو التمثيلي أو الاجتماعي الذي يصور النفوس العامة

من غير نظر إلى حالة خاصة بالشاعر .

ولكن تلك الصبغة الفنية التي انعس فيها شعراء الاندلس من وصف بديع وبلاغة نادرة هي التي ميزت الشعر الاندلسي من سواه ، وقد كان أعمادهم على الصناعة اللفظية وجمال القول وتعمقهم في الوصف للطبيعة والمجالس والمحافل أظهر ما يكون حتى أبعدهم ذلك قليلا أو كثيرا عن التعمق في التفكير فلا تكاد تجد بينهم شاعرا مفكرا أو فيلسوفا من أمثال المتنبي وغيره . وان جاء شيء من التفكير في أصل كلامهم فهو عارض إليهم لا مطبوع فيهم

أما الأزجال والموشحات وغيرها من الأوزان التي ابتكروها في الشعر العربي ، والمقطوعات الشعرية جديده أو هزلية أو اجتماعية ، فقد أظهروا منها من البراعة مالا يقدر عليه إلا نفوس خلقت شعرية بطبيعتها وشاعرة بفطرتها . وقد سرت هذه الانواع إلى المشرق فأحدثت حركة جديدة في أوزان الشعر العربي .

الموشحات

بقي الشعر تابعا لطريقة العرب في أغراضه وأوزانه ، إلى أن حدث مادعا إلى الابتكار في العلوم والفنون . وكان الشعر من أقرب الاشياء إلى اللسان ، وأكثرها انتشارا في المجالس ، وأدعى إلى الانتقال من غيره . لكثرة قائله وسامعيه والمتأثرين به ، فتطلعت نفوس الفنين من شعراء وأدباء إلى الانتقال به من صبغته البدوية إلى شكل حضري وان يزجوا به في مجتمعاتهم حتى يجاروا به القدماء في إلهاماتهم الجميلة ،

وفطرم النقية ، وسداجتهم الفنية . فلم يفلحوا كثيرا في الخروج به عن أغراضه التي تكلم فيها القدماء ، مما هو ألصق بالصبغة الوجدانية منه بالصبغة الاجتماعية . ولكنهم زادوا في وجدانياته مما استدعته الحضارة من التوسع في الخمریات والعواطف من عشق وغيره ، ووصف المناظر الجميلة والحدائق النضرة ، وكل ما استلزمته حالتهم من آثار المدنية وال عمران . ذلك من جهة أغراضه . أما من جهة أوزانه وصناعته ، فقد كانت الحال فيه أسهل . فابتكروا من الاوزان في الشعر والصناعة ما لم يبتكروه في المعاني والأغراض . وتوسعوا في ذلك حتى لقد ينحى إلى المطلع على الشعر العربي القديم والحديث أن هذا انقلاب عظيم وطورا من الأَطوار الحديثة التي تخطاها الشعر وكان ذلك أظهر ما يكون في الاوزان والقوافي ، والقوانين التي وضعوها في رقة الاسلوب وبعض الخيالات التي لم تكن معروفة . حتى أخذ الشعر العربي صبغة حديثة بما أدخل فيه من هذه الأنواع المختلفة في الأوزان، الجارية على غير ما كان معروفا فيه، وخرجوا عن التقيد بنظام القوافي المعروف . قال ابن خلدون في « فصل أشعار العرب وأهل الامصار لهذا العهد » : « ولهم فن آخر كثير التداول في نظمهم ، يجيئون به معصبا على أربعة أجزاء ، يخالف آخرها الثلاثة في رويه ، ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت إلى آخر القصيدة ، تشبيها بالربع والخمس الذي أحدثه المتأخرون من المولدين ... الخ . »

وقسم بعض المتأخرين الأنواع التي حدثت في الشعر ، إلى الشعر القريض والموشح والديبته والزجل والمواليات والسكان كان والقوما وغيرها .

واشتهر^(١) من هذه الأنواع في الأندلس ما هو معروف
« بالموشحات »^(٢) وأصل الكامة من الوشاح ، وهو عقد من لؤلؤ
وجوهر منظومين يخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر ، تتوشح

-
- (١) راجع خلاصة الأثر ، في أعيان القرن الحادى عشر ج ١ ص ١٠٨
(٢) قالوا في مخترع هذه الموشحات انه مقدم بن معافى القريرى ؟ من
شعراء الأمير عبد الله ابن محمد المروانى ، وأخذ عنه عبد الله احمد ابن عبد ربه
صاحب العقد الفريد . هكذا في مقدمة ابن خلدون . وجاء في الذخيرة في
الكلام على الأديب أبى بكر عبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤٢٢ هـ ... سلك
الى الشعر مسلكا سهلا ، فقالت له غرابته مرحبا وأهلا ، وكانت صنعة التوشيح
التي نهج أهل الأندلس طرقتها ، ووضعوا حقيقتها . غير مرقومة البرود ، ولا
منظومة العقود ، فقام عبادة هذا منادها ، وقوم ميلها وسنادها ، فكانت لم
تسمع بالأندلس إلا منه ، ولا أخذت إلا عنه ، وأول من صنع أوزان هذه الموشحات
بافقنا فيما بلغنى محمد بن حمود العمرى الضيرى وكان يضعها على أشطار الأشعار .
غير أن أكثرها على الاطريض المهمة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامى والعجمى
فيسميه المركز ويضع عليها الموشحة دون تغيير فيها ولا أغصان ، وقيل ان ابن
عبد ربه صاحب العقد أول من سبق الى هذا النوع من الموشحات
ثم نشأ يوسف بن هرون الرمادى ، فكان أول من أكثر فيها من التضمين
في المراكز يضمن كل موقف يقف عليه في المركز خاصة . فاستمر على ذلك
شعراء عصره ككرم بن سعيد وابن أبى الحسن . ثم نشأ عبادة فحدث
الصغير ، وذلك انه اعتمد على مواضع الوقف في الأغصان فيضعها ، كما اعتمد
الرمادى مواضع الوقف في المركز

للمرأة به ، والشبه بين الموشحات والوشاح ظاهر في اختلاف الوزن والقافية في الأبيات ، وجمعها في كلام واحد كما سنرى .

وقد دعاهم إلى ذلك حب الابتكار والميل إلى الجمال والتغنى بأقوال الشعراء . فزجوا بين الأوزان المختلفة والقوافي المتعددة في قصيدة واحدة . وربما ألفوا بين وزن مخترع ووزن معروف وربما اخترعوا أوزانا مختلفة ونظموا عليها قصيدة واحدة . فيلحنون كلامهم هذا ويعنون به ، لما فيه من خفة الوزن ورقة اللفظ . وقد ذكر ذلك ابن خلدون في مقدمته فقال ^(١) :

«وأما أهل الأندلس فلما كثرت الشعر في قطرهم ، وتهذبت مناحيه وفنونه . وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فناً منه سموه بالموشح ، ينظمونه أسماطاً أسماطاً ، وأغصانا أغصانا ، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ، ويلتزمون عدد قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد إلى آخر القطعة . وأكثر ما ينتهي عندهم إلى سبعة أبيات . ويشتمل كل بيت على أغصان ، عددها بحسب الأغراض والمذاهب . وينسبون فيها ويماحون كما يفعل في القصائد . ويتجاوزون في ذلك إلى الغاية ، واستتظرفه الناس وجلة الخاصة والكافة لسهولة تمارله ، وقرب طريقته . وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافر القريري القبري ^(٢) من شعراء

(١) اخترنا نقل عبارة ابن خلدون في الموشحات لأنها من أجمع ما قيل

فيها وقد أخذنا هذا عن نفح الطيب عند كلامه على الموشحات

(٢) قد اختلفوا في هذا الاسم ففي مقدمة ابن خلدون القريري ، وفي الأخيره

الأمير عبد الله بن محمد المرواني ؛ وأخذ عنه ذلك ابن عبد ربه صاحب
العقد . ولم يذكر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما فكان
أول من برع في هذا الشأن بعدها عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح
صاحب المرية .

العود قد ترنم بأبداع تلحين وشقبت المذائب رياض البساتين
وفي اقتبائه حيث يقول :

تخطر ولا تسلم عساك المأمون مروع الكتاب يحيى بن ذى النون
ثم جاءت الحلبة التي كانت في مدة الملتئمين فظهرت لهم البدائع ،
وفرسان حلبتهم الأعمى التطيلي ثم يحيى بن بقي ، وللتطيلي من الموشحات
المذهبة قوله :

كيف السبيل الى صبرى وفي المعالم أشجان
والركب وسط الفلا بالخرّد النواعم قد بانوا

وسبب اختراع الموشحات في الأندلس ما تولد في النفوس من
رقة وميل إلى الخلاعة والدعابة في الكلام ، وفي نوع التعابير وشعور الناس
من أدباء وشعراء بضرورة الخروج من الأوزان القديمة المعروفة ،

محمد بن محمود أو حمود العمري وفي فوات الوفيات في ترجمه عبادة ابن ماء السماء
(ج ١ ص ٢٥٤) محمد بن محمود أو بن حمود المقبري الضير وهو ناقل عن
الذخيره ، وفي نفتح الطيب في الكلام على الموشحات نقلا عن ابن خلدون مقدم
ابن معاني القبري . وفي مقدمة ابن خلدون طبع باريس صفحة ٣٩٠ جزء ثالث
مقدم بن معانر أو معارف والقبري بدل الفرير أو التبريزي وهو خلط يدل
على تحريف هذا الاسم

لضييق تلك الأوزان عن احتمال عيب الشعراء بالشعر على حسب أهوائهم
والعقول اذا مالت الى التغيير مالت الى الابتكار وحب الجديد .
لذلك سئم الناس طريقة الشعر القديمة المعروفة ، وحاولوا ابتكار شيء
جديد ، فاخترعوا تلك الأوزان لتساعدهم على ما يريدون من الكلام
فى محبوبحة اللهو والطرب والرقص ، وانشاد الشعر بطريقة خفيفة على
النفوس . فوجدوا ذلك أدعى الى تحريك النفوس فابتدؤا أولا بالأوزان
العربية الخفيفة المعروفة ، كالرمل والهزج والمقطوعات وغير ذلك ،
وغيروا فيها القافية . وولدوا من ذلك الموشحات وأباحوا لانفسهم
التغيير فى الوزن والقافية . فاخترعوا من الأوزان ما لا قاعدة له . ثم
توسعوا فى هذه الأوزان وتفننوا فيها ، وأودعوا هذا النوع الجديد
من الشعر ميولهم وأهوائهم . واشتغل بذلك الظرفاء والأدباء فشمل
هذا الشعر كل أنواع اللهو والتسلى . ثم تمشى فى نفوس جميع الناس
حتى أصبح نوطا من أنواع الشعر العام . فنظم على أساوبه الحكماء
والفقهاء عبارات الوعظ والحكم ، ومنهم التقى المشهور والصوفى المعروف
محيى الدين بن العربى

ثم تخطى هذا النوع من بلاد الأندلس الى بلاد البربر وغيرها
من بلاد المشرق وكثير من البلاد الاسلامية ، فنبت شعراء كثيرون
فى هذا النوع . وانبعث هذا الكلام من نفوس العامة أو من الآراء
والأفكار التى كانت تدور فى رؤوس كثير من الناس ، فنظمها كبار
الشعراء . وما زالت العامة تجذب الخاصة اليها ، وتدفعها الى التعبير عن
أفكارها المنتشرة الدائرة فى نفوسها وعلى ألسنتها ، سواء أكانت من

طريق الكلام أم من طريق الأغانى ، حتى قربت الموشحات من لغة العامة وصارت من كلامهم وأناشيدهم . وكما قربت من العامة بعدت عن اللغة العربية الفصحى وعن الشعر العربي . لذلك كان ظهور نفوس العامة وحالتهم العقلية فى الموشحات أكثر وضوحاً منه فى الشعر العربى الفصيح

فلا غرو أن نجد فى الموشحات خلطاً بين الشعر العربى الصحيح والكلام العامى المأخوذ ، لأن أصلها مأخوذ من الشعر العربى ، لذلك لا تخلو من أثره فى الصناعة والأخيلة والأسلوب وقواعد العروض كما تتخلل ذلك عبارات عامية ، وأحياناً يتمشى الشاعر على غير قواعد اللغة . فنجد أبياتاً غير عربية وعبارات غير معربة فليست الموشحات عربية صرفة ولا عامية بحتة ، بل يمكن أن يقال أنها شعر عربى ، ولكن فى غير الأسلوب الشعرى العربى الصميم وصناعته المعروفة . وقد كان الموشحات أن تحدث فى الشعر نوعاً جديداً لو لم يقصر الشعراء ابتكاراتهم على الديباجة والوزن والقافية . ولكنهم لم يخرجوا عن الموضوعات والمعانى المعروفة قبلهم عند شعراء العرب . فلم يتكلموا فى الموضوعات العامة الاجتماعية ، ولم يخرجوا فيها عن التعبير عما يجول بالنفوس من مسائل العشق والغرام وما يشبهها كما قلنا ؛ لأنهم أرادوا أن يتغنوا بذلك . ثم أوغلوا فى التعبيرات الشخصية ، وبعض هذه التعبيرات لا يمكن أن تؤدى المعنى المقصود إلا بلبهة خاصة ، فاضطروا إلى استعمال بعض العبارات العامية . ثم توسعوا فى ذلك حتى تعددت هذه اللهجات ، وكثير منها لهجات عامية لا يتذوقها كل من يعرف

العربية الفصحى . ومن هذا تطرقوا إلى الزجل ذلك الشعر العامي المعروف .

فالموشحات علامة من علامات الانتقال في الشعر العربي ، لأنها حدث جديد في الأدب ، ولكنها علامة من علامات انحلال وحدة اللغة العربية وضياعها أيضا ، إذ لو كان لها أن تنتشر انتشارا عاما في جميع البلدان لأدت إلى انتشار اللغة العامية في كل قطر ، فتصبح كل أمة ذات شعر خاص ولهجة خاصة ، يصعب فهمها على غيرها من الأمم الأخرى . على أن لذلك ميزة وهي أن العامة تفهم من لغتها الخاصة أكثر مما تفهم من اللغة الفصحى . ولكن هذا يدعو كما قلنا إلى انحلال الوحدة اللغوية



الوزير ابن زيدون^(١)

اقرنت الوزارة في الأندلس بالأدب فكان الوزير كاتباً وشاعراً
وكان أشهر الكتاب والشعراء وزراء . وكانت الشهرة بالكتابة والشعر
وفنون الأدب وفروع العلوم من وسائل الوصول الى امتلاك الوزارة
فكان للوزراء أثر عظيم في سير البلاغة والأدب وأصبحت منزلة الادب
كمنزلة الوزراء أنفسهم في الدولة . وظهر في الأندلس طائفة من الرجال
الذين تربعوا في مناصب الملك ، وتقلبوا في مراكز الدولة وتغلبوا على
شئونها . وهم جميعاً من الأديباء والعلماء والكتاب والشعراء وأهل
الشورى وأعلام الحياة العقلية .

ومن أشهر هؤلاء الوزراء والأديباء والشعراء المجيدين ، أبو الوليد
أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي القرطبي
أشهر من عرف في حلابة الأديباء ، وأظهرهم مييزة في فنون الكلام
وأساليب الشعر والبيان ، لأنه صورة من صور الأدب في الأندلس

(١) ليس لدينا عن ابن زيدون ما يدلنا على شيء من حياته المنزلية أو
تربيته الأولى . أو اما يتبع لنا الحكم على نفسه وأصل تربيته العقلية أو حياته
الفكرية ، ولم يزد ابن خلكان عن بضعة أسطر نقلها عن كتاب الزخيرة لابن
بسام . حتى أنهم لم يذكروا عن أبيه أبي بكر بن زيدون شيئاً سوى أنه كان
من وجوه الفقهاء قرطبة . وقال ابن خلكان عن ابن بشكوال في كتابه (الصلة)
أنه أثنى عليه ، وكان يكنى أبا بكر وتوفي سنة ٤٠٥ هـ ودفن في قرطبة . وكل
ما ذكر من صفاته أنه كان يخطب بالسواد وفي بعض كلام الشعراء الذين
رثوه ما يدل على أنه كان من أهل الفضل .

وصحيفة من صحف البلاغة هناك ، وثمرة من ثمار غرس العرب في بلاد المغرب .

ولد ابن زيدون بمدينة قرطبة في سنة ٣٩٤ هـ وتوفي بأشبيلية سنة ٤٦٣ هـ وهو ثالث ثلاثة تسموا بابن زيدون : أحدهم أبو بكر عبد الله ابن أحمد بن غالب والده والثاني أبو بكر ابنه ، وكان وزيراً للمعتد بن عباد ومات مقتولاً في آخر أيامه : وهم من أصل عربي كما أشرنا الى ذلك في كلامنا على القبائل التي نزلت الاندلس من العرب

كان أبوه قاضياً مشهوراً بين قضاة قرطبة ، وعالماً وأديباً . مات سنة ٤٠٥ هـ فكان عمر ابنه اذ ذاك احدى عشرة سنة . وكان أبوه الوليد منذ حداثة ميالاً الى العلم والتعليم ، فاندفع يطالب لنفسه الكمال العقلي وكانت نشأته في قرطبة ساحة العلوم والآداب ، فانكب على الدرس والبحث وأخذ الأدب عن رجاله المعروفين . وكان له ميل شديد لعلوم العرب وفنون اللغة ، فحفظ منها شيئاً كثيراً ، كما وعى كثيراً من أخبار الأدباء والشعراء وامثال العرب وحوادثها ومسائل اللغة ، حتى اصبح في مقدمة الشعراء والأدباء . واندمج في مجالس الأدب ، فصار عالماً من أعلامها ودطامة من دعائمها . وكانت قرطبة لا تزال في أوج عزها على الرغم من أفول شمس بني أمية بها ، وأهلها في رخاء من العيش ، أكثرهم يميل الى العلم والأدب ومجالسة الأدباء . فامتلائت المحافل والجامع بضروب اللهو والطرب ، وكان لابن زيدون خفة روح ودطابة وميل الى المجون ، فساعده ذلك على ان يسبق غيره وان ينال شهرة واسعة بين أتريابه .

وكان للنساء أثر عظيم في هذه المجالس . فاتجه الناس الى الاندماج فيها واستعدبوا هذا المورد ، وانصرفت همم الأديباء الى التفوق في هذا الميدان ، فكان لذلك أثر عظيم في أخلاق الأديباء وصورة البلاغة من نظم وثر : وكانما صناعت كل صبغة جديدة في الجامع الادبية ، تجرؤ الوزراء على المجاهرة بالمجون . وكان ابن زيدن أحد أبطال هؤلاء ف جذب إليه الأنظار .

وكان لولادة بنت المستكفي الخليفة الأموي شهرة عظيمة في قرطبة لجمالها وعلمها وأدبها . فوقع ابن زيدون في شركها ووقعت في شركه واشتمل كل منهما على صاحبه ، حتى حسد عليهما وحسدها الناس عليه . وكان من بين هؤلاء الحساد الوزير أبو عامر بن عبدوس وهو كبير الحول والطول ، فتقرب إلى ولادة حتى أمالها اليه ، واغتمسبها من صديقها ، وكانت ولادة ملت صداقة ابن زيدون وأهمته بعددم الاخلاص لها ، كما أنهمما بذلك أيضاً ، فهبت عاصفة من الجفاء بينهما شتتت من شملهما ، وحالت بين قلوبهما . لذلك غاب ابن عبدوس ابن زيدون على أمره واستولى على قاب ولادة . ثم حدث ان رجعت إلى ابن زيدون فكتب عن لسانها لابن عبدوس رسالته الشهيرة الهزلية . ثم استأثر بها ثانية ابن عبدوس فكانت هذه الحال مسبب اضطراب في حياة ابن زيدون العقابية والسياسية ؛ وهكذا كانت حال الوزراء وأرباب الدولة وعقول الأديباء وأصحاب الاقلام والمفكرين . وهذه الحادثة من أكبر الحوادث في حياة ابن زيدون .

عاش ابن زيدون في بيئة كلها اضطراب ودسائس ، وتربى ودرج

في ذلك وتقلد الوزارة فيها ، لأنه اشترك في حوادث الاضطراب التي كانت على أثر زوال دولة بني أمية ، فكان من أشياع ابن جهور وأحد ملوك الطوائف ، الذي ادعى لنفسه الملك في قرطبة بعد انحلال الدولة الأموية سنة ٤٢٣ ، وعلت منزلة ابن زيدون هناك فاتخذه ابن جهور وزيراً له فلك أزيمة الامور ، وكان أقرب الناس إلى سيده الذي استعان به كثيراً في المسائل السياسية وتأمين الصلة بينه وبين الأمرء الآخرين لذكائه ودهائه ، فكانوا يحسدون ابن جهور على الاختصاص به ، وحدثت حوادث أوغرت عليه صدور كثير من منافسيه وحاسديه على فضله ومنزلته ، فحملوا عليه عند ابن جهور حتى أمر بسجنه فسجنه طويلاً . فاستغفر واستعطف بما يلين من أجله الحديد ، فلم يفلح في ارضاء الامير ، فعزم على اعمال الخيلة والهرب من السجن .

واختفى بقرطبة إلى أن استشفع بأبي الوليد بن جهور عند أبيه أبي الحزم حتى شفع له . وجعله أبو الوليد بعد موت أبيه من المقدمين في دولته . ولكن ابن زيدون لم يأمن على نفسه من بقائه في قرطبة فهاجر إلى إشبيلية سنة ٤٤١ ودخل في حاشية المعتضد بن عباد وصار وزيراً لابنه المعتمد ، وبقى هناك إلى آخر عمره .

هذه حياته وأخلاقه وقد ذكرها في شعره ونثره ، ومنها يرى إن حركات عقله كانت تقفو ذلك خطوة بخطوه . فكانت حياته العقلية نتيجة هذه الحياة . لذلك يمكن أن تقسم آثاره الأدبية إلى أقسام ثلاثة : عشقه لولادة وأثر ذلك في نفسه وما كتبه في هذا . ثم مدحه لابن جهور وابن عباد . ثم أثر السجن في حياته العقلية .

شعر ابن زيدون

كان لاخلاق ابن زيدون والبيئة التي عاش فيها، وميول الناس إلى اللهو أثر عظيم في شعره. فقد كان للمجون مسحة خاصة في النظم والنثر، فبرع ابن زيدون في الغزل وكثير من شعره في ذلك كان منبعثاً عن ثوران في نفسه وغليان في ميوله وأهوائه، أذكي ذلك كله حبه لولادة. فان عشقه هذا فتح له باباً واسعاً من الخيال قال فيه ماشاء وشاءت عواطفه أن توحى إليه. كذلك كانت آلامه ومآلقاته في السجن باعثاً من بواعث استنهاض ملكة الشعر فيه. وإلهاماً من إلهاماته الفنية.

وشى به أعداؤه وحاسدوه إلى ابن جمهور، وكاد له منافسوه في حب ولادة حتى نالوا منه، وشفوا غلتهم بحمل ابن جمهور على سجنه بعد أن أحله منزلة الوزير يدبر ملكه، وبعد أن ائتمنه وعرف له رأيه السديد وبراعته في إدارة الأمور وسلمه زمام الدولة. ولم يكن لابن جمهور أن يخطيء في نظره لما اشتهر به نفسه من سداد الرأي وصحته. فاذا نال ابن زيدون مكانة في نفس ابن جمهور فقد كان ذلك عن جدارة واستحقاق ولكن أعداءه تمكنوا من ابن جمهور فغضب عليه وأمر بسجنه فأثار هذا السجن من نفس ابن زيدون عاصفة فنية جديدة رقت من خياله الشعري، أثارتها آلامه فأخذ يئن أنينا جميلاً ويفتن في آلامه ووصفها والتعبير عنها مرة شعراً ومرة نثراً... والفني يمزج فيه دائماً بكل

ما يرى ويسمع ويشعر . ولقد كانت نفس ابن زيدون من النفوس الدقيقة
الادراك ، التي اذا أنت تئن أنين الموسيقى ، واذا شككت تشكو وشكاة
القلوب المملوءة شعوراً ، الواسعة التمسور والادراك الدقيق الجميل ، الذي
يجعل الشكوى جميلة والكلام فيها جميلاً .

كتب ابن زيدون من السجن الى صديقه أبي حفص بن برد
يشكو ويئن من بلواه ، وهو ينهضه الأمل مرة ويقعده اليأس أخرى
ولا يترك شاردة تمر بخاطرده إلا أهدأ بها نفسه وتسلى بها عن آلامه ،
يستسلم أحياناً إلى القضاء فيشعر في نفسه براحة واطمئنان ، ويقلب
أمامه صفحات الأيام فلا يعجب من الحوادث التي ألمت به . ويرجع الى
صديقه فيسليه هو بنفسه ، ويسأله ألا يكف عن مجونه وتسليته ،
لأن السعادة خلسة . ثم يعود فيذكر أعداءه ونيابهم منه ويبين أن ذلك
ليس بالعجب لأنه

ان قسا الاهر فللماء من الصخر انبجاس

ويرى أنه حسد لمكانته ، ويمزج ذلك بالعبر والحكم والسخرية
والتهكم من أحوال العالم وحوادث الحياة ، ويرجع أنينه وألمه وحقده
على الناس ولا سيما حاسديه ، ويضرب الأمل كي يسكن من نفسه وهو
في ذلك كعادته في الشكوى : يهبط مرة إلى الدرك الأسفل من اليأس ،
ويرتفع أخرى إلى ذروة الرجاء ، وكأنه في شجار مستمر بينه وبين
نفسه وشعوره كل هذه المعاني في أبيات قليلة بأسلوب جميل رقيق ،
يكاد يلمح الانسان فيها خاطره المضطرب المتماوج : حيث يقول :

ماعلى ظني باس^١ يجرح الدهر وياسو^(١)
ربما أشرف بالمرء على الآمال ياس^٢
ولقد ينجيك إغفا ل ويرديك احتراس^٣
والمحاذير سهام^٤ ولكم أجدي قعود^(٢)
وكذا الحكم؛ إذا ما عز ناس ذل ناس^(٣)
وبنو الأيام أخيسا فأسراة وخساس^٥
نلبس الدنيا وليكن متعة ذاك اللباس^٦
ياأبا حفص وماسا واك في فهم إياس^٧
من سنا رأيك لي في غسق الخطب اقتباس^٨
وودادى لك نص لم يخالفه القياس^٩
أنا حيران وللأمـر ر وضوح والتباس^{١٠}
لايكن عهدك ورداً ان عهدى لك آس^{١١}
وأدر ذكرى كاسا ما امتطت كفك كاس^{١٢}
فعسى أن يسمح الدهر ر؛ وقد طال الشمس^(٧)
واغتم صفو الليالى انما العيش اختلاس^{١٣}
ماترى في معشر حا لواعن العهد وخاسوا^(٨)
أذوب هامت بلحى فانتهاش وانتهاش^(٩)

(١) يداوى ن آسى الجرح داواه (٢) قياس هنا جمع قوس (٣) اكدى
بمحل أو قل خيره (٤) مختلفون (٥) أشرف (٦) أدنياء (٧) العصيان
(٨) غدروا (٩) مثل الانتهاش وهو الأكل بمقدم الأسنان

كلهم يسأل عن حا لي ولذئب اعتساس^(۱)
ان قسا الدهر فللما ءمن الصخر انبجاس^۲
ولئن أمسيت محبوسا فلانغيت احتباس^۳
ويقت المسك في التراب فيوطى ويداس^۴

هذه هي نفحات القلوب ، وهذا هو الشعر الذي يستولى على النفس ويلهمها الحكمة والعبارة ، وهذا هو جمال القول . ليس ذلك لانه مطرب مرقص بوزنه وقافيته . بل لانه ساحر بمعانيه وجماله . كل معنى فيه يحتاج اليه النفس في مثل هذه المواقف . ولقد كانت هذه المعاني سائغة للنفس لان الشاعر صادق في قوله ، معبر عن شعوره يرسم صورة من نفسه الحزينة المتألمة . لهذا كان الشعر جميلا

وقد بدأ قصيدة من قصائده في هذا بالفخر بنفسه ، وأمعن في ذلك ، وكأنما كان يبكي حظه ويندبه بهذا الاسلوب الفخرى أو كأنما كل معنى من هذه المعاني كانت تهدأ خاطره وتريح نفسه . فلما مدح ابن جهور مدحه في قالب استعطاف ، وتوسط بين المدح الخالص والتعجب الجدى . وقد ظهر بنفس كبيرة وأنف اشم حتى انه مدح نفسه اكثر من ابن جهور ، فكان طاباً اشد منه مادحاً ، لانه كثيراً ما كان في مثل هذا الموقف لا ينسى الفخر بنفسه ، ولا يريد ان يعلى عليها ولو همسا انه في موقف مذلة ، وكأنه كان يتسلى بهذا ، لانه يرى ان اعداءه لم ينالوا منه إلا لانه فاقهم بعلمه وفضله . حتى إنه قال متعجبا

ولو اننى أسطيع كى ارضى العدا شربت ببعض العلم حظاً من الجهل

فقال :

ألم يأن أن بيبك الغمام على مثلي
وهلا أقامت أنجم الليل مأتماً
فلو أنصفتني وهي أشكال همتي
لعمرو الليل إلى إن يكن طال عمرها
تحملت بأداني وإن مآري
أخص لهمي بالقلبي وكأنا
وأجفني على نظمي لكل قلادة
ولو أنني أسطيع كي أرضي العدا
وإن رجائي في الامام ابن جهور
كريم عريق في الكرام وقلما
يرف على التأميل لألاء بشره
ويغني عن المدحها كتفاء بسروه^(٤)
أبا الحزم إني في عتابك مائل
جرائم شكوى صبحتك هو ادلا

ويطلب تأري البرق منصات النصل
لتندب في الآفاق ماضع من نبلي
لألت بأيدي الذل لما رأت ذلي
لقد قرطست بالنبل في مقتل النبيل^(١)
لسارحة في عرض أمنية عطل^(٢)
يبيت لدى الفهم الزمان على ذحل^(٣)
مفصلة السمطين بالمنطق الفصل
شريت ببعض العلم حذاً من الجهل
لستحكم الأسباب مستحصد القتل
يُرى الفرع إلا مستمداً من الاصل
كحرف لآلاء الحسام على الصقل
غنى المقلة الكحل عن زينة الكحل
إلى جانب تأوى إليه العلاس سهل
تناديك من أفنان آدابي الهدل

* * *

وكل قصائده التي أرسلها يستعطف بها ابن جهور هي أثر ذلك
الشقاء الذي لقيه في سجنه ، وصورة من صور البؤس الذي حرك
شعوره وفتق من لسانه ، وأثار في نفسه عواطفه الشعرية المظلمة

(١) البيل بفتح النون السهم وبضمها اشرف (٢) لا فائدة فيها، من عطلت
المرأة إذا خلا جيدها من القلائد (٣) الذحل الحقد (٤) رفعته وعلو شأنه .

المملوءة هما وغما .

ولكن أسلوبه في الشكوى والاستعطاف واحد في نظمه ونثره
وما أشبه قصائده في ذلك وما فيها من المعاني برسائله الجديدة . وكأنما
كان فكره سجيناً مثله من شدة تألمه في السجن . فإنه لم يخرج عن
عاداته في ضرب الامثال والفخر بنفسه ، وإنه أفضل إنسان واكرم
من دب على وجه الارض .

غير ان كلامه مع ذلك عذب المذاق ، رقيق الحاشية ، جذاب
خلاب ، تظهر عليه سيما الابتكار والصدق في التعبير ، فإنه ليس من
الخيالات الشعرية المرفه بل به كثير من الحقائق التي كان يربطها عليه
شعوره كما قال :

ما جال بعدك حظي في سنا القمر الا ذكرتك ذكر العين للأثر
ولا استظلت ذمء^(١) الليل من اسف إلا على ليلة سمرت مع القصر
إلى أن قال :

فهمت معنى الهوى من وحي طرفك لي از الحوار لفهوم من الحور
لم يسأل الناس عن حال يشاهدها محض العيان الذي يغنى عن الخبر
لم تطو برد شبابي كبرة وأرى برق المشيب اعتلى في طارض الشعر
قبل الثلاثين اذ عهد الصبا كشب^٢ وللشبيبة غصن غير مهتصر
يا للرزايا؟ لقد شافيت منهلها غمراً^٣ فما شرب المكروه بالغمر^(٤)
لا يهنئ الشامت المرتاح خاطره أنى معنى الامأنى ضائع الخطر

(١) الذمء بقية الروح يريد ما بقي من الليل (٢) قريب (٣) الغمر الكثير

(٤) الغمر قدح صغير يريد أنه كثير البلوى

هل الرياح بنجم الارض عاصفة أم الكسوف لغير الشمس والقمر
ان طال في السجن ايداعى فلا عجب قد يودع الجفن حد الصار الذكر^(١)
وان يثبط أبا الحزم الرضى قد ر عن كشف ضرى فلا عتب على القدر
من لم أزل من تأنيه على ثقة ولم أبت من تجنيه على حذر

*
* *

وكتب الى أحد أصدقائه وهو مختلف بقرطبة بعد فراره من
السجن فقال

« ... ويلغنى أنك أحد اللأئمين لى ، ومن أمثالهم : ويل للشجى
من الخلى^(٢) ، وهان على الاماس مالاقي الدبر^(٣) . وعامت أن العاجز من لا
يستبد ، فالمرء يعجز لالمحالة . ولم أستجز أن أكون ثالث الاذلين ،
العير والوتد ، وتذكرت أن الفرار من الظلم ، والهرب مما لا يطاق ، من
سنن المرساين ، وقد قال تعالى على لسان موسى : ففرت منكم لما خفتكم
فنظرت فى مفارقة الوطن ، فقديمًا ضاع الفاضل فى وطنه ، وكسد
العلق^(٤) فى معدنه كما قال :

أضيع فى معشرى وكم بلد يكون عود الكباءه من خطبه
فاستخرت الله فى انفاذ العزم . وأنا الآن حيث أمنت بعض
الأمن ، إلا أن الغى لم يرتفع ، ومادة البغى لم تنقطع :

شحطنا وما بالدار نأى ولا شحط وشط بمن نهوى المزار وما شطوا
أحبابنا ألوت بحادث عمـدنا حوادث لاعهد عليها ولا شرط

(١) سيف ذكر حاذ (٢) الشجى المشغول (٣) مثل يضرب فى سوء اهتمام

الرجل بشأن أخيه ، والدبر الذى فى ظهره قرحة ، والأملس صحیح الظهر

(٤) العلق النفيس (٥) الكباءه العود المتبخرنه بل

لعمركم ان الزمان الذي قضى بَشَّتْ جميع الشمل منا ، اُشْتَطَّ
وأما الكرى مذلم أزركم فهاجر زيارته غب والمائم فرط
الى أن قال :

هرمت ، ومالشيب وخط بمفرق ولكن لشيب الهم في كبدى وخط
وطاول سوء الحال نفسي فأذكرت من الروضة الغناء طاولها القحط
وانى لراج أن تعود كبدئها لى الشيمة الزهراء والحاق السبط^(١)
وحلم امرىء تعفى الذنوب لعفوه وتمحى الخطايا مثل ما محى الخط
فمالك لا تختصني بشفاعة يلوح على دهرى ليس بها علط^(٢)

*
* *

الى آخر مقال فى هذه القصيدة التى هى من أبدع قصائد الشكوى
وأجمعها لذكر الماضى والحاضر ، والاستغفار والاستعطاف ، وهى أيضاً
أظهر فى لهجتها الجدية من كثير من شعره . ولذلك كانت أجف فى
أسلوبها ومعانيها ، ليس بها تلك الرقة المعهودة فى كلامه . كل ذلك هاجه
السجن وما تذوقه من الآلام فرسمه فى شعره . لأنه رجل فني عرف
كيف يصور ما يشعر به ويعبر عما يجول بخاطره .

ولقد يلاحظ الانسان أن آراء بن زيدون آراء طامة ليست ناشئة
عن تفكير طويل أو علم واسع . وإنما هو خيالها أكثر منه مفكراً ،
وشاعراً أكثر منه طالماً : وهذه كل حال شعره ونثره

أما مدحه ورثاؤه فهما فى الدرجة الأخيرة من شعره ، لانه على

(١) يريد الخاق الكريم ، يقا' رجل سبط البيدين كريمها ، وسبط الجسم
حسن القد فهى من صفات المدح (٢) الميسم أثر الحسن ، والعلط سواد يزين
به الوجه .

جمال أسلوبه في ذلك ، وحسن تصرفه في المعاني ، لا يكاد يعثر الانسان فيه على معنى جديد ، ولا يقف على رأى خاص ، بل يكاد يكون كل مجاء من المعاني من قبيل معارضة غيره من الشعراء والاخذ بمعانيهم ؛ ممزوجا ذلك بماله من البراعة والصناعة والافتنان
ومن أجمل قصائده في ذلك كلامه في المعتضد بن عباد وابنه المعتمد^(١) ومن أرق كلامه في الشكوى ، وأقرب عباراته وصولا إلى القلوب ، بكأوه على الماضي ، والتلذذ بذكره ، وما كان فيه من النعيم كقوله :

الهوى في طلوع تلك النجوم	والمنى في هبوب ذاك النسيم
سرنا عيشنا الرقيق الحواشي	لو يدوم السرور للمستديم
وطراً ما انقضى إلى أن تقضى	زمن ما زمامه بالذميم
أيها المؤذنى بظلم الليالى	ليس يومى بواحد من ظلوم

ولقد كان ينظر الى أيامه الماضية فيحن اليها حنيناً مؤلماً، فاذا قرأت شعره في ذلك رأيت نفسك كأنك واقف على أطلال سعادته البالية فبكى وبكيت معه . كما قال :

ألا هل الى الزهراء أوبة نازح	تقصت مبانيسها مدامعه نوحا
مقاصير ملك أشرفت جنباتها	نخلنا العشاء الجون ^(٢) أثناءها صبحا
يمتل قرطيسها لى الوهم جهرة	فقتبها فالكوكب الرحب فالسطحا

(١) راجع قصيدته التي يرثى بها المعتضد ، ويمدح المعتمد ابنه في نفح الطيب طبع أوربا ج ٢ صفحة ٤١٦ (٢) الجون يطلق على الابيض والاسود ، والغرض منه الاسود

محل ارتياح يُذكر الخلدَ طيبه إذا عزَّ أن يمسي الفتي فيه أو يضحها
 هناك الحمام الورق^(١) تندى خفافها ظلال عهدت الدهر فيها فتي سمحا
 تعوضت من شدو القيان^(٢) خلاها صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا
 ومن حملى الكأس المفدى مديرها تقحمُ أهوال حملت لها الرما

الغزل في شعر ابن زيدون

يتبين من أحوال الاجتماع في الاندلس ، وميول النفوس واختلاط
 النساء بالرجال ، واندماج كثير من الادبيات في مجالس اللهو والطرب ،
 ان المرأة شغلت جزءا عظيما من أوقات الرجال المفكرين ، وملأت
 رؤوسهم ، كما أن مجالس الشرب كان لها سلطان عظيم على نفوسهم .
 فكانت المرأة تحرك العواطف والشعور ، والحجر تدير العقول وتملى
 عايبها القول ، وتفتح أمامها طرق التصور والخيال . والعقول ثملة بنشوة
 الغرام ، والرؤوس منقلة بحرارة المدام ، والناس لا يفوتهم الطرب ، ولا
 يريدون أن يتأواروا عنه لعاقته بنفوسهم ، حتى في أشد المحن .
 فقد رأينا أن ابن زيدون كتب وهو في سجنه لصديقه أبي حفص
 ابن برد يقول :

وأدر ذكرى كأساً ما امتطت كفك كأسُ
 واغتتم صفو الليالى انما العيش اختلاس

وقع ابن زيدون في شرك ولادة بنت المستكفي بالله وكانت خليعة
 ماجنة بارعة في الجمال ، أديبة شاعرة ، ذات مكانة رفيعة بين الأدباء

(١) التي في لونها بياض ممزوج بسواد (٢) الجوارى

« تناضل الشعراء وتساجل الأدباء وتفوق البرطاء ... خرجت على نهاية في الأدب والظرف حضور شاهد ، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر . وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر ، يعيش أهل الأدب الى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها وسهولة حجابها وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب وطهارة أثواب ، على أنها أوجدت للقول فيها السبيل بقلة مبالانها ومجاهرتها بلذاتها ... » وقالوا « إنها كانت بالمغرب كعلمية بالمشرق ، الا أن هذه تزيد بمزية الحسن الفائق . وأما الأدب والشعر والنادوة وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها . وكان لها صنعة في الغناء . وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها ، فيمر فيه من البادر وانشاد الشعر كثير لما اقتضاه عصرها وكانت من الأدب والظرف وتمتيع السمع والطرف ، بحيث تختلس القلوب والالباب ، وتعيد الشيب الى أخلاق الشباب » فقال ابن زيدون رضاها ، ووقع من نفسها كما وقعت هي من نفسه ، حتى كتبت اليه تضرب له موعداً فقالت :

ترقب اذا جن الظلام زيارتي فاني رأيت الليل أكرم للسر
وبى منك مالو كان بالشمس لم تلح وبالبدور لم يطلع وبالنجم لم يسر
قال أبو الوليد . « فلما طوى النهار نوره ، ونشر الليل نيره
أقبلت بقدر كالمضيب ، وردف كالكثيب ، وقد أطبقت نرجس المقل
على ورد الخجل . فلما الى روض مدبج ، وظل سجسج ، وقد قامت

رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودر الطل منشور ، ورحيق
الراح مزروع فلما شدينا نارها ، وأدركت منا ثأرها ، صرح كل منا
بحبه وشكا ما بقلبه . وأنشدتها .

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد في تلك الخطي إذ شيعك
يا أبا البدر سناء وسنا حفظ الله زمانا أطلعك
أن يطل بعدك ليلى فلجم بت أشكو قصر الليل معك»
وكتبت إليه بعد ذلك تقول :—

الاهل لنا من بعد هذا التفرق سبيل فيشكو كل صب بما لقي
الى إن قالت .

تمر الليالى لا أرى البين ينقضى ولا الصبر من رِق التشوق معتقى
سقى الله أرضا قد غدتك منزلا بكل سكبها طل الوبل مغدق

*
*
*

لا يزيد الآن أن تتكلم في العشق وأثره في النفس وما يوحيه من
روائع القول وجمال الفكر حتى عند طامة الناس ، فإن تاريخ الانسانية حافل
بموادته . ولكننا نقول إن العشق في كلام العرب أو شعر الغزل كما
يسمونه ، ليس من المسائل الهزلية لائن الشعر الذي هو وحي
النفوس وجمال الادراك الانساني ، أكثر ما يكون ظهورا في التعبير
عن الحب ووصف هذا الضعف الانساني الذي نسميه عشقا ، فإن
العشق أدراك أكبر مظاهر الجمال في الحياة ، ومن لم يفتح قلبه يوماً
ما ، لم يدرك أسرار الحياة ، ولم ير غير ظواهرها ، ولم يتسرب الى نفسه

بصيص ضوء من جمال الكون . ان جمال مظاهر الحياة وأسرار النفوس
في التألف ، وكثير من آمال الناس في تلك الصلة النفسية . والعشق
وما فيه من سعادة وجمال سر كامن في الشعر ، لأنه مصدر الشعر الخيالي
الجميل . لذلك كان أجمل الشعر ما يكشف عن سر من أسرار النفوس ،
ويفتح القلوب . ويظهر مكنونات الانسان وأخلاقه وآلامه وآماله .
أن النساء منبع من منابع الشعر . والشعراء مديتون لهن بأفضل
الصفات لديهم ، وهي : وصف شعور الناس . والشاعر الذي يشعر بالحب
لا يتكلم عن نفسه فحسب ، وإنما يجمع آلام العشاق وأنينهم فيتألم ويئن
معهم . وليس أعذب من هذه الآلام ولا أحب للنفس من سماع هذا
الأنين . إن الشاعر يصوغ بكلماته اهتزازات القلوب ، ورنات ما يجول
بها من المعاني ، ويدفعها إلى النفوس فتصير إليها ، ويذيعها بين العشاق
فيرى كل قلبه وكأنه ينظر في مرآة يرى فيها صورته . وذلك لا يكون
إلا في الشعر

فاذا أخطأ العرب في إمعانهم في هذا النوع والاكثر منه ، فقد
أخطأوا في جهة واحدة : وهي تكرار المعاني وتقليد بعضهم بعضاً
في ذلك ، وظنهم أن كل قلب يحب بشكل واحد ، وإن صلة الحب
بمظاهر الجسم قوية متينة ، وأن المعاني محصورة في ذلك .

ولكن ابن زيدون ليس من هؤلاء المقلدين ، بل من الذين كانوا
يجولون جولات واسعة في الخيال ، فكان فنياً مبدعاً . رأيت شعراء
العرب كيف يطنبون في وصف الأمكنة التي اجتمعوا فيها مع صديقاتهم ؟
وهم يتخذون ذلك وسيلة لأمرين .

الأول : احياء ذكرى تلك الأيام والأمكنة وما فيها ، إذ كل شيء هناك كان يشهد حبهم ويعطف على عشقهم ، وتلك الأمكنة جميلة لأنها احتوت عليهم ، والأضواء التي كانت نستطع عليهم ، والأشجار التي كانت تظلمهم ، والكواكب التي كانت تتجسس أخبارهم ، جدرة بأن لا تنسى ، لأنها أتر من آثار العشق .

الثاني : أن الشاعر الفنى يفر من التكرار ، ويعرف أن معانى العشق والحب سرعان ما تنفد ، فهو يتحايل على بث شيء من المعانى الأخرى التى لها صلة بذلك ، كي يتسنى له أن يحول فى ميدان أوسع . ليصل إلى التعبير عن مراده ، أو يمنع العقول من أن يدركها الملل . فهو يستعين بذلك كما يستعين المصور الماهر بالألوان لظهور الصورة التى يريد أن يبرزها كذلك كان ابن زيدون من هؤلاء الفنيين أو قريبا منهم . فقد التجأ إلى مدينة الزهراء الجميلة فى أيام الربيع ، يريد أن يسلى نفسه ويخفف عنها من أثر حبه ولادة ، فذكر فى شعر أرسله إليها كل ما كان يحيط به إذ ذاك ، وأبدع أيما ابداع ، وأفتن افتنانا عظيما فى ذلك . فقال :

والأفتن طلق ووجه الأرض قدراقا	إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا
كأنما رقق لي فاعتل إشفاقا	وللنسيم اعتلال فى أصائله
كما حللت عن اللبات أطواقا	والروض عن مائه الفضى مبتاسمه
بننا لها حين نام الدهر سراقا	يوم كأيام لذات لنا انصرومت
جال الندى فيه حتى مال أعناقا	نلهو بما يستميل العين من زهر
بكت لما بى جبال الدمع ررقاقا	كأن أعينه إذ طابت أرقى
فازداد منه الضحى فى العين اشراقا	ورد تألق فى ضاحى منابته

سرى ينافحه نيلوفر عبق
كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا
لو كان وفي النبي في جمعنا بكم
لا أسكن الله قلبا عن ذكركم
لو شاء حمل نسيم الريح حين هفا
كان التجازى بحض الود من زمن
فالآن أحمد ما كنا لعهدكم
وسنان نبه منه الصبح أحداقا
إليك لم يعد عنها الصدر إن ضاقا
لكان من أكرم الأيام أخلاقا
فلم يطر بجناح الشوق خفاقا
واقام بفتى أضناه ما لاقا
ميدان أنس جرينا فيه اطلاقا
سلوتمو وبقينا نحن عشاقا

وإذا كان لابن زيدون ميزة في شعره الغزلي فايس ذلك في ابتكار
المعاني التي لم يسبق اليها ، وإنما هي في طريقة تصويرها بعبارات تملك
النفوس وتستولى على القلوب . وكان الانسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع
بما يشبهها لجودة الافتنان في التعبير والاسلوب كما في قوله :-

إليك من الانام غدا ارتياحي
وما اعترضت هموم النفس إلا
فديتك ؛ ان صبرى عنك صبرى
ولى أمل ، لو الراشون كفوا
وأعجب ا كيف يغلبني عدو؟
ولما أن جلتك لي احتلاسا
رأيت الشمس تطلع في نقاب
فلو أسطيع طرت اليك شوقا
وحسبي أن تطلعي الأمانى
فوادى من أسى بك غير خال
وأنت من الزمان مدى اقتراحي
ومن ذكراك ريمحاني وراحي
لدى عطش عن الماء القراح
لاطلع غرسه ثمر النجاح
رضاك عليه من أمضى سلاح
أكف الدهر للحين المتاح
وغصن البان يرقل في وشاح
وكيف يطير مقصوص الجناح؟
بأفكك في مساء أو صباح
وقاي من هوى لك غير صاح

وان تهدي السلام الى شوقا ولو في بعض أنفاس الرياح
ولقد يسمع الانسان أذنه في شعره ، ويرى نفسه الحزينة من
خلال كلامه ، وكأنه يرى تلك الخيرة وذلك القلق النفسى اللذين يملآن
نفوس العشاق ويمنعان عنهم راحة الحياة ولذاتها . على أنه ياتمذ لذكر
محبوبته وتذوق الآلام في سبيلها فيقول :

متى أنبيك مابى ياراحتى وعذابي
متى ينوب لسانى فى شرحه عن كتابى
الله يعلم أنى أصبحت فيك لما بى
فلا يلد منامى ولا يسوغ شرابى
يا فتنة المتعزى وحجة المتصابي
الشمس أنت توارت عن ناظرى بالحجاب
ما البدر شف سناه على رقيق السحاب
إلا كوجهك لما أضاء تحت النقاب

ولقد بلغ درجة من التعبير يحمل بها القارىء على الاعتقاد بأنه
مخلص كل الاخلاص فى حبه ، وأن حبه هـذا هو كل أمنيته . وأنه
يرى فى سبيل العشق ما لا يراه غيره ، ويهون عليه كل شىء فى سبيل
ارضاء حبيبه حتى حياته . وهو يخور بهذا كما قال :

أنى تَضِيْعُ عَهْدَكَ أم كيف تُخْلِفُ وَعْدَكَ
وقد رأيتك الامانى رضى فلم تتعدك
ياليت شعرى وعندى ما ليس فى الحب عندك
هل طال ليلاك بعدى كطول ليلى بعدك

سَلْنِي حَيَاتِي أَهْبِهَا فَلَسْتُ أَمْلِكُ رَدَّكَ

الدَّهْرَ عَبْدِي لَمَّا أَصْبَحْتَ فِي الْحُبِّ عَبْدَكَ

على أننا لانهريء ابن زيدون من التصنع أحيانا فيما يقول ، لأنه كان كغيره من الشعراء يعبر عن غير شعور ، فان تمكنه من الصنعة كان يفتق لسانه بقول الشعر . كما قالوا : إن السلطان أمره أن يعارض قطعا كان يعنى بها ، واستحسن ألقابها ، فانشأ أبياتا كأنها صادرة من عاشق متم ، وضمنها مدح السلطان . فقال :

يقصر قرُبك ليلى الطويلا ويشفى وصا لك قلبي العليلا

وان عصفت منك ريح الصدود فقدت نسيم الحياة البليلا

كما أننى أطلت العثار ولم يبد عذرى وجها جميلا

وجدت أبا القاسم الظافر الـ مؤيد بالله مولى مقبلا

لأقلامه فعل أسيافه يظل الصرير يبارى الصليلا

وفى بعض كلامه ، ما يدل على أنه كان يتصيد الألفاظ والمعاني التى قيأت فى العشق ، فينظامها ويلبسها ثوبا جديدا وكأهاله ، وقد برع براعة عظيمة فى ذلك كما قال :

ياغزالا أصارنى موثقا فى يد الميحن

إنى مـذ هجرتنى لم أذق لذة الوسن

ليت حظى اشارة منك أو لحظة تبين

شافعى يامعذبنى فى الهوى وجهك الحسن

كنت خلوامن الهوى وأنا اليوم مرتهن

كان سرى مكنا وهو الآن قد علن

ليس لي منك مذهب فكما شئت لي فكأن

وهو في كل كلامه مبدع مجيد متفوق على غيره : خفيف الروح
عذب الألفاظ سهل الأسلوب

أما نويته التي أرسل بها إلى ولادة وبشها كثيرا من شعوره
وآرائه المختلفة . فهي على شهرتها وجمالها ككل شعره ولذلك لم نذكرها

نثر ابن زيدون

اشتهر ابن زيدون برسائتيه الجدية والهزلية . أما الأولى فهي التي
كتبها في سجنه يستعطف بها ابن جهور ، وأما الرسالة الهزلية فكتبها
على لسان ولادة يتهم على ابن عبدوس وينال منه لمشاركته في غرامه
اشتهر ابن زيدون بهاتين الرسالتين لجملة أسلوبيهما النادر المثال ،
ولاحتواهما على كثير من الاسماء التاريخية والأمثال العربية ، واقتباس
أبيات من الشعر معرفة وقعت في صوغ الكلام وكأنها عملت من
أجله ، أو قيست على سمته . وليس من السهل معرفة الاقتباس وأمكنته
ولا من الهين أن يخوض الانسان غمار الأدب الواسع ويسهل عاينه
الاختيار منه ، ويحفظ نفسه من الضلال في نواحيه ، ويميز بين الجيد
وغيره ، ويختار ما يناسب المقام ، ويكون ذلك مقبولا لدى النفس ثم
يصوغ ذلك كله في قالب واحد ويضم بعض أجزائه إلى بعضها ويخضه
كما يخض الزبد فلا يتنافر منه جزء مع آخر

إن الكلام على هذا النحو لأصعب من الابتكار في التأليف
المبتدأ وكما قرب إلى القارئ الأسلوب وصعب عاينه معرفة تأليفه ، شعر
بسعة اضلاع الكاتب ، وأعجب به وكبرت في نفسه منزلته . وكما

اسم لم يكن يخطر له ببال ، أو رأى^ه كان بعيداً عن ذهنه ، أو إلى قصة لا يظن أن تذكر في مثل هذا الكلام ، أو عبارة من نفسه حب الاستطلاع ، أو مثل اعظ به ، أو ذكر رجل بمجده ، أو نكتة تسربها نفسه ، أو مسألة فنية يرتاح لها ويلتذ بها ، زاد أعجابه بالكاتب وما كتب ، ورأى أن كل إنسان در على ذلك ، وإن هذه صفة يمتاز بها الكاتب عن سواه . كل نثر ابن زيدون ، وهو من دواعي الإعجاب بأسلوبه في رسائله ، رف كيف يأتي في كتاباته بالتناسق في المعاني والألفاظ . بل أن يأتي بهذا التناسق في التأليف والجمع وكيف يتصيد كلام برصفه رصفاً جميلاً ، كما أمكنه أن يرسم لنفسه منهجاً جمع فيه لوماته ، واختار منها ما يناسب حاجته وموضوعه ، فكانت أنيقة جميلة ، وكان كالمهندس الماهر الذي يعرف كيف يجمع بين والحجر والمصور الفنان الذي يؤلف بين اللون واللون

لقد حاول ابن زيدون في رسالتيه الوصول إلى غرضه ، فلم يدع ما يجسم بها المعنى في نفس القارئ لتنهال عليه المعاني ويكون أوضح ، ورأيه أظهر ، إلا فعلها . فكل ما ذكره من الأمثلة والمعاني المختارة قصد به توضيح ما يريد :

في رسالته الجدية أراد أن يستعطف ابن جمهور ، ويبرئ نفسه به وينكل بأعدائه . فبدأ رسالته بالاستعفاف وهو يستدلارة ، ويمدح ابن جمهور ويظهر إخلاصه له (ويتملق إليه) أخرى عنه فيما وقع منه في حقه ، ثم يبين له شدة ألمه من شمانية أعدائه فقال :

« يا ولى وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى به ، وامتدادى منه ، ومن أبقاه اللّاماذى حد العزم ، وارى زناد الأمل ثابت عهد النعمة . إن سلبتني - أعزك الله - لباس نعمائك ، وعطلتني من حلى إيناسك ، وأظمأني إلى برود اسعافك ، ونقضت بي كف حياطتك ، وغضضت عني طرف حمايتك ، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك ، وسمع الأعم ثناني عليك ، وأحس الجواد باستجدادى إليك ، فلا غرو . قد ينص الماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفي به ، ويؤتى الجذر من مأمنه ، وتكون منية المتمني في أمنيته ، والحين قد يسبق جهد الحريص .

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهون غير شماتة الأعداء
وأنى لا تجلد ، وأرى للشامتين أنى لريب الدهر لا أتضعضع .
فأقول : هل أنا إلا يد أدماس وارها ، وجبين عض به اكيله ، ومشر في الصقة بالارض صاقلة ، وسمهري عرضه على النار مثقفه ، وعبد ذهب به سيده مذهب الذى يقول :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم
ثم أخذ يتعامل بالأمال ، ويغرب في ذلك الأمثال ، ليسلى نفسه ويهدىء منها بعبارات شعرية يريد أن يؤثر بها في نفس المرجو ، ويحمده على كل شيء ، كما يحمد الله على السراء والضراء . فقال :

« هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي ، وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع ، ولن يرينى من سيدي إن أبطأ

سنيبة ، أو تأخر غير ضنين غناؤه ، فابطأ الدلاء فيضاً أملؤها ، وأثقل
السحائب مشياً أحفائها ، وأنفع الحيا ماصادف جدبا ، وألذ الشراب
ما أصاب غليلاً ، ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب . له الحمد على
اهتباله ، ولا عتب عليه في اغتفاله .

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللأئي سررن أوف «
ثم وقف مرفق المذلة . وكأنما يسمع الاسان بكاءه في كلامه ،
وامتصغر ذنبه في ساحة عفو سيده ، وفي جوار ما ارتكبه غيره من
الذنوب الكبيرة ، فقال :

« وأعود فأقول : ماهذا الذنب الذي لم يسعه عفوك ؟ والجهل
الذي لم يأت من ورائه حلمك ؟ والتطاول الذي لم يستغفره تطولك ؟
والتحامل الذي لم يف به احتمالك . ولا أخلو أن أكون بريثاً فأين
العدل ؟ أو مسيئاً فأين الفضل ؟

إلا يكن ذنب فعدلك واسع أو كان لي ذنب ففضلك أوسع
فهبنى مسيئاً كالذي قلت طالباً قصاصاً فأين الأخذ ياعز بالفضل
حنانك . قد بلغ السيل الزبى ، ونالني ما حسبي به وكفى ، وما أراني
إلا لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت ، وقال لي نوح اركب
معنا ، فقلت سأوى إلى جبل يعصمني من الماء ، وأمرت ببناء صرح
لعلني أطلع إلى إله موسى ، وعكفت على العجل ، واعتديت في السبت ،
وتعاطيت فعقرت ، وشربت من النهر الذي ابتلى به جيوش طالوت .. »
والعجب في ذلك من حضور ذهنه وحدثه مما يدل على تيقظه

الشديد . ثم أخذ بعد ذلك يبرىء نفسه ، ويعجب من سيده الذي يصغى إلى أعدائه ، على ما كان له من المنزلة التي لم تدفع عنه ذلك ، وأخذ يلوم ابن جمهور لوماً لا يظهر إلا من خلال عباراته ، لشدة تمكنه من تصرف الكلام واحتراسه فيما يقول :

« فكيف؟ ولا ذنب إلا نسيمة أهداها كاشحاً ، ونبا جاء به فاسق وهم الهنازون المشاءون بنعيم ، والواشون الذين لا يلبثون أن يصدعوا العصا ، والغواة الذين لا يتركون أديماً صحيحاً ...

والله ما غششتك بعد النديحة ، ولا انحرقت عنك بعد الصاغية اليك ، ولا ناصبت لك بعد التشيع فيك ، ولا أزمعت ياساً منك ، مع ضمان تكفلت به الثقة عنك ، وعهد أخذه حسن الظن عليك . فقيم عيب الجماء بأذمتي ، وطاش العقوق في مواتي ، وتمكن الضياع من وسائلتي ؟ ولم ضاقت مذاهبي وأكذبت مطالبي ؟ وعلام رضيت من المركب بالتعايق بل من الغنيمة بالاياب ؟ وأنتي غلبني المغلب ، وفجر على العاجز الضعيف . ولطمتني غير ذات سوار ؟ ومالك لم تمنع مني قبل أن أفترس وتدركي ولما أمزق ، أم كيف لا تتضرم جوانح الكفاء حسداً لي على الخصوص بك ، وتتقطع أنفاس النظراء منافسة في الكرامة عليك »

ثم ذكره باخلاصه له ، ومدحه إياه وأخذ يرجع إلى استعطافه ويملقه فقال :

« وقد زانني رسم خدمتك ، وزهان اسم نعمتك ، وأبليت البلاء الجميل في سباطك ، وقمت المقام المحمود في بساطك .

ألمت الموالى فيك غر قصائد هي الأُنجم اقتادت مع الليل أنجما
ثناء يظن الروض منه منورا ضحى ويخال الوشى فيه منمنما
وهن لبس الصباح الا برداً طرزته بفضائك . وتقلبت الجوزاء
إلا عقدا فصلته بما ترك ؟ واستملى الربيع الاثناء ملاته في محاسنك ؟
وبث المسك إلا حديثاً أذعته في محامدك ؟ ما يوم حليلة بسر . وان
كنت لم أكسك سايبا ، ولا حليلتك عطلا ، ولا وسمتك غفلا . بلي
وجدت أجراً وجصاً فبنيت ، ومكان القول ذا سعة فقلت . حاشا لك
أن أعد من العاملة الناصبة ، وأكون كالذبالة المنصوبة تضىء للناس وهي
تحترق ، فلك المثل الاعلى وهو بى وبك أولى . »

ثم جاءت عزة نفسه فانتقل نقلة أخرى ، فبين له أن مثله لا يصبر
على الهوان وأنه يستطيع فراقه وهجر بلده إلى مكان آخر ، ويخاطرفي
هجرته هذه بما عسى أن يلاقى من الآلام ، مستأنسا بأدبه وفضله فقال
« ولعمرك ما جهلت أن صريح الرأى أن أتحول اذا بلغتني الشمس
ونباني المنزل ، وأصفح عن المطامع التي تقطع أعناق الرجال ، فلا استوطىء
العجز ، ولا أطمئن إلى الغرور . ومن الامثال المضروبة « نامرى أم
طامر » . وانى مع المعرفة بأن الجلايسبا ، والنقلة مثلة

ومن يغترب عن قومه لم يزل يرى مصارع مظلوم حجرا ومسحبا
وتدفن منه الصالحات وان يسيء يكن ما أسماء النار من رأس كبكبا

عارف أن الأدب الوطن لا يخشى فراقه ، والخليط لا يتوقع زياله

والنسيب لا يُخْفَى؛ والجمال لا يُجْنَى. ثم ما قران السعد لالكواكب أبهى
أثرا، ولا أسنى خطرا من افتران غني النفس به، وانتظامها نسقا معه
فان الحائز لهما، الضارب بسهم فيهما - وقيل ما هم - أينما توجه ورد
منهل ير : وحط في جانب قبول، وضوحك قبل انزال رحله، وأعطى
حكم الصبي على أهله

وقيل له أهلا وسهلا ومرحبا فهذا مبيت صالح ومقيم «
وكأنه شعر بأن هذا يدعوا ابن جرير إلى أن ينسى استعطافه لما يذان
في هذا الكلام من عجب ابن زيدون بنفسه. فأخذ ياطف من حديثه
واسكن من هياجه : ويظهر تمسكه بجوار سيده لأنه أفضل شيء لديه
في الحياة فقال :

« غير أن الودان محبوب . والمنشأ مألوف، واللييب يحن إلى وطنه
حنين النجيب إلى عطائه . والكريم لا يجفو أرضا فيهما فوابله، ولا ينسى
بلدة فيها مراضعه ، قال الاول

أحب بلاد الله ما بين منعج إلى وسامى أن يصوب سحابها
بلادها حل الشباب تسمى وأول أرض مس جلدى ترابها

هذا إلى مغالاتي بعقد جوارك ، ومنافستي بلحظة من قربك ،
واعتمادى أن الطمع في غيرك طبع ، والغنى من سواك عنا ، والبديل
منك أعور ، والعوض لفاء ، وكل الصيد في جوف الفرا
وإذا نظرت إلى أميري زادني ضنا به نظري إلى الأمراء»

ثم أخذ يقوى أمله في اجابة طابيه ، ويضرب الامثال في ذلك ،
ويمدح في جوار سيده بقوله :

أعيدك ونفسي من ان اشيم خلبيا ، واستهطر جهاما ، وأككرم
غير مكرم ، واشكو شكوى الجريح إلى العقبان والرخم ، فما أبست
لك إلا لتدر ، وحرمت لك الحوار إلا لتحن ، ونهيتك إلا لانام ،
وسريت لك إلا لأحمد السرى لديك ، وإنك أن سنيت عقد أمرى
تيسر ، ومتى أعذرت في فك أسرى لم يتعذر ، وعامك محيط بأن المعروف
ثمره النعمة ، والشفاعة زكاة المرءة ، وفضل الجاه يعود صدقه .

وإذا امرؤ أهدي إليك صنيعه من جاهه فكأنها من ماله «

هذا أكثر ما في هذه الرسالة الجدية . وأعظم ما فيها تأليفا الذي
يرى من خلاله تلك النفس الحائرة المضطربة ، التي تهيج مرة وتسكن
أخرى ، وتجمد أحيانا ثم ترجع وتلين ، وكأنا الكاتب في نزاع مستمر
بين نفسه وأهوائه ، أو كأنه هو ونفسه قرنان : يضعف كل منهما عند
ما يخاف قوة صاحبه .

هذه صورة نفس ابن زيدون ، يراها القارىء إذا وقف عن كتب
ونظر إلى حركات نفسه وهو يكتب أو يفكر في هذه الرسالة . يرى
نفسه الأبية وهو يفخر بها ويظن أنه من أهل الفضل ، ويرى نفسه
التهكمية ، وهو يحسب ويعد الذنوب الكبيرة التي تستحق مثل عقوبته ،
لا يريد أن يقول هذا ظلم ، ولكن يريد أن يقول هذا حق وخرق في

الرأى . ويرى نفسه الكئيبة التي أخذتها الاكدار فذلت وأخذت
لستعطف وتستشفع وتتملق . يرى الانسان كل ذلك فى هذه الرسالة .
ومن هنا جملها وابداعها . لاما بها من الاسلوب البليغ أو العبارات
المختارة لاغير .

أما رسالته الثانية التي كتبها لابن عبدوس عن لسان ولاّدة .
فقد دا ، فيها على اطلاع واسع بالأمثال والأخبار ، وعلى باع أوسع فى
الهجاء . لانه أقذع فى ذم ابن عبدوس اقذاما ، وتهكم به تهكما لامثيل
له ، حتى انه ليخيل الى الانسان انه جمع كل ما يمكن أن يقال فى الذم
والتهكم وأفرغه على ابن عبدوس واستعمل أسلوبا جميلا خلايا يدل على
تمكنه من التصرف فى الكلام ، ومعرفة امتلاكه عقول القراء ، لأن
هذه الرسالة على طولها وكثرة الاقتباس فيها ، الذي يستغرق أربعة
أخماسها أو أكثر ، وعلى ما فيها من الأمثال المعروفة والايات المشهورة ،
والاطناب فى ذكر الاسماء التي يكفى منها القليل ، ليس فيها ما يدعو
إلى الملل ، ولا ما يشعر بالاستهجان والابتذال . على ان بها شيئا كثيرا
من تلك العيوب ، فقد ذكر أكثر من خمسين اسما لمشهورى الرجال ،
سردا سردا ، وكان يكفى عشرها ، وأكثر أيضا من صفات الذم مما
كاد يكون ثرثرة ولغوا . ولكنه ستر كل ذلك ببراعته فى الصناعة .
وليس أدل على جفاء الطبع وغلظه من هذه الرسالة فقد ابتدأها بسفاهة
نادرة ولكنها سفاهة أدبية فنية فقال :

« اما بعد ايها المصاب بعقله . المورط بجهله . البين سقطه : الفاحش
غلظه ، العاثر فى ذيل اغتراره ؛ الأعمى عن شمس نهاره . الساقط سقوط

الذباب على الشراب . المتهافت تهافت الفراش على الشهاب . فانت
العجب أكذب ، ومعرفه المرء نفسه أصوب . وإنك راسلتني
مستهديا من صلاتي ما صفرت منه أيدي أمثالك ، متصديا
من خاتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك . مرسلا خلياتك مرتادة ،
مستعملا عشيقتك قوادة . كاذبا نفسك انك ستنزل عنها الى . وتحاف
بعدها على

ولست بأول ذي همة دعته لما ليس بالنائل
ولا شك أنها قلتك اذا لم تضن بك . وملتك اذا لم تعز عليك .
فانها أعذرت في السفارة لك ، وما قصرت في النيابة عنك ، زاعمة أن
المروءة لفظ أنت معنا ، والانسانية اسم أنت جسمه وهيولاد ، حتى
خيلات أن يوسف عليه السلام حاسنك فغضضت منه ، وأن امرأة
العزیز رأتك فسلت عنه ، وأن قارون أصاب بعض ما كنزت ،
وكسرى حمل فاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك ... »

وسار على هذا النحو وأكثر من ذكر هذه الأسماء ، ثم أقذع
في الذم وأفحش في صفائه فقال :

« وهبها ، لم تلاحظك بعين كليله عن عيوبك ، ملؤها حبيبتها ، حسن
ئيبها من تود ، وكانت انما حلتك بحلاك ، ووسمتك بسيمك ، ولم تعرك
شهادة ... ولم تكن كاذبة فيما اثنت به عليك ، فالعیدی تسمع به خير
من أن تراه . هجين القذال ، أرعن السبال ، طويل العنق والعلاوة ،
مفرط اللحم والغباوة ، جاني الطبع ، سيء الجباة والسمع ، بغيض الهيئة ،

سخيّف الذهاب والجيئة ، ظاهر الوسواس ، منتن الأنفاس ، كثير المعاييب
مشهور المثالب ، كلامك نعمة ، وحديثك غمغمة ، وبيانك فهمة ،
وضحكك قهقهة ، ومشيك هرولة ، وغناك مسألة ، ودينك زندقة ،
وعلمك مخرقة

مساو لو قسمن على الغواني لما أمهرن إلا بالطلاق «
واستمر على هذا النحو إلى آخر الرسالة يضرب الامثال للاستهزاء
واتهم

ولقد كشف ابن زيدون في هذه الرسالة عن نفس حقودة محبة
لانتقام وانه شديد الحفيظة ، ودل على غلظة في طبعه وخشونة في
أخلاقه . مع ذلك . فهي رسالة تمتاز بأسلوبها ، وتناسق عباراتها ، ولعل
ابن زيدون أخذ هذا الأسلوب عن الجاحظ في بعض رسائله ، كما في
رسالة الترييع والتدوير

ابن هانيء

(١) حياته ومنشؤه : هو أبو القاسم محمد بن هانيء الأزدي
الاندلسي ، من أكبر شعراء الاندلس وأشهرهم . ذاع ذكره في المشرق
والمغرب وتقدم على غيره من الشعراء ، وعاش في أرغنا أيام دولة بني
أمية في الاندلس ، فقدمت في سنة ٣٦٢ بعد أن عاش ستا وثلاثين
سنة ، فيكون مولده على هذا القول في نحو ١٢٢٦ وهذه الايام هي أزهى
أيام دولة الامويين ، وأبهى أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم
(مات الناصر سنة ٣٥٠ ومات الحكم سنة ٣٦٦) في هذا العصر عاش
ابن هانيء وظهر على الشعراء ، ولكنه لم يكن من بين شعراء الناصر
ولا من حاشية ابنه ،

وأصل أبيه هانيء من أفريقية ، وكان هو أيضا شاعرا مشهورا
وأديبا معروفا ، فانتقل الى الأندلس ، فولد له محمد هذا بمدينة أشبيلية
وإذا كان أبوه أديبا وشاعرا ، أي صنعته الأدب يمدش منه ويرحل
في طلب السؤال به ، كان ابنه أيضا من عشاق الشعر ، وكانت أشبيلية
إذ ذاك أخصب بلاد الاندلس علما وأدبا ، فنشأ بها وبرع في الادب
واندمج في صف الشعراء لما كان له من الميل إلى ذلك ، وقد ورث
الذوق الأدبي عن أبيه وتربى على حب الشعر ، وعرف منزلة الشعراء
وأدرك ما كان لهم من رفعة الشأن ، والافاضة عليهم بالمال والثراء ،
وكان ذكيا نديها ميالا للخفة والدعارة ، وكانت بذرة الترف واللهو نبتت
في تلك البلاد فاندفع في هذه البيئة اندفاعا ، وانصل بصاحب أشبيلية

ونال حظوته وانهمك في الملامى والملاذ، ولم يكن له رادع نفسى ولا دينى، ثم جاهر بشيء من الآراء المقوتة هناك فغضب عليه أهل أشبيلية وساءت المقالة في حق الملك، بسببه واتهم بمذهبه، فأشار عليه الملك بالغيبة مدة لينسى فيها خبره فخرج من أشبيلية وعمره ستة وعشرون عاما ورحل إلى عدوة المغرب فلقى جوهر القائد (الذى فتح مصر للمعز) أحد ملوك أفريقية ثم اتصل بيهجي بن علي بن بحر أحد ملوك طنجة وأخيه جعفر فبالغا في أكرامه. ثم علم به المعز العبيدى أحد ملوك أفريقية فأجرى عليه كثيرا من العطايا وأكرمه اكراما عظيما وكان محبا للعلم والادب، وسافر المعز هذا إلى مصر فشيعة ابن هانىء ورجع إلى المغرب لاخذ عياله ولما وصل إلى برقة اضافه شخص هناك وبقي عنده أياما في هناء وسرور ومجون باغ أشده وقالوا أنه خرج من تلك الديار وهو سكران فنام في الطريق فأصبح ميتا ولم يعرف سبب موته وقيل عربدوا عليه وقتلوه. ولما باغ المعز خبر موته أسف أسفا شديدا وقال كنا نريد أن نقاخر به شعراء الشرق فلم يقدر لنا ذلك.

(٢) أدبه وشعره : كان محمد بن هانىء من أصحاب الظرف

والخلاعة، ذا أدب جهم، لا يبالي بما يفعل ولا بما يقول، حتى قالوا عنه إنه كان في كلامه كثير من الافراط والغلو في المدح المفضى إلى الكفر، وكان ينتجع أما كن الرزق لدى الخلفاء والامراء كغيره من الشعراء ويميش على متون القوافى، وكانت حياته ككل حياة الادباء التنقل والرحلة وانشاد الشعر وحفظه، والاطلاع على الأدب واللغة وشيء من تاريخ الادباء وحياتهم، ومعرفة أقوال الشعراء، ووعى أشهر

كلامه وأساليبهم وطرق التصور لديهم ، وموازنة الكلام بعضه ببعض ، والامعان في معرفة الجيد والردىء منه . لان ذلك كان له ولامثاله المرجع الوحيد الذى يستمد منه افكاره ومعلوماته وتصوراتاه ، التى هى كل شىء لديه

هذه كانت حياته العقلية وحياته امثاله من الادباء الخالص الذين لم يشتغلوا بالعلوم ، ولم يتجهوا الى الاستفادة منها . ولم تكن لابن هانى نزعة ادبية فى غير الشعر . فقد اتجه اليه بكل قواه العقلية وحصر جميع ادراكاته فيه . لذلك ظهرت مواهبه فى الشعر ، وكان له شأن رفيع بين كبار الشعراء

شعره : أما شعره فهو فى جماته من الكلام الجيد . ونريد بالجودة هنا اختيار المعانى الداعية الى التفكير وحمل الذهن على البحث فيها ، ليدركها القارئ إدرا كما صحيحاً يتعظ به . أو يستفيد منه شيئاً جديداً فى حياته العقلية ، او يذكره برأى نافع ، او مسألة صحيحة من مسائل الحياة والاجتماع ، كما هى الحال عند كبار الشعراء المفاكرين . فشعر ابن هانى به كثير من ذلك تطمئن إليه النفس وتميل الى آرائه وتصديقتها وبه افكار عامة فى الحياة . واكثر كلامه مملوء بهذه الآراء والخيالات الحكيمة . ولقد يمجد الانسان روح المتنبي تدب ديباً فى كلامه احياناً ، وكأنه لا يحسب من الشعراء الخياليين الذين جاؤا بعده بأنواع الخيال وتفرغوا لذلك ، ولم ياجوا باب الحقائق الانسانية فى شىء ، ولا طرّفوا ابواب الحكمة ، بل اقتصروا على الاوصاف والتشبيهات . على ان ابن هانى رغم طريقتة المعروفة التى نسبت إليه ، كان يظهر عليه

أنه ناقل ومقلد في تلك المعاني التي حدثت في زمن المتنبي ، وفي الاساليب العربية التي كانت قبل ذلك ، فان منهجه في كلامه وأسلوبه لا يدل على غير ذلك . غير أنه بارع في جمع المعاني الغريبة ونظمها . واقف على كثير منها ، مستجمع لطائفة عظيمة من الآراء الحكيمة والأمثال والمواعظ يذكرها لمناسبة ولغير مناسبة وله في كلامه آراء تشبه آراء الناقد البصير في الاجتماع والناس ، ولعل هذا هو الذي حمل على القول بأنه كانت له آراء ممقوته وسموها آراء فلسفية .

وأول شيء يشعر به الانسان عند قراءة شعر ابن هاني أنه شاعر . لا كغيره من الشعراء ، شاعر ممتاز عن سواه ، وكفى بذلك دليلاً على ملكة الشعر لديه . إن الصبغة الخاصة التي تدل على أثر الشاعر أو الكاتب أو على شيء من شخصيته في كلامه هي علامة من علامات الافتنان التي من أجلها يحسب من بين الفنيين . وليس الافتنان غير إبراز الجمال وكشف دقائق ما فيه .

وما هو جمال الشعر ؟ أليس هو ذلك الديب الذي يدب في النفوس فيملأها بهجة وارتياحاً ويحملها على الإعجاب بالكلام وما فيه ؟ أليس جمال الشعر في تلك الرنات التي تطرب النفس وتحركها كما تحركها رنات المزاهر والأغانى ؟ أليس جمال الشعر في الألفاظ والمعاني وتنسيقها وتناسبها وتقابلها وترتيبها ، ونظمها وجمعها بأسلوب يتحايل به الشاعر على أن ينال من نفس غيره وشعوره ، وأن يتقرب إلى قوادح وامتلاك عقله ، وأن يحرك لقلوب والعواطف ، ويحكم على العقول ، بالأصغاء إليه والتصديق لما يقول ؟ . هذا هو جمال الشعر ، كما ان ذلك هو سر كل فنون الجمال . واكثر جمال

الفنون هو في معرفة تصوير الاشياء أو المعاني مع دقة الفنى في ذلك .
ولقد يكون الافتنان تقاييداً متقناً لشيء معروف . هذا التقاييد المتقن
هو ما يراه الانسان جميلاً . فليس من لوازم الافتنان في الشعر ابتكار
المعاني ، بل الاحاطة بها مع دقة ابرازها :

وهذا ما يشعر به القارىء في أكثر شعر ابن هانيء ، يشعر بسعة
خياله ، ودقة ادراكه ، وحسن اختياره ، وتنسيق صناعته ، وافتنانه
الخاص ، الذي يدل على أن الكلام كلامه ، والاسلوب أسلوبه . يتغزل
ابن هانيء كما يتغزل غيره . ولكنه غزل غير غزل غيره ، تشعر عند
قراءتك له أنه شاعر ممتاز ، له صفة خاصة وذوق خاص . يغرب في
غزله ويتعجب من جمال محبوبته . ويخاطبها ويصفها بما يدعو إلى الإعجاب
بها ، ويحرك العواطف اليها . وكأنما ذلك كله أثر غرامه الصحيح ،
وحبه الصادق ، وربما لم يكن شيء من ذلك ، رأيت كيف يتغزل
في قصيدة مدح :

فتكات طرفك أم سيوف أيبك	وكؤوس خمر أم مراشف فيك
أجلاد مرهفة وفتك محاجر	ما أنت راحة ولا أهلوك
يابنت ذى البرد الطويل نجاده	أكذا يجوز الحكم في ناديك
قد كان يدعوني خيالك طارقاً	حتى دطاني بالقنا داعيك
عيناك أم مغتاك موعدنا وفي	وادي الكرى ألقاك أم واديك
منعوك من سنية الكرى وسروا	فلو عثر وابطيف طارق ظنوك
ودعوك نشوى ماسقوك مدامة	لما تمايل عطفك اتهموك
حسبو التكحل في جفونك حلية	تأله ما بأكفهم كحلوك

ولوى مقبلك اللثام ومادروا ان قد لثمت به وقبل فوك
قد يكون تشبيهه العيون بالسيوف معروف، وقد يكون تشبيهه
الريق بالخر، والاشارة الى أن التكحل غير الكحل معلوماً أيضاً،
ولكن ما ليس معلوماً هو ذلك الأسلوب، وهي روح الشاعر التي
لست هذه المعاني، وكأنا قيست عليها أو كانت من مبتكراتها ولقد
يأتى في أثناء كلامه بمعان وتشبيهات بدیعة مع أساوبه المعروف في
البدء بالغزل .

كان ابن هانيء يعيش من شعره ولذلك كان أكثر شعره وابلغه
في المدح : فقد مدح المعز لدين الله الفاطمي وغيره من الأمراء بشعر
يسيل رقة وجمالا . ولما كان غرضه التملق في مدحه وطلب الرزق بذلك
كان يكيل المدح كيلا ويميل إلى المبالغة حتى يصل بمدحه أوج الكمال
ولم تكن قصائده في المدح مقصوده على تمجيد من يمدحهم وتعظيمهم
لاغير ، بل كان يدخل في مدحه كثيرا من الأغراض اثناء كلامه ولذلك
يشتمل شعره على جميع أغراض الشعر وفنون الكلام حتى لقد يرى
أنه أجاد ضمنا في كل هذه الموضوعات فيحسب وصافا وغزالا ومادحا
وواعظا وحكما وجادا وهازلا .

وقد يبالغ في كل معنى من المعاني مبالغة من يريد تمجيد المعنى
بالاستعانة بالخيال أو المبالغة ولايبالي بما عسى أن يكون في شعره من
كذب أو هوار لأنه لم يكن يتوخى الحقائق في كلامه فكان إذا مدح
رفع شأن ممدوحه وجعله يختص بصفات الكمال وحده وكأنه كل شيء
في الوجود كما قال يمدح المعز : -

هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعله ما كانت الأشياء
ليست سماء الله ماترونها لكن أرضا تحتويه سماء
نزلت ملائكة السماء بنصره وأطعه الاصباح والامساء
وان أدى ذلك إلى كفر أو إلحاد . ولعله لم يكن يعنى بغير الافتنان
في اختيار المعانى واظهار البراعة في ذلك وكأنه رجل شاعر لا غير . أو
فنى ينمق العبارة ولا يبالي بما يؤدي اليه المعنى . ومثله في ذلك مثل
المثالين أو المصورين الذين يقصدون من أعمالهم اظهار حقيقة فنية أو
معنوية فيصورون السماء والرجال عرايا ولا ينظرون إلى ما عسى أن
تؤدي اليه آثارهم الفنية من فساد في الاخلاق ، أو انعواج في النفس
فقد مدح ابن هانيء المعز لدين الله بما لم يمدح به انسان ووضعه في
مقام الألوهية فقال : -

ماشئت لاماشات الأقدار فأحكمت فأنت الواحد القهار
وكانما أنت النبي محمد وكانما أنصارك الأنصار
أنت الذي كانت تبشرنا به في كتبها الأحبار والأخبار
هذا امام المتقين ومن به قد دوخ الدويان والكفار
هذا الذي ترجى النجاة بحبه وبه يحط الأصر والأقدار
هذا الذي تجدى شفاعته غدا حقا وتحمد إن تراه النار
وأكثر عيوبه في شعره ترجع إلى اختيار مثل هذه المعانى وإلى
عدم مبالاته بما يقول . ولقد يمدح فيتصيد المعنى القليل واللفظ الشريف
ويرسله في عبارة يبتث في النفس الاعجاب كقوله في مدح المعتز : -
فاذا بعثت الجيش فهو منية وإذا رأيت الرأى فهو قضاء

ويمدح ويقول في موضع آخر

قد طيب الافواه اطيب ثنائه من أجل ذا تجد الثغور عذابا
لبس به الصباح صباحا مـفرا وسقت شمائله السحاب مسحابا
قدبات صواب المزدى سترق الندى من كنهه فرأيت منه عجابا

أو يمدح فيقول على طريقته في المبالغة الجميلة :-

وما الجود قبلك سابقا بل جود شيء في زمانك حادث

وفي هذه القصيدة يقول :-

عبثت زمانا بالليالي وصرفها فهاهي بي لو تعلمون عوابث
لئن كان عمق النفس للنفس قائلا فاني على حثفي بكفى باحث
وان كان عمر المرء مثل سماحه فان أمير التراب للأرض وارث
وإذا نحن جئناه اقتسمنا نواله كما اقتسمت في الاقربين الموارث
وان حراما أن نؤمل غـيره كما حرمت في العالمين الخبائث
تبسمت الايام عنك ضواحا كما ابتسمت حول الرياض الدمائث
وسد ثغور الملك بعد استلامها

وقد أظلمت تلك الخطوب الكوارث

فما أراد في محبوبه الملك رائد ولا عاث في عرشه الليث عاث

ولقد يبدأ المدح بالغزل كغيره من شعراء العرب ، ولكنه يمتاز

برقة المعنى والاسلوب وكأنما ينقض على المعنى انقضا ويختطفه

اختطافا ويلبسه ثوبا من أسلوبه الجميل كما يتصيد المعاني الشاردة البعيدة

فلا تدرى أيهما تفضل أمعانيه الغزلية الرقيقة التي يخيل اليك أنها مبتكرة ،

أم مدائح البديعة التي تخيل اليك أنه مخلص وصادق فيها وفي كلتا

الحالتين تدفعك إلى الاعجاب والطرب .

أمسحوا عن ناظري كل السهاد
أو خذوا مني ما ابقيتموا
وانفضوا عن مضجعي شوك القتاد
هل تجيرون محباً من هوى
لا أحب الجسم مسلوب الفؤاد
أسلوا عنكم من هجرم
أوتفكون اسيراً من صفاد؟
إنما كانت خطوب قيضت
قلما يسلو عن الماء الصواد
فعدتنا عنكم إحدى العواد
فعلى الايام من بعدكم
ما على الظماء من لبس الحداد
لامزار منكم يدنو سوى
أن أرى أعلام هضب أو نجاد
قد عقلنا العيش في أوطانها
وهي انضاء زميل ووخاد
وحديث عنكم كثرة
عن نسيم الريح أو برق الغواد
لم يزدنا القرب الا هجره
فرضينا بالتناهي والبعاد
وإذا شاء زمان رأينا
برقيب أو حسود أو معاد

ثم تطرق من ذلك الى المدح مع اختياره جميل الصفات وتعدادها:
حتى أنه ليخيل إلى القاريء أو السامع أن هذا الكلام أفضل ما يمدح
به انسان أو أنه ليس من وراء ذلك الاطراء فقال :-

من امام قائم بالقسط أو
أهل حوض الله تجرى سلسلا
منذر منتخب للوحى هاد
اسوام ابتغى يوم الندى
بالظهور العذب والصفو البراد
هم أباحوا كل ممنوع الحمى
أم سوام ارتجى يوم المعاد
وإذا ما أبتدأ الناس العلى
واذلوا كل جبار العناد
فاهم عاديها من قبل عاد
ولههم كل نجاد مرتدى

ولقد يرق في كلامه فيأتي بالمرقص والمطرب ، حتى لاتعرف أهو
شاعر أم مادمح أم عاشق أم مبتكر للمعاني أم موحى اليه بها ، كقوله:

قد مررنا على مغانيك تلك	فراينا فيها مشابه منك
طارضتنا المها الخرائد أسرا	بأبجرائها فلم تسل عنك
لا يربح للمها بذلك سرب	فلقد أشبهتكم إن لم تكنكم
فخمين مرجع كخنيديني	وتشك مررد كتشككي
فانثدتسكب الدموع نسكبي	ثم لاتسفق الدماء كسفكي
لا أرى كابن جعفر بن علي	ماكا لابسا جلالة ملك
تتفادي القلوب منه وجيباً	في مقام على المتوج صنك
وطويل النجاد فرج منه	جاذب السجف عن حياة وهلاك

ولقد يصف فيبدع في الوصف، وتظهر ميوله المجونية في شعره،
فيكون أصدق ما يكون، وأرق انسان، عذب الالفاظ رشيقا،
خفيف الروح مبدا جذابا:

قن في ماتم على العشاق	ولبسن الحداد في الأحداق
وبكين الدماء بالعم الرط	بالمقنا وبالخلود الرقاق
ومنحن الفراق رقة شكوا	هن حتى عشقت يوم الفراق
ومع الجيرة الذين غدوا دم	مع طليق ومهجة في وثاق
حاربتهم نوائب الدهر حتى	آذنو بالفراق قبل التلاق
ودنو للوداع حتى ترى الاجية	اد فرق الاجياد كالأطواق
يوم راهنت في البكاء عيونا	فتقدمت في عنان السباق
أمنع القلب أن يذوب ومن ي	نع جمر الغضى عن الاحراق

رب يوم لنا رقيق حواشي اللـ . هو حسناً جوال عقد النطاق
قد لبسناه وهو من نفحات اللـ . سك درع الجيوب درع التراق
والأباريق كالظباء العواطي
مصغيات إلى الغناء مطلا . ت عليه كثيرة الاطراق
وهي شم الانوف يشمخن كبراً . ثم يرعفن بالدم المهرراق
قدمتها السقاة كي يوقروها . صمماً عن سماع شاد وساق
فهي أما يشكون ثقلاً من الوق . رواها يبكين بالاماق

ويزج أسلوبه بشيء من أساليب غيره، كتقليده المتنبي، حيث
يبث الحكم، أو شيئاً من التهكم، بينما هو يتكلم في المدح أو في الغزل.
ولقد يسبق إلى فكره شيء من المبالغة فيجري به لسانه فكأنه يقول
ذلك عن غير قصد. كما في قصيدته السابقة وما الجود.. الخ

وكثير من قصائده هي من نوع مزج الغزل بالحماسة والمدح. كما سبق
نم ينتقل من معني إلى آخر. ويميل دائماً إلى الوصف الغزلي. كقوله:
قر لهم قد قلدوه صارما لو أنصفوه قلدوه كوكبا
صبغوه يوماً بالشقيق وبالرحي ق وبالبنفسج والاقاحي مشربا
وكأنما طبعوا له من لحظه سيفاً رقيق الشفرتين مشطبا
قدماج حتى كاد يسقط نصفه وأذيل حتى كاد أن يتسربا
خالسته نظراً وكان موردا فاحمر حتى كاد أن يتأهبها
فاذا مدح وصف وذكر صوراً كثيرة من الحوادث التي مرت في

حياة المدوح فبنت مجده ورفعت قدره . وفصائده في ذلك كثيرة :
وهو في رثائه جيداً أيضاً . يأتي بالعظة والعبر . وذلك هو الأسلوب
الفلسفي المعروف في المشرق . ومن كلامه في ذلك قصيدته التي يقول فيها

وهب الدهر نفيساً فاسترد	ربما جاد بخيل ففسد
كلما أعطى فوفى حاجة	بيد شيئاً تلقاه بيد
كاذب جاء جهاما زبرجا	بعد ما أومض برق ورعد
انهاشذشنة من أخزم	قلما ذم بخيل فحمد
خاب من يرجو زمانا دائما	تعرف البأساء منه والنكد
فاذا ما كدر العيش نهي	واذا ما طيب الزاد نقد
فلقد أذكر من كان سها	ولقد نبه من كان رقد
أبدا يعجم مني نبعه	وقناة ليس فيها من أود

أسلوبه ويحسب أسلوبه في جملة من الأساليب الجيدة السهلة ، لتمكنه
من التفنن في صناعة الكلام ولكن كثيرا ما يتكاف العسنة ويميل
إلى ترصيع شعره بأنواع البديع فيأتي من طباق أو جناس أو مقابلة
كما يأتي بالاستعارة الغريبة والكناية البعيدة وغرضه من ذلك أن
يستعين بصناعته على إبراز معانيه جميلة حلوة واضحة لأنه قد يأتي
على المعنى المعروف فيكسبه بأسلوبه الجميل صبغة جديدة ولقد يدفعه
ذلك إلى الميل إلى الغرابة والتكليف والعناية بالصنعة والأسلوب أكثر
من العناية بالمعاني واختيارها ولكن في جملة جميل الصنعة كثير
البحث عن المعاني الدقيقة وعن اختيار الالفاظ الرشيقة

ولقد جرى في أسلوبه على الأسلوب القديم في البدء بالغزل
والاسترسال فيه وذكر المعاني القديمة المعروفة عند الشعراء ولعل ذلك
جاء من تمكنه من الشعر القديم وحفظه كثيرا منه ولكنه في جملة
جميل الصنعة كثير البحث عن المعاني الدقيقة واختيار الألفاظ الرشيدة
حتى قال عنه أبو العلاء المعري ما أشبهه إلا برحى تطحن قرونا لأجل
القعقة التي في ألفاظه وقال الضبي صاحب بغية الملمس « وهو كثير
الشعر محسن مجيد إلا أن قعقة الألفاظ أغلب على شعره » وربما
كان أسلوبه دليلا على قول من يدعى أن شعراء الأندلس رغم ما كان
لهم من الامتياز في الفكر والأساليب كانوا يقفون أثر البدو القدماء



ابن خفاجة الأندلسي

نشأته وميوله الفنية :

هو أبو اسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة الأندلسي الشاعر الأديب المشهور ، ولد ببلدة شقر ، ويطلق عليها العرب جزيرة شقر . وكانت ولادته سنة ٤٥٠ وتوفي بها سنة ٥٣٣ : عاش في عصر المرابطين بعد زوال دولة بني أمية والدولة العمارية ، وبعد انتهاء دولة بني عباد ، أي في عصر كان نضج اللغة والأدب بلغ أو كاد يبلغ منتهاه ، وكان الأدباء في لهو ومحون ، وكانت الملاحى والاشتغال بالم لذات صرفت إليها العقول ، وجذبت إليها الأفكار ، فهذبت منها قليلا أو كثيرا . وإذا استولى اللهو على النفوس عشقت الجمال ، ومتى عشقت الجمال مالت إلى فهمه ، وما فيه من روعة وإبداع . فاذا كانت النفوس قد تهذبت بالعلوم والفنون المختلفة . أدركت جمال الكون إدراكا عميقا ، وبخنت عن خفاياه بحث الفيلسوف عن الحقائق ، وكان الشاعر فيلسوفا فنيا وشاعرا فيلسوفا ، يظهر الفلسفة في ثوب شعري ، ويظهر الشعر في ثوب فلسفي . أما إذا كان فنيا بطبعه ، ولم يكن له نصيب من العلوم ، فانه يكتب بالنظر إلى الأشياء وفهم جهالها ، على حسب ما بها من التماسق الظاهر ، والمناظر الباهرة ، وجمال الألوان ، وكل ما توحىه الطبيعة إلى النفس من الإعجاب . ولقد يؤثر هذا الشاعر في النفس بجمال قوله كما يؤثر الفيلسوف بحكمه وصدق إدراكه .

وقد وقف ابن خفاجة كل مواهبه لادراك الجمال ، وفهم ظواهره الرائعة

المبتوثة في أنحاء الكون . فهو من الشعراء الذين ربتهم الطبيعة، وهذب إدراكه جمال الوجود فاتجه بجميع قواه العقلية والخيالية إلى معالجة التعبير عن هذا الجمال، وانغمس انغماساً في ذلك ، حتى أصبح لا يكاد يدرك غير هذا النوع، ولا يبحث إلا عن المعاني الجميلة. فقد كان يخرج إلى البراري ليسمع خرير المياه، ويتمتع بهذه الأصوات والمشاهدات. وكان له ولع بهدا. وبكل ما يقال فيه فكان يجارى الشعراء ويعارضهم في مثل هذه المعاني التي شغلت عقول كثير من الأدباء والشعراء ، وكان الكلام في مناظر الطبيعة إذ ذاك من بدع البلاغة والأدب . فقد قالوا « ركب بعض الأدباء مع أصحاب له في نهر أشبيلية في عشية سال أصيافها على لجين الماء عقيانا، وطارت زواريقها في سماء النهر عقباناً ، وأبدى نسيمها من الأمواج والدارات سُرُراً وأعطانا. في زورق يجول جولان الطرف ، ويسود اسوداء الطرف فقال بديها :-

تأمل حالنا ، والجو طلق	محياء ، وقد طفلَ المساء
وقد جالت بنا عذراء حبلى	تجاذب مرطها ريح رُخاء
بنهر كالسجنجل كوثرى	تُعبس ووجها فيه السماء

واتفق أن وقف أبو اسحاق بن خفاجة على القطعة فاستظرفها

واستطابها فقال يعارضها :-

ألا يا حبيدا ضحك المحيا	بمخانتها وقد عبس المساء
وأدم من جياذ الماء نهر	ينازع جله ريح رخاء
إذا بدت الكواكب فيه غرق	رأيت الماء تحسده السماء

فكان شغف ابن خفاجة بمثل هذا الكلام عظيماً ، وكانت له ميول

إلى المجون ، فاجتمعت هذه الميول النفسية ، إلى حبه لجمال الطبيعة
وكونت ملكته الشعرية وخيالاته وتصويراته ، حتى لقد كان يملأ
نفسه المجون فيمتلئ عليه من المعاني ما يرسم شيئاً من أخلاقه وميوله في
الحياة . كما قال .

وما الأتس إلا في مجاج زجاجة ولا العيش إلا في صرير سرير
وإني وإن جئت المشيب لمولع بطرة ذل فوق وجه غدير
فكانت ميوله وأخلاقه كأخلاق كل الفنين وميولهم ، خفة وطيشا .
ولكنها خفة روح تدعو إلى حبه وحب كلامه . وهذا كله في شعره ونثره ،
وكأنه لم يكن يرى من الحياة إلا ما يتفق مع أهوائه من بهجة وجمال ،
حتى إنه وصف الأندلس وقال :

يا أهل أندلس لله دركمو ماء وظل وأنهار وأشجار
ماجنة الخلد إلا في دياركمو ولو تخيرت هذا كنت اختار
هذا السرور النفسى كان يغمره ولا يفارقه ، فانه كان يحب بلاده
لأنها وطنه ، بل لأنها جميلة تشبه ما يحب في حياته من الجمال ،
إذ يقول .

إن للجنة في الأندلس مجتلى حسن ورياً نفس
فَسْنَا صَبِحْتَهَا مِنْ شَذْب ودجا ظلمتها من لعس
فاذا ما هبت الريح صبا هجت واشوقى إلى الأندلس
هذه أخلاق ابن خفاجة وميوله النفسية في جماتها ، وأثرها ظاهر
في حياته العقلية ، وفي رسائله النثرية وقصائده الشعرية .

شعر ابن خفاجة

رأينا أن ابن خفاجة كان مدفوعاً بطبعه إلى التأمل في المشاهدات ،
والإمعان في النظر إليهما ، وتذوق أسرار جمال الطبيعة . والجري وراء
ذلك ، وكان هذا كل ما يرمى إليه من إدراك الحياة ومعاني الوجود لأن
مشاهداته وأثرها في نفسه كانت تجذب قوى التفكير لديه ، وترسم
له طرق الإدراك . وكان من أشد الأشياء أثراً في نفسه واستيلاء على
عقله جمال الأشياء ومظاهر الطبيعة وتناسق الألوان فلم يبل إلى معرفة
غير هذه الأشياء الجميلة ، ولم يجذبه من الحياة وضروب ما فيها إلا
الجمال ، فكان دائماً فرحاً مسروراً مبهتج النفس لا تتعدى معارفه بسائط
الأشياء الظاهرة ، فلم تجل نفسه جولات المفكرين في معاني الحياة
الخفية ، ولا تكاد تجده مضطرب الفكر ولا مترقباً أو ناظر الهول من
أحوال الحياة وحوادثها المؤلمة ، بل كان هادئاً مطمئناً ، يحمل بين جنبيه
روح الأطفال ونشوة الشبان ، ميالاً إلى اللهو والمجون .

فكان شعره صورة لنفسه الهادئة وفكره مطمئن ومجانبته
الخلقية ليس فيه ما يدل على تفكير جدي أو حيرة أو شك في شيء
يدعو إلى النظر أو يشغل الفكر مما يغري بعض المفكرين ويدفع
بالفنيين إلى الخروج من عالم الخيال إلى عالم التفكير في الناس وأخلاقهم
وأحوالهم ، والوجود وما فيه من خير وشر ليصل من ذلك في شعره إلى
ذكر حكمة أو عبرة أو مثل سائر ، أو يدل على كد الفهم أو على صورة
من صور الانسانية المفكرة .

ولا تكاد تجد له صورة صحيحة في شعره تدل على نفسه وشعوره الخفى سوى ميوله للجمال وحب الطبيعة الجميلة ، فهو كالمصور الذى يستمد كل شيء مما هو أمامه . ولم تكن تلك حاله لأنه لم يكن يشعر أو يفهم غير هذا ، أو أن نفسه خالية مما يعاق بالنفوس عادة ، كالحب والبغض والهم والحزن ، وأهوال الحياة وغيرها ، بل لأنه لم يكن يميل إلى ذلك ، لأن هذا يدعو إلى البؤس وتحمل المموم وكان هو يريد أن يعيش بعيدا عن ذلك ، سابحا في نوع من الاحلام اللذيذة :

كذلك كانت ميوله وكان ذوقه . ولذلك كان شعره مرآة لاخلاقه من وصف جميل ، ومجون لذينة ولدت في نفسه كثيرا من المعانى الشعرية الجميلة ، واندفع إلى تصويرها والتعبير عنها بما فطر عاينه من دقة في الادراك شأن جميع المتفنيين من الشعراء الذين نسربت نفوسهم في خفايا الجمال وأسراره فكان الجمال مثار شعره ومبعث خياله وافتنانه بتتبع روائعه ، فاذا امتلأت به نفسه أخذ في وضعه ورسمه في كلامه البليغ . فكان شعره رشيقا أنيقا لذينا جميل الصورة ، ولكنه كما قلنا بعيد عن صور التفكير الانسانى الصحيح ، وعن التأمل العميق في الحياة وفهم أسرارها النفسية والاجتماعية . لذلك كان جمال شعره فى أسلوبه ، وحسن صناعته ، وبلاغة عبارته .

أنواع شعره والوصف فيه

أما الموضوعات التي عالجها في شعره فهي : الوصف، والمدح، والعتاب، والرثاء والشكوى، والدعابات، وأجمل شعره ما كان في الوصف لأنه كما قلنا و صاف مبدع، ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائده في أي غرض من الأغراض من وصف جميل يبتثه في كل معنى وفي كل غرض، وقد يتخذ الوصف بما فيه من مجاز أو تشبيه جميل، أو استعارة مسنماحة أو كناية بعيدة أو قريبة وسيلته للوصول إلى كشف المعاني .

وقد يصف فيخيل إليك أنك تنظر في لوحة مصور، أو كأن كل معنى في كلامه « كائن حي » يتحرك أمامك، كما قال يصف طيفاً لم به في الليل الطويل، وأخذ خياله يتصور ما يمكن أن يكون في هذا الموقف من وصف ملاقاته لحبيبه، والتمتع به في حضرته . والليل يحيط بهما وهو على وشك الانصراف، وأخذ يشبه محبوبه بأنواع الرياحين وهو تشبيه سهل الإدراك صعب التركيب : وليس هذا لكلام في طاقة كل شاعر، ولا امتلاك البيان بمثل هذا في طوع كل في ؛ تسكلم في الليل ثم في الطيف ووصفه بأرق ما يصف به حبيب حبيبه ؛ وأحسن ما ينال عاشق من عشيقه، وقد دام ذلك إلى طلوع الفجر، وعيون الليل تتجسس أخبارهم، وضوء الصبح يرقبهم . فقال :

ورداء ليل بات فيه معانق	طيف ألم لظبية الوعاء
جمعت بين رضابه وشرابه	وشربت من ريق ومن صهباء
ولثمت في ظلماء ليلة وفرة	شفقاً هناك لوجنة حمراء

والليل مُشْمَطُ الذوائبِ كِبْرَةً خَرَفٌ يَدبُ عَلَى عَصَا الْجُوزَاءِ
 ثم انثى والسكر بسحب فرعه ويمجر من طرب فضول رداء
 تندى يفیه أقحوانة أجريع قد غازلتها الشمس غب سماء
 وتميس في أثوابه ربحانة كَرِعت على ظمأً بجَدول ماء
 زفأحة الا نهاس إلا أنها حذر النوى خفاقة الا فياء
 فلويت معطفها اعتناقاً حسبها فيه بقطر الدمع من أنواء
 والفجر ينظر من وراء غمامة عن مقلة كحلت بها زرقاء
 فرغبت عن نور الصباح لنورة أغرى لها ببنفسج الظلماء

ولقد يصف الليل والسير فيه وظلمته الحالك المنبعثة من كل
 ركن من أركان الفضاء . وما قد توحيه إلى النفس من الخوف
 والرهبة . وما يلاقيه السارى من حيوان كاسر . وكأنما يظن القارىء
 نفسه في جوف الفلاة ومخاطر الليل . كل ذلك بتشبيهات جميلة مختارة .
 كما قال :

ومفازة لانجم في ظلمائها يسرى ، ولا فلك بها دوار
 تتلهب الشعري بها وكأنها فى كف زنجى الدجى دينار
 ترمى به الغيطان فيها والربى دولا كما يتموج التيار
 قد لفتى فيها الظلام وطاف بي ذئب يلم مع الدجى زوار
 طراق سادات الديار مساور ختال أبناء السرى غدار
 يسرى وقد نضح الندى وجه الصبا فى فروة قد مسها اقشعرار
 فعشوت فى ظمأ لم تقدح بها إلا لقلته وبأسى نار
 ورفلت فى خاع علي من الدجى عقدت لها من أنجم أزرار

والليل يقصر خطوه ، ولربما
قد شاب من طرف المجرة مفرق
وكما قال :

وليل كما مد الغراب جناحه
به من وميض البرق - والليل فحمة -
سريت به أحبيه ، لاحية السرى
يقلمب منى العزم إنسان مقلة
بخرق لقلب البرق خفقة روعة
سحيق ولا غير الرياح ركائب
كأنى وأحشاء البلاد تجنني
أجوب جيوب البيد والصبح صامم
وفي مصطلى الآفاق جهر كواكب

ووصف ناراً هبت عليها الريح فأضرمتها وكأما يتغازلان . أو
كأن النار والريح في موقف طرب يتمايلان من نشوته . أو كأن الريح
عاشق متم يلمم خد اللهب الخجل . أو كأن في موقد النار ماء عايبه من
نجوم حبيب . فقال :

لاعب تلك الريح ذاك اللهب
وبات في مسرى الصبا يتبعه
ساهرته أحسبه منتشيا
لو أجاه منتقد لما درى
تلم منه الريح خدا خجلا
فعاد عين الجذ ذات اللعب
فهولها مضطرم مضطرب
يهز عطفه هناك الطرب
أهب متقد أم ذهب
حيث الشرار أعين ترتقب

في موقد قد رقرق العبيح به ماء عاينه من نجوم حبيب
منقسم بين رماد أزرق وبين جمر خلقه يلتهب
كأنما خرت سماء فوقه وانكدرت ليلا عليه شهب
ووصف ساقيا جميلا ، فوصف الخمر أيضا ومجاسه ، وكأما السرور
يسيل بين ألفاظه ، والنعيم والسعادة يتمثلان في كلامه . فقال :
وأغيد في صدر الكلام لحسنه حلّي ، وفي صدر القصيد نسيب
من الهيف أمارد فنه فمنعم خصيب وأما خصره فجديب
يرف بروض الحسن من نور وجهه وقامتة نواره وقضيب
جلاها ، وقد غنى الحمام عشية عجوزا عليها للحياب مشيب
وجاء بها حمراء ، أما زجاجها ففاء وأما ملؤه فلمهيب
على لجة ترتج . أما حبابها فنور ، وأما موجهها فكثيب
تجافت بها عنا الحوادث برهة وقد ساعدتنا قهوة وحبيب
وغازلنا جفن هناك كتر جس ومبسم للاقحوان شنيب
فله ذيل للتصاني سحبتة وعيش بأطراف الشباب رطيب

وكل شيء يراه كان يوقظ خياله ، وينبه من إدراكه ، ويدفعه إلى
ابتكار المعاني الجميلة : فقد رأى رجلا أسود أحذب يد في خمرأ فقال
في ذلك :-

رب ابن ليل سقانا والشمس تطاع غره
فضل يسود لونا والكأس تسطع حمره
كأنه كيس فحم قد أوقدت فيه حمره
والمدمام مدير يشب حمرة حمره

تضاحكت عن حباب يقبل الماء ثغره
فظلت آخذ يا قوتة وأصرف دره
حتى تثنيت غصنا وأصفرت الشمس نقره
وارتد للشمس دارف به من السقم فتره
يجول للغم كحل فيه وللقطر ع-بره
ولقد يفكر في شعره فيأني بأفكار جميلة ، وملاحظات جميلة ،
ويخرج من معنى إلى آخر . وقد تكون المعاني معروفة وجديدة معا
لأنه يبدع ويبتكر في التعبير كقوله :

وليل إذا ما قامت قد باد فانقضى
سحبت الدياتجى فيه سود ذوائب
فزقت جيب الابل عن شخص أطاس
رأيت به قطعاً من الفجر أغبشا
وأرعت طماح الذؤابة باذخ
يسد مهيب الريح من كل وجهة
وقور على ظهر الفلاة كأنه
يلوث عليه الغيم سود عمائم
أصنعت اليه وهو آخرس صامت
وقال ألا كم كنت ملجأ قائل
وكم مر بي من مدج ومأوب
ولاطم من نكب الرياح معاطفي
فما كان إلا إن طوتهم يد الردى
تكشف عن وعد من الظن كاذب
لأعتنق الآمال بيض ترائب
تطلع وضاح المضاحك قاطب
تأمل عن نجم توقد ثاقب
يطاول أعنان السماء بغارب
ويزحم ليلا شبهه بالمناكب
طوال الليالى مفكر فى العواقب
لها من وميض البرق حمر ذوائب
فحدثنى ليل السرى بالعجائب
وموطن أوام تبتل تائب
وقال بطلى من مطى وراكب
وزاحم من خضر البحار غواربى
وطارت بهم ريح النوى والنوائب

وكما في قوله في المشيب
أرقت على الصبا لطلوع نجم
كفاني رزء نفس أن بدي
ولولا أن يشق على الغواني
فلم أعدم هناك به شفيعا
غريبة شيب فود إن تراخت
شئت بمجتلاها النور حتى
وعفت كراهة للشئ شيئا
وأية شيبه إلا نذير
أسميه مسامحة مشيبا
وأعظم منه رزء أن يغيبا
للافت المتاة به خضيبا
إلى أمل ولم أبرح حبيبا
حياتي آل أسوده غريبا
شئت بمجتلي النور القضيبا
يكون له شبيها أو نسيبا
وهل طرب وقد مثلت خطيبا

ويذكر المعاني الغريبة المستماحة ، فيشبه أوراق الشجر بالعداري ،
والنضارة بالضحك ، واهتزاز الغدون في مهب الريح بمغازلة النسيم لها ،
وأن الريح يلم خدها الخجل ، وأقسم بالتفات الروض عن زرقة النهر
واشراق جيد العصن في حلية الزعر فيقول :
أما والتفات الروض عن أزرق الهر

وإشراق جيد العصن في حلية الزهر
وقد نسيت ريح النعامي فنبهت
وخدر فتاة قد طرقت ، وإنما
وقد خلعت البرد عنه وإنما
لقد جبت دون الحى كل تنوفة
عيون الندامى تحت ريحانة الفجر
أبحت به وكر الحمامة للصقر
نشرت به طي الصحيفة عن سطر
يحوم بها نسر السماء على وكر

ويقول وهو سائر في جوف الليل :-

ونخضت ظلام الليل يسود فحمة
ودست عرين الليث ينظر عن جمر

وجئت ديار الحى والليل مطرف
 أشيم بها برق الحديد ، وربما
 فلم ألق إلا صعدة فوق لامة
 ولا شمت إلا غرة فوق أشقر

وهو القائل في وصف النهر وهبوب النسيم تلك الابيات المشهورة:-

لله نهر سال فى بطحاء
 متعطف مثل السوار كأنه
 قد رق حتى ظن قرصا مفرقا
 وغدت تحف به الغصون كأنها
 ولطالما عاطيت فيه مدامة
 والريح تعيب بالغصون رقد جرى
 ولقد بجمع كثيرا من الصور
 والأكوان فى أبيات قليلة وهو

يبدع فى التصوير أيما أبدع كقوله :-

وصقيل إفرند الشباب بطرفه
 يمشى الهويننا نخوة ، ولربما
 شتى المحاسن للوضاءة ريطرة
 وبمعطفيه للشبيبة منهل
 عبر أخليج سباحة فكأنما
 تطفو لغرته هناك حيابة
 وموج من ردف ألف عباب

ويمدح فلا تدرى أهو مادح أم واصف أم يريد تصوير المعانى

فى عبارة جميلة لا غير لأنه يميل حتى فى المدح الى تشبيهه كمال المدوح

بالاشياء الجميلة وبمشاهداته التي تراها كما قال وهو يمدح :-

لقد ضحكك الصبح بمجتلا، وراء الليل عن ثغر شنيب
وظاهرني بمختربي حسام، أذنت به، ونعم أخو الغريب
أشيم به سنا برق يمان، يخفرني إلى المرعى الخصب
إلى جذلان وضاح المحيا، سليم القلب والصدر الرحيب
إلى يقظان وقاد المعالي، مريش السعى بالرأى المصيب
يساور منه طورا ليث غاب، ويمسح تارة عطفي أديب
إذا استمطرت منه غمام رحى، أو استنصرت في يوم عصيد
ملأت يدك، يسراها يدير، ويمناها بمخترط خشيب

ويصف الثناء بأنه رطب، وأن الصبح كشف عن ثناياه البيض،
وأن ممدوحه وضاح المحيا :- الخ

تسيم بصفته بروق بشر تعيد بشاشة الروض الجديد
وكان إذا هنا إنسانا اقتبس المعاني واستعارها واختلسها اختلاصا من

مظاهر الطبيعة وجمالها كما قال يهنيء قاضيا :-

بشرى كما أسفر وجه الصبح، وأستشرف الرائد برقا ألاح
وارتجز الرعد بمج الندى، ريا ويحدو بمطايا الرياح
فدنو الزهر متون الربى، ودرهم القطر بطون البطاح
هبت رواحا، وهي نفاحة، فطاب ريحا نشر ذاك الرواح
أفصح غريد بها مطرب، نفس من طرس قدامى جناح
فهل ترى أسمع غصن النقا، فهز من عطفيه هز ارتياح
أم هل سرى ينعمش ميت الربى، فنج ريق الطل ثغر الاقاح

غزتهادى بالقنا هـزة واختال بالجرد المذاكى مراح
وكان إذا تحدث عن أيامه الماضية فتح صفحات تلك الأيام وأخذ
يستعمل منها ذكرياته ، ويتغنى بها ، وبأوصافها وبما رآه هناك من جمال
ونعيم ، كما قال ، في قصيدة مدح .

وحن هـديل على بانه تصدى خطيبا بها أخطبا
فاذكرنا ليلة باللوى وعهدا بعصر الصبا أطرابا
وماء بوادى الغضا سلسلا ومرتبعا بالحمى معشبا
ليالى عهدي بها فتيمة وعهدى باحبابنا ورببا
وما كان أعطر تلك الصبا وأندى معاطف تلك الربا
وأطيب ذاك الجنى روضة ورشفة ذاك اللمى مشربا
فحرك من ساكن كامن تعاطى حديث يحل الحبا

ويتغزل فيساعده جمال القول على أن يأتى بالمعاني الرقيقة في
أسلوب رقيق ، ويمزج مجونه بغرامه فيمتلك بكلامه ويجعلك كأنك
في حضرته تتعاطى المدام معه . وتجنى ثمرة غرامه فتقول:

وليل تعاطينا المدام وبيننا حديث كما هب النسيم على الورد
نعاوده ، والكأس يعبق نفحة وأطيب منه مانعيد وما نبدى
ونقلى أقاح الثغر أوسوسن الطلى ونرجسة الأجنان أووردة الخلد
إلى أن سرت في جسمه الكأس والسكرى

وما لا بعطفيه ، فقال على عضدى
فأقبلت أستهدى لما بين أضلعي من الحر ما بين الضلوع من البرد
وعاينته قدسل من وشى برده فعاينت منه السيفسل من الغمد

ليان مجس . واستقامته قامه ؛ وهزة أعطاف ، ورونق إفرند
أغازل منه الغصن في مغرس النقا ، وألم وجه الشمس في مطلع السعد

أسلوبه

قد خالف ابن خفاجة جمهرة شعراء العرب في بدء قصائده بالغزل
والنسيب ، وبدأ أكثرها بالوصف ، واندفع في ذلك اندفاعا . وكان
أسلوبه في جملة ما ساسه سهلا به كثير من الألفاظ الجزلة أو الغريبة
والعبارات الخفية ، ولتتبعه الصناعة اللفظية وأنواع المجاز والكناية
ظهر في كلامه كثير من التكلف حتى لقد يتغلب عليه ذلك فتمتلىء
عباراته بالصناعة الظاهرة كقوله : والصبح يمسح عن جبين نهار .

في قصيدة مدح أولها : —

سمح الخيال على النوى بهزار والصبح يمسح عن جبين نهار
فرفعت من نارى لضيف طارق يعيش إليها من خيال طارى
ركب الدجى ، أحسن بها من مركب

وطوى السرى أحجب به من سارى

وأناخ حيث دموع عيني منهل وروى ، وحيث حشاي موقد نار
وسقى فأروى غلة من ناهل أورى بمجانحتيه زهد أوار
خلع الهوى ثوبا عليه من الضنى قد شف عنه فهو كأس طارى
يلوى الضلوع من الولوع لخطرة من شيم برق أو شميم عرار
والليل قد نضح الندى سر باله فانهل دمع الطل فوق صدار
لبس الحجر على السواد نخلته متزها قد شد من زنار
ووراء أستار الدجى متملبل يلقى بينى قارة ويسار

ما طالعتنه برقة نجدية
مترقب رسل الرياح عشية
ومجر ذيل غمامة لبست به
خفتت ظلال الأيك فيه ذوائبا
ولوى القضيب هناك جيدا أتاعا
باكرته والغيم قطعة عنبر
والريح تناظم فيه أرداف الربا
ومناير الأشجار قد قامت بها

إلا اجتاتها نظرة استعبار
بمساقط الأنواء والأنوار
وشى الحباب معاطف الأنهار
وارتج ردفا مأجج التيار
قد قبلته مباسم النوار
مشبوبة ، والبرق لفحة نار
لعبا ، وتلثم أوجه الأزهار
خطباء مفصحة من الأطيوار

وهذا من بدع التشبيه والاستعارة ، ولا تكاد تجد شاعرا
يأخر أدرك ابن خفاجة في مثل هذه الصناعة المتعملة الجميلة .
وأكثر وصفه الليل وسواده ، والصباح وبياضه ، والرياض والبساتين
لأشجار وغصونها ، والمياه وجريانها ولونها الفضى . وأشعة الشمس
هيبية عليها ، والنسيم وسريانه كما قال :-

ثامة حدر الصباح قناعها
أبطح وضعت ثغور أقاحه
ت بحجر الأرض فيه يدالصبا
دأرتدى غصن النقا وتقلدت
لت حيث الماء صفحة ضاحك
ريح تنفض بكرة لم الربا
نسم الالحاظ بين محاسن
راكة سجع الهديل بفرعها

عن صفحة ندى من الأزهار
أخلاف كل غمامة مدرار
درر الندى درام النوار
حلى الحباب سوائف الأنهار
جذل ، وحيث الشط بدء عذار
والطل ينضح أوجه الأشجار
من ردف رابية وخصر قرار
والصبح يسفر عن جبين نهار

هزت له أعطافها ولربما خاضت عليه ملاءة الأنوار
فكان هذا من دواعي إمداده في تدبُّع أنواع البديع والبيان ، حتى
صار كما قلنا كَمير التكلف في معانيه وألفاظه ، ولا تكاد تجد عبارة
من عباراته إلا استعمارة أو مجازا أو تشبيها ، وقد يدعو ذلك أحيانا
إلى استغلاق المعنى على القارئ ، ولكن شعره في جملة ما يعتبر معجما
لألفاظ مختارة ، وعبارات جميلة ، ونشبهات بديعة ، ومعرضا يجد
فيه الماريء أرق أنواع المجاز وكل ما يمكن من ضروب الصناعات
اللفظية ، ومن انغمسه في الصنعة والتكلف الجميل قوله :-

وأراكة ضربت سماء فوقنا تندى ، وأفلاك الكؤوس تدار
حفت بدوحتها مجرة جدول نثرت عليه نجومها الأزهار
فكأنها ، وكأن جدول مأها حسناء شد بخصرها زنار
زف الزجاج بها عروس مدامة تجلى ، ونوار الغصون شار
في روضة جنح الدجى ظل بها وتجمعت نورا بها الأنوار
غناء ينشر وشيه البرازلى فيها ، ويفتق مسكه العطار
قام الغناء بها ، وقد نضح الندى وجه الثرى ، واستيقظ النوار
والماء من حلى الحياء مقلد زرت عليه جيوبها الأشجار

نثره

لابن خفاجة قطع نثره سلك فيها مسلك الشعر من حيث الوصف
والخيال ، وسار في أسلوبه على نحو أسلوب ابن العميد والهمداني من
حيث اتباع السجع المتكلف ، والقصد إلى ذكر أنواع البيان والبديع

حتى كان نثره أشبه بشعر منثور ، وإن رسائله القايلة التي عثرنا عليها
هي من قبيل النثر المتكاف

كتب رسالة يصف فيها منتزها وكأنما قلمه ريشة مصور ماهر
تكاد ترى ذلك رأى العين وكأنك تجول في أنحائه ، فترى كل ركن من
أركانه ، وكل ناحية من نواحيه ، وكل زهرة ووردة ، وكل شجرة
وغصن وكأنما يلمسك نسيم العليل ، وتجري أمامك الجداول والأنهار .
ذلك إلى أسلوبه الخاص المسجوع ، وكأنما هو مرسل . وتجد الجملة الطويلة
المسجوعة ، على حين أنك تجد كل واحدة شطر سبعة أو سبعة كاملة
قال « ... ذهب في لمة من الاخوان نستبق إلى الراحة ركضا . ونطوى
التفرج أرضا ، فلا ندفع إلا إلى غدير نير قد استدارت منه في كل قرارة
سما . سحائبها غماء ، وانساب في كل تلة حباب ، جلد ، حباب ، فترددنا
بتلك الاباطح تتهادى تهادى أغصانها ، وتتضاحك تضاحك أقحوانها ،
وللنسيم أثناء ذلك المنظر الوسيم ترسل مشى ، على بساط وشى ، فاذا
مر بغدير نسجه درعا ، واحكمه صنعا ، وإن عثر بجدول شطب منه
نصلا ، وأخلصه صقلا ، فلا ترى إلا بطاحا ، مملوءة سلاحا ، كأنما
انهزمت هنالك كتائب فألقت بما لبسته من درع مصقول ، وسيف
مسلول ، . فاحتلنا قبة خضراء ممدودة أشطان الاغصان ، سندسية
رواق الاوراق ، ومازلنا نلتحف منها يبرد ظل ظليل ، ونشتمل عليه
برداء نسيم عليل ، ونجبل النظر في نهر صقيل ، صامى لجبن الماء ،
كأنه مجرة سما ، مؤتلق جوهر الحباب ، كأنه من ثغور الأحباب ،
وقد حضرنا مسمع بجري مع النفوس لطافة ، فهو يعلم غرضها وهوها

ويغنى لها مقترحها ومنها ، فصيح لسان النقر ، يشفى من الوقر ،
كأنه كاتب حاسب تمشق يمناه ، وتعقد يسراه ، يحرك حين يشدو
ساكنات وتنبعث الطبائع للسكون . »

أما إذا خرج عن هذا النوع الوصفي الخيالي الفنى ، فقد يضيق
الطريق في وجهه ، وقد ينقل كلامه ويتكاف في عباراته . كما فى رسالة
يعاتب فيها

قالوا ، كانت بين أبى اسحاق وبعض اخوانه مقاطعة فاتفق أن
ولى ذلك الصديق حصنا فخاطبه أبو اسحاق برقعة منها . « أطال الله
بقاء سيدى النبيلة أوصافه ، النزيهة عن الاستثناء ، المرفوعة أمارته
الكريمة بالابتداء ، ما انحذفت ياء يرمى للجزم ، واعتلت واو يغزو
لوضع الضم ، كتبت عن ود قديم هو الحال لم يلحقها انتقال ، وعهد
كريم هو الفعل لم يدخله اعتلال ، والله يجعل هاتيك من الأحوال
الثابتة اللازمة ، ويعصم هذا بعد من الحروف الجازمة . وأنا أستنهض
طولك إلى تجديد عهدك بمطالعة ألف الوصل ، وتعدية فعل الفصل .
والى عدوك عن باب ألف القطع إلى باب الوصل والجمع ، حتى تسقط
لدرج الكلام بيننا هاء السكت ، ويدخل الانتقال حال الصمت فلا
تتخيل - أعزك الله - أن رسم أخائك عندي . . . قد درس عفاء ،
ولا أن صدرى دارمية أمسى من ودك خلاء . وإنما أنا فعل إذا ثنى ،
ظهر من ضمير وده ما بطن . وبدا منه ما كمن . وهنيئاً أعزك الله إن
فعل وزارتك حاضر لا يلحق رفعة تغيير ، وإن فعل سيفك ماض مابه
للعوامل تأثير ، وأنت بمجدك جماع أبواب الظرف ، تأخذ نفسك العلمية

بمطالعة باب الظرف، ودرس حروف العطف ، وتدخّل لام التبرئة
على ما حدث من عتبك ، وتوجب بعد النفي ما سلف من عتبك . وتدع
ألف الألفة أن تكون بعد من حروف اللين . وترفع بالاضافة بيننا
وجود التنوين ، وتسوم ساكن الود أن يتحرك . ومعتل الاخاء أن
يصح ، وكتابي هذا حرف صلة فلا تحذفه حتى تعود الحال الاولى صفة ،
وتصير هذه النكرة معرفة . فأنت أعزك الله مصدر فعل السرور
والنبيل ، ومنك اشتقاق اسم السؤدد والفضل ، وإنك وإن تأخر العصر
بك كالفاعل وقع مؤخرا ، وعدوك وإن تكبر كالكميت لم يقع إلا
مصغرا ، وللأيام علل تبسط وتقبض ، وعوامل ترفع وتخفض ، فلا
دخل عروضك قبض ، ولا طاقب رفعك خفض ، ولا زلت مرتبطا
بالفضل شرطك وجزاؤك . جاريا على الرفع سرورك الكريم
ومناؤك ، حتى تخفض الفعل ، وتبني على الكسر قبل ، إن شاء الله «
راجع نفع الطيب ج ١ ص ٣٥٢



لسان الدين بن الخطيب

هو من أكبر وجوه العلم والأدب في آخر عصور العرب في الأندلس ، بل هو من أشهر من عرف هناك وهو أبو عبد الله لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد المعروف بابن الخطيب الغرناطي الأندلسي . تنقلت أسرته في كثير من بلاد الأندلس واستقر أبوه في غرناطة . وهناك ولد لسان الدين وعرف واشتهر في بلاد المغرب بابن الخطيب السلماني : نشأ من بيت علم وفضل ، وتربى على حب العلم ، وورث عن أبيه كثيرا من ذلك . وكان معجبا به وبعلمه وأدبه وأخلاقه^(١)

ولد لسان الدين بمدينة غرناطة سنة ٧١٣ هـ واتصل أبوه بملوك بني الأحمر وكان له شأن عظيم حين كانت غرناطة حافلة بالعلم وأهله من كل فن فشب لسان الدين بين هؤلاء العلماء ، وانقطع إلى أفاضلهم وأخذ عنهم العلوم والآداب ، وكان من بين مشايخه الفلاسفة والأدباء والأطباء تعلم الطب على أشهر علماء الأندلس وفلاسفتها في هذا العصر ، وبرع فيه وألف فيه كتابا سماه « الأصول لحفظ الصحة في

(١) فقد قال عنه كان رحمه الله تعالى رمز عزم ، ورجل أخاء وأزم ، تروق أنوار خلاله الباهرة . وتضىء مجالس الملوك من صورتيه الباطنة والظاهرة . ذكاء يتوقد ، وطلاقة يحسد نورها النمرقد ، وكانت له في الأدب فريضة ، وفي النادرة العذبة منادم عريضة ، تكلمت يوما بين يديه في مسائل من الطب وأنشدته أبياتا من شعري ، فتهلل وابتهج ، وما برح أن ارتجل .

الطب والشعر والكتابة سماتما في بني النجابة

هن ثلاث مبلغات مراتبا بعضها الحجابة

الفصول « عده هو نفسه من أحدث طراز في ذلك الفن فقال « العجب حتى مع تأليني لهذا الكتاب الذي لم يؤلف مثله في الطب وعملي ذلك لأقدر على مداواة داء الارق الذي بي » ومهما يكن من المبالغة في كلامه فانه يؤخذ منه أنه كان من علماء هذا الفن . وقد ألف كتباً أخرى في ذلك فكانت معلوماته متوافرة في الفلسفة والطب ، وامتزج بالادباء والفقهاء وأخذ عنهم علوم الدين من تفسير وحديث وفقه ، وتعلم العلوم العربية جميعها فكان عالماً وأديباً

أما حياته السياسية فقد اتصل بأحد ملوك بني الأحمر السلطان أبي الحجاج يوسف فأخذه في حاشيته ، وفي مقدمة كتابه . ثم جعله كاتبه الخاص وسلم اليه الوزارة وأمر الدولة وجعله سفيراً بينه وبين الملوك الآخرين . فكان اشتغاله بالسياسة من الأشياء التي فتحت عليه باب الكتابة في كثير من الموضوعات الاجتماعية والسياسية ، على حسب ما كان يعلمه وما كان معروفاً في ذلك الوقت . ولما مات أبو الحجاج خلفه ابنه محمد بن أبي الحجاج ، فأقره على مكانه وأرسله إلى ملوك افريقية ليستنجد بهم على أعدائه . وكانت الدولة في ذلك الوقت في اضطراب والناس بين مظلوم وظالم ، وخارج على السلطان ومتملق له ؛ وكل ذي نعمة محسود . فحسد لسان الدين كثير من معاصريه وسعوا في الأيقاع به وكان قد خرج على محمد بن أبي الحجاج أخوه وتغلب عليه ؛ فهرب ومعه ابن الخطيب ثم حوصر ، وقبض على لسان الدين ، واستباح السلطان كل أموالهما . ثم شفع لهما سلطان المغرب وأتى بهما إلى فاس وأكرمهما فجاء لسان الدين في تلك البلاد ، وانتقل

إلى أماكن كثيرة واستقل هناك . ولما رجع الملك الى محمد بن أبي الحجاج عاد الى الاندلس وكان استكتب أبو محمد هـ . ذافي غيبة لسان الدين ابن زمرك ، أحد مشهورى الكتاب والعلماء ، ومن أكبر وأشهر تلاميذ لسان الدين ، فتولى ابن زمرك ديوان الكتابة والتف حوله جماعة من الفقهاء والعلماء الذين كانوا يحقدوا على لسان الدين ، لانه ظهر عليهم ومملك الدولة منهم ، فأرادوا أن يتخلصوا منه ويأخذوا الامر بيدهم . فأخذوا فى بث الدسائس وإيغار السلطان عليه ، ولكن عند ما رجع لسان الدين إلى الاندلس ارتفع شأنه ، وعرفه الناس فى غيبته أكثر من معرفتهم له فى حضرته . فحقد عليه تلميذه ابن زمرك ثانية وأخذ عليه الفقهاء أشياء يذكرونها وكانت العقول فى ذلك الوقت ميالة إلى الانحطاط ، لان البرابرة بثوا أفكارهم السخيفة التى كانوا ينشرونها بجهلهم ونشروا كراهة العلوم الطبيعية والفلسفية . فاشاع ابن زمرك عن لسان الدين إنه كافر مارق : وأنه جاء فى كتبه بكثير من المسائل التى لا يبيحها الدين فراجت هـ . هذه الوشائات عند السلطان وأثارت غضبه ، ولما علم لسان الدين بذلك ، وعرف أنه لا بد أن ينال منه ، عزم على الهرب إلى افريقية بدعوى أنه ذاهب فى أمور تتعلق بالملكة ولكن عندما ذهب إلى افريقية اتفق ملك المغرب على تسليمه لابن الأحمر ، فسجن فى فاس وأفتى الفقهاء بقتله ، ودموا عليه أحد القواد فخنقه فى سجنه ودفن فى فاس ثم أخرجت جثته وأحرقت بالنار سنة ٧٧٦ هـ وهكذا انتهت حياة لسان الدين بن الخطيب بعد أن ملأ الجو علماً وفضلاً وذاعت شهرته فى المشرق والمغرب حتى كان أشبهه بالجاحظ فى تأليفه من حيث اطلاعه الواسع وفضله الجهم .

شعر ابن الخطيب

وصف بعض أدباء الاندلس لسان الدين ابن الخطيب فقال : —

« كان يحسب لسان الدين بن الخطيب من كبار شعراء الاندلس ، بل من اعظمهم جميعا لكثرة شعره واختلاف أغراضه وبراعته في الصناعة التي كانت مقياسا لمقدرة الشعراء ودليلا على تفوقهم في ميدان الشعر والادب ، كما كانت له نفس هذه الميزة في كل نواحي الكتابة وفنون الادب كما سبق .

والتأمل في شعر ابن الخطيب يرى أنه قد جرى جميع الشعراء في كل ما عرف من الموضوعات والاغراض ، وكان في كل شعره كما كان في كل اثره يميل إلى الطول والاطناب . لا شك في أن هذا دليل على سعة الخيال وتوارد المعاني على ذهنه وعلى أثر اطلاعه الواسع وقوة ذاكرته وتعمقه في أدراك تلك المعاني وتمكنه من التصرف في ذلك ، فقد كان رأسه خزانة الفاظ وجمل ، وجعبة صور وعبارات لما قرأه في الكتب وشاهده في الحياة وكان يصوغ كل ذلك في شعره ونثره .

ولقد يتساءل القارىء الاديب هل لابن الخطيب صبغة خاصة في شعره ؟ وهل إذا قرأت له كلاما شعرت بروح يدل على الشاعر ويميزه من سواه ؟ كما تشعر بذلك عند ما تقرأ شعر البحتري فتمتليء نفسك بتلك الصبغة الخفية الفنية وجمال القول في حسن العبارة وصوغها ؟ أو كما ترى في شعر المتنبي تلك الحكم الممزوجة بالكبر والغرور وصور العالم وخبائث الانسان ؟ أو كما ترى تلك الصبغة الفنية المستمدة من

جمال الطبيعة وجلالها في شعر ابن خفاجة؟ أو كما تشاهد أو تلمح في خاطر تلك النفس المضطربة المتألّمة كثيرا المبتهجة أحيانا، الحساسة التواقفة إلى التمتع بالحياة وإلى أن تكون في مقدمة الأدباء والعظماء وغير ذلك مما يمليه عليك شعر ابن زيدون ونثره

لا يفتأ القارئ أن يجيب على هذا السؤال بعد أن يقرأ شعر ابن الخطيب ونثره بأنه مثل كثير من كتاب الأندلس وشعرائها - حاشى! نتاجه الكثير في كل من فنون الكتابة والشعر - وأن الصبغة التي في شعره ونثره أظهر ما تكون في الصناعة، وإنك إذا أردت أن تضعه في طبقة من طبقات الأدباء وضعته بين الوزراء والقضاة الفقهاء الذين تغلب عليهم الصبغة الدينية أو مسائل الفقه وروح التصوف، وأنه لا يحسب من كبار الشعراء والكتاب الفنيين الذين خلقوا شعراء بطبيعتهم والذين توحى إليهم الطبيعة بجمالها وتلهمهم المعاني الخفية لهذا الوجود فيدركون أسرار النفوس ويرسمونها في كلامهم ويزينون هذا الكلام بما فطروا عليه من جمال أدراك الأشياء

مع هذا فقد تجد في شعره كل صفات الشعراء التي اقتبسها منهم اقتباسا وحاكاهم فيها محاكاة من جمال القول وحسن الأسلوب وسعة الخيال. ولكن نفسه كما قلنا ليست نفس شاعر منطبعة على قول الشعر، وليس روحه روح رجل في يستوحى القول من الهاماته الفنية أو يسبح في عالم الخيال فيرى أسرار النفوس ويكشف خبايا الإنسان فينظمها في شعره لأن ملكة الشعر ليست هي الغالبة على عقله وأدراكه كما هي الحال لدى كبار الشعراء الذين يقصدون الوصول إلى كشف

أسرار الحياة بجمال القول وبلاغته وفنون التعبير ، ويمتازون عن العلماء
والفلاسفة الذين يعمدون إلى التجارب والبراهين العقلية في إبراز الحقائق
العلمية والآراء الفلسفية . بل رغم أن ابن الخطيب ميال إلى الصناعة
والمحسنات اللفظية فإنه مالمفكرا أعظم منه شاعرا متفننا، على أنه لا تخلو
ألبتة من تذوق الجمال أو من الاتصاف بصفات الشعراء

صناعته وأسلوبه

يمتاز ابن الخطيب كما قلنا في الشعر بصناعته وميله إلى التأنق
في كلامه وطول باعه في معرفة ضروب الكلام وأنواع التعابير وضروب
الاطناب وتزاحم المعاني ومحاكاة المشاركة في ذلك وميله إلى المحسنات
البديعية وتسكفه قليلا أو كثيرا في ذكر هذه الأنواع والعبث بها، كما قال
في الجناس :

مالي أهدب نفسي في مطامعها والنفس تألف تهذيبي وتهذي بي
إذا استعنت على أمر بتجربة تأبى المقادير تجريبي وتجري بي
ومن ولوعه بالصنعة قوله :-

ومولع بالكتب يبتاعها بأرخص السوم وأغلاها
في نصف الاستذكار أعطيته مختصر العين فارضاه
ومن مبالغاته وكلامه في حسن التعليل قوله :-

ووالله ما اعتل الاصيل وانما تعلم من شجوى فبان اعتلاله
ومن قوله في الجناس أيضا :-

دعوتك لاود الذي جنباته تداعت مبانها وهمت بأن تهى
وقلت لعهد الوصل والقرب بعدما تنأى، وهى أسلوب حياتى وأنت هى

ومن شام من جو الشيبية بارقا ولم تنبهه عنه النهى كيف ينتهى
وكثيرا ما يأتى بعبارات فكاھية وأخرى يعتمد فيها على الصناعة ،
على أن أسلوبه يختلف باختلاف المعانى والموضوعات فاحيانا تجده فكها
ماجنا. وأحياناً تجده ورعا تقيا أو حكيميا واعظا أو فقيها متكلماً أو شاعرا
جاف العبارة كما قال يخاطب السلطان أبا الحجاج :

أمولاي، إن الشعر ديوان حكمة يفيد الغنى والعز والجاه من كانا
وقد وجد المختار في الحفل منصتا له ، وحبا كعبا عليه وحسانا
وفيما رواه الناقلون وأثبتوا بذلك ديوانا صحيحا فديوانا
بأن أبا بكر خليفة الرضا وفاروقه الأذننى اليه وعمانا
وأن علينا قدس الله جمعهم وكرمنا بالقرب منهم وحيانا
لهم في ضروب القول إذ هم فحوله خطاب وشعر يستقران تبياننا
وفاض على أهل القريض نوالهم فروض روض القول سجا وتهتنا
وأنت أحق الناس أن تفعل الذى به فعل المختار دينا وإيماننا
فما زلت تهدى فى البرية هديه وتقضى بما يرضيه سرا واعلانا
وإن قبيل قدر المرء ما هو محسن فمصنعة نظم القول أرفعه شانا
ومما يدل على سهولة استرساله فى القول الذى يبعد كثيرا عن أن
يكون شعراً فنيا جميلا قوله .

برئت لله من حولى ومن حيلى إن نام عنى ولى فهو خير ولى
أصبحت مالى من عطف أو ماله من غيره فى مهمات ولا بدل
ما كنت أحسب أن أرمى بقاصية للهجر أقطع فيها جانب الأمل

من بعدما خلصت نحوى الشفاعة ما بين العلا والدجا والبيض والاسمل
إن كنت لست باهل لاذى طمعت

اليه نفسى وأهوى نحوه أملى
فكيف ياغى ولا ترعى وسيلته
من بعدما اشترت حالى به وسرت
والرسل ترى ولا تخفى نتائجها
ولا ليلي من صبح أطالعه
لو أنى بابن مرزوق عقدت يدي
لكان كرى قد افضى إلى فرج
ألحت بالعتب لم أحذر موافقه
ولست أجد ما خولت من نعم
ولست أياس من وعد وعدت به

ومن شعره الجليل الذى جارى فيه الشعراء فى بدء كلامه بالغزل

والمبالغة فى المدح مما لا يحسب من جمال القول فى شيء يسير قوله :-
وقف الغرام على ثناك لسانى
فكانما شكرى لما أوليته
أنا شيعه لك حيث كنت، قضية
ولقد تشاجرت الرماح فكنت فى
ورويت عز ماثر أسديتها
ولانت أولى بالتشيع شيمه
الشمس أنت قد انفردت وهل يرى
رعيا لما أوليت من احسان
شكر الرياض لعارض النيسان
لم يختلف فى حكمها نفسان
ميدان نهرك فارس الفرسان
لعلاك بين صحائف وحسان
لم تتفق لسواك من انسان
بين الورى فى مطلع شيسان

جبرت بحبرك كل نفس حرة
وهدت سعودك مسنة قيسيرها
فاستقبل السعد المعاود سافرا
وابغ المزيد بشكر ربك ولتثق
فالشكر يقتاد المزيد ركائبا
ثم السلام عليك يزرى عرفه
ومن مدحه الجميل أيضا قوله عقب أبيه من رحلة في مراكش
بخطاب السلطان صاحب تلمسان :-

افادت وجهتي بذاك مالا
ومتعت الخواطر بالذمراح
وأبت خفيف ظهر واللطايا
وشأنى للمعالم غير شان
فبذاك إيتى وعقدي
كما قد صح لله انقطاعي
وما يبقى سوى فعل جميع
وكل بداية فالى انتهاء
ومن سام الزمان دوام أمر

قضى ديني وأصلح بعض حالي
وأترفت النواظر باكتحال
بجاهك تشتكى ثقل الرحال
وحالى بالمكارم جسد حال
وشكر نذاك ديني وانتحالى
بتأميلي جنابك وارتمحالى
وحال الدهر لا تبقى بحال
وكل اقامة فالى ارتحال
فقد وقف الرجاء على المحال

نثره

كان ابن الخطيب يحسب من أكبر الكتاب والمؤلفين كما كان يعد بين معاصريه من أكبر الشعراء. وقال المقرئ في نفع الطيب: (أما نثره فهو البحر الزخار، بل الدر الذي به الافتخار. وناهيك أن كتبه الآن في المغرب

قبلة ارباب الانشاء التي إليها يصلون ، وسوق دررهم النفيسة التي يزينون بها صدور طروسهم ويحملون ، ذلك لان تربيته العلمية الادبية وهبته نشاطا عقليا فكان من المؤلفين المشهورين ، وكان كثير الدرس والقراءة ورسائله الادبية ومقطوعاته الشعرية كثيرة جدا حتى قالوا أنه كان يؤلف ويكتب كل هذه الكتب لانه كان يقرأ كثيرا وقد اغترف من كل بحر قطرة وكتب في كثير من الفنون المختلفة ورسائله الادبية كثيرة منها جملة في الجزء الثالث والرابع من نصح الطيب . وكانت الصبغة الادبية أظهر ماتكون في رسائله واغلب عليه من غيرها فانه يمتاز بموضوعاته الادبية أكثر مما يمتاز بغيرها من الموضوعات العلمية الأخرى .

حتى لقد تجده في كتاباته العلمية أو التاريخية أدبيا أكثر منه مؤرخا أو عالما . كما يظهر ذلك في كتابه الاحاطة ، وفيما كتبه في الموضوعات العلمية الأخرى . فان أظهر تلك المميزات في أسلوبه لاني طريقة البحث أو التحقيق ، فاذا رجعت إلى تراجمه للعلماء أو الأدياء رأيت أدبيا أكثر منه محققا . فهو في هذا أشبه بالفتح بن خاقان ، ولكنه في كل ذلك واسع الخيال سديد الرأي حاد اللسان . قادر على الاسترسال والاحاطة بالمفردات والجمال . لذلك كان من اكبر مميزاتة في الكتابة الاطناب فقد كان مطبوعا على ذلك بطبعه ، يجري وراء ذلك جريانا وهو مثلوج الصدر يعرض عليه فكره وخياله المعاني والالفاظ فلا يكاد يقف قامه إلا بعد ان يملأ من الفكر الصغير صفحات كثيرة وكان قدر الكتابة عنده ووزن المعاني

لديه في الاكثار لافى الاجادة . أو أن الاجادة لانفارق الاطناب لديه
وربما كان عذره في ذلك أن الكتابة في تلك الايام كانت سائرة على هذا
الطراز . وكان بجواب الاطالة يحب السجع فكانت كتابته لا تخلو من
خلتين عند بعض الأدباء أو من ملايين عند آخرين : السجع والاطناب
وربما كانت الاطالة والسجع من أظهر عيوب أسلوب ابن الخطيب
ولا يكاد المعجب به يفضل أحدهما على الآخر أو الناقد له يدرك أيتها
أدعى إلى المال وكد الذهن .

وقد تطنى الاطالة على تكلف السجع فيرى القارىء في السجع من
مظاهر البلاغة ما لا يجده في الاطناب، لأن الأطناب أدعى إلى ظهور
خلو ذهن الكاتب من المعنى أو الى تكرار المعنى الواحد في عبارات
مختلفة . لذلك كثيرا ما يخفى عيب السجع وراء هذا الستار وقد تكون
هذه الطريقة دليلا على انحطاط أسلوب الكتابة النثرية . ويكفى هذا
الاسلوب مقتا أنه لا يقدر على الاسترسال في قراءته كل انسان وأنه
لا يعيش إلا في بطون الكتب ولا يصاح أن يكون نموذجا من نماذج
الكتابة البليغة التي يقتدى بها الكاتب .

ولكن ذلك لا يدفعنا الى جحود ما في هذه الرسائل من المعانى
والافكار الصحيحة أو الى الشعور بأن الكاتب كان يميل إلى طرق
بعض الموضوعات الاجتماعية التي لم يطررها كثير من الكتاب، وإلى
الاسلوب القصصى الذى يسمونه بالمقامات ورسائله حافلة بالآراء التاريخية
والاجتماعية والنكات الادبية وبعض الامثال المعروفة . وكثيرا ما كان
يبدوها بأبيات مط الشعر وقد جرى المشاركة في كل ما كان معروفا

في كتاباتهم من عبارات مسجوعة والفاظ مختارة ، ومن القاب التعظيم والتبجيل للأمرء والسلاطين . ولكنه لم يصل إلى ما وصلوا إليه من الصنعة المتكافئة قصدا في ذكر أنواع البديع والبيان ، بل كان اظهر ما يكون تكافه في السجع والاطناب كما قلنا . وقد يكون اسلوب ابن الخطيب ادعى إلى توجيه ذهن القارئ إليه من الموضوعات التي عالج الكتابة فيها ، ومن المعاني التي اختارها ومن الاخيلة التي اعتمد عليها في بث آرائه ، لأن كل ما كتب فيه معروف وكل معنى ذكره مألوف وإنما ميزته السكبرى بعد اسلوبه كثرة انتاجه العقلي والأدبي الذي جاءه من نشاطه وسعة اطلاعه وكثرة قراءته :

*
* *

فما كتبه معزيا لبعض الرؤساء، عن أخيه وقد ابتداء كتابه بأبيات من الشعر وملاه بالمدح والفاظ التعظيم والافتنان وبأنواع الاخيلة والتعمق في الصنعة .

أيا ثابت كن في الشدائد ثابتا
اعينك ان يلقى حسودك شامتا
عزائك عن عبد العزيز هو الذي
يليق بعز منك اعجز ناعتا
فدوحتك الغناء طالت ذوائبا
وسرحتك الشماء طابت منابتا
لقد هد أركان الوجود مصابه
وانطق منه الشجو من كان صامتا
فن نفس حر اوثق الحزن كظمها
ومن نفس بالوجد اصبح خافتا
هو الموت للانسان فصل لحده
وكيف ترجى ان تصاحب مائتا
وللصبر اولى ان يكون رجوعنا
إذا لم تكن بالحزن نرجع فائتا
واتصل بي ايها الهمام ، وبدر المجد الذي لا يفارقه التمام ماجنته على

عليائك الأيام ، وافتضته محن الردى بعد أن طال الخيام ، وما استأثرت به
الحمام ، فلم يغن الدفاع ولا نفع الذمام من وفاة صنوك الكريم الصفات وهلاك
وسطى الاسلاك وبدر الاحلاك ومجير الاملاك ، وذهاب السمع الوهاب
وأنالديغ صل الفراق الذي لا يفيق بألفراق وجريح سهم البين ، ومجاري
العيون الجارية بدمع العين لفقد أنيس سهل على مضض النكبة ونحي
ليث الخطب عن فريسي بعد صدق الوثبة ، وآسنى فى الاغتراب وصحبنى
إلى منقطع التراب ، وكفل أصاغرى خير الكفالة وعامانى من حسن
العشرة بما سجل عقد الوكالة ، ابتزعه الدهر من يدى حيث لأهل ولا
وطن والاغتراب قد ألقى بعطن ، وذات اليد يعلم حالها من يعلم ما ظهر
وما بطن ، ورأيت من تطارح الاصاغر على علو الغريب النازح عن
النسيب والقريب ، ما سماني على أن جعلت البيت له ضريحا ومدفنا
صريحا ، لا خدع من يرى أنه لم يزل مقيما لديه وأن ظل شفقتة منسحب
عليه فاعيا مصابى عند ذلك الفرح وأعظم الظما البرح . ونكا القرح
القرح إذ كان ركنا قد بانته لى يد معرفتك ومتصفا فى البر بنى والرعى
لصاغيتى بكريم صفتك فوالهفا عليه من حسام وعز سام وإياد جسام
وشهرة بين بنى حام وسام أى جمال خالق ووجه للقاصد طاق وشيم
تطمح للمعالى بحق وأى عضد لك ياسيدى لايهين إذا سطا ولا يقهر
إذا خطا يوجب لك على تحليه بالشيبة ما توجه به البنوة من الهيبة
ويرد ضيفك آمنا من الخيبة ويسد ثغرك عند الغيبة ذهبت إلى الجزع
فرايت مصابه أ كبر ودعوت بالصبر فولى وأدبر واستنجدت الدمع
فغضب ، واستصرخت الرجاء فأنكر ماروى واقتضب وبأى حزن يلنى

عبد العزيز وقد جل فقده أو يظني لأعجبه وقد عظم وقده اللهم لوبكى
بندى أياديه أو بغنائم غواديه أو بعباب واديه
وهي الايام أي شامخ لم تهده أو جديد لم تبله وإن طالت المدة
فرقت بين التيجان والمفارق والحدور والتمارق والطلبي والعقود والكأس
وابنة العنقود فما التعلل بالفان وإنما هي إغفاءه إجمان والتشبت بالحبائل
وإنما هي ظل زائل والصبر على المصائب ووقوع سهمها الصائب اولى
ما اعتمد طلابا ورجع اليه طوطا او غلابا فانا يا سيدي اقيم رسم التعزية
وإن بوئت بمضاعف المرزية ولا عتب على القدر في الورد من الأمر
والصدر ولولا إن هذا الواقع مما لا يجدى فيه الخالصان ولا يغنى فيه
اليراع ولا الخرصان لا بلى جده من اقترضتموه معروفًا وكان بالتشيع
إلى تلك الهضبة معروفًا لكنها سوق لا ينفق فيها إلا سلعة التسليم
للحكيم العايم وطى الجوانح على المنضض الأليم ولعمري لقد خلدت
لهذا الفقيد وان طمس الحماح محاسنه الوضاحة لما كبس منه الساحة صحفا
منشره وثغورا بالحمد موشرة يفخر بها نبوه ويستكثر بها مكتسبوا
الحمد ومقتنوه وانتم عماد البازه وعلم المفازه وقطب المدار وعامر الدار
واسد الاجمة وبطل الكتيبة الملجمة وكافل البيت والستر على الحى والميت
ومثلك لا يهدى إلى نهج لاحب ولا ترشده نار الحباحب ولا ينبه على
سنن بنى كريم او ضاحب قدرك اعلى وفضلك اجلى وانت صدر
الزمان بلا مدافع وخير معل لاعلام الفضل ورافع وانا وإن اخرت
فرض بيعتك لما خصني من المصاب ونالني من الاوصاب ونزل بي من
جور الرمان الغصاب ممن يقبل عذره الكرم ويسعه الحرم المحترم والله

سبحانه الكفيل لسيد و عمادى ببقاء يكفل به الابناء و ابناء الابناء
و يعلى لقومه رتب العز سامية البناء حتى لا يوحش مكان فقيد مع وجوده
ولا يحس بعض زمان مع جوده و يقر عينه فى ولده و ولد ولده و يجعل
أيدى مناوئيه تحت يده والسلام :

ومن كلامه القايل المعنى الكثير اللفظ المملوء بأنواع عبارات
التبجيل مما قد يعد من الملق قوله وقد بدأه أيضا بأبيات من الشعر
لأعدم الله دار الملك منك سنى يجلى به الحال كان الظلم والظلم
وأنشدتك الليالى وهى صادقة المجد عوفى إذ عوفيت والكرم
من علم أعلى الله تعالى قدرك ان المجد جواد حلاك شياته ، لا بل
الملك بدر أنت آياته ، لا بل الاسلام جسم أنت حياته ، دعامنك بالبقاء
لمجد يروق بك جبينه وملك تنيره وتزينه ، ولدين تعامل الله تعالى باعزازه
وتدينه فقد ألت نفوس المؤمنين لآلامك ووجم الاسلام لتوقع
إسلامك وتأخرت الاعلام لتأخر أطرافك بمصالح الملك وأعلامك ،
فانما أنامل الدين والدنيا متشبهة بأذيال أيامك ، ورحال الاميل مخيمة
بين حلالك وخيامك فاذا قابلت الاشراف نعم الله تعالى بشكروهم
الغفلة عن ذلك بنكر فاشكره جل وعلا بملء لسانك وحنانك واجر
فى ميدان حمده مطلقا من عنانك على ما طوقك من استرقاق حر ،
وإفاضة أيدى غر واقتناء عسجد من الحمد ودر ، وأتاحة نفع ودفع ضرر ،
وإدالة حلوم من مر ، وكن على ثقة من مدافعة الله تعالى عن حماك
وعز تبلى ذوائبه السماء ، ورزق يجره فال منماك ، ودونك مجاس
الامامة فقد تديره بزمامك ، وخطوة الخلافة فاستحقها بوسائلك القديمة

وذمامك ، ومحاسن الدولة فاجلها على منصة أمامك ، ورسوم مبرفاغربها
عبن اهتمامك ، وذروة المنبر فامض بها ظبة بحسامك ، واجز الآمين
زهر الأيادي البيض من كأم أكامك ، فيا عز دولة بك يا جملة الكمال
قد استظهرت وأذلت المعاند وقهرت ، وبأعمال آرائك اشتهرت فراقت
فضائلها وبهرت جزالة كما شق الجو جارح ، ولطافة كما طارح بفن
التأليف مطارح ، وفكر في الغيب سارح ، ودين لغوامض الحلم
والعدل سارح ، ومكارم حمت آثار الكرماء ونسخت ، وحملت عقود
أخبار الأجواد في الأعصار وفسخت ، فلم تدع لفضل الفضل ذكرا ،
وتركت معروف يحيي بن خالد نكرا . لابل لم يبق لكعب من علو كعب
وأنست دعوة حاتم بأى مانح وحاتم ، فصارت سبي جوار ومنع جوار
وعقر ناب عند اقشعرار جناب ، وأين يقع من كبر قدر ترفع عن الكبر
وجود خصب الأيدي ببناء التبر ، وعز استخدام الأسل الطوال يراع
أقل من الشبر ، وحقن الدماء المراقبة باراقة نجيع الحبر وفك العقال ورفع
النوب الثقال ، وراعى الذرة والمثقال ، وعثر الزمان فأقال ، ووجد لسان
الصدق فقال . أقسم ببارى النسم وهو أبر القسم . مافازت بمثلك الدول
ولا ظفرت بمثلك الملوك الأواخر والأول ، ولو تقدمت لم يضرب
إلا بك المثل ؛ ولم يقع إلا على سنتك وكتابك ، والاجماع المنعقد على
ادابك العمل والمملوك لما شام مالكة برق العافية وتدرع بالالطاف
الخافية ، كتب مبشرا بالهناء ومذيعا ما يجب من الحمد والتناء وشاكر
ماله بوجوده من الاعتناء ، فقد بادر ركن الدين بالبناء ، وأبقى الستر
والمنة على الآباء والأبناء ، فنسأل الله تعالى أن يمتع منك بأثير الملوك

ووسطى السلوك ، وسلاطة أرباب المقامات والسلوك . ويبقيك وحصنة
الصحة وافرة وغرة العزة القه ساءسافرة ، وغادة عادة السعادة غير نافرة
وكتيبة الأمل في مقامك السعيد غائمة ظافرة ، مازحفت للصباح شهب
المواكب ، وتفتحت بشط نهر اجمرة أزهار الكواكب والسلام
ومن هذا الطراز في الكتابة أيضاً ما كتبته جواباً عن كتاب
خطيب السلطان الذي استقر بتونس

ولما أن نأت منكم ديار وحال البعد بينكم وبينى
بعثت لكم سواداً في بياض لا نظركم بشئ مثل عيني
بم أفاتحك ياسيدي وأجل عددي ، كيف أهدى سلاماً فلا أخطر
ملا ما أنتخب لك سلاماً فلا أجد لتبعة التقصير في حقاك الكبير
إيلاما ، إن قلت تحية كسرى في الشناء وتبع فكاهة في مربع العجمة ربع
ولها المصيف فيه والمربع ، والجم والمربع ، فتروى متى شئت وتشبع ،
وإن قلت إذا العارض خطر ، ومهما هي أو قطر ، سلام الله يامطر ،
فهو في الشريعة بطر ، وركبه خطر ، ولا يرعى به وطن ولا
يقضى به وطن ، وإنما العرق الاوشج ، ولا يستوى البان والبنفسج
والعومج والعرفج

سلام وتسليم وروح ورحمة عليك وممدود من الظل مسجسح
وما كان فضلك ليعني الكفر ان أن أشكره ولا لينسينى الشيطان
أن أذكره فاتخذ في البحر سبباً ، أو أسلك غير الوفاء مذهباً تأتي ذلك
والمنة لله تعالى ، طباع لها في مجال الرعى باع وتحقيق وأشباع وسواشم
من الانصاف ترعى في رياض الاعتراف فلا يطرقها ارتياع ، ولا تخفيها

سباع ، وكيف نوجد تلك الحقوق وهي شمس ظهيرة وأذان عقيرة
جهيرة فوق مثذنة شهيرة آدت الأكتاد لها ديون تستغرق الذم
وتسترق حتى الرمم فان قضيت في الحياة فهي الخطة التي ترتضيها ولا
تقنع من عامل الدهر المساعد إلا أن ينفذ مراسمها ويمضيها وإن قطع
الأجل فالغنى الحميد من خزائنه التي لا تبديد. يقضيها. ويرضى من يقتضيها
وحيا الله تعالى ، أيها العلم السامى الجلال ز منا معرفتك المبرة على الآمال بر ،
وأتحف وان أساء بفراقك وأحجف وأعري بعدما ألحف وأظفر باليتيمة
المدخورة للشدائد والمزائن ثم أوحش منها أصوتة هذه الخزائن فأب
حنين الأمل بخفيه ، وأصبح المغرب غربا يقاب كفيه ، ونستغفر الله
تعالى من هذه الغفلات ونستهديه دليلا في مثل هذه الفلوات. وأي ذنب
في الفراق للزمن ، أو لغراب الدمن ، أو للرواحل المدجلة ما بين الشام إلى
البن وما منها إلا عبد مقهور وفي ذمة القدر مقهور ، عقد والحمد لله مشهور
وحجه لها على النفس الوايمة ظهور . جعلنا الله تعالى ممن ذكر المسبب في
الاسباب وتذكر ، وما يذكر إلا أولوا الألباب قبل غلق الرهن وسد الباب
وكل كتابة لسان الدين أو جلها من هذا الطراز ، فيرجع إليها من
يشاء في كتبه وفي الجزئين (الثالث والرابع) من نصح الطيب

الادب في بلاد المغرب

سكان بلاد المغرب :

كان العرب يطلقون بلاد المغرب على ثلاثة أقاليم :

١- (إقليم أفريقية ، وهو المغرب الأدنى . وقاعدته مدينة القيروان وكان يشمل بلاد طرابلس وتونس) .

٢- (إقليم المغرب الاوسط وقاعدته تلمسان) :

٣- (إقليم المغرب الاقصى وهو القسم الممتد من حدود المغرب الاوسط إلى المحيط الاطلسي . وكان يطلق على هذين القسمين أيضا بر العدو لأنه يعدى منهما إلى الاندلس) .

وسكان هذه البلاد قبائل كثيرة من أخلاط أمم مختلفة . يقول الباحثون عنها أن أقدمها انحدروا إليها من الصحراء وجاءوها من الجنوب وإن سكان بلاد أفريقية الشمالية هذه كانت متصلة في الأزمان الأولى بسكان شبه جزيرة ايبيريا وسكان شبه جزيرة إيطاليا . وهؤلاء السكان كانوا من أصل واحد . وقال بعض المؤرخين إن سكان شمال أفريقية نزحوا إليها من جهتين : من الجنوب جهة الصحراء ومن قارة أوروبا الجنوبية وهؤلاء هم أصل البرابرة وهم من الجنس الأثيم الأوربي والجنس الأثيم الصحراوي الذين يمتازون عن الجنس الأسود . وبعد هؤلاء نزل هذه البلاد جماعة من سكان أوروبا ومن شبه جزيرة ايبيريا وهؤلاء من جنس أشقر . ولا يزال أبنائهم يعرفون ويمتازون عن سواهم في بلاد تونس والجزائر ومراكش ، وربما كان أكثر سكان البلاد الآن

من نسلهم ؛ ومن هؤلاء القبائل التي تسكن جبال الأطلس . ومن بين السكان القدماء الذين نزلوا هذه البلاد المغاربة ومن هؤلاء جميعا تولدت أمم البرابرة .

وعندما انتشر المسلمون في شمال أفريقية بقيت هناك بعض القبائل العربية وتولدت وبقي بعضها حافظا لعاداته وأخلاقه وبعضها اختلط بأمم البربر كما حصلت مثل هذه الحال في بلاد اسبانية وقد اتصل بهم البربر وأسلموا على يدهم بعد حروب طويلة فنعوا في نهايتها بدين العرب وأسلموا : وبعض المؤرخين يقول إن سكان هذه البلاد من أمم حامية من أهل أفريقية وآسيا .

وقد أطلق عليهم العرب جميعا كلمة بربر ، وكان هذا اللفظ يطلق على كل القبائل غير العربية . وقيل أصله من كلمة فار فاروس اليونانية وهو صوت الأتغ أطلقه اليونان على كل من لم يتكلم لغتهم ؛ ثم أطلقه الرومان على كل من ليس يونانيا أو رومانيا : كما أطلق العرب على كل من ليس عربيا كلمة أعجمي لعجزه عن التعبير بلغتهم :

والبرابرة الأولون كانوا جفاة غلاظا يميلون الى الساب والنهب شديدي المراس شجعانا كسكل سكان البوادي غير ثابتين على مذهب أو عقيدة ميالين الى الفتن واتباع الضلالة حتى ظهرت فيهم كل البدع فلما ظهر الاسلام هناك آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا .

وقد دخل المسلمون بلاد البربر في خلافة عثمان بن عفان حينما أرسل إليها عبد الله بن أبي السرح والى مصر (سنة ٥٢٦ هـ) . وصحبه عقبة بن نافع فدخلوا هناك وحاربوا الروم ورجعوا بعد أن صالحوهم

على مال كثير قيل إنه ثلاثمائة قنطار من الذهب ومازال العرب يجيئون ويروحون إلى أن بعث معاوية عقبة بن نافع في عشرة آلاف فارس فدخل عقبة أفريقية وأسلم معه من البربر جماعة ووضع السيف في رقاب أهلها (لأنهم كانوا إذا جاء عسكر المسلمين أسلموا فإذا خرجوا ارتدوا.) وبني عقبة مدينة القيروان بالجنوب من قرطاجنة القديمة (سنة ٤٥ - ٥٠) ثم أمتد سلطان العرب بعد ذلك إلى بلاد المغرب الأقصى، وحكم هذه البلاد ولاية من بني أمية ومن بني العباس. ثم نشأت هناك دول مستقلة كدولة الأغالبة الذين كانوا أول أمرهم ولاية لبني العباس (سنة ١٨٤-٢٩٦ هـ) وكدولة العبيدين أو العلويين « ٢٩٦ - ٣٦١ هـ » وكدولة الصنهاجين بتونس « سنة ٣١٦ - ٣٤٢ هـ » وكدولة الادارسة « ١٦٠ - ٣١٣ هـ » وكدولة الموحدين « ٤١٤ - ٦٦١ هـ » وغيرهم من الدول التي قامت بالمغرب الاوسط والاقصى .

وقد تداولها جماعة من ولاية الاندلس والمرابطين والموحدين وغيرهم

من امتد سلطانهم في تلك البلاد .

أثر العرب في الحياة العربية .

وكان لولاية العرب هناك أثر عظيم في نمو الحياة العقلية ونشر

الثقافة العربية من علوم وآداب ولاسيما العلوم الدينية واللغوية .

ولكن أعظم أيام العرب هناك كانت مدة حكم بني غالب . حيث ظهر

فيهم جماعة من كبار الأدياء والعلماء ، وقد امتد أثر العرب على جزر

البحر الأبيض المتوسط وكانت جزيرة صقلية من أعظم مراكز

الحضارة الاسلامية لأن موقعها وسط بر الروم أكسبها أهمية عظيمة حتى جعل العرب يتطلعون اليها منذ شفت سفنهم عباب هذا البحر فقد توجهت إليها تلك السفن منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان ورجعت الى دمشق بالغنائم الكثيرة من مال وعروض وأسرى ، وما زال العرب يغيرون على هذه الجزيرة إلى أن أرسل اليها زيادة الله بن الأغلبي والى أفريقية من قبل المأمون العباسي . (٢٠١ - ٢٢٣) اسطول اقويا (سنة ٢٢٢) بقيادة أسد بن الفرات قاضي القيروان ، فانتصر هذا الاسطول على أسطول الروم هناك . وما زال العرب منذ ذاك يغيرون على هذه الجزيرة ويدكون حصونها إلى أن كان عهد إبراهيم ابن أحمد الأغلبي (٢٦١ - ٢٨٩) الذي نال نحر اتمام فتح صقلية وأدخلها في حوزة العرب . وقد نشر العرب هناك أيضا علومهم ومعارفهم بين سكان هذه الجزيرة الذين كانت تغذت عقولهم قبل ذلك بالثقافة اليونانية واللاتينية فحدث اتصال بين الثقافة الشرقية والغربية وكان ذلك أشبه بما حدث من بعض الوجوه بين الثقافة الفارسية والعربية في بلاد المشرق ، وامتد أثر الثقافة العربية إلى زمن روجر الثاني ملك صقلية الذي كانت ثقافته عربية إسلامية ، فكان يعين المؤلفين العرب على نشر مؤلفاتهم . ويساعد على بث الثقافة العربية في أنحاء الجزيرة وبين سكانها ، حتى أنهم من أجل ذلك بأنه خارج على المسيحية داخل في الاسلام ، وله ألف الشريف الإدريسي الصقلي كتابه الشهير في الجغرافيا المسمى (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) وعمل له كرة أرضية صور عليها شكل الارض . وأنشأ روجر إداره ملكه على نظام الادارة العربية في الاندلس

فصارت اللغة العربية في زمنه هي اللغة الرسمية لسكان هذه البلاد حتى في مكاتباتهم الخاصة .

كان علماء العرب وأدباؤهم وشعراؤهم يرحلون من الأندلس الى بلاد البربر والى جزر البحر ويةيمون هنا وهناك ، كما رحل الشاعر الصقلي ابن حمديس الى الأندلس وبقي في حاشية المعتمد بن عباد . وكما رحل غيره من الشعراء والعلماء والادباء على ما هو معروف

وقد كانت مدينة القيروان من أعظم المدن العلمية ومحط رجال العلماء والادباء ، ومنها امتد سلطان العرب وفتوحاتهم على جزر البحر المتوسط كما رأينا في صقلية ، وكانت أيضا بلاد المغرب الأقصى متصلة ببلاد الاندلس والعلماء يفتدون إلى هناك ، وقد رحل جماعة من علماء الاندلس بعد خروج العرب منها الى بلاد البربر ونشروا علومهم ومعارفهم ، فكانت بلاد البربر من القرن الثاني الى القرن التاسع الهجري مسرحا للعلوم والثقافة الاسلامية ، كما كانت ميدان حروب وشجار بين القبائل العربية والبربرية . وكانت الحياة العلمية في بلاد المغرب تشبه ما كان منها ببلاد

الاندلس لقرب البلدين وشدة الصلة بينهما لأن الرحلة من بلاد الاندلس إلى شواطئ أفريقية كانت سهلة فاختلط هؤلاء بهؤلاء وأخذ المغربيون عن الاندلسيين العلوم والمعارف كما أخذ الاندلسيون عن المشاركة . فكان أهل المغرب عيالا على أهل الاندلس في ثقافتهم وتربيتهم العلمية . لهذا لم تعد ثقافة المغاربة بعض ما كان معروفا في الاندلس من علوم الادب والشريعة وكانت فنون الادب سهلة التداول

لأنها تؤخذ بالرواية والحفظ ولا تحتاج لعناء كبير في الفكر ولا في كد الأذهان هذا إلى استعداد العربي الفطري وميلهم إلى حفظ الأشعار والفكاهات والنوادر في التاريخ والأدب، ورغبتهم في نشر آثار آبائهم. فكانت الصفة العامة في بلاد المغرب صفة أدبية. وكان بجوار هذه الثقافة الأدبية ثقافة دينية أساسها علوم الشريعة من فقه وتفسير وحديث مما كانت تهذب أفكارهم وتصل بهم إلى مراتب العلماء والوزراء والقضاة، حتى ظهر من بينهم جماعة من كبار رجال الدولة؛ ضربوا بسهم وافر في هذه العلوم.

فكان منهم أسد بن الفرات قاضي القيروان وفاتح جزيرة صقلية وصاحب أبا يوسف

وكان منهم أبو سعيد عبد السلام الملقب بسحنون كان من كبار علماء المالكية رحل إلى مصر ونقل مدونه مالك عن أبي القاسم المصري: ونشر هذا المذهب ببلاد المغرب وتولى قضاء القيروان (توفي سنة ٢٤٠ هـ)

ولم تكن لهم عناية عظيمة بالعلوم الكونية ولا بالمذاهب الفلسفية لانتشار مذهب أهل السنة بينهم. ومحاكاتهم سلاطين المرابطين في التعصب لذلك

أما عنايتهم باللغة فكانت أشبه بعنايتهم بالعلوم الشرعية فظهر منهم جماعة من أئمة اللغة من أشهرهم:

الامام اللغوي محمد بن جعفر القزاز القيرواني الذي كان في خدم العزيز ابن المعز العبيدي صاحب مصر. وقد تقدم إليه أن يؤلف كتابا

يذكر فيه سائر الحروف فألف كتابا في نحو الف ورقة وأسماء الجامع في اللغة وهو من أكبر الكتب التي ألهمت في ذلك وله كتاب آخر اسمه التعريض قال ابن رشيق : أن القزاز فصح المتقدمين وقطع السنة المتأخرين (توفي القزاز بالقيروان سنة ٤١٢ هـ) .

وقد كان القزاز أستاذا لابن رشيق وابن شرف القيرواني

اللغة

وبدرة القبائل هناك كثرت اللهجات البربرية وسطت على اللهجة العربية كما سطت العجمة على لغة العرب حتى تعدى ذلك إلى الكتابة والشعر ، ولكن أمم المشرق والاندلس كانوا حماة للغة العرب وآدابهم وكان كثير منهم كتابا للأمراء والماوك ولاسيما زمن الدولة العبدية ودولة الأغالبة ، وقد درس كل أثر من آثار العقول هناك حتى آثار الرومان أمام قوة عقول العرب وعلومهم العربية والدينية . وحاول الأديباء والعلماء هناك مجازاة أهل المشرق في الأدب والكتابة وفنون الشعر ومحكاة أهل الأندلس في ذلك . ولكنهم عجزوا بعض العجز عن مجازاة أمم ولم يدركوا شأوهم ، وان جاروهم في بعض ضروب الشعر كالموشحات والمواليه وزادوا عليهم في الشعر العامي الذي طغى أو كاد يطغى على العربية الفصحى لامتلائه باللهجات العامية .

وجملة القول أن اللغة في عصر بني الأغلب والفاطميين كانت في أوج عزها هناك ، وقد ارتقت العلوم والآداب أيضا بما كان لمدينة القيروان من مكانة في ذلك لأنها كانت مقراً للحركة الأدبية والعامية فظهر فيها طائفة

من العلماء والأدباء ذاع أمرهم في العالم العربي كأبي اسحاق الحصرى
القيروانى صاحب كتاب زهر الآداب (توفى سنة ٤١٣) ، وابن شرف
القيروانى الشاعر الكاتب (توفى سنة ٤٦٠) ، والأديب الناقد ابن رشيق
القيروانى صاحب كتاب العمدة وقراضة الذهب (توفى سنة ٤٦٣)
وابن أبي زيد القيروانى إمام الشريعة فى زمانه (توفى سنة ٣٨٦) .

وكان كثير من علماء هذه البلاد اشتهر فى بلاد المشرق بمؤلفاته وآرائه
وليس كتاب العمدة وقراضة الذهب لابن رشيق أقل شهرة فى تاريخ
النقد الأدبى من كتاب الصنائع لابن هلال العسكري ، ولا من
كتاب الوساطة للقاضى عبد العزيز الجرجانى . ولا من كتاب الموازنة
للأمدى . ولا من كتاب المثل المائر لضياء الدين بن الأثير

الكتابة والخطابة

مهما قيل عن رقى اللغة العربية وأحوالها فى بلاد المغرب فانه
لا يمكن القول بأنها وصلت إلى ما كانت عليه فى بلاد المشرق أوفى بلاد
الأندلس لتأصل العجمة فى اللسان وتداول الدول على تلك البلاد
وعدم استقرار الأمن هناك واشتغال الحكام بالفتح ، وقمع الثورات
أكثر من اشتغالهم بنشر الثقافة والعلوم ولولا كثرة الوافدين على تلك البلاد
من علماء المشرق والأندلس لما وجد العلم والأدب هناك مجالا فسيحا .
لهذا لم تصل الكتابة والشعر هنا الى ما وصلت اليه هناك فى
بلاد المشرق والأندلس . بل كان أهل المشرق والأندلس هم حماة اللغة
والأدب وكثير من كتاب الامراء والملوك كانوا منهم

أما الكتابة فكانت صناعة من الصناعات التي يشتغل بها العلماء والأمرء، وكانت جارية في أساليبها على طريقة الأندلسيين من حيث السجع والتعمل في ذلك وتصيد العبارات المملوءة بالاستعارة والمجاز وبعض أنواع البديع

وأما من حيث الموضوعات فكانت مقصورة على الرسائل السياسية والدينية، ولم نصل رغم ذلك إلى الدرجة التي كانت لها في بلاد المشرق أو الأندلس لا من حيث الأغراض، ولا من حيث الصناعة ولا من جهة الدروب في الكتابة، بل كان كثير منها أشبه بكتابة الفقهاء منها بالأدباء، وكثيرا ما كان الملوك والأمراء يستكتبون رجال الأدب من الأندلس. كأبي محمد بن عبد المجيد بن عبدون زمن المرابطين وهو الذي نشر أسلوب الأندلسيين هناك، وكأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال وغيرهم

(من الكتب الصادرة عن الخلفاء الموحدين، أتباع المهدي بن تومرت المستمرة بقاياهم الآن بتونس وسائر بلاد أفريقية، وهي على أسلوبين) كما كتب عن عبد المؤمن: خليفة المهدي إمامهم إلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن سعد

« من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعاونته، إلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن سعد وفقه الله، ويسرهما ليرضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد فالحمد لله الذي له الاقتدار والاختيار، ومنه العون لاوليائه والاقدار، وإليه يرجع الأمر كله فلا يمنع منه الاستبداد والاستئثار، والصلاة على محمد نبيه الذي ابتعثت ببعثته الاضواء

والأنوار ، وعمرت بدعوته الأتجاد والأغوار ، وخصم بحججه الكفر والكفار ، وعلى آله وصحبه الذين هم الكرام الأبرار ، والمهاجرون والأنصار والرضا عن الامام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم بأمر الله حين غيرته الأغيار ، وتقدم الامتعاظ له والانتصار . وهذا كتابنا كتب الله لكم نظراً بريك المنهج ويتقيدكم الأبرج فالأبرج ، وأتاكم الله من نعمه الأيمان وعصمه الأتقياد له والأذعان ، ماتجدون به الأيقين والشايج من حضرة سلطان مراكش حرسها الله تعالى ولا استظهار الأبقوته وحوله ، ولا استكنار إلا من احسانه وطوله

ولما جعل الله هذا الأمر العظيم رحمة خلقه ومطية لرقبه وقرارة لأقامة حقه وحمل حملته الدعاء اليه والدلالة به عليه والترغيب في عظيم ما عنده ونعيم ما لديه وجعل الأندار والأعدار من فصوله المستوعبه وأحكامه المرتبه ، ومنجاته المخلصه من الخطوب المهلكة ، والأهوال المعطبه ، رأينا أن نخطبكم بكتابنا هذا أخذنا بأمر الله تعالى لرسوله في المضاء الى سبيله ، والتحرير على اغتنام النجاء وتحصيله وإقامة الحجبه في تبليغ القول وتوصيله ، فأجيبوا - رفعكم الله - داعي الله تسعدوا وتمسكوا بأمر المهدي - رضى الله عنه - في اتباع سبيله تهتدوا ؛ واصرفوا عنه العناية إلى النظر في المآل ، والتفكر في نواشئ التغيير والزوال ، وتدبروا جرى هذه الامور وتصرف هذه الاحوال ، واعلموا أنه لا عزة إلا بأعزاز الله تعالى فهو ذو العزة والجلال ، ولا يغرنكم بالله الغرور ، فالدنيا دار الغرور وسوق المحال ، وليس لكم في قبول النصيحة وابتداء التوبة الصحيحة ، والعمل بثبوت الأيمان في هذه العاجلة الفسيحة

إلا ما يحبونه في ذات الله تعالى من الامنه والدعاء والكرامه المتسعة
والمكانة المرتفعة والتنعم بنعيم الراحة المتصلة والنفس . . . ؛ فنحن
لا نريد لكم ولسائر من نرجو إنا بته ، ونستدعى قبوله وإجابته ، إلا
الصالح الاعم والنجاح الاتم وتأملوا - سددكم الله - من كان بتلك
الجزيرة - حرسها الله - من أعيانها وزعماء شأنها . هل تخلص منهم إلى
ما يوده ، وفاز بما يدخره ويعزه الا من تمسك بهذه العروة الوثقى
واستبقى لنفسه من هذا الخير الادوم الا بقى وتنعم بما لقي من هذا
النعيم المقيم ويلقى

أما من أخذ إلى الأرض واتبع هواه ، ورغب بنفسه عن هذا
الامر العزيز إلى ما سواه ، فقد علم بضرورة المشاهدة والاستفاضه
سوء ؛ وحق عليكم وفقكم الله ويسركم لما يرضاه - أن تحسبوا الاختيار
وتصاوا الاذكار والاعتبار ويتقدروا الابتدار وما حق من انقطع إلى
هذا الامر الموصول الواصل وازمع ما يناله من خيره المحوز الحاصل
أن يناله منكم في أمر أهل بلديته حين إعلانكم بكلمه التوحيد وتعلقهم
بهذا الامر السعيد ما كان ثم كان منكم في عقب ذلك ما اعتمدتموه في
أمر أهل لورقه - وفقهم الله - حين ظهر اختصاصهم وبان أخلصهم ،
وليس لذلك وأمثاله عاقبه تحمد فان خير ما يقصده والنجاة فيما ينزح
عن الشر ويبعد ، وإنا نرجو أن يكفكم عن ذلك وأشباهه - إن شاء الله
تعالى - نظر موفق ومتاع محقق ويجذبكم إلى موالاة هذه الطائفة المباركة
جاذب يسعد ، وسائق يرشد ، والله يمن عليكم بما ينجيكم ويمكن لكم في
طاعته أسباب تأمياكم وترجيكم بمنه ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وكتب في السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسة مائة»

الخطابة

أما الخطابة فقد ظهرت في بلاد البربر بظهور العرب هناك ورغبتهم في نشر سلطانهم ودينهم ، وكان أكثرها موجهة الى نشر الدين . ولما تتابعت الدول الاسلامية على تلك البلاد كان لكل دولة زعماء وأنصار كما هو معروف في تاريخ العرب . ولما بذرت بذور الشيعة هناك كان لهم خطباء يدعون لمذهبهم ويؤيدون الفاطميين ، وكان من أشهرهم أيو عبد الله نصير المهدي الفاطمي ، وكان محمد بن تومرت المهدي من أخطب الخطباء وأكثر ما كانت الخطابة شيوعا في المسائل السياسية والدينية ، ولكن على كل حال لم تصل إلى ما كانت عليه في بلاد المشرق ولا تعتبر من الأنواع الأدبية الفنية في شيء .

وهذا جزء من خطبة المهدي محمد بن تومرت وهو يوجد بنفسه .
« واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء . وكونوا
يدا واحدة على عدوكم . فانكم ان فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا الى
طاعتكم وأكثر أتباعكم وأظهر الله الحق على أيديكم . والاتفعلوا شملكم
الذل وعمكم الصغار ، واحتقركم العامة فتخطفتم انخاصة : وعايكم في
جميع أموركم مزج الرأفة بالغلظة ، واللين بالعرف واعلموا مع هذا انه
لا يصلح أمر هذه الامة الا على الذي صلح عليه أمر أولها ، وقد اخترنا
عليكم رجلا منكم ، وجعلنا أميرا عليكم . هذا ، بعد أن بلوناه في جميع
أحواله من ليله ونهاره ، واختبرنا سريرته وعلايته ، فرأيناه في ذلك
كله ثابتا في دينه ، متبصر في أمره وانى لأرجوا أن لا يخالف الظن فيه

وهذا المشار إليه عبد المؤمن ، فاسمعوا له وأطيعوا مادام سامعا مطيعاً
لربه ، فان بدل أو نكص على عقبه أو ارتاب في أمره ففي الموحدين
أعزهم الله بركة وخير كثير . والأمر أمر الله يقلده من يشاء من عباده .

الشعر

كان الشعر في بلاد المغرب أقل منزلة منه في أى بلد آخر من
البلدان التي فتحها العرب لسيادة البربر هناك وانتشار لغتهم ، ولأن
العرب لم يكونوا بالكثرة ولا بالسلطان اللذين كان لهما في بلاد الاندلس
رغم ما كان لهم من دول رسمت أقدامها في تلك البلاد ، وربما كان عدم
اخلاص البربر للعرب ولغتهم من الاسباب التي لم تجعل للشعر في بلادهم
ما كان له في بلاد الاندلس ، لان جمهور الشعراء والأدباء في زمن الامويين
ومدة ملوك الطوائف كانوا من العرب الذي سكنوا هناك . أو من
الوافدين من المشرق ، فكانت العصبية البربرية تسيطر على الحالة
العقلية هناك . لهذا لانكاد نجد للشعر العالى مجالا أوسع من بلاد البربر
وربما يحسب هذا النوع من الشعر الخليط من العربية الفصحى والاجممية
البربرية من مبتكرات أهل المغرب ، على أنه كان هناك من شعراء العرب
وكنابهم الذين جئوا الى تلك البلاد من بلاد الاندلس وغيرها كثير
ممن حاكى شعراء أهل المشرق وأكثرهم كان من أصل عربي .
وقد أخذ الشعر في هذه البلاد كثيرا من الاوزان المختلفة التي
تشبه أوزان الموشحات ، وكثيرا ما كان الشعراء من المغاربة لا يلتزمون
الاعراب ويسمون قصائدهم بالاصمعيات ، كما ذكر ابن خلدون ذلك قال :
« نم استحدث أهل الامصار بالمغرب فنا آخر من الشعر في أطاريض

مزدوجة كالوشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضا وسموه غروض
البلد . . ، كان أول من استحدثه فيهم رجل من أهل الاندلس نزل
بفاس ، يعرف بابن عمير ، فنظم قطعه على طريقة الموشح ولم يخرج
فيها عن مذاهب الاعراب مطلعها :

أبكاني بشاطى النهر نوح الحمام على العصن في البستان القريب الصباح
وكف السحر يحوم مداد الظلام وماء الندى يجرى بتغر الأقاح
فاستحسنه أهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الاعراب
الذى ليس من شأنهم ، وكثر شيوعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ونوعوه
أصنافا . . . فن المزدوج ما قاله ابن شجاع من فوطهم وهو من أهل تازا .
المال زينة الدنيا وعزة النفوس يبهى وجوها ليس هى باهيا
فها كل من هو كثير الفلوس ولوه الكلام ورتبه العاليا
ومن أدباء الاندلس المعروفين ابن رشيق القيروانى ، وأبو اسحاق
الحصرى القيروانى ، وأبو الحسن الحصرى ، وابن شرف وغيرهم ، وأنا
ذا كرون هنا كلمة عن كل واحد منهم .

ابن رشيق القيروانى

وهو أبو على الحسن بن رشيق القيروانى . ولد بقرية المهديّة
سنة ٣٩٠ هـ من أب روى كان من موالى الازد ، توفى ببلدة مازر من مدن
صقلية سنة ٤٦٣ هـ ، وكانت صنعة أبيه فى بلدته المهديّة الصباغة فعلمه
أبوه صنعته . ثم قرأ الادب ونظم الشعر وأراد التزود من ملاقات
الادباء والعلماء ، فرحل الى مدينة القيروان وعرف هنا بالادب والشعر
حتى ذاع أمره واتصل بحاكمها ومدحه ودخل فى خدمته ثم انتقل الى

جزيرة صقلية على أثر الاضطراب والحروب التي ثارت في مدينة القيروان وبقى هناك الى أن توفي ببلدة مازر .

عاش ابن رشيق في عصر العلوم والآداب ببلاد البربر وجزائر البحر الابيض المتوسط ، وانصل بالعلماء والادباء حين كان لبني الاغلب حكام أفريقية أثر عظيم في العناية بالعلوم .

وكان معاصراً لكثير من مشهورى علماء المغرب كإبي سعيد عبد الله ابن شرف القيروانى حتى كان بينهما مهاجاة ومناقضات ومناقشات علمية كتب فيها ابن رشيق عدة رسائل منها رسالة سماها ساجور الكلب ورسالة أخرى نجح الطلب وأخرى تسمى قطع الانفاس وغيرها . ومن معاصريه أبو اسحاق ابراهيم الحصرى القيروانى مؤلف كتاب زهر الآداب المتوفى سنة ٤١٣ هـ بمدينة القيروان .

وهو من أشهر علماء زمانه في فنون الادب وعلوم اللغة ، وأقبل بمخاضة على ما ذكره المتقدمون من نقد الشعراء وحل كلامهم وتفصيل مذاهبهم وكان يميل بطبعه الى ذلك فكان من النقاد العارفين بضروب البيان وصناعة الشعر ، بل عد من أئمتهم وكتب في ذلك كتباً أشهرها (العمدة في صناعة الشعر ونقده) وكتاب آخر لطيف سماه (قراضه الذهب) أما كتاب العمدة فهو كتاب جامع لفنون الشعر وعلوم البلاغة وكل ما يتعلق بصناعة أو نظم الكلام ، جمع فيه كثيراً من أخبار الشعراء وأقوالهم وقد ملأ المؤلف كتابه باستشهاد من كلام الشعراء والكتاب فهو كتاب مجموع من كتب الادب وكلام الادباء والشعراء يدل على اطلاع واسع للمؤلف بإحاطة بكثير من المؤلفات لعلماء الادب

أما قراضة الذهب فليس على هذا النمط إنما هو كتاب نقد ذكر فيه شيئاً مما يختار نقده من شعر الشعراء ، ثم يذكر نوعاً من التحليل بما للكلام من معنى جيد أو ردىء أو لفظ مستقيم أو ساقط ويبين ما هو مبتكر أو منقول .

شعره

أما شعره فكان من نوع الشعر المعروف في زمانه بعضه في المدح وبعضه في الحكيم ونقد أخلاق الانسان وبعضه في الفكاهة وهو في جماته سهل الاسلوب به شيء من الصناعات اللفظية التي ذاعت هناك ؛ فقد حاكى غيره في نظم الكلام وفي اقتباس الاساليب والمعاني والعبارات .
فمن قوله في النصيحة :

من يصحب الناس مطوياً على دخل لا يصحبوه ، نخلوا كل تدخيل
لا تستطيعوا على ضعفى بقوتكم إن البعوضة قد تعدو على الفيل
وجانبوا المزح إن الجسد يتبعه ورب موجعة في أثر تقبيل
ومن قوله في المداعبة والغزل .

ولما بدا لى أنها لا تحبى وان هواها ليس عني بمنجلى
تمنيت أن تهوى سوى لعلها تذوق صبابات الهوى فترق لى
فما كان إلا عن قليل وأشفقت بحب غزال أدعج الطرف أكل
وعذبها حتى أذاب فؤادها وذوقها طعم الهوى والتذلل
فقلت لها : هذا بهذا . فأطرقت حياء وقالت : كل عائب ابتلى
وقال :

أحب أخى وان أعرضت عنه ولعل على مسامعه كلامى

ولى فى وجهه تقطيب راض كما قطبت فى وجه المدام
ورب تقطب من غير بغض وبغض كامن تحت ابتسام
ومن قوله فى العتاب .

وقد كنت لا آتى إليك مخاتلا لديك ولا أثنى عليك تصنعنا
ولكن رأيت المدح فيك فريضة على إذا كان المديح تطوعا
فقلت بما لم يخف عنك مكانه من القول حتى ضاق مما توسعا
ولو غيرك الموسوم عندي بريبة لا عطيت منها مدعى القول ما أددى
فلا تتخالك الظنون فأنها ما آثم واترك فى للصنع موضعنا
فو الله ما طولت باللوم فيكم لسانا ولا عرضت للذم مسمعا
ولاملت عنكم بالوداد ولا انطوت حبلى ولا ولى ثنائى مودعا
بلى ! ربما أكرمت نفسى فلم تهن وأحلتها عن ان تذل وتخضعنا
ولم أرض بالحظ الزهيد ولم أكن ثذيلاً على الإخوان كلا مدفعا
فباينت لا ان العداوة باينت وقاطعت لا لأن الوفاء تقطعا
ألوذ بأكئاف الرجاء واتقى شمات العدا إن لم أجد فيك مطمعا

ابن شرف القيروانى

هو من مشهورى أدباء المغرب وهو ابو عبد الله محمد بن شرف
ولد فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وهو من أصل عربى نزل أجداده
بلاد المغرب مع الفاتحين العرب ، وتربى فى مدينة القيروان ، وكان له ميل
شديد للعلوم والمعارف والأدب فبرع فى الكتابة ونظم الشعر حتى ذاع
أمره ودخل فى حاشية المعز بن باديس وصار من كتاب ديوانه واشتهر
أمره بين الأدباء هناك فكثرت منافسوه وكان من بين هؤلاء ابن رشيق

القيرواني كما سبق . ولما ذهب أمر المعز بن باديس من يده انتقل ابن شرف إلى جزيرة صقاية ثم إلى الأندلس ، وعرف ملوك الطوائف هناك ، فكانت له منزلة رفيعة بينهم وتوفي بأشبيلية سنة ٤٦٠ فعاش ابن شرف في عصر زها فيه العلم والأدب في بلاد المغرب والأندلس ، وله شعر رقيق أشبه بشعر بن رشيق وكتابه حسنة منمقة وكان يحسب من النقاد البارعين في الأدب فمن شعره قوله في الشكوى

إني وإن عزني نيل المنى لأرى حرص الفتى خلة زيدت على العدم
تقلدني الليالي وهي مدبرة كأنني صـارم في كهف منهزم
ومن شعره قوله .

غيري جنى وأنا المعاقب فيكو كأنني سبابه المتقدم

أبو الحسن الحصري

ومن الأديباء المشهورين أبو الحسن الحصري وهو الأديب الشاعر وهو ابن خالة أبي إسحاق الحصري وقد اشتهر أبو الحسن هذا بأدبه الجهم وكان عالما بعلوم الشريعة والآداب وعلوم القراءات هاجر إلى بلاد الأندلس ، واتصل بالمعتمد بن عباد من ملوك الطوائف ، وتوفي بمدينة طنجة سنة ٤٨٨ هـ : وهو صاحب القصيدة الشهيرة التي عارضها

جماعة من الشعراء فلم يبالغوا شعره فيها وهذه القصيدة هي :

باليل . الصب متى غده أقيام الساعة موعده
رقد السمار وأرقه أسف للبين يردده
فبـكاه النجم ورق له مما يراه ويرصده
كاف بغزال ذي هيف خوف الواشين يشرده

نصبت عيناي له شركا
وكفى عجباً انى قنص
صنم للفتنة منتصب
صاح والخمر جنى فيه
ينضو فى مقلته سيفاً
فيريق دم العشاق به
كلا ، لا ذنب لمن قتلت
يامن جحدت عيناه دمي
خداك قد اعترفا بدمي
انى لا اعيدك من قتلى
بالله هب المشتاق كرى
ماضرك لو داويت ضنى
لم يبق هواك له رمقا
وغداً يقضى أو بعد غد
يا أهل الشوق لنا شرق
فى النوم فعز تصيده
للسرب سباني أغيده
أهواه ولا أتعبده
سكران الالحظ معربده
وكأن نعاسا يغمدده
والويل لمن يتقلمده
عيناه ولم تقتل يده
وعلى خديه تورده
فعلام جفونك تجحده
وأظنك لا تتعمده
فلعل خيالك يسعده
صب يدنيك وتبعده
فليبك عاينه عوده
هل من نظر يتزوده
بالدمع يفيض مورده

أبراهيم بن القاسم

ومن الشعراء المجيدين هناك إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق
القيروانى الذى قال فيه ابن رشيق ونقله ياقوت الحموى فى معجم الأديباء
هو شاعر سهل الكلام محكمه لطيف الطبع قويه تلوح الكتابة على
ألفاظه ، قليل صنعة الشعر ... ومن شعره جوابا على أبيات كتبها اليه
عمار بن جميل وقد انقطع عن مجلس الشراب

قريض كابتسام الروض جشمه نسيم صبا
كعقد من جمان الطبل منظوم وما ثقبها
ومنتور كمنثر الدر من أسلاكه انسربا
فأهدى نشر زهرته فتيت المسك منتهبها
إذا أتماره جنيت جنيت العلم والأدبا
بهزل حين ينشده كأنك منتش طربا
فحسبك من أخ يرعى لك العهد الذي وجبها
صديق مثل صفو الماء بالصهباء قد قطبها
كنزت مودة منه كأنى أكنز الذهبها
إذا عد امرؤ حسبا فحسبى ذكره نسبها
ألد من الحياة لذي لى لكن قلبه قلبا
فإن عليه ما ألقى وظن تجلدى لعبا
جفوت الراح عن سبب وكان لجفوتى سببا
فصرت لوحدتى كلاً على الإخوان مجتنبها
وذاك لتوبة إمامت إن أفضى به أربا
فها أنا تائب منها فزرنى تبصر العجبا

وقد قدم مصر سنة ٣٨٨ هـ . بهدية إلى الحاكم بأمر الله . ومما قاله

من قصيدة يشوق فيها أخوانه بمصر

وما أنس من شىء خلا العهد دونه فليس بخال من ضميرى ولا فكرى
ليال أنسناها على غرة الصبا فطابت لنا إذ وافتت غرة الدهر
لعمري لأن كانت قصارا أهدها فلست بمعتد سواها من العمر

أخادع دهرى أن يعود بفرصة فينقذ روح الوصل من راحة الهجر
وترجع أيام خات بماهد من اللهو لاتنفك مني على ذكر
فكم لي بالاهرام أو دير نهية مصايد غزلان للمكايد والقفر
إلى الجيزة الدنيا وما قد تضمنت جزيرتها ذات المواخير والجسر
وبالمنس فالبيستان للعين منظر أنيق إلى شاطئ الخليج إلى القصر

أبو اسحاق الحصرى القيروانى

هو أبو اسحاق ابراهيم بن على بن تميم المعروف بالحصرى القيروانى
ولا تعرف بالضبط سنة ميلاده ولا السنة التي توفى فيها ، ورجح ابن
خلكان أنه توفى بمدينة القيروان سنة ٤١٣ هـ وبعضهم يقول انه توفى
سنة ٤٥٣ هـ . وقد كان من أكبر أدباء بلاد المغرب وشعراهم المعروفين
ومن أشهر كتبه المعروفة كتابه « زهر الآداب » الذي جمع فيه دروب
الآداب المعروفة من شعر بليغ مختار ، ونثر بديع وحكم عالية ؛ وكثير مما
جرى في المجالس والمحافل الادبية وقد اشتهر بهذا الكتاب لجمعه لضروب
الآداب كما قلنا . وهو مؤلف أعظم منه شاعرا أو كاتباً

ابن حمديس الصقلى

مولده ونشأته

ولد أبو محمد عبد الجبار بن أبى بكر بن محمد بن حمديس الأزدى
الصقلى سنة ٤٤٧ هـ فى جزيرة صقلية ، وفى سنة ٤٧١ هـ هاجر الى
أسبانيا وعاش فى أشبيلية وتوفى سنة ٥٢٧ هـ بجزيرة ميورقة . ولم يكده
يتنسم ريح الشباب حتى وقعت بلاده فى يد النرماندين ، الذين لم تكده

تطأ أقدامهم تلك الجزيرة حتى نكلوا بأهالها كل تنكيل ، وأذاقوهم
العذاب الأليم ، وحملوهم على ترك دينهم ، وفتكوا بأعراضهم ، وأذلوهم
وأهانوهم في شرفهم . فشهد ابن حمديس ذلك ورأى بعينه كيف تسلب
الاطوان من أهلها ، وكيف يجرؤ القوي على سلب حقوق الضعيف ،
وينقض عليه كما ينقض اللص ذوالقوة والطول ، على الضعيف السليب
من كل قوة وحول

لذلك أثر الهجرة على البقاء بين قوم اغتصبوا بلاده . وكان لهذا
أثر عظيم في نفسه وخياله الشعري وأخلاقه ، حتى أصبحت نفسه من
النفوس المظلمة ، وصدره من الصدور المنقبضة ، واستولى عليه البؤس
بسبب هذه الحوادث :

فهاجر إلى أسبانيا ونزل بأشبيلية ، وعاش في حاشية المعتمد بن
عباد وصار في جملة شعرائه ، وتبعه في منفاه . ولم يكن ابن حمديس
معروفا عند قدومه إلى أشبيلية . فقد قال :

« أقمت بأشبيلية لما قدمتها على المعتمد بن عباد مدة لا يلتفت إلى ،
ولا يعبا بي ، حتى قنطت لخيبتي مع فرط تعبي ، وهممت بالنكوص على
عقبى . فاني لكذلك ليلة من الليالي في منزلي إذ بغيلام معه شمعة ومركوب ،
فقال لي أجب السلطان . فركبت من فوري ودخلت عليه فأجلسني
على مرتبة فنك^(١) ، وقال لي افتح الطاق التي تليك ، ففتحتها ، وإذا
بكور زجاج على بعد والنار تلوح من بابه ، وواقدة تفتحها تارة وتسدها
أخرى ، فحين تأملتها . قال لي أجز .

انظرهما في الظلام قد نجيا . فقلت : كما رنا في الدُّجْنَةِ الاسد

(١) دابة فروتها أطيب أنواع الفراء

فقال : يفتح عينيه ثم يطبقها . فقالت : فعل امرىء في جفونه رمد
فقال : فابتزه الدهر نور واحدة . فقلت : وهل نجا من صروفه أحد
فاستحسن ذلك وأمر لي بجائزة سنوية وألزمي خدمته^(١) .

أما نفسه فنفس رجل ربتة الحوادث ونالت منه الايام . وأذاقته
مرها قبل حلوها . فتلقت عليه الحياة وثوت من ظهره بعد أن أخرجته
من وطنه ، وليس له إلا لسانه وخياله . وقد كان لبلاده أثر طيب في نفسه
ومنزلة رفيعة وسبب جهم . فلما اضطر إلى الهجرة والنزول في غير أهله
تعمت نفسه وأظلمت في وجه الدنيا وكثر حنينه إلى بلده ، وصار
ذلك من أظهر صفاته النفسية مهما حاول الخروج منه إلى وصف الملمات
أو التظاهر بالمسرات . ولقد يلمح الانسان هذا في كل شعره حتى في
الغزل والخمرات والمدح والوصف .

شعره وكان ابن حمديس ميالا إلى ادراك الاشياء والمعاني إدراك من
يحاول فهم ما يرى ويفكر فقد كان يرغب دائما في تشبيه المحسوسات
بالمعقولات ، والمعقولات بالمحسوسات . وهذه طريقه من طرق المحاولة
في الادراك . وأكثر اهتمامه في تشبيهاته موجه إلى وصف المرئيات
وإدراكها . ولقد تظهر حركة عقله عند قراءة شعره بسبب انتقاله من
معنى إلى آخر ، ومحاولة الخروج من طريق واحد إلى طرق متشعبة .
أما قوته الشعرية التي كون بها هذه الاشياء ووضعها في أسلوب
خيالي جميل فتابعه لنفسه وعقله ، وأكثر اعتماده في ذلك على ما اكتسبه
من التأثير بطواهر الاشياء وما فيها من التشابه بالجمال

وعلى الرغم من صبغته الجدية في شعره ، فان كثرة كلامه في الخمر
ومجالسه والعشق وآثاره ، تدل على أنه كان يميل إلى شيء من المجون ،
ولكنه كان أقل من غيره في ذلك ، فان الانسان لا يكاد يرى لتهتك
أثراً في كلامه . ولولا أنه عاش في هذا العصر وفي حاشية المعتمد بن عباد ،
لقلنا إنه كان بعيداً عن اللهو والمجون . ولحملنا شعره الذي جاء في هذا
على نوع من الصناعة والخيال ، إذ أننا نجد في كثير من شعره يميل
إلى الكلام في المواقظ والعبء ، أو إلى بعض الآراء التي تدل على أنه
كثيراً ما كان يدفعه الفكر إلى خوض المعاني النفسية أو الخواطر
الفلسفية ، ويمزج هذه الأفكار ويصوغها في أنواع شعره . ويظهر من
شعره أنه أكثر تأثراً بالمعاني الاجتماعية . ولهذا أيضاً راه شاعراً مفكراً
من أصحاب الملاحظات والنظر في الحياة والاجتماع أكثر منه شاعراً
وصافاً كما هو معروف عنه . ويمكن الاستدلال من هذا على تربيته العقلية
وحالته الفكرية .

وقد أبدع في هذا الشعر الجدي المملوء بالعبء والحكم كما دل على أنه
مفكراً أكثر منه خيالياً لاشتمال شعرة على جولات فكرية مملوءة
باحواله النفسية ، والآلام التي يشعر بها ، وكثيراً ما تظهر هذه الآلام
آلاماً لجميع الشاكين والمتألمين من الحياة . كما تظهر آلام العاشق الشاعر
آلاماً لكل العاشقين . لذلك كان ابن حمديس شاعراً نفسياً ناقماً على
الحياة وما فيها متشائماً :

هل أقصر الدهر عن تعنيت ذى أدب؟

أو قال حسبي من إخمال ذى حسب؟

لا يلاحظ الحر إلا مثلما وقعت

على أخي سيئات عين ذى غضب

وكيف يصفولنا دهر مشاربه

بخوضها كل حين جحفل النوب

إن الزمان بما قاميت شيبني

ولم أشيبه : هذا والزمان أبي

ولو خلا الدهر ذوالانباء، من عجب

أكثرت منه ومن أنبائه عجب

قرأت وحدي على دهرى غرائبه

فما أعاشر قوما غير معترب

أحلت عزمي على همي فقطعه

كأن عزمي على صمصامتي الذرب

ما قربني السير في سهل ولا جبل

إلا كما قرجارى الماء في صبيب

ولم أضق في السرى ذرعا بمعضلة

قد زاحمتني حتى ضاق مضطربني

وترتقى حر أنفاسي فابعثه

برداً، وإن كان مستبق من اللهب

وأحر بالحر أن تلقاه ذا جاد

وإن تبطن داء قابل الوصب

ولقد تنقبض نفسه، فتحرك خياله حركة البائس الذي ينظر إلى

الأيام نظر الحاقد، ويعدد مساوئها ويندب أوقات الشباب، وكأنه

واقف على أبواب الموت يودع الحياة ويطلب المغفرة من الله، ذلك

وهو في حالة كآبة، نفسه متأثرة بهذه الخواطر : كما قال :

وعظت بلمتلك الشائبة

وفقد شبيبتك الذاهبة

وسبعين طاماً ترى شمسها

بعينك طالعة غاربة

فويحك أهل عبرت ساعة

ونفسك عن زلة راغبة

فرغت لصنعك ما لا يقينك

كأنك عاملة ناصية

وغرتك دنياك إذ فوضت

إليك أمانيتها الكاذبة

أصاحبة نخلتها ؟ انها باحداتها، بثست الصاحبة
أما سلبت منك برد الشباب فهل يستر من السالبة ؟
وان دقائق ساعاتها لعمر ك آكلة شاربة
وان المنية من نحوها عليك باظفارها واثبة
ألم ترها بحصاة الردى لكل حميم لها حاصبة ؟
كان لنفسك مغنيطسا غدت الذنوب به جاذبة
فيا حاضرأ أبدا ذنبه ونوبته أبدا غائبة
أذب منك قلبا تجارى به سواكب عبرتك الساكبة
على كل ذنب مضى فى الصبا وأتعب إثباته كاتبة
عسى الله بدرأء منك العقاب وإلا فقد ذمت العاقبة

ولابن حمدىس صبغة خاصة فى شعره ليست مغروفة كثيرا فى الشعر العربى : وهى محاولة الخروج من الواجدانيات التى هى أكبر مظاهر الشعر العربى ، إلى الكلام مما يجول بالنفوس ، لا من جهة الخيال وما به من الجمال لا غير ، بل من جهة التفكير أيضا ، وما يمر بنفس الانسان وما يشعر ويحس من حوادث الحياة وأشكالها ، وما يعتريه من أحيرة وشك ويقين ، وكراهة للوجود أحيانا ، وميل إلى البقاء تارة . ذلك بعرض صور الحوادث المؤلمة التى تزهد فى الدنيا وتنفر الانسان من رؤيتها ، وتلك بوصف أوقات الانس ولحظات السرور من حسن الذكر كوصف مجالس اللهو والطرب والخمر ولذتها ، والجمال وأثره فى النفس ، وغير ذلك من أصنى وجوه الحياة وأجمل صورها . فهو فى كل أنواع شعره جاد لاما زح . ولذلك تجدد أثر فكره

وحركة عقله في كل كلامه ، وتشعر بنفسه المفكرة إذا قرأت شعره ، كما تشعر بتلك الحيرة التي هي أصل كل تفكير ، وكما تشعر بسعة خياله الشعري . وإذا اجتمعت قوة الفكر وسعة الخيال لانسان كان من أكبر الشعراء ، فاذا كانت حاسته النفسية التي هي رقة شعوره قوية أيضاً كان في مقدمة الشعراء . كل ذلك في شعر ابن حمديس . فهو شاعر نفسي في مقدمة شعراء العرب المفكرين وقد بين في شعره ما تنطوي عليه نفسه : ولكن لا بصفته الشخصية الفردية ، بل بصفته انساناً أمثاله كثيرون . وإذا كان كثير التفكير في ظلمات الحياة ووجوهها العابسة ، وميالا الى التأمل في ذلك : أكثر من التفكير والنظر في وجوهها النضرة الباسمة ولكن غلبت على شعره صبغة التشاؤم . أكان كذلك لأن نفسه كانت مريضة وأعصابه مضطربة ؟ قد يكون هذا . وربما كانت رقة شعوره تقود عقله وتملك منه إدراكه ، ولقد كان أغترابه عن وطنه ونزوح الأعداء إليه ووقوعه في غير قبضة أهله من الأسباب التي أثرت في نفسه واستولت على عواطفه : فكان يشعر بضيق ويكره الحياة وينحى باللوم على نفسه وينهرها . ولكنه لم يكن في ذلك فيلسوفاً ، بل كان يميل الى أمثال أفكار المتوضفة في لوم النفس والنيل منها . ولقد كانت تملكه هذه العاطفة أحياناً عاطفة الندم أو توبيخ النفس فيرى نفسه ذليلاً حقيراً ، وكأنه يبكي على ذنوبه وهو حزين كئيب . ولكن ما أجمل حزنه الشعري وأرقه في هذا الأنين . حيث يقول :

ياذنوبى ثقلت والله ظهري بان عذرى فكيف يقبل عذرى
كلمات ساعة عدت أخرى لضروب من سوء فعلي وهجرى

ثقلت خطوتي وفودي تفرى غيب الليل فيه من نور فجرى
رب موت السكون في حركاتي وخبا في رماده حجر جبرى
وأنا حيث سرت آكل رزقي غير أن الزمان يأكل عمري
كلما مر منه وقت بربح من حياتي وجدت في الربح خسرى
يارفيقا بعبده ومحيطا عامه باختلاف سرى وجهرى
هل بقلبي الى صلاح فسبدي منه ، واجبر برأفة منك كسرى
وأجرني بما جناه لساني وتناجت به وساوس فكرى
أو كقوله وهو يفكر في نفسه وحياته وكأنه متصوف، ولكنه

مع ذلك شاعر جميل القول :

كملت لى الخمسون والخمس ووقعت في مرض له نكس
ووجدت بالاضداد من جسدى غصنا يلين وقامة تقسو
وتنافرت عني الحسان ، كما لحظ الهصور جآذر جنس
وأبيض من فودي من شعرى وحف كأن سواده النقس
والعمر يذبل في منابته غرس ويلبس نضرة غرس

إلى إن قال :

وأقل ما يبقى الجدار اذا مأنهد تحت بنائه الأس
يارب ان النار طابئة ولكل سامعة لها حس
لا تجمعان جسدى لها حصبا فيه تحرق منى النفس
وارفق بعبد لحظه جزع يوم الحساب ونطقه همس
وكقوله في الشكوى :

أسامنى الدهر للرزايا وغير الحادثات قفشى

وكنت أمشى ولست أعيا
فصرت أعيا ولست أمشى
كأني إذ كبرت أسر
بطعمة فرخه بعش
ومن دعاياه في ذللا :

نومي على ظهر الفراش منغص
والليل فيه زيادة لاتنقص
من عاديات كالدئاب تذاءبت
وسرت على عجل فما تتربص
جعلت دمي خمرا تداوم شربها
مسترخصات منه مالا يرخص
فترى البعوض مغنيا برابة
والبق تشرب والبراغث ترقص
وكانت تنور نفسه ثورانا وتغلي غليان المرجل فتنتطق بالشعر
وكانه زاهد في صومعة . أو ناسك في ديراوتقى من كبار التقاة فيقول :

بيتك فيه مصرعك
وفي الضريح مضجعك
غرتك دنياك التي
لها سراب يخذعك
همت بحب فارك
وقلما تمتعك
يضرك الحرص بها
والزهد فيها ينفعك
لا تأمن منية
إن عصاها تقرعك
مغربك القبر الذي
يكون منه مطلعك
إن فرقتك تربة
فأله سوف يجمعك
وللسحاب موقف
أهواله تروعك
كم جرما أشفقت من
لمسك منه أصبعك
فكيف بالنار التي
من كل وجه تلذعك
يراك ذو العرش إذا
ناديته ويسمعك
فتق به ولا يكن
لغيره تضرعك

وقد تجول نفسه جولات في ذكر أيامه الماضية ، فيذكر كل ما يخطر بباله ، ويسطر الماضي كما يسطر الكاتب مذكراته في كتاب ، أو كما يرسم المصور صورة من ماضيه على اختلاف أحواله . وهو يخرج من معنى ليدخل في معنى آخر بين جد وهزل ، ولكن كل ذلك بصيغة الرجل الجاد المفكر ، وكأنما تمر أمام القارئ سلسلة حوادث ، أو صور جميلة يتمتع بها ويتعظ منها . قال في إحدى هذه القصائد :

قضت في الصبا النفس أوطارها	وأبلغها الشيب إنذارها
نعم وأجبلت أقداح الهوى	عليها فقسمت أعشارها
وما غرس الدهر في تربة	غراساً ولم يجن أثمارها
فأنيت في الحرب آلاتها	وأعدد للسلم أوزارها
كيتا لها مرح بالفتى	إذا حث باللهو أدوارها
تناولها الكوب من دنها	فتحسبه كأس مضارها
وساقية زورت ككفها	على عنق الظبي أزرارها
تدير بياقوتة درة	فتغمس في مأها نارها
وفتيان صدق كزهر النجوم	كرام النجائر أحرارها
يديرون راحات فيض الكؤوس	على ظلم الليل أنوارها

ثم أخذ في وصف دير وصاحبه وما عندها من خمر ، وأبدع في وصف الخمر بابتكارات عجيبة ، وخيالات غريبة . ووصف ما فيه من ملاح وقيان ترقص وتغني ، وهو يقص ذلك ويحكى حكاية ، وكأنك جالس في ذلك الملهى ترى خطرات الراقصات وتسمع أصوات الغناء ، ولقد تشعر بشدة تمكنه من صناعة الشعر ودقة وصفه وسهولة

أسلوبه . قال .

وراهبة أغلقت دبرها . فكنا مع الليل زوارها
هدانا إليها شذى قهوة تذيع لأنفك أسرارها
طرحت بميزانها درهمي فاجرت من الدن دينارها
تفرس في شمها طيبها مجيد الفراسة فاخترها
فتى دارس الخمر حتى درى عصير الخمر وأعصارها
يعد لما شئت من قهوة سنيها ويعرف خمارها
وعدنا إلى هالة أطلعت على قضب البان أقارها
يرى ملك اللهو فيها الهوم تنور فيقتل ثوارها
وقد سكنت حركات الأسي قيان تحرك أوتارها
فهذي تعانق لي عودها وتلك تقبل مزمارها
وراقصة لقطت رجلها حساب يد نقرت طارها
وقضب من الشمع مصفرة تريك من النار زوارها
كان لها عمداً صفت وقد وزن العدل أقطارها

ثم غلبه الوجد فذكر وطنه في حزن وألم فقال

ذكرت صقلية والأسي بهيج للنفس تذكراها
ومنزلة للتصابي حلت وكان بنو الظرف عمارها
فان كنت أخرجت من جنة ذاتي أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكاء حسبت دموعي أنهارها

وشكى في قصيدة طويلة آلامه فذكر صبره على ذلك ، وذكر
غربته ، وهجر وطنه ، وأن ذلك كان من أكبر محنه . ثم ذكر شكاته

من الناس وهو يضرب الأمثال في أثناء ذلك ، وفيما لاقى من الأهوال
بانفراده في عزلته حتى عن خيال كان يزوره . ثم أخذ يتسلى بمدح
نفسه ويتغنى بفضائها الجلم وذكر ليااليه الماضية ، وعرج على ذكر وطنه
ونكبة بلاده باستيلاء الأعداء عليها وأخذ يصف أهل بلده ، وماكن
لهم من صفات الكمال والشهامة ومنازلة الحرب بأفضل وأجمل ما يصف
شاعر قوما يعتز بهم ، ويشرف بالانتماء اليهم . وختم كلامه بالحنين إلى
وطنه ، والبكاء على أهله . فقال :

تدرعت صبرى جنة للنوائب فان لم تسالم يازمان فحارب
عجبت حصاة لاتلين لعاجم ورضت شموسا لا يذل لراكب
كأنك لم تقنع لنفسى بغربة إذالم أنقب في بلاد الأغارب
فطمت بها عن كل كأس ولذة وأنفقت كثر العمر في غير واجب
يبيت ريش العضب في ثني ساعدي معاوضة من جيد غيداء كاعب
وما ضاجع الهندي إلا مثما مضاربه يوم الوغى في الضرائب
فكنت وفدى في الصبا مثل قدره عهدت إليه أن منه مكاسبي
فان تك لي في المشرفي مآرب فكم في عصي موسى له مآرب

ثم أخذ يتكلم عما في نفسه من ذكرى الحوادث الماضية ، وخيانة
الناس والأيام ، وهو يتمثل أثناء الكلام ببعض الحقائق المعروفة للناس
جميعاً لينتبت بها معانيه ويجسمها للقراء . ولم يخرج في مجموع أسلوبه عن
الأسلوب العربي المعروف من كثرة استعمال المجاز والغموض في بعض
العبارات ، وذكر الراكب والرجل والنوى وركوبه القلاص وهزها . كقوله :
أتحسبني أنسى ومازلت ذاكرًا خيانة دهري أو خيانة صاحبي

تغذى بأخلاق صغيراً ولم تكن
ويارُبُّ نبت تعترية مرارة
عامت بتجريبي أموراً جهلتها
ومن ظن أمواه الخضاريم عذبة
ركبت النوى في رحل كل نجبية
ولما رأيت الناس يرهب شرم
وعجيب تلك العادة التي أبتلى بها الشعراء في مدح أنفسهم مدحا
يخجل منه القارىء فكيف بالشاعر وهو يضع نفسه فوق كل شيء؟
هل هذا من الاماليب الشعرية؟ لعله من وسائل التسليمة، على ما فيه
من المبالغة والتغنى بمدح النفس. ولكن مهما يكن من شيء في هذا
فإنها بدعة عجيبية في الشعر العربي وأسلوب غريب.

و بينما الشاعر يكيل لنفسه المدح كيلا، ولا يقنع بشيء منه تراه
فجأك بذكر الخمر ووصفها ومدحها. وأنتك لتكاد تشمل من ذلك،
وإذا هو ينتقل إلى الكلام في وطنه ويذكر بلده ويمدح أهله. فيقول
ولى في سماء الشرق مطلع كوكب
متى تسمع الجوزاء في الجو منطقي
وكم لي به من صنو ود محافظ
أخي ثقة لادسه الراح والصبيا
ممتقة دع ذكر أحقاب عم رها
إذا خاض منها الماء في مضمحل الحشا
ولو أن أرضى حرة لايتها

جلامن طلوعى بين زهر الكواكب
تصخ في مقالى لارتجال الغرائب
لذى العيب من أعدائه غير طائب
له من يد الأيام غير سوالب
فقد ملئت منها أنامل حاسب
بدا الدر منها بين طاب وراسب
بعزم يعد السير ضربة لازب

ولكن أرضي كيف لي بفكاكها من الأسر في أيدي العلو ج الغواصب
إلا في ضمان الله دار ينطوي ودارت عليهم معصرات الهواطب
أمنها في خاطري كل ساعة وأمر لها قطر الدموع السواكب
أحن حنين النيب للموطن الذي مغاني غوانية إليه جواذب
ومن يك أبقى قلبه رسم منزل تمنى له بالجسم أواية آتب

هذا خلط في تركيب القصيدة ، ولا كنهه خلط معهود عند شعراء
العرب ، فالقصيدة من هذه الوجهة من الشعر العربي الجميل . على أن
هذا شاعر عرف كيف يتكلم عن شعور ، وكيف يطبع نفسه حين
تدفعه إلى الكلام ليصور خفاياها ويبين مكنوناتها .

وله في الوصف براعة معروف ، واستحضار عجيب لصور
الأشياء والتشبيهات ، ودقة في جمع الأشياء وتنسيقها ، كأنما تراه
يجمعها وينسقها بيده ، أو كأنه يغوص على المعنى الخفي فيأتي به ويضعه
في موضعه . ولقد يتكافأ أحيانا جمع هذه المعاني ، حتى كأن كل كلمة
اختطفت من مكانها لتوضع في مكان آخر : ولا كنهك تراها كالعقد
يؤخذ من عنق الحسناء إلى عنق الغانية ، فلا يفقد قيمته ولا نضارته
أو كأنك وأنت تقرأ كلامه ترى بعينك ما يصف وتحس ما يقول :

كما في قوله يصف شمعة :

قناة من الشمع مركوزة لها حربة طبعت من لهب
تحرق بالنار أحشاها فتدمع مقلتها بالذهب
تمشي لنا نورها في الدجى كما يتمشى الرضى في الغضب
عجبت لآكلة جسمها بروح نشاركها في العطب

وكما قال يصف ساقية:

وساقية تسقى الندامى بمدها كؤوسا من الصهباء طاغية السكر
يعود فيها كل جام كأنما تضمن روح الشمس في جسم البدر
إذا قصدت منا ندما زجاجة تناولها رفقا بانمله العشر
ويرسلها في مائها فيعيدها إلى راحتي ساق على حكمه تجرى
ولأنه كان ذا شعور قوى ونظر ثاقب، لا يكاد يشعر بشيء إلا ذكره
في شعره، ولأنه كان متمليا عينه بمنظر إلا وصفه كأنه كان مملوءا بذلك،
أو كأن هذه كانت كل حياته، لذلك كان يقول في المعنى الطريف،
كما يقول في المعنى المبتذل. ولكن الابتذال يضيع أمل شعوره بالجمال
وحسن صناعته.

ولأنه كان تقف له على غور في الوصف، ولا على أسلوب واحد
لأنه يميل إلى الاختراع: ويصف الصيد والليل، ويذكر رفاقه، ثم
يعرج على السرور والكلام في الخمر، ثم يرجع إلى الطبيعة، فيحن إليها
ويصف طلوع الصبح ثم يصف الخيل وكلاب الصيد وحر كاتها ووثباتها
وكثيرا ما يكون وصفه حقيقيا، أكثر منه خياليا كأنما يرسم ما يرى.
كما قال:

وليلة حالكه الأزار مدت جناحا كسواد القار
تحجب عنا غرة النهار عقرت فيها الهمم بالعقار
بجسم ماء فيه روح نار في مجلس ضم بنى الفخار
كهالة تضحك عن أقمار تراجمت بانجم درارى
من كل نمر في حى الدمار مهين مال ومعر جار

يُسْقَوْنَ مِنْ ساطعةِ الانوارِ كثيرةِ الأسماءِ والاعمارِ

الى ان قال .

قنا لنتنى عرض الخمار
عن جوهر الأُنفس في الصحارى
بكل طرف سحاب مطار^(١)
موجه الاقبال والأدبار

الى ان قال :

فمر بي غيم من الغبار
كأنما يطلبه بثار
يحذفه يبرمع صغار
من ابن ريح في قيص نار
فلو ترانا في انتزاح الدار
فأكل من صيد أبي العقار
يشكل فيه أحرف الآثار
ماذا يريد الظبي بالفرار
حذف المولى باليد اليسار
وهو مع الاجهاد والاضرار
في روضة كالغادة المعطار
وتشرب للصهباء بالكبار

ما كنت إلا خالغ العذار

ويصف مجلس أتس وما يدور فيه ، فتجده ينسى أحيانا نفسه
المظلمة ، ويكعب على اللهو والمجون وكأنه من أكبر رجاله ، ويذكر
العبارات التي تدعو إلى الخوض في غماره ، وإلى انتهاز هذه الأوقات
حتى بعد فوات الشباب الذي يبكي عليه ، بما لا يكون أرق منه ولا
أدعى للحسرة وهو يتنفس الصعداء ، ويسلى نفسه بهذا الكلام ،
ووصف هذه المجالس ، ثم يرجع على نفسه بالعبرة والعظة أو تعود إليه
نفسه المتشائمة أثناء هذا الهرج والمرج ، فيفريق من ثورته سروره ومجونه
ويذكر أنه وصاف وصانع من صناع الكلام ، وأنه ليس من أهل هذه

(١) سحاب طوين عظيم ومطار عداء مريح السير

المجالس ، ولا من شراب الخمر ، ويرجع إلى التقوى والندم على الذنوب
فيقول

حبذا فتيان صدق عرسوا بعدارى من سلافاً الخمر
عَرَبَدَ الصَّحْوُ عَلَيْهِم بِالْأَسَى فاتقاه السكرُ عنهم بالسرور
عَمَّرُوا رِبْعَ الصَّبَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يتمشى فيه بالشيب دثور
إِنْ لِلْأَعْمَارِ أُعْجِبَ إِذَا إِذْ باغت لم تن منهن صدور
كُلُّ نَافِيٍّ الْعَمْرِ فِي شِرَّتِهِ للصبأ نار وفي الوجنة نور
يَقْتَنُونَ الْعَيْشَ مِنْ قَانِيَةٍ ذات عمر كثرت فيها الدهور
أَطْلَعُ بِالسَّاقِ عِشَاءَ مِنْهُمْ أنجم الكاسات في أيدي البدور
عَدَّ بِالْأَكْوَابِ عَنِي إِنْ لِي في يد الآنس عنهن نفور
عَمَّرَ الشَّيْبُ الدَّجِيَّ مِنْ لَمَّتِي بنجوم طلع ليست ثغور
لَا نَشُورَ لَشِبَابِي بَعْدَ مَا مات من عمري إلى يوم النشور
وَخِضَابَ الشَّيْبِ لَا أَقْبِلُهُ إنه في شعري شاهد زور
أَنَا مِنْ وَجْدِي بِأَيَّامِ الصَّبَا أذرف الدمع رواحاً وبكور
فَكَأَنِّي ذُو غَلِيلٍ تَلْتَضِي لوعة منه إلى ماء الثغور
أَصْفَ الرِّاحِ وَلَا أَشْرِبُهَا وهي بالشدوعلى الشرب تدور
كَأَنِّي بِأَمْرِ الْبُكَرِ وَلَا يصطلي نار الوغى حيث تغور
فَسِوَاءَ بَيْنِ إِخْوَانِ الصَّفَا وذوى اللهم مغيبى والحضور
أَنَا مِنْ كَسْبِ ذُنُوبِي وَجَلَّ وإن استغفرت فالله غفور
وقد اشتهر بوصف القصور كما قال :

كم شاخص فيه يطيل تعجبا
عجبا لها، تسقى الرياض ينابعا
خصبت بطائرة على فنن لها
قُبس الطيور الخاشعات بلاغة
فاذا أتيج لها الكلام تكامت
وكأن صانعها استبد بصنعة
أرقت على حوض لها فكانها
فكانها ظنت حلاوة مأها
إلى أن قال :

كم مجلس مجرى السرور مسابقا
يجلود ما على الحدود ملاحه
فسماؤه في سمكها علوية
وكقوله :

وإذا نظرت إلى غرائب سقفه
وعجبت من خطاف عسجده التي
وضعت به صناعة أقلامها
وكانما للشمس فيه ليقه
وكانما للأزورد مخـرم
وكانما وشوا عليه ملاءه
يامالك الأرض الذي أضحي له
أبصرت روضاً في السماء نصيرا
حامت لتبني في ذراه وكورا
فأرتك كل طريدة تصورا
مشقوا بها الزويق والتشجيرا
بالخط في ورق السماء سطورا
تركوا مكان وشاحها مقصورا
ملك السماء على العداة نصيرا

كم من قصور الملوك تقدمت واستوجبت لقصورك التأخيرا
 فعميتها وملكت كل رئاسة منها، ودمرت العدا تدميرا^(١)
 وقد يتغزل فيخاطب حبيبته بما في نفسه من ألم، وما يلاقيه في
 سبيلها من شماتة الأعداء، وما يتمناه من الصبر في سبيل ذلك. ثم
 يستحافها بما لها من الدلال أن تكف عن أسر قلبه. وهو يستعطفها
 ويدل في آن واحد. فيقول:

عذبت رقة قلبي	ظلما بقسوة قلبك
وسمت جسمي سقما	وما شفيت بطبك
أسخط كل عدو	رضيته لمحبيك
من لي بصبر جميل	على رياضة صعبك
فيالتشوق بعبدي	إلى تنسم قربك
ووجنة غمستها	في الورد صنعة ربك
لقد جنحت لسامى	كما جنحت لحربك
فبالدلال الذي زاد	في ملاحه عجبك
فكى من الأسر قلبا	عليه طابع حبك
ونعميني بعثي	فقد شقيت بعثك

ويمدح على الأسلوب المعروف من حيث البدء بالنسيب. وقد
 يطيل في ذلك، وربما لم يكن له ميزة في غير الأسلوب، وربما كان
 مدحه كغزله، ولكنه مدح جميل على الرغم مما يشعر به القارئ من
 الثثرة. غير أن المعاني تنهال عليه انهيالا فيعذب الكلام. كما قال:

(١) راجع القصيدة في الديوان المطبوع في رومه ص ٤٨٢

غَيْرُتَهُ غَيْرُ الدَّهْرِ فَشَابَ وَرَمَنَهُ كُلَّ خُودٍ بِاجْتِنَابِ
فَعَدَا عِنْدَ الْغَوَانِي سَاقِطًا كَسَقُوطِ الصَّفْرِ مِنْ عَدَا الْحِسَابِ
وَتَوَلَّى عَنْهُ شَيْطَانُ الصَّبَا إِذْ رَمَاهُ الشَّيْبُ رَجْمًا بِشَهَابِ
وَكَأَنَّ الشَّعْرَ مِنْهُ مَسْعَفٌ يَلْتَضِي فِيهِ شِوَاظُ ذُو الْتِهَابِ
أَيُّهَا الْمَغْرِي بِتَأْنِيْبٍ شَجِجٍ سَلَطَ الْوَجْدَ عَلَيْهِ هَلْ أَنْابِ
هَامٌ لَاهَمْتُ مِنَ الْغَيْدِ بِمَنْ حَبَّهَا عَذْبٌ ، وَإِنْ كَانَ عَذَابِ
لَمْتُ لَا لَمْتُ عَمِيْدًا قَلْبِهِ عَنْ سَمَاعِ اللُّومِ فِيهَا ذُو انْقِلَابِ
وَالهَوَى بَاقٍ مَعَ الْمَرْءِ إِذَا كَانَ مِنْ عَصْرِ الصَّبَا عِنْدَ ذَهَابِ
بِأَبِي مِنْ أَقْبَلْتُ فِي صُورَةٍ لَيْسَ لِلتَّائِبِ عَنْهَا مِنْ مَتَابِ
كُلَّ حَسَنِ كَامِلٍ فِي خَلْقِهَا لَيْتَهَا تَنْجُو مِنَ الْعَيْنِ بِعَابِ
فَالْقَوَامِ الْغَصِينِ . وَالرَّدْفِ النِّقَا وَالْإِقَاحِ الشَّغْرِ ، وَالطَّلِ الرِّضَابِ
ظَلِيْبَةٍ فِي الْعَقْدِ إِمَّا التَّفْتَمْتُ وَمَهَاةٍ حِينَ تَرْنُو فِي النِّقَابِ

ويذكر الخمر وكان الناس جميعا سكارى ، وفي كل رأس نشوة
وحيرة . وكان الخمر حلالا لا حرام ، أو كأنها أكل شيء في الوجود ،
لأنه يصفها بأكل الصفات وأجمع سمات السكّال واللذات : ويحيل إلى
لأنسان أنه لم يبق كلمة تمت إلى الخمر بقراءة الا ذكرها ، أو معني يدب
في النفس بديبها لإقاله ، والقاريء يشمل بذكر الخمر كما يشمل بأسلوب
الشاعر وعذوبته ، وكان أحدا لم يقل مثله في ذلك كما قال .

يجسم له من غيره روح لذة

سليل ضروع أرضعت حلب السحب

م - ١٥ أدب

إذا قبض الأبريق منه سلافة تقسمها الشراب حولية بالقعب
شربنا وللأصباح في الليل غرة تريد اندماجا بين شرق الى غرب
على روضة تحيا بحية جدول يفيء عليه ظل أجنحة القضب
بأزهر يجلو اللهو فيه عرائسا كراميتها أيدي الكرام من الشرب
كأن لها في الخمر خمرة غلائل مزررة الأطواق بالؤلؤ الرطب
وكم من كميت اللون تحسب كأسها لها شفة لعساء ذات لمى عذب
إذا مزجت لانت لنا وتحولت

باخلاقها عن قسوة الجامع الصعب
جرى في عروق النار ماء كأنما رضى السلم عنها يتقى غضب الحرب
وإن نال منها ذو الكتابة شربة تسربت الأرواح منه إلى القلب

أسلوب ابن حمديس

إذا تأمل القارىء ما ذكرناه وما سقناه من شعر ابن حمديس عرف
أسلوبه الفكرى وأسلوبه البياني . أما أسلوبه في التفكير فيظهر من
هذا الاضطراب الفكرى والقلق النفسى ، الذى يدفعه إلى محاولة
التعبير عما يجول بنفسه من جسد وهزل وجمال الحياة وخيرها
وشرها .

تنساب عليه المعانى أنسيابا وتتراحم عاياه فيرصفها رصفا وكأنه
كان يخشى عليها ، من أن تفر من ذاكرته فيقيدها قبل شرودها . ومن
هنا كانت كثرة المعانى المختلفة فى القصيدة الواحدة وأطرقه موضوعات
متضادة كالزهد والتقوى وكوصف الخمر والمجون .

وإنما كلف غرضه الاستعانة بالبلاغة على إبراز مافي نفسه أو مشاهداته في الحياة .

أما أسلوبه البياني فيكاد يكون من السهل الممتنع ليس فيه غموض ولا تكلف ، ولا فقععه في الألفاظ ولا محاكاة لغيره . وتكاد تجده في كل كلامه أن المعنى لا يزيد على اللفظ وأن اللفظ لا يزيد على المعنى وإذا جاء فيه شيء من استعاره أو كناية أو تشبيه ، فقد يجيء عنوا أو قصدا ولكن بدون تكلف .



الأدب العربية بمصر

من سنة ١٢٢٠

حالة اللغة قبل ذلك العصر

أنى على اللغة العربية وآدابها عصور مختلفة اختلفت فيها منزلتها قوة وضعفاً ، ورفعة وانحطاطاً ، على حسب الحوادث السياسية والاجتماعية : فان التاريخ الاسلامى من أكثر تواريخ العالم اضطراباً ونقلاً ، والامم الاسلامية أكثر الامم اختلافاً فى الاحوال الاجتماعية . فقد دخل فى الدين الاسلامى أمم مختلفة فى عاداتها وأخلاقها . وكثير منها استولت عليها الاطماع وتطلعت نفوسها الى الملك ، فكان من جراء ذلك حروب متوالية ودول متداولة بعضها يعمل على رقى اللغة وبعضها كان يجهلها فلا يساعد على انهاضها . ثم كان لاختلاف هذه الامم أثر فى اختلاف اللهجات ، وتسرب الدخيل فى العبارات والاساليب : اذ أصبحت اللغة العربية لغة لكل هذه الامم فلم تثبت على حال واحدة ولم تسكن فى قطر واحد أو اقليم واحد : ولو أنها كانت ولا تزال لغة الدين ، والمسلمون فى جملتهم أشد الناس تمسكاً بدينهم لتعددت لهجاتها بتعدد الامم التى أصبحت تتكلم بها

وقد كانت الحلة العقلية فى العصر الاسلامى الأول مصيبة رغبة بصيغة عربية اسلامية . يتنازع كل منهما الآخر فى السلطان والجاه . فبينما كان الروح العربى يسود العالم الاسلامى زمن بنى أمية والعصبية العربية

تسود كل شيء وتمثل الروح البدوية القديمة في ثوب اسلامي جديد
والنعرة العربية تظهر في كل أثر من آثار الحياة الاجتماعية والسياسية
لدى الخلفاء والأمراء في مجتمعاتهم ومراسلاتهم وأحاديثهم وخطبهم
وآدابهم شعرا ونثرا كان الروح الدني يستولى على عقول المسلمين ويقود
منهم ماكة التفكير وتملك كل المظاهر العقلية في العلوم والفنون والعقائد
فكانت الحياة الاجتماعية والعقائدية حياة عربية اسلامية إلى نحو آخر
دولة بني أمية .

فما احتك المسلمون بالفرس ودخل هؤلاء الاسلام وتسللوا إلى
مراكز الامراء والقواد والزعماء وقادوا العالم الاسلامي . أخذ العرب عنهم
حضارتهم كما أخذوا عن غيرهم بمساعدة الفرس فترجموا ونقلوا العلوم العقلية
والكونية واطلعوا على آثار اليونان من فلسفة وغيرها أخذت عقولهم
تنصبغ بصبغة أخرى غير تلك الصبغة العربية الاسلامية ، وكانت هذه
العلوم الحديثة تستولى على روح التفكير لديهم وتنتزع منهم بعض جذور
ملكاتهم القديمة ، ذلك الى ما لحقهم من الدخيل في دماهم وأنسابهم
وعقائدهم فظهرت منهم المذاهب الكثيرة في السياسة والاجتماع والعقائد
وظهرت فيهم ثقافة جديدة مصبوغة بصبغة علمية أو سياسية بما قرأوه
وعرفوه من علوم الطب والرياضة والفلسفة . وكانت هذه الحياة العقلية
تخالف كل المخالفة تلك الحياة الاولى التي كان عمادها الدين الاسلامي
وعلوم الشريعة والعلوم العربية

وكان أثر هذه الحياة الجديدة في عقول المسلمين (لافي عقول
العرب وخدم) ان تغيرت قوة التفكير لديهم وطرقه ، ونوع الادراك

في كل شيء وبخاصة الحياة الادبية فذهب من الشعر ذلك الروح البدوي العربي الصميم وحل محله صبغة أخرى أنبتتها الحضارة الجديدة في نفوس المساميين فكان الشعر العربي شعرا صناعيا منمقا يدل على تذوق الشعراء فنون الجمال وضروب البلاغة في القول أكثر من أن يكون شعرهم صورة صحيحة للنفوس والحياة الاجتماعية ، كما كانت الحال زمن بني مروان

وقد دام هذا العصر زهاء قرنين وكان مركز الثقافة الاسلامية مدينة بغداد وما يتبعها من العواصم التي تشعبت من هناك كقرطبة والقيروان والقاهرة زمن الفاطميين

فلما انقسمت الدولة الاسلامية الى دويلات وتغلغل فيها هذا الانقسام بسبب أطماع الامراء من الفرس والترك والديلم وغيرهم تشعبت الحياة العقلية الى شعب في العراق وفارس وتركستان والشام ومصر وبلاد المغرب وكان أكبر مظاهر هذه الحياة العقلية في بلاد المشرق أو لدى الدول التي قامت هناك حيث تعددت أوطان اللغة العربية كما يقولون ولكن هذا الانقسام كان داعيا إلى نسابق هذه الممالك في أحياء العلوم والآداب ولا سيما لدى الدولة السامانية والبويهية . وانتشر في هذا العصر نوع من الثقافة الفارسية لها الممزوجة بالروح العربي وكان عصر تقوم في اللغة والأدب على ما هو معروف .

وقد دامت هذه الحال الى أن أستولى التتار على الممالك الاسلامية وأزالوا الخلافة من بغداد وخرّبوا البلاد وأبادوا مؤلفات العلماء فانتقل مركز الثقافة العربية الاسلامية الى مصر وبعض البلدان الأخرى

كلشام واليمن والحجاز وافريقية الشمالية ولو أنهم ساروا على هذا النحو من التخريب لمحيته العربية وأنطمت معالم الاسلام ولكنهم اعتنقوا الدين الاسلامي ليدسطنروا على العالم العربي وليلسكو انفس المسامين فأنشئوا المساجد والمدارس وأنعموا إذ ذاك على العلماء والمشتغلين بالعلوم ، وساعدوا على نشر العلم فبقيت اللغة العربية حافظة كيانها إلى أن جاء زمن المماليك بمصر فعملوا على تخليد ذكراهم وأنشأوا المدارس والمساجد ورصدوا عليها الأموال كما فعلوا بذلك في ربوع الشام وشجعوا العلماء على التأليف فكان لهم فضل لا ينكر وقد كان ذلك من الاسباب التي ساعدت اللغة العربية على الرقي كما ساعدت العلماء والمؤلفين على نشر العلم والعناية بالتأليف في الفنون المختلفة .

وانت كانت لهجات الكلام في ذلك الوقت بمصر والشام مزيجاً من العربية الفصحى والعامية ولكن الكتابة كانت باللغة الفصحى ، مع بعض الأساليب التركبية وقد ظهر في هذا العصر جماعة من كبار الكتاب كالقاضي الفاضل وغيره .

وكانت الحركة العلمية على أحسن ما تكون في ذلك العصر حيث ظهر كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين النووي المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ، وكتاب صبح الأعشى لشهاب الدين القلقشندي وغيرها من المؤلفات الشهيرة .

وأخذ الشعر يتقدم خطوات باين نباتة المصري والشاب الظريف وصفى الدين الحلي وغيرهم واستمرت الحال على ذلك إلى أن جاء العصر العثماني فلم يعن الأترك باللغة أيه عناية .

حتى كاد يقف التيار تقدمها وطغى على العربية كثير من الأسماء والالفاظ التركية واللهجات العامة وانحطت منزلة الكتابة ووقفت حركة التأليف وانطمست معالم الشعر وجمدت قرائح الشعراء إلى أن قيد الله لمصر أن يعمل على رقيها ذلك الرجل العظيم محمد علي الكبير .

« مصر والحملة الفرنسية »

لم يكد القرن التاسع عشر يتنسم نسيم الحياة حتى ظهر فيه رجلا عظيمان : فقد انجبت الثورة الفرنسية نابليون بونابارت في أوروبا كما جذبت مصر الغنية اليها من سواحل مقدونيا الجنوبية ذلك الجندي العظيم (محمد علي) الذي مال بث قلوبه في وادي النيل حتى ظهرت مواهبه وميوله للعمل على ترقية مصر فأشرا بت إليه أعناق المصريين لينقذهم من ظلم المماليك واستبدادهم ، فصار بنظره الثاقب وفطرته النقية منقذ البلاد ومجدد مجدها .

وكانت الحملة الفرنسية التي قادها (بونابرت) إلى مصر كشفت كثيرا عن مخبئات البلاد العلمية والتاريخية ووعظمت حجرا لاساس بناء العلم العصري في بلاد الفراعنة : فقد عمل علماء الفرنسيين الذين صحبوا بونابرت في ثلاث سنين مالم يعمله غيرهم في قرون ، وغرسوا بيدهم في مصر أول بذرة من بذور الحضارة الحديثة من علوم أوروبا وفنونها . فسحوا البلاد طولا وعرضا ووضعوا الخرائط الجغرافية والجيولوجية ، وأنشأوا معامل الكيمياء وكشفوا عن تاريخ البلاد القديم الذي كان مجهولا إلى زمنهم ، وكتبوا عن التاريخ الحديث وألفوا

كثماهم الشهير (و نصف مصر) الذي جموا فيه خلاصة جهودهم والذي لا يزال على الرغم من مرور زهاء قرن ونصف قرن مرجع الباحثين والمؤلفين . وأنشأوا أول مطبعة عربية تولى إدارتها أحد علماءهم المستشرقين (مارسيل) وقاموا بغير ذلك من الاعمال العظيمة التي كان لها أثر كبير في نهضتنا العلمية الحديثة فوجدوا في البلاد حركة علمية وأيقظوا العقول من سباتها . وقد شهد الناس حتى العامة منهم بعض ما كان يجري في معامل الكيمياء فتعجبوا غاية العجب ، حتى لقد كان العامة يظنون ذلك ضرباً من السحر كما ذكر ذلك الجبرتي في تاريخه

« بدأ النهضة في زمن محمد علي »

ومنذ ذلك الحين سطع ضوء العلوم وانبعثت أشعة الحضارة على ربوع مصر . وبعد أن خرج الفرنسيون واستولى محمد علي المصلح الكبير على مصر - وكان رحمه الله مخلصاً في عمله محباً للبلاد - تفتت نفسه لان يصل بها إلى أرق منزلة بين الامم المتحضرة ، فأخذ يستعين بالاوربيين من فرنسيين وانجليز وغيرهم ، ولم يكتف بذلك بل أراد أن تكون اليد العاملة في ترقية البلاد هي اليد المصرية فوفد بعثات علمية من الشبان النجباء إلى فرنسا وغيرها ليدرسوا مختلف العلوم ، والفنون ، وخصص كلا منهم لفن أو علم يتعلمه ، كالادارة العسكرية وفنون السياسة وعلوم الطبيعة والكيمياء والنبات والحيوان وصناعة الاسلحة والطب والجراحة والزراعة والمعادن والطبع والحفر واللغات والادب . وجعل لهم من يعلمهم العربية ويمرنهم على أساليبها وأدابها حتى إذا رجعوا تمكنوا من نشر معلوماتهم بلغة البلاد . لذلك كان

لهؤلاء الطلبة بعد رجوعهم الى مصر اليد الطولى فى ترجمة الكتب من الفنون والعلوم المختلفة إلى اللغة العربية، فانتسعت المدارك وانتشرت الحضارة الحديثة بانتشار المدارس والتعليم . وأخذت تنقص الصبغة القديمة التى كان أكثرها مصبوغا بصبغة دينية علمية . لأن العلم كان محصورا فى الأزهر ولم يكن عالم غير أزهري ولا أديب أو لغوى غير دارس فى ذلك المعهد الدينى ، حتى لقد كاد يكون العلم وقفا على علماء الأزهر . فتغاب تيار المدنية الحديثة على ذلك . على أن أول أساطين هذه النهضة كان من علماء الأزهر وطلابه ، ويكفى أن يكون فى مقدمتهم العالم العصرى الشيخ رفاعة الطهطاوى الذى سافر إلى فرنسا ورجع علما من أعلام نهضتنا فى ذلك العصر ؛ بل كان من أشهر الكتاب والمؤلفين والمترجمين ، والشيخ أحمد العطار الذى أرسل ليتعلم علم الهندسة العسكرية .

ظهور المطابع العربية

وأنشئت المطابع ، وهى من أعظم وسائل النهضة الأدبية والعلمية فى مصر وكانت أول مطبعة أنشأها الفرنسيون فى مصر كما تقدم ، وأول ما طبع فيها كتاب التهجى فى اللغة العربية والفارسية سنة ١٧٨٩ ثم كتاب القراءة العربية ثم معجم فرناوى وعربى واجرومية فى اللغة المصرية العامية ولما رجع مدير هذه المطبعة إلى باريس سنة ١٨٠٠ أخذ مطبعته معه ووقفت حركة الطبع حتى أنشأ المغفور له محمد على باشا المطبعة الأهلية سنة ١٨٢٢ وقد قام بالعمل فى هذه المطبعة جماعة من خريجي الجامع الأزهر كانوا يطبعون فيها الأعمال الخاصة بمصالح

الحكومة . ثم طبعوا كتابا باللغة العربية لأحد علماء القاهرة ورسالة في الفنون الحربية وكتابا في الصباغة ترجم من ايطاليا ومعجما ايطاليا عربيا . ويقولون أول مطبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٢٢ وقد قامت هذه المطبعة بنشر الكتب وطبعها فطبعتم فيها مئات من أهم الكتب العربية في الطب والرياضة والطبيعة والأدب والشعر وعلوم الدين وغيرها ، مما يضيق المقام عن ذكره ، ومئات من الكتب المترجمة في العلوم الحديثة ، ثم انتشرت على أثر ذلك المطابع في سوريا والقسطنطينية ومصر . فكانت من وسائل نشر العلوم والمعارف .

وكثرت المطابع الأخرى غير الاميرية وأقدمها مطبعة وادي النيل أنشئت سنة ١٢٨٣ هجرية كانت تطبع فيها صحيفة وادي النيل لصاحبها أبي السعود افندي وطبعتم فيها أيضا روضة المدارس وهي من أقدم المجلات المصرية . ولما انتشرت المطابع انتشرت الصحافة معها كما سيأتي . ثم أنشئت مطابع في جميع البلدان التي يقرأ أهلها اللغة العربية وخصوصا في بلاد الهند ، وكان لاهتمام الاوربيين بإنشاء المطابع عندهم شأن عظيم في رقي اللغة ونشر الكتب العربية . على أنهم سبقوا الشرق في ذلك ، ويرجع مبدأ الطباعة هناك الى أوائل القرن السادس عشر حيث فتحت الراهبانية اليسوعية مدرسة للغة العربية والعبرانية في روما وانشئت مطبعة طبعت فيها بعض الكتب الدينية . ثم اتسعت تلك النهضة في أنحاء أوروبا وكثر المشتغلون باللغات الشرقية حتى امتلأت المكاتب بالكتب العربية وغيرها ولا سيما مَدَنُ باريس ولندن ومجريط واكسفورد وليدن

الصحف العربية

ومن وسائل نشر اللغة العربية ظهور الصحف اليومية أو الجرائد في بلاد المشرق، وأول صحيفه عربيه ظهرت في مصر هي الوقائع المصرية سنة ١٨٢٨ ميلادية على عهد محمد علي . كانت في أول أمرها تظهر ثلاث مرات في الاسبوع بالعربيه والتركيه . ثم ظهرت جرائد أخرى في الاستانة وغيرها باللغات التركيه والبرانيه والعربيه . وأول جريدة عربيه ظهرت في الاستانة كانت تسمى (مرآة الاحوال) سنة ١٨٥٤ وأول جريدة ظهرت في سوريا اسمها (حديقه الاخبار) أنشأها خليل الخوري ، وصدر أول عدد منها سنة ١٨٥٨ وفي سنة ١٨٦٠ أصدر احمد فارس الشدياق في الاستانة جريدة (الجوائب) فبقيت فيها إلى سنة ١٨٨٤ وفي هذا الحين ظهرت في باريس جريدة عربيه تسمى (البرجيس) لأحد التونسيين ، ثم ظهر في مصر جريدة (وادي النيل) سنة ١٨٦٧ وقد كثرت بعد ذلك الصحف اليوميه في مصر وأقدم صحيفه ظهرت بعد الوقائع المصرية مجلة شهرية اسمها (اليعسوب) صدرت سنة ١٨٦٥ أنشأها محمد علي باشا الحكيم و ابراهيم الدسوقي وهي أول مجلة طبيه ظهرت في اللغة العربيه . وفي سنة ١٨٦٩ ظهرت جريدة (نزهه الافكار) وكانت أسبوعيه أصدرها ابراهيم المويلحي ومحمد عثمان جلال ، ولم يصدر منها غير عددين ثم ألغيت ، وأعظم هذه الجرائد فائدة : مجلة روضه المدارس السالفه إذ كان يحررها جماعه من كبار الابداء كعبد الله باشا فكري واسماعيل باشا الفلصكي وعلي باشا مبارك ورفاعه بك وغيرهم

ولا شك أن في انتشار الصحافة العربية من أكثر الأشياء
مساعدة على رقي اللغة العربية وتحرير أساليبها وهناك طائفة من
الصحف التي أصدرها السوريون الوافدون على مصر (كالكوكب
الشرقي) لسليم حموي التي صدرت في الاسكندرية سنة ١٨٧٣ وجريدة
(الاهرام) الشهيرة لسليم وبشارة تكلا صدرت سنة ١٨٧٦ وجريدة
(المقطم) التي لها فضل عظيم في نشر الاساليب العربية الصحيحة
ثم جريدة (المؤيد) المعروفة التي كان محررها المرحوم الشيخ على
يوسف بأسلوب عربي متين وغير ذلك من المجلات والصحف الكثيرة
المنتشرة الآن

اشتغال علماء أوروبا بالعلوم الشرقية

كان لاشتغال الاوربيين المستشرقين بالعلوم العربية شأن عظيم
أيضا في نشر المباحث والكتب التي رقت من شأن اللغة ودعت الى
العناية بها ، واشتهر منهم جماعة بتأليفهم العربية أشهرهم البارون دي
ساسى أحد العاميين على طلب اللغات الشرقية ومن استخرجوا نخباً لها
وهو مستشرق فرنسي شهير مات سنة ١٨٣٨ بعد أن درس جميع
اللغات الشرقية وتعلم العبرانية والسورانية والكلدانية والسامرية
والعربية والفارسية والتركية ، وكان مجيداً أكثر هذه اللغات فساعد
على نشر كثير من المقالات والمجلات التي تكامت عن هذه اللغات
ويقولون إنه نشر أكثر من مئتي مؤلف في علوم الشرق ولغاته . وله
منتخبات عربية في ثلاث مجلدات ، وتاريخ العرب في الجاهلية وطبع كميلية
ودمنة ومقامات الحريري مع شروح وافية كما طبع رحلة عبد اللطيف

البغدادى إلى مصر

ومن أشهر هؤلاء المستشرقين «جان جاك عمانويل سيدليو» درس اللغات الشرقية وانقطع إلى درس النجوم فنقل إلى اللغة الفرنسية كتاب الآلات الفلكية المسمى جامع المبادئ والغايات لابن الحسن على المراكبي وكتب عدة مقالات في تاريخ الشرق وعلوم الرياضة وله كتاب شهير في تاريخ المدينة العربية ترجم زمن المغفور له على باشا مبارك وتوفي سنة ١٨٣٣

ومنهم كوسان دى بر سيفال المتوفى سنة ١٨٣٥ اشتهر في اللغة العربية وألف فيها كتبا كثيرة وطبع مقامات الحريري وأمثال لقمان وتاريخ صقلية للنويرى ، وتاريخا كبيرا يقع في ثلاثة مجلدات للعرب وهؤلاء بعض المستشرقين الفرنسيين ، أما الألمان فقد برزوا على غيرهم في هذا الميدان فمنهم ارنست فردريك روزنمور المتوفى سنة ١٨٣٥ نقل إلى اللغة اللاتينية معلقة زهير وبعض مقامات الحريري وشيئا من أمثال الميدانى ، ومنهم الامتازها بخت المتوفى سنة ١٧٧٥ درس في باريس على دى ساسى وطبع نخبة من أمثال الميدانى وهو أول من سعى في طبع كتاب (الف ليلة وليلة) سنة ١٨٢٥ طبع منه ثمانية أجزاء قبل وفاته وترجم مع بعض العلماء إلى اللغة الألمانية ، وغير هؤلاء كثير من الانجليز والهولنديين والبلجيكين الذين نكثوا بالإشارة إليهم وأسس الاوربيون معاهد لتدريس العلوم الشرقية في بلادهم ومن أشهر تلك المعاهد مدرسة اللغات الشرقية في باريس التي أنشئت سنة ١٧٩٥ وأنشئت الجمعيات الآسيوية والنوادي العلمية في إيطاليا

واسبانيا وانجلترا وغيرها

وأنشأ الفرنسيون الجمعية الآسيوية الباريسية وكان سلفستر
دى ساسى وتلاميذه قاموا بهذا العمل الجليل سنة ١٨٢١ ونشروا في
المجلة الآسيوية كل ما كانوا يكتبونه أو يعثرون عليه من علوم الشرق
وآدابه ولغاته وقد عنوا عناية خاصة باللغات السامية

وجارى الفرنسيين الانكاز في ذلك فأنشأوا جمعية سموها جمعية
بريطانيا العظمى وأرلندا الآسيوية الملكية . وكان ذلك سنة ١٨٢٣ قام
بهذه الجمعية العلماء الأثريون ونشروا صحيفة علمية سنة ١٨٢٤ وفي
سنة ١٨٣٦ سموها مجلة لندن الآسيوية الملكية

وكذلك نشر الالمانيون والنمساويون صحفا شرقية اشتهر ذكرها
بما نشرت من المباحث الهامة في المسائل الشرقية مثل (معادن الشرق)
واشتهر من الألمانين الاستاذ فامت الذى نشر معجما عربيا لاتينيا
ونقل معاقته لبيد في سنة ١٨١٤ وعنتره في سنة ١٨١٦ وعاق عليها
تعليقات مفيدة ونقل قسما كبيرا من مقامات الحريرى الى اللاتينية
وغير ذلك

وقد عمت دراسه اللغات الشرقيه كل بلاد أوروبا تقريبا حتى
وصلت بلاد روسيا واشتغل بها علماء هناك في أواخر القرن التاسع عشر
واشتهر أخيرا من المستشرقين الانجليز ادوارد لين المتوفى سنة
١٨٧٦ وقد ألف في اللغة العربية مؤلفات كثيرة وكتب في وصف
مصر ، ونشر قاموسه العربى الانكليزى وترجم ألف ليلة وليلة وكتب
عن الآداب الاسلاميه . ومن المستشرقين المعروفين الاستاذ مر جليوث

وهو واسع الاطلاع على اللغة العربية وآدابها وقد قام بنشر بعض الكتب العربية التي منها كتاب معجم الابداء لياقوت الحموى ونشر رسائل أبي العلاء المعرى وهو لا يزال حيا ومنهم الاستاذ براون من أساتذة جامعه كبريدج الآن ويعرف اللغات العربية والفارسية والتركية واشد اهتمامه باللغة الفارسية

النهضة العلمية في مصر

وكان من أسباب نهضة اللغة العربية في مصر أيضا أن كثرت المدارس فيها على اختلاف درجاتها وأصبح التعليم باللغة العربية وشاع تعلم اللغات الاجنبية ولاسيما منذ حكم الخديوى اسماعيل . وكان للجامع الازهر أثر عظيم في حفظ هذه اللغة لأنه كان منبعاً من منابعها تتدفق منه علوم اللغة وآدابها فقد كان معاموا المدارس في أول الأمر من علماء الازهر ، إذ كانت تدرس فيه اللغة العربية وجميع علومها على طريقتيه البعث والتحقيق ، ولولا أن أساليب هذه الدراسة بقيت على ماكانت عليه ولم تتأثر بالأساليب الحديثة لخرج من الازهر أئمة اللغة وعلمائها . ولكن على الرغم من ذلك فانه كان دليلا على حياة الحركة العلمية . فقد ظهر فيه جماعة من كبار المؤلفين كالشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، والشيخ حسن المطار والشيخ العروسي والشيخ الباجوري والشيخ عبد الحمادي اليبارى والشيخ حسين المرصفي ، والشيخ محمد عبده وغيرهم . وكان منهم الكتاب والخطباء والقضاة والمحامون ومن أعظم وسائل رقي اللغة العربية في البلاد أساتذة اللغة الذين

تخرجوا في مدرسة دار العلوم التي أسسها المرحوم علي باشا مبارك وكان لها شأن عظيم في ذلك ، فقد ساعدت على نشر اللغة وآدابها بوساطة هؤلاء المدرسين

وكثر الوافدون على مصر من الكتاب والأدباء ومنهم السوريون ذووا النشاط العقلي والميل إلى اللغة العربية ، فأحدثوا بامتزاجهم مع المصريين حركة كتابية عظيمة في المجالات والجرائد والكتب التي ترجموها من قصص وفنون مختلفة ، وكان ذلك من أسباب تدرج الأسلوب العربي إلى طريقة جديدة لبعض الأساليب الأجنبية أترفها

كانت النهضة العلمية عندما بدأ المغفور له محمد علي في العمل على إصلاح البلاد مقصورة على ما كان في بلاد المشرق ولا سيما في مصر من الاشتغال بعلوم اللغة العربية وفتونها وعلوم الدين وأصوله وقد كان ذلك محصورا في الجامع الأزهر والمتخرجين فيه ، حتى أن أشهر المؤرخين والمشتغلين ببعض الفنون الرياضية كانوا من هؤلاء العلماء ، كالشيخ عبد الرحمن الجبرتي صاحب التاريخ المشهور ، والشيخ حسن العطار (توفي سنة ١٢٥٠) الذي كانت له تأليف كثيرة في علوم اللغة والفنون والطب والانشاء والمراسلات ، وكان عارفا بعلم الفلك ويجيد عمل المزاويل الليلية والنهارية . وقد كان الشعراء والكتاب والمؤلفون كلهم من هذه الطائفة . فلما رجع طلبة البعثة العلمية التي أرسلها محمد علي إلى أوروبا وأخذوا في الترجمة والتأليف أخذت

تنتشر العلوم الحديثة كما قلنا ، ولا سيما أنه قد اشتغل مع هؤلاء جملة من العلماء الفرنسيين وغيرهم من الفرنجة ، مثل كاوت بك مؤسس مدرسة الطب ، وبروان بك أحد أساتذتها الذين ظهرت لهم مؤلفات ترجمت الى اللغة العربية ، وكان أكثر المتخرجين من المصريين كابراهيم النبراوى (المتوفى سنة ١٨٦٢) الذى ترجم كتاب الاربطة الجراحية ونبذة فى الفلسفة الطبيعية تأليف كلوت بك ، ونبذة فى أصول الطبيعة والتشريح لكلوت بك أيضا . وكأحمد حسن الرشيدى (توفى سنة ١٨٦٥) الذى ترك عدة مؤلفات فى الطب . وهو من كبار نوابغ هذا الفن ، منها رسالة فى تطعيم الجدري ترجمها من مؤلفات كلوت بك ، وضياء النيرين فى مداواة العينين ، وطالع السعادة والاقبال فى علم الولادة والنساء وأمراض الاطفال . ونزهة الامائل فى علاج تشوهات المفاصل . وترك محمد على باشا القبلى (توفى سنة ١٨٧٦) من المؤلفات روضة النجاح الكبرى فى العمليات الصغرى ، وغاية الفلاح فى فن الجراح . وغرر النجاح فى أعمال الجراح . كما ترك محمد الشافعى ، ومحمد عبد الفتاح ، وحسن بك عبد الله وأحمد ندا كثيرا من المؤلفات فى الطب وعلم الصيدلة . وهذا الأخير كتب فى علم النبات والحيوان ، الآيات البيئات فى علم النبات . وحسن البراعة فى فن الزراعة ، ترجمة عن الفرنسية ، وحسن الصناعة فى فن الصباغة ، والحجج البيئات فى علم الحيوانات ، ترجمة عن الفرنسية ، ونخبة الاذكياء فى علم الكيمياء ، والاقوال المرضية فى علم الطبقات الارضية والازهار البديعة فى علم الطبيعة . وقد ترك محمد باشا الدرورى ومحمد بك بدر وحسن باشا محمود وهم من أهل أواخر القرن التاسع عشر مؤلفات

كثيرة ، وكان هناك كثير من العلماء الذين اشتغلوا بالرياضة ونقل كتبها مثل محمد بيومى (توفى سنة ١٨٥١) وابراهيم رمضان الذى كان مدرسا بالمهندسخانة ، ومحمود باشا الفلكى المتوفى سنة ١٨٨٥ وهو أشهر هؤلاء العلماء فى علم الفلك . وقد عمل خريطة للقطر المصرى . وهو أول مصرى فعل ذلك . وألف رسالة فى التقويم الاسرائيلية الاسلامية ، ورسالة فى التقويم العربية قبل الاسلام (طبعت سنة ١٢٥٨) ورسائل مختلفة فى الكسوف الكلى ، وفى وصف الاسكندرية القديمة والايضاح عن أعمال الاهرام والتنبؤ عن ارتفاع النيل وضرورة مرصد لمصر ، وعمل مقاييس ومكاييل للبلاد ، ومقابلة ذلك بالأقيسة الفرنسية . وغير هؤلاء كثيرون مما يضيق المقام عن ذكره

هذا بمجمل الاسباب التى رقت اللغة العربية فى هذه الايام الاخيرة ولا يزال النشء الجديد من الكتاب والمؤلفين يعمل على نشر أساليب جديدة وموضوعات طريفة فى اللغة ، بما اكتسبه من الاطلاع على اللغات الحديثة . ولا بد أن يكون مستقبل اللغة العربية عظيما خصوصا فى مصر التى أصبحت نبراسا للعالم العربى ومنبعا للعلوم الشرقية .

حالة التعليم في مصر

بقلم علي باشا مبارك

ومما يستدل به علي حالة التعليم في مصر ، وما كان بها من العلوم والفنون قول المرحوم علي باشا مبارك في الخطة التوفيقية من الجزء التاسع صفحة ٤١ في ترجمة حياته قال :

« وفي أواخر سنة ٥٢ نقلونا إلى مدرسة أبي زعبل وجعلوا قصر العيني لمدرسة الطب خاصة كما هو الآن ، فكانت إدارة المدارس في أبي زعبل كما كانت في قصر العيني ، إلا أنه أعني بالتعليم شيئاً بسبب جعل نظرها للمرحوم ابراهيم بك رأفت وكان أثقل الفنون علي وأصعبها في الهندسة والحساب والنحو ، فكانت أراها كالطلاسم وأرى كلام المعلمين فيها ككلام السحرة . وبقيت كذلك مدة إلى أن جمع المرحوم ابراهيم بك رأفت متأخري التلامذة في آخر السنة الثالثة من انتقالنا إلى مدرسة أبي زعبل وجعلهم فرقة مستقلة ، فكانت أنا منهم بل أخرجهم وجعل نفسه هو المعلم لهذه الفرقة ، ففي أول درس ألقاه علينا أفصح عن الغرض المقصود من الهندسة بمعنى واضح وألفاظ وجيزة ، وبين أهمية الحدود والتعريفات الموضوعية في أوائل الفنون ، وأن هذه الحروف التي اصطلمحوا عليها إنما تستعمل في أسماء الأشكال وأجزائها ، كاستعمال الأسماء للحروف . فكما أن للإنسان أن يختار لابنه ماشاء من الأسماء ، كذلك المعبّر عن الأشكال له أن يختار لها ماشاء من الحروف . فانفتح من حسن بيانه قفل قلبي ووعيت مايقول وكانت طريقته هي باب

الفتوح على . ولم أقم من أول درس الاعلى فائدة ، وهكذا جميع دروسه بخلاف غيره من المعلمين ، فلم تكن لهم هذه الطريقة ، وكان التزامهم لحالة واحدة هو المانع لى من الفهم ، نختمت عليه فى أول سنة جميع الهندسة والحساب وصرت أول فرقتى . وبقيت فى النحو على الحالة الأولى لعدم تغير المعلم ولا طريقة التعليم السيئة . وكانت رأفت بك يضرب بى المثل ويجعل نجاحى على يديه برهاناً على سوء تعليم المعلمين وأن سوء التعليم هو السبب فى تأخير التلامذة .

وفى تلك السنة — وهى سنة خمس وخمسين — فرزوا من التلامذة لمدرسة الهندسة ببولاق ، فاخترونى فىمن اختاروه . فاقمت بها خمس سنين وأخذت جميع دروسها ، وكنت فيها دائماً أول فرقتى وقلفتها ، فتلقيت بها الجزء الأول من الجبر على المرحوم طائل أفندى ، وكذا تلقيت عنه علم الميكانيكا والديناميكا وتركيب الآلات ، وتلقيت الجبر العالى عليه وعلى المرحوم محمد بك أبى سن ، وحساب التفاضل وعلم الفلك على المرحوم محمود باشا الفلكى ، وعلم الادروليك على المرحوم دقلا أفندى وعلم الطبوغرافيا على المرحوم ابراهيم أفندى رمضان ، وعلم الكيمياء والطبيعة والمعادن والجيولوجية وحساب الآلات على ابراهيم أفندى رمضان وبعضه على المرحوم سلامة باشا وتلقيت عليه أيضاً خاصة القوسموغرافية .

ولعدم وجود كتب مطبوعة فى هذه الفنون وغيرها إذ ذاك كان التلامذة يكتبون الدروس عن المعلمين فى كراريس كل على قدر اجتهاده فى استيفاء ما يلقى به المعلمون ، وكان المعلمون يومئذ يبدلون

غاية مجهودهم في التعليم ، فكان يندر أن يستوفى تلميذ في كراسة جميع مايلقى اليه خصوصا الاشكال والرسوم . ولذلك كان الأمر إذا تقادم أو خرجت التلامذة من المدارس يعسر عليهم استحضار ما تعلموه ، فكان يضيع منهم كثير مما تعلموه .

وفي آخر مدة الهندسخانة كانوا يطبعون بمطبعة الحجر بعض كتب ، فاستعانت بها التلامذة وحصل فيها النفع . ثم تكاثرت طبع الكتب شيئاً فشيئاً إلى الآن فصارت تطبع الفنون باشكالها ورسومها : فسهل بذلك تناولها واستحضار ما فيها .

ويعلم من هذا سير التعليم في المدارس العالية وأنه كان باللغة العربية ، وإن جميع المدرسين كانوا من المصريين ، وهذا دليل على مقدار حركة التعليم في ذلك الوقت والعناية بالعلوم والفنون التي كانت يدرس إذ ذاك

الكتابة والشعر

الكتابة : -

بدأ القرن التاسع عشر وسوق الادب كسدة ، ولم يكن للأدب معاهد يدرس فيها ؛ ولكن مصر كانت محط الأديباء الذين التجأوا إليها ، وموطن الأزهري الذي كانت تنبعث منه أشعة العلوم العربية إلى أنحاء العالم الاسلامي ، وكان الناس يرون في اللغة العربية وفتونها مفتاحا لكل العلوم . وأساسا لتربية العقول . وزاد الناس حبا بطلب العلم في هذا المعهد ما حبسه أهل الخير على طلابه فلم ينقطع عنه الوافدون ، ولا سيما أن كثيرا من علمائه وتلاميذه كانوا موضع الاجلال والاكرام من الحكام والأمراء ، وكان منهم القضاة وأهل الشورى للسلطين والأمراء ، كما كان منهم الكتاب والمؤلفون في مختلف العلوم والفنون فكان الاقبال على الأزهري من أكبر الوسائل لاهياء اللغة العربية وآدابها . فظهر منه الكتاب والشعراء وأرباب الاقلام الذين تولوا وظائف الكتابة في الدواوين وغيرها

أما كتابة الدواوين زمن المماليك فكانت مزيجا من العربية والتركية وخليطا من الألفاظ العامية والعبارات الفصحى ، واستمر ذلك إلى أيام محمد علي حيث فشيت العامية في المؤلفات والمراسلات ، وانحطت درجة الكتابة بطبيعة حال الدولة التي لم يعن أهلها بذلك ، وتاريخ ابن آياس والجبرتي من أساليب الكتابة التي كانت فاشية في تلك الايام ، فكانت الكتابة في حالة انحطاط كما كانت الحال في جميع

الاقطار العربية :

وكان أكثر أساليب الكتابة البليغة الادبية كالرسائل والمقامات مسجعة جارية على أسلوب الهمداني والحريري؛ وانتشر السجع حتى لم يكدم مخلو منه كتاب أو تأليف. وحتى تمشى هذا الأسلوب في الكتابة العامية. ولاشك في أن هذا أثر عناية العصر العباسي الاخير بالصناعة اللفظية والمحسنات البديعية، وشاع هذا الاسلوب في الكتابة الادبية حتى تخطى القرن التاسع عشر. فأدرك رفاة بك الطهطاوى (توفى ١٨٧٣ م) وعبدالله باشا فكرى (توفى ١٨٨٩) وعبدالله نديم (توفى ١٨٩٦) وابراهيم بك المويلحى (توفى ١٩٠٦) والشيخ محمد عبده (توفى ١٩٠٧) والسيد توفيق البكرى وغيرهم من الكتاب الحديثين كحفنى بك ناصف وأمثاله، على أن ظلال هذا السجع الممل ابتدأت تتقلص منذ أن رجع طلاب الارسالية التي أرسلها محمد على إلى أوربا في أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر، فقد تأثروا بأساليب اللغات الأجنبية فأخذوا يترجمون ويؤلفون كما فعل رفاة بك الطهطاوى والعالم أحمد ندا (توفى ١٨٧٧) وابراهيم النبراوى الذى كان رئيس المدرسة الطب (توفى ١٨٦٢) وأحمد حسن الرشيدى الطيب (توفى ١٨٦٥) وغيرهم من العلماء والادباء

وكان من أشهر هؤلاء الكتاب والمؤلفين رفاة بك الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣) الذى كانت له آثار عظيمة في الكتابة والأدب والشعر، فترجم في مختلف العلوم والفنون كتباً ورسائل، ويحسب

أسلوبه من نماذج أساليب الكتابة المختفة في القرن التاسع عشر بمصر
فان فيها السجع المتكلف المزوج بحسن اختيار الالفاظ وبلاغة العبارة
(راجع « مقدمة وطنية » لحضرة رفاة بك طبع بولاق ١٢٨٣ هـ)
و « الكواكب النيرة في ليالى أفراح العزيز المقمرة » طبع بولاق ١٨٢٩)
وتجد في مؤلفاته السهل الممتنع الذى يشبه أجود أساليب الصحف
اليومية عندنا الآن (راجع كتاب « مناهج الالباب المصرية في
مباهج الأدب العصرية » طبع بولاق ١٢٨٦ هـ ومن الاساليب التى
تحتسب أحيانا مسجعة وأحيانا مرسلة أسلوب الوقائع المصرية منذ
ظهورها (١٨٢٨) إلى ما بعد منتصف القرن التاسع عشر ، وبقى الادباء
يحاكون الاساليب القديمة والموضوعات المعروفة كرسائل التعازى
والتعارف قبل اللقاء والعتاب والشوق إلى زمن قريب

ولكن محاكاة الاساليب الافرنجية وانتشار التعريب جعل
أسلوب الكتابة العربية ينتقل من طور السجع ومحاكاة القدماء إلى
سهولة التعبير والأيجاز فى العبارة . ومن أشهر الصحف التى أذاعت
هذا الاسلوب الجديد فى الترجمة والتأليف مجلة روضة المدارس التى
انشئت سنة ١٨٧٠ وكان محررها نخبة من العلماء كإسماعيل باشا الفلكى ،
وبدر بك الحكيم ، وعلى باشا مبارك ، ورفاعة بك وغيرهم . فقد نشر
فى هذه المجلة كثير من آثار أقلام الكتاب فى موضوعات مختلفة من
علوم وآداب . والمتأمل فى هذه الاساليب يرى أنه قد حدث فى النثر
أطوار كان الكتاب يجارون فيها روح العصر العلمية والأدبية فرقت

أساليب النثر وتعددت مناحيه حتى أصبحت تحتوى على كثير من الأساليب التي عرفت في اللغات الأجنبية . وزاد هذه الأساليب رقة وسهولة انتشار الصحف اليومية والمجلات العلمية ، وأخذت الرسائل شكلا آخر غير ذلك الشكل المسجوع المعروف ، ونزع الكتاب إلى أسلوب آخر غير متكلف . وجرى كتاب الجرائد المقدمات التي كانوا يفتتحون بها موضوعاتهم ، واقتربوا من نفوس الخواص ، ولقد نراه أحيانا ينزلون بأساليبهم إلى عقول العامة مع صحة العبارة وسلاستها . كذلك تجد أثر الأساليب الفرنسية وتراكيب اللغات الأجنبية في الكتب المترجمة أو المكتوبة حديثا بأقلام من تعلموا اللغات الأجنبية أو مالوا إلى محاكاتها . وربما توسعوا في ذلك حتى لقد يخرجون أحيانا عن الأسلوب العربي المألوف ، ولا يزال هذا الأسلوب الحديث يغمرنا بسيل جارف من الألفاظ الأعجمية والتعبيرات الأفرنجية بما ينشره العربون والمؤلفون وكتاب الصحف على أنه في جملته سهل قريب من أذهان الطبقة الوسطى من المتعلمين . ولا شك أن هذا كله دليل على أن الكتابة العربية في مصر سائرة في طريق أخرى غير الطريقة العربية الصميمة .

وقد حدث في مصر نوع آخر من النثر ، وهو النوع القصصى المصبوغ بصيغة مصرية كما في كتاب حديث عيسى بن هشام للمرحوم إبراهيم بك المويلحي . وهذا نوع جديد في الأدب المصري أكثر أثرا وأدعى إلى الحياة في آدابنا الحديثة من أي نوع آخر من أنواع النثر ،

وقد انتشرت أخيراً هذه الروح القصصية بين كتابنا المعاصرين لنا يجارون بذلك آداب الأمم الأخرى ، لأن أكثرهم قرأ تلك الآداب وخبرها وتأثر بها ، وما ينشر الآن بيننا منها كثير يبشر بنهضة أدبية عظيمة ، على أن أكثرهم لا يزال في بادئ الأمر ناعاً يحتاج إلى كد طويل وتفكير عميق وتجربة وتقنن في هذا الأسلوب الجديد حتى يقرب من الاتقان والسكال .

هذا ما حدث في النثر الفصيح ، أما ما كان في النثر العامي أو القريب من اللهجة العامية ، فقد انتشر في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وكان من مبتكريه المرحوم عبدالله نديم برواياته (الوطن) و (العرب) اللتين انتقد فيهما كثيراً من المسائل السياسية والاجتماعية والخلقية ، كما كتب مقالات متعددة من هذا النوع جمعت في كتاب سمي (سلافة النديم) كقالة (سهرة الانطاع أو عرى تفرنج) ومقالة (مجاس وطني) و (الفخ المنصوب للحكيم المغصوب) وهذا يدل على أن هذا النوع من الكتابة العامية ابتداءً ينتشر منذ ذلك ، وهو على الرغم من بعده عن العربية الفصحى قليلاً أو كثيراً يحسب نوعاً من أنواع الأدب المصري الذي انتشر بيننا الآن بما نراه من القصص التمثيلية الهزلية المعروفة عندنا ، فإنها تحتوي على كثير من نقد أحوالنا الاجتماعية ، ولا يزال الأدب المصري في أول مرحلة من مراحلها .

الشعر

كان الشعر في مصر أوائل القرن التاسع عشر وقبله كما كان في جميع الاقطار العربية : محاكاة للقديم وجريا على أساليب شعراء العصور المتقدمة في الموضوعات التي عرفت إذ ذاك ، من مدح و ذم ونسيب ووصف وغير ذلك ، حتى لم نعد نجد من بين شعراء هذا العصر الأخير إلا من يعمد إلى رصانة الشعر القديم فيقلده ، وإلى أسلوبه المتين فيحاكيه وإلى الأخيلة المعروفة فيقتبس منها . وكادت تكون هذه الأساليب كل أغراض الشعراء من قول الشعر . فلم يخرج الشعر عن كونه صناعة من الصناعات لاشعورا ولا أثرا من آثار الهامات النفوس ، ولا سمة من سمات العصر الذي كان يعيش فيه هؤلاء الشعراء ، وحتى لم يكن هناك وسيلة للتفرقة والتمييز بين شعر مصر وغيرهم من الأقطار العربية الأخرى سوى ما أتصف به المصري في كل زمان من خفة الروح وعذب الفكاهة فكان الشعر في حالة تقهقر فلم يكن للشعراء أساليب خاصة بل كان الشاعر يكفى بالوزن والقافية وأخيلة غيره يضعها في كلام آخر ويلبسها ألفاظا أخرى لذلك كان أشعر شعراء القرن التاسع عشر وقبله من كان حسن الديباجة ، طلي العبارة ، رقيق الإشارة .

وسار الشعراء عندنا على هذا المنوال بدون أن يكون لهم أي أثر جديد في الشعر المصري . ولا أي صبغة مصرية اجتماعية ، إلى نحو الثلث الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي ، أو إلى ما بعد منتصف

القرن الثالث عشر الهجرى

واكن رجلا من رجال النهضة الادبية بمصر فى القرن التاسع عشر كان اول من ادخل فى الشعر المصرى نوعا جديدا نقله من الشعر الفرنسى ، ذلك هو الشيخ رفاعه الطمطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣) الذى اوفده محمد على باشا الى باريس مع طلبة الأرسالية. على أن الشيخ رفاعه لم يكن شاعرا م: ازا بين شعراء عصره من شيوخ الأزهر ، ولكنه كان شغوفا بالأدب فتعلم الفرنسية وكان أول مانقله منها الى العربية قصيدة نظمها فى مدح الامير محمد على ، أحد أساتذة اللغة الذين أرسلوا مع البعثة الى فرنسا .

وقال رفاعه بك فى مقدمة وضعها لهذه القصيدة : (وقد سرحت ناظرى ونزهت خاطرى فى منظومة فرنساوية منسوبة لرئيس من يعلمنا من هذه اللغة القواعد ، ويفيدنا من فصاحتها بفرائد الفوائد ، العارف بأسلوب العرب والفرنساوى والبارع فى فهم المعنيين فهو لفخرها حادى ، الخواجة يوسف أكوب المصرى منشأ تتضمن غزلا وحنينا وتفأخرا مقدما لمصر ووزيرها حضرة افندينا الخ (طبعت هذه القصيد فى مدينة باريس سنة ١٢٤٢ هجرية) .

وكان الشيخ رفاعه أول من أدخل النشيد الوطنى الى مصر على ما نعلم ، فقد نقل قصيدة المارسييز الفرنسية الى العربية فى شعر تصرف فيه بعض التصرف^(١) حيث قال .

(١) اخترنا هنا مقطوعات من هذا النشيد الوطنى على غير ترتيبه المعروف

فهبيا يا بني الاوطان هيا فوقت نفاركم لكم تهيننا
أقيموا الراية العظمى سويا وشنوا غارة الهيجا سويا

عليكم بالسلام أيا أهالي ونظم صفوفكم مثل الآلى
وخوضوا فى دماء أولى الوبال فهم أعداؤكم فى كل حال
وجودهم غدا فيكم جلبنا

فماذا تتبغى منا الجنود وهم جمع وأخلاق عبيد
كذا أهل الخيانة والوفود كذاك ملوك بنى لم يسودوا
تعصبتهم لنا لم يجد شيئا

إلى آخر مقاله فى هذا النشيد الطويل . ونسج على هذا المنوال قصائد
أخرى كثيرة مزج ببعضها مدح الامراء وولاية مصر لتكون أناشيد
وطنية ، ومنها منظومة طبعت بمطبعة بولاق سنة ١٢٧٢ هجرية

* * *

بشرى لمصر سعدها بالعز لاج وسعيدها بالفوز ساعده الفلاح
أبناء مصر نحن موطننا أصيل
حسب عريق زانه مجسد أثيل
ونفارنا فى الكون جل عن المشيل
لرحابنا تطوى المهامه بالطلاق
بشرى

نحن السراة وشأنا حب الوطن

ولشأنا السامى تزاحم من قطن
شأنى حمانا ليس من أهل الفطن
فهو الدعى وعرضه شرطا مباح

بشرى

وطن عزيز لا يهان ولا يضام
وحى تعزز من على عليها حام
مجد له لازل يحترق الغمام
عين السها لفخساره ذات التمساح

بشرى

يا أهل مصر بر مصر فرض عين
فى البر نبذل عن رضى نفسا وعين
وإذا الرقيب رنا لها بلحاظ عين
ماعدنا فى ففئها إلا الرماح

بشرى

ملك قديم ساسه أحفاد نوح
(مصر ايم) فيه بطيخته تلوح
هى بركة القيرون مصرفها يبوح
بسرائر التدبير إذ يروى البطاح

فكان الشيخ رفاة من المجددين فى الشعر على هذا النمط . وكان
يكون لهذا الغرض الجديد فى الشعر أثر لو أن الشعراء نسجوا على
منواله وساروا فى هذا الطريق الجدى القومى وتركوا المدح وما يتبعه

من ماق أورياه . ولكن الحركة الادبية لذلك العصر كانت حركة فردية
أو مذهبا يعتنقه بعض الأدياء وحده ، بل كان الشاعر أو الكاتب يتأثر
وحده بأثر خاص ، فينهج منهجا خاصا لا يتبعه فيه أحد وكان الشعراء
يجلون القديم إجلالا ولا يخرجون عنه ولا عليه لركود افكارهم وجهلهم
بوجوب التجديد في الأدب . لهذا بقي الشعر على طريقته الأولى

على أن الشيخ رفاة نفسه تعذر عليه هجر القديم فذن يمدح
الأمرء بنصائدهى من صميم الشعر القديم وأساليبه المعروفه .

وكان شعر هذا العصر صناعة لا غير جله سهل فى لفظ تغمره
المحسنات البديعية والعناية بفصاحة اللفظ والاستعارة والمجاز حتى لقد
اصبح القارئ الأديب لا يجد فيه روعة الشعر الجيد الذى يؤثر فى
النفس ويوقظ فيها الشعور بمجمال القول . بل كان الشاعر ينزل احيانا إلى
طبقة العامة فى عباراته .

ومن شعراء هذا العصر السيد اسماعيل الخشاب المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ
كان من أدياء عصره المعروفين تعلم فى الازهر وقرأ كتب الأدب وله
ديوان مطبوع بالاستانة .

والشيخ حسن العطار المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ وكان كاتبا أدبيا وطالما
أزهريا تولى مشيخه الازهر ومن شعره فى وصف متزهات الشام
بوادى دمشق الشام جزبى أبا البسط

وعرج على باب السلام ولا تخط
ولا تبكى ما يبكى امرؤ القيس حوملا
ولا منزلا أودى بمنعرج السقط

فان تلى باب السلام من البها ملابس حسن قد حفظن من العط
هنالك تلقى ما يروقك منظر

وتسلى عن الاخذان والصحب والرهب
عرائس أشجار إذا الريح هزها تميل سكارى وهى تخطر فى مرط
كساها الحيا أثواب خفر فدثرت بنور شعاع الشمس والزهر كالقرط
ومنهم السيد على الدرويش المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ وكان من الشعراء
المعروفين او الكتاب المشهورين نظم كثيرا من المقطوعات الغنائية
ومدح عباس الأول حاكم مصر ، وله ديوان مطبوع ومن شعره فى المدح
سررت بنيل القصد من غير موعد ولاشئ أشهى من سرور مجدد
سررت بنعماء ، ولكن حزنت من

قصورى بحق الشكر فى فضل سيدي

له الحمد والشكر الذى هو أهله
فلو كل عضو فيه عدة ألسن
وهل أنا إلا عبد إحسان عفوكم
تعودت - لولا لطفكم - غير طابتى
وزدتم نعيمى نعمة أبدية
وكدرتم ظن الحسود بنعمتى
وجملتني مالا أطيع وجوبه
فيا أسعد السعيد لملكه
قد أشغل الدرويش شكر امثرخا
وقل له حمدى وشكرى ومنشدى
لأهجزنى شكر الندى المتعدد
فاضحى لديه مدحك كالتعبد
وصعب على الانسان مالم يعود
وزدتم مقامى رفعة فوق مقصدى
وأشهى من الانعام تكدير حسدى
فينطق حالى عن لسان المعقد
ودولته والموكب المتجند
ملكك سعيد النجم خير محمد

ومنه محمد صفوت الساعاتى وله مدائح فى شريف مكة الذى
اتصل به أثناء أدائه فريضة الحج ثم رجع إلى مصر وتوفى سنة ١٢٩٨ هـ
بعد أن التحق بأكثر من وظيفة فى الحكومة ، وكان شعره أقرب إلى
الدرجة الدنيا أكثر منه إلى الدرجة الوسطى .

ومنه السيد على أبو النصر المتوفى سنة ١٢٩٨ هـ وقد اتصل بالخدوى
توفيق باشا ومدحه . ومن قصائده فى ذلك يصف سفره إلى الصعيد
سنة ١٢٨٧ هـ .

زار فى مركب كعقد الآلى فازدهى بالقدم صفو الليالى
إلى أن قال :-

فازدهى رونق الصعيد جمالا
وروى النيل عن رواه حديثنا
حيث دقت بالشاطئين طبول
وتلاقوا بضمير سابقات
وتوالوا فى سيرهم فأضاءت
وجميع البلاد أبدت سرورا
حل فى منية الخصيد فسرت
زار فى منفلوط بيت أمير
وبأمسيوط لائل حين وافى
وبند الصعيد مازال يرقى
نسأل الله عذمة ونجاحا
وثنائى عاينه أول فرض
وتحلت أرجاؤه بالجلال
يشرح الصدر شرحه فى المقال
والأهالى تفوق عد الرمال
فترى الليث فوق ظهر الغزال
حلبة البيض بين سمر العوالى
ناشرات أعلامها بابتهاال
وتقوى سلطانها بالكمال
زاده رفعة بحسن احتفال
عن بلوغ المنى وفيض النوال
بدر تشريفه بلطف انتقال
وبقاء له وحسن مآل
والوفا بالثناء فرض محال

ومنهم أبو السمود أفندي المتوفى سنة ١٢٩٥ هـ . وعبد الله باشا
فكرى المشهور الذى أرتقى الى وزارة المعارف زمن الخديوى توفيق
وكان قبل ذلك كاتباً للخديوى اسماعيل . وله قصائد كثيرة ورسائل
نثرية مسجعة فى السياسة عن لسان اسماعيل باشا . سجنه توفيق باشا
أثناء الثورة فاستعطفه بقصائد منها قوله وهو فى السجن .

مليكى ومرلاى العزيز وسيدى ومن أرتجى آلاء معروفه العمرا
لئن كانت أقوام على تقونوا بأمر ، فقد جاءوا بما زوروا نكرا
فما كان لى فى الشر باع ولا يد

ولا كنت من يبنى مدى عمره الشر

فعفوا أبا العباس ، لازلت قادرا

على الأمر ، إن العفو من قادر أحرى

وحسبى ما قدم من ضنك أشهر تجرعت فيها الصبر أطعمه مرأ

يعادل منها الشهر فى الطول حقة ويعدل فيها اليوم فى طوله شهرا

أيجمل فى دين المروءة أنى أكابد فى أيامك البؤس والعسرا

وكان عبد الله باشا فكرى من علماء زمانه وأدبائهم ، ألف فى المطالعة

وفى قواعد اللغة عدة كتب تدرس فى المدارس .

ومنهم الشيخ على الليثى المتوفى سنة ١٣١٣ وكان من أشهر أدباء

زمانه وأعلمهم بالأدب والشعر ، اتصل بالخديوى توفيق ومدحه

ومن كلامه فى مدح السلطان عبدالعزيز بمناسبة عيد جلوسه سنة ١٢٩٠

دع ذكر كسرى ، وقصر إن أردت ثنا

عن فيصر الروم حيث النفع معقود

واشرح مآثر من سارت بسيرته
مولى الملوك الذى من يمن دولته
عبد العزيز الذى آثاره حمدت
أجاد نظم أمور الملك فى نسق
وشاد فوق العلاء أركانه فعدا
فلا تقسه بأسلاف له كرمتم
ففخرهم عقد در ، وهو واسطة

ومنهم عبد الله نديم الخطيب الثورى الاسكندى والكاتب القصصى

وإمام الزجالين فى هذا العصر توفى سنة ١٢١٤ ومن شعره فى الفخر

إذا ما المجد نادانا أجبنا
فانا فى عداد الناس قوم
إذا طاش الزمان بنا حملنا
وإن شئنا نثرنا القول درا
وإن شئنا سلبنا كل لب
وقال يصف قطارا بخاريا

نظر الحكيم صفاته فتجيرا
دوما يحن إلى ديار أصوله
ويظل يبكى ، والدموع تزيد
بمقاء حال السير افعى تلتوى
أو سبع غاب قد أحس بصائد
أو أنها شهب هوت من أفقها
شكلا كطود بالبخار مسيرا
بجد يد قلب باللهيب تسعرا
وجعا ، فيجرى فى الفضاء تسترا
أو فارس الهيجا آثار العثيرا
فى غابة فعدا عليه وزجرا
أو قبة المنطاد تنبذ بالعرا

وله في نظم قصة رائعة

رب عبد رمته أيام سوء
أنهكت كثرة الصيام قواه
جس منه الطبيب نبضا ضعيفا
قال : ماذا تشكو ؟ فقال مجيبا
ثم اداه الاجتهاد بأن قا
هات قرصا منضجا ثم ضعه
فأتاه المولى البخيل بقرص
أسرع العبد أكله بانتهام
ثم قال الطبيب هذا غريب
وغدا يسمع البخيل سببا
قال ليت المنية أنشبت رو
أو دهالك الدهر الخئون بماسا
هبك تخشى يوما من الدهر فقرا
إنما الفقر والغنى بقضاء
منشأ البخل واليأس ، وهو ضلال
فتوكل على المهيمن تغنم
وكل هؤلاء الشعراء أو جلهم كانوا في الطبقة الوسطى إن لم
يكونوا في الطبقة الدنيا من بين فطاحل شعراء اللغة العربية في
أزمانها المختلفة

ويبقى الشعر على هذا المنوال إلى أن ظهر في حلبة الشعر والأدب رب

السيف والقلم محمود سامي باشا البارودي فنهض بالشعر نهضة ردت اليه مجده وأعادت له دولته وأحيا تراث فحول شعراء العصر العباسي، وحمل لواء الشعر الرصين البليغ ديباجة ومعنى، وأيقظ في عالم الادب ملكات الشعر الخامده وصرف الادباء عن تلك الركاكة الشعرية والصناعة الممقوتة التقليدية إلى الديباجة الحسنة والمعاني الجزلة ومحاكاة فحول الشعراء، وكان شعره المثل الاعلى في ذلك. فتبعه الشعراء بعده وساروا على نهجه، فكان من إمام الداعين الى اعتناق مذهب الفحول من الشعراء السابقين. فخاراه في طريقته حفي بك ناصف (توفي سنة ١٩١٩) الكاتب الشاعر البليغ واسماعيل باشا صبرى الشاعر المطبوع صاحب الأغاني والانشيد البليغة والقصائد البديعة الذي (مصر) الشعر ونظم قصائد في آثار مصر منها قصيدته التي عنوها بقوله « فرعون وقومه » وقال في مطلعها

لا القوم قومي ولا الاعوان أعوانى اذا دنى يوم تحصيل العلا وانى
ولست ان لم تؤيدنى فراغنة منكم بفرعون على العرش والشان
لا تقربوا النيل ان لم تعملوا عملا فإؤه العذب لم يخلق للكسلان
ردوا الحجر كدا دون مورده أو فاطلبوا غيره ريا لظمان
وابنوكم بنت الأجيال قبلكمو لا تتركوا بعدكم نخرا لانسان
أمرتكم فأطيعوا أمر ربكم لا يثن مستمعا عن طاعة ثانى
فالملك أمر وطاطات تسابقه جنبا لجنب إلى غايات إحسان
لا تتركوا مستحيلا فى استحالاته حتى يميظ لكم عن وجه امكان
ومنها

أهرامهم تلك هي الفن متخذًا
قد مردهر عليها وهي ساخرة
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى
كانها - والعوادي في جوانبها
جاءت اليها وفود الأرض قاطبة
فصعرت كل موجود صنخامتها
وعاد منكر فضل القوم معترفًا
تلك الهياكل في الامصار شاهدة
وإن فرعون في حول ومقدرة
إذا أقام عليها شاهدا حجر
كانما هي والاقوام خاشعة
تستقبل العين في إثنائها صور
لو أنها أعطيت صوتا لكان له

من الصخور بروجًا فوق كبوان
بما يضعضع من صرح وإيوان
ما يأخذ النمل من أركان شهلاز
صرعى - بناء شياطين لشيطان
تسعى اشتياقا إلى ماخلد الفانى
وغض بنيانها من كل بنيان
يثنى على القوم في سر وإعلان
بأنهم أهل سبق أهل إمعان
وقوم فرعون في الاقدام كفآن
في هيكل قامت الأخرى ببرهان
أمامها صحف من عالم ثانى
فصيحة الرمز دارت حول جدران
صدى يروع صم الانس والجنان

وقال في الحياة وأخلاق الناس :-

فاض ماء الحياء من كل وجه
وتغشى العقوق في الناس حتى
أوجه مثلما نثرت على الاجدا
وشفاه يعكن أهلا ولو أدي
عمر الله هل إسلام. ووداد
عميت عن طريقها أم تعامت
غرها سعاها ومن عادة السع

فغدا كالح الجوانب قفرا
كان رد السلام بحسب برا
ث وردا إن هن أبدين بشرا
ن مافى الحشا لما قلن خيرا
ذاك أم حاول المسلم أمرا
أمم في مفاوز الجهل حيرى
ديوانى يوما ويخذل دهر - را

فتجنب على الشعوب وشنت
نسيت في الصعود يوم التدي
تعب الفليسوف في الناس عصرا
والورى طارد إزاء طريد
وجيوش يفل من بعضها البعض
حاذرى يا ذئاب صولة أسد
لاتنامى يا أسد إن ذئابا
عبر كلها الليالى ولكن
أنت نعم النذير يا نجم (هالى)
ظن قوم فبك الظنون وقالوا
إن يكن فى يمينك الموت فاقذ
هل تلقيت من لدن مناذل الباء
أحيط بكل شىء ومرد
أعدا تستوى الانوف فلا ينظر
أعدا كلنا تراب ولا ما
أعدا يصبح الصراع عناقا
إن يكن كل ما يقولون فاصدع

فارة فى البلاد من بعد أخرى
والتدى بصاعد الجد مغرى
وتوالى السراير الدين عصرا
وعقاب يمسى يطارد صفرا
وهضب كبرى تناطح صفرى
منك أقوى نابا وأنفد ظفرا
لم تم من روايض الفيل أضرى
أين من يفتح الكتاب ويقرا
زلزل السهل والرواسى ذعرا
آية أرسلت الى الأرض كبرى
ه شواظا على الخلائق طرا
غى وحامى الضعيف بانجم سرا
كل حى وتارك السهل وعرا
قوم قوما على الأرض شزرا
ك خلاف التراب برا وبحرا
فى الهىولى ويصبح العبد حرا
بالذى قد أمرت حيثت عشرا

ثم ظهر معجزة الزمان وحيد نسجه أحمد شوقى بك نخر الشعر
والشعراء وأمام الأءب والادباء بما ابتكر فى الشعر ، رسم مصر
والاجتماع المصرى وأشاد بتاريخ مصر والشرق والاسلام . وخلف
البارودى وبزه ، وأراد أن يجاريه فى عظامته حافظ ابراهيم فى موضوعاته

فجرى شوطا بعيدا في هذا الميدان ولكن لم يلحق بألفه .
ثم تطور الشعر تطورا وكثرا في مصر هواته من الشبان الذين
درسوا آداب الأمم الأخرى فأدخلت فيه أساليب جديدة في أنواع
التفكير وتصوير المعاني ورصف العبارات والخروج على الأساليب القديمة
ولانزال صناعة الشعر تتقاذفها الأهواء وحب الخروج من القديم الى
خير أو الى شر إلى أن يستقر الأمر على مذهب جديد أو قديم .

الصبغة المصرية

ويجدر بنا هنا أن نلاحظ أن الصبغة المصرية قد ظهرت في الشعر
منذ أن ظهر شعر البارودي في عالم الأدب لأنه رسم في شعره صورا
من الحياة النفسية المصرية وتأثر بحوادث مصر السياسية والاجتماعية ،
فأثارت في نفسه التعبير عما يجول بها ، فرسم من تلك الحياة صورا في
شعر عربي فصيح ، جاري فيه أيضا بعض القدماء في أساليبهم من حيث
اختيار الألفاظ والعبارات والتشبيهات . وجاراه في أسلوبه ونوعه
بعد ذلك اسماعيل باشا صبرى ، وحدث في الأيام الأخيرة - أى أوائل
القرن العشرين - أن تأثر الشعر بالحوادث السياسية والاجتماعية فتسابق
شعراؤنا في هذا الميدان ، وأعظمهم قدرا . وأجلهم ذكرا في ذلك من
شعراء هذا العصر ، المرحوم أحمد شوقي بك ، والشاعر المظبوط المرحوم
حافظ إبراهيم بك ، فان هؤلاء كثيرا من القصائد والمقطوعات التي
تحتسب من الشعر المصري الصميم حيث يرى القارى فيه صورة للحياة
المصرية ونفوس أهل مصر ، وكل هذا من الشعر العربي الفصيح

وقد تأثر الشعر الفصيح والنثر البليغ أيضا بالاجتماع المصرى والحياة المصرية فكان من أصدق صور الاجتماع وأحوال الناس فى بلدنا كما فى مقطوعات للبارودى ، ولإسماعيل باشا صبرى فى أغانيه التى وضعها شىء من ذلك ، وكان للحوادث الأخريرة التى حدثت فى مصر منذ أوائل القرن القرن الرابع عشر الهجرى أى سنة ١٨٩٠ ميلادية أثر عظيم فى نفوس شعرائنا المعاصرين لنا ، حتى ظهر كثير من هذه الحوادث أو التلميح إليها فى شعرهم . وأظهرهم فى هذا الشاعر ان الشهيران أحمد بك شوقى ومحمد حافظ ابراهيم بك صاحب القصائد المعروفة فى أحوال مصر الأخريرة وسياسة البلاد والحوادث الوطنية ، على أنه قد سبقهما بشىء من هذا النوع المرحوم رفاعة بك الطهطاوى فى أناشيده كما أشرنا إلى ذلك . فشعر هؤلاء حادث من الحوادث ذات الأثر الشهير فى الأدب العربى ولا سيما فى الشعر العربى ، لأن هذا ما يسمى حقا (تطورا) وانتقالا من نظام القصائد المعروف الذى كان متبعها فى الشعر العربى ، وفى جميع البلاد التى تتكلم بلغة العرب ، ولا شك فى أن منشأ هذا الانتقال انتشار ما يسمونه بالروح الوطنية ومحاكاة الأمم الأوربية فى ذلك ، بالاطلاع على ما كتبوا ونشروا من شعرهم وآدابهم . ولا يسعنا المقام الآن لتفصيل هذا الكلام ولكننا نقول مجملين القول إجمالا : أن هذه الروح التى انتشرت فى مصر أخيرا عند شعرائنا روح جديدة فى الشعر العربى لا بد أن تسير بالأدب إلى نوع مصرى يمثل الروح المصرية والحياة المصرية

وقد حدث فى مصر مثل ما حدث فى غيرها من البلدان التى يتكلم

أهالها العربية ؛ فكان فيها أدبان - أدب عربي صحيح وأدب مصري أكثره ملحون . ولقد قبض الله لهذا البلد بعض الأدباء الذين ساعدوا على نشر هذا الأدب المصري بالتعبير عن آراء العامة وتصوير الاجتماع المصري في أزجال شعرية أو أحاديث نثرية . فنقلوا لما تلك النفوس وما كانت عليه في هذا الكلام الذي صنعوه ووضعوه في قالب في لا يقل بهجة ولا جمالا عن ذلك الشعر العربي البليغ . هذه الأزجال العامية وهذه الأحاديث التي تمثل لهجة السواد الأعظم من المصريين ونوع آخر من الشعر الفصيح لكبار الشعراء المصريين وهو ما نسميه « بالأدب المصري » وهو الذي سنتكلم عليه الآن وننشر نماذج منه ولكن قبل أن نصف ذلك الأدب المصري يلزمنا أن نقول كلمة عن العصر الذي نشأ فيه ، وعن أخلاق المصريين في جملتها لانه مرآة لهذين العاملين ، ونقتصر في هذا على القرن التاسع عشر .

أما الحالة الاجتماعية منذ استولى المغفور له (محمد علي) على مصر في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي فكانت متأثرة بأحوال سياسية بعضها كان طالقا بالنفوس من عصر المماليك ، ذلك العصر الاستبدادي الذي ولد في الشعب المصري الخضوع للحاكم خوفا من بطشه . والتهكم عليه وعلى أعوانه في السز لافي العلانية ، والاستسلام إلى القضاء ، والاستهانة بأحوال الحياة ، وتحمل الظلم على أنه قضاء من الله ، والتسلي عن الآلام بالتهكم والسخرية من الحياة والناس وأحوالهم ، والرضا بما ينال الانسان في عيشه ، حتى أصبحت هذه الصفات كأنها طامة في المصريين ، وكانت أكثر ظهورا في سكان القاهرة الذين كانوا متصلين

بالحكام أو على كتب من أعمالهم . وبعض أحوال المصريين الاجتماعية نشأت من تبسط الحكام في الحياة والمساعدة على إباحة السرور للناس بالتمتع ونشر أعلام السرور ، والافاضة على العامة بالأموال من جراء ذلك ، باقامة الاحتفالات والأفراح كما كانت الحال في عصر (الخدوي اسماعيل) فقد اختص بعض الأدباء والشعراء والمغنين كالشيخ علي الليثي وعبد الحمولى وغيرهما ، حتى سرى في البلد روح فنى أدبى ، وعلى أثر ذلك السرور انتشر في النفوس الميل إلى التهمك (والتنكيت) والنقد الحلو والفكاهة العذبة . فوافق ذلك أخلاق المصرى في جهاتها وهى — كما قانا — الاستسلام إلى القضاء وتحمل أعباء الحياة بكل خضوع وارتياح ، والنظر الى الدنيا نظر الفيلسوف أو المتوكل على الله . ومقابلة المصائب مقابلة الصبور المستهزىء بها . والمصرى بطبعه صبور يركبها في يوم ما يسد رمقه ويشتغل أشق الأعمال غير متألم ولا جزع فاذا ناء بالاثقال قال (الحمد لله على الصحة والعافية) ومع ذلك فهو ممتلىء نشوة وسرورا ، خفيف الروح يميل إلى (التنكيت والتبكيت) فكه المجلس يمزج الهزل بالجد في حديثه . حلو المعاشرة كثير الضحك بعيد أحيانا عن النظر في المسائل الجدية كثير التسامح لين الجانب . حتى لقد يقابل كلمة السوء تصديه من عدو يريد أن ينكل به ، أو صديق خبيث يريد أن يهزأ به بقهقهة (وبنكتة بلدية) أو بفكاهة ظريفة . ولقد يكتفى بالتهكم والسخرية لاظهار ألمه ، ويبتلع الكلمة المرة التى يغص بها غيره وتحدث في نفسه غثيانا . وربما حمله الحياء أحيانا على أن يبقى على غيره — وإن أساء — لأنه صفوح عن الاساءات .

ليس من أصحاب الأثر . به كثير من السذاجة الفطرية التي قد تنغلب على قوة عقله وحضور ذهنه ولباقة لسانه ، طيب القلب ، كريم النفس ، ضعيف الإرادة ، ومن هنا تجده كثير التسامح .

وجملة القول ، أن أعظم ما يوصف به عقل المصري هي ملكة النقد والتهكم وخفة الروح ، وحسن الفكاة ، ووحدة الذكاء وحضور الذهن كل هذا ، وغيره كثير ، ظهر في الأدب المصري الحديث . فان الحوادث السياسية والاجتماعية في تلك الأيام حركت نفوس الأدباء من كتاب وشعراء إلى نقد الاجتماع والنظر في الحياة المصرية ووضعها فنشأ عن ذلك الأدب المصري الحديث الذي ظهرت فيه هذه الأخلاق التي رسمناها أمام القاري . وكانت هذه الآداب بلهجة قريبة من لهجة العامة لتمثيل عقولهم وأفكارهم وما كان يجري بينهم من الأحاديث والآراء . وأكثر ذلك نسيج في نوع من الشعر المعروف بالزجل وانتشر هذا منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى آخره على لسان الشيخ حسن الآلاتي ، وعبدالله نديم والشيخ محمد النجار وغيرهم .

بل ظهر نوع من الأدب الحديث الذي لم يكن معروفا في الآداب العربية قبل هذا العصر ، على أنه أقرب شيء إلى تصوير الحياة الاجتماعية تصويراً صحيحاً ، وهو تلك القصص التمثيلية المصرية بلهجة قريبة جدا من لهجة العامة ، وأول من ابتكر هذا النوع عبدالله نديم برواياته (الوطن والعرب) وغيره ممن سنتكلم عنهم ، وظهرت أناشيد مصرية وطنية كما في قصائد المرحوم الشيخ رفاعة الطهطاوي وقصص أخرى منظومة أو منثورة للمرحوم محمد عثمان جلال وغيرهم .

وعلى الجملة فإن لأدباء القرن التاسع عشر في مصر الفخر في أن
يرسموا الأخلاق المصرية في آدابهم ، وأن يزيدوا في الآداب العربية آدابا
مصرية حديثة

وليس الأدب المصري كله من الشعر أو النثر العامي ، بل تأثر الشعر
الفصيح والنثر البليغ أيضا بالاجتماع المصري والحياة المصرية . فكان
من أصدق صور الاجتماع وأحوال الناس في بلدنا كما في مقطوعات
للبارودي ، ولإسماعيل باشا صبرى في أغانيه التي وضعها شيء من ذلك .
وكان للحوادث الأخيرة التي حدثت في مصر منذ أوائل القرن الرابع
عشر الهجري أي سنة ١٨٩٠ ميلادية أثر عظيم في نفوس شعرائنا
المعاصرين لنا ؛ حتى ظهر كثير من هذه الحوادث أو التلميح إليها
في شعرهم . وأظهرهم في هذا الشاعران الشهيران أحمد بك شوقي حامل
لواء شعرائنا الآن ، ومحمد حافظ إبراهيم بك صاحب القصائد المعروفة
في أحوال مصر الأخيرة وسياسة البلاد والحوادث الوطنية ، على أنه
قد سبقهما بشيء من هذا النوع المرحوم رفاعة بك الطهطاوى في
أناشيده كما أشرنا إلى ذلك . فشعر هؤلاء حادث من الحوادث ذات
الأثر الشهير في الأدب العربي ولا سيما في الشعر العربي ، لأن هذا
ما يسمى حقا (تطورا) وانتقالا من نظام القصائد المعروف الذي كان
متبعاً في الشعر العربي ، وفي جميع البلاد التي يتكلم أهلها بلغة العرب . ولا
شك في أن منشأ هذا الانتقال انتشار ما يسمونه بالروح الوطنية ومحاكاة
الأمم الأوربية في ذلك ، بالاطلاع على ما كتبوا ونشروا من شعرهم
وآدابهم ولا يسعنا المقام الآن لتفصيل هذا الكلام ، ولكننا نقول

مجملين القول إجمالاً : أن هذه الروح التي انتشرت في مصر أخيراً عند شعرائنا روح جديدة في الشعر العربي لا بد أن تسير بالأدب إلى نوع مصرى يمثل الروح المصرية ، والحياة المصرية .

وحدث في النثر مثل ذلك أو أكثر بما ينشر من الروايات والقصص الاجتماعية والتمثيلية ، ولكن من أسف لم يعن بجمعها وتدوينها والاطلاع عليها مثل ما عنينا بالشعر ، وذلك لعدم شهرة كتابها ، ولأن كثيراً منها مكتوب بصيغة لا يعتمد عليها قراء العربية الصحيحة . غير أن شيئاً من ذلك لا يدعونا الآن إلى الخط من قدرها وعدم العناية بها وعلى أنها في رأينا من أصدق صور حياتنا المصرية .

لأن هذا الشعر العامي ، أو الزجل المصرى الذى نشأ أيضاً على أثر الحوادث السياسية والاجتماعية فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر أظهر فى تمثيل الحياة الاجتماعية لقربه من اللغة العامية التى يتكلم بها جمهور الشعب المصرى . ولقد كان عبد الله نديم (١٨٤٤ - ١٨٩٦) حامل لوائه ، وأعجوبة زمانه فى ذلك ، وكان بطبعه ميالاً لنقد الأحوال الاجتماعية والسياسية ، قادراً على الاسترسال فى الكلام حلوا الفكاهة يميل إلى التنكيت والتبكيك فبرع فى هذا النوع من الشعر العامي وملاه بنقد الاجتماع ووصف الرذائل الفاشية ، وكان ينشر ذلك فى جريدتى (التنكيت والتبكيك ، والاستاذ) وسرت هذه الروح الأدبية العامية فى مصر ، وجرى عليها أكثر الأدباء حتى كانوا يتراسلون بالزجل ، ولم يكديخلو مجلس من مجالسهم بدون أن يتراسقوا بأبيات منه ، أو يتنابدوا ببعض عباراته أو يتناشدوا مرتجلين الكلام

ارتجالا ، وكل هذا ممزوج بفكاهة أو شكوى يبعثها شعور وطني ،
وكان هذا أيضا على أسلوب الأغاني العامية ، وقد انتشر هذا النوع
إلى ما بعد أوائل القرن العشرين ، وكان لمحمد عثمان بك جلال (توفي
١٨٩٨) شيء من هذا ، وكثير من طلبة العلم والشعراء طرقتوا هذا
الباب ، ومنهم من أصبح معروفًا بين الزجالين كالشيخ محمد النجار ، وإمام
العبد الشاعر المعروف ، وغيرهما ممن أشتهر ذكره :

فمن نوع هذه الازجال قول الشيخ محمد النجار (توفي في أوائل
القرن العشرين) وهذا زجل وضعه لينتقد فيه شبان العصر وسماء
« زجل في الموضه » وهو من نماذج هذه الازجال التي كانت منتشرة
في نقد الأحوال الاجتماعية والذائل التي انتشرت بين ظهرائنا .

المطلع

ياموضه ياجيل الوز ياحنية من غير بز

دور

ياموضه جيلك معروض فات السنة والمفروض

يبقى صغار لسه ومقروض ويروح آل يسكر ويمز

دور

الجامع يوم الجمعة فاضى والخمارة جامعة

والغيبه في شهره وسمعه تدبج في الرقبة وتحز

دور

والموضه راكبه فيتون والعاشق فيها مفتون

والعازب عقله مجنون من كدته يفتن ويوز

دور

الموضنه بطربوش وزكته والهـلاح بالتوب البفتة
قولوا له الستة بسته دى اللبده من عرقه تنز

دور

ماعليهش فلاح مش موده على قده ساكن فى أوده
وأنت ياموضنه فى روضه والاجرة بتحقق وتحز

دور

تقليدك للغير ياخيه جابرجلك بعدن فى اخيه
وغرقت فى شبرين من ميه ووقعت فى دين بيعز

*
* *

وفى هذا الزمن الذى اتجه فيه الشعراء إلى نقد الاجتماع بهذه اللهجة العامية كانت اللغة العربية الفصحى ظاهرة بجلالها وجمالها ناشرة ألية فصاحتها وبلاغتها مالكة أعنة هؤلاء الشعراء أنفسهم ، فلم يكن منهم إلا من كان شاعرا فصيحاً يحسب من أبلغ شعراء العصر . وهكذا سار الشعر الفصيح إلى جانب الشعر العامى حتى تغلب عليه وسبقه وأطفأ جذوته وثار من جديد فى نفوس شعرائنا الحديثين ، وأخذ الشعر المصرى الاسلوب العربى الفصيح مع دلالاته على حياتنا المصرية . وسرى قريبا إمعان شعرائنا فى ذلك حتى يصبح الشعر المصرى نوعاً من الشعر العربى ، يضم إلى تقسيم الشعراء المعروف ، ويزيد فى بلاغة العرب نوعاً جديداً .

محمود سامى البارودى

نسبه وانشأته

هو محمود سامى البارودى بن حسن حسنى البارودى (أمير الموفعية ومدير (برر) و (دقوله) زمن محمد على باشا) بن عبدالله بك الجركسى وينتهى نسبه إلى نوروز الاتابكى المالكى الاشرفى أخى برسباى قرا المحمدى والبارودى كما جاء فى شرح ديوانه نسبة إلى اتياى البارود المعروفة كان بها جده الامير مراد البارودى .

وكانت ولادة محمود سامى بالقاهرة بقصر باب الخلق فى شهر رجب سنة ١٢٥٥ هـ من الهجرة وقد توفى والده سنة ١٢٦٢ هـ وعمره سبع سنين تربي وتعلم محمود سامى تربية أبناء الاشراف والسراة فى ذلك الزمن وتلقى العلم على أساتذة بمنزله وتعلم اللغة العربية على شيوخ الازهر وكان فى نفسه منذ صغر ميل إلى علوم البلاغة وقراءة الشعر ومعالجة الكتابة وحفظ أشعار العرب والعناية بأسرار اللغة حتى وقف على دقائقها ونمت فى نفسه ملكة الشعر وحب الاطلاع على كلام فحول الشعراء فأخذ فى نظم الشعر ومجاراته هؤلاء الشعراء فى قصائدهم الشهيرة ووقف جهوده العقلية على التأدب بكلام العرب. ويظهر أن ذلك كان كل مالىه من ثقافة لانه لم يكن ممن يقرؤن كثيرا كما ذكر ذلك الشيخ حسين المرصنى فى الوسيلة الأدبية . قال هذا الامير الجليل ذو الشرف الاصيل والطبع البالغ نقاؤه والذهن المتناهى ذكاؤه محمود سامى باشا البارودى ؛ لم يقرأ كتابا فى فن من فنون العربية غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله . فكان يستمع بعض

من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين أو يقرأ بحضرة حتى تصور في
برهة يسيرة هيآت التراكيب العربية ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات
والمحفوضات حسب ما تقتضيه المعاني والتعليقات المختلفة . فصار
يقرأ ولا يكاد ياجن . وسمعتة مرة يسكن ياء المنقوص والفعل المعتل بها
المنصوبين . فقلت له في ذلك . فقال هو كذا في قول فلان وأنشد شعرا
لبعض العرب . فقلت تلك ضرورة . وقال علماء العربية أنها غير شاذة
ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ
الكثير منها دون كافة واستثبت جميع معانيها ناقدا شريفها وخسيسها
واقفا على صوابها وخطئها مدركا ما كان ينبغي وفق مقام الكلام وما
لا ينبغي ، ثم جاء من صنعه الشعر اللائق بشعر الأُمراء كأبي فراس
والشريف الرضي والطغرائي الخ ..

هذا كل ماتعاهه البارودي وقد روى ذلك شارح ديوانه أحد
شيوخ الأزهر الذي لازمه في آخر حياته وكان كاتب سره . والشيوخ
حسين المرصفي وكان معاصرا له وأحد أصدقائه المعجبين به . ومن هذا
نرى أن ثقافة البارودي كانت ثقافة شعرية لا غير وكل معلوماته كانت
لا تتعدى حفظ أشعار العرب ومعرفة أسرار بلاغتها : مع ذلك فقد
بلغ شأوا المتقدمين وبذلك كثيرا منهم
البيئة وأثرها :

ولكن البارودي تعلم كثيرا من البيئة التي عاش فيها وقرأ في
صحف الحياة مالميس في الكتب وأملت عليه الحوادث مالماتمليه عقول
الرجال ، وكان ذكي الفؤاد بطبعه فتعلم كثيرا مما شاهدته وسمعه ورآه

مع هذا فكان البارودي ميالا إلى معرفة اللغات وإلى آداب الأمم الأخرى كما أشار إلى ذلك الشيخ حسين المرصفي فيما سبق إذ قال: « ثم استقل بقراءة دوواين مشاهير العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منهم بدون كلفة » وكان أقرب اللغات إليه وأحبها بعد العربية اللغة التركية لغة آباءه وأجداده فسافر إلى القسطنطينية وانتظم في سلك الموظفين هناك وتعلم اللغة التركية وأتقنها حتى صار كاتبا وشاعرا فيها . ويقولون أنه في ذلك شعرا ونثرا يعد من الكلام البليغ . وتعلم مع ذلك اللغة الفارسية وحذقها أيضا ونظم فيها قصائد بليغة .

وقد بقي البارودي في الاستانة إلى سنة ١٢٧٩ من الهجرة ثم رجع إلى مصر مع الخديوي اسماعيل وبعد ذلك انتظم في خدمة الجيش فأُسندت إليه رتبة بكباشي وقيادة فرقتي الفرسان (السوارى) ثم سافر إلى فرنسا مع بعض زملائه الضباط لمشاهدة عرض التدريب العسكري الذي كان يقام هناك كل سنة وسافر من باريس إلى لندن للاطلاع على نظام الجيش الإنجليزي وعدد القتال هناك وأسأحته ثم رجع إلى مصر وقد عرف نظم الجيش في فرنسا وإنجلترا .

ارتقاؤه المناصب :

وما زال يرتقى إلى المناصب العسكرية حتى نال رتبة « أميرالاي » وقيادة الحرس الخاص وعندما خرجت جزيرة أقریطش (كريت) على الدولة العثمانية أرسل على رأس جيش لمحاربة هؤلاء الخارجين ، ويقولون انه أظهر هناك من ضروب الحيل والمقاتلة ما بهر الأعداء ، وأنال جيشه النصر والظفر . وفي هذه المواقع قال قصيدته الشهيرة :

أخذ الكري بمعاقد الاجفان وهما السرى بأعنة الفرسان
والليل منشور الذوائب ضارب فوق المتالع والربا بجران
لا تستبين العين في ظلمائه إلا اشتعال أسنة المران

إلى أن قال :

والخيل واقفة على ارسائها لطراد يوم كريمة ورهان
وضعو السلاح إلى الصباح وأقبلوا يتكلمون بالسنة النيران
حتى إذا ما أصبح أسفر وارتمت عيناي بين ربا وبين مجاني
فاذا الجبال أسنة وإذا الوها دأعنة والماء أحمر قان

وبعد أن رجع من هذه الحرب دخل في حاشية الخديوى اسماعيل
طرسا (ياورا) ولما صار توفيق باشا وارثا للحكم في مصر عين البارودى
ئيس الحرس (الياوران) ثم كاتب السر الخاص للخديوى اسماعيل .
وقد أرسل بعد ذلك مرات لمساعدة الدولة العثمانية في حروبها مع
هرسك والبلقان والجبل الاسود . كما أرسل سنة ١٢٩٤ من الهجرة
مساعدة جيش السلطان في حربه مع الروس . وكان في كل هذه الحروب
مثال الشجاعة وشدة البأس وسداد الرأى وحسن التدبير والقائد البطل الجعد
قد حاز أرقى القاب الشرف العسكرية . ثم عين بعد ذلك مديرا للشرقية
م حاكم لمدينة القاهرة (رئيس ضبطينة القاهرة) فأقام في أثناء ذلك العدل
ضبط الامور وأصلح مفاسد الاخلاق من ظلم ورشوة ، وكانت في ذلك
وقت مراجل الحق تغلى في طبقات الناس ونيران الشرور تندلع اندلاعا
ولما خرج الخديوى اسماعيل من مصر سنة ١٢٩٦ هجرية . وأصبح
رفيق باشا حاكم وادى النيل قلد البارودى وزارة الاوقاف . فأقام أودها

ونظم أعمالها وفي سنة ١٢٩٧ من الهجرة . عين وزيراً للجهادية (الحرية) على أثر الاضطراب الذي حدث في الجيش ثم أعتزل مركزه هذا ثم رجع يتقلب في مناصب الوزارة حتى عين رئيساً للنظار (الوزارة) سنة ١٢٩٩ وبقى بها إلى أن كثرت الدسائس فهجر تلك المناصب ولزم بيته إلى أن قامت الثورة العراقية فالتجأوا إليه للاستعانة به وقد نصح بغير ما رأى عرابي وأشياءه في محاربة الانجليز ولكنه رأى من الواجب عليه مساعدة أمته ووطنه فاشترك مع القائمين بالثورة . ثم كانت الكارثة الكبرى في هزيمة المصريين فقال في ذلك .

نصحت قومي وقلت الحرب مفجعة وربما تاح أمر غير مظنون
نخالفوني وشبوها مكابرة وكان أولى بقومي لو أطاعوني
تأني الأمور على ما ليس في خلد ونخطيء الظن في بعض الاحايين
حتى إذا لم يعد في الأمر منزعة وأصبح الشر أمراً غير مكنون
أجبت إذ هتفوا باسمي ومن شيبى صدق الولاء وتحقيق الاظانين

نفيه :

ثم أسر بعد ذلك وأرسل إلى ميلان بالهند وبقى هناك سبعة عشر عاماً فقد في آخرها بصره وزوجه وأولاده وكثيراً من أصدقائه وقد كان لهذا للنفي أثر عظيم في حياته ألهمه آيات بينات في شعره وعبراً وحكماً في كلامه . وفي آخر الأمر عفى عنه الخديوي عباس الثاني فرجع إلى مصر من منفاه سنة ١٣١٨ هجرية . وما زال كعبة الأدباء إلى أن توفي سنة ١٣٢٨ .

شعر البارودي

لانكاد نجد عصر من عصور الأدب انحطت فيه مدح الشعر
مثل العصر الذي أدركه البارودي في صباه . فقد كان الشعر صناعة
ومحاكاة للقدماء . بل كان صناعة ضعيفة ومحاكاة ناقصة وصورة مشوهة
لأن تقدم من الشعراء وكانت هذه حال الشعر منذ العصر التركي وقبليه
أى منذ القرن الثامن الهجرى حيث سادت الصناعة اللفظية المتكلفة
وصار الشعر تقليدا واختلافا وكذبا في ضروب الغزل وتملقا في المدح
وسرقة واعتصاما في جميع الأغراض والمعاني . وصار الشعراء يعبرون
بالألفاظ ولا يبالون بما يقولون وأنحط الشعر عند كثير منهم إلى أن
أصبح ضربا من الوزن لا غير ليس فيه روح الشعر الصحيح ولا جمال
الافتنان اللذان هما عماد بلاغة القول لدى الشعراء . وقد كان أقطاب
شعر العصر الذى عاش فيه البارودي أمثال السيد اسماعيل الخشاب
(توفى سنة ١٣٢٠) والشيخ حسن العطار (توفى سنة ١٢٥٠) والسيد
الدرويش (توفى سنة ١٢٧٠) ومحمد صفوت الساعاتى (توفى ١٢٩٩)
وغيرهم ممن لا يحسب شعرهم من الشعر الجيد فى شيء كما جاء فى قصيدة
للسيد صالح مجدى بك (توفى سنة ١٢٨٩) يمدح بها حسين باشا نخرى
ناظر الاشغال والمعارف والاقواف حيث قال

لجنابك العالى ثلاث مصالح نظمت بسمطى عسجد ولبين
وأضياء منك جبينها برياسه أعمالها منشورة العالمين
ونمت بها بركات أوقاف روت مصرا وقد فاضت على الحرمين
وبحزمك الاشغال زاد نجاحها ونجازها فى السهل والجبلين

وبديع نظم كامل في كامل من مخلص بالقلب والشفقتين
من مخلص لك في الثناء بدولة أصبحت فيها حائز الشرفين
وقد يكون من جيد الشعر إذ ذاك قول عبدالله باشا فكرى
يشكر الخديوى، توفيق على العفو عنه أثر الحوادث العرايية
حيث قال

مليكى ومولاى العزيز وسيدى ومن ارتجى آلاء معروفه العمرا
فقد جاءوا بنا زوروا ثوبوا بساياتنا، وذكرا
فما كان لى فى الشر باع ولا يد ولا كنت من يبنى مدى عمره الشرا
فعموا أبا العباس لازلت قادرا على الأمر أن العفو من قادر أخرى
هكذا كانت جمهرة الشعراء فى هذا العصر وهكذا كان جل
الشعر على هذا النحو من الضعف

فلما ظهر البارودى فى حلبة الشعراء بعث روح الشعر العباسى
من مرقدہ وأحيا لنا روعة شعر أبى نواس، والبحترى، ومسلم بن الوليد
والشريف الرضى، والمتنبى، وأبى العلاء المعرى وأمثال هؤلاء الفحول
بحاكتهم والسير على سنتهم وجاء بالجزالة والرصانة فى المعنى والاسلوب
وأسكت شعراء عصره وكانت روحه روح شاعر مفطور على فهم
الشعر الفنى البليغ وأدراك فنونه فاقتبس من فحول الشعراء خير معانيهم
وأجملها وأعاد لنا العصر العباسى بصناعاته الجميلة وبلاغته الرائعة إذ كان
يفهم الشعر لا كما يفهم غيره من شعراء عصره بانه نظم وصناعة بل
قال فى مقدمة ديوانه :

« وبعد فان الشعر لمعة خيالية يتألق وميضها فى سماوة الفكر

فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب فيفيض بلاؤها نورا يتصل خيطه
بأسلة اللسان فينفث بالوان من الحكمة ينباج بها الحالك ويهتدى بدليلها
السالك وخير الكلام ما اتلفت ألفاظه وأتلفت معانيه وكان قريب
المأخذ بعيد المرى ، سليما من وصمة التكاف بريثا من عشوة التعسف
غنيا عن مراجعة الفكرة فهذه صفة الشعر الجيد »

هكذا كان البارودي يفهم الشعر . فلم يقل الشعر محاكاة لا غير
أو من باب التسلية أو اظهار للبراعة أو رغبة في الحصول على عطاء أو
شهرة وإنما كانت تمتلىء نفسه بالمعاني والأغراض وتملىء عاينه الحوادث
فينظمها كما قال هو عن نفسه :

« لقد كنت في ريعان الفتوة واندفاع القريحة بتيار القوة ألهج
به لهج الحمام بهديله وآنس به أنس العديل بعديله . لا تذرعا إلى وجه
أنتويه ولا تطلعا إلى غم أحتويه . وإنما هي أغراض حركتني وإباء
جميح بي وغرام سال على قلبي فلم أتمالك أن أهبت فحركت به جرسى
أو هتفت فسريت به عن نفس

تكالست كالماضين قبلي بما جرت به عادة الانسان أن يتكلم
فلا يعتمدني بالأساءة غافل فلا بد لابن الأيكة أن يترنما »
فكان شعره صادقا منبعثا من قرارة نفسه ومن عواطفه وإحساسه
وصورة لما يجول برأسه من أثر مارآه وشاهده ووقع له في شئون حياته
المختلفة . فليس هو شاعرا خياليا ولا هو ممن يصورون مظاهر الطبيعة
وجمالها إظهارا لبراعته وافتنانه ولا من الشعراء الذين يستمدون الشعر
وأخيلته من أحلامهم اللذيذة وأهوائهم النفسية وميولهم الفنية لا غير

أما البواعث التي بعثته على قول الشعر والصفات العامة لشعره ونواحيه فهي كثيرة منها تربيته تربية أبناء الأشراف (أو البيئته الارستقراطية) التي طاش فيها فقد أثرت هذه التربية في نفسه حتى جعلته يشعر بالعزة والكرامة أكثر من كل شيء. فكان نبيلاً في كلامه كما كان نبيلاً في أصله وخلقه وصار يتغنى بهذه النبالة في شعره في غير ماموضع ويذكر أنفته من الناس واستغناءه عنهم في شيء من الكبر والعظمة وكرامة النفس مما لا يعرف عند كثير من الشعراء فيقول

خلقت عيوافا لا أرى لابن حرة على يدا أغضى لها حين يغضب
او يقول :

وإني امرؤ لولا العوائق أذعنت لسلطانة البدو المغيرة والحضر
من النفر الغر الذين سيوفهم لها في حواشي كل داجية فجر
إذا استل منهم سيد غرب سيفه تفرعت الأفلاك والتفت الدهر
لهم عمدة مرفوعة ومعافل وألوية حمر وأفنية خضر
ونار لها في كل شرق ومغرب لمدرع الظلماء السنة حمر
تمد يدا نحو السماء خضيبية تصاخها الشعرى ويلثمها الغفر
وخيل يعم الخافقين صهيلها نزائع معقود بأعرافها النصر
معودة قطع الفيافي كأنها خدارية فتحاء ليس لها وكر
أقاموا زماناً ثم بدد شمامهم ملول من الأيام شيمته الغدر
فلم يبق منهم غير آثار نعمة تضوع بريها الأحاديث والذكر
وقد تنطق الآثار وهي صوامت ويثني برياه على الواابل الزهر
لعمرك ما حي وإن طال سيره يعد طليقا والمنون له أسر

ولقد تحمله كرامته على أن يثب وثبة الأسد في وجه من يغضب منه ولا يبالي بماذا عسى أن يكون من قطيعة ولا غضب . وتعالو نفسه إلى السماك فيهبج ويثور ويجاهر بالعداء ولا يقبل ودا بعد غدرو ويتهدد ويتوعد ويستتهين بنده وكأنما ترى الحماة تقذف بالموت في كلامه وكأنك تسمع في شعره زئير الأسد أو تراه أمامك سالا سيفه متحفزا للوثوب ، أو كأنك تسمع صوته ، وترى حركاته ، ولكن كل ذلك في عفة لسان ، ونبالة نفس ، وفي أدب العظماء إذ يقول :-

أتخفر ذمتي وتروم عطفي	لقد منتك نفسك بالكذاب
فما بعد القطيعة من تلاق	ولا بعد الخديعة من عتاب
وكيف يصح بعد الغدر ود	وتسلم نية بعد ارتياب
رويدك إنني صعب أبي	على الأقران مرهوب الجناح
أجاهر بالعداء ولا أبالي	وأنطق بالصواب ولا أحابي
فما زندي لدى العوصاء كاب	ولا سيفي غداة الحرب ناب
يهاب القرن بادرني فيمضي	وما جردت سيفي من قراب
فان رمت السلامة فاجتنبني	عدوا فالسلامة في اجتنابي
فقد عادت أعظم منك قدرا	وما ضاقت على بدني ثيابي
فان تنزع فأنت طابق عفوى	وان تطمع فسوف ترى عقابي

ويظهر أن هذه النبالة النفسية وكرم المحتد كثيرا ما كانا يستوليان على عقله وشعوره فيتغنى بهما . ولعله كان يريد بذلك أن يدفع عن نفسه ما علق بها من شرور الأيام أو ما أصابه من جراح حياته السياسية ومن مميزات نخره أنك إذا قرأته أعجبتك منه روح الشاعر ورأيت أن

شعره ليس من باب العظمة والكبرياء ولا العجب بالنفس وانما هو تنفس
وأنين ونقمة على الحوادث والأيام وتبرأ من الدنيا وإشعار بالهمة
والكرامة أو هو صورة من نفس الشاعر الكبيرة المتألمة الفخورة
بالفضائل لهذا تحب أن تقرأ شعره وتشعر بميل إلى الشاعر نفسه
لأنك ترى فيه مع ذلك نفسا طروبة عظيمة طيبة كريمة نبيلة

استمع اليه يقول :

فليس من أغوى كمن أرشدا	فاقبل وصاتي واستمع حكمتي
ومسمع يطربني منشدا	إني وان كنت أنا صبوة
وأهبط الأرض عليها الندى	فقد أزور الليث في غابه
أصدع الا البطل الأثميذا	وأصدع الخصم وما خلتنى
لـكنه يمضى إذا سـددا	« بلهزم » ليست له صعدة
ولم يزل في جفنه مُغمدا	أو « صارم » يقرى نياط الكلى
لا يعرف الصيقل والمـبردا	ماضى العزارين ولاـكنه
إلى امرىء غير يد أقصدا	أو « مشقص » ان فوقت نصله
يشوق إن هينم أو غردا	أو « طائر » فى وكره جاثم
فيه وبابا دونه مؤصدا	لم بعد كنا لم يزل ساكنا
يوم نضال صدع الجامدا	قد لان إلا أنه ان قسا
يجول فى مسـكنه سرمدا	معتقل لـكنه مطلق
ويعرف الأصلح والأفسدا	يحكم بالذوق على ما يرى
تنقل عنه نبرات الصدى	له صحاب قد أحاطت به

فهو بها مجتمع شمله ان أصدر القول بها أوردنا
مشتبهات الرصف في جودة تبارك الله الذي جودنا
يبديت منها وهو ذو مرة في رصف من لؤلؤ نضدا
ذاك « لساني وهو حسبي إذا ما أبق الحاسد أو أرعدا
أثر النفي في شعره :

وقد كان للحوادث التي حدثت بمصر ونفى من أجلها البارودي
أثر عظيم في نفسه كما كان لتربيته تربية النبلاء ذلك الأثر الذي رأيناه
ودفعه الى الفخر باخلاقه النفسية وآدابه العالية فان خروجه من بلاده
فتح أمامه باباً للشكوى مما أصابه من عنت وظلم دفعه إلى الحنين إلى
وطنه وألمه كثيراً من المعاني والاختيلة الشعرية فكانت قصائده في
هذا الباب من أجزل المعاني وأبلغ ما تكون بلاغة وأبرع ما يكون افتتان
فقد تجده يذكر أيامه الماضية ويصور حاله وما كان فيه من عزة
وكرامة ورفعة شأن وجاه عظيم ، ويبسط أمامك تلك المجالس والمحافل
التي كان فيها العلم المفرد ، وتجد مع هذه الصور التاريخية الاجتماعية
صوراً متعددة لنفسه الكبيرة العزيزة بماضيها الذليلة في حاضرها .
ويدنما تجده يحمق في قمة مجده وعلاه ، يزهو بما رآه ويفخر بماضيه يجده
متأثراً بما نزل به من الحوادث . ولكنك لا تجده أبداً يصور نفسه في
ذلة أو حقارة بل يتحدث فقط عما نزل به ظمًا وعموانًا وهو يستسلم
للآلام ويعجب من الاقدار فيكشف عن نفسه بأئسة يائسة حتى يظن
لأول وهلة أنها فقدت عزتها أو تنامت كرامتها فقضت لما وقع بها
ولكن قوة نخره بنفسه وشيئه تذهب بهذا الظن وتضمحل

أمامها الحوادث التي نزلت به حتى كأنها لم تكن وكأنه فارس واقع في
ميدان القتال يحارب الاقدار ويريد أن يتغلب عليها . وهذه أنة من
حنينه وشكواه في ذلك

ياحبذا جرعة من ماء مخرية وضجعة فوق برد الرمل بالقاع
ونسمة كشميم الخلد قد حملت ريا الأزهير من ميث واضراع
ياهل أراني بذاك الحى مجتمعا بأهل ودى من قومي وأشياعى
وهل أسوق جوادى للطراد إلى صيد الجأذرى خضراء ممرع
منازل كنت منها فى بلهينة ممتعا بين غلمانى وأنباعى
إذا أشرت لهم فى حاجة بدعوا قضاءها قبل أن يرتد الماعى
يخشى البليغ لسانى قبل بادرى ويرعد الحيش باسمى قبل ايقاعى
ولقد تجده يصور لك هذه الذكريات وما كان بها من لهو ومجون
وسرور مما يدل على امتلاء نفسه وبذكرياته من صور الماضى من بؤس
ونعيم وكأنه كان يتسلى بذلك عما هو فيه من أهوال وابتئاس وحنين
على أيامه الماضية .

فتجده يسعد أحيانا بتلك الذكريات التي مرت به ومربها وتلك
الأيام التي عاش في محبوبتها وتمتع بلذاتها وذاق حلوها وتمل بنشوتها
وأوقاتها وكأنها نعيم مقيم أو سعادة أبدية .

فيعرض عليك مجالس الشرب وصور الشاربين وهم كالكواكب
سنا وسنا يتسابقون إلى المدام .

فى أباريق كالطيورا شرأبت حذر الفتك من صياح البزاة
ويينهم المفى المطرب الساحر بصوته ونغماته التي تنسى الانسان

آلام الحياة وتملؤه فرحاً وسروراً . وهو يرى أن هذه الأوقات هي
لذة العيش وملاك السعادة .

وأحيانا تسمح خلال تغنيه لسعادته الماضية نبرات آلامه ورنات
بؤسه وندمه على مضي هذه الأيام وفنائها وانغماسه الآن في البؤس وهو
تتناوبه ذكريات الماضي وشقاؤه الحاضر وتاعب به الأيام لعب النكباء
بالعود فيقول :

أدر الكأس يانديم وهات	وأسقنيها على جبين الغداة
شاق سمعى الغنا فى رونق الفج	ر وسجج الطيور فى العذبات
أى شىء أشهى إلى النفس من كا	س مدار على بساط نبات
هو يوم تعطرت طرفاه	بشمال مسكية النفحات
باسم الزهر عاطر النثر هام ال	قطر وإنى الصبا عليل المهاة
مسرح للعيون يمتد فيه	نفس الريح بين ماض وآت

ويدنا هو يمرح فى تلك الذكريات الماضية ينبعث فى نفسه حنين
إلى مصر والنيل صادرا من قلب مكوم ونفس ملأتها الحسرة ولكنه
حنين يدل على حبه الصادق لبلاده مما فى نفسه من تلك الصور الجميلة
تى تمر بذكرياته فى سلسلها صورة صورة ويزيدها جمالا بخيالها الجميل ويتغنى
بها أغاني جميلة مشجبة ويدكر أن الرجوع إلى وطنه أعظم أمنية له
فيقول :

وتدرج معى إلى روضة المنى	بل ذات النخيل والثمرات
بى مرعى الهوى ومغنى التصابى	ومراح المنى ومسرى الحياة
لقتها النفوس فهى إليها	من أليم الأشواق بالحسرات

تبعت اللهو والسرور وتمحو
بين زيمان كالسكواكب حسنا
يتساقون بالسكؤوس مداما
في أباريق كالطيورا شرأبت
حانيات على السكؤوس من الرأ
لازى العين بينهم غير صب
ومغن إذا شدا خلت أن الأ
ملك السمع والفؤاد بلحن
يبعث الصوت مرسلا فاذا ما
غرد يبطل الحديث وينسى
تلك والله لذة العيش لاسو
وقد يبكى في شعره على أيامه الماضية وهو في منفاه فيقول :

أبيت حزينا في سرنديب ساهرا
أحاول مالا أستطيع طلابه
إذا خطرت من نحو حلوان نسمة
وهيأت ما بعد الشيبية موسم
شباب واخوان رزئت ودادم
وماكنت أخشى أن أعيش بفرجة
وشعره في منفاه كثير يدل على ثوران نفسه وفورتها التي بعثت
فيه قول الشعر وكانت من أسباب افتنانه وسعة خياله والكلام على
شعره بقية

